

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتونس

السلسلة السادسة : الفلسفة والآداب مجلد عدد 21

التفكير البلاغي عند العرب أُسسُه وتطوُّره إلى القرن السادس

(مشروع قراءة)

تأليف
حمادي صمتو
أستاذ محاضر

منشورات الجامعة التونسية

طبع بالطبعة الرسمية بالمطبعة التونسية

1981

إلى والدي

والتي رُوح صهري « سي بوبكو » التي
غادرتنا وأنا أضع النملسات الأخيرة في هذا
العمل .

هذا الكتاب بعث أعلم صاحبه تحت إشراف الأستاذ الدكتور
عبد القادر المهيري لنيل دكتورا الدولة في الآداب وقد تمت
مناقشته بكلية الآداب والعلوم الانسانية بالجامعة التونسية يوم
25 افريل 1980 .

فلكل من ساهم في ابرازه على ما هو عليه جزيل الشكر والثناء

« أمّا بعد فإنّي أنا ، أيضا ، أنتهز
هذه الفرصة لأقرّر أنّ الدّراسات البلاغيّة
لا تزال تحيا في فلك المنهج القديم : علومه
ومسائله ، وأنّ هذا العلم في حاجة ملحّة
إلى وضع جديد أشار به السّابقون وأجملته
أنّا في غير هذا المكان ورجوت أن
ينفض به هذا الرّميل الجديد » .

أحمد الشّايب .



*« De toutes les disciplines anti-
ques, la rhétorique est celle qui
mérite le mieux le nom de scien-
ce ».*

P. GUIRAUD

المقدمة

استأثرت البلاغة بنصيب وافر من مجهود المهتمين بالتراث العربي فمُنذ القرن الماضي بدأت حركة تأليف نشيطة تسارع نسخها شيئاً فشيئاً حتى أصبح من العسير الإلمام بكل ما نشر في الموضوع بل إن المنشور جدير بأن يُجمع ويُقيم في بحث مستقل .

وقد مست هذه المؤلفات معظم جوانب البلاغة : فخصّص قسم منها لتبيين خطوطها الرئيسية ومسائلها الكبرى كالتاريخ لبعض مراحلها ، والاهتمام بأبرز مواضيعها ودراسة مصطلحها وعلاقتها بالتراث الأجنبي ، وخصّص قسم آخر للتعريف بأعلامها والكشف عن مساهمتهم في بلورة مسائلها وضبط مقاييسها ؛ كما لم يُغفل الدارسون صلتها بأوجه النشاط الفكري الأخرى كال تفسير والتأويل والإعجاز وحتى الفلسفة السياسية (1) .

ولا شك في أن هذه المؤلفات أسهمت إسهاماً كبيراً في تعميق معرفتنا بالعلم وأعلامه ولقّت النظر إلى المجهودات الحاسمة فيه ومدد الباحثين بأدوات عملي قيمة .

(1) انظر مثلاً :

Butterworth (Charles) : *rhetoric and Islamic political philosophy*, in, I.J.M.E.S., 11/2, avril 1972, pp. 87-98.

وقد صاحبت هذه الجهود في التأليف جهود أخرى ، لا تقلّ عنها قيمة
تمثلت في نشر عدد كبير من النصوص وإعادة نشر عدد كبير آخر نشرًا
علميًا يوفر على الباحث كثيرا من العناء والوقت .

إلا أن هذه الجهود لا تخلو ، على أهميتها ، من النقص ، فالآثار التي
تروم الإلمام بمختلف مراحل البلاغة نشأة وتطورا واكتمالا قليلة ، وما
اتجه منها هذه الوجهة بأشْر المسألة من زاوية تاريخية - حداثيّة أضعفت
جانب التأليف والاستنتاج ، كما أنها لم تعتن عناية كافية بالأسس التي
يقوم عليها التفكير في جمالية اللغة عند العرب ، فجاء جلّها تاريخيا للتأليف
البلاغي لا للبلاغة ولا يخفى الفرق بين الوجهتين . ومن ثمّ فشابهت هذه
المؤلفات في هيكلها العام وحتى في مواقف أصحابها من بعض المسائل
الجزئية ، فتراها تعيد النصوص نفسها وتوظفها بنفس الكيفية ، وهي
في كل ذلك تُعَرِّضُ عن استكناه مخزونها الفكري والأدبي فتبقى صامتة
مُغلقة على أسس النظرية الأدبية .

لذلك رأينا أن نهتمّ ، في عملنا ، بالبعد التاريخي ، محاولين ، قدر
الإمكان ، المزاوجة بين التحليل والتأليف والتركيز على المُشعّرات
الحاسمة في تطور العلم وبيان الترابطات القائمة بين مختلف حلقاته .

ثمّ إنّ هذه المؤلفات ، على كثرتها وتنوعها ، لم تتوصل ، في رأينا ،
إلى إقحام البلاغة في حقل العلوم الأدبية ولم نستطع أن نُفَسِّحَ بفعاليتها في
ممارسة الأدب وتقدمه فتعود إليها مكانتها السالفة باعتبارها نظرية في فنّ القول
تولدت عن ممارسة النص من جهة بيته اللغوية . لذلك تعالت أصوات تدعو
إلى تجديد النظرة إلى قضايا البلاغة في إطار تجديد النظرة إلى الأدب . ولعلّ
أوضح تعبير عن ضرورة تغيير منهج الدراسة البلاغية قول أحمد الشايب :
« أمّا بعد فإني أنا ، أيضا ، أنتهز هذه الفرصة لأقرر أنّ الدراسات البلاغية
لا تزال تحيا في فلك المنهج القديم : علومه ومسائله ، وأنّ هذا العلم في

حاجة ملحة إلى وضع جديد أشار به السابقون وأجمعت أنه في غير هذا المكان ، ورجوت أن ينتهز به هذا الرّاعيل الجديد » (1) .

وسببُ هذا التقصير يعود ، من وجهة نظرنا ، إلى غياب جدلية « التراث » و « الحداثة » في هذه المؤلفات وتصديّها للدراسة التفكير البلاغي ، في الغالب ، من منظور أحاديّ البعد يقع على هامش النقاش الجوهرى المطروح ، اليوم ، في أغلب التيارات النقدية الحديثة والدأثر حول إمكانية إعادة قراءة البلاغة على ضوء المكتسبات المنهجية الجديدة ولا سيما مكتسبات اللسانيات أو عدم إمكانية ذلك ، وبالتالي الإقرار بموت البلاغة وقيام « الأسلوبية » بديلا عنها .

ولذلك حرصنا ، في هذه المحاولة ، على مباشرة التراث من منطق التفاعل بينه وبين الحداثة قصد فهمه في ذاته واستجلاء أبعاد النظرية الأدبية التي يتضمنها ، ثم لمحاورة مظاهر المعاصرة فيه التي يمكن استحضارها ، اليوم ، للمساهمة بها في تغذية النقاش القائم ، حولنا ، في هذه القضايا . ولم تغيب عنا ، طيلة هذا العمل ، الصعوبات بل المخاطر الخافّة بهذا التوجّه لأنّ كلّ عمل ، من هذا القبيل ، مهدّد بالوقوع في ضرب من « الاستيلا ب » (2) الثقافي و « السلفية » الفكرية الجديدة إن لم نوفق إلى استخدام أجهزتنا المفهومية استخداما يحترم خصائص التراث والسياق التاريخي الذي يتنزل فيه والأسس المعرفية « الابدستيمولوجية » القائم عليها لا سيما أن المفاهيم التي نتوسّل بها مفاهيم شئت في منابت أخرى وتولدت عن تيارات فكرية وايدولوجية ورؤية للعالم تختلف عمّا هو موجود عندنا

(1) وردت هذه الفقرة في مقدمته على تحقيق حنّي محمد شرف لكتاب ابن أبي الأصم بدیع القرآن وقد نشر بالقاهرة سنة 1957 ، والمؤلف يشير بقوله « وأجمعت أنا في غير هذا المكان إلى مؤلفه الأسلوب وقد طبع أول مرة سنة 1939 . وهي أول محاولة في اللسان ، العربي للتغريب بين مسائل دراسة الأسلوب كما بدأت في أوروبا وقضايا البلاغة العربية . وقد دافع في هذا الكتاب بكثير من الحساس من أهمية اتصاغة والشكل في الظاهرة الأدبية

Aliénation (2)

وهي سببي مختلف عن الإطار الذي نشأ فيه التفكير البلاغي العربي من هذه
الجهة . ومن جهة الفاروق الرمي أيضا .

وحديثنا بغير التزمنا بحصر في استخدام هذه المناهج وكتبت في
هذا . الاستشارة بها لاستكشاف عوالم التراث . وتجدنا تلمسها عنه
وحده على معاصرة قسرا . وفي إثباتنا كلحة الأسس في معرب دس
على أن مشعلنا الرئيسي هو فهم ما يتضمنه التراث من نظريات وآراء في
ظاهرة الأدب والتصرف في اللغة على جهة الإنشاء بالدرجة الأولى .

وقد قمنا من الجمع بين الأسس والتصور توسيع آفاق البحث وحسن
أن يمتد عملنا على ستة قرون وهو إطارٌ بحيط بداية التفكير البلاغي
وبأقصى ما وصل إليه من صُنع واكتمال . كما نودعنا المصادر التي ستقينا
منها مادتنا فلم نقتصر على المؤلفات التي اشتهرت بمرعها البلاغي لتصرف
وحدود الاستمادة من كتب التراث الأخرى التي تناولت ظاهرة اللغة من
زوايا مختلفة ومن ثم قصمت آراء بلاعية يُشوي جمعها والتسويق بينهما
الموضوع .

وقد ترتبت عن هذا الاختيار صعوبات منها كيفية التوفيق بين
سفره تاريخية التطورية وما تتطلبه من تحليل وتدفق واعتناء بالجزئيات
ومطرة الآلية التأليفية التي تقتضي أن يركز الحديث على المواقف البارزة
والإصدارات الحقيقية . لذلك بنينا عملا على منهجية تحاول التوفيق بين
تأليف وتحليل وتكثرت دراسة التفكير البلاغي اعتمادا على فضاء هذه .
ولم نخرج عن هذا الالتزام إلا في القسم الثاني المخصص لمحدث لأنه
في اعتقادنا وضع الأسس الكبرى للتفكير البلاغي بحيث تهيئ الترت

هو سه تسليتهم مادته وتسحضر مقابسه . كما خرجنا عن عهد
 لا نقره في تحديدنا البداية الخامسة لفترة ما بعد الحافظ لأهمية بعض
 مصنفات فردية في التمهيد لظهور كتاب عبد الله بن المعتز « اسديع »
 ثم لأهمية هذا الكتاب ذاته لأنه أول من ظهر من عصر استعمال
 التأليف العلمي وهو صاحب دراسة وجوه البلاغة بصحيفة من صوطل
 سيكو . هـ بدو هذا أثر عميق في النقاد والبلاغيين المتأخرين



وتاريخ لأي علم من العلوم تواجهه ... في تصورنا - حملة من
 صعوبات لغوية والمهنية . لعل أشدّها عسرا ، وأولها دالتصكير والتدبير
 لاهتداء إلى المسلك الذي يمكن الباحث من إيراد ما يعتبره أساسيا ومن
 تحديد الفترات الخامسة في تطور ذلك العلم

وتردد تلك الصعوبة تبعاً للخبير الزماني الذي ينتزل فيه البحث ،
 إذ كنم مئات الفترة تشعبت القضايا وقد اخلت الأسباب واحتلظت كدبت
 لعلم بحرياته فندرق المقاييس التي تميز بها بين الفترات وقد تحتجب ،
 وينعش الناس منها بما يكون - ربما - أقلها حموى في صسط التحولات
 الكبرى (ا) .

وكان لا بدّ لدراسة أطوار البلاغة العربية على مدى يتريد على ستة
 قرون فيحتوي هذا العلم نشأة وتطورا واكتمالا من البحث عن نقطة ارتكاز

(ا) من طرق ذلك تحديد تصور في درج الأدب العربي فهو كثيرا ما وقع بالاعتماد على
 حذر ، ويجب ربط بين فترات الأدب والأمر الذي قد أدى ذلك إلى إهماله حدود
 مصنفه وعريقه أحدها منها بعض الباحثين وحلهم على العودة إلى ضرورة إعادة تنكير
 في منهج تحديد تصور الأدب . انظر مثلا

R. Blachère « Moments tournants dans la littérature arabe, Studia Islamica II, 1966, pp. 5-18.

تكون بمثابة مركز التثقل لتلك المحاور الزمعي الطويل ، تذلل : أمامنا بعض
اعتقدت وتقوم علامة بارزة تهديتنا في محاولتنا قيسى مقدار ما ساهمت به
التمرات ، قلها وبعدها ، في بناء العنم .

وتحدد نقطة الارتكاز تلك أمرٌ دقيق وصعب لا يمكن أن يقوم على
أمر صعبة المنهجية السبيلة ومجرد الافتراض لأنه ملتحم بتأولنا بسر العنم دته
وأول نتيجة . وربما أهمها . عن قراءتنا للتراث المتعلق به لتلك وجب أن
يقوم على مقديس من مادة البحث يعتقد الباحث أنها فحديمُ بصورة
موصوعية اختياره أو هي ، على الأقل ، تدعم اجتهاده وتنجو به عن
الارتجال والاعتباط .

إن جملة من العوامل الموضوعية ، نذكر بعضها ونرجي ، الحديث
لفصل عنها إلى قسم آخر من هذا العمل ، حملتها على اعتبار الجاحظ
(— 255 هـ) مرحلة هامة وحاسمة في تاريخ البلاغة العربية :

— فمؤلفاته تعتبر أقدم آثار . وصلتنا . لها علاقة بأذنين التعبير (1)
وهو كذلك ، صاحب أول تأليف يختص بدراسة الكلام البليغ وضوابط
استوى ، فتني من اللغة (2) ولم ينتصر هذا المؤلف على الأحكام العامة
والانطباعات الدوقية بل دعم ذلك بأسدى نظرية هامة وتفكير بلاغي يدلان
على أن جهوده ، في الموضوع ، تجاوزت مجرد الرواية والجمع إلى اسخلق
والابتكار .

ولهذه المؤلفات حصائص مميزة ، منهجاً ومحتوى . هيأتها لأن تكون
مصب قرون من النشاط اللاغي ومنجسج أهم انطباعات العرب لببانية
وأحكامهم وصورة عما كان يلور في عصره . من أفكار مسحتل لنا

(1) عبد المدر المهيري . النظريات اللغوية عند العرب ، درس ألى حل طلبة ه السريبر ه سحيد
لآداب ه قوس ه أسنة الساسية 1972 — 1973 .

(2) مقصد كنبه البيان والبيان . سحيق وشرح عبد السلام محمد هارون ه 3 نشر مؤسسة
الدراسي ، القاهرة (دب) وهي حبة في أربعة أجز .

ملاحظات معاصرة وبعض ملاحظات الأجانب الذين امترحوا بشقفة
عربية إسلامية (1). ولقد عدت مؤلفات الجاحظ - خاصة «بيان
والتيين» أهم وثيقة عن دور المتكلمين في إرساء أمس البلاغة وصسط
مقابسها (2).

كما أن الجاحظ مبيض الحث البلاغي - في مستوى تشبورات
سكري وحتى في بعض قضايا الجورثية - بضامه الخاص - وستكون مؤلفاته
أهم مرجع لعلماء البلاغة بعده تشير إليه وتشمل عنه وتشيد بعصده (3) فكانت

(1) نظر : مثل عسي - مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ - دار العلم للملايين ط 1
بيروت ، 1974 ، ص 9

(2) تشير في هذا التصدد إلى كل المؤلفات التي قرأها في الموضوع تعود في حديثها عن دور
معتزلة من مؤلفات الجاحظ - ونكتسي بذلك مثال واحد من ذلك لعله يوضح أهمية هذه
مؤلفات خاصة للبيان والتيين فقد أحسن شوقي صيف في انقسم المتخصصين بمشرونة
على مصادر قديمة إحدى وعشرين مرة استأثرت كتب الجاحظ بحسب عشرة - نظر البلاغة
لنظور ولاريخ دار المعارف بمصر - ط 2 - القاهرة ، (دت) ص 32 ، 49 .

(3) ويشد من ذلك - في ما نعلم - إلا إحدى من وجب الكاتب (أقرن الرابع) في كتابه البرهان
لي وجوه البيان ، تحقيق - أحمد مطرب وعديعة الحديث ط 1 ، بغداد ، 1967 ، حيث
يقول في ص 31 : «أما بعد ، هناك كتب ذكرت في وفوقك على كتاب الجاحظ الذي سماه
كتاب البيان والتيين (كذا) وألك وجدته إننا ذكر فيه أخبارا متعنة وعجب متعنة ،
لم يأت به مؤلف البيان ، ولا أتى على ألسانه في هذا الباب ، فكان صدقنا ولقت عليه
غير مستحق لهذا الاسم الذي نسب إليه»

وقد يعمل هذا على تفتله معروف في الحضارة العربية الإسلامية ، فالجواب المتأخر
بماول أن بعد مطما على المتقدم حتى يقتض ضرورة كتابه - وإلا فإنه - على اختلاف أقدسه
من التأليف - قد اساق وراء الجاحظ وقسم وجوه البيان قسمته وأكثر من النقل عنه وقد
تفعل متعنان إلى ذلك وأشارا إليه أثناء التحقيق (انظر ص 32) - ثم حتى هذا التحسين
فيه يد دلالة تاريخيه ذات قيمة متبادر أن كتاب «الجاحظ» هو أكتوب أبو حيد مختص
بهم موضوع أو أن - من الخصائص ما حبيب كل محاولات الأخرى - ب وجدت -
صا يتركه عن دور الجاحظ ومكانته في تاريخ التأليف البلاغي - ويذهب هذا رأي ب قبه
مسكري في الخصائص : تحقيق - صلي محمد البجاوي - وأبي انحصار امر حيم ، ط 2 ،
الدمرة 1974 ص 10 - 11 ، «وكان أكبرها وأشهرها كتاب «البيان والتيين» لأبي
عبد الله عمرو بن بحر الجاحظ وهو لمعري كبير الفوائد ، حم المنافع لما اشتمل عليه من تفصيل
شريعة ، وانصر الطبع والخطب المرائمة ، والأخبار المداغة وما جواد من أسعد حصص
ومد به عليه من مفاديرهم في البلاغة والخطابة وغير ذلك من هوية المتارة وبهونه يستحسنه»

ولا يسطح ابن قتيبة - خصم الجاحظ من وجهة معاكبه - و عموما -
انحصار بني تشابه وهو يشترض بعض أدائه - أن يجلت من سلف كثير من أئمة الدعوة
وأبيه عليه وإن كذا لا يلع في تفسيرها وتفسيره عبق الجاحظ ودقة بصره وعم وسه
في ستر من انحصار فكيفه لم تلظها عند سلفه - انصر على سلف المتكلم - تأويل مشكل
القرآن - نشر أحمد صبر - دار غيرات ط 2 ، القاهرة 1973 ص 13 ، 2 ، 1 .

هذه أدولفات بمثابة الذاكرة التي حفظت لنا أضوار العلم الأولى وفتحت
سبيلنا ،أيها كذا حفظت ملامح مما تلاهنا وتولّد عنها وبذلك تكون قد ومنت
بوضيعة مزدوجة : استقطابنا مسبق وتمثله ثم الريادة عليه ، ونشره ليستفيد
منه بالحق وببني تحليه .

لذلك رأينا أن نقسم هذا البحث إلى ثلاثة أقسام بحثنا فيها أن نحفظ
أحرّكز : ما قبل الحاحظ ، الحداث الشاحظي ، مما نعد الجاهل .

I - البَلَاءُ قَبْلَ الْحَاحِظِ
[التمهيد]

تعتبر هذه المرحلة أقلّ المراحل وضوحاً وأكثرها استعصاءً عن التصبُّح والدقِّيق لأنها تمثل طَوْرَ نشأة العلم وبداية التعرُّض لمسائله المحتشعة . وليست هذه الصبغة - في رأينا - خاصة بالبلاغة دون غيرها من العلوم العربية الإسلامية الأخرى . فلقد واجهت المشتغلين بتاريخها عقبات ولاقوا نفس المشاكل في تحديد « أوائلها » وتكاد الأسباب تكون نفس الأسباب : فمنها « يمكن أن نسميه « مبدئياً » يتعلّق برؤية المصادر التي نعتمد - وقد يشترك فيها عدد أو أكثر - إلى قضية النشأة ، ومنها ما هو حضاري عام يتمثل في قسمة الوثائق والمستندات التي نستطيع - اعتماداً عليها - أن نضبط خصائص هذه النشأة واتجاهها

أما الذخيرة الأولى فتعود إلى تعلق الروايات بمعرفة أول إنسان بدأ على يديه علم من العلوم ، وهي قناعة تكاد تكون السمة الغالبة على كتّاب الشرع ونصيبات ، حتى أنهم أوجدوا في تقاليدهم كتاباً تسمى « كتب لأوّل » (1) . وهذه الروايات - إلى جانب ما قد صادف لدى أصحاب من تحيز عقائدي يدعو إلى الاحتراز منها - لا تقع الداحض بسببها في الاعتقاد بأن العلوم تولد تولدًا عقائدياً في لحظة من لحظات التاريخ على يد شخص معين بدون أن تشير إلى ما سبق ذلك من عوامل مكنت العلم من

(1) - سرّ أمين : حولي إلى هذه المسألة في كتابه : « مناهج تجديد في النحو والبلاغة والأدب » معرفة ، ص 1 ، 1961 ، ص 101 . وأحد على كتابين بهذا العنوان - هذا كتاب الأوائل لأبي هلال العسكري والأوائل لسيوطي - انظر ص 103 إحداهما رقم 1

١٠ تموز في مرحلة من المراحل . هكذا قالوا في نشأة النحو على يد أبي الأسود
سدي (ت ٥٦ هـ) في تصوره العام وحتى في بعض القصائد الحديثة منه (١)

وتعنى الساجية الثامنة بقلة ما وصلنا عن هذه الفترة من مؤلفات وصحة
أصنافها محل بحث ، فما نحورنا بكاد لا يعطو جملة من الأحدث متفرقة
جمعت لنا بها كتب الأدب التي ألفت في عصور لاحقة وإشارات منهوتة
تقيم استحصائها من آثار - من هذه الفترة - ولكنها كتبت في أعراض
صنفي ، بلإعارة صالة عرضية فجاءت مسائلها على غير نظام وكثيرا ما وقعت
عبد حد لإشاره واللمحة وفي إمكاننا أن نجرم أنه لم يصلنا كتب محصن
للبحث البلاغي على كثرة ما أشارت إليه كتب الطغاة والتراجم من مؤلفات
قد نفهم من عناوينها أن لها علاقة بهذا العلم (٢)

- (١) نظر ابن النديم ، الفهرست ، ط. أوروبا ، مكتبة خيط ، بيروت (د ت) ص ٤٥
- (٢) يذكر ابن النديم في الفهرست بعيسى بن جليل ، مكتبة خيط ، بيروت (د ت) ص ٣٤
في باب « من ألفت في معاني القرآن وشكك وعجازه » مكتبي (ت ١٨٩) و لأحفش رب (٢٠١)
والرواسي (ت ١٧٥) ورواسي بن حبيب (ت ١٨٩) ونظرب (ت ٢٠١) ومؤرج السوسي
(ت ١٩٥) كتب في معاني القرآن ولكن يبدو أن أحده هذه المؤلفات لعوي بن نظرب ، اختصاص
مؤلفها واعتمادا عن نموذج من وهو كتب معاني القرآن للقراء (ت ٢٠٧) وهو مؤلف يقع
في ثلاثة أجزاء نشرت بمصر بين ١٩٥٩ و ١٩٧٣ فهو ، على أنه من تصنيفه في العصرين
بعض مسائل البلاغة ، وسبق ذلك في مكة آخر - بنتم كذب لغة حشولا بما يشوب القرآن
من قصائد متعطفة بالقراء ، والكتابات وغيرها - كتاب - آسيا ياقوت يذكر في مقدم
لأبيه من القاهرة ، ١٩٣٦ - ١٩٣٥ ، ٤/٢٤٥ ، ١٠٧/٧ ، كتاب ميجر القرآن
بقطرب وكتب الفصاحة لأبي حاتم قيس (ت ٢٥٥) وهي كتب لا يعرف
شبه ، وأرجح أن يكون كتب أدب لا كتب تعليل وجليل ، ومن كتب صناعة
الشعر عبد الله بن حمد بن حرب بن حمد أبي قتاد النهرمي شعوب شهر (ت ١٩٥) « يقع
بين أقدم تصدور أبي قد يكون لها صلة بالتصنيف والنشأة » (نظر خيل سدي ، دود حود
نصوص النظرية النقدية في القرنين الثالث وأربع المهرج - بعداء - ٢٦١ ص ١) وما
يريد من أهمية هذا الكتاب إشاره وردت عن لسان ابن الأسيدي في فوهة لأبي في طبقاته
لأبيه من مصر ، ١٩٩٤ ، ص ١١٧ حيثما أن الأواشي كانوا يطلقون على هذا الفن « بلاغة »
« صنف شعر » وهذه ملاحظة أخذوا عن غير مؤرخين فطور دراسات في
القرآن وأثرها في البلاغة العربية ، بعداء ١٩٧٢ ص ٣٤٥ ولكن رغم هذه الملاحظات
قد عدم عبار هذا الكتاب كتاب بلاغة بل من الأساليب ويصنفها ونوع مسائله
ومن هذا حيثما في الموضوع قد لا تتجاوز قيمة الكتاب قسما منها
ويجدر الملاحظة أن قد حذا شعر أحياء نحبه أمم عندما جرى محفوظه
بعض ، والتي كان يقضى ، من عوائده أو من شهادته القليلة فيها ، التي غلبت
نصوصه التي هي ، قد ذكر على سبيل المثال رسالة الفيرد رب ١٨٩ ، في بلاغة فهي أو
مؤلف ، حسب علم ، صريح الفصح بالبحث البلاغي أو هذا الفحص عن عيوب رصيف
عبد حرب وجمعها ١ ، المهرج : ١٩٦٥ ، شيئا من صغره خليم (لا بد على
صفحة) من صفة المحتوى قد نصت من مصومات عن بلاغة الشعر ودلالة الشعر
من صرف راقب مما فاته الفيرد نفسه في كتبه ، الأخرى

ونجد أن هذا التحري وراء أول من ألف في « البيان » أو في « نسيم »
 أو « في معاني » (١) أن بحث عن العوامل الثقافية والتاريخية والتجريبية
 عامة التي تعتمد أنها ساعدت على بلور التفكير البلاغي وأوجدت مساح
 سلائق مرور هذه المشاعل فحتمت الناس على التفكير في اللغة تفكيراً معبراً
 حساباً يترصد عناصر الحدود فيها ويصف الأساليب ويصفها معتمداً على
 ما سبق من تفصيل.

وبحث في العوامل لا يتمصل . رغم صلاته الوثيقة بمرحلة نشأة
 عن بقية الصور البلاغية مما قد يضطرون . احتجاجاً لأهمية هذا العمل أو ذلك .
 أن يتخطى حدود هذا التعميم مستعين بمؤلفات من فترات متأخرة بحيثين عن
 صدى هذه العوامل فيها .

وستعرض في مرحلة ثانية . المادة البلاغية التي تمخضت عن تفحص
 تلك العنصر في هذا الطور الأول

(١) هذا طرح من أبحاث منة التلحاه وسعده فيه المعاصرون . وكثيراً ما لاحظنا أن الأمر يتعلق
 بمرحلة من هذه حول أسبقية علم في من تقومون البلاغية ومب ذلك كما شر . بعد
 عطية ومن أقدم من رأى لديهم . في العصر الحديث ، هذا المرحل على النحو الذي كل
 يسر . باسم البلاغية شخص معين أشج أحمد الاسكندري في كتابه تاريخ أدب اللغة العربية
 في العصر العباسي ط ١ . مصر ١٩١٢ ص ٩٨ - ٩٩ .

١ - عوامل النشأة

أ - الشعر :

إن أهمية الشعر في الحضارة العربية الإسلامية باعتباره من أبرز خصائصها ومدخلا ضروريا لدراستها وفهم روحها أمر لا يحتاج إلى دليل . يكاد يجمع المهتمون بها على أن شأن الشعر فيها لا يوجد في حضارة سواه . وأنه قرأ أن مصدق في تاريخ الإنسانية الطويل قرأ اهتماما بأدبهم اهتمام العرب بشعرهم . ولا نمط في العيش داخل اشعر أغلب مستوياته من . وقع في بحيرة عربية حتى روى اشعر عن مشاهير مناسبتهم وشهد لبعضهم بأنه « أنقد من زمانه للشعر وأقدمهم فيه معرفة » (١) ويذكر الجاحظ . متحدث عن نفس شخص أنه « ما أكرم عمر بن الخطاب أمرا قص ولا تمثي بيت شعر » (٢) ولكافة الشاعر عندهم كانت الملوك والأمراء تقل شعاعهم . « بيت الشعراء قديما تشفع عند الملوك والأمراء ودوي قر سب . فيشعرون شعاعتهم وينالون الرتب بهم » (٣) .

(١) ابن رشيح . العمدة . ج ٤ . ١٩٧٢ ، ج ١ ، ٣٣ .

(٢) ج ٤ ، العمدة . ط ٣ . ١٩٦٩ . ٩٩٠/٥ .

(٣) ج ٤ ، العمدة . ٥٨١ .

ولا شك أن لذلك أسباباً ترتبط بمط حياتهم وبيئة مجتمعهم أوصت
بمصدر في ذكرها وتناقلها ألحلف منهم عن السلف . فلقد كان شعر
هم عنصر في نية مجتمعهم الثقافية ونمط التعبير الذي شعبهم عن التفكير
في نمط أخرى . فلقد كان كما يقول ابن سلام الحمصي (ت 231 هـ)
« عدم قوم لم يكن لهم علم أصح منه » (1) .

وبذلك نفس انطبعي أن يحتل تلك المكانة وأن يعلّقوا به جملة
لوصف التي بعثها . نحن اليوم . على الأدب والثقافة ومختلف وسائل
تعبير متوفرة لنا . فقد كان وسيلتهم التي قيّنوا بها مآثرهم وصوروا
حياتهم وما جدّ فيها من أحداث جسام وأصلا يحتكمون به في بقية
عومهم ، وقد أتى ابن خلدون (ت 808 هـ) على ذلك في قوله « واعلم
أن من شعر من بين الكلام كان شريفاً عند العرب ولذلك جعلوه ديوان
عومهم وأخبارهم وشاهد صوابهم وحضيم وأصلا يرجعون إليه في الكثير
من عومهم وحكمهم » (2) .

ولم تقتصر وظيفة الشعر على هذا فقط فعبّر عبّروا عن مختلف الموصف
والأحاسيس التي تعالجهم وعن طريقة كانوا يؤثرون في غيرهم ويحملونهم
على الحساسات ويغرسون فيهم أخلاقهم ويدأّنونهم على حسن الشيم (3) .

ونكاد لا نشك في أن العرب الأوائل كانوا مدبرين . ولو عن طريق
الانصاع والمطرفة . لجملة من خصائصه الشعورية ولا سيما ما يتعلق

(1) ابن سلام حمصي . طبقات فحول الشعراء . تحقيق وشرح محمد محمد باكر . القاهرة
1952 . ص 22

(2) ابن خلدون . المقدمة . طبع دار الكتاب الثاني . ص 1098

(3) ابن خلدون . المقدمة . طبع دار الكتاب الثاني . ص 1098
عبد السلام محمد دارود . خرافة العرب (د ت) ص 83 . نقد الشعر بدمشق . في حصر
تحقيقه أ . تريبياكر . لندن 1956 . ص 3 . عيار الشعر لابن حمص . ص 72
عبد حمزي . محمد رطليل سلام . ص 1956 . ص 4 . المصنف . 1671 . 9 . 72
27 . 40 . 49 . منهاج البقاء وسراج الأدياء لحارم بن محمد جسي . تحقيق محمد حبيب
مروحة . تونس 1965 . ص 249 . 252 . 294 . المقدمة . ص 1088 . دار

منها دهمية بعد اللغوي فيه والطرق التي يشكل حسبها هذا الفن بحيث لا تأتي بكن واحد منهم أن يكون شاعرا ، يذلل على ذلك مكية لمروية في خطبي بها الشاعر في السلم الاجتماعي واعتبارهم بآه محبوه من نوع خاص " تتمتع بقدرات خارقة على القطة بما لا يفرض به نفس ، ولتصنع في لعب وإقامة علاقات مع عالم الجن والشياطين

وقد جمعت المصادر حملة من الأخبار عن هذه الفترة تصمير ملاحظات تمثيل ، رغم تواضعها ، اللينة الأولى في العمل النقدي وإبلاغي وتشير إلى بداية الاهتمام بقضية الصياغة .

وقد بدت لنا هذه الأخبار متناوئة القيمة رغم انتمائها إلى عصر واحد ، فرأينا أن نقسمها لثلاثة أقسام بحسب أهميتها في موضوع بحثنا ودرجة نصح الأحكام التي تضمنتها .

— يقوم القسم الأول منها ، في نطاق المفاضلة بين شاعر وآخر ، على مجرد الانصبغ ، ويقوم التعليل فيها إن وجد — على عصر لا تتعلق بالشعر نفسه ، وحتى إن تعلقت به فلا يعدو ذلك لصيغة بلغوية المستعملة بعيدا عن كل تصور للفن الشعري والصورة الأدبية .

من ذلك ما تروى كتب الأدب عن أم جندب روضة مصرية القيس حين عرض عليها أن تقضي بين زوجها وعلقمة المحل فحكمت لعلقمة وقالت لزوجها : علقمة أشعر منك قال كيف ؟ قالت ، لأنك قتلت : (طويل)

فللموهر الثوب واللباق درة وللزحر مية وقع أخرج مذهب فجهدت مرسل سوطك في رجرك ومريته فأنعستة يسافيت ، وقتلت علقمة (طويل)

فأدر كنهن ثانيا من عيانه يمر كمر الرياح المنحلت فأدر كمره ثانيا من عانه ولم نصربه ولم يتعبه : (1)

(1) م. س. س. ، الموضح ، تحقيق علي محمد قجوي : دار النهضة ، مصر ، ١٩٩٢

هو صبح من هذه الرواية أن عُلْفَمَةَ تقوف على امرئ، تنفس لا
بسمه الشمرى وإنما تعبيره أكثر منه عن طبيعته الخياله الخائليه فوصف سرعه
حراره عطف قوائى : الأصالة : عندهم .

و نحن في هذه القسم لا نول أيضا ما يروى عن الناعمة السبيبي وقد
نصته العرب بحكم بين الشعراء لباهته . وما كان له مع حساب من ثبات
عندهم م برص هذا الأخير بحكمه ونظاير عليه مدعى أنه أشعر منه ومن
أحسنه . حين فصل عليه النابغة الأعشى وفضل النساء على بنت
جسبه . فثارت نائرة حسار ونظاير عليه مدعى أنه أشعر منه ومن النساء .
فقد به سابعة حيث تقول هذا : حيث تقول . (مؤيد)

لنا بجملة ما المرء يضمن «صَحْحَى» وأسيافنا بقصر من نجدة دم
ولدت بني نساء وأبسى محرو وأكرم بسا خالا وأكرم بن أدم
وقال له النابغة : «إلك شاعر لو لا أنت قللت عدد جفانك ومحرت بمن
وبنت ولم تمحر بمن ولدك . وفي رواية أخرى : فقال له : إلك قُتت
بجفانك فقتلت العدد ولو قلت الحصان لكاد أكثر . وقلت يضمن في
الصحى . ولو قلت يرقى بالدمى لكاد أبلغ في المديح لأن الضيف بالين
أكثر طروقه . وقلت . يفطرون من نجدة دم . عدلت على قلة القتل . ولو
قلت يجربن لكان أكثر لانصباب الدم . ومحررت بمن ولدت ولم تمحر بمن
ونسك . مقام حسان منكسرا منقطعا (1) .

فهذه رواية - وغيرها - (2) تدل على بداية الترمي بصروقه بطلاق
أحده من شعر نفسه بالمشتر في خصائص لغته . والافتتاح بأن لأحد

(1) من شوقي - البلاغة تطور وتاريخ . ص 13 وانظر أخبار حسان واليه
سهي الأغانى . مكة الحقة . بيروت . (د .) 294 وما عدى 330 .
من شعر جعفر . نقد الشعر . 25 - 26 . ورواها الأخير جده . المدح . حسان
شعره حكمة فاعله .

2 من شوقي صيف . فلك . المدح عن 11

وإن كانت من نفس الحيز الدلالي فإن بعضها ألصق بالموضوع من بعضها
 لآخر وأكثر ملائمة للمعنى الذي قصده الشاعر ومن هنا أثبت ضرورة التفكير
 فيها وحتبارها طبق المرحل .

٢- تقسم الثاني فجملة أحوار تدل على تفتن الشعراء من ضرورة
 العهد بصيغته نفسه وتفتح الشعر وتصنيفه حتى يكون الكلام د صبح ميسر

وفي هذا وعي غامض لا محالة - بأهمية عصر الاختيار في العمل
 لشعري ، وتحاول لقوة القطرة والسليقة في الأدب العربي ، وقرر صهي
 بتدريس الكلام في التصانيد ، وأول مظهر من مظاهر التمرد في الأدب
 ونحن ، يؤكد تجمع المصادر على أن ذلك كان نزعة قارة عند بعض الشعراء
 لجههين ويدعو أن زهير بن أبي سني كان رأس هذا المذهب ورعيه .

يقول الجاحظ : ، ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث
 عنده حولا كريتا وزمنا طويلا ، يردد فيها نظره ويحيل فيها عقده ، ويقب
 فيها رأيه نهاما لعذله وتبعها على نفسه ، فيجعل عقله رماما على رأيه ، ورأيه
 عيارا على شعره ، إشفاقا على أدبه ، وإحرازا لما خوله الله تعالى من نعمته ،
 وكانوا يسمون تلك التصانيد الحوليات والمقلدات والمتحدثات ،
 والمحكيمات ، ليصير قائلها فحلا خديدا وشاعرا معلقا (١)

وقد ذكر ذلك في أشعارهم ، وهو لا شك يدل على درجة من الوعي
 متصورة بأن يجعل الشاعر الخوض في هذه القصيدة موضوع شعره

فمن شعر كعب بن زهير : (طويل)

فمن نقواني شأنها من يحسوكها	إذا ما ثوى كعب وهو حرور
كسئت لا تلقى من الناس واحدا	تخل منها مثل من تخلص
تشمع حتى تلبس مؤونها	فيقصر عنها كل ما يمش (٢)

(١) الجاحظ : البيان والبيان ، ٩/٢

(٢) أبو الفرج : الأعاني ، ٣٣٩، ١٥

ومن شعر الخطيبه - (مقارب)

بحسب سبي همدانك المليك فان لكل مضام مقالا ()

وحدوث ذلك كان شأنهم في نصريف شؤونهم الهامة فهم يحرسون
على صيغته فكما هم وانعير عنها في أحسن صورة تنصهر فيها الوسيه المعوية
مع فكره نصهارا فخرج للناس مصفاة كأنها أفرعت إفرأغا واحدا .

« وكبوا إذا احتاحوا إلى رأي في معاطم التدبير ومهجات الأمور ميثو
لكلام في صدورهم وقيدوه على أنفسهم فإذا قومه الثقافة وأدجن الكبر وقدم
على محلاص ترروه محكما متحدا ومصفى من الأدناس مهدية (2)

ولقد دفعت هذه الظاهرة . عند العرب الأوائل ، العلماء بشعر
ومدعته منذ التقديم إلى رفض الفكرة القائلة بأن الشعراء القدماء كان
يأتيهم الشعر عن الموهبة والقطرة ، وبوأوا الدربة ، مكانة هامة في مقديس
لثقوفيه ، وأضافوا إليه النظر إلى فصاحة الكلام والمعرفة بأساليب تقوى
وفنونه . فيقول ابن رشيق : « العرب كانت تنظر في فصاحة الكلام وجزائه
وبسط معنى وبراره وإتقان بنية الشعر وإحكام القوافي وتلاحم الكلام بعضه
ببعض » (3) .

وقد بالغ البعض منهم في تقرير هذا الجانب فرغص ، أو يكاد ، دور
لفصرة والموهبة وأرجع قور الشعر إلى معرفة قوانين النظم وحلق وسائل
بصاعده « لم أحد شاعرا مجيدا من شعراء الجاهلية إلا وقد لزم شاعرا آخر
منه صوبه وتعلم من قوانين النظم ، واستعاد عنه الدربة في أنحاء نصريف
ملاخية » (4) .

(1) المبرد : الكامل ، ص 147 مكية المعروف (2) (3) 357/1

(4) مدحهم البيان والبيان : 147/2 .

(3) ر . ثبو : النملة : 129

4 . مدرم : مرطحي . مناج الطناء . ص 12

أما تقسم اثالث من هذه الروايات فهو أكثرها صراحة في الاستدلال على مدح الشعراء وأعمقها دلالة على إدراكهم لخصائص الشعر نبي نقوم .
 ثم على القسمة على صياغة الصورة الفنية . وإن كان ذلك لم يتجوز
 في عمق التشبيه . وهو أقرب درجات التصوير الفني وأكثرها انتشاراً
 في شعر عربي . إلا أن ذلك لا يمنع من التأكيد على أهمية تفحص هذه
 لأمر خاصة في تلك الفترة المبكرة .

من ذلك ما كان من أمر زهير مع ابنه كعب وإشفاقه عليه من قول
 لشعر صبي . فلهذا كان يمنع من ذلك لأنه لم يكن متأكداً من قدرته عليه
 عندما رآه بعيد الوصف ويدقق التشبيه سمح له بتعاطيه (1) .

وما يحكيه -- ابن قتيبة - (2) عن طرفة وكيف تفرحت قدرته على
 الوصف ، وكان صبي . أثناء رحلة صيد فتوقع من معه نبوغه الشعري .

ويروي الجاحظ (3) أن عبد الرحمن بن حسان الأنصاري قال وهو
 صغير : (بسيط)

لله يعلم أنني كنت مشتعلًا في دار حسان أصعد أبيه
 وقب لأبيه وهو صبي -- ورجع إليه وهو يبكي ويقول لسعي صائر ! قال :
 فصعدني يا بني قال كنه ثوب حبرة قال حسان . قال أبي شعر ورب
 لكعة .

فبين من هذه الروايات أن العرب تجاوزت مجرد التذوق والانفعال
 في مدح الشعراء في تعلم الشعر بالبراعة في صياغة الصورة الفنية . ولكن بدون
 أن يتجوز ذلك إلى دراسة منظمة وتحليل وتعليل لهذه الصور والأساليب .

(1) ع. ب. مظهر الأدي . فرائد الغناء : ص 100 . نقول : مظهر الأدي . مكنه كعب .
 القاهره 1970

(2) ابن قتيبة . الشعر والشعراء . ج 1 . ص 188 .

(3) الجاحظ . الجحول . ص 65 .

تعريف بها والإشارة إلى أسباب الخس . وهي مباحث لم تهيئهم حينئذ
 عند سيطرة في ذلك الوقت إلى حوزتها مما يستوثر لغيرهم لدفعه لحوادث
 أخرى تحدث في المجتمع العربي الإسلامي .

و بعد توصيل الاهتمام بالشعر في العصور المتأخرة . وكانت الجهود
 إسلامية شائعة تستعين من الوجهة التي تناسب موضوع بحثها ، ومن
 أشهر من هتم به في الفترة التي تهمنا : طبقات اللغويين والبحا ، وعد شـ و
 رحاب ، في مختلف التباثل يروون عنها الشاهد وامثل ، ويقبلون ذلك في
 نقد ما يسمى في تاريخ العلوم اللغوية بحركة الجمع . ولقد أدت اهتمام
 هذه الجماعة بشعر في وقت مكر إلى جملة من النتائج سيكون لها أبعاد لأثر
 في تاريخ البلاغة والنقد عند العرب .

ونعل من أهم تلك النتائج انصلة الوثيقة التي أقاموها بين النشاط اللغوي
 وبين العمل النقدي باعتبارهم أول من شارك مشاركة جدية — نسيباً — في
 إقرار جملة من المقاييس التي يقوم عليها . ولا يستبعد أن يكون اندماج لغوي
 بذئ أصبح سمة من سمات النقد العربي البارزة أقام من هذه المرحلة — طلبة
 القرن الثاني وبنية الثالث — حيث كان اللغويون يتصبون حكاه على شعر
 وأشعر ، وأحدونهم سقاييسهم ، الصلبة . ولقد كان لغويون كآبسي عمرو
 بن العلاء وبن الأعراسي والأصمعي طرفاً هاماً في ما حدث من صراع بين
 القدماء والمحدثين ، ونقد تولوا هم التوقف في وجه تيارات التجديد الوليدة
 في ذلك الوقت ، ودافعوا عن النوق العربي القديم والصيغة الشعرية وأقرو
 سادى ، التي تقوم عليها ، محاولة الشعراء ، ليكون للشاعر على غيره ، مزية
 كمرية يصر على الحقيقة (1) . ولقد أورد ابن رشيق مجموعة كبيرة من
 الأحبار تنعق منهم هؤلاء لفحولة ، خاصة الأصمعي (2) وموقفهم من

موسى (1) ورغم تدهور النقد منذ زمن مكي إلى خطورة اللعوبين على الشعر .
وتعنى أحكامهم بأغراض منه ليست من جوهره ، وعلى أساس ذلك يفسرو
موقفهم من مؤلفى . بل إن منهم من لو لم يعقد الخياء لسانه لذكر من عيوبهم
ما لا يتصور . ولم أر غاية النحويين إلا " كل شعر فيه إعراب ولم أر غاية
روى الشعر إلا " كل شعر فيه عيب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستحسان
و لا أن يكون عيباً به للعلاء خاصة . بصورتك في هذا الكتاب بعض
ما سمعت من أبي عبيدة . ومن هو أبعد في وهمك من أبي عبيدة . (2)

رغم كل ذلك فإنهم استعادوا من حركاتهم استعادة كبيرة وأسسوا
على موقفهم كثير من آرائهم في قضايا الشعر والنسب (3) .

وم يقف الأمر عند هذا الحد فقد أسهموا في تشكيل السوق الأدبي
عند العرب بصفة عامة وسرى معمول ذلك إلى وقت متأخر جداً . وصل إلى
مشارف القرن السادس وذلك على مستويين على الأقل

مستوى الأول في ضرورة السج على منهج التقدماء انطلاقاً من تحديدهم
بمصلحة والتفوق . وربط ذلك جغرافياً بالقائل التي لم تداخل بفنهم بمجسمة
ولفساد وتاريخياً بحدود المصنف الأول من القرن الثاني . مما يعني أنهم ردوا
ذلك أساساً بالشعر وعلى ضوءه حددوا المقاييس اللغوية التي يجب أن يتوجه
شعره . محدثون . ومحتاماً الأساليب التي يجب أن يأخذ بها الشعراء
أنفسهم ولا يعتقد أن رأي الحليل - وهو رأي يدل على تقصيره في فهمه نص
شعر وحريته للشاعر فوق ما يقرر اللغويون - القائل . " الشعراء أمرهم الكلام
بصرفه أنى شاءوا ويحور فهم ما لا يحور لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده

(1) - ريشير العدد 90، 91 .

(2) - السج والبيان والبيان 24/4

1 - بكفي . بل على ذلك أن نرجع إلى كتابي " السج والبيان والبيان " .
منه من الأعلام النسخة التي ألحقها عبد السلام دار . بالتحقيق

ومن تصرف اللفظ وتعقيده ومدّ المقصور وقصر الممدود والجمع بين لهاته
وتفريق بين صفاته واستخراج ما كُنت الألسن عن وصفه ونعته والأدهى
من فهمه وإيضاحه فيترنون البعيد ويعنون القريب ويحتج بهم ولا يحتج
عليهم» (1) أنه كان مجموعاً في تلك الجملّة التي أحدثها اللغويون غيره حور
لشعر والشعراء .

أما مستوى الثاني الذي يبرز فيه تأثيرهم العميق في الذوق العربي فينشئ
في لأهنية البائعة التي حظي بها التشبيه كقسم من أقسام الصورة نمية هي
تأريخ البلاغة والنقد .

ولا شت أن اللغويين لم يختلفوا ذلك اختلاقاً ، فلقد كان ، لأسباب
تعود إلى طبيعة نشأة المستوى الفني في اللغة ، واعتبار التشبيه ثوى درجات
ذلك المستوى (2) ، غالباً على شعر التداوى مما جعله يلقت انتباه هؤلاء اللغويين
وعلى أساسه أقاموا معظم تصوّرهم للفن الشعري بل أقاموا على أساسه تعريفهم
للشعر (3) . ولقد بين لنا البحث في مختلف المصادر التي اعتمدها في هذا
العمل أن التشبيه كان من أوجوه البلاغة الأولى التي وقع صلبها وتحديد
أقسامها ووطئها وتحديد الجيد منه والردى .

ولكن لا بد أن نشير إلى أن دور اللغويين هذا ، رغم أهميته ، جاء
عرصاً ، لأنّ ذلك لم يكن ما يعنيه من الشعر بالدرجة الأولى ، لذلك لم تشر
درستهم به معطيات وأصحة تتعلق بالبلاغة ، ويشمل هذا الحكم طبقة
لغويين ، لأوائل الذين لم تصلنا منهم مؤلفات كاملة فيها تفكير متواصل في
قضايا اللغة وتخريج مختلف ما طرحت مادتها العريضة التي تجمعت لديهم

(1) حارر بن مطاحسي ، منهاج البلاغة 143 - 144

(2) أنظر

Marcel Cresset *Le style et ses techniques*, Tème éd. PUF 1971, pp. 61

1. محمد حبيب عصور الصورة الفنية في التراث البلاغي والنقدي ، القاهرة 1974 ،
ص 201

وهو عمل سنوي به فريق آخر من اللغويين يصدر من آراءهم في محل آخر من هذا البحث بعد أن تنتهي من استعراض الأساليب .

ب - القرآن :

لاشك أن رسول القرآن أهم حدث جد في تاريخ الشعوب العربية والعربية الإسلامية فيما بعد . ولإبراز قيمة هذا المعرج التاريخي أحسنه أنصق به بعض المهتمين بالحضارة العربية من المستشرقين لمفهوم الحدث (1) حتى يدلوا على الأثر العميق الذي خلفه في طابع هذه الحضارة والدور الأساسي الذي لعبه في تحويل معنى حياة الشعب الذي برز عليه . على المستويات كلها .

ولقد احتوت هذه الرسالة السماوية من الخصائص ما يميزه عن كل ما سبقها وهياتها لتلعب دوراً حضارياً لم تقم بمثله الكتب المترجمة الأخرى ، ومن أكرم خصائصها ، بالإضافة إلى جمعها بين البعد الروحي العقائدي وبعد دنيوي مدني ، أنها اتخذت من شكلها اللغوي حجة لبوة الرسوب بشي صعبه ، بحيث ليطلع عنه ، فكانت معجزة من خصائص اللغة في رسالة وجودتها . زيادة عما يحتويه من أخبار عن العيب وقصص عن الأمم السالفة ترد على لسان رجل أمي لا يعرف القراءة والكتابة (2) . ومن فحواه من نزل عليهم ، وهم ما هم قدرة بيان وطلاقة لسان . أن يأتيوا بشيء مثله (3) فأذعنوا به بمرصوا (4) . ولم تستطع ردود الفعل الأولى اترافضة لهذه الرسالة ،

(1) راجع

R. Blachère *Introduction au Coran*, Paris, 1968.

(2) راجع بعض المستشرقين مفهوم « الأمي » تأويلا غير معهود ، دعوا « انفسدوا » على غير معنى التاريخي ، إذ أن هذه الكلمة كانت تعني في ذلك الوقت وفي هذا الحيز الجاهلية « من لم يقرأ » تأويلا غير معهود ، انظر « كتاب التفسير » ج 2 ، ص 24 .

(3) راجع « القرآن » ج 1 ، ص 38 ، الجزء 23 ، 24 ، الإسر 38 .

(4) « سورة » السجدة « في تعريف المعجزة » المعجزة في كتاب « شرح » ، ص 24 ، راجع « سورة » السجدة « في تعريف المعجزة » الاتفاق ، ص 370 ، 16/2 ، ما نسبته لـ « تفسير » ، وما به ، فراجع

G E V n Gronebaum *Fajaz*: E.1 2; 1044 1046

كثير من عصف . إلا أن تقرّ بحصائصه الأسلوبية المميزة وتسلم بها وير
نصها . مسيرة ليار الرقص ذلك . بشعائر تعبيرية تقرأ منها القرآن على
محمدي

ولقد عدا القرآن المصطف الذي تدور حوله مختلف المجهودات الفكرية
وعدائية للمسلمين . ومنطلق تلك المجهودات وغايتها في نفس الوقت ديهت
ونه ستصاح . بإشارة ذكية من أحد أقطابه وهو عبد الله بن عباس . أن
يحتوي شعر . وهو ذاكرة العرب وصفاتهم التاريخية بحياتهم فيه . وروية
أهزلة موسية ولأداة التي تدعم ما جاء فيه وتقوم مقام الشهادة للغة بأبها
جاءت على لغة العرب . ولقد قال ابن عباس : إذا تعاجم شيء من القرآن
وبصروا في الشعر فإن الشعر عربي (1) وتدور لغة تهيش شعر . في
رثيا واضحة في تقسم الأخير من هذه الرواية . وبهذه الطريقة رُحزح الشعر
عن المنزلة التي كان يحتلها في المجتمع وحل منه فرعا من فروع معرفة يحدم
هذا الأصل الجديد الذي ستؤسس عليه مختلف علومهم ومعارفهم .

وبالفعل فستقوم حول القرآن ومعه حركة نشيطة تتصل بجملة المناكر
التي صرحها مجيئه في ذلك الوقت المبكر . وسيكون الأصل في تهور العديد
من العلوم للإسلامية التي نعرها اليوم . خاصة ما يتصل منها بلغته وانعكاس
ذلك على اللغة العربية عامة فسارعوا إلى تقنينها وضبطها خدمة له وخوفا من
أن يصيبه غسد سمعول عوامل تاريخية موضوعية باعدت بين فصاحة اللغة
وصحتها ولأقوام الجديدة التي ضمت صحتها بمعون تلك الفصاحة كتب
قامت دراسات لغوية أخرى . نتعرض إلى بعضها في هذا البحث . ذات
هجة دوعة مخشمة . تربط بين أماليه وأماله العرب في القرون وتروم
إعادة على استكناه معانيه وأحكامه انطلاقا من مدلول لغته والهيئة التي
وردت عليها .

1 - محمد : المجالس 317 : وجمرا . معاني القرآن 1/289 - 290 .

و لكن أهم جانب فيه ساعد على ظهور التفكير البلاغي هو جانب
متصل بقضية الإعجاز .

نقد سبق أن قلنا إن حركات الرقص الأولى وقت بروز الدعوة ، بدت
حادث كونها سلمت علناً يتفوقه البياني واللغوي ، سرعان ما خمدت صوته
في خصم الخماس والإبحار بهذا الدين الجديد والجري وراء شرف الانتساب
إليه ومصاحبه ، أشرف المرسين ، فلم تكن بالمسلمين في البدء حاجة ، في تير
المتحدثي المصاري ذلك . إلى تحليل مقومات روعة الكتاب وتعبيراته ، ثم
م تكن لهم الوسائل والقدرات العلمية الضرورية لنوع ذلك بقصد ومن
أرادوه ، فلم يرائوا تحت وصاة الانقطاع والانفعال الذي حللهم فيه ، يمكن
أن نسميه « بالدور الشعري »

ولكن بمرور الزمن وبمفعول جملة من العناصر اللاصقة بمسار الحضرة
الإسلامية المتشعب المتداخل . برزت الحاجة إلى ضرورة تأسيس قضية الإعجاز
تحت على أسس عقلية وتحليل وتعليل يمكن أن يقوى أمام حجج الخصوم ،
وقد بدأ عددهم يكثر ، فظفرا لما أرادوه الإسلام لنفسه من انتشار أفقي وعمودي
في نفس الوقت . ونشير هنا إلى أنه لا يهم - في تصورنا - وجود هؤلاء
الخصوم ووجوداً فعلياً بقدر ما يهمنا وعي المسلمين بذلك وقبلة كإفراز من
قرارت تطور حضارتهم لا يستطيعون له دفعا . ولعلنا نميل إلى أن ذلك كان
من نتائج جدية الإسلام مع نفسه أساساً ، أما الأشخاص والبرعات التي عثرت
معرفة بقدر كان باستطاعة الإسلام والمسلمين ، لولا هذه الحاجة بدئية . أن
يشغور منهم بوسائل أخرى . وهذا ما وقع بالفعل في أحياء كثيرة

وكانت ، إذن ، قضية الإعجاز في صدارة مسائل الاحتجاج للسنة
بمفعول هذه الضرورات التي ذكرنا . تحول الجناح في نص هدم وهدم
بمختلف العوامل التي أدت إلى الاهتمام بعلامات النبوة ، إن سلف
جمعهم يترتب في المصاحف بعد أن كان متفرقا في الصدور . ومن جملة

من على وراءه ويد بعد أن كان غيرها مطلقاً غير محظور ، والذين حصوه
ومعوه الزادة والتقصا ، لو كانوا جمعوا علامات النبي صلى الله عليه
وسلم وبرهانه ودلائله وآياته ، وصوف يدانعه وأنواع عجزه في مقدمه
وطعه وعبد دعيته واحتجاجه في الجمع العظيم ، وحضرة العدد كبير الذي
لا يستصعب شئ في حرهم إلا الغبي الجاحل ، والعلو المائل ، وكما استصرح
يوم أن يدفع كبرها وصحة محبتها لا زندي جاحل ، ولا ذهري معاند ،
ولا متصرف مدح ، ولا ضعيف مخلوع ، ولا حدث معروف ، ولكم مشهور
في عوم ، كشهرة في حواصنا ، ولكان استصار جميع أعيان في حضم
كاستصارهم في ناطل نصارهم ومجوسهم ، ولما وجد الملحد موضع صمم
في غسي بتميله وفي حدث بحوه له ولولا كثرة ضعفاء مع كثرة لدخلاء
فيه ، الذين نطقوا بألسنتنا ، واستعاروا عقولنا على أعياننا وأغمارنا لما تكلف
كشف الباطن وإظهار الثار والاحتجاج للواضح : (1)

فقد وجدت إرد ، أسباب دابة وأخرى عرسية ، دفعت معكري
لإسلام المتأخرين إلى الرجوع إلى النص القرآني ودراسته دراسة تقوم على
لدليل العقلي والحجة الدامغة .

ولقد كان - المتكلمون - خاصة المعتزلة - وأصحاب الفرق الإسلامية
هم مهياون تربيخي ، للقيام بهذا الدور والدفاع عن الإسلام دوما لم تعد
تكفي فيه حرمة الإيمان

وستستعيد البلاغة العربية من ذلك فائدة كبرى وستكون بيئة المعتزلة
خاصة والمتكلمين عامة إحدى البيئات الرئيسية التي يشأ في طلبها التفكير البلاغي
ويشرع ذلك على مستويين رئيسيين :

(1) ما يتعلق بقضية الإعجاز وتأويل بعض المعتزلة لذلك وما شأ عنه
من ردود فعل تواصلت إلى وقت متأخر جدا بل إلى العصر الحديث (2)

(1) المحقق : وسائل ، ط : الموسس مصر 1933 من 119 ، داطر أنصاري مع : موضوع
مصر 145 - 146 ، انظر : من فقه : تأويل مشكل القرآن : من 1 ، 8 .

(2) انظر : مصطفى صادق الرافعي : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : القاهرة ، 1925

(2) ما اضطر إليه المعتزلة من تأويل لكثير من الآيات التي يتفق صحتها مع أصولهم العقائدية - خاصة مبدأ التوحيد - فحملوا هذه النصوص على محذور وأصبح هذا المظهر اللغوي الموضوعي دعامة لمبادئهم مما جعلهم يهتمون به ويميضمون في شرحه

أما بالنسبة إلى المستوى الأول فسنرى اعتمادا على ما بين أيدينا من مصادر ، أن أقدم آراء في الموضوع تعود إلى رأس من رؤوس المعتزلة ، برهيم بن سهر سصم (ت. 232) ورغم أننا لا نعرف له مؤلفا يحتوي آراءه في الإعجاز فقد نشرت انتشارا كبيرا وتكاد تكون المؤلفات اللاحقة في موضوع ردّ صبي رأيه وتقنيها له وبياناً لتهافتة . سواء كان ذلك بصفة مباشرة أو غير مباشرة ، وحصل قوله أصنق عليه في سياق الحديث عن إعجاز القرآن « بصرفة » ومعناها أن نظم القرآن وثأيقه في قدرة العباد لولا صرف الله همهم عن ذلك . ولعل من أكثر النصوص توضيحا لهذا الموقف ما ورد عند أبي الحسن الأشعري - في نطاق استعراضه لمن قال إن إعجاز القرآن في نظمه ومن لم يقر بذلك : « واحتلموا في نظم القرآن هل هو معجز أم لا ؟ على ثلاثة أقارين : فقلت المعتزلة - إلا النظام وهشام الفوطي وعبد بن سليمان ... تأليف القرآن ونظمه ومعجزه ، محال وقوعه منهم كاستحالة رحبه اموتى منهم ، وأنه حتم لرسول الله صلى الله عليه وسلم

وقد نظم . الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الأنوار عن الغيوب ، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد ، لولا أن الله منعهم وعجز أحدثهما فيهم .

وقد هشام وعشاد : لا تقولون إن شيئا من الأعراض يربى على الله سبحانه . ولا تقول أيضا إن عرضا يدل على بوة النبي صلى الله عليه وسلم . وم يحصل القرآن علما للنبي صلى الله عليه وسلم . ورعا أن القرآن أعرض » (1)

(1) سهر سصم ، الأشعري مقالات الإسلاميين ، مطبعة مسعدة مصر 1323 هـ ص 229

و واضح من هذا النص أن هذا الرأي كان شاذاً ذاك أن اعتبره
نفسهم مباحه به وليس مستبعداً أن يكون إثبات الحافظ لكلمة «الضمة»
في عيون كده التي لم يصلنا (1) طريقة للرد على هذا الرأي وإن كان
موقف ربح في الموضوع بكنهه كثير من العموص لتضارب بعض بصوصه
نوزعة على جملة مؤلفاته (2).

و مهم من كل هذا أن رأي النظام قد دفع علماء المسمين على اختلاف
مذاهبهم ونهجهم إلى انحصار في مسائل نصت على خصائص النص القرآني
بما وثق كيت مما سيكون عظيم الفائدة بالنسبة للمباحث البلاغية وسيحقق
بهجاء في التأليف يكون رافداً من روافدها الكبيرة . وليس من المبالغة في شيء
أن نقول إن الدراسات التي تحركت من هذا المطلق العفائي ستثمر عن
أهم نظرية - برجماع الباحثين - في تراثنا البلاغي : نظرية العظم .

ومن الأمور التي تستحق الذكر في نطاق هذا الاستعراض السريع لأراء
بعضهم أن يذكر - حسب ما تشير إليه بعض الدراسات - أنه أول من فصل
في سياق مناقشة قضية الإعجاز ، شكل القرآن عن مضمونه فأصبح مصطلح
إعجاز ، من وقت مكر ، يطلق على جملة الخصائص البيانية والبلاغية
واللغوية العامة الماثلة في هذا النص (3).

وستنتهي المؤلفات ، بعده ، أثره وتنتهي نهدي هذه السمة منحصص
أكبر قسم منها لدراسة هذا الجانب ، ومنها ما سيملى الإعجاز به دور هو .

(1) مصر : دار حفظ الحيوان - 9/1 ، 86 ، 3 ، انظر د. أي. ليقلاني في هذا الكتاب ، عجز
القرآن ، تحقيق أحمد صقر ، ج 3 ، مصر 1972 ، ص 6

(2) مصر : دار الخرج ، تطور دراسات إعجاز القرآن ، ص 225 وما بعده ، يقول
«... في كتابه الفرق بين الفرق ، تحقيق محمد زاهد كوثري ، دار العرب ، مصر ،
عام 1978 ، ص 80 ، وأكثر المعركة معصون على تكبير نظام ، و... في صلاية
مردية من مديرية ، كذا كوثري ، و... حفظ ، وفصل الخلدني ، و... مع محنة
كر و... في بعض صلاية ورادة نصهم عليه »

(3) انظر (G. E. Von Grunebaum) ، مقال « دائرة العرف » المذكور ص 144 .

و حيث تحولت هذه المؤلفات في غالب الأحيان إلى كتب بلاغة لا يبرها
عيب إلا حضور المعاد العائدي مطلقا وعابة وما اصطعب به لتجديد من صفة
دفعه واضحة (1) .

أما المستوى الثاني فإن دور المتكلمين والمعتزلة لا يتمثل في احترامه
و منه عنه فليسوا أول من تفضل إلى هذا الجانب اللغوي ولم تكن آراءهم
ومولفاتهم أول ما وصلنا في الموضوع ، ورغم ذلك فإنه باستحضار آراءهم
، بهم أول من تحدد على أيديهم هذا المصطلح وصطت دلائله كمنسوى من
كلامه بفعل الحقيقة (2) .

فمنذ محاولات التفسير الأولى التي تعود إلى فترة ما يسمى « التفسير
بالمأثور » عترست المفسرين مشكلة الجار القرآني وحتهدوا في تأويله بدون
أن تطرح القضية كمبحث لغوي أصلي . كما أنها لم تكتسب الأبعاد العقلية
التي ستلتصق بها فيما بعد ، وبذلك وجد المعتزلة من شق أمامهم الطريق وقد
بالسبة ، بهم مقدم الحجة القولية التي نشثوا بها لإثبات ضرورة لقوب بالمجرر .
فليس من قبيل الصدفة ، في رأينا أن يستشهد الجاحظ في كثير من ردوده
على الذين يأخذون بظاهر اللفظ برأي رجل كعبد الله بن عباس ويسي عليه ،
ونضرب بذلك مثلا تعليقه على هذه الآية وقال الله : « وَإِذَا وَقَعَ الْقُرْ
عِيهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِهِ

(1) مثلا ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، تحقيق : محمد طه الله ، محمد رجب بن علاء ،
ط ١ ، دار المعارف ، القاهرة 1968 ، وأبو بكر بن قلاي : إعجاز القرآن ، محمد رجب
ص 3 ، دار المعارف ، القاهرة ، 1972 ، وقد خصص محمد رجب بن علاء
من أئمة السادس عشر من تأليفه المفتي في أبواب التوحيد والعقل الممدون إعجاز القرآن ،
ط 1 ، ١٠ ، الكتب 1960 المصنفة عن خصائص القرآن الأسلوبية ، محمد رجب بن علاء
الرمكسي : إلهان الكاشف عن إعجاز القرآن ، تحقيق : محمد رجب بن علاء ،
مصر ، ط ١ ، ١٠ ، 1974 ، ومؤلف هذا الكتاب من ضمن المراجع (ب) ص 69 ، وهو
دور عن دور صير هذه الكلمة في التأليف .

(2) نظر ابن خلدون : الإيمان ، ط آحسانبي ، القاهرة ، 1325 ، ص 34 ، 35 ،
حيوان 76/4 ، 394 ، 425/5 ، 56/7 .

لا شوقسود « (1) وكان عند الله بن عباس يقول : ليس يعنى نقوله .
 تكسهم من الكلام . وإنما هو من الكلثم والجراح . وجمع الكس كسوم .
 وه بكر يحصه من المطلق . بل يجعله من المحظوظ والوسم . كذلك
 وعلامة سدين يقوم مقام الكلام والمنطوق . وقال الآخرون : لا ندع صدر
 نطق ولعادة الدالة في ظاهر الكلام إلى المجازات . قالوا : فقد ذكر الله
 سورة المصنوع . كما ذكرنا في الحديث كلام اللب لأهلب بن أوس . وقول
 بهد مسطور في الكتاب بأطول الأفاضل وكذلك شأن العرب « (2) .

ثم إن عبيدة (ت 216) من أوائل من أدعوا هذا المصطلح واستعملوه .
 وكتبه « محور القرآن » (3) أقدم مؤلف وصلنا بهذا العنوان . إلا أن مفهوم
 المجاز فيه ، كما سبين ذلك . لم يتمحض للدلالة على المفهوم اللغوي « قسم »
 حقيقة بن قتي عامما تتحدد به مدلولات متعددة في نفس النص أوضحها وأكثرها
 استعمالا يوافق ما جاء عند خلفه ابن قتيبة (ت 276) عندما عرف المجاز قائلا :
 « وللعرب امجازات في الكلام ومعناها طرق القول وما حله فيها :
 لاستعارة ولتمثيل . والقلب . والتقديم . والتأخير . والخلف . والتكرار .
 والإخفاء . والإظهار . والتعريض . والإفصاح . والكناية . والإيضاح .
 ومحاسبة الواحد مخاطبة الجميع . واتجميع خطاب الواحد . والواحد
 والجميع خطاب الإثنين . والقصيد بلفظ المخصوص لمعى العموم . وبلفظ
 عموم معنى المخصوص . مع أشياء كثيرة سراها في أبواب المجاز إن شاء
 الله تعالى (4) ويبدو أن فهم المجاز على هذا النحو كان سائدا في سمرقند
 بعوية لأول التي انطلقت من القرآن إلى أواخر القرن الثاني ومطلع الثالث

(1) النسخ/82

(2) المصحف الحسوان ، 50/7

(3) تحقيق محمد عزاد سركيس : وهو صنع في جزئين : احدهما في الجزء الأول الطبعة الثانية مكتبة
 العائلي . القاهرة ، 1970 . وفي الجزء الثاني الطبعة الأولى 1962

(4) ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن : ص 20 .

يسين أن نجدد بنس المعنى عند مؤلف آخر معاصر لأبي عبيدة و شتم
منه نص القرآن ووصلنا مؤلفه ونقصد بذلك القراء صاحب « معاني
القرآن » (1) .

سيستفيد المعتزلة من كل هذه الجهود والمباحث . إلا أن تتمتعهم
الاعتقادي سيضطرونهم إلى تعميمه وجعله قريبا . كما سبق أن ذكرنا . مع
مكتملا لعقيدتهم في باب التوحيد ومجازهم إلى التأويل كسهج بصبط
به مشك القرآن ومشتهه في إطار أصولهم الاعتقادي

وإن أحجموا عن معاملة النص القرآني معاملة الحديث فإنه وسنده (2)
كأن لا بد من حل يوفقون به بين احترام قداسة النص وبين مبادئهم التي
قمت على « أدلة العقول » فقالوا في اللغة بالظاهر والباطن وتسمو دلالتها
مستويين متر بطين بحيث نستطيع أن نتقل من مستوى إلى آخر حسب ما نعبه
الضرورت : يقول الشريف المرتضى (ت. 436) موصفا هذا المنهج : « ورد
ورد عن الله تعالى كلام ظاهره يحالف ما دلت عليه أدلة العقول وجب صرفه
عن ظاهره ، إن كان له ظاهر . وحمله على ما يوافق الأدلة لعقيدة
وبطبقها » (3) .

وعلى ضوء هذا يمكننا أن نفهم تلك الميزة التي خص بها الزمخشري
(ت. 538) علمي المعاني والبيان فامتتح بإحدى عهدهما تفسيره وجمعهما
« علمين محتصين بالقرآن » وألح على ذلك في هيئة تركيب الجملة مما يدل
على أنهما أساس علم التفسير وأوثق العلوم به صلة بل نفهم سبب تسميته
تفسيره « لكشاف » استنادا إلى استعماله « البيان » في موضع من موضع
مرادفا لكشاف (4) .

- (1) انظر القراء « معاني القرآن » 14/1 - 15 - 177 - 230 - 226/3
- (2) انظر « حدى ملك عند أبي نويه » تأويل مختلف الحديث مطبع كرمستان ، القاهرة 1326 .
ص 20 - 21 .
- (3) انظر « جابر أحمد منصور » الصورة الغيبية ، ص 152 إضاءة رقم 4 .
- (4) انظر زمخشري « لكشاف عن حقائق التنزيل وحيون التأويل في وجوه التأويل » مطبعة
الحبسي ، القاهرة 1948 . ص 13/1 ، 95/1 .

فقد المعتبرة بالبحار وحملوا عليه كل الآيات التي يتنافى صهرها مع قولهم في صفات الله وتربيته ، خاصة الآيات التي يمكن أن يفهم منها نشيبه وإحلال الذات الإلهية في حيز مكاني ورماني (1) .

وقد استمدوا شرعية القول بالبحار هذه من الممارسات العربية السابقة لله و من حنديات علماء المسلمين وأقاموها على هذه الحجة النقيصة والعربية بعينه وانتهوا هكذا إلى أنه سمى اللغة العربية الأساسية وموطن افتتاح العرب بها ووقعوا في الجهل والصلالة كل من م يقل به أو أنكره ولقد وقع في مؤلفات نجحط على نص يجمع كل هذه المعاني بورده كاملا . على طوله . يقول : « وأما قوله عز وجل : « يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ » (2) فمعنى ليس شراب وإنما هو شيء يُحوّل ببناء شرابا أو بالماء بيذا . فسماه كما ترى شرابا إذ كان يجيء منه الشراب .

وقد جاء في كلام العرب أن يقولوا : جاءت السماء اليوم بأمر عظيم ، وقد قل الشاعر : (واهر)

إد سقط السماء بأرض قوم رعياء وإن كانوا غضابا
فزعموا أنهم يرعون السماء وأن السماء تسقط .

ومنى خرج العسل من جهة بطونها وأحوائها فقد خرج في لغة من بطونها وأحوائها ومن حمل القعة على هذا المركب ، لم يفهم عن العرب قبلا ولا كثير وهذا الباب هو معخر العرب في لغتهم وبه ونشأه اتسعت . وقد خطاب بهذا الكلام أهل نهامة وهذيلة وضواحي كثافة . وهؤلاء أصحاب لغس . ولأعراب أعرف بكل صفحة سائلة . وعسله ساقطة . فهل سمعتم بأحد أنكر هذا إثبات أو طعن عليه من هذه الحجة ؟ (3)

(1) يقول المحقق : « وقد علم القهري أننا نعتقد أن لنا ربا يخرج الأجسام أعرابا وأنه حي لا يعب . وعالم لا يعلم ، وأنه شيء لا يتصور . وليس بني طوله ولا عرض ولا عمق ولا
أكسياه قسيسي الموتى وهذه كله عند القهري مستكر » ، الحيوان ، 90/4 .

(2) السجدة ، 69 .

(3) النجاشي ، الحيوان ، 524,5 - 426 .

وستكون نظرية « المواضع » أهمّ مبدأً بلاغيّ ينتهي عنه هذا بعد
مقامي في دراسة المجاز ، فستعلّ الجاحظ : كما ستري ، بإشراك
متفرقة عند من سبقه . ونعينة هذه التوجه في البحث على جعلها بصرية فرة
في تفكيره البلاغي وتأثير بها البلاغة العربية بعده أيّما تأثر (1) .

وإن يكن المعتزلة هم وحدهم المتحاشون بالمجاز فلقد وافقهم على ذلك
جمهور من المسلمين من كانوا أو أشاعرة ، وذلك شاركوا ، من جاسهم ،
مشاركة أساسية في تطوير هذا البحث الذي كان من أبرز أعياديين في تزيح
عكر الإسلام الذي جمعهم على حصن مشترك تمثل في من كبر المجاز
وقد بطلانه واعتبره قرين الكذب لذلك نزه القرآن به وقد أضاع على هؤلاء
« الصهرية » (2) .

لذلك نجد مواقف الجاحظ وابن قتيبة والجرحاني (ت. 471) متفردة
وب فرق بينها قوة الحجّة وعمق التأويل (3) كما أنهم يشتركون في كثير
من مباحث المجاز وما سطره له من مبادئ عامة كبيان عارضه لغوي في
المجاز وتفوق لغتهم فيه على جميع اللغات ودفع أن يكون كذب وضرورته
لهم القرآن (4) .

وإن يكن يفرق بينهم في هذا الموضوع إلا ضوابط ذلك المجاز وحدود
التأويل ، فقد قيده السبيل بقيود وضوابط كان المعتزلة يتصرفون به
بحرية أكبر (5) .

- (1) من خلاصة هذا البحث عنه قوله : « ومنع أمثلة واشتقاقات وتنبؤة وموضع كلامه به
خدمهم عن مديهم وإرادتهم ، ولتلك الألفاظ مواضع أخر . ولها حيث دلائل أخر ،
من : بغير : « تأويل الكتاب والسنة وتشافهوا » . الحيوان ، 1991 .
- (2) من من الجورين : الصواعق الرسة في الرد على الجهمية والمجته . نسخة لإسمه
عد 2 ، القاهرة ، 1380 .
- (3) من من : « تأويل » من 13 وعنه تمارير الجرحاني دلائل الإعجاز ط 3 دار المعارف
372 ، من 326 .
- (4) من من : الجرحاني ، البيان والتبيين ، من 55 - 56 ، الحيوان 287/2 ، 289 ، ويرد به جاء
عنه من من : الكذب المذكور ، من 12 : 21 وخاصة 152 .
- (5) من من : حيدر أحمد عسيري : الصورة الفنية ، من 160 .

ب. حملة هذه المباحث ستكون عظيمة الفائدة بالنسبة للتفكير البلاغي في مستوى قصاياه الكلية ومسائله الجرتية ، وستكون هذه الحملة العفائية وما نتج عنها من ضرورات منهجية من السمات الأساسية والفرع في هذا التفكير بحيث نستطيع أن نقرر أن الحدل الذي قام حول القرآن ، وخاصة شكبه ، كتب من الخواطر القوية التي دفعت الفكر العربي إلى الاشتغال بقضايا اللغة وبصنوع طرقها في التعبير والتركيب

ولعل من أهم ما استقر في التفكير البلاغي من هذه الفترة ما يلي :

— ربط مباحث البلاغة بعناية قصوى في فهم النص القرآني وقدرته على تأويل مشكبه والتسليم بإعجازه لذلك اعتبرت البلاغة ، في تصنيفهم بعنوم ، من علوم الآلة ومقدمة كل علم ، وضموها بذلك إلى علوم اللسان ، ولم يشذ عن ذلك إلا الفلاسفة الذين بقوا متأثرين بتصنيف أرسطو (1) ، وسبق هذه مترعة مטרقة في جل المؤلفات البلاغية مهما كانت الغاية من تأليفها ، يقول العسكري (ت. 395) « إن أحق العلوم بالتعلم وأولها بالتحفظ .. بعد معرفة بالله جل ثناؤه — علم البلاغة ، ومعرفة الفصاحة ، الذي به يعرف عجز كتاب الله تعالى الناطق بالحق ، الهادي إلى صيبل الرشاد ، المدلول به على صدق الرسالة وصحة النبوة » (2) .

— إن إحلال المبحث البلاغي محل الوسيلة للوصول إلى مقاصد الرسالة الأدبية جعل البلاغيين يلحون على « البيان » بالمعنى اللغوي الأصلي أو الوظيفة لإفهامية وجمعوا البحث عن أنجع الوسائل التي يتم بها ذلك ، موضوع علم البلاغة ثم أعطوا مجموع الوظائف الأخرى ، كالوظيفة التثنية المكنية التي تستحقها في مباحثهم ، وعن هذا نشأت في رأينا ، تلك الفكرة سائدة

(1) انظر L. Gardet et Anawati : *Introduction à la théologie musulmane*, Paris 1948, chap. 2, pp. 94-134.

(2) انظر : أبو حنيفة العسكري ، كتاب الصناعة ، القاهرة : 1971 ، ص 7

في سرث انلاحي والنفدي عدنا ومؤداها أن هذه الوسائل علاف تعف به
لمعى وصرباً من الزينة يقصد من وراثه إخراج المعنى في أحسن صورة .
وبذلك قطعوا ، من الأساس ، ما يمكن أن يقوم بين الشكل والمصمون من
نثر وتأثر . وفي البحث تدور في نطاق التأثير في السامع أو المستقل باعتد
نص القرآني يرمي إلى إقناعه والوصول إليه . وبذلك نظر إلى خصائص
نص من منطق المنطقي به لا من خصائصه في ذاته وما يمكن أن يشأ بين
صرفيه - الشكل والمصمون - من علاقة - كما أنهم لم يتصوروا - العلاقة
بين الكاتب ونصه . إلا ما قلر . وفي مجرى حديثهم عن الشعر ، قد لا
يعقل في هذه الحلة الخوص في مسائل يكون الخالق طرفاً فيها . ومن هذا
من ، من التي تفسر صاآة تعد التوجداني في النقد العربي عن كثرة ،
هناك من أدب يطفح بذلك .

- إن تبين خصائص النص القرآني التركيبية على هدي الشعر وأساليب
لعر ب في التعبير جعل العلماء المسلمين عنى اختلاف اهتمامهم المدهسي يشتركون
في جملة من التصورات العامة وتكون لهم إزاء بعض المظاهر نفس الموقف .
فقد أشروا إلى موقف اللعوبين المشدد على الشعراء وصيق هؤلاء بهم . ونشير
هنا إلى أن المتكلمين لم يكونوا - في بعض المواقف - أقل تشدداً منهم لذلك
نجد مفكراً متبع الآفاق كالحافظ بقر في مواضع مختلفة من كتبه بأنه
« قد يشبه شعراء والعلماء واللعاء الإنسان بالقمر والشمس والبعث والبحر
والأسب . والحيث وبالحبسة وبالنجس ولا يخرجونه بهذه ادماي إلى حد
الإنسان (.) وبروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « بعثت أمة
بكم البخة خلقت من فضلة طينة آدم » . وهذا الكلام صحيح المقى ، لا
يعبه إلا من لا يعرف مجاز الكلام وليس هذا مما يطرد لنا أن فيه وربما
قدم على ما تقدموا ونحجم عما أحجموا وننتهي إلى حيث انتهوا » (١)

١٠. الأهمية البالغة التي اكتسبها بنية النص القرآني جعلت من بحث متعقبة لها مائة في أغلب العلوم ، لم تطلقه من القرآن باعتبارها سبيل وفوف على مراميه ، حتى رأينا من المؤلفين المتأخرين من يخلط ، عن قصد ، تلاعة بأصول الفقه ويحاولون إبراز العلاقة بين المحدثين (١) وليس مستبعد أن يكون قرآننا وشعرنا دورا هاما في توسيع آفاق الاختصاص لدى لكتاب من نصبه كتنوير في المعرفة .

أخيرا إن ارتباط الدراسة اللغوية بالقرآن صبح مجمل مباحثها بصيغة عقائدية بحيث يصعب علينا أن نلجأ بإشكالاتها محددة عنها .

هكذا إذن . يعتبر القرآن من العوامل الرئيسية التي ساعدت على نشوء دراسات لاهوتية وكانت الأبحاث التي أقيمت حوله خميرة صالحة لبرور مثل هذا التفكير ، ولعل هذه المرحلة ، كما سنرى أن أشريا ، ستدفع به في مساهمات يفتزمها في كل مراحلها .

ج - تقعيد اللغة :

يبدو ، من وجهة السنية عامة ، أن البحث البلاغي اعظم وسفر في الأساليب نظرا لرغب عن الانطباع ومجرد الانفعال ويروم كشف سر في جودتها وفصل بعضها على بعض لا يتأني إلا بعد معرفة دقيقة بشوعد اللغة ولصوابه ، التي تتحكم في ما قد يقوم بين أقسامها من علاقات ووصف تلك الأقسام وصفاً قنجلي به خصائصها .

ولقد حظيت هذه الفكرة ، في الدراسات الأسلوبية اليوم ، بمكانة هامة وبعين أصبحت من المسلمات المنهجية الضرورية ومقاييس كل دراسة علمية

(١) انظر قام الدار السبكي (ت 773) . عروس الأقوال : في شرح التصحيح ، مطبعة عمري ، القاهرة . 1937

من ضمن بعدد القمي ومعضلتها ، يستمولوجيا و تتأسس عليه حرامه الحاسب
الإشائي في الفعل اللعوي عامة (1) .

راسب في ذلك طبعة العمل الأدبي وخصائص اللغة فيه و ما بين
علمي البحر والبلاغة من اختلاف في القانة .

فوصفه البحر استجراح مبادئ اللغة ونظمها استادا إلى الاستعمار مشترك
أو ما يقص أنه استعمال مشترك ، وغايته القصوى حماية اللغة من التمسد
و لحرص على أن تواصل أداء وظيفتها الأصلية : الإبداع . ووسيلته في ذلك
ضبط معايير التي تتصل بها بين الخطأ وانصواب ويطابق : المتكلم باحترامها
بينها وبين حاجته في التعبير المستقيم .

أما لبلاغة فوظيفتها وصف الطرق الخاصة في استعمال اللغة وتصنيف
لأساليب بحسب تمكنها في التعبير عن العرض تعبيراً يتجاوز الإبداع إلى
للتأثير في المتكلم أو إقناعه بما نقول أو إشراكه في ما نحس به ، وغايتها
مدى يستعمل بما تعتبره أنجع طريقة في بلوغ المقاصد .

وهي ، على عكس البحر ، تطلق من الاستعمال الخاص وتخرج منه
موضوع درسه وهذا الاستعمال ، بحكم مقاصده والمستوى الذي يتنزل
فيه ، ليس فعلاً لغوياً عادياً ، إنه يقوم على طريقة مخصوصة في استعمال
وسيلة اللعوية . نعم إنه يطلاق من اللغة المشتركة ولكنه يؤديها بطريقة تجعل
عمله الأدبي عملاً عريداً لذلك فإنه لا يتبنى تقييم هذا العمل وبلالمام
بخصائصه وتبين مميزاته إلا بالرجوع إلى تلك المبادئ التي أتت بها
سعادة (2) .

R Jakobson *Questions de poétique*, Seuil, Paris, 1973; pp. 485

G Granger *Essai d'une philosophie du style*, Armand Colin, Paris, 1968. pp. 187-216

ونكتسي حركة جمع اللغة وتقييدها ، عند العرب ، أهمية خاصة ،
 أسمّ بها من ظروف ساعدت على ربط الصلة بين العمل النحوي والتفكير البلاغي
 ، اضطرت نعويس إلى التعرض إلى جملة من المسائل ألحقت في وقت متأخر
 ، بلإعانة سما كانت في مؤلفاتهم شديدة الصلة بالنحو معترجة نه

وبأتي على رأس تلك الظروف والأسباب الطريقة التي حددوا بها مادة
 نعوية التي ستعسط على أساسها قواعد اللغة ، ورغم المشاكل التي تفرجها
 تلك الطريقة في العمل (1) فإنها هيأت العمل النعوي ليكون بيئة من البيئات
 الصالحة لبروز بواذر المسائل المعنية .

ويسترعي الانتباه في تصنيفهم لطقات من يُصنّف بعينهم ، أفراد
 كانوا أو جماعات ، تواتر مصطلح النصيحة شرطا أساسيا في تبيين عنهم
 نُقِمَتْ لغة العربية وبهم اقتُدي (2) ، ورغم أن الظروف التاريخية التي
 حفّت بنشأة هذا المفهوم ربطت دلالة بقواهر شكلية كتجنب معجمة
 وللحن (3) وسلامة اللسان من اللفة (4) وارتفاع اللهجة عن بصرق لمشيئة
 في لنطق (5) وقد جمعها العسكري تحت ما سماه : تمام آفة البيان (6) ،

(1) حل من أهم تلك المشاكل قضية مندرج أو المندرج ، ورغم ما يثير من النصوص
 القديمة ، وهي كثيرة ، من احتساب نالير نصيب تلك المندرجة في أدبي جراتها في نطاق حديثهم
 عن السماع كذا من أمثلة النصوص النحوي ، فهي بعض الجواب غائبة ، وهي نصوص
 قديمة في معرفة النصوص التي فيه هي الصلة أنفسهم أكثر مما حيد في معرفة بعض تلك المادة
 اللغوية خاصة ، أحد منها عن الأعراب دونق بمرجهم ، وثمة أن نلص ، من غير دليل
 واضح بأن عرب هذا ، كتب سنوي و هذا يسأ نلص كثير من الأوب راعر نص في
 مؤلفاتهم على عدم صحة ذلك أو وجوب تعديله على الأقل
 ثم إن الإطباع العام الذي يفرج به قاريه منهم أنه ذو رة الشعر وقرآن لمسم
 النحوي ، دونق به التبعيد عن التعمد والاسكرد والاختصار ودنيا القول ، وقل ، مع من
 لأمر به على كثرة ما دون عنهم ، جملة نلص بأنها اعطيت من كلام عدي وكثرة ما
 سدو عليه من النكص ونلص بصرق في تركيب نلص أن يكتفيها بكلم عدي
 بطر و بعض هذه القضايا على أبو النكارم أصول التفكير النحوي ، مشو ب
 النسخة الثانية 1973 .

(2) انظر : كسوطي : الاثر في : مجلة الماير ، صدر به : 1310 هـ من 31 - 32

(3) من : الحيوان 32/1 ، وابن وهب : البرهان في وجوه البيان من 63

(4) من : البيان والتبيين : 162/1

(5) من : معجالت : 100

(6) من : العسكري : النسخة من 13

عم هذه مفهوم البعيد عن كل تصور سياقي وفي . تشير إلى دور نعويين في نسبة إلى هذه الناحية التي ستصبح من المواضيع التي يوليها الداعبون أهمية كبرى في مؤلفاتهم وطريقة من الطرق التي يستعملونها لتعريف البلاغة .
ومنها من سبحتها بتألف كامل يتعرض فيه آراء اللغويين ويرددها عنهم (1) أو يصدق في الدلالة بينها وبين البلاغة (2) .

ويعتبر لاعتماد على هذا المقياس . رغم تواضع دلالاته اتصيه . نقص في العمل بحوي يستفيد منه العلوم البلاغية . فنقد تجاوز السعة . يصطد معايير المحقق وحقوات . استقامة اللغة إلى فصاحتها بمعنى أنهم أرادوا به النحو على مستوى لغوي فيه من انحصائيات ما ليس في غيره مما يستلزم عن أنه أسمى من اللغة المشتركة في ذلك الوقت .

وقد يبدو هذا التناقض . وهو الانطلاق في تعقيد اللغة في مسار معكوس يتمثل في اعتمادهم . لتفسير اللغة المشتركة . على المستوى الإنشائي منها .
أصبح في موقفهم من الشعر والقرآن . فقد اعتبر السعة هذين النصين مصدر عربيا هاما وشهادة حاسمة .

ولا شك أن إدراجهم القرآن والشعر في عداد المصادر اللغوية قد نبههم إلى بعض حصائصهما الوعية ودهمهم . في نطاق مشاعلهم الحوية . إلى جملة من الملاحظات البلاغية المفيدة خاصة أنهما يخرجان عن معهود بكلام ويستعملان اللغة استعمالا خاصا لمقاصد فنية واضحة . وسبق أن أشرنا إلى أن نعويين كانوا من أول من منهم . مساهمة متواضعة لا محدة . في نسبة نقد العربي .

ولقد نتج عن هذه المكافحة التي حظي بها الشعر والقرآن عند اللغويين عدة نتائج لعل من أهمها : أن ما نعتسره وقواعد اللغة قد تأسس

(1) انظر : ابن سنان المحاسني : من الفصاحة : تحقيق على عود : ط 1 مصر . 932 .

(2) انظر : عبد القاهر العرجاني : دلائل الإعجاز : ص 35 وما بعدها

في جانب كبير منه على «الكلام» وعلى كلام دي خصائص بنوبة وهبة .
لا شك فيها ، مما أدى إلى امتزاج المادىء الكلية المرتبطة بالاستعمال التفصيلي
بخصائص سوعة الشعر والقرآن . وهذا أمر واضح في مؤلفات السعدى
درحة تجمع تشاغل عن الأسباب التي أدت : في تاريخ اللغة العربية .
فصل بحث المعاني عن النحو وإخفاقه بالبلاغة . ثم إن العروس كسوة من
أول من تفضل إلى بعض خصائص الشعر ولكنهم . في الأعجب . وقصوة
عند انشكك الخارجى وما يعرضه على الشاعر من ضرورات لغوية . وقد
يكون السبب في هذا الفهم السطحي اعتبارهم إياه مصدرا لغويا لا يختلف
في حوهره عن المصادر الأخرى إن صطفا هذه الضرورات . وقد يكون
سببونه أدرج باب وما يحتل الشعر (1) ضمن مقدمات لكتاب بسبب
لدى ذكرها . وسيساهم اللغويون بنسط وافر في ترسيخ هذا الفهم شكلي بشعر .

ورغم أن غايتهم من دراسة اللغة لا تغلو . مبدئيا ، استخراج قواعدها
وصبغ انوائيس التي تتحكم في أوجه استعمالها ، والبحث عن بنية نظرية
وهيكل عام تندرج صحتها تلك المادة الصحيحة وتسجم في إطارها أقسامها
على أسس تحقق تطابق مقولاتها مع مقررات العقل والمنطق (2) . فمنهم بحكم
ارتباط هذه المنشاغل بعنايت دبية كالاتجاه للغة القرآن وبين أنها نموذج
لأسمى لهذه اللغة . وبحكم كونهم مسلمين يعيهم من القرآن ما يعي غيرهم
من نقض لعقائدية التي أثرب حول بيته . أعانوا على بلورة عدد من المسائل
اللاغية وكنت مؤلفاتهم . في جانب منها . صدى لما يدور في البيئة العربية
الإسلامية من مناقشات حول القرآن ، ويبدو هذا واضحاً في مؤلفات بني
وصفت بداية من القرن الرابع على وجه الخصوص .

(1) صدر مسودة : الكتاب ، تحقيق وشروح عبد السلام محمد هـ . ود . دار علم ، القاهرة
1966 ، 1 26

(2) سعى اللغويون منذ وقت مبكر إلى رصد الشذوذ القوي في العمل والمنطق ، وجعل من آدم من أش
ذلك سببه في مقدمة الكتاب في « دار الاستقامة من الكلام والإحالة » ص 26

شاركوا في مناقشة مسألة اللفظ والمعنى ونظروا في مختلف تفسير
لتي تنظم العلاقة بينهما ، وعبروا عن رأيهم في أهمية كل واحد منهما وفصله
على الآخر (1)

كما نلاحظ في مستويات الدلالة فيبحثوا في فرق ما بين الحقيقة والمجاز
وأما في ذلك ، واختلط عندهم ، في هذا المجال ، النظر بين مساء من
بعد لغوي صرف بحاشيها العقائدي الحثلي ، مما جعل بحثهم من أرق بحث
لتي وصلت على صعيد التصورات العامة والمبادئ الكبرى ومن أكثرها تعقيد
بالجريئات والمالعة في ذلك إلى حد السذاجة أحيانا ، عندما يتعلق الأمر
بالجانب العقائدي والبحث عن الحقيقة .

ويبدو لنا أن ابن جني (ت. 392) أحسن من يمثل ذلك على الصعيدين
المدكورين . فلقد ذكر ، في مواطن عديدة عن الحقيقة والمجاز ، جملة من
الملاحظات على غاية من الأهمية سواء تعلق الأمر بالتعريفات أو بالمصطلحات
المستعملة أو بتحديد وظيفة كل منهما . يقول معرفا الحقيقة والمجاز « الحقيقة
ما أقر في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة والمجاز ما كان بضد ذلك ،
ولنما يقع المجاز يعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة وهي الاتساع والتوكيد
ولتشبيه لأن عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة الشدة » (2)

أول ما يلفت الانتباه في هذا النص الدقة المتناهية في حده الحقيقة ،
وهي دقة لم تقف في مصادر بحثنا على ما يقاربها فضلا عن أن يعدلها . فلقد
ذكر فيه مصطلحي « اللغة » و « الاستعمال » معا ، وعلق بالأول مفهوم
المرصعة وبالثاني « فعل الإقرار » . فعناء الاستعمال عنده إقرارا بموصفة
لغوية ينتج عنه أن الحقيقة ممارسة لغوية تقرأ القوانين التواضعية وبذلك تخرج
منقادة بين الحقيقة والمجاز عن كونها مقابلة بين اللغة والاستعمال إلى كونها

(1) بحر على حسن المثال : أنبرد ، رسالة في البلاغة ، ص 59 وابن جني ، الخصائص ، 229

(2) ابن جني الخصائص ، 442/2 .

مناسبة بين استعمالين . فكانت اللغة ، من هذا الوجه ، متصور وهي لا وجود
 به سنة ، ولكن كك مطلق تعريفه للمجاز عنهما مغلقا عديم المحتوى « ما كان
 بصدر ذلك » في بقية النص توضحه وتكشف عن حواش أساسية فيه .
 والحذر المستعمل وصيغته الزمنية « يقع » بدلان : إذا قول ذلك بالإقرار .
 على أن المحذر احتمال في اللغة وحدث طارئ على الحقيقة مرشده بها في
 تدليه لا تفهم يصح عليه ابن جني في بعض السياقات . مصطلح العدوى (1)
 ويقاد ربط هذا القول بجملة من الوظائف يكون . يعاينها . عشا وصرى من
 اللغو مما يؤكد على أنه طريقة في الدلالة مرتبطة بضرورات التعبير .

إلا أن ابن جني بتركب المبالغة والتعسف وهو يبين « أن أكثر اللغة
 مع تأميه مجاز لا حقيقة » مشاركة في الجدل الذي قام بين جمهور اسميين
 وبين القائلين بالظاهر . ويذهب في تفسير ذلك مذهبا فريدا غربا في نفس
 الوقت يتدخل فيه مذهب البصري بالحجاب العقائدي . وقد ذكر حديثه في
 هذا المصدر على الأفعال بتسميها « المستندة إلى الفاعلين مهما كانوا »
 « وأفعال القديم سبحانه » .

فقد - مثلا - بأن القسم الأول كله محذر للدلالة الفعل على لجنسية
 أو مصدر « فقولك قام زيد معناه كان مع القيام أي هذا الجنس من الفعل ،
 ومعناه أنه لم يكن مع جميع القيام » (2) « وكذلك قولك صربت عمرا مجاز أيضا من
 غير وجهة التحور في الفعل وذلك أنك إنما فعلت بعض انصرب لا جميعه » (3) .

وهذا في رأينا خلط بين الحقيقة اللغوية والحقيقة المطابقة كمنصور أخلاقي
 ومس في مدال المواضعة نفسه كأساس من الأسس التي تسي عنه لغة .
 فليس من الضروري أن تطابق المواضعة اللغوية الحقيقة المطلقة

(1) هو أحسن . عنه . في تصورنا : مفهوم شائع عند الأصوليين اليوم وهو "Heart" .

(2) ابن جني ، أخصاصه ، 446/2 - 447 .

(3) ابن جني نفس المصدر ، 450/2 .

ولا مبرر لهذه المبالغات في التحليل والتعليل . وقد يعجب قارئ
سطحي . إلا موقفه الشديد الصارم مما لم يقل بالمجاز وحملته عليهم حمته
عبيد حتم بها قسريا . مباحث كتابه انحصائى : يقول في باب « فيما يؤتمنه »
على معرفة من الاعتقادات الدينيه « اعلم أن هذا الباب من أشرف أبواب
هذا الكتاب . وأن الانتفاع به ليس إلى غاية ولا وراءه من نهاية . وذلك أن
أكثر من صلب من أهل الشريعة عن المقصد فيها . وحاد عن الطريقه شي
فيها فربما استهواه (واستحرف حلمه) صغره في هذه اللغة الكريمة الشريفة .
نتي حوص الكفاية بها . وعرضت عليها ألجنة والنار من حواشيه وأحاديثها .
وأصل عتداد التشبيه لله تعالى بحلقه منها . وحار عليهم بها وعنها ... » (١) .
وم تقف مشاركة اللعوبين في بلورة المسائل البلاعية عند هذا الحد نظرا
لارتبها الوثيق بالنحو فحاضوا في دلالات التركيب .

ووقفوا في ذلك على جملة من القوايين الهامة وعللوا الأمور بطريقة تدعو
إلى الإعجاب أحيانا . وعندما نجد بذور ما يُسمّى اليوم « بعلم المعاني
السري » . ولعلمهم لو تعمقوا في البحث أكثر مما فعلوا لخرجوا بفكرية
متكاملة في الموضوع . ولقد تلور هذا عندهم خاصة في اهتمامهم بعوارض
منعوط وهيئاته كالحذف والإيجاز . فكانوا أول من قطن إلى تعدد عناصر
تدلالة ونياية بعضها من بعض . وأول من تلور على أيديهم تبعا لذلك مصطلح
« السبق » كدليل إصافي يُعين اللغة على الأداء وصابط يتحكم في عناصر
معنوية ما يمكن الاستعانة به وما لا يمكن خوف الالتباس والإغلاق (٢) .
وأنهم اهتمامهم اللغوي إلى دراسة كثير من الأساليب العربية تعرض في
بعضها في مكان آخر من هذا العمل .

(١) ابن حبي : الخصائى ، ٢٤٥/٣ .

(٢) نظري . مسويه : الكتاب ، ٦٦/١ وابن جني : الخصائى ، ٣٦٠/٢ .

د - الحاجة الى التعلم والتعليم :

برزت بتطور المجتمع العربي الإسلامي احصاري والسياسي حاجات نوعية لم تكن في عهد قاميس الدولة واقترب من «سرة البادية» موجوده أو لم يشعر الناس بضرورتها شأنهم فيما بعد .

ومررد ذلك استمرار العرب بالمدن الكبرى ، بعيدا عن مهد هجرتهم وشعرهم ومهد قرآتهم ، وفساد اللسان وشيوع اللحن ، ورقة لصدة نكت الروح . وقد كادت تحفزهم على قرائتهم بحفظونه بالتلقي المباشر ولتعم لتلقي ، واتساع رقعة السلطان . ورغبة الحكام في إرساء نفوذهم سياسي على مؤسسات تمكس من شد الأضراف إلى المركز . ودخول أقوم من حضارت أخرى سعى أولو الأمر احتواءهم وإدخالهم في صلب جهاز الدولة ، وتمكينهم من المناصب المرموقة ، أحيانا . يضمون بذلك ولاءهم ويصغفون من حدة انتماءاتهم احصارية والعقائدية الأولى . وقد تصدفت هذه لعومس على خلق ملاسبات حصارية وفكرية جديدة ، وصراعات مذهبية ، وتوترات في بية المجتمع . ساهمت بقسط وافر في إذكاء لجذب ولاحتجاج حول قضايا كان بعضها متصلا بمقومات الحصار العربية لإسلامية من الوجهة اللعوية والبيانية .

وقد أدت هذه العوامل إلى ظهور فئات اجتماعية تقوم على صناعات لم تكن مدخنة إليها في السابق واصحة ، نذكر منها فئة المؤدبين أو معتمين .



يسر بيانا ، عن هذه الفئة ، معومات كافية تسمح بوصف دورها في نشأة التفكير اللاعبي . فحديث المصادر عنها عرضي : تأتي في عصون لرحمة مصدقات العلماء ، لأن التعليم كان نشاطا فرعيا عن اختصاص العلم ،

وموقفه من مهم مشوب بكثير من الحذر والاستهراء مما قد يكون ساعداً على عمرها (1) .

ويبدو رغم ذلك أن هذه الفئة لم تكن على اجتماع أهلها على صناعة واحدة ، متحذرة ، لا ميسر حيث أصل من يتحصى إليها ولا في مودة تعليمها وعاديتها ، ولا حتى من حيث اهتمامها بمظاهر اللغة والأسلوب . ويمكن تعال ذلك أن تضمها إلى ثلاث طوائف .

- صائفة . يرتبط ظهورها بالدولة الأموية (2) . كانت تقوم على تربية أولاد الحاشية وأولاد أولي الأمر المرشحين للخلافة . نعتهم اشعر عربي لأصين وما يتظنه مهمه من إحاطة بصاحبة العرب وأخبارهم وأساليبهم وذكر أيامهم ، وكان على هؤلاء ، لعدد المتعلمين زماناً ومكاناً عن معدن الصائفة ، أن يقرّبوا ذلك الشعر إلى أفواقهم ويدلّوهم على جودته بين بعض خصائصه التعبيرية والفنية .

ولا شك أن قيسة تلك الملاحظات مرفطة بأهمية المؤدب ومكانته في لعم . رد كسوا طبقات عدد الجاحظ (3) فيهم الأعلام ، كالكسائي وقصرب وكميت بن زيد وعبد الحميد الكاتب وخاصة ابن المقفع . وقد عرف عنه اشتغاله بهذه الصناعة . علقه ذكر الجاحظ (4) أن اسماعيل بن علي عم السفاح والمصور أرمه بعض بيه . ولأن المقفع قد في موضوع البلاغة مشاركات هامة .

وعنه أهمية هؤلاء المؤدبين في قاريج العلوم اللغوية والأدبية حتى بعض باحثين يعتبر عملهم « أول تغيير يدخل على منهج الدراسة الفنية العصرية » (5)

- (1) هذا الأمر دفع الجاحظ إلى تصنيف كتاب (البيان والتبيين 248/1 - 256) لطفاً لاهلها حتى يبين بهدوء العامة في استخدام الطلبة عامة .
(2) صدر في القرنين الأولين - مناهج تجويد ، ص 100 .
(3) صدر الجاحظ ، البيان والتبيين ، 250/3 - 251 .
(4) صدر في 252/1 .
(5) ابن الجوزي ، الكتاب المذكور ، ص 100 .

لكل برحسح أن ملاحظاتهم . ومعلوماتنا عنها قليلة ، كانت بسيطة تأتي عرصة
في شأن الحديث عن لغة النص وعصاها . ولم تكن أحكامهم تستند إلى
أصول تنص بصياغة الشعر . وحصائص اللغة فيه . وما قد يترتب عن ذلك
من أصول بلاغية (1) .

— أما الطائفة الثانية فهي شديدة الصلة بيئة المتكلمين و معتزلة . فهم
يعتبرون تعلم البلاغة غاية في حد ذاتها . تمكنهم من أداة ناجعة بصهر و به معنى
مخصوصهم في الما طرات والمجادلات . ويبدو أن عدد منهم مجرد لتدريس
أصولها باعتبارها وجهة علمية تخدم اختيارهم العقائدي . ولا نستبعد أن
الحديث التي أصب الجاحظ في الحديث عنها في مؤلفاته كانت تتعرض إلى
مسائل لها مساس بأهمية الكلام في علم الكلام . وقد يفسر هذا سبق
المعتزلة إلى تعريف البلاغة وتقسيم أصول الخطاب وصبط غريبه ومرويه (2)
ودور المتكلمين عامة . لأن كبار المتكلمين ورؤساء المطارين كانوا فوق
أكثر لخطباء وأبلغ من كثير من العلماء (3) إذ هم يحملون أنفسهم لدفع
عن الضلالات وإنقاذ العامة من المهلكات . ولولا مكان المتكلمين لهيكت
عوام⁴ وخطفت واسترقت . ولولا معتزلة لهلك المتكلمون (4)

وقد أظن الجاحظ في خصال بعض المعتزلة البيانية وذكر صراحة
أن بعضهم كان يقوم على تعليم القتيان الخطابة (5) . بل إنه يربط صحيفة

(1) بطر : إحصاء عيسى تاريخ انتقد الأدبي عند العرب ، دور الأربعة ، ص 1 ، بيروت
1971 ، ص 45 - 59

(2) من أقدم نثر لغات اللغة ، نسب إلى عمرو بن عبيد (ت 144) وكان من شيوخ المعتزلة ، بطر
عبد الحميد محمود الصورة الفنية ، ص 122 . انما حظ : البيان والبيان ص 4 ، وهو
سابق بطر . وصرح عن تحجير البلاغة لمنفعة صلبا اعتقادية . قيل لعمرو بن عبيد : « البلاغة ؟ »
ور : « بل هي لغة الجنة وعدل بك عن الدنيا . وقد بصرة مواجع رشاش وعو لب عيب »

(3) بطر : انما حظ المصدر السابق ، 139/1 .

(4) بطر : الجاحظ ، الحيوان : 289/4 .

(5) بطر حديثه عن أساتد وضع بشر بن الحمر رسالته المشهورة يقول : « مر بش بن الحمر
بأمرهم بن جيلة بن عمرمة السكوبي الخطيب ، وهو يعلم قبيهم الخطابة » . الجاحظ ،
البيان والبيان : 135/1 .

بشر من المحترم (ت. 210) بهذه الغاية التعليمية . ويمكن أن نعتبرها . من
وجوه عديدة . « بياناً » يحدد فيه قوانين تعليم الخطابة ويمزج بين قصيده
وقصايا النعد الأدبي ويؤكد فيه على الناحية النغمية من كل خطاب وصورته
« احترام تصديق اللفظ والمعنى حتى تحقق الإفهام (1) » .

وقد تكون هذه الغاية التعليمية . بالإضافة إلى العامل الديني الذي سبق
أن تحدث عنه . السبب الذي دفعهم إلى التنقيب في تراث الأمم الأخرى
ليصنعوا عن آرائها في الموضوع . « ولعلّ صيغهم هذا هو الذي شجع على
ترجمة كتب الخطابة لأرسطو منذ فترة مبكرة . ترجع إلى منتصف القرن
نثاني للهجرة أو إلى أواخره على أكثر تقدير » (2)

— وكانت الطائفة الثالثة تقوم على تأديب « الكتاب » المحققين في
مؤسسات الدولة بديوان الرسائل والكتابة .

ويعود ظهور هذه الطبقة إلى عهد النرسون والحكام الراشدين من بعده
وكبر آذاك ، عرباً من الصحابة وذوي الميرى ، يجرّون ، في مراسلاتهم ،
على مستقيم اللسان وخالص اللغة . ثم أصبحت الكتابة . بتصور الدولة
وفساد لسان . صناعة من جملة الصاعات تقوم على التعمم والسرية
والاختصاص : « فلما عبد اللسان وصار صناعة احتصّ بمن يحسنه » (3) .

وقد تسورت هذه الطبقة واشتد أمرها مع تكوين الدواوين الإسلامية ،
على عهد عمر ابن الخطاب (4) . وبلغت الذروة في العهد العباسي (5) .
وكان نقاشون عليها . في المشهور ، من غير العرب . خاصة المرس . وهم

(1) انظر النسخ الكامل لهذه الصحيفة : البيان والتبيين ، 1/135 - 139

(2) جدير أحمد صمور ، الصورة الفنية ، ص 123 .

(3) انظر : ابن خلدون ، المقدمة ، دار الكتاب العربي ط 3 بيروت 1967 ص 4-6

(4) انظر : المعشيري ، القوزاء والكتاب . مطبعة احلبي . ط 3 ، انظر ، 938 ،
ص 16 - 20

(5) انظر : ابن خلدون ، المصدر المذكور ، ص 16 - 20

أصحاب تعاليد عريقة في هذا الشأن يجلبون الكتاب ويشرفونه شرف
سوط (1) . وكانت الكتبة طريقهم إلى بل الحطوة لدى أئمة الأمر و لارتقاء
في مصاص المرموقة في الدولة ، لذلك كانوا بأخذون أنفسهم بالنقطة لوسعه .
ويسعون إلى تجميع مصادر المعرفة ، بالإضافة إلى ما يجب أن يكون عليه
من أدب النفس مما تحتمه معايشرة الحكام وخدمة الدول .



واشتهر من بين هؤلاء جماعة اقترنت اسمها بالثر العربي وبديته خمسة
في لصف الأول من القرن الثاني ، وقد شهد لهم بتمكنهم من البلاغة
وفصل لخطاب (2) حتى ضيع في مراتهم الحكام والأمراء (3) . وعنده
مصر ب لأمثال . ويأتي على رأسهم عبد الحميد ابن يحيى (ت. 132) الذي
غلبت صدعته اسمه فأصبح يعرف بها . وقد قال فيه أبو جعفر منصور
لن آل الأمر إلى بني العباس ، احترنا بمكانته في الكتابة ومكانة بكتابة
في تدعيم الدولة ، « غلبنا بنو مروان بثلاثة أشياء : بالحجاج ، وبعد حميد
بن يحيى لكتاب ، وبالمؤذن العليكي » (4) .



(1) يقول جيهشاري ، المصدر السابق ، ص 9 : « ولم يكن يركب تعديل في أيام العرب ولا
ذلك والكتاب والمصافي » .

(2) دوه الجاحظ ببلاغتهم في أكثر من موضع في كتابه البيان والبيان وبع من شهر سبب
ما ورد 1971 حيث يقول : « أما إذا قلنا أن هذا مثل طريقته في البلاغة من الكتاب ، فإنهم
قد سبوا من الأعداء ما لم يكن صاعرا وحشي ولا ماقطاً موشراً » وانظر أيضاً ، نفس
المصدر ، 244 .

(3) بورد جيهشاري في تحار : « عند الحمد بن يحيى » حكاية عن ابن أبي عمير عن
« بعد كلام أحد أن يكون في إلا كلام عبد الحميد ، حيث يقول في دناه : « الناس
أعداء محبته ، وأعداء محبته » منهم علو مصة لا ماع ، ومنهم على مصد لا يبدع »
« د صر من أسيار : « الإعجاب منلو دعه في الكتبة . المصدر نفسه ، ص 82 .

(4) جيهشاري ، المصدر المذكور ، ص 81 .

وقد تكون دقة هذه الصناعة اللسانية التي يربط ابن خلدون ظهوره بحضرة لص العربية وببلاغة العبارة فيها (1) . مسأ في ظهور - دمج في التأليف . منذ وقت مبكر غايته مدّ أصحابها بالعلوم التي تحتاج إليها مهنتهم في مهنتهم علوم اللغة وأساليب العرب في تصريفها . ولعلّ رسالة عبد حميد لكتب لمشهورة التي تناقلها الناس إلى عهد ابن خلدون هي أمدرة لأولى في هذا صوب . رغم أنها لا تعلو النصيحة العامة ولا تركز الحديث على الخصائص البلاغية (2) . وهو ما سيتوفر في الكتب المتأخرة التي تنتهي بد القرن الثالث وما بعده (3) .

والش كان هذا النوع من التأليف غير مقتصر على تعليم من لترسل عن مستوى لغة ولأساليب حتى يؤدي « الكتاب اللغة بأبلغ من العبارة للسانية في الأكثر » - على حدّ تعبير ابن خلدون - فإن جانباً كبيراً منه يتعمق بتصريف لكلام وسبله (4) . لذلك فلا مناص لها من أن تتحول في لعاب من بحث في قضايا البلاغة تعريفاً ووجوهاً (5) . بل إن منها ما سيعود من مصادر البلاغة لأساسية وهو في الحقيقة من أدب الكتاب (6) .

(1) ابن خلدون ، المصدر المذكور ، ص 436 حيث يقول : « وبهذا أكد الحاجة إليه ، في لدرية لاسلمية شأن المصنوع في البلاغة في العبارة عن المقاصد . فصار الكتاب يؤدي كنه أحسن يتبع من لدرية آتية في الأكثر » .

(2) لا تلو بلشرت الملاحة في لدرية هذه الجملة « ملقصة نزل منكم في محنة قصه الكافي من محنة وأوجر في ابتدائه وجوانه وليأخذ بمصير حجة » ، ابن خلدون ، المقدمة ص 443 وليس الجملة روايته أخرى معاملة أئمة المصنفين . البوزور ، والكتاب ، ص 78

(3) من أقدم ما وصلنا في هذا المجال رسالة إبراهيم بن إسماعيل (ت 279 هـ) الموسومة بـ « الوصاية العبد » . وقد اعتمدنا فيها على تحقيق ركبة مازة ، ط 2 ، القاهرة 1391 وأدب الكتاب دى دينة ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد أفكنة ، مطبعة دار الكتب ، ط 3 القاهرة 1939

(4) صر على سبيل المثال أدب الكتاب ص 17 (دب ما يصعب الناس في غير موضع ص 37 روبر بأويل المستعمل من مزيج لكلام) . ص 206 (باب الحروف التي تأتي بالمعنى) ص 238 (باب الحروف بتأرياتها في الفقه وهي المعنى والمكان من ربيع ناس جمع موضع آخر) : ص 239 (باب الحروف التي تتغارب ألفاظها وتحجب معانيها) .

(5) حسن من بدلا ، في رأينا الرسالة اعتراف ذلك حصص ابن إسماعيل ثماني وثلاثه صفحة من حبه ثماني وأربعين (ص 10 - 481) تحديث عن مائل بلانيه صرف

(6) مثار ذلك كتاب البرهان في وجود اليان - لإبراهيم بن واد

ذلك يمكن أن نعتبر أن هذا النوع من التأليف أعاد على اللغة تفكير
إسلامي ضد العرب في نطاق اهتمامه بتعليم من أُرسل وذلك صريحتين
بالخصوص فيما هو مشترك بين مختلف فروع العلوم التي تسعمل فيها
لغة استعمالاً قسماً واعياً يرتبط بمقاصد المحطات .

- يبرار ما يحور في من ولا يحور في آخر فربطوا بين من وأصوله
وكأنهم أشاروا بذلك إلى الفصل بين الأنواع الأدبية وإن بقي ذلك في مستوى
بسيط تحت ضلال التقسيم الثاني الكبير : المضمون والمثور .

د يستطيع أن يقول رعم قنة معوماتنا في الموضوع هذه
بحاجة إلى التعليم كانت حافرا من الحوافز الهامة . دفع العرب في نطاق
لاهتمامهم بفتحهم إلى تقصي الوسائل والأساليب التي تميز الله لإشائي في
اللغة وتجعل له ، على النعوس ، سلطانا لا يستقيم للمستوى لعددي منها .



هـ - المؤثرات الأجنبية :

يحفل موضوع تأثير البلاغة العربية بالثرات الأجنبي مكانة هامة في
الدراسات المعاصرة . ولئن أثبتت هذه القضية بمناسبة التأريخ لعلوم أخرى
غير للبلاغة (1) فإنها تشتمل . هنا نطاق خاص لعل مردة ضرور التي
تست بمختلف أطوار هذا العلم وكونها ظهرت في وقت أصبحت فيه
صفة العرب بالثرات الأجنبي أمرا واقعا .

منذ نهاية الثلث الأول من هذا القرن أشار بعض الباحثين إلى وجود
عناصر غير عربية في موروثة البلاغة والنقد استبحروا بعض . ويعتبر

(1) عن ألف-ر-الهيرو ، خواطر حول علاقة النحو العربي بالمنطق واللغة ، ج 1 ، ص 36
مؤسسة النور ، العدد 10 ، مجلة 1973 . ص 21

ساده غيرهم إلى ضرورة تعميق هذا الجانب من البحث لتتم بصورة
بصورة لأدلة عند العرب بالتوقف على محمل روايتها (١).

ومن ثمّ أصبحت هذه المسألة مبحثاً قارّاً لا يكاد يحلو منه مؤلف
متميّق بقضايا الأدب عامّة ، وقضايا البلاغة - بصغة خاصّة

وقد قدمت هذه الدراسات على أساس وسلكت مناهج و تهت بـ
تذرع برى من المفيد استعواضها على الترتيب متعجب . بعد ذلك ، بـ موقف
شخصى من الموضوع .

السبب التي أدت إلى إثارة هذه القضية .

يمكن أن تجمع هذه الأسباب في محورين رئيسيين : محور تاريخي حضري عام ومحور نسبي ، نصيبي ونوعي . جملة الإشارات والأدلة المستحصاة من مصادر البلاغة العربية بعضها ، وهي إما إحالات مباشرة وصريحة على التراث الأحمسي أو حساننر مانصقة بها في كيفية تناولها ، مسألة أو تعبيرها عن آراء ومواقف لا عهد للفترات السابقة بها ، ولا تكني لغو من الأساطير لتصويرها نصيرا مقبلا مما يحمل على البحث عن مصادرها خارج النطاق الثقافي العربي .

يسكن أن نذكر . في المنحور الأول . إلى جانب الأسباب التاريخية
بصفة التي وضعت الصلة . منذ وقت مبكر . بين الثقافة العربية والعربية
الإسلامية والثقافات شعوب أخرى محاورة لها أو متعايشة معها مثل حمير

١٠٠٠ م. وهو تدرّس في الموضوع ١ : طه حسين : أسياد العرب من أجدادهم إلى عهد
النهضة وهو بحث قدمه في المؤتمر الثاني عشر لجمعية المصنفين في عهد
سبتمبر ١٩٦١ في مدينة بيروت - ثم ترجمه « عبد الحميد الحنايني » وجمعه في مجلته كذا
في الشهر ذاته سنة ١٩٦١ إلى مقدمة من جعفر : حطّبت كلّه « أدب » آخره مصره
سنة ١٩٦٣ ، ٢ : أسرار التحول : التبليغ العربي وأثر انقلابه فيها وهو بحث نفسى من
جميعه حوّل فيه الملك عامي ١٩٦١ وفتح في كرامه مستقلة ثم أدرجه ضمن مؤلفه مناهج
تجديده في النحو والتبليغ والتفسير والأدب ، ذكر المصنفه ط ١ : ١٩٦١ م ٤٦ ، ٢٠

سياسة التفقيه في الحواضر والأمصار غير جدلية من عصر فكرية أحسية. يذكر التآخر النسبي الذي عرفته بشاعة البلاغة ناهيك أن أولى المؤلفات التي يمكن أن تعدّ - بلا ريب - صريحة النسب إلى البلاغة تنتمي إلى نهاية عرب ثالث وبداية الرابع. وهي فترة صادفت ازدهار حركة ترجمة ونقل عكر لأحسي، اليوناني خاصة، إلى اللغة العربية إما مباشرة أو عن طريق اللغة لسريانية. رد على ذلك أن الترجمة وقعوا على كتب لها علاقة مباشرة مثل على البلاغة وهما كتابا «الخطابة» و«الشعر» لأرسطو.

وقد بقي هذان المؤلفان رواجاً كبيراً آنذاك وعكف العرب على ترجمتهما وشرحهما وتلخيصهما.

فكتب «الخطابة» كان معروفاً في نهاية القرن الثالث، اعتماد على رواية من لنسيم في الفهرست حيث يقول: «الكلام على ريتوريقا ومبادئ خطابة يصاب بنقل قديم وقيل إن اسحق نقله إلى العربي ونقله إبراهيم بن عبد الله، فسرّه الفارابي أبو النصر». رأيت بخط أحمد بن الطيّب هذا الكتاب نحو مائة ورقة (1) واسحاق المذكور هو اسحاق ابن حنين المتوفى سنة 298هـ أو 299هـ.

وقد اهتمّ الفلاسفة المسلمون به وشرحه أبو نصر الفارابي (ت. 339هـ) لكن لم يكن بين أئدينا إلى سنوات قليلة مضت من خطائته إلا نزر القليل لورد في رسالته في «إحصاء العلوم» حتى وقع العثور على رسالتين له ضمن كتاب «المطلق» ويعتقد أنهما شرحا لخطابة أرسطو أو يقعان على الأقل في فكها (2).

(1) ط، م، ن، ص 250

Al Farabi, deux œuvres inédites sur la rhétorique -

(2) انظر

1) Kitab Al-Hataba;

2) Dispositio in Rethoricam Aristotelis ex Glosa Alfarabi, Publication préparée par - J. Langhade, et M. Grignaschi, Dar Al Machreq, Beyrouth, 1971

أما ابن مينا (ت. 428هـ) فقد نجس اهتمامه به في كتابين عنوان لأول
 « في معاني كتاب ريتوريقا » وهو قسم من « الحكمة العروضية » أو كتاب
 مجموع (1) وفيه يعرف الخطابة . ويحدد مقاصدها . وخصيها . بحسب .
 وندس . من طرق الاستدلال فيها . والكتاب الثاني وهو بعنوان « لخصه » وهو
 النص شمس من هون المطلق التي فكرت . بنورها . لخصته الأولى من جمل
 « نشوء » . ويشتمل على أربع مقالات تتفرع إلى فصول . وتعتبر مقالة
 لرابعة وهي تعالج ترتيب القرون الخطابي وخصائصه ومستوحى لأندس
 وأسباب ومستوحىها . أشد أقسام الكتاب صفة بالمباحث البلاغية (2) .
 كما لخص ابن رشد (ت. 595هـ) الكتاب . واستعمله بكيفية تختلف عن
 الفيلسوفيين السابقين إذ حاول أن يستشهد لتقصير المطروحة بشعر عرب
 والقرآن وقد ذهب بعض الناحيين إلى أنه لم يفهم كتاب « الخطابة » فحرفه
 جهل استطاعته (3) .

فمن الثابت . إذن أن النص العربي لهذا التأليف كان معروفا في أواخر
 القرن الثالث . وأن الاهتمام به تواصل إلى فترة متأخرة (4) . معنى ذلك
 أنه صاحب جل أطوار البلاغة العربية .

وقد عرف العرب أيضا كتاب « الشعر » يقول ابن الدير في الفهرست .
 مباشرة بعد النص المتعلق بكتاب « الخطابة » : « الكلام على أبو طيحا ومعه
 اشعر نقله أبو بشر متى من السرياني إلى العربي ونقله يحيى بن علي وقيل
 إن فيه كلاما لثامسطيوس ويقال إنه معقول إليه . وللكندي مختصر في
 هذا الكتاب » (5) .

- (1) عطار . بن مينا . كتاب المجموع . القاهرة . 1950 ص 15 - 6
- (2) عطار . بن مينا . انشاء [المطلق (الخطابة)] . تحقيق الدكتور محمد سليم ماسم .
 مطبعة الأميرة . القاهرة 1964
- (3) عطار . بن مينا . مقالة نقد لشر . ص 24 .
- (4) مجمع . بن مينا . على أن أوضح صورة الاستدلال . جاء في هذا الكتاب وكتاب الشعر (44)
 في العرب السابع محمد حارم الترمذاني (684 هـ) في كتابه مناهج البقاء وسراج الأديبة
 محمد بن الخطيب لشوحه . تونس 1966 .
- (5) ص 250

في كتاب . كما هو واضح في النص : ترجمتان بقيتا لنا منهما واحدة
نسب إلى متى بن يوسف النخعي (ت. 328هـ) تجمع المراجع على رده
وعلاق أكثر من فقراتها على الفهم . وقد اعتنى الباحثون بها عناية خاصة
لكونها نسخة بديعة عظيمة الفائدة من عدة جوانب ففكروا في شرحها
وحرروا نصها وتواصل ذلك الاعتناء إلى اليوم (1)

كما يشير النص إلى مختصر وضعه رأس الفلاسفة العرب الكندي
(ت 252هـ) ولكنه لم يصلنا وإشارة ابن الأثير هذه . بالإضافة إلى عشرات
أخرى واردة في بعض المصادر العربية تنسب إلى إسحاق بن حنين ترجمة
لكتاب الشعر (2) . وصفت أمام الباحثين حملة من قسط الاستشهاد نصيب
الإجابة عنها ما لم تقف على مختصر الكندي

وقد عنى الفلاسفة العرب بهذا الكتاب عنايتهم بالكتاب السابق ،
ووصفت جملة من المنحصرات والرسائل متفاوتة القيمة في فهمها تقصيده ومختلفة
في طريقة استعمالها لجملة القوانين الشعرية التي يتضمنها . وأشهر هذه الرسائل
رسالة لأبي في قوانين صناعة الشعر : وابن سينا «فن الشعر» وابن

(1) أول من نشر النص العربي اعتماداً على النسخة الوحيدة الموجودة بالكتب الروسية بريس
تحت رقم (2346 عربي) ، منشور في الانكليزي من مارجووث (Margouthe) بسنة
سنة 1887 ، في كتابه *Analecta Orientalia ad Poeticam Aristoteleam* ثم نشر
كتابته نسخة ثانية بعد ذلك بحوالي نصف قرن من طرف ج . كاتش (J. Katsch) في كتابه
*Die Arabische Übersetzung der Poetik des Aristoteles und die Grund-
lage der Kritik des Griechischen Textes*.

وقد ظهر جزء الأول من هذا العمل سنة 1928 والجزء الثاني سنة 1932 وبيد أ .
شربتس ، باعتباره لم يسلط من القيود وخاصة فيما يتعلق بتحرير بعض فقرات النص
العربي القديم وقراءته بطريقة بطرس المصطفى ، فذكرى جملة من أبحاثه «عرب مختصر»
في اللغة والآداب المجلد إلى إعادة نشر تلك أبحاثه وتوضيحها بمعالجتها «عرب
اليوناني من صاحبه وترجمة حديثة يقترحونها بذلك نص يذكر من هؤلاء .

أ . سكري محمد عبد . كتاب أرمطو طائيس في الشعر نقل أبي في نشر من بن يوسف
الفناني ، من المجلد الثاني أن العربي ، دار الكتب العربي لطاعة والشر ، القاهرة ،
1967 ، (الملاحقة أب انصحت هذه به صاحبه في أوائل السنين وبيع انصحت 1952)

به عبد فرحان بنوي . أرمطو طائيس في الشعر مع الترجمة العربية القديمة ، شرحه
بدرامي وابن سينا وابن شد ، دار الثقافة ، بيروت ، ط 2 ، 1973

(2) انظر . عبد فرحان بنوي لكتاب المذكور . ص 50 .

ش. سحبيش كتاب ارسطو طائيس في الشعر : وقد نشرت مطبوعته في
مواطن محبته وجمعها بعد ذلك عبد الرحمن بدوي في الكتاب الذي ذكره

و هو "الحس في الهيثم" (ت. 430هـ) وضع رسالة في صناعه شعر
ممنوحه من سوسي والعربي إلا أننا لا نعرف عن هذه الرسالة شيئاً يذكر (1)

وكتب "الشعر" دعم ما يحيط بتاريخ دحواله إلى البيئه العربية من
عموص متأث من صباغ بعض الأعمال المتصلة به كمختصر الكندي المذكور .
كتب معروف في ترجمة عربية . مجددة القيمة لا محالة ؛ في الثلث الأول من
نقوب مربع . بل إن مترجمه كان على صلة بأحد "أعلام" البلاغة والنقد .
قدامة بن جعفر (2)

نستنتج مما سبق أن كتابي "الخطابة" و"الشعر" كانا مترجمتين
في فترة شهدت بوادر التأليف المستقل في من "البلاغة مع كتاب" السبع
لعبد لله بن المعتز (ت. 296هـ) : ونهجاً في نقد الشعر لم نصدف مثله في
المحاولات سابقة يعني بذلك "نقد الشعر" لقدامة بن جعفر (ت. 326هـ) .

وبالإضافة إلى هذه العوامل التاريخية الثابتة التي تدل على أن البيئه
الثقافية عربية لم تكن أحسبه عن تيارات في التفكير نصحت في سياقات حصرية
تختلف عن سياق العربي . وعلى أن المعطيات الموضوعية لعملية التفاح
الفكري متوفرة . نذكر عوامل أخرى جعلت البحث في علاقة البلاغة بالعكر
الأجيبى يكتسي صفة خاصة . وجماليتها تدخل في المحور الثاني الذي سميناه
"لأسباب النصية" .

(1) عمر : محمد مطروب عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده . نشر وكالة المطبوعات
بمكاتب ط . ع . بيروت : 1971 ص 293 .

(2) نصر : شكري محمد ع . د . فكتب المذكور . ص 234

ولاحظ أشار أكثر من مرة ، في مواضع مختلفة وفي سياق اهتمامات
مماثلة ، إلى مصادر أجنبية :

فهي ستذكر الخبواك المشهور الذي يؤرخ فيه ميلاد شعر عربي
بذكر . دمنة واحدة ويندون تحصيل . كتب أرسطاطاليس وأفلاطون
وإبيموس وديمقراطس وقد يبدو إيراد هذه الأسماء غريباً ، لأول وهبه ،
ويمكن . تترين النص في الكتاب ، فهم أنه يرجع للكتاب على رويته وبين
أفصه في ط على التراث وثيقته (1) .

وفي نطاق إيراد أهمية الدور في الشعر العربي يشير إلى تراث ثلاث
أمم : الهند والفرس واليونان مقترنة بأفعال تصيد الترجمة والتحويل مشعرة
دلت بحكم مصادره أن هذا التراث إن لم يزد ، بالنقل ، حسناً فم ينقص
من أصله شيء . إلا أنه لا يصحح باللغة التي ترجمت إليها ولا يذكر أنه
صنع عنها . كان الحكم الذي انته به يرجع أنه رآها أو سمع عنها فيما
كان يدور في الحلقات من مناقشات (2) .

كما أشار ، وهو يؤكد على حاجته الكتاب إلى إيفهام معانيه . في كتاب
« منطق » مقرر ، أن أكثره يستعصي على أفهام الخطباء وابعاء لأن ثمنه
يحسج « في أن يكون السامع عرف حجة الأمر وتعود اللفظ سطحي أسدي
ستخرج من جميع الكلام » (3) والغائب على النظر أنه يعني مصق رسطو
لدي قد يكون الجاحظ اطلع على أعماله منه تشير المصادر إلى ترجمته في
وقت مبكر (4)

(1) انظر : الجاحظ : الحيوان ، 1/245

(2) انظر : الكتاب المذكور ، 1/79

(3) نفس الكتاب ، 1/89 - 90

(4) انظر : المهرست ، ص 248 - 250

وذكر . من اليونانيين : « ديسيوموس » في مناقشته الفرق بين نفسه
 - شيء ، ومما منه وكيف أن النقاد قد يكون « كالمس » يشهد
 ولا تقصص « (1)

وبصادف . بجانب هذه السياقات العامة : مجموعة أخرى أكثر
 تصلا بقضايا اللغة والأسلوب .

فهو يذكر . كلما ساحت الفرصة : خصائص بعض اللغات الأخرى (2)
 وينقل مباشرة عن الأجانب في قضايا لغوية صرف تحتل مكانة هامة في
 تفكيره وأدبه . تربط اللغة بالحاجة وتأثير هذه في الخواطر وتصريف
 لأفهامه . - وهو مدأ من مبادئ اللغوية الكبرى كما نبيش ذلك في مكان
 آخر - أخذه عن الهنود : « وتزعم الهند أن سب ماله أكثر كلام سأس
 وحسنت صور أهدتهم ومخارج كلامهم ومقادير أصواتهم في اللين وشدة
 وفي مد والقطع كثرة حاجاتهم ولكثرة حاجاتهم كثرت خواطرهم وتصريف
 أهدتهم وتسمت على قدر اتساع معرفتهم » (3) .

وسباقات كتاب « الحيوان » (4) لا تلبس . على أهميتها . ما ورد في
 « لبيان وتبيين » الذي تبدو فيه العناصر الأجنبية أكثر امتزاجا ووثق تصلا
 بأساليب البلاغة وفنون القول .

وتعتبر « النصيحة الهندية » من أبرز هذه السياقات ومن أوضحها دلالة
 على امتزاج الثقافة العربية بثقافات أجنبية واستفادة البلاغة في أطوارها الأولى
 من موروث الحضارات الأخرى .

(1) محمد الحيوان - 290/1 .

(2) نظر من جديد عن الاشتغال في اللغة القادسية : بعض طرقه وانتقال على ذلك . الحيوان . 143 .

(3) الحيوان 214 .

(4) ذكر محمد في كتاب « الحيوان » من الإحاطة على كثير لأهميته بهذا المعنى . كثير
 . بعد من موروث الحضارات . انظر 53/2 ، 137/3 ، 513 ، 365/5 ، 502 ، 44/6 ، 226 ، 84 .

و صرفة الحافظ في تقديمها ثلث أسطر . فهو يمهّد لها بذكر ملائمة
 . يحسنه نحمدا على التصديق بكونها حدثا تاريخيا واقعا . قد أشار إلى
 . حودها شخص " هدي الأصل (تهلة) ذكر اسمه مفرقا بأطباء . هود
 مستجلهم . البرامكة . وإشارة « بهنة » إلى الصحيفة كانت جوابا عن سؤال
 يستكشف حدة اللاعة عند اليهود . ويقوّي النفس بوحودها بحمدته عن
 ترجمتها بحروجه عن اختصاصه واستعانة السائل بالترجمين للوقوف على
 محتواها . وبعد استعراض هذه الظروف « التاريخية » بورء الحافظ نص
 الرسالة مترجما

ويمكن أن يصط «هم» مواضع هذه « الصحيفة » في المحرر لآنية :
 أم الحضان التي يجب أن تتوفر في الخصب والهيأة التي يتحتم عليه
 أن يبرز عليها أمام الناس .

ط) ضرورة مراعاة منزلة مخاطبه وطبقاتهم ويتجسّى ذلك في
 مستويين : اختيار المستوى اللغوي المناسب لهم . واقتصاره في منه على الحكمة
 والعلاسفة وأهل اللاغة .

ج) ضرورة أن يتضلع من علوم أخرى . ونلاحظ أنه وقع لاقتصار
 على « صناعة الملق » بضط الجوانب التي تصلح منه للحطّيب وتحديد الكيفية
 التي تستعمل على أساسها مقولاته .

د) حملة من المقاييس تتعلق بصفات اللط وعلاقة ذلك بمعنى ورتبه
 هذا وذلك بالموضع .

هـ) قدرته على بناء خطته بناء محكما وألا ينسى : في الأثناء . ما عقد
 عليه كلامه في البدء .

و) تهيب من موقف الخطابة والرجوع مرة أخرى إلى صحت اللط
 ثمّ تحتم لرسالة بالإلحاح على مسألة مراعاة المقام (1) .

وقد جاءت مباشرة قبل هذه الصحيفة حملة من حدود البلاغة مسورة
بـ "أفرس واليونان والروم والهند" (1).

وفي "سيد والتيس" مباح آخر (2) لا يقل أهمية عن السابق ويكشف
عن إحدى عيوب الجاحظ من تأليفه إذ تبدو فيه انزعاج الدفاع عسة وبهجة
مؤلف حدة في درجته لم نعهد لها فيه - إذ هو في موقف دفاع على "عرب صمد"
شعرية يبدد فيه قصارى جهده لينهي عن بقية الأمم سمة البلاغة والفصاحة .
ويحصن بها "عرب دول غيرهم" لكنه لم يستطع أمام الحجة القاطعة والوثائق
تاريخية أن يركب هذه "الحجالة" سوى بين "أفرس والعرب في لحظة
وفصل" "عرب بالبيدة والارتجال والطمع" (3).

ويكشف هذا العدد الذي تحرّج الجاحظ في حوصه أي "تخرج عن
جملة من الأمور الهامة :

— دور "العصر الأجنبي" في وصل البيئة العربية بالثقافات الأجنبية
وإستخدامها إياه . في أغراض سياسية كاستقصاء العرب بإثبات سبق غيرهم
في ما يُعتدّ فخروهم .

— الإهانة على معرفة الجوانب التي اشتهرت بها مختلف الحضارات
في بيئة العربية والكشف عن أمور لا تمكنا معرفتنا اليوم بردّها إلى مصدبها
ونصرب لذلك مثلاً حديث الجاحظ عن الجانب الذي عرفه العرب من الحضارة
"يونانية" "ونوردانية" فسمعة وصناعة مطلق . وكان صاحب المنطق نفسه يكي
للإسك . غير موصوف بالبيان . مع علمه بتعمير الكلام وتمصيبه ومعدّبه
ومحصن نفسه . وهم يرغمون أن "جاليوس كان أنطق الناس ولم يدكروه
بالحكمة ولا بهذا الجنس من البلاغة" (4) .

(1) "الهند والتيس" . 88/1

(2) "مصدر السابق" 30

(3) "مصدر" . 28/3

(4) "أفيد والتيس" . 27/3 28

وكيف حصلت للجاحظ هذه المعلومات الدقيقة عن أرسطو ؟ ومن أين صرى عرف علمه بتميز الكلام ؟ هل عرف ذلك من أبواب المنطق التي ترجمت عنه أم أنه اطلع على بعض ما كُتِبَ انطلاقاً من كتاب « الشعر » ؟ ليس في وسعنا أن نجيب عن هذه التساؤلات ما لم نقع على بعض الخبثات المفقودة من تراثنا .

وإن عَمَّ مسألة التأثير في حدود هذه الفترة بل نعلتها كانت في الخبثات موزية أكثر وصوحاً وأشدّ اتصالاً بمشاغلنا ونرى أن تتجاوز حدود قصصنا ونشير إلى مؤلفات أخرى نعتبرها كذلك تعين على توصيح مصدق هذه الفصيلة ومآلاتها في تراثنا اللغوي والنحوي .

إبراهيم بن المديبر (ت. 279هـ) ، معاصر الجاحظ ، أشار إلى أرسطو مرتين في موضوع حساسة وطريقة في البلاغة العربية . ولكنه سكّث عن المصدر الذي استقى منه ذلك . تتعلق الإشارة الأولى ببعضهم في أسوع السوال وصروب الوسائل التي يمكن أن تؤدّي معنى استعملت الرموز «غوية أو لم تستعملها» وهو ما يدخل اليوم في نطاق « علم العلامات » (1) يقول « وصال عن المعنى أربعة أصناف . لفظ وإشارة وعقد وخط وذكر أرسطو طيبس حساساً وهو التنبه » (2) .

وليس ابن المديبر أول من أشار إلى ذلك فالجاحظ سبق أن تعرض إلى ذلك في كتاب « الحيوان » بدون أن يحيل على أي أثر أحسني (3) .

ثمّ لإشارة الثانية فهي إيراده تعريفاً للبلاغة منسوبة إلى أرسطو وهو قوله « بلاغة حسن الاستعارة » (4) . ولم نستطع الوقوف على مصدره في

(1) Sémiologie

(2) المصدر : الرسالة العدد 40 .

(3) ليس بأسراً أن نذكر هذه هي التي حصلت بعض الباحثين على القول بأن الجاحظ تأثر به من مصدر « شعر » في باب أنواع العلامات انظر شكري محمّد عبيد القريب المذكور من 23

(4) الرسالة العدد 46 و نظر أيضاً ابن شبق العدد 246/1

أحد منه من المؤثر هذا التعريف . فليس في « خطابة » أرسطو « شعر »¹ ، لإصافه إلى أننا نحتاج أن ترجمتهما وقعت بعد وفاة الرجل . سياف يشبه « أشته في سائته . بل إن من الباحثين من يجزم بأن أرسطو « لا يعرف كلمة شعرة بل كلمة نقل ومعجار » (1) . أمّا الفلاسفة المسلمون² فإن شرحوا كداسي³ تصور عندهم يستعملون هذا المصطلح ولكنهم لم يصربود نسبة دلبلاغة (2) .

أمر فداصة بن جعفر : وقد اعتبر مؤلفه « نقد الشعر » أول تحصيله للمؤثرات الأخسية في النقد العربي . فلم يحل على التراث الأحسي . لا مرتين فقد ذكر فلاسفة اليونان إجمالاً عند مناقشته قضية « العلو » في شعر « (...) وب' العلو عذني أجود المذهب وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بشعر وأشعره قديما وقد يلقي عن بعضهم أنه قال : أحسن الشعر أكابره وكده يرى فلاسفة اليونانيين في الشعر على مذهب لغتهم » (3) .

وش اعتبر الباحثون هذا السبق من مظاهر التأثير بنظريات اليونان في الفن الأدبي فقد احتملوا في طريقة إثبات ذلك ولم يكونوا على نفس لدرجة من الاقتناع . فقد قرب بعضهم هذا بما جاء في نهاية الفصل الخامس والعشرين من كذب « الشعر » إذ يقرر أرسطو . أن « الشيء الممتنع يرد » في شعر ، ويرد « في مبالغة امثالية ويمكن أن يكون الشاعر من هذا الممتنع فكرة خاصة لأن طبيعة الشعر تفصل بل تؤثر الممتنع المحتمل أكثر من غير محتمل فقط » (4) .

(1) ج. هـ. س. س. بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ، مطبعة الأمل ، ص 2 « المجلد 2 » 992
ص 2.

(2) سطر من سطر الخطابة : 199 ، 263 ، 205 ، 206 ، 208 ، 7 ، 8 ، 9 ، 10 ، 11 ، 12 ، 13 ، 14 ، 15 ، 16 ، 17 ، 18 ، 19 ، 20 ، 21 ، 22 ، 23 ، 24 ، 25 ، 26 ، 27 ، 28 ، 29 ، 30 ، 31 ، 32 ، 33 ، 34 ، 35 ، 36 ، 37 ، 38 ، 39 ، 40 ، 41 ، 42 ، 43 ، 44 ، 45 ، 46 ، 47 ، 48 ، 49 ، 50 ، 51 ، 52 ، 53 ، 54 ، 55 ، 56 ، 57 ، 58 ، 59 ، 60 ، 61 ، 62 ، 63 ، 64 ، 65 ، 66 ، 67 ، 68 ، 69 ، 70 ، 71 ، 72 ، 73 ، 74 ، 75 ، 76 ، 77 ، 78 ، 79 ، 80 ، 81 ، 82 ، 83 ، 84 ، 85 ، 86 ، 87 ، 88 ، 89 ، 90 ، 91 ، 92 ، 93 ، 94 ، 95 ، 96 ، 97 ، 98 ، 99 ، 100 ، 101 ، 102 ، 103 ، 104 ، 105 ، 106 ، 107 ، 108 ، 109 ، 110 ، 111 ، 112 ، 113 ، 114 ، 115 ، 116 ، 117 ، 118 ، 119 ، 120 ، 121 ، 122 ، 123 ، 124 ، 125 ، 126 ، 127 ، 128 ، 129 ، 130 ، 131 ، 132 ، 133 ، 134 ، 135 ، 136 ، 137 ، 138 ، 139 ، 140 ، 141 ، 142 ، 143 ، 144 ، 145 ، 146 ، 147 ، 148 ، 149 ، 150 ، 151 ، 152 ، 153 ، 154 ، 155 ، 156 ، 157 ، 158 ، 159 ، 160 ، 161 ، 162 ، 163 ، 164 ، 165 ، 166 ، 167 ، 168 ، 169 ، 170 ، 171 ، 172 ، 173 ، 174 ، 175 ، 176 ، 177 ، 178 ، 179 ، 180 ، 181 ، 182 ، 183 ، 184 ، 185 ، 186 ، 187 ، 188 ، 189 ، 190 ، 191 ، 192 ، 193 ، 194 ، 195 ، 196 ، 197 ، 198 ، 199 ، 200 ، 201 ، 202 ، 203 ، 204 ، 205 ، 206 ، 207 ، 208 ، 209 ، 210 ، 211 ، 212 ، 213 ، 214 ، 215 ، 216 ، 217 ، 218 ، 219 ، 220 ، 221 ، 222 ، 223 ، 224 ، 225 ، 226 ، 227 ، 228 ، 229 ، 230 ، 231 ، 232 ، 233 ، 234 ، 235 ، 236 ، 237 ، 238 ، 239 ، 240 ، 241 ، 242 ، 243 ، 244 ، 245 ، 246 ، 247 ، 248 ، 249 ، 250 ، 251 ، 252 ، 253 ، 254 ، 255 ، 256 ، 257 ، 258 ، 259 ، 260 ، 261 ، 262 ، 263 ، 264 ، 265 ، 266 ، 267 ، 268 ، 269 ، 270 ، 271 ، 272 ، 273 ، 274 ، 275 ، 276 ، 277 ، 278 ، 279 ، 280 ، 281 ، 282 ، 283 ، 284 ، 285 ، 286 ، 287 ، 288 ، 289 ، 290 ، 291 ، 292 ، 293 ، 294 ، 295 ، 296 ، 297 ، 298 ، 299 ، 300 ، 301 ، 302 ، 303 ، 304 ، 305 ، 306 ، 307 ، 308 ، 309 ، 310 ، 311 ، 312 ، 313 ، 314 ، 315 ، 316 ، 317 ، 318 ، 319 ، 320 ، 321 ، 322 ، 323 ، 324 ، 325 ، 326 ، 327 ، 328 ، 329 ، 330 ، 331 ، 332 ، 333 ، 334 ، 335 ، 336 ، 337 ، 338 ، 339 ، 340 ، 341 ، 342 ، 343 ، 344 ، 345 ، 346 ، 347 ، 348 ، 349 ، 350 ، 351 ، 352 ، 353 ، 354 ، 355 ، 356 ، 357 ، 358 ، 359 ، 360 ، 361 ، 362 ، 363 ، 364 ، 365 ، 366 ، 367 ، 368 ، 369 ، 370 ، 371 ، 372 ، 373 ، 374 ، 375 ، 376 ، 377 ، 378 ، 379 ، 380 ، 381 ، 382 ، 383 ، 384 ، 385 ، 386 ، 387 ، 388 ، 389 ، 390 ، 391 ، 392 ، 393 ، 394 ، 395 ، 396 ، 397 ، 398 ، 399 ، 400 ، 401 ، 402 ، 403 ، 404 ، 405 ، 406 ، 407 ، 408 ، 409 ، 410 ، 411 ، 412 ، 413 ، 414 ، 415 ، 416 ، 417 ، 418 ، 419 ، 420 ، 421 ، 422 ، 423 ، 424 ، 425 ، 426 ، 427 ، 428 ، 429 ، 430 ، 431 ، 432 ، 433 ، 434 ، 435 ، 436 ، 437 ، 438 ، 439 ، 440 ، 441 ، 442 ، 443 ، 444 ، 445 ، 446 ، 447 ، 448 ، 449 ، 450 ، 451 ، 452 ، 453 ، 454 ، 455 ، 456 ، 457 ، 458 ، 459 ، 460 ، 461 ، 462 ، 463 ، 464 ، 465 ، 466 ، 467 ، 468 ، 469 ، 470 ، 471 ، 472 ، 473 ، 474 ، 475 ، 476 ، 477 ، 478 ، 479 ، 480 ، 481 ، 482 ، 483 ، 484 ، 485 ، 486 ، 487 ، 488 ، 489 ، 490 ، 491 ، 492 ، 493 ، 494 ، 495 ، 496 ، 497 ، 498 ، 499 ، 500 ، 501 ، 502 ، 503 ، 504 ، 505 ، 506 ، 507 ، 508 ، 509 ، 510 ، 511 ، 512 ، 513 ، 514 ، 515 ، 516 ، 517 ، 518 ، 519 ، 520 ، 521 ، 522 ، 523 ، 524 ، 525 ، 526 ، 527 ، 528 ، 529 ، 530 ، 531 ، 532 ، 533 ، 534 ، 535 ، 536 ، 537 ، 538 ، 539 ، 540 ، 541 ، 542 ، 543 ، 544 ، 545 ، 546 ، 547 ، 548 ، 549 ، 550 ، 551 ، 552 ، 553 ، 554 ، 555 ، 556 ، 557 ، 558 ، 559 ، 560 ، 561 ، 562 ، 563 ، 564 ، 565 ، 566 ، 567 ، 568 ، 569 ، 570 ، 571 ، 572 ، 573 ، 574 ، 575 ، 576 ، 577 ، 578 ، 579 ، 580 ، 581 ، 582 ، 583 ، 584 ، 585 ، 586 ، 587 ، 588 ، 589 ، 590 ، 591 ، 592 ، 593 ، 594 ، 595 ، 596 ، 597 ، 598 ، 599 ، 600 ، 601 ، 602 ، 603 ، 604 ، 605 ، 606 ، 607 ، 608 ، 609 ، 610 ، 611 ، 612 ، 613 ، 614 ، 615 ، 616 ، 617 ، 618 ، 619 ، 620 ، 621 ، 622 ، 623 ، 624 ، 625 ، 626 ، 627 ، 628 ، 629 ، 630 ، 631 ، 632 ، 633 ، 634 ، 635 ، 636 ، 637 ، 638 ، 639 ، 640 ، 641 ، 642 ، 643 ، 644 ، 645 ، 646 ، 647 ، 648 ، 649 ، 650 ، 651 ، 652 ، 653 ، 654 ، 655 ، 656 ، 657 ، 658 ، 659 ، 660 ، 661 ، 662 ، 663 ، 664 ، 665 ، 666 ، 667 ، 668 ، 669 ، 670 ، 671 ، 672 ، 673 ، 674 ، 675 ، 676 ، 677 ، 678 ، 679 ، 680 ، 681 ، 682 ، 683 ، 684 ، 685 ، 686 ، 687 ، 688 ، 689 ، 690 ، 691 ، 692 ، 693 ، 694 ، 695 ، 696 ، 697 ، 698 ، 699 ، 700 ، 701 ، 702 ، 703 ، 704 ، 705 ، 706 ، 707 ، 708 ، 709 ، 710 ، 711 ، 712 ، 713 ، 714 ، 715 ، 716 ، 717 ، 718 ، 719 ، 720 ، 721 ، 722 ، 723 ، 724 ، 725 ، 726 ، 727 ، 728 ، 729 ، 730 ، 731 ، 732 ، 733 ، 734 ، 735 ، 736 ، 737 ، 738 ، 739 ، 740 ، 741 ، 742 ، 743 ، 744 ، 745 ، 746 ، 747 ، 748 ، 749 ، 750 ، 751 ، 752 ، 753 ، 754 ، 755 ، 756 ، 757 ، 758 ، 759 ، 760 ، 761 ، 762 ، 763 ، 764 ، 765 ، 766 ، 767 ، 768 ، 769 ، 770 ، 771 ، 772 ، 773 ، 774 ، 775 ، 776 ، 777 ، 778 ، 779 ، 780 ، 781 ، 782 ، 783 ، 784 ، 785 ، 786 ، 787 ، 788 ، 789 ، 790 ، 791 ، 792 ، 793 ، 794 ، 795 ، 796 ، 797 ، 798 ، 799 ، 800 ، 801 ، 802 ، 803 ، 804 ، 805 ، 806 ، 807 ، 808 ، 809 ، 810 ، 811 ، 812 ، 813 ، 814 ، 815 ، 816 ، 817 ، 818 ، 819 ، 820 ، 821 ، 822 ، 823 ، 824 ، 825 ، 826 ، 827 ، 828 ، 829 ، 830 ، 831 ، 832 ، 833 ، 834 ، 835 ، 836 ، 837 ، 838 ، 839 ، 840 ، 841 ، 842 ، 843 ، 844 ، 845 ، 846 ، 847 ، 848 ، 849 ، 850 ، 851 ، 852 ، 853 ، 854 ، 855 ، 856 ، 857 ، 858 ، 859 ، 860 ، 861 ، 862 ، 863 ، 864 ، 865 ، 866 ، 867 ، 868 ، 869 ، 870 ، 871 ، 872 ، 873 ، 874 ، 875 ، 876 ، 877 ، 878 ، 879 ، 880 ، 881 ، 882 ، 883 ، 884 ، 885 ، 886 ، 887 ، 888 ، 889 ، 890 ، 891 ، 892 ، 893 ، 894 ، 895 ، 896 ، 897 ، 898 ، 899 ، 900 ، 901 ، 902 ، 903 ، 904 ، 905 ، 906 ، 907 ، 908 ، 909 ، 910 ، 911 ، 912 ، 913 ، 914 ، 915 ، 916 ، 917 ، 918 ، 919 ، 920 ، 921 ، 922 ، 923 ، 924 ، 925 ، 926 ، 927 ، 928 ، 929 ، 930 ، 931 ، 932 ، 933 ، 934 ، 935 ، 936 ، 937 ، 938 ، 939 ، 940 ، 941 ، 942 ، 943 ، 944 ، 945 ، 946 ، 947 ، 948 ، 949 ، 950 ، 951 ، 952 ، 953 ، 954 ، 955 ، 956 ، 957 ، 958 ، 959 ، 960 ، 961 ، 962 ، 963 ، 964 ، 965 ، 966 ، 967 ، 968 ، 969 ، 970 ، 971 ، 972 ، 973 ، 974 ، 975 ، 976 ، 977 ، 978 ، 979 ، 980 ، 981 ، 982 ، 983 ، 984 ، 985 ، 986 ، 987 ، 988 ، 989 ، 990 ، 991 ، 992 ، 993 ، 994 ، 995 ، 996 ، 997 ، 998 ، 999 ، 1000 .

(3) نقد الشعر . تحقيق بروكاكر : نوفل 956 . ص 26
4) برهه سارة : تكملة المذكور : ص 161

أما محقق الكتاب ، بوبيا كر ، فيبدو أكثر احترازا ، وقد أبدى ذلك ، في مقدمة التحقيق المكتوبة بالانجليزية ، بطريقتين :

« بحث ، أولا عما يُمكن أن يعثر ، في التراث العربي ، على هذه نظرية ضرب بين مصطلحي « الإفراط » أو « الإفراط في بصفة » ومصطلح « العلو » وقد وقع على هذه المعاهيم في مؤلفات أشهر أصحاب بدعتهم ، بن سسة العربية في التأليف (1) كما بين من ناحية ثانية أن لا نجد عند إعرين استحسانا للعلو إلى هذا الحد . ولذلك فمن الممكن أن يكون هذا التعريف متأثرا بالمكرة الاعربية أو صبح عن علف في هذه نص لأصلي (2) .

أما الإشارة الثانية فقد وردت في القسم المخصص للمعني بمسألة حديثه عما سمعه ، عمنى القوة الميسرة « فذكر كتاب « أخلاق لنفس » لجالينوس (3) ويبدو أنه لم يبق من هذا الكتاب إلا ملخص عربي ليس فيه ما يمكن أن يكون أصلا لاستشهاد قدامة (4) .

أما اسحاق بن إبراهيم بن وهب الكاتب (الصف الأول من القرن الرابع) صاحب كتاب « السرحان في وجوه البيان » الذي نسب خطأ إلى قدمه فإنه أُنسب بسيا . في الإشارة إلى اليونان خاصة أرسطو :

(1) مقدمة تحقيق نقد الشعر من 30 - 31 وفي اسمين بن ثيب ، من الشعر و شعره ، ص 1 ، لندن 1902 بطراوة الإفراط ، ص 88 ، 794 ، 505 ، 415 ، 527 في جين سبيل بن المنصور في البدع بشر كرايشكوفسكي ليد 1935 « لإمر من في نسخة » ص 65 ، ولعله من العاريف أن يشير إلى أن « تعلية » في قواعد الشعر تحقيق رشيد عبد عرب ، دور المعرفة - أصدره 1966 يتصل بالأخ على مفهوم الإفراط في الاعرنة وفرب بذلك من دول ثنائية ص 49
أما سبيل والمثلوث كواكب ، دا ظلمت في سنة سبيل كواكب

(2) من سبيل هذه القصة في التراث العربي بعض الإشارات الواردة في هذه ملاحظات حول مفهوم الشعر عند العرب . ص 50 نصفي الأدب العربي . ص 50 سبيل كواكب والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية التي لمجدمة لتوسية - تون 1978 ص 238-239

(3) نقد شعر ص 45

(4) من سبيل كرايشكوفسكي مختصر من كتاب الأخلاق لجالينوس ، مجلة الآداب جامعة فريد لأور المعرفة - 1937 ، ص 51 .

ذكره في باب «الاحتراع» وهو يستعمله في معنى صيق مرتبط سمحه وضع المصطلحات. فقد وقف من القضية موقفا متحررا مستندا إلى موقف أرسطو نفسه : « وكل من استخرج عنما واستنبط شيئا وأراد أن يضع له إسما من عنده ويواطىء من يخرج إليه عليه . فله أن يفعل ذلك (١) » وقد ذكر أرسطو صائلا ذلك وقال : إنه مطلق لكل أحد يحتاج إلى تسميته شيء يعرفه به أن يسميه بما شاء من الأسماء » (١) .

وفي استعراضه لأنواع الاستدلال يناقش قضية الحجة الشعرية أمثلة هي أم لا ؟ فيحيل على كتاب «الجدل» لأرسطو معتبرا باستعماده شعر أميرونس حجة في كتاب «السياسة» . وقد ذكر أرسطو صائلا الشعر في كتاب «الجدل» فجعله حجة مقبولة إذا كان قديما واحتج في كثير من كتب السياسة بقول أميرونس شاعر اليونانيين » (2) .

أما قضية الصدق والكذب في الشعر ، وقد سبق أن رأيناها عند قدماء ، فجندورها اليونانية أوضح هنا لسبب : فالرجل يدقق الإجابة ويربطها بأرسطو ثم يعلق ذلك بقضية الصياغة الشعرية ، مما يدل على أنه فهم المسألة على وجهها واعتبر أن الكذب لا يتعلق بالمضمون ذاته وإنما بسكيفية التي نحكيه بها وبخيله للسامع . ولشاعر أن يقتصد في الوصف أو التشبيه أو المدح أو اللطم ، وله أن يبالغ ، وله أن يسرف حتى يناسب قومه محذرا وبضميه . وليس المستحسن السرف والكذب . والإحادة في شيء من قول القول إلا في الشعر ، وقد ذكر أرسطو صائلا الشعر فوصفه بأنه الكذب فيه أكثر من الصدق ، وذكر أن ذلك جائز في الصياغة الشعرية » (3)

(١) انظر من غير المصادر اليونانية في وجود البيان ، تحقيق أحمد مطلوب ، دار الكتب الحديثة ط ١ ، ص ١١٦ . ١٩٦٧ . ص ١٥٨ - ١٦٩ .

(2) الكذب السابق ، ص ١٦٩ .

(3) المصدر نفسه ، ص ١٨٥ .

و قد دد على هذه المواطن التي تطرح قضايا أساسية في صبط حصائس
 سبب الإنشائي في اللغة . من جهة . وحرية المستعمل في التصرف في قصبة
 حوبة عدمة كقصبة المصطلحات . من جهة ثانية . نجد مساقات أخرى نسبة
 عن معرفة بعض خصائص علماء اليونان البيانية . واما يطرأ على علاقه
 بعضهم ببعض على الصعيد الاجتماعي . فمقد عدل أرسطوطاليس و أفنديس
 في أصحاب لإيجار والاحتصار وحايسوس ويوحنا السحوي من
 أصحاب الشروح والإطالة (1) . و ذكر في التحذير من السعوية والمهمة
 ولحميس اسطوان على الرعية . ما وقع يس أفلاطون و أرسطو
 بسبب ذلك شيء من التفصيل (2) .

* * *

إن البحث عن مظاهر التأثير لم تقف عند هذا الجانب الصريح الذي و
 دت على طلاع العرب على آراء غيرهم في قضايا فلسفية عامة وأخرى
 بها مساس بمشاعرهم اللغوية والبلاغية . فهو لا يكفي . وحده . معرفة
 مدى ذلك لتأثر وعيهم ومآله في التراث العربي جملة خاصة أن هذه
 لإشترت تبقى ، رغم ما ذكر . محدودة كما محصورة في آثار مؤلفين
 قليلين . ولا تمس من قضايا الأدب والبلاغة الرئيسية إلا جوب قليلة .
 مع أن الإشارة إلى تلك المواقف لا يدل حتما على تسها ولساء عليها .
 لذلك أحد هذا البحث وجهة أخرى تنفضي التراث البلاغي و نقدي -
 إلى حد المبالغة - لتقف فيه على ما يمكن أن يُحير في النظرية الأدبية ذاتها
 من واسب ذلك الاتصاف .

* * *

(1) مصدر سببو ، ص 205

(2) مصدر سببو ، ص 253

وسبح الذي مسكه جلّ الأبحاث التي اطلعنا عليها ثار يحيى مقدّم
شمر كسر أطوار البلاغة ، وإن ركز الحديث على بعضها دون بعض ،
وسبحث في التراث الأجنبي السابق معنا ، عن المصوحس التي قد تكون أصل
سبغات شبيهة بها في التراث العربي . وقد وقع الاهتمام ، بصفة خاصة ،
بكتابي أرسطو : الخطابة ، و الشعر .



وبعد من المفيد ، قبل استعراض أوجه التأثير التي وقعت الإشارة إليها
أن نذكر بعض الحصائص العامة التي بدت لنا ، مشتركة بين هذه الأبحاث :
أ) أنها تكاد تحصر البحث في التراث اليوناني ، وتكتفي ، بالنسبة
من الثقافات الأخرى ، بالإشارة العابرة . وقد تهمل الحديث عنها لعدم
ولهذا أسباب موضوعية نستخلصها من إلماح المصادر نفسها كما يبدو . على
تلك الثقافة ، ولا نستبعد الأسباب العاطفية أيضا . فقد عرفت الثقافة
لمصرية فترة إعجاب بالثقافة اليونانية وانعكس ذلك على مؤسسات تعليم ، وما
كان يجري بها من أبحاث . ويسدو أن طه حسين قام بدور هام في
توجيه البحث هذه الوجهة وإن كان لم يغفل في مقاله المذكور المشهور دور
الثقافات الأخرى .

ب) ونتيجة لذلك اعتبرت الحضارة اليونانية منطلق الحضارات بعده
في بقية وانعلم والصرف ، ولم يحظر على الباحث البحث عما قد تكون
أحدث ، هي بدورها عن حضارات أخرى أعرق منها . وكأن الباحثين
يقروا ، بذلك ، التولد الذاتي بالنسبة إليها ويرقصونه بالنسبة إلى ما جاء
بعده .

ج) ثم إن هذه الأبحاث تصدر عن تأويل خاص "حركة المد الحضاري"
فهو عندها مسار خطي يخرج فيه اللاحق من السابق فقوموا كل فكرة من
فكره سابقه وحضروا صفحا عن وقوع الحاضر على الخافرة كما تقوم عرب

أو : توارد الحواطر كما يغرب علماء النفس ، وقد يعتبروا أن محس
شئري يمنع ساسم مشترك أعظم من ثقلته يوصلهم إلى نتائج متشابهة
في فكرو في نفس الموضوع .

في التحرك من منطلق قومي : مزدوج متناقض .

— برز على الفائلين بأن العرب لم يفهموا كتابي « الشعر » و « الحظوة »
ونعهم ، نعم لذلك ، أن يكون أثرا في النظرية الأدبية عند العرب ، يثبت
أنهم فهموه وإن كان ذلك بطريقة ما (1) . إثبات أصالة التفكير العربي في
الموضوع رغم التأثير باعتبار أنهم أصبحوا إلى مصادرهم أشياء ذات بلى .



فالباب العربي ، في رأي بعضهم ، مدين . منذ كان ملاحظات متناثرة
ضمن اهتمامات أخرى لا يسطر درس موحد ولا يحصص منهجية مضبوطة
لنما قد تسرب إلى البيئة العربية من أفكار أجنبية متعلقة به ، بل ذهبوا ،
وهم يتحدثون عن القرن الثاني وبداية الثالث ، إلى أنه عربي بمادته ولغته
ببما أقيم بسوء النظري على مقولات أحبيه . ولعل أنرر ما يعبر عن ذلك
قصور طه حسين ، متحدثا عن النثر : « فالتدوين العربي سيج جمع
خبطه من البلاغة العربية في المادة واللغة ومن البلاغة المارسية في الصورة
والهيئة ، ومن البلاغة اليهودية في وحيوب الملازمة بين أجزاء العبارة » (2) .
وعر بعضهم الآخر ، أن كثيرا من القوائين والمبادئ التي تتركز
عنه بصرية الحفظ عند البلاغيين ، خاصة المنعقدة ، كمفهوم « المنفعة »

(1) انظر

F. Gabrieli : *Estetica e poesia araba Nell' interpretazione della poetica
aristotelica presso Averroes e Avicenna* Rivista degli studi orientali n° 12,
1929 pp. 291 331

« رد سكر » عنه عد عليه في كتابه المذكور ص 20 21 .

« حر » من حديث الشعر والنثر . ص 87

و « ط » « تمام بالمقال » ومراعاة « مفتضى الحب » أحسبه يذكر رده في
سومصينين وإن طريقة مقراء في توليد المعاني (1)

كما نضوا نطق العرب إلى التفرق بين خصائص اللغة في المحصن
مدى وخصائصها في الخطاب الأدبي بطريقة أرسطو في الفن لأرسى علمه
ومعهم « لإصافه خاصة وهو ركيزة الابتكار في قصوده وكانتهم
مريد لاقتراح بهذا الرأي . اعتبروا قول السيرافي . وهو في سياق نقرب
ربيع من أشد حصوم المصنوع والمناظفة . إلى معنى في المصورة مشهورة
لتي حدثت بينهما . « فهذا المعنى يكون الكلام جازم حقائق لأشياء
وأشياء حقائق » (2) اعتبروه متأثر بالمادة اللغوية . التي يعرفها « رسطو
والتي ستمسها في المنطق والاحتمال والخطابة فأدلة الخطبة عنه وأدلة
الأدبية في عمومها تؤخذ من المحتملات والمطنونات التي هي « أشياء حقائق
وحقائق الأشياء » (3)

وسبق أن ذكرنا رأيهم في تأثير الجاحظ بأرسطو في قصيدة أنواع
لدلالات وأضافوا أنه تأثر في تعريفه بين « المصيح » و « لأعجم » بأول
كتاب « العبارة » (4) .

لا أن اهتمام الباحثين قد انصب . في هذا الجانب أيضا . على قدمه
من جعفر واسحاق ابن وهب الكاتب . ودراسة أقل . عند الفهرس جرجاني
فقدامة زيادة على ألهم الجديد في ترتيب قصايا الشعر ودراسة
خصائصه على مذهب السائظ والمركبات وشعوره من مقدمة لكتب .
بأنه مباشر في التأليف مستكنا لم يسبق إليه . قد جاء حدد الشعر عنه صورة

(1) إبراهيم سلامة أكتتاب المذكور : ص 31 - 37 .

(2) انظر « أدب جبال الجوجدي » المقابلات نشر جبر الشبيبي القاهرة 1979 ص 83 .

(3) برهان سديم . كتاب اللغة . ص 57 .

(4) سكا في مجلة عند . كتاب المذكور . ص 251 - 232 .

وعنه مستمرات أخذت مطلقاً كما صيغتها المناطقية . ودعم سكونه عن
 أنهم عنصر في تعريف الشعر عند اليونان وهو المحاكاة . فقد رأى بعض
 الباحثين أنه قد اترك ذلك في باب « نعت الوصف » (1) .

وعشر تمسكه في « نعت المعاني » بمبدأ الاستحالة وناقض من
 « صدر تأثيره منطلق اليوناني إلى درجة حتمت معها ملكية النقدية و صحت
 لديه بعد انقسي وانعاطفي في العمل الشعري فراح يتحنى على شعر ونشعر
 ويحكم فيه بمقاييس صارمة أجنبية عن روحهم وفنهم (2)

وذهب بعض الباحثين إلى أن التأثير يصل . أحياناً ، إلى مرحلة
 النقل بحرفي أو يكاد وصرخواً لذلك مثلاً ما قاله في نعت الهجاء : « أنه قد
 سهل السبيل إلى معرفة وجه الهجاء وطريقه ما تقدم من قولك في باب المديح
 وأسبابه ، إذ كان الهجاء ضد المديح . فكلما كثرت أصداد المديح في شعر
 كان أهجى له » (3) .

(1) شكري محمد عبد ، « كتاب المذكرة » ، ص 258 ، ومما ذكر قدمه في هذا باب مادة
 فنية من أصل ، المذكور يقول : « مرصع إما هو ذكر الشيء بما فيه من الأجر
 وما كان أكثر وصف الشعر ، إنما يقع على الأشياء الغريبة من مبروب جديد كان أحسنهم
 وصف من أتى في شعره بأكثر معاني التي موصوف مركب بها ، ثم باظهارها في أولها
 حتى يحمي شعره ، ويمنع تحس يفته » فقد اشعر من (2)

(2) إبراهيم سلامة ، « كتاب المذكرة » ، ص 154 - 155 - وانظر على سبيل المثال موقوف
 قوله في بيت إبراهيم بن هرم :

أراد إذا ما أبصر تصبب كلبه يكفه من حبه وهو صميم

وإذا بهرح هذا أبي أحمد على مبدأ فقيه (وهو مصطلح فلسفي يستعمل في معنى لاصحاه
 والإساءة) سبها إلى « أن هذا الشاعر ألقى الكتاب الكفتم في بؤته ويكفه » « حبه بده
 عنه قوله وهو عجم من غير أن يزيد في تقول ما يدل على أن ذلك « بعد آخر ، هو
 طريقه » « فنقد الشعر » ص 129 و نظر حمله الأسلة التي حمله على لاصحه
 و منه بعض ص 124 129

(3) نقد الشعر ص 44 . ويطلق إبراهيم سلامة : في كتاب المذكرة ص 156 على عبد السيد
 بقوله : « وهذه العبارة تكاد تكون ترجمة حرفية لشعرة التي عثره من نصيب
 السادس من الكتاب الأول لمطالع أبي نصر » . وفيما يتنقل بانعقب في النقد يترك
 المديح بسند الأبيات من الثغارة الآتية : « خير كل ما كان صمد سر »

كما ، دواء نظريته العامة في جودة الشعر وقوله إن مآثها صورة كلام
وهيئة إن كتاب « الشعر » لأرسطو (1) .

وم نسم من هذا التأثير المفاهيم والمصطلحات البلاغية التي يستعملها
فوجدوا أن مفهوم « التشبيل » عنده يطبق والمفهوم اليوناني « و » حصه
بين بطرس ، مقدمة جاء من سوء فهمه لبعض سياقات كتاب النحوية (2)

أما بالنسبة إلى ابن وهب فقد أضافوا إلى الإحالات الصريحة التي
سقت معاهر أخرى ينصل أولها بهيكل الكتاب وترتيب أقسامه وهو
ينجح في تأليف لا عهد للسائقين به . تأثر به المؤلف ترتيباً لأقسام
كما وردت في « الخطابة » (3) .

ولوضوح معالم هذه الطريقة « البديعة » في التأليف وكثرة الإحالة على
تراث اليوناني رأى بعض الباحثين أنه توسع في الأخذ عن أرسطو فأضاف
إلى « لخطابة » و « الشعر » « المظني » و « الحدس » ومزج ذلك مزجاً وسع
بعقيدته ومباحث انتكلمين . وبسائل الفقهاء (4)

ومن أبرز المواطن التي شذت الانتباه ، في هذا المبحث . حديثه عن
رمز وتمريقه بين القياس المظني والقياس الخطابية أو المنصم (5) فحديثه
عن لرمز ، بالإضافة إلى نصبه إشارة صريحة إلى إكشار أفلاطون
من استعماله . فإنه واضح الأبعاد متبلور الدلالة على أنه نهج في التعبير
يقوم على فكرة الترابط بين وبين المعنى الذي يشير إليه . وهو ترتبط

(1) شكري محمد عبد الكتاب المذكور ، ص 77 .

(2) مرهم سلامة ، شكري المذكور ، ص 129 221 222

(3) ابن وهب ، من حديث الشعر والنثر ، ص 77 78

(4) سوري محمد ، النقد ، القاهرة ، 1954 ص 62 63 . ويبدو أنني طبعته في نسخة
في هذا المقام ، إذ يفتح على عملية الرحل لفهمه وتقرر أنه ينبغي كتابته عن كذا عن كذا ، وأنه
« من البين » كما ذكره لاحظ معناه أن حجب الفصح الذي يعالج الأدب ، فهو ، وأقسامه
ومعديه وعناصر المسائل فيه . نظر البيان العربي ، ط 3 ، القاهرة ، 1967 ، ص 85 87

(5) Enthymème

لا يتوفر في العلامة اللغوية . وهذا المفهوم هو عيبه الموجود عند اليونان خاصة أفلاطون (1) .

ثمّ مسحت القناس فواضح الصنة بالمنطق وكثيرا ما أشار المؤلف خلاله إلى ما يعرف بين قول أهل المنطق وما يكتمى به في لسان العرب . بقول « ولما أصحّاب المطلق فيقولون إنّه لا يجب قياس إلا عن مقدمتين لإحداهما بالأخرى تعلق . والقول على الحقيقة كما قالوا ، وإنما نكتفي في سائر عرب بمقدمة واحدة على التوسع وعلم المحطّ » (2) ويرتب إثر ذلك لتدريج احصنة عن القياس إلى برهانية وإقناعية وكادبة

وقد كان عهد الفاهر الحرجاني نقطة الاستمهام الكبرى في قضية التأثر ، فالرجح وهو قمة البلاغة العربية . سواء في جانبها التطبيقي الذي يقوم على حسن مرهف والذوق الأدبي الخاص أو جانبها النظري المجرد وقدرته على تعمق النقض إلى نسيجها الباطني الماظم لها ووقوفه على جملة أروى بط التي يتحوى بمضمونها البحث البلاغي إلى نظرية في الإنشاء فدة . هذا لرجح ، على كثرة ما ذكر من مصادر عربية . لا يشير إلى تراث أجنبي ومنهج قد تكون أعنته عن إحصاء هذه المادة المتراكمة على مرّ القرون إذ جهر من مبادئ ولفاهيم سيّملها ويتجاوزها في نفس الوقت .

ولكثرة لاهتمام بلاغته ونقده تعددت الآراء واحصر محلها بين صرّفين يقصين ، طرف يؤكد على تأثيره باليونان تأثرا عميقا حتى وصفه بأنه م يكن « إلاّ فيلسوفا يجيد شرح أرسطو والتعليق عليه » (3) وإن كان يقرّ بأن ذلك م بأنه مشيرة وإنما عن طريق الفلامسة المسلمين خاصة ابن سيب . وأنّ لجرّحني كان أصيلا في هذا الأخذ صاحب جهود واجتهادات تحسب

(1) انظر نقد النشر ، ص 132 - 138

(2) انصر نقد النشر ص 78

(3) انصر : طه حسين ، مقالة نقد النشر ، ص 14 ، 29 .

في "ريخ السيد العربي". ويعتقد الطرف الثاني في رتبة من الأمر مؤسس موقفه على ثقة دامة في أخلاق الرجل العظمة إذ لا يرى موجبا لسكونه عن ليون في حين أنه ذكر مصادره الأخرى (1) وتبعاً لذلك نرى أصحبه حتى التأثير غير المباشر مؤكداً أنه لم يتبع المؤلفات ابن سينا خاصة المقالة الرابعة من كتاب "الحكمة" حيث نجد جملة من المعطيات تتعلق بأفانيس القول (2).

أما بقية المواقف فمحتززه متحرّجة نجح إلى التوسط بين نظريتين في الأدب وتحصر القضية في حريات العلم لا كلياته.

فأميس الحوفي. ومن لفّ لفّ. حاول. لإثبات التأثير. الوقوف. في مؤلفات الرجل. على الدليل المادي مرأى أن إشارته مرتين "مقتربين" في "أهل الحظيرة" ونقد الشعر. دليل على أنه يسبب الطريقة البلاغية لأهل الحظيرة "ويعتبرهم العارفين بهذا الشأن النلاعي" (3). وليس في هذه الإشارة ما يدل على أن "المتعشسي" كتاب أرسطو. والقصد من السياقين المذكورين (4) التفريق بين منهجين في دراسة الاستعارة. منهج الأدباء والعلمين بالشعر ومنهج اللغويين. مع أننا لا نعلم في التراث السابق واللاحق. عند الحديث عن أصناف المتعالمين مع النص الأدبي. إشارات من هذا القبيل (5).

(1) نظر أحمد أحمد بدوي، عبد القاهر العرجاني وجهوده في البلاغة العربية، سلسلة أعلام العرب، القاهرة، 1962، ص 312.

(2) المرجع السابق، ص 315.

(3) نظر: أمين الحوفي، مناهج قبيصة، ص 154 - 155.

(4) نظر: لمراد البلاغة، نجيب، ريزر، استانبول 1954، ص 368 - 369.

(5) ديمر يستعمل في الكامل شعر مكين المعارف - بيروت (د ت) في دوجيس 21، 106 "العلم بسوهر الكلام"، ويندر "الأسبي في الموازنة" ص 21 "أهل صدي ومن يميل إلى النقد وصفي الكلام" أدب الأثير، وموقعه من الفلسفة عامة، من سيبويه "خطبة" خاصة معروف، (انظر المثال السابق تحقيق أحمد الحوفي، 1961 طبعه، مطبعة بهجة مصر القاهرة (د ت) 229:1، 3/2-6) فإنه يستعمل على لسانه، يقول "ولما أهل الحظيرة يوموا في الأساليب الشعرية فتقوا الحقبة إلى المحرور، وكان ذلك من وجه اللغة في أصل التوضع ولها اختص كل منهم شيء اختاره في التوسعات مع به" مصدر السابق (109/1).

وسمى لم يقدم الدليل المادي على أن الجرجاني اطلع على آثار أرسطو خاصة
 « لحصنه » ولا الشعر « مما قد يؤدي إلى القول بأن جوهر تفكيره بصري
 هو مدين به إليه تعلق البحث بعض الظاهر الجزئية . فمنهم من قال بتأثره
 به في مزجه النفسي في فهم ظواهر الأدب تأثراً لا ينفي الأصالة (1) . ومنهم
 من رأى أن بعض مواقفه من قضية اللفظ والمعنى أتته من أرسطو إما مباشرة
 أو عن طريق ابن سينا (2) . كذلك قالوا في المجاز (3) وأقسام الاستعارة
 عنده (4) .

وقد دعى البعض في تحديد مواطن هذا التأثير حتى جعلوا اهتمامه بالسحو
 من أرسطو وحصرها بطريقة النظم في أنها « تأليف بين قواعد سحو عربي
 وبين آراء أرسطو العامة في الجملة والأسلوب والمصطلح » (5) وذهب البعض
 لآخر إلى أن حديثه عن عدد من الأساليب مما يدخل في علم معاني كالقديم
 والتأخير والفصل والوصل من تأثير أرسطو (6) .

وسنحاول . في مكان آخر من هذا البحث ، أن نبين أن نظرية النظم ،
 وهي أهم بعد منهجي في بلاغة الجرجاني ، تمتد جذورها في التراث
 العربي ، ولا نبالغ إن قلنا إن البيئة العربية كانت الإطار الأمثل لبرور مثل
 هذه النظرية ولم يكن علماء الإعجاز في حاجة إلى التراث اليوناني ليدركوا

(1) محمد عبد الله أحمد ، من التوجه النفسية في دراسة الأدب وفنونه ، ص 2 ، القاهرة ،
 1970 ص 158

(2) نظري مقدمة محمد عبد المبر محمد علي تحقيقه دلائل الإعجاز ، القاهرة ، 1969 ص 2 ،
 وشكري محمد عواد ، الكتاب المذكور ، ص 351
 ورواد محمد مطلوب ، عيد القنطرة الجرجاني بلاحته وفنونه ، ص 299 غير مطبع إلا وجد
 أن رأي أحمد الجرجاني عن ابن حني هذا لا يسع أن يكون ابن حني نفسه أحمد من
 غير خاصه أنه عاش فترة أرسطو . انظر حبه

(3) طه حسين ، المقدمة المذكورة ، ص 12 .

(4) شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ، ص 148 ، 194 .

(5) طه حسين المرجع السابق ، ص 30

(6) شوقي ضيف ، المرجع السابق ، ص 168 ، 178 ، 180 .

دلت . كما سنبين أن كثيرا من الأساليب التي ذكرت لها أصل في فترات
للدعاة الأولى خاصة عند اللعوين .

هذه حملة من الحجاج والمواقف أملانا مصادر بحثنا بعضها وستخرج
بعضها ، الآخر من مراجعهم وهي تدلّ دلالة قاطعة على أن الأئمة ، بني ترعرعت
في رحي لدعاة العربية لم تكن حلوا من تيارات أجنبية ، في الموضوع . كان
عمد ، بيان على علم بها وبكمي دليلا أنهم أثبتوا الكثير منها في مؤلفاتهم

ويبدو أن ذلك تجاوز العلماء بالأدب والشعر إلى الشعراء أنفسهم ،
فقد كانوا : هم أيضا على صلة بهذا التراث يستفيدون منه في بعض معاني
شعرهم وبما كانت الشواهد قليلة لا تعدو إشارات متفرقة في حاجة إلى مزيد
التحقيق والنظر (1) .

وما ردود الفعل التي تصادف لدى أنصار التيار العربي الخالص في
الشعر أو في غيره من العلوم إلا حجة إضافية لتسرب المعارف الأجنبية إلى
شعب الثقافة العربية الإسلامية (2) .

(1) ذكر « العسكري » في قصائده . ص 21 أد بيت أبي عتيبة (وإبراهيم)
وكانت في حياتك في عطفات . ولدت اليوم أوقف منك حيث
بعض بكلام يوراني قيل في الإسكندرية وقد ذكر حافظ في الحيوان 563 6 نص هذا
الكلام مباشرة بعد بيت صابغ بن عبد المنصور (عفيف)
ب. يكنى ما أصبت به حبيلا . فذهب وراءه أجسس
وملاحظ أنه ذكر هذا البيت في البيان والقبلى مرتين : 74/2 . 140 مجرد من
النص يوراني

(2) يذكر جماعة خصومنا اتحاد والمناطقة وقد تجلت في المناظرة الشهيرة التي جرت بين
أبي سعيد السمرقاني وأبي بشر بن موسى أحمد بن أبي الأمان والامتناع والامتناع ،
للنوحيني . صاحب أحمد أمين ، أحمد الزبيدي : دار مكتبة الحياة ، بيروت (د. ش)
1981 وما بعدها . وكتب أصول النحو كثيرا ما تفرد في هذا المجال بحجة .
في أوصاف اللعوين : في أوصاف المناطقة : وتقع على صرور : أصبح على سميت اللعوين
في ما نزل الله

وقد سحر شعراء أنفسهم من : المنطق ، وصاروا صرعا بالنادي الذين كانوا راجعين
بحدود وحدود أنفسهم . ومن أشهر المواقف في الموضوع آيات السمرقاني
كقصودا حدود منطقكم . والشعر يمي عن صله كمنه
و. كمر دو القسروح يهيج بالمشطق ما نوعه وما سيبه
والشعر أصبح تكفي إشارات . وليس بالغير صواب خطبه

إلا أن لنا حملة من الاحترارات المبدئية من المنهج التاريخي مصدر
لدي تسنه جلّ المراجع لتحديد مدى ذلك التأثير وعصف وربطه بمصدر
مصوطة وأواب منها محصورة .

وقد تؤدي . ما لم يقيم على أسس ثابتة . إلى صواب مما يمكن أن سمية
« لكل في كل » . فاستعانة أي باحث أن يوازي بين سياقات مؤلفين في
بعض موضوع وأن يجد أنهما يتقاطعان في أكثر من نقطة وهذا لا يكفي
دليلاً على الأصل .

عن هذا في رأينا . نتجت بعض الملاحظات في ما استعرضه من آراء :
فهم كان الدقة العربي في حاحة إلى قاذح أجسي بقطعه إلى الفرق بين خصائص
بعض الاستعمارات المعادي ولغة الأدب « وهل كان الجاحظ في حجة إلى كتب
أرسطو ليهتدي إلى ما اهتدى إليه في فرق ما بين النصيب والأعجم ؟ وقد يصر
لأمر درجة الإفراط حتى كأن صاحبه يرمي الفكر العربي ، من حيث لا
يشعر ، بعدم القدرة على التطور الذاتي « وإنما نظن الآن أن كتب
« بديع » قد تأثر بشيء من حطانة أرسطو لأنه كان أول محاولة منتظمة للخروج
من أفق النقد الجزئي إلى أفق التفسير والتعميم » (١) .

ومريقة التي استعمل على أساسها المنهج . وهذا تناقض . آنية تركز
على مؤلف أو سياق من كتاب ولا تربط ذلك بحدوده التاريخية ولا شك
أن العمل يبقى متوقفاً ما لم يوفر للباحث كشف دقيق عن « مرحلة السابقة
محور البحث على مستوى التصورات الفكرية والمسائل الفرعية والمثلية ، في
هذا ، ينطق ، كثيرة تكفي بإيراد بعضها للتوضيح

فمن من الثابت أن نظرية قدامه في الغلو . وقد عدت من أهم
مصادر التأثير ، من أصل يوناني ، رغم الإشارة الصريحة الواردة في نصه .

(١) شكري محمد عباد ، فككت المكدود ، ص 233

فلا صفة من المصطلحات التي سبق أن ذكرناها ، وهي قريبة من أمر د
 بامو ، جـد لأمر مثبورا كموقف فني لدى ابن قتيبة إذ يقول « وكب
 بعض أهل اللغة يأخذ على الشعراء أشياء من هذا الفن ويسبها » ، الأمر ط
 ونحوه ، وما أرى ذلك إلا حائرا حسا على ما بيناه من مداهم « (1)
 وقد ثبت بن رشيق (ت. 456هـ) في باب العلو جملة من النصوص تتأكد بها
 انحدور عربية للمفهوم نورد منها نص الحاتمي (ت. 388هـ) ، عن طوله
 « وجدت أجداء بالشعر يعيرون على الشاعر أبيات العلو والإعراق ، ويحتجرون
 في استحسانها واستهجانها ، ويعجب بعض منهم بها ، وذلك على حسب ،
 يوافق صباه وحقاره ، ويرى أنها من إبداع الشاعر الذي يوجب له نصيب
 له ، فيقولون : أحسن الشعر أكذبه ، وأن العلو إنما يراد به المبالغة والإفراط ،
 وقالوا : « أي الشاعر من العلو بما يخرج عن الموجود ويدخل في باب
 المعلوم فإنه يريد به المثل وبلوغ الغاية في الثمت ، واحتجوا بقول المتألف
 — وقد سئل : من أشعر الناس — ؟ فقال : من استجيد كذبه وأضحك رديته ،
 وقد طعن قوم على هذا المذهب بما فات الحقيقة ، وأنه لا يصح عند التأمل
 والفكرة » (2) .

كذلك الشأن بالنسبة إلى قضية « الاستحالة والتناقض » فلا بد من إثبات
 أنها ليست تصورا للحدود العربية المتعلقة بها (3) .

ثم إن البقاء في حدود بعض المظاهر والمائل منفصلة عن نسج النظرية
 الأدبية ذاتها لا يمكن ، في تصورنا ، من إدراك أهمية الأخذ إن ثبت
 الأمر ، ولا يتم ذلك في رأينا إلا بالنقد الداخلي للنصوص والإحاطة بأصوب
 لقضايا البلاغية والنقدية جملة .

(1) بن رشيق ، فصول في فنون الشعر ، ص 172 .

(2) بن رشيق ، فصول في فنون الشعر ، ص 61، 62 .

(3) بن رشيق ، فصول في فنون الشعر ، ص 61، 62 .

فائدة : كقدامة ، ونحى لا تناقض صدى التأثير الأجنسي في م كتب
ولكن سافش عُمقته ، بقي في رأينا ، في أغلب المقاييس التي يصدر عنها ،
في صدق الجمالية العربية والموروث النقدي إلى عهده ، وإبداع الشاعر وقدرته
أكسر من كل القوائين والضوابط (1) والطبع يبقى مقوم الجودة لأوز
ولأخير (2) ، نمك الشعر في الشعرية ، مناط بالعصر موسيقى وما
بحقته في بيت من قصائد (3) ، وهذا الفهم للشعر ليس هيباً ، يكاد نقول
إنه على صرعي نفحص مع ما قرّر أرسطو فهذا الأخير ركّز حديثه على نصرة
وكاد يهمل الوزن .

ويذكر قدامة عن بعض الشعراء وليس له من حجة إلاّ عدم عدوهم
عن المألوف والمعروف وعمّا حرت به عادة العرب (4) كذلك يبقى موقفه من
جودة تشبيه (5) والاستعارة (6) عربياً صميماً ويمكن للقائمة أن تطول .
ويمكن أن نحيل بنفس السهولة على ابن وهب فنين أن مفهوم الشعر
عنده وعمد القطعة والبراعة فيه لا يحرج عمّا سبّه علماء القرن الثاني من
المغويين وما اهتمامه بالتشبيه نموذجاً للصورة الشعرية إلاّ دليل " على ما نقول :
" وأما تشبيهه فهو من أشرف كلام العرب وفيه تكون القطعة والبراعة عندهم ،
وكلما كان تشبيههم في تشبيهه أطف كان بالشعر أعرف ، وكلما كان
بالمعنى أسبق كان بالخلق أليق " (7) .

إذن ، لا حداث في أن البيئة العربية كانت على صلة بتغيرات أحبيبة
مختلفة ستحدث فيها البلاغة العربية بوجه من الوجوه . لكن يعتقد أنه ليس

(1) لغة الشعر ، ص 17 - 18 .

(2) انصهر السابق ص 25

(3) انصهر السابق ص 25

(4) انصهر السابق ص 25 - 26

(5) انصهر السابق ص 55

(6) انصهر السابق ص 104 - 105

(7) البرهان في وجوه البيان ، ص 130 .

في مقدورنا صط ذلك الوجه بدقة وتمكيك ذلك انشاء المتراص لرجع كل
لنه منه إلى أصلها .

ولا شك ، أيضا أن الأخذ قوى في عصور دون عصور وتطور لدى
أشخاص دون أشخاص ولكننا . مع ذلك . لا نستطيع أن نقدر مدى عمق
تأثيره في النظرية الأدبية عند العرب . ولا يتسنى ذلك في رأينا ، إلا بتحديد
أهم مفاهيم تلك النظرية وحسب مراحلها الكبرى وتطوراتها ومن ثمة بحث
عما يمكن أن يكون السبب في ذلك .

2 - المسادة البلاغية

قد . في ما سبق . إنه لم تصلنا . عن هذه الفترة . مؤلفات صريحة الانتساب إلى البحث البلاغي . ورجحنا أن بعض العناوين التي حتمت بها المصادر كـ «مجاز القرآن» المنسوب إلى قطرب و «كتاب الفصاحة» لأبي حاتم السجستاني كتب أدب لا كتب تحليل وتعليل لمسائل البلاغة .

وكتب «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (1) هو . من بين ما وصلنا . انصدر الوحيد الذي ينمّ عنوانه . مدنياً . عن ارتباطه بموضوع بحثنا . إلا أن التثبت من محتوى هذا الكتاب . والاطلاع على ما أثير حوله من نقاش قديما وحديثا يصعبان من هذه الصلة . ويرفغان اللبس الذي يوقع فيه العنوان .

وقد درجنا في النقاش حول مسألة تصنيفه ضمن شجرة العلوم لغوية . ولم نحذف من حديثه إلا فنشر النص في السنوات الأخيرة .

قد اعتبره بعض القدماء . وتبعهم في ذلك فريق من المحدثين . كتاب «تفسير» وقد أثارت طريقة المؤلف فيه حفيظة بعض معاصريه

(1) تحقيق محمد غزاد سركيس . وقد استعينا . ط 1 . ط 2 . مكتبة الطائفي . القاهرة . 1970 . 7 - مكتبة الطائفي . القاهرة . 1962

كثير ، و لأصمعي وبعض تلامذته فحوا على أبي عبيدة باللائمة وفيه
بعض نمر ، نسي أن يضربه .

وعنه أبو اسحاق بن علي الشيرازي (ت . 475 هـ) صاحب
« لئع في أصول الفقه » كتاب مختار بالمعنى الاصطلاحي .

ودع بكن من صه حسين وإبراهيم مصطفى إلى أنه كتاب لغة (1)
وسبب هذا الاختلاف كئامس في حصائص الكتاب : موضوعه قرآني
ومنهجه لغوي ، وعنوانه والداعي إلى تأليفه بلاغيان .



ولا يهتأنا ، من كل هذا ، إلا البحث عن صلة هذا الكتاب بالبلاغة ،
ولئست مما إذا كان مصطلح ، المجاز ، مستعملا في حدوده البلاغية لفصيلة
أم أن له في هذا السياق معنى آخر ،

إن الداعي إلى تأليف الكتاب ، بإجماع المصادر ، يقوي الظن بأن
مضمونه بلاغي صرف ، ومن ثم يمكن أن نعتبر كلمة « مجاز » مستعملة
في عنوانه ذات شحنة اصطلاحية صلبة فقد سأل بعض الكتاب أه
عبيدة في مجلس الفصل ابن الربيع عن قوله تعالى « طَلَعَهَا كَأَنَّه
رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ » (2) وما فيه من إغراب فرد عليه أبو عبيدة
بأن له كنهم على قدر كلامهم وذكر بيت امرئ القيس (طويل) :
أَيْتَنَسِي والمُشْرِفِي مُضَاجِمِي ومسنونة زرق كأيب أغول
ومن ثم عزم على أن يضع كتابا في القرآن ، مثل هذا وأشباهه وما يحتاج
إليه من علمه (3) .

() أنظر مختلف هذه المواقف في : معجم محمد مؤاد سركين على الكتاب المذکور من 16 - 17 ،
وبهذه المؤسسى ، دراسة وتعقيب على مجاز القرآن ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، مايو
1967 ، ص 173 .

(2) الصفحات / 65 .

(3) ينظر تفصيل هذا الخبر - طه حسين - ذكرى أبي العلاء ، ط 1 القاهرة ، 1964 ، ص 7 ، 18 .

نرى . إذن . أن الظروف الحافّة بالتأليف من شأنه أن يهيء الكتاب لأن يكون من أول المباحث العربية في قصة الصورة النفسية ، وطرق أدائها ، ولأسس النفسية التي ترتكز عليها . لما في هذه الآية من حمل معنوم على محنوم . انطس بموجبه التشبيه في غير مطلقه الأصلي .

إلا أن في ردّ أنبي عبيده ما يشير إلى أن التأليف سبّاح وجهه أخرى قومها ، تتعريب بين ما جاء في القرآن . من طرق في التعبير . ومساند في نفوس . وبين ما اشتهر عن العرب في استعمالها لُحَتَّها .

ويتأكد ذلك . في مقدمة المؤلف حيث حشد صروباً من مجرّ استفه من نقرآن من مواطن متفرقة ، هي بمثابة المسالك التي يستهجه القرآن في أدائه وضرب من « النحو » أو القواعد التي استخرجها من استدلاله . ونشئ في لأحبر إلى أنها لا تخرج عن طرق العرب وأساليب . يقول « ففي القرآن ما في الكلام العربي من العريب والمعاني ومن محتمل من مجرّ ما احتصر ، ومجار ما حذف ، ومجاز ما كسّ عن خبره ، ومجار ما جاء لفظه الواحد ووقع على الجميع . ومجار ما جاء لفظه لفظ الجميع ووقع معناه على الاثنين ، ومجار ما جاء لفظه خبر الجميع عن لفظ خبر الواحد ، ومجاز ما جاء الجميع في موضع الواحد (.....) وكلّ هذا جاز قد تكلموا به » (1) .

إن جملة « المحاربات » المذكورة . وهي عوارص تحدث في التركيب . أدرجت في وقت متأخر ، ضمن قسم البلاغة المنحصّر للمعاني مما يدلّ على أنها طرق مخصصة في القول وإمكانية من إمكانيات في التعبير . وما دامت كدث فلا بدّ أن ترتبط بمفهوم الانحصار القائم على مصادمة بين مسدث تعبير وسيله حسب قصد المتكلم من كلامه .

(1) مجاز القرآن ، ص 18 - 19 .

وفي الاستشهاد السابق ما يدلّ على هذا صراحة : فزيادة على مصصح
 « بحور » ، « بي يصرّ منى حملناه على » الوجوب ، « أنّ المتكلم حرّ يتخيّر
 لكلام ويتوسّع في اللهه وهو ، في ذلك لا يرتكب محضورا ولا يحرج عن
 شرع : استعمال أبو عبيدة مصطلحا آخر أكثر دقّة في تعبير عما
 قد وقد جاء مجردا من الشحنة المعيارية الفقهية الموجودة في رديفة ، متمحص
 للدلالة لعقبة الرياضية فهي بذلك « الاحتمال » وهو يدلّ ، إذ نستنتقه ،
 على ما سبق وبصيف فكرة ذات بأن مفادها أنّ بروز هذه الأساليب في
 الاستعمال محصّة تفاعل جملة من العناصر استوجبت ، متى جمعت ،
 طريقة دواء سواها .

فكان كتاب « معارج القرآن » يتزّل ، من هذه الجهة ، في نطاق
 نقول لا اللغة . ويدرس جملة الملاحظات التي تحفّ بإنجازها . وهذا مبحث
 بلاغي آخر يرتبط مفهوم : المعجاز ، به ، بالاحتمال ، و « الجواز » فيصطبغ
 بصبغة نسوية عامة أسّتها تحاور المتكلم في حفظه طريقة في القول إلى
 أخرى لأسباب وملايسات .

وهذه المعطيات كفيّة بأن نجعل الكتاب ، لا دراسة في أسلوبي
 نصّ فحسب ، بل دراسة مقارنة بين أسلوبين تجمع إلى الوصف الآتي
 المقارنة لرمانية . فهل يمي مصمون الكتاب بالأعراض التي تحسّنها
 من الداعي إلى التأليف والمقدمة ؟

شربا في الصّمحات السابقة إلى أدّ « معجاز القرآن » يكاد يحو من
 قصية بصورة لغوية ولا تعدو المباحث المتعلقة بها بعض الإشارات متفرقة
 ، تشبيه ، يكتفي المؤلف بذكر الوجه مجردا من كلّ دراسة لأسسه
 وأبعده الصبة ، بل إننا لا نصادف تعريفا له أو حديثا عن أقسامه وأنواعه (1)
 وإنّه لمّا يدعو إلى الدهشة أنّ الصورة الوحيدة المتبلورة أكثر من غيرها

(1) انظر : معارج القرآن ، 73/1 ، 131 ، 256 ، 68/2

هي صورة مركبة . فقد ذكرها بمصطلحها « التمثيل » : « وجوب أن يشرح . شرحاً متواصلاً لا محالة . أَسْمَها . إلا أن ذلك جاء مرة واحدة في لكتاب في شرحه الآية « أَمْ مَنْ أَسْمَى بَنِيَّانَهُ عَلَى شَقَا جَرْفٍ هَذَا وَبِهِرْ بِهِمْ فِي نَحْوِ حَتَمِ » (1) يقول : « ومجار الآية على التمثيل لأن ما سَمَوْهُ عَنْ شَقَوَى أَسْمَى أَسْمَاً مِنْ أَلْبَاءِ الَّذِي بَنَوْهُ عَلَى الْكُفْرِ وَالشَّقَا فهُوَ عَنْ شَقَا حَرْفٍ هَذَا » (2) .

بينما نجد في مواضع أخرى حيث الصورة أوضح وأبسط . لا يشير إليها (3) . ولعلَّ ضعف هذا الجانب في الكتاب هو الذي دفع ابن قيمية (ت . 728 هـ) . مع اعترافه بأن « أنا عبدة أول من تكلم بلغة المجاز » إلى إنكار أن يكون المعنى به « قسم الحقيقة » وذهب إلى أن المعنى « بمجار الآية ما يُعَسَّرُ بِهِ عَنْ الْآيَةِ » (4) .

أما بالنسبة إلى مسالك التور وطرق أدائه . مما جمع في المقدمة ، فالإجابة أشدَّ عسراً لأنها رهينة الزاوية التي ننظر من خلالها إلى موضوع . فستخرجها من مطائنها ، وجمعها بشيء من الاستقصاء ، ودراجها في بحر واحد من الكتاب . وربط كل واحد منها بمثال ، عمل خطير ، ينم عن وعي مؤلفه بقضايا جوهرية في الدراسة البلاغية فتصل بمستويات اللغة ، وخصوصة هامة في التأليف والتصنيف لم يلحظها عند من جاء قبله أو عاصره كسيبويه والفراء . ولهذا الأخير تأليف (5) يشبه في موضوعه

(1) التوبة / 109

(2) مجاز القرآن ، ص 269

(3) نظر شارح تفسيره لآية « وَأَرْسَلْنَا إِلَهُكُمْ عَلَيْهِمْ مَرَاراً » (الأنعام / 6) حيث يقول « مجاز بسماء حاصلاً من مجاز المجرى يقال « زلزلنا في سماء أي في طر وما زلزلنا بسماء أي أثر » طر 186/9

(4) معارج : كتاب الإيمان ، ط. الخانجي ، القاهرة . 1325 ، ص 35 .

(5) هو معاني القرآن ، وهو يقع في ثلاثة أجزاء لم تقف إلا على جزئين فقط I تحقيق أحمد يوسف صباطي ومحمد علي النجار . القاهرة . 1955 . II تحقيق عبد الفتاح شلبي ، انشده بحضرته أحمد فكري . القاهرة . 1973

وفي حواش من مهبجه : «عجار القرآن» . ثم إن هذا المجموع : وهو شبه أن يكون قواعد عامة !متخلصها من القرآن ثم أخضعه لها ، وسلك عرب عنه بسحق التعبير أو الأساليب ، كان بمثابة المادة الحاضرة في سندها بعض سنده وسوا عليها . وجوهاً وامتنهادات : مباحثهم في معي ولا سماع . فسا إن ابن قتيبة كان من أكثر المستفيدين من هذا مجهود خاصة في كتابه : «تأويل مشكل القرآن» حيث جاء تعريف امجر مصبقا لاستعم أي عبيدة موصحا له (1) .

ولا أن المؤلف لم يتجاوز ، في الألعاب ، مجرد الوصف والوقوف في لغة العرب . على ما يشهد لأصالة سحت القرآن في التعبير وبقه : «محاراته» في تلك ما جوتت العرب لنفسها وانعكس ذلك على المصطبح فجاء معه لي غلب سياقت الكتاب قريبا جدا من معنى «التفسير» . فكانت دراسة لغوية «سطحية» ليس لها من المنهج المقارن إلا استخراج نقاط التقاطع بين المصين مهملة ، أو تكاد (2) . وطائف تلك الأساليب وأبعادها الفنية .

لهل من سبب لذلك ؟

لاشك أن أول ما يتبادر إلى الذهن أن البحث البلاغي لا يزال في خطواته الأولى : وعلم البيان لم تعرف حدوده وأصوله ، مما جعل المؤلف ، رغم أهمية مسيح والموضوع ، عاجزا عن أن يوفيه حقه من الدرس والبحث حتى أنه لو سئل عن تفصيل هذا المحار فاعها كأنه رؤوس شيعين

(1) انظر : «تأويل مشكل القرآن» : ص 20

(2) يذكر في بعض المراجع التوطئة إلا أنه يكفي بالإشارة . ويبقى ذلك في إصداره سنة 1971 للمؤرخين التي يعبر فقد ذكر بعض معني الاستعم كالأجواب (33/1) والهي (21/1) وذكر في طائ الأساليب التعميم والتوكيد (70/1) وفيه سمع (21/1) .
ويعر أنه سبحث كان يمكن أن يسمح للمؤلف بالوصول إلى نظرية في علم معني هو سبحث حروب الحرف : إلا أن ملاحظته في هذا اقتضت : دعم ضرائها أحد : قصير د انعم
ذكر من ذلك مثلا فاعله أن قيمة الحرف في اللغة وتعدد دلالاته وجود السب في سندها بعمه دور بعض (14/1) وهذا شبه أن حد كبير ما يسميه علماء اللغة اليوم Va eur actualisation

وسبب دوعه وقرينته لما وجد إلى الإجابة من سبيل لأن هذا لعدم له يكن في قيمة معروفا (1) .

و قد يعرى هذا السكوت إلى مقاصد المؤلف التي تحدّد على ضوئها .
مبناه ، يقرب . فعمل أبا عبيده لسمّح . في السؤال ، دسّا ، ولدى السائل ،
أبّا مدحولا فأراد أن يتصدى لذلك ويحقق الحاجة والدليل صريح
الآية : « يَا ثَرْسَاءُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَنَّاكُمْ تَعْثِفُونَ » (2) . فكأن
لا همّ به ، لا ربط حل الأسباب بين النص القرآني وسبب العرب في التعبير
بصرف سطر عما قد يعلّق بتلك الأساليب من مقاصد فيه . وهذه
كيفية يمكن إدراج ، محار القرآن ، ضمن زمرة المؤلفات التي تتحرّك
من مصدق عقائدي تدافع عن القرآن وتذبّ عنه وتقف في وجهه من تسوّب
لهم أنفسهم لظن فيه . وإن جاءت اللمحة - هنا - حافنة خفية .

ثمّ ، أنّه لا مانع . في تصورنا ، أن يعدّ من كتب الإعجاز ، إن
سلمنا بأنّ على كل بحث في هذا الموضوع أن يوفق - مبدئيا - بين أمرين
متناقضين في الظاهر : إثبات أصالة لغة القرآن وتعردها وتفوقها على ذلك
الأصل فيكون « مجاز القرآن » . وهو يتبرّك في القسم الأول من البحث .
قد سمح لعماء الإعجاز بعده أن يصلقوا رأسا إلى دراسة الجانب الثاني
من الموضوع .

ولكن ألا يوجد وراء هذا السكوت موقف لغوي يسدّ الثغرات التي
لم يستطع سبب السائلان سدّها ؟ إذ لن قلنا إن التفكير البلاغي لا يبرّك في
خطوته الأولى فإننا نرى أنّ ما تبلور منه على عهد مؤلّعا وقبله - كما نبين
بعد حين - كهيل بأن ينبه المؤلف إلى قيمة هذه الأساليب . وبه لم يكن
ذلك بصورة متعمّقة مسيه على أصول نظرية وتكثير مجرد .

(1) يعرى . في حبيب . لكتاب المذكور . ص 110 .

(2) سورة المدثر 2

كما أن المنهج لا يمكن أن يكون مسؤولاً . إلزاماً . عن ذلك .
ولا مما كان يمسح أبداً عييدة من أن يشير إلى قيمة هذا الأسلوب أو ذلك
مع احترام الوجهة المنهجية التي اختارها ؟

قد يعين لتوقف عند « اللغة » و « الاستعمال » على استحضار بعض
جواب إشكالي وعرضاً أن نجيب عن هذا السؤال : هل تحجب لغة
عن الاستعمال في رأي أبي عييدة ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تجرنا إلى مباحث يصيق عنها موضوعنا
لذلك نقنصر على الإشارة السريعة مستعيبين بما تبلور في الدراسة اللغوية اليوم .
إن من أبرز ما استقر في التمكير اللغوي المعاصر زوج « اللغة » و « الكلام » ،
معرفة لغة بأنها نظام من العلامات وجملته من الصوابط والقوانين تتحكم
في استعمال المتكلم بها وعرفوا الكلام بأنه استعمال تلك لعلامات
باحترام جملة الأنماط النظرية والكيبيات التي تؤلف - حسبها - بين
عناصر ذلك النظام وتبرزه في سلسلة مصوطة .

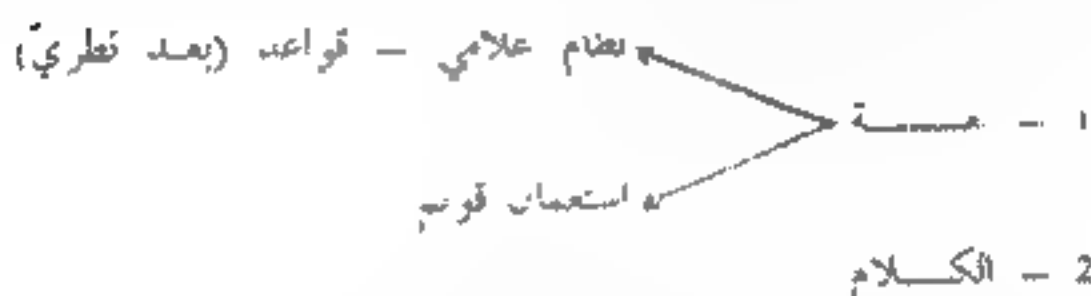
وقد بُنيت مختلف المدارس اللغوية إجمالاً . الزوج ولتعريف وإن
عبّرت عنه بصيغ مختلفة فقالوا : « اللغة » و « النظام » و « البنية » و « القدرة »
وعبروا عن الكلام « بالنص » و « القول » و « الملموظ » و « الخطب »
و « الفعل » (1) .

ونروا تبعاً لذلك . دراسة الأساليب والبلاغة في محار الكلام
باعتبارهم لا يقومان إلا على الفعل اللغوي المعجز

لكنهم سرعان ما انتهوا عند دراستهم لخصائص القول والأسلوب
وهو في تعريفهم طريقة خاصة في تأليف عناصر اللغة . إلى ضرورة توصيح

(1) نظام (Système) ، بنية (Structure) . منه (Code) ، قدرة (Compétence) . نص (Texte) ،
قوله (Discours) ، ملفوظ (Énoncé) . خطاب (Message) ، صال (Performance)

هذه الروح قد جعلت البحث في شعاب نظرية تتعلق بماهية اللغة نفسها والقواعد التي تؤسس استعمالاتها . وعطفوا إلى أنها - أي اللغة - فكرة نظرية مجردة وقدره لا يقوفاً لا شاهد لوجودها إلا المنحرج منها ولا سبيل إلى بناء أسسها إلا لاستعمال يولدها لكنها تنقلب عليه في صرب من التعقوف فينبغي "الموجود منه الوالد" ولكن المفارقة بين وجودها النظري ووجودها العملي تبقى قائمة حتى لكأن قواعد اللغة مقطوعة عن اللغة نفسها . في "لروح" مصطلح ثالث موصحاح له ومتعمدا هو ما يمكن أن نسميه "لاستعمال انقويم" (1) وعلقوه باللغة فأصبح الروح على هذه الصورة



فتصبح كل عملية بلاغية تصرفاً في اللغة والاستعمال معا (2) .

ويبدو لنا أن أبا عبيدة كان شاعراً بهذه الثنائية متخرجاً منها، فهو كغيره من النحاة حرص على الحرص على الوقوف على الحقيقة مقدرة التي تعتبر الجملة الناقصة في السياق مظهراً من مظاهر تحولها . معتمداً في ذلك منهج التقدير والإحصار (3) جرياً وراء ما سمعه "تدريج القول" (4) وهو من مصطلحات الهامة التي تساعد على استكشاف الأسس معروفة التي نسي عليها نظرة النحاة إلى اللغة واعتبارهم المنحرج منها دفعه إلى تحويل لا بد من رده إلى صورته المثلى وإن كانت بمعنى نظرياً معترفاً .

(1) Le bon usage

(2) نظري كل هذا

Pierre Guiraud *Essais de stylistique - problèmes et méthodes*, éd. K. Peckneck, Paris, 1969, pp. 50-52.

(3) أمثلة عديدة أنظر مثلاً : مجاز القرآن : 23/1 ، 226 ، 229 ، 15/3 ، 68

(4) انحصار في بقر . 111/1

وحيث هذا المصطلح تمت اشتهارها معهود آخر مرتبط بـ «ساق» لا
 شيء «كثير» ، صوحا في التعبير عن موقف الرجل من قصتها ذلك هو مصطلح
 «تمثيل» ، وقد ذكره أكثر من مرة في غير المعنى البلاغي الذي سبق
 دلائل ، على لصعته الشعرية التي لا وجود لها في الواقع أو التي
 لا يفتك ، حودها عن الاستعمال ، إذ أننا نتصور وجودها ونعرف وجوده
 بطلاق منه يقول في تفسيره : «وبأئوالديس إحسان» (1) مختصر نفس
 لعرب ذلك فكان في التمثيل واستوصوا بأئوالدين إحسانا» (2) وفي تفسير
 «قطيباً أعنت قلوبهم لهن حاصيعين» (3) وزعمه يونس عن أبي عمرو
 «أحاصيعين لهن من صنعة الأعناق وإنما هي من صنعة الكعبة عن لقوم
 التي في آخر الأعناق فكان في التمثيل وظلت أعناق لقوم في موضع» (4) هم
 فكان اللغة ، في الواقع ، نطاق استعمال ، مما قد يكون حملاً
 أو عبادة على اعتبار تلك الأساليب التي عددها جرءاً من موضوع
 الشعرية التي ، وإن ارتبطت في البدء بوظيفة معينة ، فإن كثرة استعمالها
 ضمنت بعدها الفني ويصبح السج على موانها احتذاء لا إنشاء .

تستنتج مما تقدم أن ، مجاز القرآن ، على أهمية موضوعه ومهجه لم يحو من
 بعضيات البلاغية أكثر مما حوت كتب اللغة الأخرى ، وهي مسائل تتعلق
 بالتركيب لا بما يقرأ على معنى الكلمات من تغيير وتبديل . فكان مصطلح
 المحرر مستعملاً في غير معناه الاصطلاحي الذي يتناول مع صاحبه .

ونؤكد درسة الأساليب لا تتجاوز مجرد الوصف ، ويعرى ذلك إلى
 ضعف مساهمة البلاغية في ذلك الضور ، والمهجع الذي احتج به المؤلف
 ولم يفتق به من مقاصد كما قد يعرى إلى نظرية المؤلف في اللغة والاستعمال .

(1) تفسيره ، 36
 (2) مجاز القرآن ، 126/1
 (3) التفسير ، 4/1
 (4) مجاز القرآن ، 83/3

عليه من مستحصلات هي حصيلة تفاعل النظر المجرد ومواده صحيحة توغلت
أبحاث من الثغورين على درسيها وترويضها .

وسيطرح المهج الذي اعتمده هؤلاء النحاة حملة من المسائل ،
جعلتها ، تتكرر فيها يتجاوزون حدود النحو إلى أبحاث رسمت بطر نظريا
صحيح حجمه اشاع اللغوية المتأخرة بما في ذلك البحث اللاعي .

فقد أرادوا للغة أن تمر من الغوصي إلى النظام والقوصي مدرسة
عموية وحرة في التصرف لا رادع لها إلا استحكام العادة والإقرار بالعرف .
ونصم نصيب وتشرع مشرعة وسلطة حاكمة من مشمولاتها تقيم اسسوت
وتغيره .

لكن الشرع في اللغة من اللغة نفسها . أو هو . على أصح تعبير ،
ميس تقاطع اللغة كسلوك والعقل كمقولات فتضع المؤسسة من دتهب
سلطانها ، ومن ثم تصح موجودا نائي العهد . هي جملة من تقويس
وتضوابط حدتها الأقصى ، الجملة ، ولا تغير في الدلالة إلا ما يؤديه صريح
العبارة ، وهي مقال وفعل يرتبط جملة من الملاحظات ، من خارج للغة لكن
لا بد منها ليتم الإبلاغ فتصبح العلامة اللغوية طرفا من الأطراف لا يتوقف
تقدم المعنى عليه دون سواه .

إن هذا التباين بين حاجر النحو وحركية اللغة ، وانفصاع بين القاعدة
والاستعداد ، وهي نتيجة حتمية لكل تجريد يتعالى عن موضوعه ثم يرد
به ، يبرز المشاكل التي كان على النحاة مواجهتها حتى لا يسو عمدهم
مجرد اصطلاح على مقولات ، وجهارا مستعارا سلطوه على لغة در صاء
لبرعة التقييم والتدوين التي يحاول بها العقل التسطرة على ظواهر الكون .

فعمير على استيعاب ذلك التباين والخروج ، بالتأويل والتعليل وراحو
سجنون عن المؤشرات اللغوية وغير اللغوية التي تربط حل الأمساب من أسية

حصر به شئ وما هو موجود بالفعل . مؤكدين على أن الخروج ظري . يعود إلى لأصل متى اعدمت أسبابه . فحللوا من حيث أرادوا الإقناع بسلامة قو بينهم معوية في تأويل المقال والبحث عما يجعل نهجه في الدلالة معبر سهج بحملة المجردة .

وقد تمخض هذا المجهود عن مفهوم نظري عاية في الأهمية والاكثدر هو أساس لعمل البلاغي وركيزته . هو مفهوم « التوسع » وقد « حث » من مؤلفاتهم . مركز الذي تدور في فلكه بقية المبادئ الأخرى

جاء هذا المفهوم على أربع صيغ صرفية غالبة . ثلاث منها مشتقة هي « التوسع » (1) و « السعة » (2) و « أوسع » (3) . وواحدة فعلية من « تفعل » أو « افتعل » مسوبة إلى الجمع المذكور العائب (4)

ورغم هذا التنوع الذي يدل على كثرة تصرفهم في المصطلح وتواتره في مؤلفاتهم لا نجد تعريفاً يضبط حدوده ويكشف الأبعاد المعوية المتعلقة به . فلا متسع في استكناه مضمونه ومعرفته مقاصدهم منه ، لا النص وما يحصل من التفريب بين وجوه استعماله .

ورد ، في قسم أول من هذه الاستعمالات ، مقترناً بمصطلحات أخرى تشير ، ما إلى بعض خصائص الجملة في التركيب ، وما يعرض لبينها في سياق ، وقد سترق « الإيجاز » والاختصار هذا الجانب (5) أو إلى صرب من

(1) الكتاب ، 211/1 - 212 ، 214 - 235 ، مجاز القرآن ، 21/1

(2) الكتاب ، 53/1 ، 176 ، 212

(3) طبقات لعمول الشعراء عيسى ، شرح محمود محمد شاكر ، سلسلة دوائر العرب ، 46 ، معارف ، القاهرة ، 1952 ، ص 46 .

(4) الكتاب ، 211/1 .

(5) مصدر سابق ، 211/1

لا يصح أن يكون تأثير معموله اثبتة و كلاً مستحاضاً (1) وقد عُدَّ من
 لأفرد و هو أن نصف بحيث لا تفسد إن كان نصف نسق ونسبه يسوي بين
 توسع و محض هذه المظاهر ولا نشر إلا إن تواجدتها على نفس الدرجة .
 ويكون توسع بعد ذلك مجرد أسنوب من جملة أساليب . مما نجد من
 فهمه كصياح و كسري . أو عطف بيان بحال المفسر في حشر
 ويربط شجرة سبها . فتبذرح طبقاً لذلك تلك المصاحبات صم
 « لا تساع » . ونكون بمثابة الأشعة المصلحة من ذلك المركز

ب مجموعة ثالثة من المباحث تعد على ذلك هذه الثنائية . في صرب
 من منطق مدني يعود فيه البص على نفسه مفسراً وموحداً . فقد ستمس
 هذا مظهر دليلاً على مظاهر أسلوبية مختلفة :

أشهر به إلى نوع من تعليق الكلام سيستقي . فيما بعد ، بتجدر لعني
 المقدم على العلاقة الطرفية بقول سيرة (. .) ومثل ما أحرى معرى هذا
 في سعة الكلام والاستخفاف قوله عز وجل : « بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » (2)
 فليس ونهار لا يمكنان ولكن المكر بينهما : (3) .

وبه وصف صرت من خروج الكلام على غير مقتضى انصهر ، كأن
 تكون الكلمة في اللفظ فاعلاً وفي المعنى معمولاً به . ومثله في الاتساع قوله
 عز وجل : « وَمِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ النَّارِ بِمَا لَا يَسْمَعُ ، لَا
 دَعَاءَ وَرَدَّ » (4) فلم يُشْتَهوا بما ينطق وإنما شهوا بالمعوق به . وإنما
 معنى : « مِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ النَّارِ بِمَا لَا يَسْمَعُ » به أي لا
 يسمع » (5)

(1) مصر ، 176/3 .

(2) سيرة / 33 .

(3) الكتاب ، 176/1 .

(4) الذعر ، 212/1 .

(5) الكتاب ، 212/1 .

كده استعمال أكثر من مرة للدلالة على الصورة التي يحدث فيها
مصروف ويكتفى في اللفظ بالمصروف إليه وهو ما سنعرف في الاصطلاح بالاحرف
المصروفين ٢

«ومما جاء على اتساع الكلام والاحتصار قوله تعالى جند «و سب»
اشفرته سبي كذا فيها والغير اتني أفلأ فيها» (١) . ثم يريد
أهل قمره وحده (٢)

ومما يصح متعدد الدلالة . يستغضب جملة من الضيق في التوب . يوحى
بها حروفها عن الأصوات الشفوية التي تؤسس عدي تأليف الكلام مصنف ويبدو
به على دراسات نواعي زيادة التكلم وقصده أكثر من البنية العقلية مجردة
في شحرجها النحاة

وتأتي مجموعة الثامنة لتؤكد بصريح اللفظ هذا الاستنتاج . «د» يقبل
فيها التوسع بالأصل . يقول سيويه . وهو يتحدث عن علاقة أدوات الاستفهام
بالمستفهم عنه : «وحروف الاستفهام كذلك لا يليها إلا الفاعل ولا أنهم
قد توسعوا فيها فابتدأوا بعدها الأسماء والأصل غير ذلك» (٣) .

وما الأصل . في تصورنا . اعتمادا على ما سبق . إلا ذلك الذي أشرنا
إليه من أمر النظام النظري الذي استبطه النحاة بأعمال العقل في اللغة ونقصها
لمهيج لقياس والاستدلال . بينما يتمحور التوسع للدلالة على كثر مظاهر
الخروج والعدول . في نطاق الجملة . عن ذلك الأصل ويصبح . في سيطرة
اللعوية . مؤشر الصراح بين إرادة القانون وحاجات الفرد إلى حرية التعبير

وتمنور هذا المفهوم . في أعمال النحاة . إلى هذه الدرجة . عميق
في دلالة عن شعورهم بضرورة تجاوز التناقض الضارب في كل عمل نحوي

(١) يوسف ٨٢
(٢) النكت ، ٢١٢/١ ، انظر أيضا ٥٣/١
(٣) مصدر السابق ، ٩٨/١ - ٩٩ .

بناءً على صعوبات النحو على إنجازات : قولية : إنشائية . تأتي هذا المصطلح
 إنشاءً من رتبة متاهتهم النحوية يُعصّون بها النقص اللاحق عن عـ
 تصديق الفوايق العامة والاستعمالات الفردية .

و، أحر ما به يُبَيّن عن نزعهم الشمولية في توظيف هذا المصطلح ،
 تفسيرهم الكمي لانتشاره في اللغة إلى حدّ يستحيل معه الإحصاء .

يقول سيبويه في : باب استعمال اللفظ في الفعل لا في المعنى لاتساعهم
 في الكلام وإنجاز والاحتصار : (1) : وهذا الكلام كثير منه ما مضى ،
 وهو أكثر من أن أحصيه ومنه ما ستره أيضا فيما يستقبل إن شاء الله » (2) .

وستقرأ اللغويين لجملة المظاهر التي حملوها على التوسع ، وأكثرها في
 باب الحذف ، أدنى بهم إلى استنتاج أنّه لبس حريّة مطلقة يتصرف بمقتضاها
 اشكّلم في لغة ، إذ لا بد من الفاء في حدود ما تسمح به مما لا ينقض عنة
 وجودها ويعطّل وطيفتها الأصلية : البيان والتبيين .

فصبروا مجوزات التوسع ومواضعه في ما يمكن أن نسميه « نحو الخروج
 عن النحو » ، ومقاسهم في ذلك الممي بالدرجة الأولى وإن أشاروا ، في سياق
 ذلك ، إلى بعض المؤثرات الأخرى في النية كالاستعمال وهو قانون كمي
 رمي يبنى في اللغة على علاقة تناسب عكسي :

كثرة الاستعمال - قلّة الكمّ اللغوي (حذف)

و لا استخاف . وهو ارتسام لغوي يؤكد على نزع المجهود لأدنى في
 علاقة المكمل دلالة ، وشأنه مع اللغة شأن القانون السابق .

(1) الكتاب ، 211/1 - 216

(2) الكتاب ، 214/1 - 215 .

ويتصلر قائمة المُجَوِّرات « علم المحاطب » . وه دلالة السياق » .
ونعة النص وهياتها .

فعلم المحاطب هو مسب « النعة » وه الإيجار » وه المصدر »
« الاستعناء » وه مسائل في القون يحرج فيها الكلام على غير مقتضى
الظاهر ، وتصرف في الباء اللعوي مع بنوع المعنى المراد اعتمادا على التلاست
الحدة .

« وما أضمرنا ما كان يقع مظهرا استخفا ولأن المحاطب يعنى ما
يعنى فجرى بمنزلة المثل كما تقول : لا عليك وقد عرف المحاطب ما تعنى
أنه لا بأس عليك ولكنه حذف لكثرة هذا في كلامهم » (1)

« ومثله في الاتساع قوله عز وجل » ومثل الذين كَفَرُوا كَمَثَلِ
الَّذِي يَتْلُو كِتَابًا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَبِدَاءً (.....) ولكنه جاء عن
سعة الكلام والإيجار لعلم المحاطب بالمعنى » (2) .

ولهذا المصدر أهمية في تجاوز قصور الحركات الإعرابية على أداء
المعنى وتقيضه . إذا صادف أن احتجما على الكلمة الواحدة ، وهذا ذلك
ضهرة لتأخر (3)

وأشتمل من علم المحاطب دلالة السياق عامة إذ تُعَوِّض هذه
بوحدة الدورية ، ما لم نحذف الالتباس . وإذا صادف أن جمع شكك بينهما
وأثنى رغم دسوح المعنى ما كان يمكن الاستعناء عنه في اللفظ عندئذ إرادة
مه أن يعينه بالمعنى إلى درجة أخرى في التعبير يلتحم فيها المعنى اللعوي بالمعنى
البلاغي .

(1) المصدر السابق ، 224/1 .

(2) المصدر السابق : 224/1 .

(3) المصدر السابق : 212/1 .

« وسمي أن رويدها تلحقها انكاف وهي في موضع أهل وذلك هو الك :
ويشدد بدا وهذه الكاف التي لحقت رويدها إنما لحقت لتبسي مخاطب
مخصوص لأن رويده تقع للواحد والجميع والذكر والأنثى ، وهذا أحد حسن
كاف حين حذف الشاس من " نَحْنِي نَحْنِي " لا يَنْحَسِي وإنما حذف في
أول استغناء يعلم المخاطب أنه لا يعني غيره .

صحيح بكاف كقولك : يا فلان للرحل حتى يقبل عليك . وتركبها
كقولك برجل أنت تفعل إذا كان مقبلا عليك بوجهه مصحفاً فتتركب
يا فلان حين فت أنت تفعل استعناء بإقباله عليك وقد تقول أيضاً رويده من
لا يحذف أن يلتبس سواء توكيداً ، (1)

وقد يأتي جوار التوسيع من انحص ذاته ، فاللغة المائلة فيه تصحح ، بحكم
سبق علاقي المقدم بين عناصرها ومحيطها على هيئة من التركيب معينة ، مؤشر
يحيي عن العنصر العائبة ويدلنا عليها ، وذلك يحصل النص دفع تأويله
لازدواج وضيعة مكوناته إذ يدل صريح لمظها على معنى وتدل كتب عن معنى
آخر . « وقد تستجسر العرب إضمار أحد الشئيين إذا كان في الكلام دليل
عنه (2) قال الشاعر : (طويل)

عَصَيْتُ بِهَا الْقَلْبَ إِنِّي لِأَمْرَهَا سَمِيعٌ فَمَا أُدْرِي أُرْشِدُ حِيَلَهَا

ولم يقر : أم عي ، ولا : أم لا ، لأن الكلام معروف بمعنى « (3) .

وما دام المعنى معروفاً فيمكن أن يخرج الكلام ، في تراكم وحدته .
ويبدأ بعضها إلى بعض حتى عن مقولات المنطق الوصفي فللسامع أن يتحدور
دنت لتصارب الظاهري ويرجع ، بعملية ذهنية بسيطة الإشكال .

(1) انصهر السابق ، 224/1

(2) نفس سطر

(3) معاني القرآن ، 230/1

« فَوَلَّيْنَاهُ » ثُمَّ فِي مِثْلَيْهِ ذَرَعُهَا مَتَعُونَا دِرْعًا
 فَسَنُّكُوهُ « (1) (...) والمعنى ثم اسلكوا فيه سلسلة . ولكن العرب تقول
 أَدَحَنَتْ رَأْسِي فِي الْفُلْسُوفَةِ وَأَدَحَنَتْهَا فِي رَأْسِي وَأَنَحَاتِمُ يَقَانُ . الخاتم لا يدحس
 في يدي ولا يدحس في يدي فيه تَدَحُّلٌ . قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَنَحَمٍ وَأَنَحَفُ
 مِنْ ذَلِكَ فَسَنَجَارُوا ذَلِكَ لَأَنَّهُ مَعْنَاهُ لَا يَشْكُلُ عَلَى أَحَدٍ فَاسْتَحَفُّوا مِنْ ذَلِكَ
 جَرَى عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ « (2) .

أَمَّا إِذَا حَبِطَ الْمُسَى وَهَدَّدَ الْقَصْدُ وَأَمَكِرَ السَّامِعُ أَوْ يَحْمِلُ الْحَضَبُ
 عَلَى غَيْرِ سُرَادٍ فَيَسْتَفْضِ الْعَهْدَ وَيَنْحَلُّ الْعَقْدُ وَتَبْدَلُ الْقَصِيَّةُ وَاحْكُمْ فَلَا مَصْرَ
 مِنْ بَعَاءِ اللَّغَةِ أَقْدَارُهَا وَإِحْلَالُ الْكَلِمَاتِ مَحَالَّتُهَا :

« وَقَوْلُهُ : « فَمِمَّا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ » (3) رُبِمَا قَالَ الْقَائِلُ : كَيْفَ
 تَرْبِحُ التِّجَارَةُ وَإِنَّمَا يَرْبِحُ الرَّجُلُ التَّاجِرُ ؟ وَذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ : رَبِحَ
 بَيْعُكَ وَخَسِرَ بَيْعُكَ . فَحَسُنَ الْقَوْلُ بِذَلِكَ لِأَنَّ الرِّبْحَ وَالْخُسْرَانَ إِنَّمَا يَكُونَانِ
 فِي التِّجَارَةِ ، فَعَلِمَ بِمَعْنَاهُ ، وَمِثْلُهُ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ : هَذَا دَلِيلُ ذَلَمٍ ، وَمِثْلُهُ مِنْ
 كَذِبِ اللَّهِ : « فَلَكَذَا حَزَمَ الْأَمْرُ » (4) وَبِئْسَ الْعَزِيمَةُ لِلرَّحَالِ وَلَا يَجُوزُ
 لَصَمِيرٍ ، لَا فِي مِثْلِ هَذَا فَلَوْ قَالَ قَاتِلٌ . قَدْ خَسِرَ عَبْدُكَ ، لَمْ يَتَجَرَّ ذَلِكَ ،
 إِنَّمَا كُنْتَ تَرِيدُ أَنْ تَجْعَلَ الْعَبْدَ تِجَارَةً يَرْبِحُ فِيهِ وَيُخْصِرُ . لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ الْعَبْدُ
 تَاجِرًا فَيَرْبِحُ أَوْ يَوْضِعُ فَلَا يُعْلَمُ مَعْنَاهُ إِذَا رُبِحَ هُوَ مِيسٌ مَعْنَاهُ إِذَا كَانَ
 مُنْجُورًا فِيهِ . هُوَ قَالَ قَاتِلٌ . قَدْ رُبِحْتَ دِرَاهِمُكَ وَدَفَانِيرُكَ ، وَخَسِرَ بَرٌّكَ
 وَرَقِيَّتُكَ ، كَانَ جَائِزًا لِدَلَالَةِ بَعْضِهِ عَلَى بَعْضٍ « (5) .

(1) الحاشية / 32 .

(2) معاني القرآن ، 182/1 .

(3) بقره / 16 .

(4) محم / 21 .

(5) معاني القرآن ، 14/1 - 15 .

هذه بعض المبادئ التي لفت انتباهنا في مؤلفات هذه المرأة .
 من غيرها . وهي ، التي تأسست على استشهادات صعبة الصلة بقضايا الملاحة .
 عبده عن حقيقة البعد الإنشائي في اللغة . فلا جدال في أنها مستقرة في التفكير
 بعوي عامة وبموم عليها التفكير البلاغي بوجه خاص .

والنوسع هو الإطار الكبير الذي تلور في فلكه كل عملات تنويد
 في اللغة ومنها لمجار .

ولناكيد على أولوية المهام والإلهام . وضرورة ارتفاع الفليس عن كل
 عمل لغوي ، سيصح . هو أيضا : أسما قارا ققيم انطلاقا منه مجردات
 المكتوب والشعراء ، وكل كلام فيه قصص إن الفن . وسبب أن ذلك قد
 ولد في السعد العربي مهبوما من أهم مفاهيمه وأكثرها تواتر ، وقد نجسم
 في زوج متقابل : « قرب المأخذ » و « الإبعاد » .

وإن تفصّلهم ، في هذا السطاق . إن شبكة العلاقات التي ينتزح فيها
 الخطاب ، ودورها في أداء المعنى ، كالسياق ، والمخاطب ، ودلالة بعض
 للكلام على بعض ، يعدّ عملا هاما استفاد منه البلاغيون المتأخرون فائدة
 كبيرة .

ب - المفهوم والمصطلح والخذ :

يعتبر هذا الثلوث ، خاصة المصطلح والخذ ، من أهم المؤشرات التي
 تشير بها ، وصل إليه العلم من فصح وتمكّن ، إذ لا ينسى أن يتسّم هذه
 ندرحة من لتحرير العقل إلا بعد عمل تمهيدي طويل . وببشرة متوصلة
 مدّة ذلك العلم فلا يتصور أن تنشأ عن طقرة وإلهام .

ومن الأدلة لما نقول ، أنك تصادف في الحقة الزمنية الواحدة . في
 مصق لعم الواحد ، ما يشبه التتواتر والأغوار . وما هو بين بين
 لقضايا ما قد فاز بالمصطلح المناسب والخذ الفاصل ، ومنها ما لا دليل على

حدوده من "الاحتباس" جمعاً ، ومنها ما لا يزال متعلقاً إلى حدٍّ وٍـ
مصطلحاً

والمادة لبلاغة الراحة إلى هذه الفترة لا تخرج في الحملة عن هذا لإطار
العام

وقد حاولنا قرأتها باحترام مقياسي :

– لا نقف من المركب إلى البسيط فذكرنا ما تعلق منها بجملة ثم
مجرد .

– كما راعينا في ثبات الواحد درجة التلور فقصدنا ما رأيه أكثر من
غيره ثبورا .

وقد بدا لنا طبعاً أن يتصدر مفهوم "البلاغة" هذه المسائل باعتباره
موضوع بحث الأصيل والمقطب الذي تحوم في مداره جملة القضايا الأخرى .

و هتمام الأوائل بهذا المفهوم واضح فلقد قلبوا الصيغة عن مختلف
صوره وضبطوا جملة معانيها التعويبة (1) كما استعمل المصطلح في معان
أخرى بعيدة عما نحن بصدده فلقد وردت في شعر أبي نواس (ت. 199هـ)
بمعنى النهج أو الطريقة في قوله : (كامل)

صفة لصور بلاغة التمدد فاحصل صغائك لآلة الكرم (2)
وإ جانب هذا وجدنا جملة من التعريفات الاصطلاحية أثبتت بصيغتها
مختصة في الجدول الآتي :

(1) انظر : ما قاله أبو حنيفة وابن الأعرابي في "اللمعة" 1/249

(2) المصدر السابق : 1/92 .

المقتبس	تأليفه	مصدره
10 - البلاغة : الجرالة والإطالة	إبراهيم الإمام (ت . 132 هـ)	العمدة 245/1
11 - البلاغة اسم لما كان تجري في وجوه كثيرة . ومنها ما يكون شعر . . ومنها ما يكون منجما ومنها ما يكون خطبا وربما كانت رسائل عامة ما يكون من هذه الأبواب فلوحي فيها والإشارة إلى معنى أبلغ . والإيجاز هو لبلاغة .	أبو القفح (ت . 134 هـ)	للصاعقة ص 20
12 - البلاغة كشف ما خفي من الحق وتصوير الحق في صورة الباطل	• • •	• • • ص 59
13 - البلاغة إصباغة المعنى والتقصيد إلى الحاجة .	خالد بن صفوان (ت . 115 هـ)	العمدة 245/1
14 - أبلغ الكلام ما لا يحتاج إلى كلام	• • • • • •	الرسالة العذراء ص 35
15 - كل ما أدى إلى قضاء الحاجة فهو بلاغة فـ استغنيت أن يكون لفظك خداك طفا وتلك الخال وفا وآخر كلامك لأوله مشابها وموارد له نصائره مواردنا فأقبل وأحرص أن تكون	الحليل بن أحمد (ت . 175 هـ)	• • • ص 48

المتى	نسيته	مصدره
لكلامك متهما وإن طرف ولطامك مستريا وإن لطف بمواته آلتك لك وتصرف إرادتك معك .		
6. — سلاعة ما قرب طرفاه وبعد منتهاه .	الخليل بن أحمد	العمدة 245/1
17 — البلاعة كلمة تكشف عن البقية	ز م م	العمدة 1 242
18 — بلاعة لمحة دائمة	حلف الأحمر (ت 180)	8 11 3
19 — البلاغة أن يكون الاسم يحيط بمعناته ، ويجلتي عن معراك وتخرجه من الشركة ولا تستعين عليه بعلون المكرة ويكون سليما من التكلف بعيدا من سوء الصنعة بريا من لتعقيد ، غنيا عن التأمّل .	جعفر بن يحيى (ت . 187 هـ)	السناعين ص 48
20 — إذا كان الإكثار أبلغ كان لإيجار تقصيرا وإذا كان لإيجار كافيا كان الإكثار عيبا	م م م	العمدة 242/1
21 — البلاعة : ألا يؤتي السامع من سوء إيهام القائل ولا يؤتي فنائل من سوء فهم السامع .	العتابي (ت . 219 هـ)	الكامل 392/2
22 — كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حجة ولا استعانة فهو بليغ	م م م	البيان والتبيين 113/1

المصدر	نسبته	المتن
البيان والتبيين 106/1	الأصمعي (ت . 213 هـ)	23 سلب من طبق الفصل وأعناك عن المفسر .
0 0 0 97/1	رواية ابن الأعرابي (231 هـ) عن الفضل الصبي عن أعرابي	24 سلاعة الإبحار في غير عجز والإطباب في غير خطل .
العمدة 246/1	ابن الأعرابي	25 - البلاغة التقرب من البقية ودلالة قليل على كثير
0 0 0 247/1	الكندي (ت . 252 هـ)	26 - البلاغة : ركنها اللفظ وهو على ثلاثة أنواع فنوع لا تعرفه العامة ولا تتكلم به ، ونوع تعرفه وتتكلم به ونوع تعرفه ولا تتكلم به ، وهو أحدهما .

وواضح أن عددا كبيرا من التصوص المشبّهة في هذا الجدور لا يحقق شروط اخذ إن أخذناه في المعنى المنطقي الاصطلاحي لأنها إما أتت في عبارات عامضة لا تخلو من المجاز فلا تصح حقيقة الشيء . وإما استغذرت إلى حملة الخصائص الأسلوبية التي يجب أن تتوفر في النص فأصبحت بحثا في الوجوه البلاغية لا تعريفا .

وعدم التقيد بصواب التعريف وانحصار مفهومه عندهم في مستعراض انحصار نص شيء تحقق البلاغة، سيكون السمة الغالبة على تعريف سلاعة في كل مر حبه ولن نحدد صلبى لأي محاولة تروم الوقوف على الخد الجامع الدمع

وحتى التعريفات تقع في القرون الثاني والتصف الأول من القرون ثلاث
ويسمى أصحابها إلى بيئات ثقافية مختلفة . فمنهم المعوي كالحليل والأصمعي
وابن الأعرابي ، والمتكلم كعمر بن عبيد وحالده بن صفر
والكتاب كعمر بن يحيى . ومنهم الشاعر كالعنابي ، وعيسوف
الكسبي وهو ما يؤكد قولنا إن البلاغة نشأت عن روافد فكرية
وأدبية متعددة . وبمصر التباين الملاحظ بين مختلف هذه التعريفات ونعني
كأن طائفة : منها . بجانب دون آخر . حتى وجدنا للشخص الواحد
تعريفين مختلفين ومثال ذلك علي بن أبي طالب (2 ، 3) (1) فهو في الأول
أُلحَّح على توظيف التعليمية ويتمسك بالناحية المعية ، فلم تحرج البلاغة عن
معناه للعوي (الإفصاح والإبانة) . أما في الثاني فبشير إلى قضية من صميم
حصائص لغة ويعتمد في تعريفه على إبراز طاقة من طاقاتها الكاسنة وهي
القدرة الإبداعية .

ومن أبرز ما بكتفت الانتباه ، في هذا الجدول ، أن الترتيب التاريخي
لذي احترقاه لا يعكس حتما تطورا في المفهوم ، فمن تعريفات الفترات
بناخرة ، يعتمد لتقريب المفهوم على الصورة والتمثيل (قارن : 1 و 23)
و بعيد التعريف بصفة تكاد تكون حربية (قارن : 2 و 8) (2) كما أنه
نجد في الفترات الأولى تعريفات أشمل من اللاحقة . وأدق . وأحسن
مثال ذلك تعريف ابن المقفع (11) . وهو نص ثري تدور من خلاله البلاغة
بلاغات وأساليب وأشكال وبدور محور التعريف حول الحصائص التي
تربط هذه العناصر الثلاثة مركزا على حاصيتين للقول هما الإيجاز والإحار .

ولعل أكبر شهادة لهذا التعريف بالشمول والإحاطة جاءت في كتاب
« الصناعتين » للعسكري حيث انطلق منه ، رغبة في التأليف بين مختلف

(1) سيمر هذه الطريقة للإشارة إلى ذلك التعريف ، المشار إليه في العلم !

(2) علم ، قد كان قد دقق إلى اختلاف برديته وخطوطه في قسمه ، إلا أن هذا الموضوع
عز همة من من مشغول به بحث من جهة ، كما أن علمه الجريح وبنفسه
مستحق

الحدود . وقد تمّ عمليتين متكاملتين : تفسير مكونات الخدّ نفسه . أيّ حدّ
من صفع . ثمّ إدخال الحدود الأخرى في شقّ مه (1) .

ويمكن أن يورج جملة التعريفات على ثلاثة أقسام «صرف النظر عن
عروق التعرّية من تعريف وآخر .

قسم نتحصر فيه وظيفتها في مؤدّي الكلمة اللغوي من بنية
وإفصاح وتبيين . ويرتبط موضوعها بأخكمة طريقا إلى ركة النص
وتربيتها وتأديبها . ممّا يبرّر الطابع النفعي المنظر من كلّ خطاب ينبغي
بعيد عن كلّ تصور حي وتأثير شعري : فلم يشر إلى خصائص نص وهيئته
«لا بعبارة عامة لا تفي بالحاجة . ولا تنمّ عن معرفة بهذه الأساليب .
وقدرة هي تبين خصائصها الأسلوبية كتوليف «بأسهل عبارة» و «في لصف»
(2 ، 5 ، 6 ، 8 ، 9) .

— قسم يركّز على مقاصد البلاغة العقائدية ويوظفها لهديات جدلية
قدعية ، فتستخرّ للشيء ونقيضه . تما لحاحات المستكلم من حصنه ،
وهذا المفهوم يذكّرنا بمقاصد الخطابة عند أقوام أخرى خاصة عند يونان .
ومن الصق لتعريفات بهذا الحرف قول ابن المقفع «كشف ما غرض من الحق
وتصوير الحق في صورة الباطل» (12) وقد جمع في هذا التعريف بين
وظيفتين ، ترتبط الأولى «الكشف» بالنعى اللغوي الذي أشرنا إليه في القسم
الأول ، أمّا الثانية «التصوير» فتشير إلى هيئة النص وشكله وهي أنّ
نمّوعول في كلّ عملية بلاعية على الصباغة اللغوية . وقدرتها على لإيهام
ولتحيين ، بدرجة الإقناع بتفسير الأحكام والحواهر وهي ثابتة وقصبة
لتصوير ستمش محورا أساسيا في التفكير البلاعي وتقطن من المقفع ، بها
في هذا الوقت المبكر قد يحملنا على القول بأنه تأثر بما وجد في التقديرات
الأخرى خاصة الفارسية واليونانية (7 ، 12 ، 13) .

أما قسم ثالث . وهو أوفرها . فمكتوم لإبرار المقاييس الأسبوبة في
النص الأدبي في مستوى بيته الكلية . وما يجب أن يقوم بين أحده من
تلاحم ، وفي مستوى مكوناته الأساسية أي الكلمة .

وقد ضبطت خصائص اللفظ : في ذاته . بأن يكون سليما عن التكيف ،
بعيد عن سوء النسخ ، بريئا من التعقيد . وهي مقاييس انطباعة يتحقق بها
نصيب ، وقرب الواحد . بحيث ينطبع معناه في الذهن بمجرد تلقيه . فلا يكون
السمع . بينهم المراد . في حاجة إلى أن يطيل التأمل والتفكير (19) .

أما ما يجب أن يقوم بينه وبين المعنى . فلقد أكدوا على ضرورة
تدقيقهما وتزامنهما بحيث يستدعي حضور المتصور في الذهن اللفظ لاثن
به ، يؤدي له بضرب من الشفافية لا محال لأن يشاركه غيره فيه (15 ، 19)
ويزداد لكلام رسوخا في الذاكرة بتحويل هذا التعادل بين طرفي الدلالة
في ضرب من التناوب العكسي بينهما . قوامه قلّة اللفظ وكثرة المعنى ، اعتمادا
على قدرات اللغة الكامنة كطاقة الإشارة والإيهام ؛ بحيث تخرج الدلالة
من الإدراك المباشر إلى التداعي فتتجر المعاني فصجرا ويأخذ بعضها برقاب
بعض وهو مفهوم الإيجار الذي أبررته حملة من هذه الحدود بل إن
منها من عرفت البلاغة به دون غيره (3 ، 11 ، 16 ، 17 ، 18 ، 25) .

وقد تدبو ، في خصائص النص عامة . ضرورة توازن أقسامه
وتعادل أجزائه وقد عبروا عن ذلك بصيغ عامة لا تحيل على شيء مضبوط
محسوس (5) هي من نتائج معايشتهم للأدب والفن فانطبع ذلك في
نصوصهم فحدث عبارتهم دالة على تلك العزلة وإن عذمت الدقة وصفت .

وقد أشاروا إلى ما يجب تجنبه واتحصر ذلك في اللفظ لا تضيق شيئا من
المعنى . فيكون وروده إطنابا ولفوا . ومن مظاهر ذلك الإعادة والاستدراك (22)

(1) يعرف الميرد الاستعانة بالنقل وهو أن يدخل في الكلام ما لا حاجة إليه المستمع إليه
يصحح له نظما أو ويدا إن كان في شعر أو يبدل به ما يلهو إن كان في كلام
مشور : الكامل - 19/1 .

كما أشروا إلى ضرورة مراعاة الموضع والخال يقينا بأن حصائص الكلام ليست مطلقة وإنما تتغير قيمتها تبعاً للسياق الذي تتوّل فيه . ذلك رأينا لشيء عينا في محلّ وحسا وفضيلة في سواه ، بل إن النص لا يستمدّ حصائصه إلا من موضعه ومقامه (15 ، 19) .

وعن قيمة بلاغة النص أن يكفي بذاته لا حاجة به إلى موحودات من حارجه نعين على فهمه واستكناه بواطنه بحيث لا تحتلّب عملية إدراكه عن قراءته أو سماعه فتستعني عن التأويل والتفسير وذلك لعدم الوضعية التي تُطبق عليها ، اليوم ، الوظيفة بما وراء لغوية ، وهي التي يعود فيها الكلام على نفسه مبينا وموضحا (14 ، 19) .



ج - المسائل البلاغية المتعلقة بالتركيب والمعاني :

إن القائمة هنا قد تطول طولا مفرطا ، ونختلط فيها لوجوه ذات قيمة البلاغية الواضحة بما هو أقلّ منها خطا من ذلك . والسبب أن كلّ عيوب عن البنية النظرية المجردة من حقه أن يُمثّل في هذا انجذاب ، وإن لم نجد له وظيفة هيّة محققة ، لذلك سقتصر على القصايا التي تبهورت أكثر من غيرها وانفق اندارسون على دورها ابلاغي .

كما يجدر أن نشير إلى أن المصدر الرئيسي الذي استقينا منه معبودات عن هذا باب هو كتب اللغويين والنحاة . ولا شك أن طبيعة العمل لغوي ومهجه ساعدا على بروز هذه المشاغل عندهم دون سواهم

وقد سبق أن أشرقا ، في حديثنا عن المبادئ العامة ، إلى أنهم درسوا باب « حذف » بكثير من التعميل ، قاهتوا من خلاله إلى حلّ تلك مبادئ ، ووقفوا على وجود بلاغية سموها تسميات عامة ستختصّص في من لاحق .

من ذلك أنهم أشاروا إلى ما سعى به «التضمين» بالحذف (1) .
ولاحض (2) وقد فادهم الاهتمام بالحذف إلى مناقشة قصائد من عو ر ص
مولى كلابجار والإطبات والتكرار .

فحص - في الموضوع الأول - رأي مشهور يربط فيه حصص الكلام
بمعضة عذبات مسانة - وبحرج التناقض على هذا الأساس ، ثم يرد
سبح في نقوب بالعرص يقول : «وقال الحليل بن أحمد: يطول الكلام ويكثر
بنيته ويوحز ويحتصر ليحفظ وتستحب الإطالة عند الإعداد ... والإندار
والترهيب والترعيب ، والإصلاح بين القائل (. .) ، ولا يستصع
تظير في بعض المواضع والظنوا للمواقف المشهورات » (3)

كما نظروا في صور التكرار المختلفة : بإعادة اللفظ والمعنى ، وإعادة
المعنى فقط . وإعادة اللفظ دون المعنى ، ورغم أنهم جؤروا بعضه وقبحوا
بعضه الآخر ، فيمكن أن نقول إنهم انتهوا إلى أنه - في صورته العامة ، غاية
في القبح ويأخذ بهذا الرأي ابن رشيق حين يعتبر التكرار في المقصد
ومعنى جميعها هو الخذلان بعينه كما اعتبره الحارثي حشو لا فائدة
فيه (4) .

ويعتبر دوسهم «الاستفهام» ، أدوات ومعاني ، من أبرز المسائل
لأسلوبية التي وصلتنا عن هذه الفترة ، ويمكن أن نعزم أن القرون الطويلة
اللاحقة من نصيب شيئا ذا باب إلى ما وحدناه عند اللعويين خاصة فيما يتعلق
بمعاني فتكروا إلى حاب المعنى الأصلي (5) حملة من المعاني بهرح فيها
لاستفهام عن طبيعة الاستعبار ويثلون بغرض الكأقب والسيف فيكون

(1) انظر : معاني القرآن : 61 - 62

(2) مدار القرآن : 8/1 ، 47 ، والكتاب 211/1 .

(3) العمدة 186

(4) مدبر عبد القدر حسن أثر النجاة في البحث البلاغي مطبعة جامعة مصر القاهرة ، 1975 ،
ص 40 .

(5) الكتاب : 99/1 ، 343 ، 419/2 ، 93/3

« سلاعين » . فمفهوم من أخذ برأيه حملة كالكسكاكي . ومنهم من لم يرخصه تمام الرخصى كعبد القاهر الجرجاني . ومنهم من رفض أن يكون بهذا الاسم أصلاً في سلاعة واعتبره مواضعة ثابته تركبت على مواضعة أولى ثم أصبحت من كثرة الاستعمال قاعدة في اللغة وسمتاً في الكلام . وقد ذهب إلى ذلك كل من أبي علي الفارسي وابن جني (1) .

وبالإضافة إلى هذه المضامين المتبلورة ، معاهيم ومصطلحات . نجد مجموعة أخرى ألفتها تبلورا من جانب المصطلح أحيانا ومن جانب مفهوم أحيانا أخرى . فمن المعاهيم المتبلورة : زعم غياب المصطلح المناسب ، استوع الذي أطلق عليه المتأخرون السجار العقلي أو المجاز حكمي ، فقد اكتفوا بدراجه ضمن مداه التوسع والاختصار وضربوا له الأمثلة من القرآن وأشعر وأمة العرب (2) . كذلك يمكن أن ندرج في هذا الباب مبحث « الفصل والوصل » . فلئن لم يذكر سيريه هذا المصطلح وتختلف العلماء في تقييم ما جاء عنده هل هو من ذلك أم من القطع . فإن الفراء نعت رؤوس الآيات « بالفواصل » (3) و « قنول الفصل والوصل » ونص على ذلك أكثر من مرة . وقد أصبحت بعض الآيات القرآنية التي لاحظ أنها تأتي مرة على سبيل الاتصال وأخرى على سبيل الانفصال تدور على أسنة البلاعيين (4) .

وفي مؤلفات هذه الفترة ما يمكن أن يعتبر الدور السحيقة لنظرية « مصم » فقد اهتم النخويون ، في عدة مواطن ، بقضية تأليف مبدرة وعنفو حصائصها المنطقية من « استقامة » و « استحالة » بجملة العلاقات بين

(1) ينظر هذه المؤلفات التفصيل في كتاب « عبد القاهر حين » المذكور من 80 و 81 بعدد

(2) الكتب : 160 ، 161 ، 174 ، 176 ، 212 : معاني القرآن 14/1 ، 5 ، 108 . 152 ، 73 ، 363

(3) معاني القرآن 44/1 .

(4) عبد القادر حسن ، المرجع المذكور : من 143 - 144

وحدات سياقي ، والمعنى الحاصل من تترلها في محالها ، ومحدورة بعضها
بعض الآخر ، ومن أبرر الأبواب في ذلك ما ورد في « كتب » سيويه
نحت عنوان « باب الاستقامة من الكلام والإحالة » يقول : « فمعه مستقيم
حسن ومحد ، ومستقيم كذب ، ومستقيم فيبح ، وما هو محال كذب ، فأما
المستقيم حسن فقولك : أتيتك أمس وسأتيك غدا ، وأما المستقيم فأن
تتقضى أول كلامك بآخره فتقول : أتيتك غدا وسأتيك أمس ، وأما
بمستقيم كذب فقولك : حملت الجبل وشربت ماء البحر وبحره ، وأما
المستقيم « فيبح » فأن تضع اللفظ في غير موضعه ، نحو قولك : قد زينا
رأيت ، وكفي ريذا بأنيك . وأشياء هذا وأما المحال الكذب فأن تقول :
سوف أشرب ماء البحر أمس » (1) .

ورغم أن المقاييس في هذا الباب ليست متجانسة ، ففيها النحوي
منطقي ، والجمالي الانطباعي ، والمطقي - الأخلاقي المتعلق بإمكانية
تحقق الحكم أو عدم تحققه اعتبارا لعلاقة الموضوع والمحمول ، فمنها تؤكد ،
تحقيق سلامة الكلام ، على ألا يتنازع مضمون عناصره في السياق لوحد ،
وأن توصع في مواضعها للاتقة بها . وهي أسس تقوم عليها نظرية النظم
وقد تستقيم مهجا ومفهوما ومصطلحا .

ومن مظهر اهتمامهم بتأليف العبارة حديثهم المستفيض عن « حروف
لجر » موضعها وتناوُضها لخلو معنى بعضها في بعض (2) وحروف بكلام
من معنى إلى معنى إذا استعملنا مع نفس الفعل نفس الأداة نصيغتين
مختلفتين (3)

(1) الكتاب 25/1 - 26 .

(2) مصادر قاضي : 398/1 ، 399 ، مجاز القرآن : 14/1 ، 229 .

(3) « كذا » ذلك للفرق بيني فإن إن وقال إن . الكتاب : 119/3 وما بعده .

يضاف إلى ذلك حملة من القصايا التركيبية الأخرى التي تبرز أن
اهتمام النحاة الأوائل بالجملة لا يقل عن اهتمامهم بمسائل الإعراب
والإصدا (١)

* * *

د - الوجوه المتعلقة بدلالة الإلفاظ :

م يقتصر جهد اللغويين والنحاة على رصد القصايا المتعلقة بالتركيب ،
فقد تُشرو . أثناء ذلك ، إلى مسائل تهم التوليد اللغوي ومسئولية سواء
ما قدم منها على مدني ، المشابهة ، كالتشبيه والاستعارة أو « إردف »
كالكناية .

وقد كانت مشاركتهم بمثابة اللسة الأولى التي تركزت عليها ، بحث
لقرون لاحقة في الموضوعات عساورت واشتدت وتخلتصت من لاشترك
وبتداخل .

وأقدم ما وصلنا . في التشبيه . ما جاء في « كتاب » سيويه منسوب إلى
جسب ندره وإلى المؤلف نارة أخرى ، وهو لا يعدو الإشارة بعجى ، إلى
لأسوب وبعض أدواته مجردة عن كل تعمق في وطبعته وأثره الفني مثلثب
بقصايا الإعراب ، مع ما نلاحظ من تداخل في بعض المصصحات .

زيادة على ورود المصطلح بكثرة في « الكتاب » وفي صبع صرفية
متنوعة (2) . واستخدامه مرادفاً للتشبي (3) . ذكر المؤلف طريقتين من
صرفه رئيسية هما التشبيه بالأداة خاصة الكاف وكأن (4) . و تشبيه اعتمده

(١) بعد على مير الخال حدث « سيويه » عن الإخبار تشكره عن شك . ١٠٠ ٩٤ وحده
عن عرق د . تم وثي . 169/3

(٢) مع الكتاب 163 . 417 . 421 . 171/2

(٣) في في عن النص . 69/1 قوله . « وأشب هذا ذكرت الكاف من »

14 . مع . صانه إلى انصصحات تشابه . 151/3 .

على السدل (1) أو المصدر المصوب (2) . وأطلق على ذلك مصطلح « المشبه به » وهو يقصد طريقه التشبيه ووسيلته .

و... ارتباط حديثه عن التشبيه بقضايا إعرابية دعت أوقع بعض اندرسين في دلوهم فظنوا أنه تقطع إلى طريقه الرئيسيين بل من ضروره تفاوتهما . وقد استنتج بعضهم (3) ذلك من قول سيبويه : « وقد قل قوم من عرب ترصى عربينهم : هذا الرجل شبهوه بالحصن الوجه ، وإن كان ليس مثله في المعنى ولا في أحواله إلا أنه اسم وقد يجر كما يجر وينصب أيضا كما ينصب () » وقد يشبهون الشيء بأشياء وليس مثله في جميع أحواله وسترى ذلك في كلامهم كثيرا (4) .

ورجح أن مدار التشبيه في هذا النص على العمل الإعرابي ولا علاقة به بقضية المجاز وإلا فتعقّب سبويه لا معنى له لأن من أسس التشبيه ألا ينطبق انشبه على المشبه به .

وورود التشبيه في نطاق قضايا إعرابية شيء مألوف في الكتب ، ولعل من أبرز سياقات تفيد رأي أسناده الحليل ورميه بالإحالة والتناقض في تجويزه رفع المشبه به :

« ورعم الحليل - رحمه الله - أنه يجوز أن يقول الرجل : هد رجلا أحمر زيد ، إذا أردت أن تشبهه بأخي زيد ، وهذا قبيح ضعيف لا يجوز إلا في مواضع الاضطرار » (5) .

(1) يضرب لذلك مثلا قول الأعطل [مقارب] :
وأنك مكانك من وأشمس
مصدر السابق ، 417/1 .

(2) عنه يهد، جابا كمالا سيده . « هذا باب من ينصب فيه المصدر المشبه به على المصدر المنصب
مشرود ، نهارد ، 355/1 .

(3) انظر ، عنه القدر حبيب : أثر انتحاء في البحث البلاغي . من 115 وما بعدها ،

(4) الكتب ، 182/1 .

(5) مصدر السابق ، 361/1 .

ونعتبر مساهمة أبي عبيدة في مسألة التشبيه : أهم ما وصلنا عن هذه الفترة رغم ما نلاحظه في الدراسات اليوم ، من غيب خلفه وسويه بما قدم به نصراء (1) على حسابه . والسبب أنهم وقفوا نظرهم على مؤلفه « محاور القرآن » في حين أن أهم ما له . في النصوص ورد في مؤلفه لأسبي محطير « شئخص بين جرير والفرزدق » (2) ورغم خطو هذا الكتاب من دراسة طريقه بقضية التشبيه إذ منهجه الأدبي اللغوي التطبيقي لا يسمح بذلك فإنه احتوى على مجموعة من الإشارات الهامة تكون ، متى جمعت ، نتوة الأولى لهذا البحث .

فحديثه عن طرقي التشبيه ووجه الشبه وأصبح جلي في عادة مواضع (3) وكثير ما يتجاوز هذه الأطراف ويعلق على المعنى الذي أراده الشاعر من هذا لوجه أي لوقوف على المعنى السكامن وراء التشبيه ، هي تعليقه على بيت البعيت (طوبل) :

فَأَلْقَى عَصَاهُ طَلْحًا وَنَعْلًا كَأَنَّهَا حَسَاخُ سُمَانِي صَدْرُهَا قَدْ تَخَلَّدَا
يقول : لا يريد أنه راع وأن ملاحته عصا ، وشبه نعله بجناح سماني في دفتها وصعرها . يقول إنه غير قام المخلق : (4)

(1) ينظر مثلا : أحمد ركي ، دكتوراه الفراء ومذهبه في النحو واللغة . ط 1 بحس لأبي رعيه لأدب وعلوم ، القاهرة ، (د ت) طعة أكا . أكثر من مرة (س 217 212) أن الفراء أول من تهم التشبيه بمسألة البلاغي وأنه كان أسبق من غيره .
وي حبه بذلك ذهب عنه رعلون صلاح أثر القرآن في تطور النقد العربي ص 57
هذه مسرعة منادج من نصير : فراء ، فها إشارة إلى التشبيه والمشي به ووجه التشبه « غير أن هذه المحاولة في فهم التشبيه خطية ، وخطوة متقدمة عن فهم أبي عبدة له وهو الذي يشر إلى التشبيه في إشارات عبده بأعياد مجازا ولم يصل فيه فهم : الفراء عن فهم ودريه »

(2) صم بطبيع برنك نمائه الس من 1905 في ثلاثة أجزاء وهي قصصه التي تحيل عنها ، وطبعه صاوي من 1935 في حركين

(3) ينظر مثلا 1/4 ، 55 ، 60 .

(4) ينظر 1/45 ، نفس بطر .

وقد تعرض أيضا إلى ما سيعرف - فيما بعد - بالتشبيه العقبي ، لصحة
أو تشبيه لتمثيل الذي يقوم على التقريب بين صورتين - فالإصافة إلى سائر
أدب سنخ حواء من « محار القرآن » (1) وهو لا يدع محالا للشك في تصور
التمثيل عند أبي عبيدة مفهوما ومصطلحا نجد سياقات أخرى تؤكد ذلك ،
فقد علق على بيت التمرزقي (كاملي) :

يمشون في حلق الحديد كما مشت جرب الجمال بها الكحيل الشعر
بقوله : لا كحيل القطران ، وحلق الحديد الدروع ، شه الرجب عظمهم
ولون الحديد عليهم بالحمال المهوة بالقطران (2) .

وبالحاصل أن دراسة التشبيه في هذه الفترة تعد متصورة بسببها فقد
وقعت الإشارة إلى عناصر التشبيه الأساسية : المشبه والمشب به ووجه التشبه
وإن لم يعفوا كل مفهوم بالمصطلح المناسب له ، كما أشاروا إلى أهم طرقه
كالتشبيه بالأداة ، والمصدر المصوب ، وفرقوا بين نوعيه : التشبيه البسيط
وتشبيه التمثيل ، واهتموا ، في درجة أقل ، بالمعنى الحاصل منه ، إلا أن ذلك
لم يرد في نطاق بحث منظم ودرس مستقل يتعمق القضايا ويبحث باحث عن
الأبعاد لغوية التي تتضمنها هذه الطريقة في الأداء .

ولا غرابة أن يكون التشبيه من أكثر الصور الفنية حظوة لدى المتقدمين
والمؤخرين أيضا ، فالشعر العربي انقضى بهمج به ، وهو عند النقاد ولعمري
بالشعر من مقاييس الجودة الرئيسية ، ولم يكن انشراء أنفسهم يشلون عن
هذا فقد « قبل لشارم فقت أهل عمره وسقت أدياء عصره في حسن
معاني شعر وتهذيب ألفاظه » قال : لأنني لم أقبل كل ما توردته عن قريحتي
وبسجتي به طبعي وبعثه فكري ونظرت إلى معارض الفطن ومعدن الحقائق
والصنم التشبيهات فحبرت إليها بفكر جيد ... » (3) .

- | | | |
|----|------|----------------------------|
| 1) | مر | ص 93 |
| 2) | مصدر | 183/1 ، انظر أيضا : 55/1 . |
| 3) | مر | العمدة : 239/2 . |

ومن المباحث التي تقوم على علاقة الشبه ونجد له صدى في مؤلفات هذه الفترة « الاستعار » إلا أنها أقل تطوراً من التشبيه .

فهم نثر فيما اطلعنا عليه على المصطلح بهذه الصيغة المصدرية المصحوة .
 فيما اطرده استعمال الصيغة الفعلية المريدة « استعار » وصيغة اسم المفعول مشتقة منها « مستعار » .

فقد ذكر ابن رشيق أن أبا عمرو بن العلاء كان معجبا ببنت دي
 الرثمة (طويل) :

أهدمت به حتى ذوى العود والنوى وساق الثريا في ملائسه المعجر
 حتى إنه كان لا يرى أن لأحد مثل هذه العبارة ويقول ألا ترى كيف
 صير به ملاءة ولا ملاءة له . وإنما استعار له هذه اللفظة (1) .

ويستعمل أبو عبيدة المصطلحيس جميعا . ففي تعليقه على بيت
 الفرزدق (كامل)

لا تقوم أكرم من تميم إذ غدت
 عود النساء يُقن كسالات

ذهب إلى أن « عود النساء هن اللاتي معهن أولادهن . والأصل في عود في
 لإبل التي معها أولادها فنقلته العرب إلى النساء وهذا من المستعار . وقد
 نفى العرب ذلك كثيرا » .

وقد عقب على قول جرير (كامل) .
 واللؤم قد خبطتم البعيت وأررمت أم الفرزدق عند شرح حسان
 نقوله : « أررمت يعني حنت وهو حين الناقة واستعاره من اداقة قصيره
 لأم الفرزدق وقد يعمل العرب ذلك كثيرا » (2) .

(1) العمدة ، 269/1 .
 (2) البحر النقيض بين جرير والفرزدق ، 275/1 ، 334 ، وانظر أيضاً 579/2 .

وعلى أهمية ما أشير إليه . في هذه النصوص من ذكر للأصل ، وهو أصل وضع في اللغة أو مألوف الاستعمال ، وإشارة إلى العمى المعنوية حصصه وهي ، النقل ، مما يستوجب مقولا عنه ومقولا إليه . يبقى معنى لاستعادة مرعا من المعنى اللغوي بعيدا عن كل تصور نظري لتكيفات لبي تركب حسها هذه الصورة ومختلف المراحل والتحويلات التي تفصل معنى لأصلي عن المجاز . كما لم يتطلى إلى صحتها بالشبه وتم توصيع وطيفتها نفسها ولأدبية . وكل ما في الأمر أنهم أقروا مجازا من مجازات العرب وطريقة من طرائقهم في الاستعمال .

لا أبا نجد في مؤلفات هذه الفترة كثيرا من السياقات القرآنية ولأدبية ، بدل تحليلهم لها وتخريبهم لمسائلها على أن الاستعارة ، كمنصور لم تكن غريبة عن أصحابها وقد أدرجوها ضمن اصطلاحات عامة هي لمجاز تدرة ولائسع نارة أخرى (1) ولكنرة تلك المراطل ، عند القراء على وجه بخصوص رأى بعض الدارسين ، أن حديثه عن الاستعارة يعتبر صخرة كبيرة وفهزة رائعة للوصول بها إلى عابها التي تعرفها اليوم وأنه تعطن إلى قيمها على لتشبيه وفهم معنى القرينة وانته إلى نوع منها دقيق هو الاستعارة التهكمية (2) .

لا أن المنشئت في السياقات المذكورة ينتهي إلى أن سر زيدة على أنه لم ينص على المصطلح ، لا يتجاوز ، في رأينا . الافتاء إلى « لنقل » و « المجاز » (3) وهو كغيره يحمل الوجه . عندما يعجز عن التحريج على أساليب العرب .

نهدد الأسباب لنيل إلى القول بأن الاستعارة ، رغم أهمية ما ورد عنهم في هذا الباب ، لم تتلور كصورة فيه صياغة ووطنة إلا في وقت متأخر .

(1) بحر النكبات 214/1 - مجاز القرآن . 136/1 . 229 ، 231 ، 63/2
 (2) عند محمد حسين ، النكبات المذكورة ، ص 155
 (3) معاني القرآن 156/2

أما الكتابة فقد تواتر استعمالها في معان شتى يمكن حصرها في
محدود الآتية .

فهم يستعملونها في المعنى اللغوي الصرف ومؤداه « بناية »
و « الإحصاء » ويرر ذلك بجلاء في نصّ للقراء فيه إشارة إلى صيغتها
« السمية المستعملة ومدلولها » يقول « (.....) للعرب في أكتست شيء » (1)
سنته بعد : كسته و أكتسته . قال وأنشدوني قول الشاعر (و فر) :
ثلاث في ثلاث قُسدَاميات من اللاتي تكن من لصفيع
وبعضهم يرويه تكن من أكتنت وأما قوله « لؤلؤ مكنون » (2) و « بعض
مكنون » (3) فكأنه مذهب للشيء بصال : وإحداهما قريبة من لأخرى (3)
— كما ورد استعمالها بكثرة بمعنى « الضمير » في المصنف لنحوي أي
كل ما نستفيض به عن الاسم الظاهر وهذا المعنى الاصطلاحي الضيق قريب
من المعنى اللغوي يشترك معه في مفهوم « الإحصاء » (4) .

— واستعملت بمعنى الدليل أو العلامة وما تشير به إلى الشيء وفي هذا
محور تدرج « الكنية » كما أذا تقرب كثيرا من المعنى الاصطلاحي حيث
يتحول سيق دالته ومدلوله علامة على معنى آخر غير قلم في النص
لأنه رديفه وله به علفة (5) .

— أخيرا نجد استعمالها في المعنى البلاغي الاصطلاحي بالإشارة إلى
أسلوب مني ورد دون الوقوف على المراد منه واتعمق في جوانبه ، وكأنه
شيء يستقر بعد وتواتر بحيث لم ير المؤلفون أنفسهم مضطربين من ضيقه

(1) الصفات / 49

(2) المسود / 24 .

(3) معاني القرآن ، 152/1 - 153 .

(4) مصرع سبق ، 19/1 ، 50 ، 127/3 ، 142 ، ومجاز القرآن ، 19/1 ، 72 ، 174 ،
276 ، 368

(5) معجاز القرآن ، 24/1 .

وتحديده . والآيات القرآنية التي أشاروا إلى وجه الكناية فيها ستصبح شوه هذا الأسلوب القارة في المؤلفات المتأخرة .

كما ستحدد انطلاقاً من هذه الفترة إحدى وظائفها الأساسية ورب لم يُعتبروا عن ذلك صراحة : وهي الرغبة عن اللفظ الحسيس ولفحش يرتبط استعمالها أساساً بعد أخلاقي هو الاستحياء عن التصريح بما لا تقرأه المواضع الاجتماعية (1) .



بالإضافة إلى هذه الوجوه البلاغية الأساسية نقلت الكتب المتأخرة عن علماء هذه الفترة بعض الحدود مما صنفوه في باب البديع . فقد نطق عبد الله بن المعتز (296 هـ) في تعريف المطابقة من موقف الخيل وبلاعتهم عليه وعلى لأصمعي عرق ما أطلق عليه التجنيس (2) .

كما قام نقاش حاد بين بلاعي القرون المتأخرة شمل قضية المتلازم والمتماهر في نطاق بنية الكلمة . انطلاقاً من رأي الحليل القائل بأن التلازم وسط بين طرفين هما البعد الشديد أو اقرب الشديد في محارج الحروف (3) .

(1) معاني القرآن ، 143/1 . معجم القرآن ، 73/1 ، 155 .

(2) انظر كتاب البديع ، نشر كراشكوفسكي : لندن ، 1935 ، ص 25 ، 26 . ذهب ابن وشيخ ، المصنف 331/1 ، إلى غير هذا الرأي . ولم تكن المقدمات معروفه ، بل لقب . أعني الحسيس . وذلك على ذلك ما حكى عن رؤية ابن الجايز وأبيه وذلك أنه قد لا يوم . ر أشعر بك . قال كيف تكون أشعر حي . ثم علمك عطف أرحم ؟ و . وعطف الرمح ؟ قال . عجم يا عاصم لو اختصم . قال يا أبا أشعر من أشعر وأب أشعر بن محم ، فقله . فأب ترى كيف سماه عطفاً ولم يسمه تحبباً لله . لا أن ذهب . عطف إلى معنى الالتصاق فتم .

(3) انظر في ذلك ملاحق محمد خلف الله أحمد وعقول سلام بتحقيقها الموسوم بـ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن . دار المعارف . ج 3 ، 1976 ص 181 - 186 .

خاتمة القسم الاول

حدود . طيلة هذا القسم الأول . أن نبين أهم العوامل التي هيأت المناخ لملائمة نشأة التفكير اللاغي وحرصنا على الإحاطة . قدر الإمكان . بمختلف مصادر ذلك التفكير مما احتفظت به كتب التراث عن هذا تطور لأول الغامض

وقد هدانا البحث إلى النتائج التالية :

١) أن العوامل التي ساهمت بصورة مباشرة وفعالة في بروز هذا اشغل عوامل داخلية . شديدة الاتصال ببيئة المجتمع العربي وما طرأ عليه من تحولات ثقافية وعقائدية ومياسية نتيجة حوادث كبرى حدثت في تاريخ هذا المجتمع ، يأتي في طلبها نروب القرآن

وإن حملت أسباب منهجية . وأخرى قارية . على إدراج الحديث عن لتأثير الأحيائي في هذا النطاق فإن الباحث يكاد يحرم بأنه لا أثر لت ذلك في هذه الفترة . على الأقل ، ولا يكفي ما قد أثر حول صحة عدم الله من مفعول بالتراث الأحيائي ومعرفة رؤوس المعتزلة بطرق التحليل عند انور حجة لإثبات التأثير .

2) أن « الحدث » القرآني وحركة جمع اللغة وتعدد أكثر العوامل تصد بهذه الشأ ونتيجة لذلك امتار نشاط يبتين ثقافيتين في قايح السلاء . بيئة السويير والحياة . وبيئة المتكلمين خاصة المعتزلة .

(3) كما من نتائج انصباب البحث البلاغي على القرآن والشعر أن سبغت البلاغة وحصدة عند العرب وجهة مختلفة تماماً عما هي عليه عند أقوم آخرين كاليونان أو الرومان ، فلم توظف أساساً للإقناع . بل للدراسة خصائص الكلام الأدبي ومن هنا جاء التحامها بالنقد . لذلك لن نجد في التراث العربي شيء « الخطابة » أو الشعر كما هو الشأن عند أرسطو مثلاً . ولن يستعمل البلاغيون ولقد من مجهودات انقلاصة العرب في التعريف بحصدة بيوت ، لا تقسم لتتعلق بخصائص العبارة الخطابية وبعض الاعتبارات العامة عن حياة الخطيب أو المتكلم .

(4) رغم انعدام الوثائق المباشرة المخصصة للبلاغة اجتمعت لنا مادة غريبة نسب . موزعة على عدة حوات بلاغية . منها ما هو من قبيل بديء العامة ، ومنها ما أدرجناه ضمن مباحث التركيب ، وقسم ثالث يتصل بالتغييرات المعنوية التي تطرأ على الكلمة . وأبرز البحث في هذه الأقسام لمختلفة أن مباحث التركيب أكثرها تطوراً بل إن منها ما اكتمل ، وحددت معاملة بصفة تكاد تكون نهائية ، كخصية معاني الاستفهام مثلاً .

وعلى عكس ذلك جاءت بقية الجوانب « جيبية » ، قل أن نقف منها على أمور متبلورة في دراسة نظرية مضبوطة في حدودها ومصطلحاتها .

فما عد تعريعات البلاغة التي أثبتناها . وهي أقرب إلى الوصف منها إلى حد . لم يشر ولو مرة واحدة على تفكير مجرد في ظاهرة من الظواهر ، أو محاولة لتحديد رعم أن دراستهم لبعض الصور متطورة كشبه مثلاً

وقد يمر ذلك إلى نوع المصادر التي اعتمداها ومهجها . فهي إما معوية بصرية ليست عايتها البلاغة أو لغوية تطبيقية همها توصيح المعنى وتفسيره ، فكيف بالإشارة إلى الوجه دون تعمق أو تحليل .

ولا تنحصر الإشارات البلاغية في المصادر التي نتخذ من أصل معوي . مادة بحثها مما ينضوي تحت عبارة التوحيد السائرة « الكلام على

لكلام » هراء الشعراء يشاركون في تحديد معالم الجودة الأدبية في أبيات من شعرهم متفرقة . أشرفنا إلى بعضها ونضف هذا النموذج فلفت به النظر ، و أهميه هذا النص في دراسة البلاغة . فلقد أثبت الوردري في « ديب السلافة » لحسن بن ثابت الانصاري هذين البيتين في قدرة عبد الله بن عباس الأدبية : (طويل)

إذا قال لم يشرك مقالا ليقائل
بمقتطعات لا ترى بينها فصلا
كفسي وشفتي ما في السوسر فلم يدع
لدي إبرة في القول جدا ولا هزلا (١)
(٢) ثم إنه لا يعنا هنا إلا أن نعبّر عن أمر غريب الشأن لم نهتد إلى تفسيره (٢) :

إن هناك عدم تناسب بين التطور الزمني وتطور المادة . فالناظر في جملة تعريفات البلاغة التي أثبتناها ، يلاحظ أن اكتمالها ، وتقدمها ، وتمكنها في البحث البلاغي ليس رهين موقع صاحبها على محور الزمن ، حتى لكانت البيئات القديمة التي أمررتنا معلقة على نفسها تعيش في بؤرات مغلقة ، إذ لم نجد في آثار النغويس ، عدا الإشارة اللغوية إلى الحظير بمع - عبد أبي عبيدة ما ينبئ عن معرفة بتلك التعريفات وما تضمنته من مقاييس في جودة الكلام .

وتردد العرابة عندما يتعلق الأمر بنفس البيئية ، فلقد وقفنا على عدة تعريفات تحليلي بن أحمد وتعرّيف للأصمعي ولكن لا أشرف لذلك في

(١) انظر : نهاية الأرب في فنون الأدب ، نسخة مصورة عن طبع دار الكتب المصرية العامة الخلف وأخرجته والطباعة والنشر ، القاهرة (د) (٢) ٧٠

(٢) ذكر في قضية النوى والكتابة وصعوبة انتقال الفكر بسهولة . وهو تفسير يبدو معمو لا بول وهلة ، بولا ما يقف أمامه من أمر الصحة والظلمة وهي تقوم على أحد مباشر شأن ، التحليل د ، و ، سهولة مثلا

« كتاب » أو « مجاز القرآن » أو « معاني القرآن » ولا يعتقد أن اهتمامات هذه الكتب تنبع أصحابها من إيجاد السياق المناسب لإدراجها أو الإشارة إليه .
 والحكمة والنشاط البلاغي في هذه الفكرة . على أهميته يبدو مشتت .
 حريثا لا شوق . في الأعلب . عن تفكير مطرد في جمالية النص لأدبي .
 إلا أنه مادة جام أساسية تنتظر من يجمعها . ويؤلف بين أشتاتها . ويسعى
 في إقامة معاد نظرية أدبية وجمالية عامة ذلك هو . في نظرها . دور المنصور
 المروي الذي يتربع الجاحظ . بمفرده على عرشه .

II۔ "الحديث" الجساحی [التأسیس]

١ - خصائص المادة البلاغية في مؤلفاته

إن موقف المهتمين بالتراث البلاغي والنقدي من الجاحظ عجيب الشأن، فهم يجمعون، إذ يقرّون بشهادة التمدد له بالسبق والتفوق، على أنه مشىء ببلاغة العربية (١) وأول من أرساها على قواعدها الأساسية (٢)، معتبرين أن ما تمّ له منها لم يتوقّر لأحد قبله (٣)، ومع ذلك لا يكاد ينظر بمؤلف مستقرّ يتناول صاحبه هذا الجانب من نشاط الرجل (٤) على كثرة

- (١) نظر لأب فيكتور شيب اليسوعي العروة الكلامية في أسلوب الجاحظ، سلسلة مكتبة الدراسات الأدبية عدد ٢٦، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٦٤، ص ٤١.
- شوقي شبيب البلاغة تطور وتاريخ، ص ٥٧ - ٥٨.
- (٢) نظر، ميشال عاصي: مفاهيم الجمالة والنقد في أدب الجاحظ، ص ٩.
- (٣) نظر، مارك الميارك الموجز في تاريخ البلاغة، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، (د.ت.)، ص ٥٩.
- (٤) رقت ونجس منه هذا البحث، عل فصيلي منشورة Skarzynska-Bochenska Krystyna

1) Les opinions d'al-Ghaziz sur l'ecrivain, in Rocznik orient, n° 32.

2) Les ornements du style selon la conception d'al Ghaziz.

شر بنفس المجلة عدد ٣٦، ١٩٧٣، ص ٥ - ٤٦.

وفه أشارت المؤلف إلى أنها فصلان من أطروحة دكتورا بعنوان:

Les opinions d'al-Ghaziz sur la Rhétorique et la Stylistique

وم يتمكن من الحصول على هذه الأطروحة، بل إننا لس نعرف إن كانت رقتت وبعثت ويبدو من خلال الفصلين، أنها شديدة الاهتمام بجميع النصوص ذات ترميز أو جد، وبتميزها بين مفاهيمها بعدة ظروف من رأي الجاحظ في قضية أدبية ما، والذي يتطور صوره برعية لديه، وهو على طيب في حد ذاته بعدة تبحر بأداة عمل منجده، إلا أن لاحظ في حدود ما مرأنا، أي معارضة المؤلف بين مختلف تلك النصوص وموضوعها في نظره، تبيته متكاملة.

كما رقت على درسه ميشال عاصي المذكورة، وهي محاولة، كما يبدو النصوص، إلى «مجمع مفهومي» لأهم ما ورد في مؤلفات الجاحظ متعلما بالبيان والبيان، والبيان والبيان.

ومن مبره العمل الكسري، لإشارة إلى أهم النصوص المتعلقة بالموضوع، وسنذكر في عدد كبير من المؤلفات، إلا أنه كالسبيل السابق لم يوفق إلى هذه موحدة من حيث يتخصص ذلك، من النصوص، وسيظهر عليها وإن حاول ذلك أحيانا، فنظر القسم المتعلق «بالمصطلح» أدناه.

ص ٥٩ - ٨١ وأهم المتعلق «بالمصطلح» ص ١١٦ - ١٥٠

• صنف في فصلا البلاغة والتعريف برجالها . وهي كتب قلّ أن تحلو من ذكره وإشارة إلى آرائه ومؤلفاته .

ويمكن أن نردّ هذه الرعدة عن مواجهتها فكيفه في الموضوع موجهة شاملة من الأبحاث منها ما يصل نطسه آثار المحاط حجمه ومجموعته عليها مرحلة التاريخ التي تتوزع فيها من خصائص . ومنه ما يتعلق بسيرة تفكير البلاغي نفسه في تلك الآثار والصورة التي برزت فيها مساهمته في ملوحة مسائله .

عاش بجاحظ (150هـ/159 - 235هـ) فترة عرفت عدد من التحولات ومعرفت خمسة في تاريخ ، حصار العربية الإسلامية . وفي ما كتب الرجل شهادة عما يمكن أن يُعبّر أعظم تلك التحولات وأهمها : إنه الوعي بحدّة بضرورة أن تقوم الكتابة والكتاب بديلا حصاريا عن اللفظ (1) ولذا كسرة . فقد حتّى التويه بالكتاب وإبرار فصله على المشاهدة قسمه من مؤلفاته بوسره : « الحيوان » (2) تصاف إليه بعض الإشارات الواردة في مؤلفاته لأخرى (3)

ولا محال . هذا ، لاستعراض ما جاء في تلك المواضع من آراء ، على أهميتها في ذلك . ونكتفي هنا بما يحلّم غرضنا ويسمح بتفسير بعض خصائص مؤلفاته بعبارة يستند إلى دليل .

من آرائه البارزة . في هذا الصدد : « العبارة » اللفظ : . وهو دحج لأسس شعر (4) وكلّ الوسائل التي تطلبتها ممارستها كسلوك تفصي .

(1) خمسة من أهمّ العربي الأصلي حيث بعد الفهرست في جوار التهذيب

(2) ص 38 ، 82

(3) ص 82 ، الحيوان والحي . 79/80

4 الحيوان 79 ، 82

حريفة غير ناجعة لصيانة الثقافة وتحليل المأثر لما بصيب الذاكرة من آداب
مستطيل أكثر العظم . ولما يعرض للمصوص من تحريف ونسب

« وفاء فل دو الرمة نعي بن عمر . اكتب شعري . وكتب أحب
ي من حفظ لأن الأعرابي يسي الكلمة وقد سهر في طيها لسته . فصيح
في موضعها كلمة في وزنها ، ثم يشدها الناس . والكتاب لا يسي ولا يسر
كلام بكلام » (1) .

« وولا نكتب المدونة والأخبار المجلدة (.) لطيل أكثر منه
وعب سعاد السيان سلطان الذكر . ولما كان للناس منبر من موضع
ستذكر » (2)

والكتاب . بالإصاعة إلى ذلك . يمتاز عن النقل والرواية وشعر بسهولة
روجه وانتشاره « أرخص ثمنه ومكان وجوده » (3) مما يجعله أداة ثقافية
صالحة لا تتطلب الاستفادة منها ضرورة تواجد المتكلم والسماع في مكان
و زمان . من عملية التواصل اللغوي والثقافي كما هو الشأن في « اللمط » .
مما يكسبه قدرة على الامتداد الزمني ليست لسواه « والكتاب يقرأ بهكر
مكان ويسرس في كل زمان والمكان لا يعدو سامعه ولا يتجاوز به
غيره » (4) .

ولم يختلف الحاحظ عن تشبيهه إلى أن المقابلة بين « اللمط » و « الكتابة »
يستلزم مسألة شكية تتعلق بتفصيل وسيلة على أخرى ، بل إن الأمر عمق
من ذلك ، يسي ، تتحول في مفهوم الثقافة ذاتها . من ثقافة عشائرية لا يعدو
نفعها أمسي . لا حامسي لها إلا ثقة رواتها ونقلتها . وهذا السحر رفق لا

(1) العيون 41/1

(2) مكي المصدر 411,1

(3) مكي المصدر 42,1

(4) ابن القيس 80,1 .

بصمد دائم أمام النزعات والترويات لذلك فهي معرضة للإغارة والسطو و « صبح » انتهت . إلى ثقافة ملائمة للمجتمع « المثلثي » الجذبة المندم على مركزية سطوة والنفوذ . الساعي إلى نشر نمط ثقافي موحد بين أشدات لأحس و انتصافات يعتمد الحقيفة اليئنة والحجة الموضوعية .

« فنون » . وكيف تكون هذه الكتب أنفع لأهلها من الشعر النقي « فب الآخر إذا كان الأمر على ما قلتم ، والشأن على ما نزلتم . أليس معروفا أن شيث هذه ثقافته وفصلته ومسوره وصابته . وهذا مظهر حاله على شدة بصيم ، وثبات قوته على ذلك الفساد وتداول النقص . حرري بالتنظيم . وحقيق باستعصين على البيان . والتقديم على شعر إن هو حوّل تهافتا ، ونقعه مقصور على أهله ، وهو يعدّ من الأدب المقصور . وليس بالمبسوط ومن المنافع الاصطلاحية وليست بحقيقة بيّنة » (1) .

(1) الحيوان ، 79 - 80 . وقد سطرنا ما رأيناه بدعم تحليلي ، ونشير في هذا العدد ، من صعوبة تبين ما يصي أحسن بروج : المبسوط والمقصود ، الذي امتصه في مؤلف أخرى (ينظر مثلاً : الحيوان 78/1) والكتاب لب أن من معاني المبسوط هذه شيء غروب السافر بين الناس ، بحيث لا يجوز صوره في فهمه وتمثله ، وقد جاء ذلك صريحا في الحيوان ، 89،1 - 90 والحاج المقطع إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ أسفاة وحشر ، ويحفظ من غريب لأمراب ووحشي ككلام ، وليس له أن يهده جه ، ويقلعه ويصغبه ويروقه ، حتى لا يضر إلا لب واللب وبالمق الذي قد حذف فصوره وأماق رولته حتى عاد خاسا لا شرب فيه . وقد إن فعل ذلك ، لم يفهم عنه ، ولا بأن يحدد بهم إلهاما مر . وتكرار . لأن أسير كلهم قد تعودوا أبسوط من الكلام ، وصارت ألبهم لا تزيد على عاداتهم واجدير بأنه كثر أن إحسان محسن أشرف في كتابه تاريخ النقد الأدبي عند العرب من 102 ، 104 إلى مؤلف مبعوض في هذا النص مؤيدا ما ذهب إليه فأود شلوم في مؤلفه النقد المنهجي عند النجاشي ، بعدد ، 1950 من 94 - 33 إلى يفسر الأدب المقصور بأنه الأدب المنهجي يبرر به المنة والحدس « عيار بدو ثمة رست عديس في وظلمه المأذنة ويرى إحسان محسن أن ذلك مرتب بترتيب حيوة عند أرسطو طاليس حيلة إذ ينك بهم انمرق بين الفهم والاصطلاحية » وحقيقته بيته المعلوم المعرف والمعلوم قلميه وقسم تصانيع من المعلوم لاثنية و صبح منضم أن تحفاته وصحة المنصر بعد صرف المظم الأول عهدا كبرا في تبين منفعته عن طريق الإلقاء والتعليق . إلا أنه افتقر إلى أنهما لا يشجع التجربة والبرهان ، ورغم ما قد يبدو على حد آخرائي من وجاهة فتنة بسبل إلى « عشار » مصر وتبسط عند المحيد مرتضين بمفهوم المساحة والامتداد

كما ذهب المؤلف في غير الموضع إلى أن هذا شخص لا يعبر عن موقف أخلاقي وإنما هو صبر من حد من بين القائلين على ترجمته اقتراء الأجنبي والمصنوع للشعر بدو « صبح » صاحب « الحيوان » على شعر في تخريج مسائل علمية مع ما تصور كما بدت في انكشاف عرص من برواثة . لكن لا جدال في أن المصاحبة بالمؤلف وفيه يعيب على حيلة آرائه المندم التي « تنحدر في نظره من رأيي المداين من بكة في حد الشعر

« حنة فلسف مضمة بل إنها تضار في نظرها عن فهم مثلي قد يرجع موقف صاحب السري ليس إيمانه يمكن أن تنهك حرامه ثقا لليه انتماية بل إنه رغم « ع » لا يستعج به ، دما

وإحلال الحديث عن فضل الكتاب مقدّمة مؤلف هو زبدة تحريرة صوبه . ومكبدة علمية فذة . أمرٌ عظيمُ الشأن يجب أن يفهم - في تصورنا - على أنه منحة معرفية مؤدبة تتعبّر عميق في بنية الثقافة الإسلامية فهو لا ينتقل من الطّور « الفصلي » ، طور الفوضى والتناقض حيث يمشي « شاعر » ، نموذج الثقافي الأسمى . و« الرواية » حلقة التوصل الأساسية بين منتج ومستهلك . في طور جديد نحل فيه الوثيقة المكتوبة محل « المحاضرة وينتهي » شعر ، كصياغة . مرتبة الشعر أو بعضها ، ويتبدّل تبعاً لذلك نموذج اعتقدي نفسه أو يتعدّد على الأقل . فيصبح للأديب العالم . في هذه سيرة . حطّ الشاعر أو ما يريد .

ولا مندحس . هنا . من إثارة مسألة التأثير بالفكر الأجنبي التي أجعلها الحديث عنها في القسم الأول . ذلك أن « أبا عثمان » أطلب ، وهو يبيّن أهمية الكتاب كجزء من تصور ثقافي شامل ووسيلة لنشر المعرفة وعبودته « مشهور » ثبو الدهور ، من ذكر التراث الأجنبي . خاصة اليوناني (1) . وينسب على نص « أن » اطلاع العرب عليه كان بمثابة القادح اسدي مكش . يحفظ من صياغة تصوّره ذلك صياغة نظرية توحّ بها مجهوده اعممي . وهذا بجانب . في رأينا . أهم ، في بيان تمازج الحضارات وتلاحقها . من بحث لجرئي وتعقب الفكرة الشاردة وبدن المجهود في ردّه ، في أصلها ، وإذ ذلك تنقّص الحجة بالحجة وبسوى الشك واليقين .

فلا اطلاع على هذه الحضارات . وقد انتقلت من أمة إلى أمة حتى كان عرب - كما جاء في الحيوان - « آخر من ورثها ونظر فيها » (2) دفع مؤلف إلى مقارنة . مصمنا وتصريحنا . بين ديوان علومنا وديوان علومهم . مصعب . على مصعب . إلى أن الثقافة العربية . وقوامها الشعر . تعفك الحد الإسلامي الذي

(1) أنور بدلا : الحيوان 54/1 : 73 . 80 .
(2) 151

سعي جهده إلى أن يكون السمة الغالبة على مؤلفاته. وبهذه الصورة تبين جليظ
 رصدين فصول تلك المقدمة التي قبلوا ، لأوك وهلة : مقطوعة متافرة (1) ،
 معهم النسب الذي حدا بالمؤلف إلى التاريخ ليلاد الشعر العربي وقصره
 فضيلته عنهم (2) وقد حمل به بعضهم . توهمًا أن فيه من الادعاء والعصاة
 ما يضع صاحبه في مصاف الثوفينيين الغلاة فضلا عن تجريده (كذا) من أبسط
 قواعد لغو و معرفة (3) . وما ذلك بالمذبح بله التعصب . بل إن فيه صر
 من إقرار . يستقص يهتدي إليه الباحث بقراءة هذه النصوص قراءة متأنية
 شامة . وقوله انشأه : وفصيلة الشعر مقصورة على العرب : يعني ، متى نزلته
 في السياق العام . أنه شكك أدبي ومسلكت في التعبير تعطل بيته بقية ، و بعدت
 أخرى . ولذلك استطرد فتحدث عن صعوبة ترجمة الشعر . ولا يتجاوز
 مضمونه أهله فتجرد من البعد الإنساني الذي يضمن للأدب السيورة والبقاء .
 وفي كتاب « الحيوان » أدلة لذلك لعل أوضحها قوله : « وقد نقت كتب
 الهند وترجمت حكم اليونانية ، وحوادث آداب الفرس ، فبعضها ردد حسا .
 وبعضها ما نقص شيئا ، ولو حوت حكمة العرب ، لبطل ذلك لمعجز الذي
 هو الوزن . مع أنهم لو حركوها لم يحدوا من معانيها شيئا لم تذكره المعجم في
 كتبهم » (4) .



فمن هذا التصور . أساسا ، ونحن لم تأت عليه وإن أضنا . وعن أمور
 أخرى لا يتسع لها بحثنا . نتجت أهم خصائص التأليف عند ملاحظ وفي
 صدرتها ذلك السمي الجاد المضي إلى تجميع أمثالات النصوص وتقييد شواهد
 معرفة عربية الإسلامية مع آخرى الدائى . استجابة مرعه لإدبي

(1) أصل الماويل التي اقترحها الأستاذ عبد السلام محمد هارون . مع إخطار جهته في حرج
 هذا الكتاب وغيره من ثرائه الملاحظ تقوي التناظر وتوسع الفرجة

(2) الحيوان ، 10/1 - 12

(3) مصر : ميشال عاصي : الكتاب المذكور ، ص 125

(4) الحيوان 35/1 وانظر أيضا ص 73 وقد يكون هذا الذي ذكره الملاحظ سبب من حيث
 أن ب جعلت العرب لا يفلون على ترجمة أشعار الأمم التي لم يقرأها أو سمع

في معرفة . على تقييها بموروث الحضارات الأخرى . فتحاورت مؤلفه
 منهم . لاحتصاص أنصتق . موضوعا وعرفا . وانسب سرعة شعوية
 صرت في كل ميدان بهم . وحذت من كل شيء بطرف وماتت بقية
 وثيقة . دة هنتها لأن تكون نقطة تقاطع العديد من الاختصاصات والمشارب (1) .
 ونلاحظ على أنتم الوعي بهذه الخصائص في كتبه . كثير ما أثره
 في معرض تردد على مطاع البعثة و الاعتراض المناسين « فتكرر به ذلك
 كلمة الجمع والخزن والقلب والتمع (2) .

ولا غرابة أن كان الجاحظ صانع مفهوم « الأدب » عند العرب كما
 حددته لدراسات محدثة (3) انطلاقا من مؤلفاته بالدرجة الأولى . وأن كان
 « لاستصر دة أساس منحه في التأليف حتى عرف به دون سواه .

لهذه الأسباب يمكن أن يعتبر الحلقة الأولى لمركبة ما سمي « مدرسة
 أموية في الفكر العربي مع ما هالك من فروق في الأصوب ولأسباب
 جعلتها عند الجاحظ مؤشرا لخلق حضاري . بينما كانت عند غيره نذير
 تفقر وانحطاط .



لا أثر هذه التركة إلى الجمع والتقصي . وتأليف المتأخر . وهي
 في رأي . نجيب لتصور ثقافي ونظرية في المعرفة . م تخضع . في لغز
 لمهجة و صحة ولاء محكم . في حدود مفهومنا نحن اليوم للمسيح والنظم

(1) طار به «سلام المدي القاييس الأسلوبية في النقد الأدبي من خلال البيان والنبين
 الجاحظ حبيب الحامد الشومية ، عدد 13 ، 1976 من 137 - 138 ، الإصدارات
 من 1 ، 5

(2) الحيوان ، 10/1 - 11 .

(3) ابن نالينو (Nalino) .

La littérature arabe des origines à l'époque de la dynastie Omayyade,
 traduit et Ch. Pellat, Paris, 1950.

وسيسر لنا الحديث عن مضافات ثلاثة في آثاره . المفارقة بين الإرادة مسهجة
ونوعى مطردى العام اللذين عمر عنهما الجاحظ . بطرق محتشمة وفي أكثر
من مائة ، وبين الإنجاز الفعلي حيث لا تلبي الرغبة وينطعم حال على
لمراد .

وسنب . فيما نرى ، إصرار الجاحظ على أن يأتي في ما يؤلف على
مفهومين للكتاب والكتابة متباعين : التدوين والتفصيل : من جهة ، وكونه
نص في تنظيم المعرفة وتبويبها احتكاما إلى أسس منهجية وعلمية واضحة ، من
جهة أخرى .



لم ين الجاحظ ، زيادة على غزارة المادة المتجمعة لديه وعدم توفقه
دالما في سببها وترويضها . لم يحص . في المنقضي من آثاره ، البحث البلاغي
بكتاب مستقر يجمع مسائله ويوتئها ، واكتفى بإدراجها في ثلث مؤلفاته ،
نسب متفاوتة تنعكس فيها ضرورات البحث وعركاته ، فجاء في صورة
ملاحظات وتعليقات متناثرة لا يوحد بينها ، أحيانا ، إلا السياق الأدبي
بهم . وهنالك المؤلف بأفانين القول وصوره وطرقه ومرد ذلك ، أسس ،
أن التفكير البلاغي ، كما حاولنا أن نبين ، كان . إلى عهده . في طور نشأته
لأولى لم يشتد منه إلا النزر القليل .

رد على ذلك أن مكانة الرجل الأدبية ليست ، أساسا ، على طريفته في
الكثرة وابتداعه الأساليب وقدرته على التصرف فيها بكيفية لعلها لم تتوفر
لسواه ، فكانت مؤلفاته مصغرا للإنشاء الأدبي الحي ، ومدرسة في انثر قائمة
برأسها نسج على صورته أشهر أعلام انثر العربي بعده . فاهتم لدرسه
بخصائصها الفنية ، وأسرار البلاغة فيها أكثر من اهتمامهم بتطريته في الأدب
وأحكامه في النقد .



١٤. مجموعة الرسائل و البحلاء (١) .

تدو مادة البلاغة في هذه المؤلفات ، إذا علقها بما ورد في « سبب
و سبب » قيمة ، صعوبة المثال ، لا صيقل إليها ، إلا اقتراءة المتخصصه متأسية ،
شيء ورد ، في الغالب ، وهي منهج المؤلف واستطراده وندعي لتكثير
فيه ، فمضمر المؤلف بالغيه ، وقد دبت فيه اليأس ، ويقع على ملاحظه
طريقة حيث لم يتوقعها ، إلا أنها ، على تواضع حجمها ، مفيدة من عدة
جوانب فهي مادة لا يمكن أن يتجاهلها من يروم دراسه تفكير برجل
لبلغة والأدبي دراسة شاملة ، ناهيك أنه لم يثبت الكثير مما في ، سبب
و سبب » رد على ذلك أنها إذ توردت على حل مظاهر تكبيره في موضوع
تفصيل هي تفصيل ما جاء في غيرها ، محتملا وتوصيح ما كان مقتضب ،
من أنها تعدل بعض الآراء التي حصلت للدارسين من اقتصرهم على
أشهر من النصوص والمؤلفات (2) .

فعل صعيد بلاغي صرف وردت نصوص نصبط لأسس الفنية
الوحدة مرعاتها في تعليق اللطع والمعي . وهذا عماد فعل للعوي .
حتى يكون الكلام بيتا دليما . متبيرا عما يحري على السنة اساس . وقوم
ذلك خصائص في ذات اللطع مفردا يكتسبها من تلاؤم مكوثانه لصوتية (3)

(٢) غلبون ، سامية - ممدوح عبد السلام محمد خيرور وفي في حرائير صيدرا ، القاهرة ١٩٦٤ هـ ، ١٩٦٥ ، كما استندنا في مجموعة رسائل الجاحظ ، ط ساسي القاهرة ، ١٩٢٤ هـ وممدوح رسائل الجاحظ تحقيق بول كراوس وخته الحارثي القاهرة ، ١٩٤٣ ، ورمضان الجاحظ ط حسين السلوبي ، القاهرة ١٩٥٢/١٩٣٣ وتحقيق مستشرقين شارح دلائل الجاحظ التوزيع والبيروت ، دمشق ١٩٥٥ .
ورحمه الله كتاب الجاحظ تحقيق ط الحيدري ط ٤ ، القاهرة ، ١٩٦٩ هـ .

(2) من ذلك إجماع النحويين تقريباً على أن الحافظ يصب اللفظ على المعنى فتكون
 صيغة المثنى لا يطرأ في المعاني المطروحة ومن ثم جعلوا مثنى بوجوده لا
 يرد عن الشافعي (انظر إحصاء عباس التكتبي المذكور ص 100) وقد لا يسبح
 ويحجب عن المبالغة وتشرح لأ. الذي قال في المعاني يطرأ وحده قال «أشرب الماء في غيباء» ثم
 معني من أن يهيئ المعنى في عيش ذلك اللفظ وتشفاع ذلك الاسم حتى صارت نجر إليه
 وهو حراً في المعنى رسالة في علاج ألتجار ودم السلطان حسن مجموعته رسائل الجاحظ ،
 طبع في سنة 1259

{ رسالة التبريع والتلويز ، ط ١ : ٥٩

وحسبه من التواتر تتحدد بها علاقته بالمعنى بحيث يصرف المتكلم من
 حصيد مشرط بينه وبين السامع ما لا يسر عنه المعنى ويحلّ مصدعه تمثّل
 لمسلوك لا نسام الداء في السمع والذهن (1) . ومن ثمّ بصوح الجاحص
 حملة من مواقف سيكون لها شأن في المؤلفات المتأخرة (2)

كما تطرقت نصوص أخرى إلى طرق التعبير وأسائسه وإمكانيات
 في تصريف المتكلم لقدرات اللغة مبرزة أهمية الإيحاء والإشارة وسكينة
 كوسائل توظف طاقة الإيحاء نهجا في الدلالة . وتستعيص بالسباق ومقدم
 عن صريح العبارة وهو ما يجعلها أكثر تمكنا في اللاعة من غيره في
 ذلك الموضع (3)

وبعد من الطريف أن يشير إلى أن الجاحظ عرف الكتابة تعريفا
 مفصلا وصحا مرة واحدة وردت في غير البيان والتبيين (4) وقد
 لا يبدو الأمر ذا قيمة . اليوم ونحن نعود إلى اللاعة مكتسلة الأطوار ،
 ذمة القضايا ، إلا أنها هامة بالنسبة إل من يؤرخ لمراحل العلم من بدايته
 إذ يصبح تقسيم دور الجاحظ تقييما دقيقا رهين الانتباه إلى هذا السياق
 وأمثله . ومصادق ما نقول معنى والمجاز ، عنده فلقد اضرد استعصم هذا
 المصطلح في معان عديدة إلا أنه اكتسب بُعدا الاصطلاحيّ اندى أن يمثّل
 عنه صيغة فترات اللاعة . وهو التعبير الذي يضرا على السسة التعوية التي
 أنشأت دبو صوع والاصطلاح والمتجسم في زوج الحقيّة والمجاز ، في سياق
 من سياقات «البخلاء» (5) . ومن اللغات المهمة . في هذا لصدق .

(1) رسالة في فصل ما بين البدوة والحد ، مبروح كراوس ، بحري ص 109 ومصح
 مجاور ودم السلطان ص 159

(2) تنقرو ، هـ وإسم ولا معنى لغو كالطريف الحدي ، والإسم في معنى الأبدان ، والمعادن
 في معنى الأرواح . القمط قمعي لحد والمعنى للفظ روح = رسالة في الجنة والحد مجبور
 كراوس و بحري ، ص 85 وسيفوف أنى دثيو يمس عجز هذا البيان ، مبروح
 دوة اندرد ، القمط جسم ، وروحه المعز ، العدة ، 1/14

(3) مد . ورد في لغتي التشبيه : مجموعة عبد السلام محمد دارو . ، 302/3

(4) ورد في رسالة في العشق والنساء : مجموعة عبد السلام محمد دارو . ، 62 2

(5) ص 124

صريحاً روي عن الأصمعي يمكن استغلاله من عدة جوانب منها . رتد
 بشكل نسوي والصورة الفنية بأقدار معاش الناس وظروفهم . وصوره
 أن يـ ، مكلمون ذلك فيكون الانقطاع الحادث بين صرفي الدلالة
 بموجب بقاء المرحع . وهذا وجه من وجوه ما يسمى « القوالب الجاهزة »
 ومن اتصالها عن سياق المتكلم الاجتماعي وعرايتها عند تهود سب
 حكم عليها بأنها حاقة موات ، ثم إلى ذلك ، وليس موقف نسوي
 شائع ، أي إلى طرحها فتفهم أن الأصمعي لم يكن منشداً ، محدوداً
 إلى شيء ، نذني تصور المصاد . يقول : وقد كان للعرب كلام على معان .
 وهذا ابتدلت تلك المعاني لم يتكلم بذلك الكلام فمن ذلك قول ناس يوم :
 ساق إليها صداقها . وإي ، كان هذا يقال حين كان الصداق يبل وعنده (. . .)
 ومن ذلك قول الناس اليوم : قد بي فلان البارحة على أهله وإنما كان هذا
 لقول من كان يصرب على أهله في تلك الليلة قبله ونعيمته وذلك هو بذوه (1) .
 كما أبررت هذه النصوص الوظيفية السمية والمعوية لبعض الوجوه
 البلاغية خاصة التشبيه وقد اعتر في ذلك . تأثيره في القاريء أو منتفى ،
 نره ، ودلالته على فطة المتكلم وبلاغته ونموقه تارة أخرى (2) .

* * *

وقد حتوى هذا القسم من المؤلفات ، زيادة على المعادج البلاغية
 المذكورة على قصايبا لغوية ومواقف أدبية عامة اتصل بمعظمها بالشعر وما
 تفرجه بنيتة ومماوسته من مشاكل .

يأتي في طبعه هذه المشاغل النظرية إثباته ضرورة الكلام وقصه .
 ومن ثم رجاحة كل المنتجات البلاغية واللغوية . بالمقدرة بيه وبين

نقصه انصحت وهو نوح من البرهان بالخلف تُكتب فيه شرعه بوجوه
من صعوبة إمكان التقيض (1) .

ثم شعر فلم بدّخر الحافظ جهدا للاحتجاج على من قالوا بتحريمه
مبنيته هفت احجّة القليلة المعتمدة . متبها إلى أنه لا أصل لذلك في
كتب ولا سنة . وطريقته في الاحتجاج تسترعي الانتباه لأنها تكشف عن
ثقافة واسعة ، وعارضة في الجدول لا تجاري . فهو يقيم توازيا منطقيا متعدد
مقدمات ومنتج بين الكلام والثناء يؤدي في حاتم المضاف إلى نصيب
العروض والموسيقى فيكون تحريم الشعر في مقام تحريم الكلام أولا .
وتحريم لعمد والموسيقى ثانيا (2) . كما أثبت مسألة الصدق والكذب
في الشعر وما يجرّ عنها من إغراط الشعراء في الصّفة أو ما سيعرف بعده
ببب « هو » وساق لذلك أمثلة شعرية عديدة (3) .

وقد يقف القارئ من حين لآخر . على فلتات نظرية ثاقبة يستشف
منها رأيه في الفن والكتابة . وييمان صاحبها بقصور الفنان ابتدع عن
تصوير الواقع تصويرا ضاهيا . وفي ذلك إقرار بالمعارقة بين ما يحس به
الإنسان أو يعيشه . وبين تعبيره عن ذلك في مجرد أن تقوم بين الشيء
وصورته وسطة تسقط المطابقة ويولد الفن محاكاة للواقع وتمثيلا ، يقول :
« وهذا وشبهه إنما يطيب جدا إذا رأيت الحكاية بعينيك . لأن الكتاب
لا يصور لك كل شيء ولا يأتي لك على كفه . وعلى حدوده وحقائقه » (4) .

ومن النصوص ما يتجاوز محتواها البلاغة والأدب والمقد إلى قضايا
جديدة عامة هي فئة الاستخلاص النظري ومآل مختلف أشكال التعبير
عن محس (5)

- (1) ستمود إلى هذا الأمر في محل آخر .
- (2) نثر كتاب البيان . مجموعة عبد السلام محمد هارون ، 160/2 ، 61 .
- (3) نثر البيان ، ص 206 ، 233 - 234 .
- (4) نثر البيان ، ص 58 .
- (5) نثر كتاب البيان ، 162/2 .

هذا الكتاب . مع « البيان والبيان » . أشهر مؤلفات المحاضر . خلافاً وأنتهجها حجة لثقافة صاحبه الواسعة وتعدد اهتماماته لكثرة مواهبه . ولله بدس بشهرته العلمية ومهيجته العقلية إذ استطاع صبه سعه حر . يتحدث عن حياة الحيوان وطبائعه وطرق عيشه وعجائب حقه مستهدم معارف عصره . فحاء الكتاب حافاً لأشتات المعارف والعلوم في اموضوع

و تراهم المؤلف بموضوع محدود لم يسعه . جرباً على بهجه في تأليف واستجده مقتضيات بعض مصادره كالقرآن والشعر . من التصرف إلى قصص فكرية وأدبية عامة كانت تزخر بها بيئة القرن الثالث الهجرية . فحاء الكتاب « معبنة واسعة وصورة فظاهرة لثقافة العصر العباسي المتشعة الأطراف » (1) .

وكان حقل البحث اللغوي والبلاغي مه غير قليل ، وإن جاء موزعاً على أصوب مدرفه وعروعا ، غير مقصود لداته . ولأهمية هذه المادّة وغزيرتها يصح « حيوان » مصدراً ضرورياً لإبرار دور الجاحظ في البلاغة ومعرفة أصوب تفكيره الأدبي والجمالي . ديك أن جل تصوراته اللغوية العامة ، وهي قاعدة تفكيره اللاغي ، أدرحت في هذا الكتاب

وهذه المادّة تدور . إجمالاً ، حول ثلاثة محاور رئيسية نكتفي في هذا مقام بإساره إلى نمادح منها مرجئين تحليلها واستمالاتها إلى موضع آخر من هذا قسم

نشمس المحور الأول على قضايا لغوية عامة عميقة بصّة بمقاييسه لأسلوبية وآرائه اللاغية والتقدية . منها رأيه في نشأة اللغة ومسل توسعها (2)

(1) بحر معبنة التحفة : 29/1
(2) الحيوان : 21/4

و أهمية العامل الاجتماعي والرمي في فوطيد العلاقة بين الأشياء والكلمات (١) وتأثير لمران والعادة في المواضع اللغوية (2) وانحصار الأسماء عن المسميات وعجزها عن تأدية كل مراتب المعاني (3) . ومنها حديثه عن اكتساب لغة ١ وتطويع الفصحى اللغوية بوضع المتكلم في السهم الاجتماعي (4) وحمده الصوائط التي تراعى في نصربها واستعمالها (5) .

وعن رأيه في نشأة اللغة واكتسابها بررت نظرية المعجم حصص « بطقية اجتماعية أو من أصل المعرفة (6) .

أما المحور الثاني فمحتص بنظرته في الكلام أو اللغة مسجزة نفسه من تعقد شبكة التواصل وتعدد أطرافها . وأبرز دور كل طرف في تحديد خصائص الخطاب اللغوي ومناهية أسلوبه مبوفاً الوظيفة الرابطة بين متكلم والسامع منزلة هامة (7) ضابطاً العلاقة بين تحقق الوظيفة وخصائص الخطاب (8) .

كما تعرض ، في نطاق ذلك ، إلى دور البعد الاجتماعي في لحن والكتابة (9) .

ونتمش نظرية المقامات والمواضع حلقة الوصل بين طرفي زوج اللغة والكلام (10) .

(1) المصدر السابق ، 70/1 .

(2) المصدر السابق ، 367/3 .

(3) المصدر السابق ، 201/4 ، 7/6 - 9 .

(4) العيون ، 89/1 - 90 .

(5) « » ، 117/1 ، 154 - 153 .

(6) « » ، 6/4 .

(7) « » ، 89/1 - 90 .

(8) « » ، 282/1 .

(9) « » ، 77 ، 78 .

(10) « » ، 93 ، 39 ، 368 - 369 .

وصية المحور الثالث خصائص الخطاب وحملته المقديس لأسلوبه
 وانصفه في جعل الكلام بلسان بليغا . وهذا المحور استعملته المراجع وكثيرا
 ما قصرت عليه لأنه أوضحها وأشدّها اتصالا بالمعطيات التطبيقية العملية
 .د كثير ما يكون الحكم التقدي والانتطاع الفني فيه صريحا وصحا
 فيه كذا .الحافظ على أهمه النسبة في الأدب باعتبارها انحصه سوعينه
 لأساسية في ممارسة اللغة ممارسةً فنية . (1) كما اهتمّ بالمظاهر العممية
 التي تجعل الخطاب الأدبي مُحَرَّجًا غير مُحَرَّجٍ العادة . فتحدث عن
 الفصاحة (2) والبيان (3) وأولى الصورة الفنية وصفوف فحركات عديدة
 خاصة وأخرى في ذكر التشبيه والاستعارة والبديع ومُحتَلِفٍ بلاغات وقد
 أفرد لها أبواب ذات صفة عملية . مجردة في الغالب من البُعد النظري ،
 فعين على دراسة الصورة دراسة تاريخية انطلاقا من الأمثلة التي يقدمها
 تحت نفس عنوان ، وكثيرا ما تكون من عصور مختلفة (4) .

وقمة هذه الخصائص ، ودرحنها التي لا تُضاهى ، إعجاز القرآن ،
 فكشف السر فيه وقدم الأدلة عليه (5) .

وحاتبة الرأي عده في قدرات الفمة وخصائص البيان ألا يخرج
 سنعصده عن القيم الأخلاقية العربية الإسلامية (6)



(1) الحيوان . 74/1 - 75 ، 77 - 78 ، 131/3 - 132 .

(2) 52,1

(3) الحيوان ، 33/1 - 35 .

(4) أمثلة في هذا الباب كثير . جد . فذلك نكتفي بذكر بعض المواضع : « شعر في التشبيه »
 52/3 ، 53 ، « شعر في تشبيه القمر في الظلم » 334/4 ، « تشبيه العروم بالدم » 4 ، 350 ،
 « شعر » . « شعر في تشبيه القمر في الظلم » 308/2 ، « قطع من القديح » 57/3 ، « نوادر وطلاعات »
 470/9

(5) الفصل 1 ، 89/4 .

(6) الفصل 5/7 .

ح البيان والتبيين (1)

أشرنا إلى أن «البيان والتبيين» ، بشهادة القلماء والمحدثين ، أهم مؤلفات الجاحظ الأدبية ، وأكثرها تداولاً بين النقاد والعلماء بالشعر ، وأنها حينئذٍ

كما أشرنا إلى أنهم ، وإن عدّوه من أهمّيات الأدب وعيوبه . م يعصرو عن طرح رأي انطباعي على الكتاب ، وحرص المؤلف على استقصاء مسبق الثوب وتصريف اللغة لاكتشاف صرّ صناعة الكلام . مما جعله معرضاً للمصوّن الأدبية المبتكرة وممارسة واعية لأبعادها الفنية أفرزت جملة من مقاييس الأسلوبية والبلاغية خلعت على الكتاب صبغة مردوجة . لأدب ونقده .

ولئن كان للبلاغيين فضل التنبيه إلى هذا الجانب والتأكيد عليه فإنّ النقاد لم يكونوا أقلّ حظاً منهم في إبراره . فالحسن بن رشيق تحدث عن قيمة الكتاب وذكر فضل صاحبه في «باب البيان» من كتاب «لعدة» يقول : «وقد استفرغ أبو عثمان الجاحظ - وهو علامة وقته - الجهد وصنع كتاباً لا يُبلغ جودة وفضلاً ثم ما ادعى إحاطته بهذا الفن لكثرة» (2) .

(1) أثرت كمية التلخيص بالمعروف فضول بعض المهتمين بأدب الجاحظ ، شككوا في القراءة السائدة «البيان والتبيين» واقترحوا تعويضها بـ «البيان والتبيين» ومن أقدم من دعى إلى ذلك مستشرق «هبار» (Huart) (انظر إبراهيم سلامة - بلاغة أرسطو بين العرب واليهود ، ص 69 ، إحياء رقم 1) .

وقد طرح ميشال عاصي ، لكتاب المذكور ، ص 40 ، هذه المسألة وفي ظنه أنه أول من طرحها ، وقد دعم موقفه ببعضين

(1) حجة نسبية مستمدة من ذكر الجاحظ عنوان الكتاب في الفن وقد وردت في سياقين «البيان والتبيين» ، (2/5 ، و 1/271) .

(2) حجة مستمدة من مفهوم الجاحظ لفكرة الفنون وتكريره على وظيفة التبيين والإيهام ويكون ذلك جمع في العنوان بين وظيفة الطرفين الأسليبيين ، المتكلم (صحة التبيين) وسماع (رواية التبيين)

ويبدو أن الحجة الثانية أكثر إقناعاً من الأولى ناهيك أنها تتشعب مع تكبير الحجم لتدوي والتداعي في الكتاب .

(2) انظر : 257/1

والدطر في الكتاب يتبين الدوايح التي تصاعرت فأصفت عليه هذه
 خصوصية ، ويدرك أن المؤلف ، بالإضافة إلى المنحى الأدبي ونقسي ،
 يتحرك من مطلق عرقي ومذهبي ، فالنصدي لمطاعن الشعوبية على العرب
 بربر عارصتهم في البيان والخطابة أمر واضح صريح لهج به ، يحاط
 في حقوة واعتزاز (1) .

و، تماؤه إلى محلة تعتبر اللغة سلاحها الأساسي للظهور على لخصوه
 والإقناع بالمذهب إيان المناظرات والمجادلات دفعه إلى الاهتمام بهذه
 الآلة الضرورية وإحلال دراسة الأساليب وطرق استعمالها طبق العرض
 محلاً مرموقاً من مؤلفه .

ويسترعى الانتباه في مضمون « البيان والتبيين » أمران أساسيان : تنوع
 لمادة وتعدد مواردها ، وعدم تفيد صاحبها في التأليف بينها بمهج محكم
 يجنبه « موقفي » والتداخل اللذين يلاحظهما قارئ الكتاب (2) .

فبجانب النماذج الأدبية من خطب وأشعار وأسجاع ورسائل ووصايا
 آراء في اللغة والبيان والبلاغة ، وفوائيد بها تدرك فصل نهج في لقوب
 على نهج ، بعضها مروي وبعضها شخصي . وإلى هذا وذلك عيبت من
 كلام بعض الطوائف الاجتماعية كالقرويين والبلديين والأقحاح والمولدين ،
 والجماعات العلمية كالقصاص والشاك والمؤدبين . والساذج البشرية
 كالنوكي وحمقي والمعلمين ، ولا رابط بين هذه المادة إلا مكانتها في البلاغة
 واستعمال مؤلف لها لبيان وجوه البيان ، حتى لمكان الكتب من بعض
 لوجوه . مختارات أدبية تختلها أحكام نقدية .

(1) انظر مثلاً : البيان والتبيين ، 1/383 ، 2/5 ، 3/5 وما بعدها .

(2) وقع لاتباء إلى هذه الظاهرة منذ التمهيد ، فالمسكوي ، بعد أن أثنى على احمد
 بقول « () إلا أن الإيابة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والمصاحبة مشوشة
 في تصديده ، ومشتتة في أثنائه . فهي ضامة بين الأمثلة ، لا توجد إلا بالتأمل المتدوين ،
 والتصفح الكبير » . (الصاعقين ، ص 21)

و مؤلف على هيئة من عزارة المادة التي يعالجها وتشعبها . حدّ
وعى ضرورة لرسم منهج محكم يمكن من إخضاعها وسوقها إلى القارئ
في أبواب واضحة الفواصل متتالية الروابط .

لأنّ الإبحار الفعلي بقي دون الوعي المنهجي النظري فجاء تحصيل
الكتاب صوره لهذا الصراع الذي حملناه على الغناء مفهومين بكثرة
لديه : التدوين والتنظيم (1) .

فهل بإمكان إعادة تنظيم هذه المادة وربط حل الأسباب بين
ما ورد في مؤلفاته الأخرى في نفس المشغل عسّا بذلك يدرك ليهيكل العمل
الذي تدرج فيه آراء الجاحظ اللاعبة ونظريته الأدبية ؟

هذا ما نحاول القيام به طيلة هذا القسم منطلقين من مصطلح « البيان »
الذي توالى استعماله في مؤلفاته وتوَّج به أشهرها صلة بالبلاغة والأدب .

(1) مذهب الوعي المنهجي نظري وحلوه العملية كثيرة . قد أتت على حلها بعض الأعمال
التي قد يدرك أن شعر بالحاجة إلى إثباتها .

نظر : عبد السلام محمد هارون ، مقفلة تحقيق « البيان والتبيين » ١ : ١٤٢ - ١٤٥ .
عبد السلام محمد ، المقال المذكور : ص ١٤٢ - ١٤٥ .

2 - مفهوم البيان عند الجاحظ

لا يحري مصطلح « البيان » في مؤلفات الجاحظ على معنى واحد . فهو يدلّ ، في بعض السياقات ، على وسائل التعبير الممكنة بين البشر ومختلف الكيفيات التي يؤدون بها المعنى بقطع النظر عن نوع العلامة المستخدمة . وهذا معنى عام يتسع للغة ولغيرها ، ويدخل في مشغل علاميّ نمحّض . اليوم ، عن علم قائم الذات يطلقون عليه « علم العلامات » . ويصيق ، في سياقات أخرى ، هذا الحقل الدلالي فيربط البيان بعلامة متميزة هي العلامة اللغوية بوصفها أداة مكتملة متطورة تمكّن مستعملها من إبراز حاجته والتعبير عن خواجه نفسه .

ويرتبط به معنى فرعيّ عنه توفّفت فيه العلامة اللغوية لقصد فسّـيّ تكتسب بمقتضاه خصائص نوعية تعدل بها عن الاستعمال السائر إلى استعمال أدبي تتوفر فيه شروط الالاعة والفصاحة .

فمفهوم بيان ، عند ، يتلرج من : العلاميّة ، مطلقا إلى العلامة لغوية بمستوييها العاديّ والأدبيّ . ومنحاول في هذا الفصل تبيّن هذه المعايير وما يؤسسها من نظريات وما قد يقوم بينها من علاقات

أ - انواع الدلالات على المعاني

يسى مفهوم العام للبيان . عند الجاحظ ، على جملة من منطقت الفلسفية ومعقائية حدثت . بلورها . نظريته اللغوية العامة وأثرت تأثيراً عميقاً في صيغ وطيفتها ..

ومبتدأ تفكيره في القضية يتأسس على نظرة ديبية رمزية تنسب بموجيها المحبوبات منزلة النوال لمدلول أصنى سرمدى بهتدى به بالتعقش وتأويل الرمز وهو حكمة العالم والكور .

وهذه الأدلة وإن اشتركت في جهة الدلالة فهي تختلف من جهة الإدراك ولتعقش والقدرة على الفهم والتأويل . لذلك انقسمت قسمين : قسم "عقل" بهتدى بتلك الحكمة إلى سر ووجوده وأبعاد وضعه وسر التكوين في ذاته فيستشعر

كون العالم بما فيه حكمة



حي دنت ويعز وهذا القسم دليل تستدل به ونقسم لا يدرك كنه
تمت الدلالة ولا قدره له على الاستدلال لأن ملكاته قاصرة عن ذلك فشارك
نقسم الأول في الدلالة ونقص عنه بالاستدلال .

ونتيجة ذلك أن جعل للمستدل سبب يدل به على وجود استدلاله .
ووجود ما نتج له الاستدلال . وصموا ذلك بياناً (1)

ثم يتدرج الجاحظ من هذا التفكير العام المحدود إلى تفكير اجتماعي
يتجسس من خلاله مقتضيات الميزة الإنسانية وأولها حاجته - أي الإنسان -
في غيره صعباً وحلقه وحوهراً إذ لم يخلق الله تعالى أحداً يستطيع تسويج حاجته
بنفسه (2) . فهو بقوة العقل آلة التفكير والظر . يدرك حاجته من قوام
وقوت ولذة وإمتاع . وبقدرة الاستدلال والبيان تكشف تلك الحاجات
وينتهي إليها معاملته ومعايشته فيتم التعاود والتأثر وتنفذ بينهما لأسباب (3) .

ومن هنا ارتبط مفهوم البيان في مرحلة أولى ، بغاية التعبير عن خفايا
الحجج والمعاني وهتك الحجاب دونها ليتم للناس مرادهم من اجتماعهم
ويدركو حكمة الخلق وما أودع الكون من جليل الحكمة .

« وسيد اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب
دون التفسير » (4)

فحات الدلالات أنواعاً ومراتب . أما الأنواع فمن جهة أن الإنسان
يبس عن مراده بوسائل شتى لا تنحصر بالضرورة في اللغة . وأما المراتب
فمرتبة برأي الجاحظ في أقسام المخلوقات واختراقها في مدح الدلالة
من جهة ولأطراف التي يتم بينها التواصل والبيان من جهة ثانية

(1) الحيوان . 33 .

(2) الحيوان . 43/1 .

(3) صمد . الثاني . نفس الجمعية .

(4) البيان والنبوي 76/1 .

وأنواع صطلح في حمسة لا تزيد ولا تنقص - حسب عبارته - وهي
 للفظ والإشارة والعقد والخط ثم الحال التي تسمى بصبه (1) . ومنزلة نوع
 الخمس ، في رأي الجاحظ (2) ، دون منزلة الأربعة الأخرى لسيئ فهمها
 أن لا وجود لوسط بين المستدل ودلالته فتبقى معرفته رهبة الإدراك المباشر
 والاعتراض ، وما توحى به الحال للذهن المبصر ، إذ هو ناطق من جهة الدلالة
 لا يقوم على معناه دليل باعتباره من القسم الذي لا يستدل ، في حين يتشكك
 الاستدلال في الأربعة الأولى في علامة تحترق الدلالة وتحيط بالمعنى وتكون
 مرجعا إليه .

« وجعل البيان على أربعة أقسام : لفظ وخط وعقد وإشارة ، وجعل
 بيان الدليل الذي لا يستدل تمكينة المستدل من نفسه واقتياده كل من فكر
 فيه إلى معرفة ما استخزن من البرهان وحش من الدلالة وأودع من عجيب
 الحكمة . والأجسام الخرس الصامتة ناطقة من جهة الدلالة ، ومعربة من جهة
 صحة الشهادة على أن الذي فيها من التدبير والحكمة مخبر لمن استخبره وناطق
 من استنطقه كما حبر انزال وكسوف اللون عن سوء الحال وكما ينطق لسان
 وحسن النضرة عن حسن الحال » (3)

وثانيهما أن البيان يحب أن يتم بين الأجناس المتشابهة بعلامات يفهمون
 بها بعضهم عن بعض ويرفعون بها عنهم مؤونة الجهد في استكناه معاني لكمنة
 التي تبقى ، ما لم تحط بها العلامة ، مستعصية لا تيسر إلا بحالصر الجهد واشقة .
 « (ر .) لأن أكثر الناس عن الناس أفهم منهم عن الأشباح مائة
 والأجسام حادثة والأحرام الساكنة ، التي لا يتعرف ما فيها من دقائق حكمية
 وكور ، آداب ، وتاسع أعلم إلا بالعقل الثاقف اللطيف . ونسطر التسم

(1) البيان والتبيين ، نفس الصفحة

(2) الحيوان ، 45/1

(3) الحيوان ، 33/1 .

١٠ . والأداة الكامنة . والأسماء الواقعة . والتعريف على مكرره .
والاحتراس من وجوه الخدع ، والتعريف من دواعي الهوى ، وذلك شكل
فهم من شكله وأمكن له وأصب به و (١)

وترتب هذه حسب الجاحظ تعاقبها بالخواص منسوبة ، هو
للسامع كالتعريف ومنها ما هو للناظر كالإشارة ومنها ما يشترك في إدراكه كحسب
كاعتقد فهو للناظر واللامس ... (٢)

كما ترتب من ناحية ثانية تعاقب تماؤه من حيز مكاني وزماني وقصده
مدى الصروف ومنتهاى الصوت بالنسبة إلى اللفظ والصوت والإشارة ، وما
ما يروح من حاجات ، عاب فالحاجة فيه إلى الكتاب تغدو ماسة ، لا سيما
في التواصل والتماهم سواء (٣) .

وتقييد الجاحظ في مهمته للأدلة بالشكل والخواص جمعه يبرر دلالة
خوب دون منزلة الأنواع الأخرى ، وأولا هذا القيد لأمكنه الوصوف في عدم
لعلامات إلى حدود لا نستطيع التكبن بمداها . ولنا في النص الذي أثبتته ،
بؤكد ، قد اعتبر الهزال وكسوف اللون وما يقابلهما من سمن وحسن
اصفرة . وكنها أحوال ، دلالات على معان . إلا أنها لما لم تضبط في مدى
ملموس وم تنسب بشكل معلوم لم يُلحظها بالأدلة التي تستدل و كتمى بقول
فيها نقطة من جهة الدلالة .

فألب هذا المفهوم العام ، وقد أتى عليه المؤلف بقوله : « الدلالة
تدهرة على المعنى الخفي هو البيان » (٤) ليس رهين جنس الدليل ونوع
العلامة ، والمهم هو الالتفات بالمعنى من حائل الاختراع ، وبهذه الخصائص

(١) المصدر السابق ، ٤٦/٢

(٢) العجوة ، ٤٦/٢ ٤٦

(٣) العجوة ، ٤٧ ٤٩

٤ البيان والبيان ، ٣٥.١

٢٠ - نصي المستدل إلى حقيقتها وبتمثيلها بمكره - بأي شيء بعد إلهامه
وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان (١) .

وسطيع أن تؤكد ، بناء على ما سبق أن هذا المعنى يهتم بالغايات لا
بوسائل ويتحدد بالوظيفة لا بالنسبة أو الشكل مما جعله خلوًا من كل
أعداد قسمة وبلاغة ، لا هم لصاحبه إلا الوقوف على الوسائل التي تضمن
شخص من أفراد المجموعة نقصاء الحاجات ونوع المآرب (٢)

وحيث من البعد التمثيلي لا يعني انحصاره عن نظريته اللغوية وبلاغية
بعمامة ، دكرية الأصولية التي تدعم هذا المعنى الأول وهي وظيفة « المهم
والإفهام » ستبقى قاسما مشتركا أعظم بين كل مستويات التعبير وطرقه ،
عن أساسها تسيطر حل خصائصه ، عاديا كان أو فريسا .

ثم إن البيان باللغة ، كما سيتضح ، في حاجة ، لتأدية أهداف المعاني ،
في لتوسل بوجوه البيان الأخرى ، هو ما يفسر الأهمية الكبرى التي تحتلها
« الإشارة » كنهج في التعبير النليج في نطاق نظريته الأدبية والجمالية .

ب - من العلامة مطلقا إلى العلامة اللغوية :

بعد ، بالإضافة إلى المفهوم العام الذي تنوعت فيه الدلالات على المعاني
وتختلف صورها ، مفهومها خاصا بقرن في البيان باللسان ويقتصر معناه عن
نمط التعبير المستند إلى العلامة اللغوية أداة للتليغ . ولنا في حاجة إلى دليل

(١) البيان والتبيين ، ١/٧٦

(٢) من أثر ما يدل على ذلك معجم « دار البيان » في البيان والتبيين ١/٧٦ حيث نقب ،
في بعض جهات الألفاظ ، نقاد المعاني كقائمه في صمد السمع معجم ،
في ردهم ، « انحصار » في معجمهم وأنشئت بطايرهم : « احاد » عن فكرهم
في صورة معجم « حبة » و« حبة » مكتوبة وموجودة في معجم معجمه ، لا
يعود الإحصاء صير صاحبه ولا حجة أنه « حبة » ولا معنى سرقة ، معجم ، به عن
أموره ، راعى ، فله من حجاب نكهة إلا يعبر ، وإنما يحكي نكهة المعاني ، كرهه «
و حذرهم عنها » واستعمائهم إيضا ، وقد انحصار هي التي تقر ، من المعجم ، بعد
نكهة ، « معجم المعاني » « طاهر » ، « أمثال » شفا « وليست قرب »

بـ يؤكد أن جهد الجاحص ، في « البيان والتبيين » وفي مؤلفاته الأخرى ، مما برز فيه ، حدث شعاعي واللفظي سبب ، منصب على تفحص أسرار عبارته العموي وتحسين قدرات اللغة القرينية والبعيدة ووجوه نصرتها طبقاً على ما يستحسن ومما صدق . وفي هذا إقرار بحقيقة نبوءات اليوم مرتقة المستحبات وهي أن « لغة أشد الأنماط الشعرية التي اهتدى إليها الإنسان اكتمالا وأعناها دلالة وأكثرها مثلاً ممة » الحاجة في التعبير . فهي تمده بما تعجز عنه الوسائل لأخرى ، وفيها من التقيد والشعب ما يلائم أقدار منزلته البشرية .

لا أن تمحص المصطلح لهذا المعنى الخاص متدرج متشعب ، وقد حاول ضبط مراحلها كما يأتي :

(1) مرحلة أولى يفترض فيها البيان باللغة بواسطة التركيب الإضافي مبين بسوء ، مما يدل على أن المفهوم العام مائل في ذهن الكاتب وهو ، « كائن » ، واع إبان عملية الصياغة بأن اللغة ليست إلا وسيلة من الوسائل ، وليس في السابق ما يشير إلى تفردها وتميزها عنها ، وصيغة الإضافة مجردة في نسيج نصوصه ، في هذا المصطلح ، هي « بيان اللسان » وكثير ما تظهر في جوارها وسائل التعبير الأخرى وينح الكاتب على وجوب نفاذ هذه الوسائل في التعبير :

« وحس الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان » (1)

« ونقسم مكثف بنفسه ، لا يحتاج إلى ما عند غيره ، ولا يد لبيان لسان من أمور » (2) .

(2) مرحلة ثانية يدل فيها المصطلح على قدرة الإنسان على توصيف لغة حتمية تحقيق التواصل بينه وبين حظه والإتيان عن حاجته وهو بهذا معنى متصل من حيث الوظيفة بالمعنى العام ومقتصر من جهة الوسائل على

(1) نظر البيان والتبيين ، 1 ، 79 .

(2) الجير ، 1 ، 50 .

معها حتى يكأنها . في نظر المؤلف : الموسيقاة الوحيدة التي تحلله الآلة . تلك
 « بحسب » وفي كتاب « الحيوان » نصي بدا لنا طريقها . في هذا المنصاري . يذهب فيه
 صاحب مسألة : « هل الحيوان وهل أن ما يصدر عنه من أصوات مقطوعة لغة أم لا »
 وطريقة نص وجوه . منها وصوحه في الدلالة على ما قصد . ومنها
 ستطرد صاحبه . هو يحتاج . إلى مواقف لغوية هامة . واللغات عده متسوية
 في الإدانة عن حاجات متكلميها ولذلك فالأحكام المعيارية التي تستقرت في
 عنية انجليزية كمدخلتهم بين « طمطنة الرومي » و« بيان لسان العربي » مسية
 عن تعصب وحيل القائلين بها لمواضع تلك اللغات وسوء تقدير بوليفية
 لغة عامة . وعدم فهمها لتصاريف لغة من اللغات لا يعني بالضرورة أنها دون
 ما نستعمل لهم . وسنهم . وقد أثبتنا إثبات هذا النص على طوله . لأهميته
 ونسبته أخرته . « إن قائل قائل » ليس هذا بمتطوّل قيل له : أمّا القرآن فقد
 نطق بأنه منطوق . والأشعار قد جعلته مطلقا . وكذلك كلام العرب . فمن
 كنت إنهم أخرجته من حدّ البيان ورعيت أنه ليس بمنطوق لأنك سمّتهم
 عنه فأنت أيضا لا تفهم كلام عامة الأمم . وأنت إن سميت كلامهم « هاتمة
 وطمطنة » لأنك لا تستمع من أن ترعم أن ذلك كلامهم ومنطقهم وعامة الأمم
 أيضا لا يفهمون كلامك ومنطقك . فجاء أنهم أن يخرجوا كلامك من البيان
 ومنطق . وهل صار ذلك الكلام منهم بيانا ومنطقا إلا لئلا يفهم حاجة بعضهم
 . وبعض . ولأن ذلك كان صوتا مؤلفا خرج من لسانهم . بهذا كانت
 أصوات أجناس الطير والوحش والبهائم بيانا ومنطقا إذ قد علمت أنها مقطوعة
 مصورة . ومؤلفة منظمة . وبها تعاهموا بالحاجات . وخرجت من فم ولسان .
 في كس لا تفهم من ذلك إلا البعض . وكذلك تلك الأجناس لا تفهم من
 كلامك إلا لبعض . وتلك الأقدار من الأصوات المؤلفة هي نهاية حاجاتها
 ونسب عنها . وكذلك أصواتك المؤلفة هي نهاية حاجاتك وبيانك عنها » (1)

حيوان ٦ ٧ . ك . نصي نصي نقد للتفكير في نصي المصدر 32/1 . 16 . البيان
 والنبي 11 1

ووفق هذا التصور يقترب مدلول الكلمة من أحد معاني « المصاحبة »
 عند صاحب المصاحف المستخرج من مقالته « الفصيح » « بالأعجم » وقد انتهى
 إلى أنها صفة لا صفة بالمتكلم لا بالكلام وخاصة من خصائص الإنسان لأنه
 يستطيع أن يفهم إرادته بأي لسان ينطق (1) .

وبعد معنى يصرل « البيان » من حيث الإنسان منزلة العا ستر به عن
 سائر حقوقه أو المانع لغيره من مشاركته صفة الإنسانية كما يقول المصنف .
 وقد نقل صاحب « البيان والتبيين » عن رئيسهم أرمطو قولاه في تعريفه
 « الحي الناطق المبين » (2) .

ومن أوضح الأدلة على أن المقصود بالبيان القدرة على الإصباح والإب
 اعتماد المؤلف . للإحاطة بخصائصه . على تفيضه « العي » . مبرر في مؤلفاته
 ثلثي تقاسي تصاع على أطرافه تماعلا حدليا حصبا مما مكّن المؤلف من إمكانيتين
 في تحديد القدرة . الطريقة المباشرة الإيجابية والطريقة غير المباشرة سلبية .
 فجاء الجملة المعاني التي يجري عليها العي معنى موار ومناقض متعلق بالبيان :

البيان	العي
— تمييز وسيلة وترتيب ورياسة (3)	— عجر (3)
... عجم (4)	— جهل (4)
— بصير (5)	— عصى (5)
— قدر لأعظ على أقدار المعاني (6)	— إطناب وإكثار وتقصير عن المقدار (6)

(1) الحيوان ، 32/1 .

(2) البيان والتبيين ، 1/171 .

(3) و (3) المصدر لسان . 14/1 15 الحيوان 5/1 .

(4) و (4) البيان والتبيين . 1/171 .

(5) و (5) نفس المصدر نفس الصفحة .

(6) و (6) نفس المصدر . 106/1 234/2 الحيوان . 4 207 .

البيان	العي
ردده حاش ومسك النفس (1) - تحكّم في مصائر الكلام ومو رده (2) فصلة ومريسة (3)	حجل واسهار (1) - خلط واضطراب (2) نص في المروعة (3)

3. مرحلة ثالثة تأتي فيها كلمة « بيان » في جوارز لغوي ذي صرح معياري تقيسي تصح استقصاء وظيفة البيان في حاجة إلى مستوى لغوي تتوار فيه خصائص نوعية تخرجه عن حاري الاستعانة إلى اللاء، وانص²⁴⁹ لا أن تلك خصائص ليست صريحة . يستشفها القاريء من السياق اللغوي نفسه . ومن كون موضوع حديثها في العائت نصا اعتبر المثل الأعلى في التعبير ، يعني بذلك انص²⁵⁰ نقرآني وما يتصل به كاحديث عن خصائص مبلّغة البديّة .

« و مدح القرآن بالبيان والإفصاح ، وبحسن التفصيل والإيضاح ، وبجودة الإفهام وحكمة الإبلاغ » (4)

« هو أنك لم تجعل لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فضيلة في سورة ولا مزينة في البيان والفصاحة . فكما لا نجد بدا من أن نعلم أنه لو حدد من لفصحاء » (5) .

4. مرحلة رابعة يفصل فيها مفهوم البيان بصريح العبارة ، عن معنى لاعم - وسائل التعبير مطلقا - وعن معنى التعبير باللغة محدودة من كل قصد فشي حين تحصر وظيفتها في محرد الإبلاغ ، ليصبح صو « البلاغة »

(1) و(1) البيان والبيان . 249/2

(2) و(2) البيان والبيان . 234/2 ، 239

(3) و(3) البيان والبيان . 75/1 ، 77

4. صرح - مو 8/1

5. الحيوى 275/4 : انظرا أيضا البيان والبيان 7/1 ، 93

و «نقص حذ» متعلقا ببعدها الإنشائي حيث توظف توظيفاً أدبياً حميداً فيكسب
محصول نصه ومعاد ونيتة خصائص نوعية تتحول بمقتضاها من مرتبة موضوعية
إلى مرتبة موضوعية والعايات معا فيحلب انشاء متلقية بذاته ولذاته ونفس
«شعبيه» . وهي أمر العلاقة بين الدال والمترجم في الاستعداد بعددي
معد منه مني إلى المدلول ولا يشعر بحاجر الدال ، حاجرًا سمكًا يعكس
عنه سطر ولا ينعكس إلا بعد تبين مداخل ذلك الحاجر ومخارجه فتصبح معه
مادة تدريس وموضوع الاختبار والتشريح حتى نكادنا نسعى إلى المعنى في مربي
من «تكريست» (1) .

والموطن الذي نعدده هذا المعنى كثيرة في مؤلفات الباحثين أبرزها
كتاب ورد في «البيان والتبيين» يقوم المؤلف فيهما بنور الدال - ساقه -
يتحدث عن تركيز رواية تدخلا صريحاً يدل على مدى تبلور المنصور ووضوح
في ذهنه . وأهم من ذلك فهو . في التعليل . يطابق في الاستعداد بين كسبي
«البيان» و«البلاغة» بلا حرج أو تعليل .

فقد نقى تعريف جعفر بن يحيى للبيان حيث يقول : «أن يكون
لإسم يحيد بمعناك ويحلى عن معراك . وتخرج عن الشركة . ولا تستعين
عنه بالذاكرة . والذي لا يدل منه . أن يكون سليماً من التكلف بعيد عن الصنعة»

(1) تعريب لدراسة «الإنشائي» من - ب - أحمد أعلامها . ذ - تودوروف (Tzvetan Todorov)
هذا أن وعي الإنسان بالذات يدور على قطبي انتقال شفافية (discours transparent)
وعدمها (discours opaque) . أما الأول فإنه يطلب من المتلقي
ويحتجى على أنه من الإدراك والتفاني لكثرة ما يدخل عن جسد من مواد وشكلا لا
يسمح للشك . وثالثه مع نظريتهم في الألفاظ قالوا إنه لا يحسن ولا عسى معه ولا
يرجع إلى حقيقة خارجية وأطراف ما نتج عن هذا المنصور ، في رأيهم وقولهم على
وطيد ، وهذا النوع لم يشبه من جند قبلهم إياه وهي «الطوولوجيا» بوجود الكلام
نعم تودوروف

« On voit surgir ici une nouvelle fonction de la rhétorique c'est de
nous faire prendre conscience de l'existence du discours. Le langage qui
ne sert qu'à transmettre autre chose n'existe pas car il s'efface dans
la communication »

Literature et signification Larousse. Paris 1967, pp 102-103.

نعم

« ين من تعقيد - غيب عن التأويل : (1) وبضيف مباشرة بعده أن »
هو ثوب من قوت الأصمعي ، « البليغ من طبق المقصّل وأغلك عن عصر »
« يستخرج من هذا التحليل أمرين : أولهما ما ذكرنا من تكافؤ معصمحي »
« سلاعة » في الدلالة . وحمل المؤلف شعبة المشبهة « بليغ » وما بعده
على حدّ « البيان » .

وثانيهما استعماله بعض السياقات لتفسير بعضها الآخر فيصنف من معصم
في دنه معنى في غيرها فيجسوي النصّ النصّ ويصحّ التأليف بينه طريقة
من طرق معرفة الحجة . ومؤشرا نستعين به على معرفة التطور الذي به
تعريف الأصمعي بصرف النظر عن موقع صاحبه رميا . بدليل . في تحسّس
حدود البلاغة . مرحلة أسبق حيث لم تتخلص العبارة من الشحنة الددية التي
يكشف عنها التعريف بالتشبيه . تشبيه الكلام بالديحة وانتكسهم بجزر
وسرعة بإصهبة المفصل . وهو لذلك عام مجمل لا يمكن أن تستخرج منه
معنيت صلبة إلا بضرب من التأويل أو بحمله . كما فعل الجاحظ هذا .
على حدّ آخر أكثر تمكنا منه في الغم لأنه يعتمد على الخطاب المباشر الصريح .
أما الموطأ الثاني فيعكس فيه المسار . فهينما تدور الرواية حول حد
بلاغة نجد الجاحظ يستعمل في التعليق كلمة البيان

فقد نقل عن الحسن بن قنول في تعريف البلاغة والبليغ : كن من
أهمك حديث من غير إعادة ولا حبة ولا استعانة فهو بليغ (1) وبعد
حسب صفحات شعر بالحاجة إلى تدقيق هذا التعريف وصطه فيقول « فمن
رغم أن سلاعة أن يكون السامع يفهم معنى القائل . جعل المصباحة والكمة
والحصة ونصوات . والإعلاق والإبانة . والملاحون والمغرب . كنه سواء » .
وكنه يديار () وإنما عني الحسن بن قنول أن العرب حاجتك على محاربي كلام
بمعرب المعصمات (2) .

(1) البيان والتبيين . 11/1 .

(2) البيان والتبيين . 1621 وقد أوردنا في النصّ الفكه موضوع السجدة

ومن أهم ما يلفت الانتباه في دلالة هذا المصطلح : بالصورة التي رتب
مرحبها . الانتقال التدريجي في موقف الجاحظ من التعصب للعرب
ومقاصد من إقامة التواصل وتحقيق المصالح والإفهام إلى الوعي بأهمية الوسائل
ومساكن الأداء . فليس كان أتيان في المرحلتين الأولى والثانية الكشف عن معنى
من أي صدى كان . فهو في الثالثة ولا سيما الرابعة كيمية في بلوغ تلك الحالة
وهيأة مخصوصة يكون عليها الخطاب تجعله معطى حضوراً قائماً بذاته يسمّى
كان في الفعل اللغوي العادي عائناً مختبئاً وراء ما يؤديه

وبعد انسب ميتر كز جهد صاحب « انيان والسير » عن فهم بتلك
الكيفيات وهيئات وتمحصر أشكال الخطاب وصوره خلق ما يحيط به من
«الاست» وما يتزل فيه من أوصاف . فسطر للبلاغة نهجا وصيغ حث هتاهة
دعبارها عما بطرق القوم وأقرب التعبير تقوم عليه شرعية وجودها في شجرة
علوم اللسان .

* * *

لا تـ انيان اللغوي في أتم صورته وأرقى نمادجه في حاجة إلى وسائل
أخرى تعضده وتساعده على الإحاطة بعالم المعاني وتحقيق مقاصد المتكلم من
للغة وحداثه في التعبير . ويسبي رأيه هذا على مذهبه في علاقة الأسماء
بسميات ونظريته في المعاني .

أما علاقة بين «السمات» والمندلولات فقومها ضرورة فلسفية مثالية
لفصل بين «معاني» ود الألفاظ وتقرر تلك وحددا خارج هذه ، سابق
صها ، بحيث لا يتوقف كونها على كونه .

وبعد النظره آثار عميقة في تشكيل الجاحظ البلاغي وجعل «ملاعين»
عرب بعده إذ في قوسها الفكرية الحصرية سيمو الانفصال من عالمي ادب
والمندلولات مما يمكن ثنائية اللفظ والمعنى أو الشكل والمضمون أن تأخذ برقب
هذا العلم وتصدر قضايا الكرى .

بأن القطيعة ليست مطلقة لأن أسبقية المعاني واعتادها من رتبة الله
أمر سبيدي هي قبل أن تتشكل وتلبس ثوبوس العلامة الموجوده في معنى
معدومه (1) - على حد تعبيره - .

ومن هذه « لسرلة بين المترئين » : الكون الصريح ، والعدم الصريح ،
وحدب الأضداد سبلا إلى المعاني وتعلقت « أنطولوجيا » بها على هذا ما
وتحدت وحدها - أي اللغة - باستكشاف عالم المعاني وإبراره وحجته

كن هن في قدره اللغة أن تحيط بكل المعاني وتأتي على جميع مرانها ،
إن جرب المحيط عن هذا السؤال الصمني في مؤلفاته صريح وب كانت
لمسالك مؤدية إليه متشعة ، والرهان مستغلقا أحيانا (2) على أن معاني
تفص عن لأسماء والمحاحات تجور مقادير السمات وقوت درخ
العلامات (2) .

والسبب في رأيه ، احتلاف المعاني ونزولها في مراتب وطبقات لا يتم
إدراكها بنفس الصورة ، فتفاوت قدرتها في التعبير عنها ، وفي « البيان
ولتبين » و« حيوان » نصوص هامة محصنة لبحث أصناف المعاني لا
أنها لا تخبر من « تعقيد والتناقض مما يحسن الاستمادة منها خبيثة محسودة .
ثم إن صاحبها لا يلتزم نفس المتخيل أو ما تشابه منها فتشاه . في نص
الروح . بروح بين الاعتبارات الكمية ، والميادية الانطباعية ، والمصفية
اللغوية (3) .

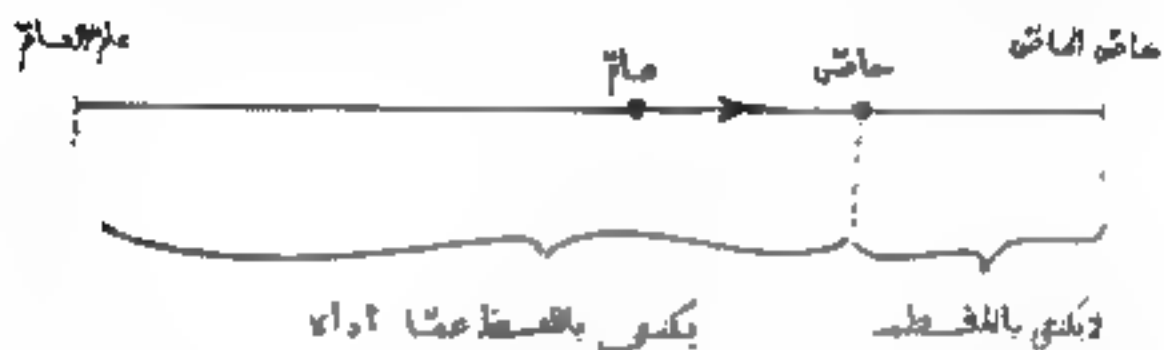
وأكثر التصنيفات فواتر استخاه المؤلف ، على ما يبدو ، من بيئة
سككيين . حصه انعزله الذين اعتنوا بصناعة الكلام ورتبوا لكر معنى
هرطقة في الجدول مخصوصة تراعي قوايس تلك الصناعة . وهذا التصنيف ،

(1) البيان والتبيين ، 1/25 .

(2) الحيوان ، 5/102 .

(3) حيوان ، 5/8 .

على قواثره . غير واضح تمام الوضوح لعموم التركيب ، والمعصية .
 كلمات يقول « ولولا الإشارة لما فهموا عنك خاص الخاص » ، إذا كان
 "خاص الخاص" قد يدخل في باب العام . إلا أنه أدنى طيفاته ، وليس يكفي
 خاص الخاص باللفظ عما أداه ، كما يكفي عام العام والطقات التي بينه
 وبين "خاص خاص" (1) ويمكن توضيح هذا النص بالرسم الآتي



فعل "لنقطة الوحيدة البينة هنا ما يتعلق بحاجة البيان إلى وسيلة أخرى
 نعيه إن منها ما يتبوأ منزلة الشرط الصوري لوجوده شأن الإشارة في هذا
 النص . ونفس المعنى موجود في أحد سياقات « البيان والتبيين » حيث يبرر
 مؤلف علاقة التعاون والتعاون القائمة بين اللغة والإشارة ، وفيه إقرار
 صريح بحاجة عبارة « خاص الخاص » إلى التفسير إلا أنه اعتذر عن ذلك
 بالانفصال سهجي في موطن يشعر فيه القاري بأشد الحاجة إلى أن تصنع
 نفس على مسجيتها في عرض المعرفة كمعادته :

« وإشارة واللفظ شريكان . ونعم العون هي له ونعم الترحم هي
 عنه . وما أكثر ما تسوب عن اللفظ وما تغني عن الحط (. .) ولولا إشارة
 م يتوهم الدس معنى خاص الخاص ولجهلوا هذا الباب البتة ولولا أن
 تفسير هذه الكلمة يدخل في باب صناعة الكلام لصرتها لكم » (2) .

(1) صدر الثاني . 50/1 .

2 البيان والتبيين . 58/1 .

لأنه . ومن هنا جاءت الحاجة إلى التمسك والتأويل لأن طاقته محدودة
لا يفسدح وإذنه محدودة بحيث لا يمكن أن يكون المعنى رائعا في ظاهره فقط
والمعاني المترددة . البائنة بصورها وجهاتها . تحتاج من الأنماط إلى
قصر مما تحتاج إليه المعاني المشتركة . والجهات الملتهمة ولو جهدها جميع
هل البلاغة أن يُحبروا متن دُونهم عن هذه المعاني . كلام وحبر عبي عن
تفسير باللسان . والإشارة باليد والرأس لما قدروا عليه . () وليس يسعى
بمقدور أن يسوم اللغات ما ليس في طاقتها ويسوم النفوس ما ليس في جنتها
وبذلك صدر يحتاج صاحب كتاب المنطق إلى أن يفسره لمن طلب من قدسه
عنه منطق . وإن كان المتكلم رفيق اللسان . حسن البيان (1)

* * *

وواضح . مما تقدم . أن المقصود بالإشارة . وهي 'هـ' أنواع
لدلالات صلة باللغة حتى كاد حديثه يقتصر عليها . ما يبدو على ملامح تشكك
وقسماته أو ما يقوم به من حركات قلبيها عين الناظر
أقامت لإشارة فأقرب المصنوع منها رفع الحواجب . وكسر لأحاديث .
وتسي استغناء . وتحريك الأعاني . وقصص حلقة الوجة . وأبعدها أن تنوي
ثوب على مقنع جبل نحاء عين الناظر . ثم يقطع عنها ويرس أثرها .
وبموت ذكرها (2) .

وهنا بطرح سؤال هام : هل يبقى الجاحظ ، رغم استنتاجنا أنه
فائدة نمط ثقافي جديد وطريقة في المعرفة لم يسبق إليها . رهين التمهيد العربية
في التواصل حيث يكون اثبات متكلما والمتقبل سامعا . وفي هذا من التقصير
ولا يحصى ؟

(1) الحيوان . 46

(2) الحيوان . 48,1

ويمكن أن نصوغ نفس السؤال صيغة أخرى . إذ كانت نعمة . في
لحظة مباشر ، تتجاوز قصورها بمعطيات سياقية غير لغوية . فما أنسيب
في ذلك عندما تكون مكتوبة ولا دليل على ما تؤدبه إلاّ قبام في صر
: إن إرثك الناتج عن الشعور بالتناقض سرعان ما يزول . ومنتج
بخصوص « أني عثمان » يلاحظ تظورا في مفهوم الإشارة من كون نوع
من أنواع الدلالات على المعاني إلى معنى آخر لصيق بنظرية بلاغية و أدبية
عمدة . ومحرك ذلك تمطنه إلى قدرة اللغة على تجاوز قصورها قدرة دنية
بما يكمن فيها من طاقات يصح انحطاط . بتوظيفها وتصجيرها . قدر على
رسم شبكة من العلاقات والمسارب إلى المعنى يستعني بها عن حصور قائمه ،
ويستعيض بأسبق اللغوي انداحلي عن السياق الخارجي . وأهمّ تلك القدرات
صدقة لإيحاء التي تصبح ، من بعض الجهات الرديف الأدبي مفهوم الإشارة
في التحصن العادي . وسيكون لنا إليها عودة في محل آخر من هذا العمل .
وسنرى أن « المجاز » جملة ليس . في نهاية المطاف ، إلاّ ضرب من
توليد اسعة وتجاوز لقدراتها الوصية المحدودة تسعى بواسطته تجاوز ذاتها .

وموصل القراءة في القصيدة هو هذا الجهد في الاحتجاج لأمر يدعو إلى
تحصيل حاصل حتى نكأن الجاحظ يجعل البديهيّات والمسأّلة ت قصيد
هيبة جدليّة

فماذا ، يا ترى ، هذا الاهتمام الكبير بالمسألة وهل من أسبب كامنه
وراء ضهرة الاستدلال تفضل الكلام ؟

جميع المؤلف أشعارا وأخبارا تناولت الموضوع من جهات مختلفة
وعذر أصحابها عن آراء متصارعة . ولم يقتصر على مجرد الجمع ونقابة بين
انوقف بل رجّح بعضها على بعض لأن المسألة ، في ما يبدو ، على صفة
متينة بمعتقداته الشخصية صادرة عن تصوّر لدور المثقف في المجتمع

فمن تلك الأشعار والمرويات ما بشيد تفصل الضمت ويد هو إليه
معتبرا لإناء من صوف الالاف حتى إنّ ابن المقفع افتح به فريضة
« الالاف اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة . فمنها ما يكون في
السكوت ، ومنها ما يكون في الإسماع » (1) .

كما عدّوه من المناف التي تحفظ على الميت يدكرونها في مرثيهم ،
وقد أورد في هذا المعنى البيّن الآتين : (الوافر)

لقد ورتى المتقابر من شريك كثير تحلّم وقيل عاب
صوت في السحالي غير عتي جد يرا حين ينطق بصواب (2)

وستنح من اليث الثاني ومن آيات أخرى أنشأها لنفس تعرض أن
قصه مشروط ألا يكون تسرا عن عي وتسلما من عب لأنه ، وخدمة تلك
يصح « أجلب لعيوب » (3) .

(1) البيان والتبيين ، 1/115 - 116

(2) مصدر الساق - 5/1 - 6

(3) مصدر الساق - نفس الصفحة .

و سحوا الصمت وعصلوه إذ لم تكن المقامات و مؤتته دسسه
 (1) من إحلال المنطق في غير محله : (محروء الكامل)
 و صمت أجمل بالفتى من منطق في غير حقه ()

ولما دعاهم الخوف من دلائل القبول ودلائل الرأي وحموح لسان
 والوقوع في التفتون والإسهاب والسلاطه وانهدوا إلى تفصيل صمت (2)
 عملاً بقول النبي (ص) : « ما أعطي العهد شراً من طلاقة اللسان » (3) .

لأن التفحص لجملة المرويات المعسرة عن هذا الموقف وعف
 رد فعل يحفظ برءاءها يتبين أن المسألة ليست لغوية بحت ، بل هي
 مظهرها بسوي لا يبدو أن يكون طلاء خارجياً تحركه أسباب باهنية تعكس
 مواقف متفاسين من السلطان والسلطة بمختلف أشكالها . أو هي شئ فقل
 إنها تعكس مواقفها من فكرة « الإمامة » عالمية كانت أو سياسية . ولأدلة
 على ذلك كثيرة منها ما يطلق به لسان حال المدافعين عن الصمت . ومنها ما
 ستحصده من تصدي حصومهم لوسم وعلى رأسهم الجاحظ .

فكثير من صحيح الفريق الأول ذو طابع سياسي واضح نعتوا الصمت
 مذهب في التحفظ من الأذى واتقاء الشر . ولذلك تواترت في أحاديثهم
 عبارات بسب . والشر . والحد . والقتل . وكلها تسم عن الخوف من عقاب
 وما قد يجتر الكلام لصاحبه من القمع والتعذيب وهذه نماذج من كلامهم :

« وقالوا : مقتل الرجل بين خفيه وفكته » (4)

« وقالوا : ليس شيء أحق بطول سجي من لسان » (5)

(1) انباء والنبي 197/1

(2) = 1 197/1

(3) مصدر ساجد 194/1

(4) مصدر ساجد 194/1

(5) مصدر الساجد 194/1

« هل لقمان لانه : « أي يسي . إني قد نلت على الكلام وم ... سي
نسكوت » (1)

« وقال الآخر في الاحتراس والتحذير : (خفيف)
حيض انصوت إن نعلقت بلبيل . والتفت بالنتهار قبل الكلام (2)
« ولا نسمع الناس يقولون . جلد فلان حين سكت . ولا قتل فلان حين
صمت وسمعهم يقولون : جلد فلان حين قال كذا . وقتل حين قال كذا
وكذا » (3)

ويعد هؤلاء لتأكيد رأيهم ونصرة مذهبهم إلى الخجة النقية واختاروا
من الأحاديث المشهورة ما يدرج ضمن مشعلهم فرووا منها « رحم الله من
سكت فسلم ، أو قال مغتم ، واعتبروا السلامة فوق العزيمة ، لأن سلامة
أصل والعزيمة فرع (4) . كما رووا عنه قوله . « إن الله يبغض السيف يشغل
بسنه ، فتحلل البقرة بلسانها » (5) .

وقد أطلق الجاحظ على هذا الفريق اسم « المعترض عن أصحاب
بلاغة ولحمة » (6) وأطلق على الفريق المخالف لهم في الرأي . وهو رئيس
نحتهم وسبب حالهم والمنازع عن مذهبهم . « صاحب البلاغة والخطبة وأهل
لبس وحب التيسر » (7) .

وقد ذهب في الرد عليهم مذاهب شتى ، فتعددت الحجة . وتنوعت
سبل الاستدلال . إلا أنها جميعا تخدم . في رأينا . موقفه المبدئي مشهور
« عني في ضرورة أن يندلس العلماء برأيهم . ويخرجوا من صمتهم

(1) البان واثيني . 269 1
(2) مصدر تدنو . 269 1
(3) مصدر تدنو . 270 1
(4) و (5) . مصدر شاور . 270 1 . 271
(6) البان واثيني . 269 1
(7) مصدر . 271 1

وتفقيته ، ، هو موقف لا يمكن أن يُحمل على كونه مجرد ضعف ، بل
وسيلة

« وسعي أن يكون سبيلنا لِمَنْ يحدنا ، كسبيل من كان قبله
على أن يحدثنا من العبرة أكثر مما وحدنا . كما أن من نعدده يحد من
العبرة أكثر مما وحدنا ، مما ينتظر العالم بإظهار ما عنده . وما يجمع
الناصر للحق من القيام بما يلزمه . وقد أمكن القول وصلاح الدهر وحسب
نعم شقية ، وهبت ريح العناء ، وكحد العي والجهل ، وقامت سوف
سبار والعلم » (1) .

ودرجة خضاحه ضعه وحدة . قل أن تصادف مثلها في مؤلفاته في ،
عتمدو عليه من « روايات معدولة وأخبار مدحونة » (2) ورأي مشاع
أما ما روي من الأحاديث المأثورة فقد رده عليهم بطريقتين : يثبت أن
مصونها لا يصلح حجة لما ذهبوا إليه . لأن النسي (ص) « إنما عاب
المشادقين والثرثارين والذي يتحلل بلسانه تحلل الناقرة بلسانه » (3) وعن
موقفه أهل الأدب من الخطاء والنساء وأصحاب البيان وحب لتيسر .
وبالإكثار من النقل عن القرآن والسنة مما يجريء على التماس أسان ولشوق
من الخطابة إلى أرفعها درجة وأعلها سورة (4) .

أما الدرجة الثانية في الاحتجاج فتبني على معطيات تاريخية وتستمد
قدرة على إقناع من إقرارها أمرا واقعا وحدئا تاريخيا ثابتا ، وهي لا تتأني

(1) العيون ، 86 - 87 وقد نبرنا في التصريح على أن « من كان قبله » هو من قبله
من قديم الدهر كما أنه لا يصير مدحيا في التأويل أن يحصل مقدمه . حيث ذهب بعض النقاد
إلى « من كان قبله » أي ودعاه للحكم فمأثم . صبيح عرصنا نقضي مؤلفه (الحدود السابعة
و ثمة مراد به « من كان قبله » أي في مؤلفاته أي مؤلفه السابق غير المؤيد
و ثمة « من كان قبله » أي من قبله من قديم الدهر

(2) البيان والتبيين ، 200، 1

(3) مقدمه ، 171، 1

(4) العبد السوي ، 200، 3 - 201

ولا عقل كعقل الجاحظ يجد الحجّة حيث طلبها . فمس ذلك قوله
 « وذكلام أرسل الله أنبياءه لا تالصب » (1) وفي هذا الصدد سمع منه
 بهم اهتمام كبيراً تأملوا الحجّة وشكلها فتخرج في بناء هوي . طق
 . لتقص فحصل الاقتناع من شدة الوضوح والجلال ونعتت القارىء
 . وسنذكره . والروايات ثم نروى مكوت انصاميس . كذا روى كلام
 . صعين (2) ويرر ذلك بصورة أعجب عند حديثه عن القرآن . و
 رسالة السموية جاءت كلاماً ولم تأت صحتنا ويخرج من ذلك أن الذي
 يفصل الصمت يجب أن يقول بأد . عدم القرآن أفصل من
 القرآن (3) .

ونبهة الحجج عقلية محض تكشف عن قدرته الفائقة في الحدس والمحاكاة .
 وتبين عن حيلة من الفصاحات الفكرية والفلسفية لديه . لعلّ أثرها ربطه بين
 لعضو ووصيفته ربطاً عتياً وجودياً بحيث يكون تعطّل الوظيفة يند . بموت
 لعضو نفسه أو عساده على الأقل . والشواهد لذلك كثيرة منها ما جمعه ومنها
 ما شدعه في شكل مقررات نظريه . فمن النوع الأول أن يزيد من جبر
 قاضي لدرقة . يقال له الصموت لأنه لما طال صمته ثقل عليه الكلام . فكان
 لسانه ينشوي ولا يكاد يبين . (4) ومن النوع الثاني قوله في أهمية لدرقة
 ومرت : « واللسان إذا تكررت ثقله رقى ولان . وإذا انقلت ثقيله وأصت
 يسكنه حباً وعلط () وأية جارحة معتها الحركة . ولم تمرنهم على
 لا اعتبار . أصابها من التعقد على حسب ذلك الملع (5) .

وفي هذا الاتجاه يربط بين حياة اللغة وحياة الفكر في رؤيه فلسفية
 لا تفصل فيها الفكر عما يؤديها تحاشياً مع نظريه العامة التي تجعل لغة

(1) د (2) البيان والنبين ، 272/1
 (3) رسالة في الحد والهلل : مجموعة هرو . 258/1 - 259
 (4) البيان والنبين ، 38/1
 (5) مصر قبايو 272/1

جاء سمعي وحروجا به من حالة «الوحد» «العدم» والحمد لله «و» ثم
إسناد القول فاق حواضره ، وتذنب نفسه وقد حسنه (1) .

ثم من أوجهه الحدية التضييقية فإن الصمت قطع للبرهان و معونه
ويصلح للمنفعة وهذه مظهر من مظاهر اجتماع الناس وسبب رئيسي من أسبابه
أو صمو على معات . فما من أحله لا يكون الصمت أنفع والإيثار به أفضل ،
أن معه لا يحاور صاحبه فيما نفع الكلام عظم وفصيلته أيسر وأجود إليه
أمر (2) لما فيه من انشاهد والمثل وهما مذار العلم (3) .

ومن يؤكد الصفة انسيابية في هذه المسألة قول المحاضر في حصة
لاحتجاج «ومعنى الصامت في صمته أحسن من معنى القائل في قوله ، وإلا»
فإن السكوت عن قول الحق في معنى التطق بالباطل (4) .

والنتيجة الطبيعية أن يدعو المؤلف وقد خرج من استعراض الحجج إلى
البيان والتبيين ولخروج عن صاغة الداعين إلى تهيب الخطابة والبلاغة .

لا أنه على عادته في البحث وتقييدا بالأوساط وه المنقذير « وحتى لا
تتلفض مكونات جهازه الفكري العام فيسد باب القول في البلاغة وتفصيل
طريقة في القول على أخرى تراه يحذر من الإسهاب المتكلف ولخطأ
مثير (5) ويشترط في المتكلم أن تكون له في البيان طبيعة وبعض مناسبة
حتى لا يكلف نفسه ما ليست أهلا له ، فيكون أنوم والاعتذار له عز . كما
لجده في أكثر من موضع يعتق بالصمت قيمة بلاغية تساوي ، وقد تفوق في
بعض مواضع والتميمات ، قيمة الكلام ، فيصبح عندها التكلف فضلا
« والكلام خطلا » (6) .

(1) مصدر سابق ، 272/1

(2) البيان والتبيين ، 272/1

(3) البيان والتبيين ، 171/1

(4) البيان والتبيين ، نفس الصفحة .

(5) البيان والتبيين ، نفس الصفحة .

(6) انظر . رسالته في ظي التشبيه : مجموعة دروس ، 307/1 .

بـ ذلك يمكن أن تـرى للجاحظ موضعين من النصـة . موقف مبدئـي حـي
يدخل في حـدق مقارعة الجاحظين والتهيبين الذين يقدّمون السلامه على سـفـة
ويعتـوبون . حـضـمت نفـة وجـسا للمكاره . وموقفا بلاغيا فـنـيا يكتسب منه
انصـمت دلالاته من الموضع والمقام . وبذلك استطاع أن يوفق بين موقفه لصـدم
من الأولين واستغلال قيمته في إطار نظريته البلاغية العامة . ولعل "أحسن ما
يمثل هذه التـرعة التوفيقية قوله الذي بدأنا ربهـة رأيه في الموضوع .

« ويسر الصـمت كـله أفـصل من الكلام كـله ولا الكلام كـله أفـصل من
السكوت كـله . بل قد علما أن " عامة الكلام أفـصل من عامة السكوت " (1) .

* * *

نتبه الجاحظ إلى أن العمل اللغوي . مهما كان الحيز الذي يشـرّك
فيه . وبقطع النظر عن مقاصد شـجيرة وعاباته . يقوم على ثلاثة عناصر
رئيسية تمثل الحد الأدنى للبيان اللغوي وهي المتكلم والسامع والكلام (2) .
وإشـن لم نلق في مؤلفاته على صياغة نظرية مباشرة لهذا الاعتبار . كـه
هو لشـن عند أرسطو (3) مثلاً . فـإن " كل تحليلاته اللغوية ومقاييسه البلاغية
ترتكز على ما بين هذه العناصر من تلاحم وتفاعل .

(1) البيان وخبير ، (191) .

(2) مختلف . هي إشارة إلى هذه الأسـرف ، فـإن " مصطلحات بـاشـرا في " شـر الجاحظ
ولا يـرى مدخل . جـانبا لـرجـع كـله " محفوظ " على " السكوت " هذه النـسـبة من
مصطلحات " أرسـي (أو ألسـي) " أرسـي " (أو المشـل) و"رسـله (أو السـلـب)

(3) حـد في " سكوت الأول " من " خطبه " أرسطو أن عناصر الكلام أو " السـوت " تـدله
سـكوت . وموضوع الكلام . ومن نسـوـه إليهم بذلك الكلام

من Roland Barthes * *L'ancienne rhétorique* * in, communications, 6, 1970, p. 179

و قد ذكر أن يدوي طـره في كتابه " نقد الأدبي عند اليونان " ط 2 ، نصـة الفـية
حـد " المـدرة " 1969 ص 171 إلا أنه لم يـرجـع فيما يـسـو نص " السـو " بـرجـة
سـو و كـي " المـيـص " حـد " على " السـو " الأـي
" مـر " مـدخل " كـي نصـه و"شـر " فيها ثلاثة حـي
الـثـل وهو المـطـيب

3 " السـول " مـه و"و " الذي يـصل حـد " السـو " مـوـصـج " خطبه "

3 " و"يـي " و"و " إليهم أـسـو " ، و"و " السـو "

وتفطنه إلى هذا الحجاب أمر ذو بال . لا يتقص من قيمته أن كان قد
ابتدع واختراعا وتأثرا . ونحى إلى اعتباره . عند الجناحظ . ابتداءً من
الأساس بوردة في القسم الأول من هذا العمل .

ذلك أن « مرقعة » ظاهره التواصل إلى مكوناتها الأساسية . تتم بلا في
حصة متقدمة من هذا العمل في نطاق ما أطلق عليه « نظرية التواصل » (1) وهي
نظريته نهتم بكل أشكال الخطاب مهما كانت « السند » (2) مستعمده
و« القناة » (3) المختارة . ويقوم « محفظها » (4) القاعدي على العنصر لثلاثه
التي ذكرها مع انعام أن الخطاب أو الكلام ينقسم بصغة آلية إلى قسمين .
الكلام ذاته وموضوعه . فيصبح التقسيم الثلاثي رباعيا

وقد استمد علماء اللغة ونقاد الأدب والفن . اليوم . من هذه النظرية
ستفادة كبرى واستطاعوا بتطبيقها على ميادين اختصاصهم أن يتقدموا
خطوات شاسعة .

وكان برومان ياكوبس (R. Jakobson) (5) فضل السبق في توضيحه
للتقدم بالأبحاث الشعرية والأسلوبية وانحروح بها من المنأرق الذي تردت فيه
لتحديد « أدبيته » (6) الأدب . فقد كانت حلل الأبحاث قبله تعتمد . لتحديد
تلك الأدبيته . على خصائص الخطاب ذاته ومقاييله بالخطاب هادي لذي
تجرد فيه اللغة من كل بعد فني أو يكون البعد الفني . في الدرجة . صفر (7)

(1) Théorie de la communication

(2) Code

(3) Canal

(4) Schéma

(5) انظر مؤلفيه الأساسيين .

1) *Essais de linguistique générale*, éd. de Minuit, coll. Poésie, Paris, 1963, 4ème partie : linguistique et poétique, pp. 209-248.

2) *Questions de Poétique*, éd. du Seuil, Paris, 1973.

(6) Littérarité

(7) degré zéro

حسب مبرهنة . ولش استفاء لهم هذا التصور من الوجه البصري حسب
 فيهم لا يوافق ذلك تضييقه صعوبات حمة شككتهم في فهمه وفهمته
 لإحترامه . وهنا تأتي « نظرية التواصل » لتطرح المشكل طرحاً جديداً . أحد
 بعين لاعتبار الشبكة المعقدة التي تؤسس عملية الحفاظ . وتؤكد على أن
 ظروف مفاد غير المعروفة كالتكلم والسمع تقوم بدور هام في تحديد خصائص
 الخطاب . كما استغاب أن تحرج البحث عن الأدبية من ثنائية الكلام
 لأدبي والكلام العامي ، إلى درس وظيفي متكامل يعرض قضية التعاقب
 بالنسبة لدرجة . والخطاب . كل خطاب . لا أن يكون عن حتمية كل
 نواضع بما في ذلك الوظيفة الإبداعية والشعرية غير أن الشرق بين أبعاده
 تكون بحسب برعيه الضاعية . والخطاب الأدبي هو كذلك . لا لأن الوظيفة
 الإبداعية فيه من الدرجة انصر أو معدومة وإنما لأن الوظيفة الشعرية أو الأدبية
 هي وظيفة البارزة .

وقد منذ سلطان هذه النظرية إلى ميدان الدراسة الجمالية العامة ومكنت
 لمختصين فيها من « تصيغ آليات النظريات في الفن وثقوب أنماط دراسة
 التي تتحدد من موضوع بحثها » (1) .

() انظر .

Izvetan Iodorov *Les genres du discours*. éd. du Seuil, Paris, 1978, p. 27
 وقد جمع الأمريكي (M.H. Abrams) هذه النظريات في أربعة أصناف يدين كل منها
 من طرف « مخطط اتصال » وهي « نظريات » التمييزية (Expressive)
 ومن صاحب الأثر وصفه و« التمسك » (pragmatic) وتضمن تصنيف الأثر .
 و« الشكلية » (formelle) وعالجها شكل الأثر بعد « و« المحاكية » (mimétique)
 وتتناق بموضوع الأثر .

أما René Passeron الذي تلاه ، أصدر كتاباً واحداً بمصطلح
 « البنية الأولى موضوع دراسة عملية تحوّل التي دائها واحتفظ في استنتاج
 منسج من « أثر إلى معنى انوديني تقديم بمفاد » « potétique » أما البنية التي
 فهم « أثر من » رواية مثله « وخصه بمصطلح « esthétique » وليس هذين
 « تصنيف لدراسة » « sciences de l'art » وموضوعها دراسة « جسي النوع
 « وصف هذا تصنيف « نظرية اتصال » واضحة .

ولا تنصرف أهميته ما تقتضي إليه الجاحظ على ما فيه من مصاهر حديثة
ومعاصرة . فقد اهتمت . في وقت مبكر من تاريخ العلوم اللغوية و سلاعية
ب ما يحفل بمصاهرة الكلام من الملاحظات . وهو أوت مفكر عربي سعى في
تأثره على نظرية متكاملة تقدر أن " انكلام " وهو المنظر العملي لوجود للغة
مجرد . يحرر بالضرورة في سياق خاص بحسب أن تراعي فيه . بالصدفة .
ساحة للغة المحض . جملة من العوامل الأخرى كالسامع والتمام وظروف
المقابلة وكن ما يقوم بين هذه العناصر « غير اللغوية » (1) من روابط ، ولا بد أن
باعتبارها مبادئ اللغوية العامة وحملتها تصوراته البلاغية ومقاييسه الأسلوبية
مستمدة من هذا الأصل الذي يمثل . في نظرها العمود الفقري لنظريته ،
ولسبب في تداخل المعطيات التسمية والبلاغية عنده تداخلا محسوسا أحيانا .
والنتيجة الأولى المتولدة عن هذا التصور هي أن خصائص لخطاب
وموصفاته . وهي موضوع الدرس البلاغي . ليست مطلقة نظرية . كما
أنه لا يتسنى ضبطها بمحض الافتراض وشالخص الفكر وإنما هي حصيلة لتفاعل
جملة معطيات أخفاة بإيجاز الحضان خاصة المتكلم والسامع ولغوية التي
يجريان . بها أو ما يمكن أن يطلق عليه الوظيفة .

وبذلك يتخذ البحث عن النظريات البلاغية وجهة خاصة يضطر بموجبها
إدراك من الاهتمام بكل هذه العناصر حتى يتسنى له إدراك الأسس التي
تبني عليها ملامح النص وتوحيته .

ونحن الآن الرظيمة ، وهي في مصطلحه « العاية » (2) و ، مسر لأمر (3)
محرر بروية في هذا البناء لأنها مولد اللحمة ومحرك التفاعل بين هذه الأطراف
بينها بهدف الذي تسعى هذه الأطراف إلى تحقيقه . والعلة في وجود ظاهرة

(1) هي ترجمة تقريره فيصطلح انغريسي (Extra-linguistique)

(2) الدين والبيبي ، 76/1

(3) مصدر اللغوي ، 93/1

الكلام حملة على أساسها تصبغ مقوماتها ويرتسم للمتكلم الحظ الذي يسير
على هديه يتم له غرضه . ومن هنا يتنزل الحديث عنها مرة لمقدمة و مدخل
للإحاطة بتلك البلاغي .

وهي المحوص في مسألة الوظائف وما يجرى عنها من مقررات تنعكس
على عناصر العمل اللغوي تكاملها تطرح هاتين الملاحظتين .

أ) نجد لدى الجاحظ صرنا من عدم التوازن في الاهتمام بعناصر
الخطب يتمثل في مسألة ما حصص في مؤلفاته للحديث عن السمع أو الشق ،
ولعل " مرد ذلك أن دوره لا يعدو دور المستهلك للنص ولا ينطبع منه ذلك
إلا " حسن الاستماع والفهم والاستجابة للقصيدة ، ثم إنه لا يتمتع بوجود نمطي
نموذجي . شأن الكاتب أو المتكلم ، إذ القارئ أو السامع يمكن أن ينتمي
إلى كل الأوساط الثقافية والاجتماعية مما يجعل تحديد ملامحه أمر صعبا
لذلك ، حمل الكاتب وحده مسؤولية مآل خطابيه ونجاحته فجاءت كل
المقررات والتوجيهات متعلقة به وبالكبيات التي عليه أن يمارس على أساسها
نصه ، وخلقه النصي . وكأنا بالجاحظ يعنبر عن اهتمامه البالغ بمتفهمي
وتقصيره في حق المتفهم لما استقر لدى الناس من فضل الأور على الذي
يقول : « والمتفهم لك والمتفهم عليك شريكان في الفضل ، « لا أن » المتفهم
أفضل من المتفهم وكذلك المعلم والمتعلم هكذا طاهر هذه القضية وجمهور
هذه الحكومة » (1) .

ب) إن المقومات الخاصة بالمتكلم متداخلة تداخلا شديدا مع مقومات
الكلام ولتجاوز هذه الصعوبة رأينا أن تقتصر عند حديثنا عن المتكلم على
مظاهر بحارجية والمبادئ العامة مما لا صلة له بالنص في حد ذاته

(1) اليد واليمين ، 11/1 + 12 .

ج - وظائف الكلام :

من أشدّ القضايا تشعباً وأكثرها استعصاء على الفحص في ثروتها وحدها وظائف الخطابات ومجاري استعمال الظاهرة اللغوية لتدوين مفاهيم السان التي سبق أن حددناها ، وعدم استقلال مسائل البلاغة عن مسائل اللغوية العامة . ثمّ لأدّ نصروها تحملها الباحث ، إن درست درساً حقيقياً ، على استنتاجات قابلة للنقاش (1) .

ولاستقراء الموضوعي لجملة مؤلفاته يفضي بالفارسي إلى استخلاص ثلاث وظائف رئيسية تسخر لأدائها الظاهرة اللغوية :

أ) وظيفة « خطابية » بالمفهوم اليوناني كما يتجلى في « حكمة » أرسطو وما كتبه الفلاسفة المسلمون انطلاقاً منها . وقد برزت هذه الوظيفة في مواضع شتى تحدث فيها عن العناية كوع من أنواع الكلام ، والحبيب كمودج لتمتكم ، وصبر عنها بثبت اصطلاحه من حقل دلالي واحد تجري وحداته إلى نفس «عية : « الإقناع » و« الاحتجاج » و« المنازعة » و« المناظرة » وكل ما يدور في هذا الفلك .

« ويبس ، حفظك الله . مصرة سلاطة اللسان عند المنازعة ، وسقطت شخص يوم إطالة الخطبة . بأعظم مما يحدث عن العمي من اختلال حجة وعن الحصر من فوت درك الحاجة (....) وهم يذمون الحصر ، ويؤنبون العمي ، فإن نكسنا مع ذلك مقامات الخطباء وتعاظيا مناظرة البهاء ، تصاعف عليهما الدم وترادف عليهما التأنيب » (2) .

(1) معر عن سبيل هناك عند تسميم الضمير . انقل انشكور ، حوليات جامعة سوربيه 1976/13 ، ص 156 - 157

فقد ذهب إلى أن « الجسد » يصنف استعمال الظاهرة اللغوية إلى مجموعتين رئيسيتين : استعمال عمدي مأثور ووظيفة ومجرد إيهام الخلق ، واستعمال مطبوع يسببه فيه يحول بعد من « الصخرة اللغوية عن مجرد الإتيان » () وإلى محرى اليأس ك«تصريح » من « نقي » إلى « النصوح المنيرة عن قرواءة الخلف » . وهذا رأي لا تدعمه نصوص الجاحظ .

(2) البيان والبيان ، 12/1 وابشر أيضا عن نصر 14/1 ، 52 .

وليس عربياً أن يهتم الجاحظ بالبلاغة الخطابية ويؤرجح لأعلامها (١) ،
ويثبت في « البيان والتبيين » نماذج من أشهر الخطب إلى عهده (٢) لئلا يفهم
من حسن البيان وسلامة المنطق ، فلعرب فيها تقاليد معروفة تمتدّ جذورها
إلى عهد ما قبل الإسلام ثم إنها ازدهرت . كنوع أدبي ، ازدهر كثيراً
في عهود إسلامية الأولى لأنها كانت وسيلة من وسائل نشر الدعوة وتركيز
السلطة والانتصار للمذهب .

وساصر في الخطب التي أثبتتها ، والمنصّح لحديثه عن الخطبة ولخصه ،
يلاحظ أنها كانت تدور على شاور ثلاثة عاينها جميعاً الوظائف التي عيّنوها
من احتجاج وإقناع ومناظرة ومنازعة

أما محور الأول فدينيّ سحرّت بمقتضاه الدعوة إلى التوحيد والإيمان
ببعث « تقرير حجة الله في عقوب المكلمين » . ومن الطريف في هذا الصدد
أنه ربط نجاح بعض الخطباء في فهم الخطابي بثوق رباني لأنهم كانوا
يدعون إلى ما دعا إليه الإسلام ، قل مجيئه ، ومثّل ذلك قس بن ساعدة
« وإليّاد وتميم في الخطب حصة ليست لأحد من العرب ، لأنّ رسول الله
صلّى الله عليه وسلم هو الذي روى كلام قس بن ساعدة وموقفه على جملة
بعكاه وموقفته ، وهو الذي رآه قريش والعرب ، وهو الذي عجب من
حسنه وأظهر من نصويبه (....) وإنما وفق الله ذلك الكلام لنفس بن ساعدة
لاحتجاجة للتوحيد ، ولإظهار معنى الإخلاص وإيمانه فالبعث ، وبذلك كان
خطيب العرب قاطبة » (٣) .

(١) « الجاحظ » بالخطبة على مختلف طوائفهم وخطبهم واحتجاجهم في بعض صحف عن
الخطبة من أشعراء وأعلام الخطباء والخطبة من النساك والزمّاد ، كلّ تحدث عن الخطبة
بمكسّر وأصوات الدعوات كالتخارج انظر : المصدر السابق 52/1 ، 98 ،
218 ، 257 ، 302 ، 306 ، 351 ، 397 ، 398 ، 225/2 ، 264 .

(٢) انظر فهرس الخطب التي وصّاه المحقق ، 113/4 - 117 .

(٣) المصدر السابق ، 52/1 .

وفي هذا المحور فنحل خطب الرسول : ومواعظ الصحابة . و يصحح من ما سعى . ومنه رشت بعض التعريفات للبلاغة حيث يرى أصحابه بوجهات عنايتهم إلى مقاصد النص وقدرتهم على درع الإيمان وشجدهم بعقولهم وتعمير الصدور . من ذلك تعريف عمرو بن عبيد وهو شيخ من شيوخ معتزلة . وأحد الزهاد المشهورين . قائلًا : « ما بلغ بك الجنة . وعدك بك عن النار . وما بصرتك مواقع رشذك وعواقب عيبك » فلما أبح عبه السائل يسد كسر صورة الانفساط وهيسأه الكلام قال له « فكأنك بما تريد تحبب الألفاظ . في حسن الإقحام . قال نعم . قال : أنت يا أوتيت تقرير حجة الله في عقول المكسبين . ونحفيف المؤمنة على المستعير وتريير تلك المعاني في قلوب المرسلين . بالألفاظ المستحسنة في الآذان . المقولة عند الأدهان . رغبة في سرعة استجابتهم ونفي شواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة . على الكتاب والسنة . كنت قد أوتيت فصل الخطاب واستوحيت عن الله جريل الثواب » (1) .

ومحور الثاني سياسي . استعملت فيه الخطبة لبسط النفوذ وقرار نظم حكم دترغيب والترهيب . وهذا المحور متداخل مع السابق لأن الحبيب كثير ما يمزج بين البعد الديني والبعد السياسي . ويدعو إلى ملذهب من صربق لموعظة والإرشاد . ولا تكاد تحلو خطبة أثبتت الجاحض وكان لصاحبها دور سياسي في الدولة الإسلامية من هذا الجانب . نخص بالذكر منها خطبا مشهورة في هذا الباب كخطب ريباد بن أبيه (2) و لعجاج بن يوسف الثقفي (3) و قتيبة بن مسلم (4) و يزيد بن الوليد (5) .

(1) انبياء وآتيين : 114/1 . انظر أيضا في نفس الاتجاه 23/4 - 24 .

(2) مصدر الزموا . 259/1 ، 61/2 ، 145 .

(3) مصدر الباقى : 393/1 ، 137/2 ، 138 ، 73 ، 308 .

(4) مصدر التوق : 132/2 ، 134 .

(5) مصدر السابق : 141/2 .

أما المحور الثالث فهو محور جدليّ مذهبيّ أفرره التصديق الذي وقع في هيكّل لأمّة الإسلاميّة وما نتج عنه بعد ذلك من تفوّح المسلمين من من وحرّته مع كلّ واحد منها عن عقيدتها . وتجمع المحجّج بني تقع عنهما وتؤوبها وتسمّه مذهب الطرف المقابل وتكفّر عقيدته وهو صرع عقائديّ وادّيهبي الذي جمع تحت اسم « علم الكلام » وعرف أصحّه بمتمكّمين ويبدو من مؤلفات النحاحظ أنّهم كانوا أحرص من أن يسي عن الإحاطة بأدبيّ التعبير وسبل القول . وكانوا مدركين أنّه ليس بحورثهم في الصرعات التي يدعون إلى خصوصها إلاّ الكنيسة ولم يكن لهم من مبدن إلاّ حينّ الكلام وصورته لذلك اعتبروه « استراتيجيّة » قائمة بدت لا بدّ أن توفر لها الوسائل الكفيلة بإبلاغها أقصى درجات السجاعة . وقولهم في هذا الصدد أن البيان « يحتاج إلى تمييز وسياسة » وإلى ترتيب ورباطة « (1) ليس بعيداً عن مفهوم « الاستراتيجية » (2) .

ونروي عن « أعلام » المتكلمين قصص في التشدد على النفس وإخضاع بدن وتطويعه ما قد يبدو لنا اليوم من محض الوضع والثقوب . ومن أشهر ذلك ما كان من أمر واصل بن عطاء فإنه « لما علم أنّه أشع ، وأنّ مخرج ذلك منه شبع ، وأنّه إذا كان داعية مقالة ورئيس نهلة ، وأنّه يريد

(1) البيان والتجيب ، 14، 1

(2) راجع حديث عن « الاستراتيجية » في ميدان البلاغة يرس من اختصار عبد مهدي كنية مؤلّفه في الزمانيات البلاغيّة اليوم . وهو يفصلون به جملة التوسّلات التي يصيها لشكك الكلام في منه لمعري حتى يفسى له يدوع هدف المقصود . وهم يرون أنه بلاغة كمنهم م تقيلا في أجزا ما بسوته « استراتيجيّة الخطاب أو المقال » « Stratégie discursive » ذكر ذلك لأمار (Leguern) في معاصرة له . إنّها عن طلبة الحقّه الخالصة شعبة الرسمية يوم 23 أيار 1977 بكفّية الإكّاب لثابته فحامة اتونية وكان عنوان المحاضرة « Tradition rhétorique et stratégies discursives »

وفي نفس المعنى يحدّد بول ريكور (Paul Ricœur) الخطابه بما:
La rhétorique fut cette technique qui rendit le discours conscient de lui-même et fit de la persuasion un but distinct à atteindre par le moyen d'une stratégie spécifique.

انظر كتابه La métaphore vive, éd. Seuil, Paris, 1975, p. 14.

لاحتجاج على أرباب التحل وزعماء الملل وأنه لا بدّ من مقارعة الأبطال .
ومن نَحْصَب الطّوّال يحتاج إلى تمير وسياسة ، وإلى ترتيب ورياسة (١)
م أنو حديفة إسقاط الرأ من كلامه ، وإخراجها من حروف منطوقه ،
علم برر يكاد ذلك ويعالنه . ويناضله ويساجله ، ويتأنى لسره وإرجحه
من هجته ، حتى انتظم له ما حاول . واتسق له ما أمل (٢)

ورثاء الخطاة بالترعة المنذية جعل أصحاب الفرق ورعاه من
يهمون بقوانين صاعقتها ويعلمون ذلك صيانتهم والناشئة من دروبهم وهو
م يفسر يراد الجاحظ لصحيحة بشر من المعتمر (٣) التي يمكن أن
تعدّ « مسحة » لتعليم الخطاة ، فيه أحكام تتعلق بنظروف الكتابة ولهاية
الوحية للخطاب ، وفي خاتمتها مقاييس تساعد الرّبص على معرفة حصة من
التوفيق فيها وما هو أهل له منها .

ورثفت بهذا المحور جملة من حدود البلاغة ، بعضها عربي وبعضها
أجنبي ، يتأكد بها مفهوم « المقارعة » و « الحاجة » كقولهم :
« جماع البلاغة البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة » (٤) .
و « البلاغة وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة » (٥)
و « لسان الذي يروق الألسنة فإظهار ما عَمُضَ من الحق وتصوير
الباطل في صورة الحق » (٦) .

والجزء الثاني من السياق الأخير يدعونا إلى التساؤل عما يد كان
مرفف بجاحظ ، ومن ثمّ الخطابة العربية ، على هذه الدرجة من تبرير
الوسائل بالعبادات ؟

(١) البيان والتميز ، ١٤/١ - ١٥

(٢) مصدر تسمى ، ١٣٥/١ - ١٣٦

(٣) ورة ، البيان والتميز ، ٨٨/١

(٤) مصدر تسمى ، ١١٣/١

وَأَنَّ مَا تَأْكُد مَلَا حَفْظَهُ أَنَّهُ مَبَايَ غَرِيبٍ . لَيْسَ فِي مُؤَيَّدَاتٍ مُدَاخَصَةٍ
 . يَدْعُمُ بِصَرِيحِ الْعِبَارَةِ انْجَاهَهُ وَمَوْفَقِ فَائِلِهِ . وَلَكِنْ وَحْدًا يُقَرَّرُ بِحَاجَةِ
 تَحْطِيبِ بِنِ اسْطَقْ (1) بِاعْتِنَاءِهِ مِنَ الْآلَاتِ الصَّرُورِيَّةِ الَّتِي بِحَدِّهَا فِي
 « أَسَاطِيرُ » وَمَنَارَةِ الْأَكْفَاءِ . وَوَعْيًا بِقُدْرَةِ اللُّغَةِ عَلَى التَّحْلِيلِ وَالتَّشْبِيهِ
 حَتَّى تُبَيَّنَ « نَحْوُ الْأَشْيَاءِ عَلَى مَقَادِيرِ صُورِهَا وَتَرَوُهَا بِهَا عَلَى حَصْنَتِ
 قُدْرَتِهَا » (2) فَرَبَّاهُ يَلَا حَفْظَ حَرَصًا عَلَى الْإِثْرَامِ تَتَصَوَّرُ أَحْلَافِي عَدَمٍ دَعَا
 مِنْ تَعْدِيمِ الْإِسْلَامِ وَقَدْ ثَبَّتَهُ مِنَ الْوَجْهِةِ الْعَمَلِيَّةِ وَالتَّارِيخِيَّةِ مِمَّا رَسَّاتٍ لَا يُمْكِنُ
 أَنْ يَبْقَى فِي أَصْحَابِهَا بِهِمْ اسْتَعْمَلُوهَا لِقَبْلِ الْخَفَاتِ وَإِظْهَارِ الْبَاطِلِ فِي صُورَةٍ
 بِالْحَقِّ وَالْقَدَحِ بِعَبْرَةِ حَجَّةٍ ذَلِكَ شَأْنُ الرُّسُولِ وَصَحَابَتِهِ مِنَ الْحَدِيثِ وَغَيْرِهِمْ
 وَتَأْنِيهِمْ ... وَلِهَذَا السَّبَبُ كَانَ الْمُؤَلِّفُ حَرِيصًا عَلَى يُبْرَأُزِ وَجْهَةِ الرُّسُولِ
 فِي الْإِحْتِجَاجِ وَالْمَحَاصِنِ قَبْلَ إِدْرَاجِ الْحَصَصِ لَهَا فِي « الْبَيَانِ وَالتَّشْيِيبِ »
 يَقُولُ : « وَلَا يَلْتَمِسُ إِسْكَاتُ الْخُصْمِ إِلَّا بِمَا يَعْرِفُهُ الْخُصْمُ . وَلَا يَحْتَجُ
 إِلَّا بِالصِّدْقِ وَلَا يَطْلُبُ الْفَلَحَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَسْتَعِينُ بِالْخَلَابَةِ وَلَا يَسْتَعْمِلُ
 مُوَارِبَةً وَلَا يَتَهَمِيزُ وَلَا يَلْمِزُ » (3) .

وَلَقَدْ أُلْعَ فِي مَوَاطِنَ مُتَعَدِّدَةٍ عَلَى وَجْهِ الْإِهْتِدَاءِ بِالْحَقِّ . وَتَجَنَّبَ
 الْمُوَارِبَةَ وَالزُّورَ . وَإِيصَانَ الصِّدْقِ مَالِ الْكُذْبِ . وَتَقْوِيَةَ لُصُفِ الْمَعْدِ
 الْحَسَنِ وَالتَّأْلِيفِ الْمَوْتَقِ وَقَدْ جَمَعَ كُلَّ هَذَا فِي عِبَارَةٍ هِيَ « فِتْنَةُ الْقَوْلِ »
 سَتَعَدُّ بِاللهِ مِنْهَا كَلِمًا وَرَدَّتْ عَلَى لِسَانِهِ (4) .

(1) الْبَيَانُ وَالتَّشْيِيبُ 92/1 - 93
 (2) 254,1
 (3) 17/2

(4) بَيِّنَ مِنْ أَيْبَرِ مَصُوعَةٍ وَغَيْرِهَا فِي إِدْلَالِهِ عَلَى مَا قَامَ بِهِ وَرَدَّ فِي كِتَابِ الْعَبْرَانِ 5
 وَبَيِّنَ أَيْضًا الْبَيَانِ وَالتَّشْيِيبِ 2/1
 وَمِنْ أَطْرَفِ مَا بَدَأَ خَلِي رَضَى الْمَاحِظُ أَنْ يَتَّخِذَ قَبِيضًا عَلَى عَسْرِ دَعْوَةٍ وَيَكُونُ
 عَلَيْهِ التَّمَحُّصُ . وَتَمَرُّكَ الْإِلَازِمِ . هَذِهِ الْقَوَاعِدُ . « وَمِنْ عِبَارَتِهِ بَيِّنَ عَرِشَهُ الْخُصْمِ
 مَعَهُ عِدَّةٌ مِنْ عَدَدِهِ عَوْدَةً أَمَّا عِدَّةُ الْخُصْمِ فَتُشَقُّ بِشَعْرَةٍ تَعْدِلُ عِدَّةُ الْخُصْمِ . مِلْحَ هَذَا
 سَهْرُ الْأَهْلِ هَذَا الْخُصْمُ فَقَالَ عَلَانُ : أَجَلُ وَاعْتَمِدَ عَلَيْهِ الْأَمِيرُ . يَعْنِي الْقَوْمُ مِنْهُمْ هَذَا
 نَسَبَهُ . وَكَانَ مَسَاحِيرَ وَمَسِيرَ مَا دَعَاهُمْ : وَتَأْنِيَهُمْ بِهِ مَرَّ بِهِمْ . فِي تَأْنِيهِ مَرَّ بِهِمْ .
 بِسَرِّهِ وَبَدَأَ عَلَى ذَلِكَ أَنْهَرُ . وَهَذَا كَأَنَّ عِدَّةَ ابْنِ عَسَمَرٍ . هَذَا رِبَادُ . هَذَا عِدَّةُ الْخُصْمِ .
 بَأْسَ مِنْهُ أَنْهَرُ ! قَالَ عَلَانُ . أَجَلُ وَاعْتَمِدَ عَلَيْهِ الْأَمِيرُ : دَعَاهُ دَعَاهُ . وَتَأْنِيَهُمْ بِهِ
 صَبْرُهُمْ . وَهَذَا أَجَلُهُ يَكُونُ بِمَوْصِلِهِمْ » وَقَدْ عَنِّي عَلَى هَذِهِ الْقَوَاعِدِ مَقُودٌ 395
 الْبَيَانُ مَا كَرِهَ مَا كَرِهَ الْخُصْمُ الْمَذْكُورُ 394/1

وفي هذا دليل . من الوجهة النظرية على الأقل . على أن « انحصار »
عربية « و » انضمت مع حطائنة اليونان من وجوه . في طبيعتها الوضعية ،
فإنه تختلف عنها في ارتباطها ، موضوعا وغاية بالمعنى اللغوي الذي
تجمع عينا خصائص نوعية وطائعا خاصا (1) .

* * *

(ب) حممه من الوظائف يصعب إدراجها تحت تسمية وحدة ،
وعرّيت بمثل خلق حال معينة في المستمع ، عدا ، رأينا في الوظيفة السابقة ،
كالإصباح (2) و اللدة والإمناح (3) أو مسرع تعنيسي ، معني كتمهيد
لصدور وإصلاحها من الفساد (4) .

وليس لهذه الصفات سعة الوظيفة السابقة في مؤلفات سجاحة .
فقد امتثلت من إشارات عارة وملحات معترضة ، لذلك ليس بالإمكان
لتوسيع في تحليلها .

(1) بوجوه لا بد من الاختلاف بين « انحصار » يهودية ، و « انحصار » عربية ، مدينة ويسكن
أما تكثر موضوع بحث مستقل ، وهو من أفرز مظهر الاختلاف في التفسير السيمي
الاسلامي عن تنظيم سيمي الذي اودع في « انحصار » يهودية ، ويجمع مؤرخو التكاليد
الانحصارية في الحضارة الفيلبية والحضارات المتصلة بها على لزومها من محاولات تقدم حكم
وإراجل التي مرت بها الحضارة « تأليه » (facite) ينبغي إلى « تشق اليبان لا
يسكن إلا في دولة لكلاء فيها منكم والتكلم الحرة المطلقة في لغز من أي موضوع
أراد بدون رغبة من القرب ومكانة الأشخاص وهو لذلك لا ينأى لا في التنظيم السيمي
الذي يجب فيه سعة « أمزسات » ويقوى سلطان المدلس والجماعات وشكل حكم ذلك
هو « التبرغرافية » وهو شكل الوحيد الذي يكون فيه الكلمة معمول ، أما حكم القوي
دوره بصرف الكلمة من معمولها لأن يدنو السلطة والفرسنة والتعليق ولا يكون للمحاسن
وحدوث أي دور

بحر تمثيل ذلك في

Tzvetan Todorov *Théories du symbole*, éd. du Seuil, Paris, 1977,
chap 2 « splendeur et misère de la Rhétorique », pp 59-83

(2) الحيوان ، 282/1

(3) الياس والتيسير ، 145/1 .

(4) انصر احاق ، 23/4 - 24 .

ونعود هذه المرحلة الثانية ، في رأينا ، إلى انطلاق الحافظ من مفهوم حسن السمعة والسمعة . ورغم حلول هذه الوظائف من وجهة تصور عسفي عدم في حيز الوظيفة الخطائية ووظيفة « الفهم والإفهام » التي سره . بد تعتمد كنه على السمعة الحاصلة عن العمل اللعوي أو كما بقا يوم على علاقته للعة بمقتضاها . (1) فإنه لا يتصور أن فعلا لعويا يكتمل تحت وظائف لست نزلها منزلة الوسائل المساعدة على بلوغ الوظيفتين الأساسيتين المذكورتين . ولا يموت هنا أن ربط بين هذا الجانب ومهجه الأدبي اندمى يدي يمزح فيه من وعي ، الجدة بالهزل طريقة في إيصال المعرفة مما يقوي لاعتقاد بأن هذه الوظائف مساعدات ومرافق لا يمكن أن تستثنى وحدها بظاهرة السمعة .



ح) وظيفة « الفهم والإفهام » أو « البيان والتبيين » : ليس من الصعب إثبات أنها وظيفة المسيطرة على تمكيزه اللفظي ففي آثاره مجموعة من نقرن تشهد بأنها مدى كل عمل مهما حمل من مقاصد وأبسط به من عديت ، والكلام خلوا منها ، صرب من اللعوي ولباب من أبواب بعني والحصير (2) وأمر القرائش وأقرنها مأحدا الموان الذي خذره لأشد كنهه صة بالمأحث اللعوية والبلاغية خاصة أنه يرادف ، في كثير من المواضع بين « البيان والتبيين » و « الإفهام والفهم » (3) .

(1) رفر في سجل الحالت القضي (pragmatique) في الظاهرة اللعوية والأدبية
O. Duerot, I. Todorov *Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage*, éd. du Seuil, Paris, 1972, pp. 109, 423.

(2) أشرك (ص 164) إلى معنى الحصار الذي يستعمل في الحافظ الصائبة المشهورة
صعته بزمي ، بد لبان لغوي ، وأب تحردا عند من كل بعد تقيمي مصري
وعصر دلالة على عدم الإدراك والفهم والإفهام .

(3) رفر عن سير الشان ، البيان والتبيين ، 11/1

وبعد نسا في غنى عن إثبات أن البيان في مفهومه العام يقتصر على أدء هذه الوصفه ، وفي ما أسلفنا دليل على ارتباطه بقضاء الحاجات وتحقيق تنو صول ذلك لا تتم إلا من وجه الإفهام والتفهم ، وكثيرا ما رنط لاحتط هذه النوع من الدلالة بالوظيفة التي ذكرناها ربطا صريحا بقول في مصر سبق أن ستعساه من وحوه وتدرجه هنا كاملا : والبيان اسم جمع لكن شيء كشف لك قاع المعنى ، وهتك الحجاب دور الصمير . حتى عصي لسمع إلى حقيقته . ويهجم على محصولة كائننا ما كان ذلك البيان . ومن أي حس كد الدليل . لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع ، إنما هو التفهم والإفهام ، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان في ذلك الموضوع ، (1) .

كما أننا في غنى . بناء على ترابط المقدمات والنتائج مما يحتوي عليه النص السابق ، عن تدعيم الرأي بالحجة إذ نقول إن أولى الدلالات بتأدية تلك لوظيفة لغة أو البيان باللغة . فهي في أصل الوضع ومطلع انشأة ليفهم الناس بها بعضهم عن بعض وبصرفوا حاجاتهم وأعراضهم :

«وقل لله تبارك وتعالى . وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم (2) لأن مدار الأمر على البيان والتبيين ، وعلى الإفهام ولتفهم (3) .

ولكن ما مآل هذه الوظيفة إن خرجنا عن الاستعمال العادي المألوف من استخدام في جماني « وهل الإبانة والتفهم والإفهام مجرى من مجاري تَصْرِيف نَصْرَةِ اللُّغَةِ أم هما وقاسم مشترك أعظم بين جميع مستوياتها بقصص مصر عن المواصفات النوعية والسمات الخاصة ؟

(1) بيان والتبيين 76/1 وقد تكرر ما تقدم قلبي لم يحق لنا أن نغفاه .

(2) إبراهيم 4/4

(3) البيان والتبيين 11/1 .

من سبع ما كتبه الحافظ في مواضع عديدة من مؤلفاته ، لا سيما
 " سبأ والنبيين " يقتنع صحة ما ذهبنا إليه في مطلع حديثنا عن هذه الوظيفة .
 وهي عدة بني بجري إلى نوعها . والأساس الذي نبنى عليه عمدة الكلام .
 سوء ، ستمتد على ما يجري على ألسنة الناس أو حملناه مقاصد أدبية
 وهـ سماء سماء فيه (1) حتى إننا وجدنا بعض تعريفات البلاغة تقتصر على
 صهي . هذا حساب . وتكتفي به معياراً لحدود الكلام وتسميه أعي مراتب .
 وهذا نصف من الحدود في نظر المؤلف مكانة خاصة فهو لا يُحصى
 بحده بسداد نظر أصحابها وإصابتهم الهدف . يدل على ذلك تأنيده
 مباشر إثر ذكر تعريف منها إما لتدقيق المكرة أو للتعبير عن مجرد الإعجاب
 وهو في حاشيتي يؤكد على مبراة هذه الوظيفة في بقاء تصورهِ بنوعي السكتي :

« وكان عبد الرحمن بن اسحاق القاضي يروي عن جده إبراهيم بن
 سمية قال : سمعت أبا مسلم يقول : سمعت الإمام إبراهيم بن محمد يقول :
 يكسب من حطة البلاغة أن لا يؤتى سامع من سوء إلهام نشاط ...
 ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع .

قد رُوي عن عثمان . أمّا أنا فاستحسن هذا القول جداً » . (2) .

ونجد عدا هذه التعريفات ، عدداً من السياقات التي تقدم نفس
 مكرة وتزاح بين خصائص النقص الفنية والبلاغية وبين الوظيفة ، بل إن
 لخص على تلك الخصائص ليس إلا وسيلة لتلويح هذه الغاية من أحسن السبل

(1) لا أدري على ذلك من تأييده في تحديد الأساليب البلاغية ذاتها فليس « الإيجاز » و « الإحصاء »
 ظاهر كقيمة ولكنها متعدد للدلالة في حد ذاتها أي بوصفها أرساء وصلاحاً
 « والإيجاز ليس يعني به قلة عدد الحروف والألفاظ ، وقد يكون إلى من الكلام من
 كونه فيه مع بعض جوانب قد أوجز ، وكذلك الإطالة . وإنما يعني به : مدى
 قدره لا كونه سلباً لإعزازه ، ولا يردد وهو يكتب في إلهامه تشكراً ، قد فصل
 عن غيره . فهو انحصار في الحروف ، 91/1

(2) البيان والنبيين . 87/1 ، وقد سبق (ص 112) . إن ذكرنا تعريف القاضي ، ونعنيق
 ما جاء عليه وأهميه لتتلاقى في أنه يريد بصورة لا تليق محلاً للشك في سلبه .
 « مهم » إلهام على المستوى القوي الذي يحقق سمات فصاحه والبلاغة أي الكلام
 الذي يرد ليعود إلى ذهنه في وضعها .

ووضحها . شعورا منه بأن الاكتفاء بالوظيفة دون الوسيلة قد يؤدي إلى
 نسب كل جهوده في إقامة معايير يتخاضل على أساسها الكلام لذلك يراه
 مرتبطا بيسها ويبدو ذلك جليا في أولى منازل البلاغة عند بشر بن المعتز فقد جاء
 فيها ما يلي : « فإن أول الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا . وحما سهلا ،
 ويكون معك ظاهرا مكشورا . وقريبا معروفا ، إما عند الخاصة ، أو كمت
 بحصة فصحاب وإما عند العامة إن كنت للعامة أردب () فإن تمكنت
 أن تتبع من يبدل لسانك . وبلاغة قلمك . ولطف مداحك . وفندرك
 عن بصوت . أي أن تفهم العامة معاني الخاصة ، وتكسوها الألفاظ الواسطة
 التي لا تنصف عن الهداء . ولا تجمعو عن الأكفاء ، وأنت البليغ التام » (1) .

فمن أي شيء ينبغي تعيين هذه الوظيفة على تمكيز بحضف
 سباني ؟ وبهذا كانت حملة الوظائف عند مركرة على فعل الكلام في
 مقصد « ورد » ردنا أن يجمع السؤالين في صياغة أعلق بالمبحث اللغوية
 وببلاعية قبل ما هي العوامل التي جعلت نظرة المؤلف إلى اللغة تتأسس على
 المدعاة والحدادة فيصرح بأن « مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة » (2) .

إن لأسباب . من وجهة نظرنا . متعددة إلا أنه يمكن الرجوع
 إلى سببين رئيسيين : أولهما تاريخي عام . وثانيهما ظرفي خاص .
 أما الأول فيتمحور من مكانة النص ووظيفته في حياة المجتمع الإسلامي الثقافية .
 فهي . على ما يبدو كانت تنحصر إلى توظيفه لأغراض نصية جماعية أو فردية .
 ولذلك كانت مكانة الشعر عليهم . في الغالب . لصيقة بقدرته الإبداعية
 ومدى ما يسعه من تعبير وتبديل ، ومن هنا المنظور يتحدد القول بالفعل
 بل إن القول عين الفعل . هذا ما لم يفهمه كثير من الباحثين وعثرو

(1) البيان والتبيين - 136/1 . وانظر أيضا 93/1 ، 114 ، وفي هذا القول تغير ذلك من
 كتب العرب « بالعلم والإفهام » وتلفظه الشيعية بهم
 مصر مصر المصدر : 155/1

(2) البيان والتبيين - 136/1 .

حصاره إسلامية حصاره قول وكأنتهم يشيرون من طرف حفي إلى أعدم
مع فيها .

وقد كان هم الشعراء أن يبلغوا الغاية التي ترسموها ، وهم مسركون أن
ذلك لا يتأتى لهم إلا بحلق الصناعة والتفوق فيها ، وهو شرط الظهور على
الحصم وإفحامه وليس عريكة السامع وكسبه . وهذه التزعة إلى صنع . في
معنى عدم . وجهت كتب صناعة الشعر ، ومن ورائها النقد العربي جملة .
وجهة خاصة ارتبطت فيها وسائل الشعر بهذه الدائية القصوى وجمعت
وصبغت لتضمن للنص أكبر قدر من الصعالية .

ولم يفرح القرآن من هذه التزعة بل نعله عمل على تقويتها ، هو
مجموعة من لتعاليم الروحية والعملية كتلف الرسول بحمل الناس عيها والدعوة
إلى الأخذ بها وكان لا بد أن يتم ذلك من طريق الإبانة عن بقاصد وفهم
ساس أسس الدعوة . لذلك تكثر الآيات المحرصة على « البيان » و « الفقه »
و « لتعقل » (١) وحتى جانب المن فيه ملحمة الاعتقاد . والفن في القرآن
عجبار والإعجاز إقناع وسد للدرائع والقوى فرى كيف سحر لغاية عطائيه نفعية .

هنا نص مهما كانت قيمته في ذاته ، يرتبط بعرض ، ويجري لغاية .
لذلك لم تتلور في هذه الحضارة فكرة الفن إلا في عصور متأخرة ،
وقف الناس منها موقف الريبة إذ حشروا الكثير منها تحت عنوان « صناعة »
وفي سكة ما فيها من العسر والانتقاص ، أو ربطوها بقولهم « عصور
لا تعبط » وهم يفسرون ذلك بأن الأدب خدا صناعة لغظية مما يؤكد على
أن نية النص وحدها لم تكن كافية ليحشر من الأدب الحق

أما لأسباب الظرفية الخاصة فمها ما قد يعود إلى الحقيقة التاريخية التي
عاش فيها الجاحظ ومنها ما أصله انتصارات الرجل ونظراته إلى الأشياء

(١) محمد زرد عبد الباقي المعجم للفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، سلسلة كـ
شعب ، القاهرة (د . ت .) ص ١٤١ - ١٤٥ ، ٤٦٨ - ٤٦٩ ، ٥٢٥ .

فقد يكون الحرص على هذه الوظيفة ناتجا عن مضاعفات الوضع سعوي في
صف الأول من القرن الثالث الهجري . وليس من مستبعد أن تكون لصفة
من لغة المصحح واللغة التجارية على ألسنة الناس قد ضمنت بمصعوب التوسع
الإسلامي وما أنجز عنه من تداخل عِرقي واختلاط ثقافي وعميق جعل
صاحب « لسان العرب » يجري وراء تلك الغاية لتحقيق عرصين ^{أول}
يتداخل موقفه اللغوي مع موقفه الثقافي العام إذ رأاه يدافع دوى مستنجد
عن كتاب مسرورا فصله . داعيا إلى سطوة حتى لا تنفى الثقة مقصورة
على أحسن الخاصة . ثم لينسق بين هذا الموقف اللغوي والترعة الدوعية
لوضحة عن فصاحة اللغة العربية ، ومكانة أهلها في البلاغة والفصاحة ،
فهو يدعو إلى التمسك بأسسها في وقت شاع فيه اللحن واللكمة ونعجة ،
ولا سبيل إلا تحقيق ذلك إلا إذا أمكن تطويعها واستخدامها في كل لأعرض ،
ويعمل على أن تواتي كل الحالات والمقاسات ، فتزر للعيان جوده ،
وتصبح وسيلة الفهم والإفهام تستعملها مختلف الشرائح الاجتماعية .
لا أنه لا يمكن الجرم بصحة هذا المذهب في التخريج مالم يكن بحورث
تاريخ مضبوط لأوضاع اللغة الفصحى في مختلف مراحلها التاريخية .

وأوضح من السبب السابق انتماء الرجل المذهبي وأثره في تصوراته
الغوية وبلاغية ، فقد كان يحكم اعتزاله طرفا في الحداد القائل آنذاك بين
الفرق وعماء الكلام ، وقد سبق أن أشربنا إلى المكانة التي تعطى بها
اللغة في هذه الأوساط وكيف أنها كانت من أهم العوامل التي ساعدت على
تسور تفكير البلاغي . وهذا أدنى بالمؤلف إلى الاعتناء بحصنة عبدة
محصنة ، هيك أنها النوع الأدبي الممثل أكثر من غيره في تصاق ما اختار
من بين الكلام وبلغة . والخطابه والمطء يقتضي تواجد أمتكم والسمع
في نفس خير الرماني والكناني ويستوجب تزامن عمليتي التلمظ وتمثيل .
ولا انفصام الرباط بينهما وتعطلت المقاصد ، وغاب عنها الإقناع وهو لا يتم
إلا من طريق الفهم والبيان . وهنا من أبرز ما يميزها عن الشعر إذ عرته

لا نعلم . . . والاتصال بمسي لا سلفان لنفعل عليه . ومن هنا فهي لا تهتم
بمعه من حيث هي لغة . أي باللفوظ كمنفوخ . لكن باعتبارها فعلا
فتم . . . شكرا للتعوي من معطف التواضع التحمي منزلة الزينة أو الحبيبة ،
وتكون انوصفه قضا الرحي والهدف انقار . ولست هذه الوصفه إلا
بروز متكم من سامعه . الفهم والإفهام بالأساس والإقناع بعد ذلك وما يتصل
بهم . ودع من حالات .

ووسائل التعوية لا يعتد بها إلا إذا كانت تساعد على الإفصاء إلى البهية ،
وتعين على نوع العرض وهذه الطريقة في التفكير تؤدي بصاحبها إلى اعتبار
الملاحة علما برسائل تتحقق بفضلها نجاحة الكلام ومنفعته .

وسرى أن النتيجة احتمية لهذا التصور هي بروز بصرية المقدمات
ووضع (1) ومراعاة الكلام لمقتضى الحال (2) .

* * *

نستنتج مما سبق أن وظيفة اللغة الأساسية والقارة عند لجاحظ هي
« فهم وإفهام » إذ بدونها لا تقوم الوظائف الأخرى التي لا تعدو أن تكون
تطوير لها يؤدي إليه نوع المتكلم وجس الكلام فتصبح الخطابة مقما من
مقدمات لا يحدث عن غيره إلا ببعض المقومات الوعية الخاصة التي تلائمه .
ونلاحظ . كما بينا ، حرص على أن تؤدي هذه الوظيفة طبق شروط
نصاحة وفوقه الإبانة .

وعن هذين العاملين الرئيسيين : الوظيفة والإبانة نتجت المقومات الخاصة
بكل طرف من أطراف العملية اللغوية خاصة المتكلم والكلام .

(1) Situation
(2) Convenience : هذا المصطلح والمصطلح الثاني رئيس في تاريخ جمعية العرب .

4 - المتكلم

نتهيه في الفصل السابق إلى أن المقومات المتعلقة بالمتكلم تأتي من ثلاثة أنواع من الصوابط . هي : الوظيفة . وأصلها ، الفهم والإفهام ، وسهج الكلام يؤدّيها على أنتم ووجه وأكثره تمكّنا في البلاغة والمصحة إذ يظهر معنى ، عند أبي عثمان ، . يتناسب تناسباً طردياً وخصائص النص بيانية (1) وسنصطليح على هذا انتجاب بالإبانة . أمّا الصابط الثالث فهو مقدم المتكلم ونعني به جملة الظروف الحافّة بثولد النص ، فالخطبة مقدم يختلف عن مقام الشعر مثلاً ولذلك تطلب كل واحد منهما خصائص نوعية ملائمة ليست بالصورة واحدة .

وأشرنا في التداخل الكبير ، في آثاره بين ما هو خاص بالمتكلم وما هو خاص بالكلام فأعلب المقررات الحاصلة من احترام الصوابط التي ذكرناها وجهتها متكلم إلا أن موضوعها الكلام .

ولم يصحح عرماً على الفصل بينهما إلا جملة المعطيات التي صعب علينا دراجتها ضمن خصائص الكلام ناهيك أن الكثير منها لم تحتفظ به كتب البلاغة والنقد المتأخرة مما يصفي عليها ، في مجال التاريخ للعلم ، أهمية خاصة من ذلك المعومات العزيرة عن النطق وآفاته وما على المتكلم أن يتحنّنه ليستقيم

(1) انظر : البيان والتمس . 75/1 ، 162 .

بيده ولا تحصر قائمة هذه المعلومات في قيمتها التاريخية الثالثة ، وإنما في كونه حراً من أحرار نظرية كامله في الخطاب تمرّد الجاحظ بإعطائه صيغة شاملة حملته على تعقب الجزئيات بأطرافها الأساسية .

أ - مقتضيات « الوظيفة » :

١- وجوه تصريح الكلام لأداء مختلف الوظائف ، لا سيما الوصية محورية - فهم والإفهام - تقتضي من المتكلم احترام حملة من سوييس بعوية تحدث . من تفكيره ، على الأساس الضروري لكل عملية تواضع لعوي مهما كان مستواها . وهذا ما يفسر استمراريته العديدة إلى قضايا لعوية عامة تبدو لأوتن وهلة غريبة عن البحث البلاغي والأدبي مما جعل الدراسات المكرسة لإجلاء مجهوده البلاغي تهملها تماماً أو لا ترى العلاقة بينها وبين ما هي بصلدد درسه .

وربطه بين المعطيات اللغوية الصرف وآرائه البلاغية أمرٌ خطير يجب أن يحسب للجاحظ لأنه فقرة فكرية هامة في ذلك الظرف التاريخي ، ومظهر من المصاهر الحية في تراثه فهو بهذا النهج في التشريب بين الأمور يُثري ما أسمىه بحفظ التواضع من يكاد يصل به إلى الاكتمال وإلى العناصر الأربعة التي سبق أن أشرنا إليها (المتكلم ، السامع ، الخطاب ، بيئة وموضوع) وما يقوم بين أطرافها من روابط يضيف ، من وجهة عملية نصيائية ، عنصراً خامساً مما نستخدم عليه اليوم ، بالسنة (1) وفي هذا دليل على أنه مدرك تمام إدراك لسرّ التعاضد الحاصل بين المتحاطبين من انتمائهما إلى سنة بعوية مشتركة يتسم بروحها التكامل بين عمليتي تركيب الرموز « من متكلم وتحليلها (2) من طرف السامع .

(1) Code

(2) مبرمج ، لسرّ تركيب والتحليل المصطلحين تفرسين Decodage, encodage

ولا أدل على حذره وعيه بهذه القضية من موقفه العلمي الموضوعي من لغات الأحياء فقد رأيناه يؤول مفهوم « الضميمة » تأويلاً خاصاً رده فيه في عدم التفهم لتباين السنّة بين المتكلم والسامع .

« و أنت إن سمعت كلامهم رطانة وطحطنة فإنك لا تمنع من أن ترعه أن ذلك كلامهم ومطقتهم . وعامة الأمم أيضا لا يفهمون كلامك ومصفت . فاجتر لهم أن يخرجوا كلامك من البيان والمطلق » (1)

والفهم أنه يستعمل هذا المعطي اللغوي العام ويدمجه في صلب تفكيره بلاغي ودهش بتفكيره السنّة المشتركة إلى مستويات متباينة حتى يكاد سنن ، وهذا قد أصبح سرّ التفوق وعنوان البراعة في تنزيل الكلام مختلف حيث لمبارك ، والبايع الخطيب من جعل أقدار اللغة وتصاريف الكلام مواثية لأقدار السامعين ومقتضيات الحال ، وهذا سبب من أسباب اهتمام الجاحظ بالبلاغ بالتركيز الحديث عليه .

* * *

ولش جاءت هذه النواميس في صورة مواقف مبثوثة في تضاعيف مؤلفاته يصعب اعتبارها نظرية لغوية متكاملة الوجوه . شاملة فهي كافية . في رأي ، لتدعيم ما ذهنا إليه من أن نظريته البلاغية مقام على جملة من التصورات اللغوية الدمة وبذلك يصح انداحل الواضع بين اللغة والبلاغة أمرا معقولا إن لم نقل مقصودا .

وقد حملنا مقتضيات البحث في الفصول الستة على الحديث عن بعض تلك مواقف كقولك بحاجة الإنسان إلى اللغة وتعدد الاجتماع بدونها ، وانحسار لأسماء عن التسميات . وبالتالي قصور اللغة عن أداء كل معاني . وفي آثره من هذه الاعتبارات العامة الشيء الكثير مما قد يجرح عن تصق

(1) الحيوان ، 57/7 .

بحث . وبعضها لا يخلو من الطرافة والحدة تذكر : على ميل المثلث وسببه
عبارته اسمه والكلام ممارسة لجملة من « العلامات » و« الصور » هي أداة
لإنسان في المعرفة وطريقته إلى المعنى بما يفهم بينهما وليس ما قلنا عليه من
روابط ، وهي ، وابطت تثبت في أذهان المستعملين وتحكمهم بمنفعول الزمن
والمعددة . وكأنه يذهب إلى أن لا علاقة في أصل الوضع بين الدب
ومدونه . ثم إن ما تقوم بينهما . بعد ذلك ، من تلاحم يعود إلى أسباب
حرجية اجتماعية نفسية .

« واسم يصنع في جوبة الفم / وهوائه الذي في حوف الفم / وفي
مخرجه وفي لسانه ، وباطن أسنانه . مثل ما يصنع الفم في أمداد والبقعة ونحوه
والفرطس وكسها صور وعلامات وحلق موائل ودلالات فيعرف منها ما كان
في تلك الصور لكثرة ترددها على الأصابع ويعرف منها ما كان مصور من
تلك الأيون لطول تكرارها على الأبصار كما استدوا بالصحت على سرور
وبلبكاء على الألم » (1) .

ويرتبط بهذا المذهب في الرأي استطراد دقيق يبين منه أن العلوم
تقوم على رموز واصطلاحات في نطاق الاصطلاح الأكبر وهو اللغة ، والعلم ،
أي علم ، لا يكون إلا بلغة ورموزه الخاصة وإلا تعذر اجتيازه بقلم به :
« وكما سعى الحويون . فذكروا الحال والظروف وما أشبه ذلك ،
لأنهم لو لم يصموا هذه العلامات لم يستطيعوا تعريف القرويين وأبناء البلديين
علم العروص والحور . وكذلك أصحاب الحساب فقد اختلوا أسماء جملتهم
علامات للتفاهم » (2) .

ويتصل بموضوعنا من هذه الاعتبارات العامة رأيه في نوع نشأة لغة
وطرق اكتسابها والعلاقة بين المستوى اللغوي وانتماء المتكلم الاجتماعي أو طبقي .

(1) الجبران ، 70/1 .
(2) البيان والتبيين ، 140/1 .

ومصنن تفكيره في هذه التصانبا ماديّ تتولد بمقتضاه « نسي الموهبة »
 من أفكار ومعارف وأجهره معبرة عنها كاللغة ، من الشعور بالحاجة ولاستحـ
 ضرور رب الحياه الاجتماعية ، وتولد هذه النتي يتم : عند الجاحظ . حسب
 سلم تصاعدي تنسم اللغة مرتته اعليا لأنّ البيان هو تاج مراتب قوى النفس (1)
 وساحته تحقّق لخواطر وتولد المعارف وعنها تنشأ اللغة وتنسم على قدر اتساعها .
 « ونرى عم الهند أنّ سبب ما له كثير كلام الناس (. .) كثيرة حاجاتهم .
 ولكثرة حاجاتهم كثرت خواطرهم وتصاريف ألفاظهم واتسعت على قدر
 تساع معرفتهم » (2) وفي بعض الأحيان يختصر الجاحظ هذه المرحلة فيتمثل
 من الحاجة إلى اللغة مباشرة لأنّ مشغله في هذه المواطن لعوي فيتغاضي عن
 ترتيب ويربط بين طرفي السلم :

« ولولا ساحة الناس إلى المعاني وإلى التعاون والتراود . لما احتاجوا إلى
 الأسماء » (3) .

وببدأ يؤسس نشأة اللغة يتحكم في اكتسابها ، فالإنسان لا يحسن في
 رأيه ، إلا على ما تقتضي الحاجة ، وتعلم اللغات لا يخرج عن هذا لقانون ،
 فمرتّب الدرس في العلم بها والإحاطة بأماكتها وتصاريفها تناسب قوة إدراكه
 وإلحاق الحاجات تناسباً مطرداً .

« إنّ من أعود الأسباب على تعلم اللغة فرط الحاجة إلى ذلك وعلى قدر
 الضرورة ، بينها في المعاملة يكون البلوغ فيها والتفصيل عنها » (4)

ومنى بهذا الخدّ لاحت في الآفاق النهاية الختمية التي يؤدّي إليها هذا
 النهج في التفكير ، فيحكم قانون الدور والتسلسل بين الأسباب والنتائج بحيث

(1) حده في مصادر السابق ، 77:1 قوله . : العمل رائد الروح ، وتعلم رائد العمل .

مرحله العلم :

(2) الحيوان ، 21:4 .

(3) الحيوان ، 201:5 .

(4) مصادر السابق 289:5 .

نسو ن بن لأفراد وانجماعات داخل المجتمع : فالملاحظة تحقق بحوض
والمدحمة ، وهذه تحقق بدورها لدى حاملها حاجات لولاها لم يشعر بها وسيد
لربط حادي تشأ الفوارق وتعمق الهوية بين شرائح المجتمع وصدقته .
ولا شئت أن نجد صدى لذلك في مستوى ما يسمى اليوم ، في بعض الأديان ،
بالى عروبة ومها اللغة . فتقارب مستوياتها وتعدد مسالك استعمالها

و مهم أن فكرة المستويات اللغوية تجد ما يبررها في بيئته المجتمع
وبمقتضى ذلك تفسر تفسيراً مادياً اجتماعياً ذلك كان منزعجاً لجاحظ في
لتفسير وقد وقع ، إذ نساء . حدثاً صريحاً للتكبير اللغوي الذي يربط
أن يقع بوحدة اللغة أو بالأحرى وحدة النخلة والاستعمال

ولا يقف الأمر عند الإقرار بجذلية تراكيب التركيبة الاجتماعية والمستوى
(أو المستويات) اللغوية ، فالرجل حريص على ضرورة اعتبار كل المستويات
المستعملة عربية وحجته لذلك استعمالها وقيامها بما تطالب به اللغة : لو طبقة :
« وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات . فمن الكلام
بجزب و سخيض والمليح والحسن والقيح والحيث والثقل وكله عربي وبكل
قد نكلموا وبكل قد تمادحوا وتعابوا » (1) .

وفي هذا السياق ، نقف ، في آثراء ، على بدور نظرية لو نعمتها لك
لها بالعلم لأثر في تراثنا الفكري واللغوي ، ومؤداها أن قدرة الفرد على تشي
لغة ليست مطلقة وإنما تكون على قدر ما اضطرت الحاجة إليه ، وكتسه بحكم
وصفه لاجتماعي والثقافي ، كما أن مترلة استعمالهم أو المعلم في المصاحفة وبلاغة
لا تعينهم على فهم بعض مستونات اللغة وما تؤدده من معارف لأن ذلك لا يتم
إلا من طريق « العادة » إيماناً بأن صورة الفكر واستعداد الأفهام لا يجرحد
عن شجرة ومنعول أثر من وإد ذلك لا يتسى لأي كان أن يفهم أصوب صيغة
من الصاعات ما لم تكن له فيها مترلة وبعض الدربة :

« () لأنّ الناس كلّهم قد تعودوا المبسوط من الكلام . وصارت
فهمهم لا تزيد على عاداتهم (...) ألا ترى أنّ كتاب المنطقي الذي وضعه
إسم . و قرأته على جميع خطباء الأمصار ولغاة الأعراب لم يفهموا
أكثره ، وفي كتاب أفليدس كلام بلور . وهو عربي وقد صفي . ولو سمعته
بعض خطباء لما فهمه ولا يمكن أن يفهمه من يريد تعلّمه . لأنه يحتاج إلى أن
يكون عارفاً بحبّ الأمر ، ويعود اللفظ المنطقي الذي استخرج من جميع الكلام (1) .

وسب ذلك راجع . في تفكيره . إلى نظرية أخرى لا تقبل أهمية من
نسبته يؤسس بمقتضاها فكرة : المعجم الخاص . والتعابير السمودجية التي
قد ينشأ باستعمالها قوم من الأقوام . أو صناعة من الصناعات ، كانت لشعره
ولكتاب . فتحددهم يفتنون على عبارات دون عبارات وألفاظ دون ألفاظ .
ولست أصل في طبيعتهم ومادة اختصاصهم إذ المشكلة بين الصناعة والأجهزة
المفهومية التي تحتويها لا تقع عن صدفة . وإنما عن ممارسة وامتداد لوحات
للغة مختلفة حتى لكان قيام العلم وتطوره رهين وقوف القائمين عليه على ما
يسببه من مصطلحات وألفاظ :

« ولكن قوم ألفاظ خطبت عندهم . وكذلك كلّ بليغ في لأرض
وصاحب كلام مشور . وكلّ شاعر ، في الأرض ، وصاحب كلام مودون
فلا بدّ من أن يكون قد لهج وألف ألفاظاً بأعينها ليديرها في كلامه وإن كان
واسع نغم غريب المعاني ، كثير اللفظ (...) ولكل صناعة ألفاظ قد حصت
لأهلها بعد امتحان سواها . فلم تزلق بصناعتهم إلا بعد أن كانت مشاكلها
وبين تلك الصناعة (2) .

وق تركت هذه المبادئ آثاراً واضحة في تفكيره البلاغي . وإقراره
بعدة مستويات اللغوية لاختلاف مترلة المتكلمين العامة والاجتماعية .

(1) انجيلوس . 20/1
ر ؟ مصدر أساسي . 366/3 368 .

وبأكيد على انتمائها إلى « العربية » لأنها تسدّ حاجتهم في التعبير لمحصن
 عنهما قسوس عامّ يربط النتائج بالمنطقات : فولّد اللغة عن الحاجة وفيه
 الكلام على المنفعة معناه أنّ ظاهرة اللغة ، متى نظرنا إليها نظرة شاملة متجاوز
 النوعي معوي نردي أو الطلي . لا يمكن أن تكون اعتباطية ، وبالتالي فهي
 بكلّ عنصر من عناصر جهازها موضعاً يستعمل فيه وحيداً يؤدي فيه وظيفة
 « وليس في الأرض لفظ يفظ اللفظ ولا معنى يور حتى لا يصحّ ذكر
 من ، لأماكن » (1) .

وبذلك تقوم الوظيفة بدور الربط الموحد بين العلاقات النوعية رغم
 بينها من تفاوت

والنتيجة الطبيعية بل الختمية لهذا التصوّر الشامل للتواصل اللغوي
 والتشبيث « بوظائفية » (2) الكلام تدور فكرة ضرورة ربط عقل بالمقدم
 وملاءمته بمقتضى الحال وهي فكرة رئيسية أقام عليها أبو عليّ كنّ مددته
 البلاغية » (3) .

نظرية « المقامات » أو « المواضع » :

لعلّ أبرز ما يدلّ على مكانة هذا التصوّر ، في مؤلفاته ، كثرة
 المصطلحات المستعملة لبيان معناه ، وإبراره حملة من المتحصلات عملية
 توجه المتكلّم إلى الطريق التي يجب اتّباعها في صناعة الكلام

(1) أليان والين ، 93/1 .

(2) Fonctionnalité

(3) انظر عبد الجبار بن عربي : المادة البلاغية الواردة في كتاب « أليان والين » جوب
 ومجلد ، رسالة مرقوفة دلّ بها صاحبها ، شهادة الكفاءة في البحث « بحمد آداب تونس ،
 شبتمبر 1975 ص 23 .

وانظر أيضاً في علاقة الوظيفة بالكتابة والناسخ

T. Todorov , *Théories du symbole*, p. 61

وهي مصطلحات مشهورة : المقام : وهو الموضع : وهو : ح : ك :
 « أهد » أو « أهدار » والمشاركة : وهي المطابقة : (1) وجميعها فروع عن أصل
 « أهد » في « أهدر » وإن « يتلور » على الصعيد الاصطلاحي هو فكرة « المناسبة »
 « العلامة »

ولكنها . عم ذلك تقتضي من وجهه ما تعود عليه من أطر ف تسعى
 في مناسبة بينها . ويمكن . باستمرار انصوص التواردة فيها . أن نفسه
 قسمين كبيرين عطفي كلاهما بنفس النصب من المصطلحات

نفسه الأول : ويدل عليه « المقام » و « الموضع » و « الفعل » و « صيغة
 عامة » ويهتم بعلاقة المقال بالطرف العام الذي يترك فيه وكثيراً ما تكتفي العبارة
 عن ذلك مصدقة بحيث يصعب على القارئ أن يبين محتوى ذلك طرف .

إلا أن نستطيع ، من حمل النص على النص . ومن بعض « سباقات
 التصريحة » أن نحصر ما قد دل عليه في ثلاثة عناصر :

(أ) مخاطب : وجملته ما على التكلّم اعتباره في مخاطبته لمحصه
 المحاضر في عبارتين هما : « مقدار الصاقه » و « مقدار المنزلة » ويبدو أنه
 يشير بالأولى إلى زاده اللغوي ومنزله في العلم . وقد أينا أنها رهينة حاجاته
 ونتماته الطبقية ، يبينه تشير الثانية إلى رفته في السلم الاجتماعي وحظه من
 بعه والسلطان . وقد يجمع المؤلف بينهما كقولهم .

« ومدار الأمر على إهمام كل قوم بمقدار طاقتهم » وحمل عليهم على
 أقدر منازلهم (2) .

وقد لا سمح السباق بذلك فتراه أحياناً يربط « التوجيه » « صدقة » و « مره
 في محله » ويشترط في التكلّم أن يكون في قواء فصل التصرف في كل

(1) البيان والبيان : 12/1 . 76 . 92 . 116 . 138 . 139 . 144 . 145
 الجبر : 90,1 . 92 . 93 . 39/3 . 369 . 7/6 . 9

2 نيبان والنبين : 92/1

صفحة ١ (1) ويتشبهه . أحيانا أخرى : وجهة اجتماعية بحثا فيلح عليه أن ، لا يكتم سبب الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوقة ١ (2) .

وتتصل بهذين الاعتبارين الرئيسيين متطلبات أخرى ذات صانع نفسي تساعد الفاهرة اللغوية على تأدية وظيفتها وتسمح للمتكلم أن يبلغ من السامع مقصده ، وأولاها نشاط السامعين ووجودهم على هيئة حسدية وعقبة تسمح لهم يتمثل ما يقال لهم . وقد نقل في هذا الصدد قول عبد الله بن مسعود

« حدثت الناس ما حذجوك بأبصارهم ، وأدنفوا ديك بأسماعهم ، ولخصوك بأبصارهم / ، وإذا رأيت منهم فترة فأمسك ١ (3) .

كما نبه إلى وجه ثان طريف يقوم بدور هام في شد السامع إلى المتكلم وفتح ذهنه ونفسه إلى الفهم ، وهو أن تكون هناك مناسبة في الاهتمام بموضوع الحديث وهذه المناسبة تخلق توازنا بين إرادة الكلام عند المتكلم وإرادة الفهم والتقبل عند السامع :

« إذا لم يكن المستمع أحرص على الاستماع من القائل على لقوب لم يبلغ القائل في منطقته ، وكان التفحص الداحل على قوله بقدر سخنة بالاستماع منه ١ (4) .

ويجوز حفظ شديد الحرص على هذا الجانب النفسي ، أشار إليه في مواطن متعددة (5) ناهيك أنه أقام منهجه في الكتابة على المروحة بين لجد والهزل ، لجلب السامع إليه ، وضمان إقباله على ما يكتب إذ درجة تبه يقدم من تميل إليه العوس على ما يقتضيه الموضوع (6) . ولا عروبة أن يوسبي

(1) البيان والتبيين نفس الصفحة .

(2) مصدر السابق نفس الصفحة .

(3) مصدر السابق ، 104/1 .

(4) المصدر السابق ، 313/2 .

(5) المصدر السابق ، 7/1 ، 20 ، الحيوان ، 93/1 .

(6) الحيوان ، 7/6 - 9 .

ستمراراً لتواصل بين المتكلم والسامع إبان عملية البحث هذه العسيرة . فمهر
نتيجة من نتائج التعلق بالوظيفة التي ترتبط بدورها - بالحدائق القائدي في مصر
الحدائق السلاعية .

(ب) حسن الكلام : وقد أطلقنا عليه . في مطلع هذا الباب ، « المقام »
ولا جدال في أن أهميتها في مؤلفاته مقام الخطابة وهو يتطلب من المتكلم أن
أب يكون عارفاً بمواضعها ومناسباتها ليصوغ كلامه وفق ما تقتضيه . فمهر
« يكون باشعر ومنها ما يكون بالكلام المنشور . مقفى وغير مقفى » في حين
لا يأتي بعضها إلا مسجوعاً . كما أن بعضها يتطلب الصعوبة وتعهد بصياغة ،
بينما يفترض بعضها الآخر البعد عن التصنع والخلو من التكلف (١) . وجميعها
تستدعي من الخطيب حياة مخصصة وطريقة في النطق معلومة . وسعود
تفصيل ذلك عند حديثنا عن مقتضيات المقام .

(ج) القصد من الحديث : إن المتكلم مدعو ، لتحقيق أساسية المرجوة
وحتى لا يخرج عن حدّ البلاغة . إلى مراعاة الغرض الذي يسعى حديثه إلى
تحقيقه ، فلا يخطئ بين أقدار الألفاظ وأقدار المعاني . ولا يتعسف المعنى حيث
يجب الهزل ، ولقد أنى الجاحظ على القسم الكبير من هذا الجانب عند
حديثه عن منزلة المخاطب ، ولقد رأينا يطالب المتكلم بأن يؤفسي أشاراً
حقها فلا يستعمل اللفظ المطلق ، مثلاً ، إلا إذا كان السامع من أهل الصنعة ،
وكان الموضوع صناعة الكلام وعليه أن يرغب في هذا المقام ، عن ألفاظ
الأعراب وألفاظ العوام ، أما إذا كان في خطبة أو رسالة أو في محاضرة العوام
والعجبر فتصح به أن يستعمل ألفاظ المتكلمين (2) .

وقد اعتنى . في هذا الطاق ، عناية خاصة بالتواضع باعتباره نوعاً أدبي
قائم الذات قصد الإضحاك والإعجاب بحكيها المتكلمون وتقلد السامع .

(1) البيان والبيان ، 6/3 .

(2) الحيوان ، 368/3 - 369 .

و ش د هـ . و طيعتها سبتها و هيأة الكلام فيها وجب على حاكمها و دونه
 حبر م' حصائص اللغة لدى النظمه التي يهل عنها ، و تشمل ذلك صورة الكلام
 و محارج و عاداتهم في أدائه . ذلك أن المقاصد قد تم بالحصائص السلبية
 كسحق و المعصه و هذا يعني أن الوظيفة ليست دائما ، رغبة مكفه بصر
 في فصاحه و لسان من إن فصاحتها و بلاعتها في خروجها عن المألوف منها .

« و لنا أهول . إن الإعراب يفسد نوازل المولدين . كما أن اللحن يفسد
 كلام لأعراب . لأن سماع ذلك الكلام إنما أعجنته تلك الصورة و ذلك
 مخرج و ثبت اللغة و تلك العادة . فإذا دخلت على هذا الأمر الذي به أصبح
 سحبه و بعض كلام العجمة التي فيه ، حروف الإعراب و التحقيق و التثنية
 و حوته في صورة الخط الأعراب الفصحاء . و أهل المروءة و المحابة ثقت
 المعنى مع انقلاب نطمه و تبدلت صورته » (1) .

ولا يقف الأمر عند هذا الحد . ذلك أن عدم احترام المقصد و التغافل عن
 علاقة صورة الكلام بوظيفته قد يتجاوز الإحلال بها إلى خلق حدة في لسمع
 معاكسة لما كتب فروم منه .

« و قد كان موضع الحديث على أنه مصحك و مله ، و دخل في باب
 المزاح و الطيب ، فاستعملت فيه الإعراب . انقلب عن جهته . وإن كان في
 لفظه سحف و أبدلت السحافة بالجرالة . صار الحديث الذي وضع على أن يبر
 نفوس يكرهها . و يأخذ بكفائهما » (2) .

« ما القسم الثاني . و تبدل عليه مصطلحات « المشككة » و « مطابقة »
 و « لأقدر أو المقدار » و ما جرى مجراها فإنه أحصى في دلالة من نفسه
 لسان و إن الحد في الرؤيه . و وجهته الكلام في حد ذاته و على لتكم

(1) الحيوان . 262/1

(2) الفصل السابع ، 39/3

مر عدة في تعيق عناصره بعضها بعض من : الصوتية (1) إلى النص . فهذه
 فترتين مملوءة من مكونات الكلمة (2) ثم بين انكلمه وما ذات عليه أو العلاقة
 من الأنماط والمعاني (3) فترابط المعاني (4) خاصة معاني الشعر و الأخر .
 مكونه سست (5) . وسعود إلى كل هذه المظهر في الفصل الذي مخصصه
 للسلام

وفكرة الملاءمة بين المقصد والقياس قديمة لم يستدعها الحديث و...
 ذلك مسلمات البحث وشهادة الوثائق التاريخية . فهي من جهة سموات
 متحركة وحوادثا بكل فعل لغوي يتجاوز قائله ويقصد به الإبداع . فرددت
 يجمع متكلم . تلقائيا . كلامه نجمة من الصوابت يترصدها سعي من
 الإلهام ومنزلة المخاطب إذ لا تُخاطب الطفل مخاطبة الكهل . وليس حديث
 إلى المثقف حديثا إلى الجاهل (....) ثم إنَّ للمكانة الاجتماعية في الكلام
 تأثيرا (....) . فلنسا نكلم من يفصلنا في الدرجة كما نكلم أنفسنا (6) .

أما من جهة الشهادة التاريخية ، فهي جليلة في التراث ابوندي خاصة
 في كتب « نخطابة » لأرسطر حيث فصل القول في أنواعها ومقوماتها وحدد
 لكل نوع مدم لتعدر الإطار النظري الشامل لها . فحادث متصبات المحيط

(1) Phonème

(2) البيان والقياس 69/1 .

(3) نصر مصر سابق . 75/1 - 83 ، 92 . 106 - 107 ، 115 ، 136 ، 144
 45 ، 147 ، 148 ، 245 ، 250 ، 255 ، 256 ، 261 ، 339 ، الجواهر .
 9 ، 3 ، 131 - 132 ، 7/6 - 9 وانظر رسالته في الجهد والتهل . مجموعة عبد السلام
 محمد بدوي 162/1

(4) البيان والقياس 20/1 - 21 ، 116 .

(5) حدة . 66/1 ، 67 .

(6) Marcel Cressot : *Le style et ses techniques*, PUF 7ème ed Paris. 1977, pp. 12.

« ... أكثر من الترددات بين الملامح وتوطلعه دما قيا وكذا ذلك من ... »
 يعقوب

« la parole se consomme dans sa fonctionnalité, or, être fonctionnel
 c'est être convenable »

يحتويه . معني ذلك أن الحكم للكلام أو عليه لا يتعلق بشيء في ذاته ومواصفاته تتولد داخله تولدا ذاتيا إذ وجدوه وجود علاقي طرفي . ومؤدّي السببه انعدام الفصاحة المطلقة ، والبلاغة المطلقة . ولذلك نحذف لتأيين الاختلاف للمواضع ، وأكبر دليل على ذلك ، في آثاره ، عتماده في تحديد الأساليب البلاغية على ملائمتها للسياق مما يؤكد على أن قيمتها البلاغية ليست قيمة محردة يمكن ضبطها في قوائم تصلح لكل موضع وحده .

« ووجدنا الناس إذا خطبوا في صلح بين العشار أطالوا ، وإذا أنشروا اشعر بين السماطين في مديح الملوك أطالوا والإطالة موضع وليس ذلك بحظر ، والإقلال موضع وليس ذلك عن عجز » (1) .

ومما يثبت به قانون النسبية في النص السابق قطعه السببية ا مباشرة بين الظاهرة وطرفها : الحطل بالنسبة إلى الإطالة والعجز بالنسبة إلى الإقلال . وبهذه الكيفية خلّص الجاحظ نظريته في بعض الأساليب كالإيجار والإطناب من الاعتبارات « الكمية » وأقامها على مجرد « الكيفية » لجعل منها أدوات طيبة مرنة ذات قيمة أدبية وجمالية متحوّلة .

« والإيجار ليس يعني به قلة عدد الحروف واللفظ ، وقد يكون الكلام من أتى فيه فيما يسم بطل علومار فقد أوجر ، وكذلك الإطالة ، وإنما ينبغي له أن يحذف بقدر ما لا يكون سببا لإغلاقه ، ولا يردّد وهو يكتفي في الإفهام بشعره ، مما فضل عن المقدار فهو الحطل » (2) .

وبما ينطبق على هذين الأسلوبين ينطبق على بقية الأساليب ، وكثير ما يجمع المؤلف بينها في صيغة لغوية إقرارية تتخذ شكل القانون العام الذي يجب أن نحضه له تصرفنا اللغوي .

(1) الحيوان ، 93/1 .

(2) انصر الدين ، 91/1 .

ونكل^١ صرب من اخذت صرب من اللفظ ونكل^٢ روح من معي
روح من الأسماء (١٠٠) والإفصاح في موضع الإفصاح . ونكل^٣ في موضع
كلام والإفصاح في موضع الاستمرارية (١)

وعلى هذا النحو فهم دائما يستحسن الأسنون وتقصيه في بعض
منه آخر حيث لا يستقصيه . يخرج بعض الكلام على النص في بعض
مبداه على عكس ذلك

« وربما أتى من السكوت بما يعجز القول عنه وقد بلغ أقصى حاجته
وغاية أميته بالإساءة والإشادة حتى يكون نكل^٤ الفرب فصلا وكلام
حسلا » (٢)

وهذا المظهر يكاد يكون مطردا في مواقفه . فكل ما اشتهر عنه تمسكه
« الإفصاح والإبادة عن المقصد حتى عدت بعض أقواله المجسمة لهذه الفكرة
شائعة بين أسس سائرة سير الأمثال (٣) فإنه لا يتردد في تقديم « لكذبة »
عليهما واعتبارها عنوان شرف القول وفصله .

« وربما كانت الكتابة تملح من التعظيم وأدعى إلى التقديم من الإفصاح
والشرح » (٤)

ورأيه ، هذا . في الكتابة ليس مقابلا لرأيه في الإفصاح فقط . بل أنه
يخالف قول آخر في نفس الموضوع .

« وأما علمت أن الكتابة والتعريض لا يعملان في المقبول عمل
الإفصاح والكشف » (٥) .

(١) الحيوان ، ٣٩/٣

(٢) نظم الرسائل ، مجموعة هارون ، ٣٥٧/١

(٣) معني د . راحه قوله « وأجبر شكلا من ك » فكله يحسب عن كثير ، د . د . في حله
لعمري ، البيان والتبيين ، ٨٣/١

(٤) الرسائل ، مجموعة هارون ، ٣٥٧/١

(٥) البيان والتبيين ، ١٧٢/١

وذلك هو ما يبدو . في الظاهر . ناقصا هو على غاية الاستعداد مع
 صوب نظريته المؤسسية على موقف جمالي عام بعيد كل بعد عن
 سبب انتوئية . والنتائج المثالية في التفكير . معرفي في حدته بحسب
 لا يفصل . أحسن . عن النفع والسجاعة ولا تحقق بلاغة القول وهو حير
 لا . يصهر الكلام في طبيعته وتحقق فيه شروط الملاحة وهي هذه التي
 يفسر بعدها دية

« لا حير في كلام لا يدب على معانك ولا يشير إلى مدرك وهو يعود
 سي إليه قصدت والعرض الذي إليه نزلت » (1) .

وننتج عن هذا التصور الذي يربط الجمالي بالإنجاز بل بالجملة لا مجرد
 عروق الجاحظ عن دراسة الكلام في ذاته باعتباره شكلا متسقا يمكن
 تدركه وتحسّس الجمال فيه بصرف النظر عن طبيعته والدية منه

ولعلنا وقفنا هنا على سبب هام يعين على توضيح قضية محيرة في تدرج
 البلاغة العربية ومؤهلات الجاحظ على وجه الخصوص فأتت إذ قدرت
 بين مؤلفاته ومؤلفات ابن قتيبة . خاصة « تأويل مشكل القرآن » لاحظت
 فرق وصحا من جهة التوجيه لمساائل البلاغة وترتيبها لا يكفي لفحص لزمي
 لقصير بينهما لتفسيره فهي حين لا يعبر الجاحظ أية أهمية لهذا النوع
 من بحث نهيت أنه لم يذكر كثيرا من الأساليب التي سبق أن وجدناها عند
 مسه من « دريس وانحاة (2) تكاد مشاركة ابن قتيبة تحصر في جميع
 واحد في مؤلفات أسلافه وتنظيمه وإياداه حقه من التعريف وصرف لأمانة

ولا يصح أن الجاحظ كان عاجزا عن مثل هذا التمسع . . . بل
 . . . مصدرة بأكبره وأسس نظريته البلاغية بصدده عن ذلك فلا حدود من جمع

(1) الياد واليسبي 115/1 - 116

(2) حر في « عن نقد حسي أثر النحاة في البحث البلاغي » ص 176 .

لأساليب وتحديداتها وإيراد الشاهد لها في إطار تصور لا يعترف لها بقيمة
ثمة ، وحسب عالى بذاتها ، مستل عن ملباتها .



أما لأثر الكبير الثاني الذي خلقتة نظرية « الموضح » في تفكيره البلاغي
تمثل في احتلال مبدأ « الاختيار » صدارة المقاييس في التمييز بين الأساليب
وتفصيل بعضها على بعض . وأسس الاختيار ، في هذا المضمون تحقيق العلامة
بمعيب العام والخاص . أي بين الأطراف الداخلة في تركيب الكلام وبين
السياق المحيط بها . والاختيار ، وسبب القول فيه في إنباته ، يؤدي بصفة
طبيعية إلى إبراز دور المتكلم المسؤول عن تحقيق تلك المناسبات وصوغ الكلام
على مقتضى الحالات ، وواضح أن الاستجابة لهذه المتطلبات أمر عسير لا
يتم للمتكلم العادي .

ولنه لمن المسلمات التي لم نر حاجة إلى بسط القول في شأنها أن صاحب
البيان والتبيين الذي يعنيه الجاحظ هو الأديب البليغ والخطيب « مصقع » (1)
ومن يصرف القول عن وعي ودراية وثقافة وسياسة .

فكيف يبلغ المتكلم هذه المترلة ؟

ب - مقتضيات « الإبانة » :

رأينا أن أشد مفاهيم « البيان » اتصالا بمشاكل الجاحظ ما بلغ به
المتكلم فهم حاجته « على مجاري كلام العرب الفصحاء » (2) وبذلك يحدد
صرب من التعادل بين غايات القول وطرق بلوغها . ويعلم الحرص على إتقان
لوسائل لا يقل شأنها عن الحرص على تحقيق الوظيفه لا سيما أن هذه لأحبره

(1) البيان والتبيين ، 1/113

(2) شعر ، الفصل الثاني ، ص 168

بمكس أن تتم من سبيل العادة وطول المخالطة والأخذ على « الفسد » من
لكلام فيتيسر الفهم باللكنة والخطأ والإغلاق واللعن (1) .

وفي هذا دليل على أن مقصد المؤلف ليس مقصدا لغويا عاديا يترصد
مستلزمات الإبداع السيط . وإنما هو بحث عن سبل إخراج الكلام على هيئة
تمكن له في الفصاحة والبلاغة وتقوي مفعوله عند السامع ، وهذا لا يتم إلا
من كان في نفسه مهمل التصرف في كل طبقة من « طبقات الأعراب » (2)
وهو خطباء الأمصار (3) .

ونتريل الكلام هذه المنزلة يحتاج إلى « تمام الآلة وإحكام الصنعة » (4)
واقترح « متكلم بأن سياسة البلاغة أشد من البلاغة » (5) فبيان ، على هذا
الوجه ، مقتضيات يجب أن تتوفر في من يتصدّر لهذا الموقف ويتوق إلى هذه المنزلة .
ومن هذه المقتضيات ما هو عام ويجب أن تحمل عليه كل أصناف
النصوص ذات المسحة الفنية بتقطع النظر عن القاء التي تعبّرُها ، ومنها ما
هو خاص لا يبرز دوره ، بالسلك أو الإيجاب ، إلا في الشفهة . لذلك
نكتفي هنا باستعراض القسم الأول مُرجعين الحديث عن القسم الثاني إلى
مقتضيات انقاس ، مع تأكيدنا على الصعوبات التي يصادفها الباحث للفصل بين
معصية جاءت منسجمة متداخلة قداخل المفاهيم الأساسية السُحِيطَة .

وليس في مؤلفات الجاحظ أبواب خاصة بمكس بالروحوع ، ليه
صط هذه المقتضيات ، ومع ذلك فهي لا تخلو من إشارات على غاية من

(1) انظر : الفصل الثاني : ص 168 .

(2) الحيوان ، 89/1 - 90 .

(3) نفس المصدر نفس الصفحة .

(4) البيان والبيان ، 162/1 .

(5) المصدر السابق ، 197/1 .

أهمية . منه إلى مثل الموضع . جاء بعضها عرضا علما يستظهر وتند على
 عدده . و أكثر ذلك في حديثه عن الشعر . وجاء بعضها الآخر مرفوعا رُعرص
 عيبها . صحبه يعلن عنها المؤلف بصريح القبط : ونعتبر رسالة شعر
 معمر معمر في من أثر ذلك اعتراض وأكثرها إحاطة بالموضوع إذ فيه باب
 مؤلفات شعرية والحسية اللامع يوفرها في الأدب النبع وحديث عن
 مروف مدية والتسوية الملائمة لعملية الخلق الفني وإب هذه وباب تركيب
 على حصص نص نص ومناقش الكتاب بحسب ما يتم لهم منها (1)

وحدد . ياده على هذه الرسالة الخطوة . عددا من المصووص في نفس
 هرص . على غاية من الإيجاز والتأليف أتى فيها على حجم ثبات مقتضيات
 مرتبة بحسب هويتها . فيما يبدو . يأتي في صدارتها نص روه عن أحب
 بعماء بإبلاغه والخطاة وقد اعتمد فيه مجاز الاستعارة حيث استعير للخطابة
 صورة طائر وأحل كل شرط من الشرود مكان عصو من الأعضاء بقول :
 رأس الخطابة الطبع وعمودها الدروة . وجهاها رواية الكلام وحيد
 لإعراب وبهاؤها تحير الأنقاط : (2)

وتعلق الشروط الثلاثة الأولى بالمتكلم أما الشرطان الرابع والخامس
 فتعلق بالكلام

الطبع إنه من العصر القارة في كل عمل أدبي مهم كان
 سوعه . ولم يعمل الحافظ عن ذكره في أشد مواقفه تحسبا ببيان
 وشين ودعوته العلماء لإظهار ما عندهم (3) ومع ذلك يلاقي صاحب
 صعوبة كبيرة في إدراك انقصود منه . وأخيرا أن العمود ليس من
 نصير مؤلف في إسماء المصطفى حقه من الشرح . وبما من صاحب

1- الباء والتبويب 135.1
 2- معمر صاوي . 44.1
 3- معمر صاوي 200.1

مفهوم منه . إذ هو من متعلقات بواطن الإنسان وأسرار تركيبه . ولا يعتد
بالمساواة الأدبية والتعدد النوعي . أو حجباً في الإحاطة به . مفهوم
لقدومه على بعد العهد وتطور العلم .

فقد من صاحب البيان والتبيين جهداً كبيراً في تמצيره هذا المفهوم
وقد تبع أسلوب ذلك مسالك متنوعة لعل أحسنها تصويحه . في ما من قسده
حديثاً . بأنه - أي الطمع - عريرة في الإنسان واستعداد حليي يودعه عنه من
عنده من شيء . وقد بر ذلك بصورة جليلة في معرض حديثه عن عناصر
لني يقوم عليها الشعر والأسباب المتحركة في كثرة عدم بعضهم دون بعض
بعد أن دحض رأي القائل بأن كثرة الشعر مرتبطة بكثرة الوقائع والحروب .
وخصب الأدب . ونوع العناء . انتهى إلى ما يعتبره عوامل كثرة الشعر
وجودله :

« وثقيف أهل دار ناهيك بها خصياً وطيباً ، وهم وإن كان شعرهم
أقل من ذلك القبيل يدل على طبع في الشعر عجيب . وليس ذلك من قبس
رداءة الفداء ، ولا من قلّة الحصب الشاعل والعنى عن الناس . وإنما ذلك
عن قدر ، قسم الله لهم من الخطوط والعرائر والبلاد والأعراق مكنها » (1) .
وفي موطئ آخر من مؤلفاته عثر عن فكرة « الطمع » بمصطلح طريف ،
فيه من تناقص ، من وجهة فلسفية محض . الشيء الكثير إذ سمته « عقل
لغريرة » (2)

ثم بطريقة ثانية في المناصرة فقد نشت بالمقابلة بين الأحكام - حجة
عن نقد مصوص الأدبية والشعرية ودراسة خصائصها النفسية بعد موصوف .

(1) الحيوان : 380,4 - 381 . لاحظ إحصاء حشش : تاريخ النقد الأدبي عند العرب
من 96 - 97 في خصوص هذا النص ملاحظتي . فقد أتى فيه : « أصرح به عن بعد »
من ملام الجعفي التي تربط قول الشعر بالحروب . كما أشار إل حي . صاحب
دراسة شعرية . في « حجة عنصر » التي « هو يرمض تأثيره في الرد إلا أنه يشبه ذلك

(2) البيان والتبيين 14/2

معرفة الكيفية التي يتوخاها كل فريق في الكتابة . ومن أبرز الأرواح متفردة في نصوص الحافظ ، ومن ثم في النقد العربي جملة : روح « المطبوع » و « التكلف » والمقارنة بين موقفه من الطرفين تعين على بلورة فكرة « الضع » مجردة انقاصه . بل إننا قد نكتفي ، لبلوغ ذلك ، باستقراء استيفات التي تحدث فيها عن « التكلف » وما تضمنته من أحكام .

« المطبوعون يأتيهم المعنى : سهوا ورهوا وتثالا عليهم الألفاظ شيالا »
 بينما يلتمس « المتكلف » قهر الكلام واغتصاب الألفاظ (1) وبصفة أشد تأليفا واكتسارا ذكر الحافظ أن الأولين يصدرون عن « عمرو الكلام » في حين لا يأتي الآخر شيئا إلا عن « مجهود » (2) .

ولأجل ذلك كان موقفه من التكلف واضحاً (3) فهو مقترن بـ « السماجة » (4) وعلة تصيب الكلام ، فتستهلك المعاني وتثين الألفاظ (5) ، والعرب لا تكدر تستعمل هذا المصطلح إلا موضع « الذم » (6) لذلك اعتبره « مدار للائمة ومستقر المنة » (7) .

والسبب في ذلك أن المتكلف يحاول ما لا يحسن (8) ويحمل نفسه على ما لا طاقة لها به (9) وهو بذلك يخرج عن أهم مبدأ يؤسس العلاقة بين صاحب صناعة وصناعته وهو مبدأ « المناسبة » و « المشاكلة » وهي في مصطلحه تدل على ما يدل عليه « الطبع » .

(1) البيان والبيان ، 13/2 - 14

(2) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(3) سكت في هذا النطاق عن مفهوم « الصنعة قصد » لأن موقف الحافظ منها كما سنبين لا يجري على وثيرة واحدة .

(4) المصدر السابق ، 13/1 .

(5) « » ، 136/2 .

(6) « » ، 18/2 .

(7) المصدر السابق ، 13 - 12/1 .

(8) « » ، 3/1 .

(9) « » ، 18/2 .

« فالتزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى مصاعف
بيت وأحقها عليك ، فإنك لم تشتهه ولم تنازع إليه إلا وبسكما بس . والشيء
لا يحسن إلا إلى ما يشاكله » (1) .

« وأنا توصيك ألا تدع التماس البيان والتبيين إن طست أنت لك فيها
طبيعة وأنها ينسب لك بعض المناسبة » (2) .

أما الطريقة الثالثة فهي الرواية . فمن الناس من لم يواتهم قول شعر ،
مثلا ، رغم رسوخ قديمهم في البلاغة والخطابة فلما سئلوا عن ذلك فسروه
تفسير تعين على توضيح مفهوم الطبع ، فقد بس إلى ابن المقفع أنه أجاب
سئل : ألا تقول الشعر ؟ قال : والذي يجيني لا أرضاه وبدي أرضاه لا
يجيني » (3) فاعلم أن لا « طبع » له في صناعة الشعر وإن بز معاصريه في بعض
فنون الأدب الأخرى .

على أن « الطبع » لا يصون ، بمفرده ، عن « التكلّف » ما لم تبرز
الكتابة في ظروف تكون فيها النص على أنتم الاستعداد والفكر بخاليا من
الشواغل فتتجنب « التوعر » وتأتي المعاني متساوقة سلسلة متقادة . ولأهمية
هذا العمل وشدة تأثيره في عملية الحلق الفني صدر به بشر بن المعتز
رسالته ، يقول :

« نخل من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإحابتها إليك ، فإن قليل
ذلك الساعة أكرم حوهرها . وأشرف حبا . وأحسن في الأسماع ، وأحس في
الصدور وأسلم من فاحش الخطاء ، وأجلب لكل عين وغرة ، من لمسط
شريف ومعنى بديع ، واعلم أن ذلك أجلى عليك مما يعطيك يومك ، لا حول
(ك) (4) بالكد والمطاوله والمجاهدة ، وبالتكليف والمعاناة » (5)

(1) البيان والتبيين ، 138/1

(2) المصدر السابق ، 200/1 . وانظر : توسع في فكرة المناسبة للحيوان ، د 201 .

(3) المصدر السابق ، 210/1

(4) تمها الأطول يتم المقابلة بين قليل تلك الساعة وبينها .

(5) المصدر السابق ، 135/1 - 136 .

الدورية . واثنى أكنة الجراح على مداره الطمع في العلم .
 حتى عبده أساساً ضروريا لا تستقيم بلافة بلونه فهو يولي « لدرسه »
 و « سر » « مهمة كبرى في تفوق النضاء والبقاء وبرز أدبهم على هيئة
 تسمع يصنعهم في طمقات ومبارك .

وفد رشيد عن تعلقه بهذا الجانب مجموعة من المصطلحات تدل على
 أهمية ممارسة وتعمد الطمع في حذق الصناعة واشتداد العارضة « كتمير »
 و « سياسة » « الترتيب » و « الرياضة » (1) و « المعادة » (2) وهو يهتم
 في ديث من قناعة يكاد لا يتحول عنها وهي أن الإنسان في أول عهد « الكتابة
 لا ثوابه مندرلها تمام المواتاة . والذين وقعوا من « البيان » في أعلى مرتبة لأول
 عهدهم به شدة فتأكد بوجودهم القاعدة . فأمام كل كاتب وبيع ضيق
 صويلة مفتوحة « أيام الرياضة » وطرفها يوم يتوقع وتستجيب له معدي
 ويتمكن من الألفاظ . فيستحق إذ ذاك نعت « البليغ الثام » :

« ويقال إنهم لم يروا خطيب قط بلدياً إلا وهو في أول تكلمه تلك
 مقدمات كان مستقلاً مستصلاً أيام رياسته كأنها . إلى أن يتوقع وتستجيب
 له معدي ويتمكن من الألفاظ . إلا شيب بر شبة . فإنه كان قد بدأ بهذلاوة
 ورشاقة . وسهولة وعدونة . فلم يزل يرداد حتى صار في كثر موقف يبلغ
 بقيل الكلام ما لا يبلعه الخطباء المصاقع بكثيرة » (3)

وبعد على مكانة « الدورية » في تصورات « أبي عثمان » الأدبية
 والجمالية ، فقراره « ضرورة » أن يكون عقل العريسة ستم إلى عفس
 سحرية » (4) وهو بذلك يكاد يحثها مرتبة أرفع من مرتبة الصنع . ولا سبل
 إلى تحقق هذا الانتقال إلا « بالتعلم والتعلم » (5) والتحمل والصبر

(1) البيان والبيان ، 14/1 ، 197 .

(2) 137/1 ، 204 .

(3) 112/1 ، 133 .

(4) البيان والبيان ، 14/2 .

(5) 197/1 .

ولدت وحدثاه كثير العناية بالمبتدئين من الكتاب . يشجع كل من
 آتس في نفسه غيرة على البيان وبعض الطبع والمناسبة أن يشجع كتب الصفة حتى
 لا يستوي عليها « الإهمال » (1) لا سيما أن القطر قد لا تسمح في أوز ونية
 ، لا أنها لا تدن تستحيب بالمعاودة والمواصفة إيماناً بأن « الاشتلاء » (2) تكلف
 القلوب وتعصي الصفة بتم عن وجود ضيعة وأعراق في الصفة

ومن مظاهر التشجيع للربيعين ضرورة الأمثلة عن حال أقطاب البلاغة
 والصفحة . « أول عهدهم بالكتابة » وإبراره لأهمية المثابة وإرادة تتقوى . ومن
 حديثه عن واصل بن عطاء وأمثاله ممن تسنموا قمة الخطابة مع نقص لآلة
 « و بسبب » يتمكن والقوة المتصرفة « إلا بخلاء بشأن الدربة وحمل الكتب على
 مغلبة اليأس .

لكن ما هي السبيل لمعرفة قيمة ما تكب ؟

إن من أؤكد ما يجب تجبته . في هذا الشأن ، فرط الثقة بالنفس والمعجب
 بشمرة العقل . فقد نبه في مواطن عديدة إلى محاطر الثقة بالرأي في تقييم الكلام
 « في طبيعة الإنسان من ميل مع الهوى في حكمه لما يأتي أو لذوي قرباه ، حتى
 تلك « رأيت الرجل متماسكا و فوق المتماسك حتى إذا صدر من رأيه في
 شعره ، وفي كلامه . وفي ابنه . رأيت متهافتا و فوق المتهافت » (3) .

ويكتب الذين بحسبهم « العجب » على إحلال كلامهم مرتب لا
 يستحقهم إذ عرص على الناس تبين أن رأيهم فيه دون رأي صاحبه . كتب
 لا يرجي منهم خير في نظر « أبي عثمان » (4) .

(1) البين والخبين ، 200/1 .

(2) « 137/1 » .

(3) « 204/1 » .

(4) البين والخبين ، 115/1 .

وهو يصحح الناشئة والمتدينين : اتقاء لذلك اثر رأى وعلمه الهوى . فلا يسهل
رأى انعماء وه جهالة الألفاظ وتقصاد المعاني (1) لتمريرهم بصناعة
ومعرفتهم بوجوه الكلام فهم لا يصعدون إلا عن رأى ثابت وحكم
عادل .

ولا يحسن رأي هؤلاء العلماء في ما يعرض عليهم من « شئ » فهو أن
يستحسنوه ويستزيدوا منه . وفي هذا دليل على عرق الكاتب وبر عنه ورس
من أن ينحس ما قرص أو حبر أو ألف .

أو أن يعرضوا عنه ويعاملوه معاملة « المستروك » فلا يلبس من مودته
والثبيرة على نقيحه وتهديبه . فإن نلع « انكاث » بعد ذلك من استهانتهم
وشدة انتباههم أخفه بالأول وانتحلته وإلا أحد في صناعة أخرى تسبب صده
وقد لحص الجاحظ ذلك بقوله :

« واجعل رائدك الذي لا يكذّبك حرصهم عليه أو زهدهم فيه » (2) .

— رواية الكلام : إن « محتوى النصوص الراجعة إلى هذا شرط أوسع
من تؤدبه كلمة الرواية كما ضغطها المؤلف (3) . بل إنها ليست أكثر
المصطلحات جريانا على لسانه فهو يفصل استعماك « العلم » و « المعرفة » ما بينهما
من شمول يستغرق الرواية ويتجاوزها .

وشروطه العلم في « البيان » مرتبط بفكرة كانت متشرة في أوساط
« لكتابات » والبنعاء ينتجون بها لفصل صاعتهم وتفوقها على سائر المصاحات
فنهجوا . سلك . نهج الفلاسفة في ترتيب قوى النفس وبنوا تصبيهم على
هيأة تحته المحل الأرفع وتربطه بالعلم ربطا لا يفتصم .

(1) البيان والبيان ، 75/1 .

(2) « 203/1 .

(3) الحيوان ، 333/1 .

« وقاب مهمل بن هارون : العقل رائد الروح ، والعلم رشد لعقل .
 و سيب ترجمان العلم (...) وقالوا : حياة المروعة الصادق ، وحياة لروح
 معصوم ، وحياة الحطم العلم ، وحياة العلم البيان » (1)

ومن ثم اقترح في مصطلحه البيان بالعلم والمعنى بالجهل

ونكن ما مضمون هذا العلم ونوعه ؟

يمكن أن نقسم النصوص . طبق هذا السؤال . إلى قسمين رئيسيين

قسم أول جاءت فيه دلالة المصطلح منطقية وليس في السياق ما يسمح
 بمعرفة موضوعه ومحتواه . وقد استعاض عن ذلك بإيراد جملة من العلاقات
 المجردة تعبر على بلورة تصوراته من وجهة نظرية بحث : فهو يقيم
 علاقة تناسب طردي بين تمكن المتكلم في « البيان » وتمكنه في « عدم »
 بحيث يكون حظه من الأول على أقدار حظه من الثاني ، ذلك أن « العلم »
 يكسب صاحبه قدرة على التصرف طبق قانون « الملازمة » و « الموضع » مما
 يمكنه من إيفاء كل معنى حقه .

« وللسان لا يكون أرباً ، داهيا في طريق انبياء ، متصرف في الألفاظ
 إلا بعد أن تكون المعرفة متحللة به ، منقلة له ، واضحة له في مواضع حقوقه
 وعلى أمدك حظوظه ، وهو علة في الأماكن العبيقة ، ومصرف له في موضع
 مختصة » (2) .

كما أنه حريص على أن تقوم العلاقة بين « المنطق » و « العقل » على
 التكافؤ وقد أشار إلى ذلك في مواضع عديدة بصيغ متنوعة ، فهي تارة ثنائية
 لأطراف كقولها : « وكانوا يكرهون أن يريد منطق الرجل على عقله » (3)

(1) البيان والبيان ، 77/1 .

(2) الحيوان ، 117/1 .

(3) البيان والبيان ، 114/1 .

وطور صرع وتتراكب العلاقات كهوله : « وذكر محمد بن علي بن عبد الله بن عباس : بلاغة بعض أهله فقال . إني لأكره أن يكون مقدار لسانه فاضلا على مقدار علمه ، كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلا على مقدار عقله » (1)

، يمكن أن نجرد مضمون النص بهذه الكيفية :

(1) مقدار اللسان <=> مقدار العلم

اللسان <=> العلم

(2) مقدار العلم <=> مقدار العقل

أما التكافؤ الأول فواضح إذ يدورنه تحريم « المناسبة » بين الفكرة والهدف مما يؤدي حتما إلى « انحطال » وهو « كل شيء حاور المقدار » (2) أو « فضل من المقدر » (3) ويكون سبيل المتكلم « المسهب الثثار والحطل المكثّر » (4) .

بينما لا تعيننا نصوص انجاحظ النظرية على إدراك قصده من التكافؤ الثاني ، ولا مناص هنا من التأويل والاحتهاد . ولذلك نطلق من نموذج تطبيقي أورده في مجرى حديثه عما يستصح في الحظابة ثم أردفه بتعقيب دقيق . ولعلنا بدراسة امثال والتعقيب نهتدي إلى القصد :

« وخطب آخر في وسط دار الخلافة . فقال في خطبته : « وأخرجه الله من باب بيسية . فأدخله في باب الأيبية (...) وقال مرة أخرى : فدخل سائرته عن ضامره ، ودل عامره على منعطفه . فكاد إبراهيم بن السدي يصير شقفا وينقد غبضا . هذا وإبراهيم بن المتكلمين . والخطيب لم يكن من متكلمين . وبما جرت هذه الألفاظ في صناعة الكلام حين عجزت الأسماء عن تساع معاني » (5) .

(1) البيان والبيان ، 85/1 .

(2) البيان والبيان ، 202/1 .

(3) الحبراء ، 91/1 .

(4) البيان والبيان ، 13/1 .

(5) 141 - 140/1 .

هذه الحظيرة ، كما ترى . عالم بألفاظ المتكلمين لكن ليس في قدرته العقلية . بعد انطاهرة بأسبابها وفهم الدواعي التي اضطرت لشككهم في استعمالها فأصحاب الصناعة ، كما يئذ على ذلك تعليق الجاحظ يتداولونها وهم راعون عنها ولو وجدوا في الأصل ما يؤدي معده لاستدروها به . ولذلك بدأ كلامه نايباً لأن ما علمه كان من باب الحفظ لا من باب الفهم . وإذا استقام لنا التحريج نكون ربطنا رؤيته للأدب والأدب بمتزعه العقلي لعدم الداعي إلى النقد والتمحيص والسيطرة على المعارف والتحكم فيها .

— قسم ثان جاءت فيه دلالة المصطلح مقيدة بحذف لشككهم أصول اللغة العربية ومعرفة سبل استعمالها معرفة دقيقة . وذلك تكامل لديه بمعرفة لنظرية بالنواميس المثبتة لصلة الإنسان بالطاهرة اللغوية مطلقاً والمعرفة العممية بلغة مخصوصة ليستثنى له استعمالها وفق تلك النواميس .

وهكذا يرتبط حل الأسباب ، في مؤلفات الجاحظ بين المقررات اللغوية المجردة التي أفرزت فكرة « النامية » والمعلومات العزيرة المتعلقة بخصائص « العربية » وطرق أصحابها في تعريفها باعتبارها وسيلة للتكلم لتحقيق تلك المقررات .

وهذا باب آخر من أبواب امتياز المتكلم البليغ عن غيره لأنه معروض إلى التوفيق بين نوعين من القيود :

القيود الناجم عن ضرورة مراعاة صلة الإنسان بظاهرة اللغة أي « النامية » .

أما القيد الثاني فتحقيق ذلك مع احترام قوانين اللغة المحصورة

ولا سيما سميت أهلها في استعمالها وما جوزته لنفسها من أساليب ولش أكد صاحب « البيان والتبيين » على أن تشمل المعرفة مختلف جوانب اللغة

كإسم ، لأصول الثابتة ، كالبناء ، والاشتقاق : و « النحو » (1) ، والإحاصة ، وأصولها التاريخية لمعرفة « المتروك » من الكلام و « المحدث » (2) وتلاؤم الكلمات في السياق وتناظرها لمعرفة ما يكره من ذلك وما يستحب (3) ، و « كى » اهتمامه كان منصباً على مسألة الأساليب والمحاربات وتوسع العرب في كلامها حتى كادت مباحثه ، في هذا المصنوع ، تقتصر على هذا المظهر . وبذلك تجاوز القواعد النظرية إلى كيفية الاستعمال كما تبدو في انعم الحجة لغة لصوص الأدبية من شعر ونثر وأخبار وخط ورسائل . وهذا لا يتم للمتكلم - المتعلم إلا بمدارسة عيون الأدب ومعاشرة « المصنف » من الأعراب » (4) لأن أساليب العرب لا يحتويها كتاب ولا يأتي عليها العلم النظري المجرد .

وبالرغم من أنه لم يجمع هذه المجازات في أبواب محددة ، ولم يضعها في قلب تعليمي مباشر فإن كثرة ما أورده منها وتحذيره من مغبة جهلها يعتبر مشاركة في بيان وجوه العرب في القول وإسهاماً غير مبشر ، في رعاية الناشئة على تعلمها وحذقها .

والجاذب شديد الانتباه إلى هذه المسألة فكلما وجد موضعاً للقول فعل ، إلى درجة قد تبدو ، للعوض ، نوعاً من التشويق والمبالغة في التدقيق . « وكل بيضة في الأرض فإن اسم الذي فيها والذي يخرج منها فرخ ، لا يصح استجاج فإنه يسمى هرجاجاً ولا يسمى فرخاً . إلا أن الشعراء يجمعون لهرجاج فرخاً على التوسع في الكلام ويجوزون في الشعر أشياء لا يجوزونها في غيره » (5) .

(1) الحيوان ، 153/1 ، 154 .

(2) الحيوان ، 330/1 .

(3) من المصنوع ، 335/1 .

(4) آيين والبيان ، 145/1 .

(5) الحيوان ، 199/1 .

ولا يتحصر معهود « التوسع » كما قد يفهم من النص السابق . على
« محور في الشعر » . بل إنه يطلقه ، بالدرجة الأولى على كثر قلوب خالف
حقيقته (١) اتخذ انصورية بهجا في التعبير كالنثيب والاستعارة والكناية
و... إلخ. (2)

و قد دليل على ذلك أن الكثير من هذه الوجوه اقترنت في مؤلفاته بحديثه
عن أصول تشريع الإسلامي خاصة « القرآن » وقد أشار مرارا إلى المخاطر
التي يؤدي إليها التأويل إن لم يكن صاحبه متضلعا بهذا العلم :

« من سرب أمثال واشتقاقات وأبنية ، وموضع كلام يدل عندهم على
معانيهم ويرد دلتهم ، ولتلك الألفاظ مواضع أخر ، ولها حيث دلالات أخر .
فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة ، والشاهد والمثل ، فإذا نظر في
الكلام وفي ضروب من العلم ، وليس هو من أهل هذا الشأن ، هلك
وأهلك » (3) .

ولا غربة أن يرتبط حديثه عن المحاز بالقرآن حتى لكأنه غير مقصود
في ذاته وإنما استطراد إليه المؤلف في مجرى احتجاجه على من « لا يدع ظاهر
لفظ ولعدة المسألة في ظاهر الكلام » (4) فقد سبق لنا أن بينا أهمية القلوب
بمنهج عند المعتزلة نيتسي لهم التوفيق بين مطروق « الرسالة » وأسس
عقيدتهم (5) .

وقد هرة الاستطراد نادرة في كثير من المواطن بل أوضحها إشارته إلى
الاستعارة وقد أورده المدغم فأويله للآية يخرج من بطونها شراب » (6) . يقول .

(1) أنجلو ، ص 174

(2) سمعوه إلى هذه الوجوه من حيث هي خصائص للكلام .

(3) أنجلو ، ص 154

(4) أنجلو ، ص 154

(5) من جديس على دور ، تفريق في نشأة فلاة في انتمى الأول من هذا العمل .

(6) أنجلو ، ص 69

فالعسل ليس بشراب وإنما هو شيء يحول بالماء شرباً أو دلاء سيد
سماه كما ترى شرباً كذا يجيء منه الشراب .

و قد جاء في كلام العرب أن يقولوا : جاءت السماء اليوم بأمر عظيم
وقد قال الشاعر : (الواحر)

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيته وإن كانوا عيصاً

مرعوا ، أنهم يرفعون السماء وأن السماء تسقط . ومتى خرج العسل من
حبة نضوب وأحوايتها فقد خرج في اللغة من بطونها وأجوافها ومن حمى نعمة
عن هذا المركب لم يفهم عن العرب قليلاً ولا كثيراً (1) .

وبالجملة فالعلم بهذه الأساليب يمكن المتكلم من استعمالها على وجه
ويصونه عن الزلل في الرأي والخطأ في الحكم (2) بل لا ماض من حذقها
لارتباطها بدي « أبي عثمان » بموقف ميداني مؤداه أن قياس البحر غير
مضرد لذلك وجب التخييل في ركوبه بالسلف والإقدام « على ما أقدموا »
والإحجام « عما أحجموا » (3) ومن الطبيعي أن نحتل « الرواية » في مثل هذا
التصور ، مكانة رئيسية في تحصيل هذا النوع من المعرفة ، مما أدى بالمؤلف
إلى إبراز دورها في فصاحة اللسان ، وتسمية قدرة المتكلم على البيان حتى رأينا
أئمة – معتزلة – أكثر الناس حرصاً على حفظ الأشعار ورواية الأخبار ، إن
إب منهم من بلغ في ذلك شأواً بعيداً فكان حفظهم من المقول لا يقل عن
حفظهم من المفعول (4) ولا أدل على ما نقول من مؤلفات لاحظت نفسه
فهي شهادة صريحة لأهمية الرواية في صقل اللسان وتهذيب الدوق لذلك
عدتها من شروط الأدب الجيد ، ومبرراً من مبررات الاختيار (5) .

(1) الحيوان ، 425/5 - 426 ، والأمتعة من ذلك كثيرة انظر مثلاً حديثه عن « النسيه »
معلقاً من القرآن . نفس المصدر 49/2 - 30 .

(2) المصدر السابق ، 212/1 .

(3) المصدر السابق نفس الصفحة .

(4) المصدر السابق 405/6 .

(5) انظر على سبيل المثال ما يورد به إتيانه لحسن « ريجز » أبي نواس في موضع نصه
رسائله (ديان الحيوان ، 27/2) .

ج - مقتضيات « المقام » :

يعتبر « مقام » الخطابة أبرز المقامات التي اعتنى بها صاحب « الأسان والتمييز » فهو محور تأليفه في البيان ومنطلق تصوراته لدلالة النص¹ وبهذا عدت مؤلفاته أهم مصدر للدراسة الخطابية العربية إلى القرب شئت (1).

و « مقام » الخطابة هنا تتضافر على نحت معالنه عدة معطيات في طبيعته اعتماداً متوالياً بين طرفي الخطاب على « المشافهة » أو « اللفظ » وبالوع المقصد من القبول بصرف من التلقي المباشر يجبر المتكلم على تحقيق كس² انطباع « مداخلية » في تركيب النص مما كان يحجب بالكتابة أو يؤديه لقارئه بالقراءة ، ولذلك وجب أن يكون النص وقت إلقائه مادة جوهرة قيمة للاستهلاك على عين المكان وبهذه الصورة يصبح الناطق في الكتابة أساساً في اللفظ ، كقوة الصوت وتصريفه حسب المعنى وقدرة المتكلم على انطق الصحيح ، وإخراج الحروف وفق قواعد الأداء الصحيح ، وإحلال الكلمات محلها في الإعراب والبناء ، كل ذلك يضاف إلى ما يفرضه « مشافهة » من خصائص في تركيب الكلام نفسه لتتم الاستجابة بصفة سريعة ومباشرة ، إذ ليس في مقدور السامع التفكير في نص³ ينعدم بمجرد إلقائه .

ثم إن الخطابة تناسي على ما يمكن أن نسميه « المواجهة » ذلك أن الخطيب يلقي كلامه في حمل ، والتوجه إلى الجماعة في مناسبة معلومة وموضوع مضبوط أمر عسير يتطلب من المتكلم له خصالا نفسية وشخصية تشد أزره وتقوي عزمه ليحمي في كلامه على ما يقتضيه المقام فلا تبرر عليه علامات الارشاد والرهبة ولا يقطع السلك الناظم لأفكاره . كما أن لحلقته وهيأته

(1) اسان الخاكد من ذلك مؤلفي اسان النص .

1 - الخطابة العربية في عصرها الذهبي ، مشورات دار المعارف القاهرة ، 1964

2 - الخطابة السياسية في عصر بني أمية ، مشورات دار الفكر ، دمشق (د ب) ص 100 .
بكثر اغتراف من الإحالة على كتب الجاحظ خاصة « التبيين » و « البيان » .
كان الجاحظ اللغوي .

دحلا في تحقيق مقصده باعتبار المعايين له يتأثرون إلى حد بعيد بكون ظروف
أحرفه دسّ وكمية أدائه وإخراجه بما يشمل ذلك من استغلال لسلم الصوت
ومصادقة به وبن المعنى وإشارة باليد أو بالرأس وما يظهر على السمات من معان

وسحمة وإن المتكلم في هذه الحالة ممتحن لا سلاح له إلا لاقتدار
وقوة عارضة وثقة بالنفس ، ومن أجل ذلك تهيب الناس هذا المقام ونسج
انجاص في كثير من المواطن على صعوبة التصار له ولعل رويته عن
عبد الملك بن مروان تلخص تلك المصاعب تلخيصا بليغا . « وقيل
لعبد الملك بن مروان : عجل عليك الشيب يا أمير المؤمنين قل « وكيف لا
يعجل عني وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرتين » يعني
تجعة الجمعة وما يعرض من الأمور » (1) .

— المسألة : تدرج تحت هذا المحور كل المعلومات المتعلقة بالجانب
لمادي « فيزيائي » لعملية التلغظ سواء تعلقت بصفة الصوت من « جهرية »
و « رقة » أو كفيات النطق وما قد يعثر بها من آفات وانحرافات متأبة إما عن
نقص خفي في الآلة ، أو وضع لغوي متداخل الأنظمة .

ولئن لم يخص المؤلف ، على عادته ، أبوانا معينة لدراسة هذا الجانب
فإنه أتى على قسم هام منه في الجزء الأول من « البيان والتبيين » ممّ يسهل
عن الباحث . أمّا من حيث المنهج فهو يراوح بين الطريقة البشرة والطريقة
غير البشرة فتراه يعمد أحيانا إلى ضبط السمات المستحسنة في قالب تقرير
وضع ويعمد أحيانا أخرى إلى إبراز متطلبات الأداء الصحيح ويصيح
بالإلحاح على آفات النطق .

وقد تطرق . أثناء ذلك ، إلى مسائل صوتية ذات بال مستقى بعضها من
جهود أسلافه من اللغويين واستقى بعضها الآخر . وهو أهمها ، من تحرته

(1) البيان والتبيين ، 1/135 ، وانظر كذلك 1/117 ، 134 : 204 .

شخصية وملاحظته « الميدانية » فاستطاع أن يرسم صورة واضحة لعدم من
 الوضع للعوي في عصره وما طرأ على العربية من تغييرات بمفعول مؤثرات
 عديدة أهمها قساحل اللغات والأجاس . فحدث تأليفه مصدراً ثرياً سر سة
 مرحلة من حياة اللغة العربية ما بين النصف الثاني من القرن الثاني والنصف الأول
 من القرن الثالث (1) .

فمن النوع الأول اهتمامه بتعريف « الصوت » وهو يعبره جوهر اللفظ
 وآله « أي يقوم به التقطيع وبه يوجد التأليف » (2) وأشار إلى بصرية بين
 المطوق والمكتوب . وقصور الكتابة عن تصوير جميع الأصوات ومن ثم
 جاء رأيه مشهور في أن الخارج « لا تحصى ولا يوقف عليها » ، وقد
 كان منصفه لصياغة هذا الموقف النظري حديثه عن « اللغنة » التي تقع في
 لسين المعجمة وهي « شيء لا يصوره الخط » (3) وقد سعى إلى تدعيم
 رأيه بمقارنة أصوات اللغات وانتهى إلى أن بعضها يوجد في لغة ولا يوجد
 في أخرى . مما يدل على قدرة الجهار الصوتي ، بالقوة على الأقل ، على
 إخراج عدد لا يحصى من الأصوات (4) وجره تداعي الأفكار في موضوع
 إلى الحديث عن اعتماد اللغة على عدد من الأصوات يتكرر أكثر من غيره
 وحاول تعيين ذلك بما تنضمه من صفات أساسية وثانوية (5) ثم إنه يعرق
 إلى موضوع طريف مؤداه أنه بإمكان السامع تبيين الانتماء العرقي لشكلهم

(1) هي لفظة التي سبها المستشرق يوهان فوك (Johan Vock) « عصر التأليف » في كتابه
 'Arabiyya recherches sur l'histoire de la langue et du style arabes,
 Paris, 1955

نظر خاصة الفصل الخامس من 97 - 112 حيث يفرد في مظهره
 Si nous sommes sensiblement mieux renseignés sur la situation linguistique du 2è 8e siècle finissant et la première moitié du 3è/9è siècle, que sur celle des époques précédentes nous le devons surtout aux ouvrages de Jabiz.

(2) البيان والبيان ، 97/1 .

(3) « » ، 34/1 .

(4) « » ، 64/1 .

(5) « » ، 22/1 .

عربية انطلاقاً من كيفية أدائه لها . و لا شك أنه عديم يهد الرأي لصيغته
مجموع عراقي في ذلك الحين . فلقد كان خليطاً من الأجناس والذوات وكبر
يكن جماعة عادات صوتية تبرز على أديم اللغة الدخيلة على سانه وهي
عربية في هذه الحالة (1) .

واستيع كتاب «البيان والتبيين» يلاحظ أن هذه المعصبات الصوتية
المصرية جاءت بمثابة الإطار العام لموضوعه الرئيسي الذي سعى من ورثته
إلى صسط الصفات الصوتية التي يجب أن تتوفر في الخطيب والآوت التي قد
نصيب نفعه فتشبهه وتحط من متركة الخطائية .

أم الصفات الصوتية التي تستحسن في الخطيب ، إن عدد هذه الصفات
محدود نسبياً يكاد لا يتجاوز الثلاث أو الأربع أتى عليها الجاحظ في رواية
من روایات التي أثبتتها في «البيان والتبيين» .

« وكان سهل بن هارون شديد الإطناب في وصف المأمون بالبلاغة
والجهره ، وبالحلاوة والنخامة ، وجودة اللهجة والطلاوة » (1) .

وأغلب الصفات المذكورة صعبة التمثل لأنها لا تحيل على معصبات
موصوعية مضبوطة ولا تعبر إلا عن مجرد الانطباع والتذوق الذي يحصل
للمتلقي من السماع وطريقة المؤلف في عرض هذه الصفات لا تعين بدوره
على تجاوز هذا العسر . فلقد جاء حديثه عنها سلسلة من الأخبار والأشعر
تبرز مصعب بدون أن يتخللها تفسير أو تعليل ، يستشي من ذلك صفة « جهره »
تبي حجبت لأهميتها بقية الصفات حتى كاد الحديث في هذه المسألة يقتصر عليها .
ور صرح من النصوص العديدة الواردة في «البيان والتبيين» خاصة ،
أنهم بمصدون بها قوة الصوت وقدرته على بلوغ السامع على مدى بعيد . يند
على ذلك حملهم إياها على مقابلتها والمآلة » .

(1) البيان والتبيين ، 69/1
» 92/1 (2)

« وكسوا يمدحون الجهير الصوت وينمّون الصئيل الصوت وذلك
تشدقوا في الكلام ومدحوا سعة الفم ومدحوا صغر الفم » (1)

وتفسيرها بما يرادفها وهو « يعد الصوت » (2) أو « يروى » بصريته
في الدلالة على ذلك وهي روايات لا تخلو من المبالغة والسدح، حيث لا بُدَّ
من الإشارة إلى المعنى الذي يقصدون فمن العرب من إذا صاح « فُتت
الحبس أولادها من شدة صوته » (3) ومنهم من « يصبح ناشع وقد حتمل
الشدة » فيحببها ويذهب هارباً على وجهه » (4)

ومن الطبيعي أن تنبأ « الجهارة » صدارة الصفات المستحسنة في خطيب
« لا سبيل إلى إسماع الجمع الحاضر في مسجد أو في ساحة حرب ما يبقى من
الكلام إلا ما جبل عليه الصوت خلقة من قوة في الجوار الصوتية . ويصبح لأمر
أكيد إذا رام الخطيب تحقيق الوظيفة المتعلقة بالكلام أصف إلى ما لشدة
صوت من تأثير نفسي على الجمهور ومن طاقة على التحسيس وإثارة اهتمام
لا سيما في الحرب .

« وقد كان العباس بن عبد المطلب جهير الصوت . وقد مدح
بذلك وقد نفع الله المسلمين بجهارة صوته يوم حنين ، حين ذهب لناس عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنادى العباس : يا أصحاب سورة البقرة .
هذا رسول الله . فراجع القوم . وأنزل الله عزّ وجلّ النصر وأتى بالفتح » (5)

ويبدو ، من هذه الروايات ، أن « جهارة الصوت مرتبطة بسعة الفم
ورحب الشدق ومنه اشتقوا « التشادق » في الكلام واستمعوا (6) « قد أُرِدو
أن يدلوا على براعة الخطيب وتقواه قالوا : « الخطيب لأشدق » وقد أشدّت

(1) البيان والتبيين ، 1/121

(2) معنى المصدر ، 1/121

(3) ، ، 1/127

(4) ، ، 1/128 . وانظر أيضا الروايات الواردة في 1/129 ، 28.

(5) ، ، 1/123

(6) ، ، 1/121

بشعار والأخبار بهذه الظاهرة « الفريولوجية » أيتها إشادة (1) إلا أنهم حذروا من التكتف في التطق والتزبد في جهارة الصوت والإعراق في التناصح وصحيم صوت . وقد كان ذلك مسلك بعض الخطباء ممن شعروا بأهمية ذلك وعرف به من حدث الإفراط . وقد روي عن أنسي أنه قال « إني والتشادق » وقال « أبصركم إلي الثرثارون المتفهبون » (2) وقد سمي الجاحظ هذا لصفه ممن يتسودون فصحاء الأعراب « بأصحاب التشديق والتفجير والتعجب » وسماه « صادين والمتردين في جهارة الصوت وانتحال سعة الأشداق » (3)

ولا تقتصر الصفات الصوتية التي تستحسن في الخطيب على هذه الجائز ، فعريقة إخراج الحروف وخصائص النامظ بالصوت تقوم ، هي أيضا ، بدور هام ، وبذلك أولاها الجاحظ عناية خاصة وإن كان درسها من وجهة سببية تحت باب يمكن أن نسميه « آفات النطق » .

(ب) آفات النطق : يشمل حديثه عن المحارج الصوتية للكلام ولشوائب التي تعاقب بالألسنة بمفعول العوارض الحنفية أو المؤثرات اللغوية الأجنبية أكبر قسم من اهتماماته الصوتية . ونعتبر الملاحظات اللغوية التي ساقها ، بالإضافة إلى قيمتها التاريخية الثابتة ، جزءا أساسيا من اهتمامه بالجمالية الأدبية في شكلها الخطابي » (4) .

ومنه من الطريف أن نشير إلى أنه لم يباشر هذه الظواهر اللغوية « لمرصية » مباشرة علمية جافة وإنما أخرجها في شكل أدبي مستساغ لدهيك أنه جعل من مسألة إبدان الأصوات وتداخلها راعدا من روافده فن أدبي على غاية من الأهمية هو « الطرفة » أو « النادرة » وبذلك أنحص هذه المعطيات العلمية مدبه لرعته الأدبية حتى يستعيد منها العالم ويستمتع بها الأديب .

(1) أنيس والشمس ، 122/1 .

(2) نفس المصدر ، 13/1 .

(3) » » »

(4) ميشر عاصي ، التكتف المذكور ، ص 59 .

و لأحرفات التي درسها الجاحظ قسمان كبيران . قسم ينسب فيه ، تنقص الحقيق في آفة النطق وقسم مردّة ، التداخل (1) لتعوي وتأثير سمات الأجنبة .

وقد اعتنى : في القسم الأول ، عناية خاصة بظاهرة « اللثعة » وذكر عدد حروف التي تدخلها وما يمكن تصويره بالخطّ منها وما لا يمكن ، كما تحدث عن مراتبها في التبع والحسن وأشهر من عرفوا بها من المصنفين والأدباء .

أمّا حروف التي تدخلها فأربعة يحيط بها الخطّ وهي الفاف ، والسين واللام ، والراء وواحد لا سبل إلى تصويره وهو . الشين . وهي تبدل حسب لجدول التالي :

(بسم الله...بسم الله)	س ← نساء
(قلت له...طلت له)	ق ← طاء
(جميل...جنتي)	ل ← باء
(ما الملة في هذا...كفكة في هذا)	ك ← كاف
(عمرو...عمي)	ر ← باء
(عمرو...عمم)	ر ← عين
(عمرو...عمد)	ر ← ذال
(مرفق...مفصة) (2)	ر ← ظاء

وبعد أن « الراء » تبدل عدا هذه الأربعة بصوت آخر لم يستطع لجاحظ إثباته بالكتابة ، يدلّ على ذلك قوله : « وأمّا اللثعة الخمسة التي

(1) هي الضمّة المصروفة في الكلمات الملتصقة بـ *Interférence*

2 البيان والبيان ، 35/1 - 35 .

كانت عرض لواصل بن عطاء وسليمان بن يزيد العلوي الشاعر ، فلس في
تصويرها سبيل (1) .

وفي نصوص « البيان والتبيين » ما يشير إلى اختلاف الناس في ترتيب
« مشعة » وتبينهم في اختيارهم أقلها شناعة وأقربها إلى انطق فذهب بعض
إلى أنها ما يقع في « السبي » عندما تنقلب « ثاء » . وذهب الجمهور لأعطى
إلى أنها التي عني « الراء » عندما تصير « غينا » (2) وقد ذكروا الحديث في هذا
صدق على ما يحصل منها على « الراء » . ربما لأنها أكثر نقشا ولأن محب
سببها لها توسع . ورتبوا مبادئها مبتدئين « أحقرها وأوضحها لدي مروءة » (3)
وهي التي تبدأ « باء » فليها التي تبدأ « ظاء » ثم التي تبدأ « دالا » وأما « ثاء »
فبها وأوجدها في ذوي الشرف وكبار الناس وبلغائهم وعلماهم (4) فهي
التي تبدأ « غيا » . والسبب في ذلك سهولة تقويمها بالجهد والمثابرة وأصحابها
يدأرون أن يقولوا الحرف على الصحة قالوه (5)

وذكر الجاحظ بالإضافة إلى هذا العيب اليأس في القول عيوباً أخرى
تمنع من جريان نكلام على اللسان وتقف حاجزاً دون استرساله إذ لا تحبس
لسان في مخرج حرف بعينه . أو لتقل يعثر به في أدائه عامة الحروف . ذكر
من أسوع لأول « التمتمة » و« التأمأة » وهي « تمتع » في حرفي « ثاء »
و« الفاء » (6) وذكر من النوع الثاني « الحكلة » و« العقلة » و« الخمسة » (7)
وهي آفات يصعب ضبط حدودها والتمييز بينها (8) لتقارب معانيها واضطراب

- | | |
|-----|--|
| (1) | البيان والتبيين ، 36/1 |
| (2) | فلس المصدر ، 232/2 . |
| (3) | 36/1 . |
| (4) | 37/1 . |
| (5) | 36/1 - 37 . |
| (6) | 37/1 . |
| (7) | 39/1 - 40 . |
| (8) | مثل ذلك أنه يعرف « الحكلة » بأنها التقصير في آلة انطق وعبر ثاء المعد حي لا يعرف معناه إلا « بالاسم » بيان ، 40/1 . ويسمى في معنى الصيغة دخول بعض حروف المعجم في حروف الحرف « لكنة » في حين يسمونه في آخره « في آخره » الأخيرة مصطلح « حكمة » |

مصححة لسانة عليها إلا أنه يخبرنا أن الحيسة مثلاً . ثقل في الكلام لا يسع حينئذ السأفة والتمتمة ولذلك نفهم أنها أهون أثراً في اليأس

كما ذكر عينا آخر لا يتعلق باستبدال الحروف ولا التغير في صو بها وربما نعدم إعطاء الكلمات حفظها من اللفظ فبدخل بعض الكلام في مع وقد سمى ذلك « التصف » (1) .

أما الانحرافات الناجمة عن تأثير اللغات الأجنبية فقد أفصحت معيها بالبحر إلى موقف من ازدواجيه اللغة مشهور قررر يقتضيه أن نقدر اعتبر أثر - لا محالة - على نظام كل واحدة منهما

« ونعذب إذا اتقنا في لسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما مصيبي من صاحبها » (2) .

وعن هذا المبدأ تأسست في اللسانيات الحديثة ، الدراسات مهمة بتفصيل لغات وما ينجر عنها من « تداخل » سواء على صعيد النظام الصوتي أو سلم بوطيقي (3) .

على أن مؤلف اقتصر على إبراز المظاهر الصوتية بالدرجة الأولى وقسم عني بتأثير ذلك في النظام الحرفي إلا ما اتصل منها بحركة الإعراب ، وهذا هو تأثير شوي إذا ما قورر بما قد يطرأ على هيكل الجملة معه .

وهذه الانحرافات نجدها في المصطلح الحاشطي كلمته « نكسة » و« ارجانة » وقد قضينا بين المستعربين لا سيما « الروم » و« النصارى » . ومن يشأ من العرب مع العجم ، ويسو أن الكلمة الثانية أشمل دلالة من الكلمة الأولى فهو يطلقها على كل مظاهر الفساد في الكلام (4) في حين يقتصر مفهوم

(1) البديع والخبير ، 38/1

(2) « » ، 363/1 ، وانظر الحيوان ، 76/1

(3) La linguistique, guide alphabétique publié sous la direction de سر André Martinet, éd. Denoël, Paris, 1969, pp. 305-310.

(4) البديع والخبير ، 162/1 .

« لكفة » على إدخال المتكلم « بعض حروف العجم في حروف العرب وحذف
 منه بعده » لأوفى إلى المخرج الأول (1) وقد ينفع معناها فسد على
 صطرب في بعض المقولات المحوية كتذكير المؤث وثابت مسكر (2)

ولغير سبب واضح قسم صاحب « البيان والتبيين » دراسته لمظاهر اسكنة
 حسب مرتبة المتكلمين الاجتماعية والعلمية إلى قسمين : « لكفة السوء » و« خطبة »
 و« شعر » و« رؤساء » و« لكفة العامة » (3) . ويمكن أن نجمع مظاهر لتعبير
 عن سقام انصوني على النحو الآتي مراعين ترتيب ورودها :

س — ش	(السُلطان — الشُلطان)
ط — ت	(السُلطان — السُلطان)

وقد جمعتنا على لسان ريباء الأعجم فكان ينطق السلطان — شستان .

ش — س	(ما شعرت — ما سمرت)
ح — هـ	(إنك لحان — إنك لهائن)
ق — كـ	(قلت له — قلت له)
ع — هـ	(أهدوا إلينا هرا — أهدوا إلينا أهدوا)
د — د	(الجرذان — الجرذان)
ج — ذ	(الجمال — النمل) (4) .

وشن عشرت هذه الآفات بثوائعها عينا يتخون محاسن الكلام وشين
 يحط من مرتبة الخطيب وعناية الجاحظ القائمة بها دليل على ذلك ، فهي
 غير مائعة بصاحبها من أن يحدد في طبقات البلغاء والخطباء وبيان ذلك

(1) البيان والتبيين ، 40/1

(2) المصدر السابق ، 73/1 .

(3) 73/1

(4) انظر في كل ما تقدم : المصدر السابق ، 71/1 - 74 وقد تحلت ذلك حبه من نظري
 والمود . تدل على أن هذه التعبيرات كانت في بعض الأحيان وظيفة حرج لمقصود فكلمة
 من معنى إلى معنى آخر .

أ. مؤلف « البيان والبيان » كثيرا ما استشهد في معرض حديثه عن هذه الآداب
بأعلام الصحابة كواصل بن عطاء وزيد الأعجم وغيرهم وأثبت
في مؤلفه المذكور عبارات وعناوين أبواب تدل على ما ذكرنا من ذلك مثلا

« فمن تلكس من كان خطيا أو شاعرا أو كاتبا داهيا » (1)

« لكسة اللعاء والخطباء والشعراء وائرؤساء » (2)

« ومن اللحاتين البلغاء » (3)

وعلى كل فليست أخطر ما يتعرض له الخطيب ، وهي أقل عيب
مما قد يعثر به من مواجهته الناس (4) .

— المواجهة :

رشحت عن إنجاز النص الخطابي أمام جماعة من الناس بعض
المقتضيات الخاصة التي تبرر أهمية السياق الخاف بالنص في عمية الكلام
وبعض هذه المقتضيات تتعلق بهأة الخطيب وصفاته النفسية ولخرجية
وبعضها تتعلق بالشارات التي يتوصل بها لأداء نصه على أنم صورة .

وأول الصفات التي يسوقها الجاحظ ويلج عليها بشكل واضح
« ربيعة الحاش » (5) وقدرة المتكلم على ملك رمام انفس حتى لا يتسرب
ليه لحوف والارتباك . فيضطرب ذهنه ويقلقل بيانه ويذهب عنه الهدوء
والتمهل وهما من أبرر ما يمدحون به الخطيب (6) .

(1) البيان والبيان ، 71/1

(2) « » ، 73/1

(3) « » ، 220/2 - 224

(4) « » ، 113/1

(5) « » ، 92/1

(6) « » ، 206/1

وفقدان ، ناطقة الحاشئ ينتج عنه عيان يعتران من أحظر ، يتعرض
 هما انتكس ، وقد حصيها صاحب « البيان والبيان » بمصنوعي « أنهر »
 و « حصر » ، المصطلحات تدلان على فقدان اتساق النفسي بيعة المحرر
 ، خوف فتصير على الحطيط عوارض مختلفة ، كالارتعاش والرعده
 ، عرف (1) والنظر في عيون الناس ومن اللحية (2) وقد تؤدي هذه إلى
 حنة قصوى ، يج فيها عليه جملة مضطر إلى التخلص من حرج توقف
 فيصيب بعضهم (3) ويصدر عن بعضهم الآخر كلام مضحك يحتملهم
 في عدد ، لوكي ، « المحققين » (4) .

و وصح أن التأكيد على أهمية هذا الجانب النفسي مرتبط عند الجاحظ
 بفكرة رئيسية قبلورت في ردّه على « الشعوبين » الذين استصعبوا قسرة
 تعرب على البيان والبلاغة حتى قالوا ، « ومن أحب أن يسمع في صاعة
 البلاغة ، ويعرف العريب ويتحضر في اللغة ، فليقرأ كتاب كاروب » (5) .
 ويؤدي هذه الفكرة أن الخطاة لا تكون إلا ارتجالا وابتداء ، وأن العرب
 لم يفسدوا غيرهم من الأمم إلا لأكل كل شيء لهم « إنما هو سببه ورتجل
 وكأنه إلهام » ، وليست هناك معاد ولا مكابدة ، ولا إجمالة فكر ولا
 ستعة » (6) .

ومن هنا انهم حرموا العرب وحرموا الجاحظ في المقام الأول ،
 على أن يشكر انتكس أول كلامه وأن يحفظ ما ساء من معقلته وألا يخرج
 عما بي عليه أول الكلام (7) .

- (1) البيان والبيان ، 133/1 .
- (2) « » ، 44/1 .
- (3) أنهر ما قد ضحك بر عتاد ما أرتد عنه ، البيان والبيان 290/2 .
- (4) مصدر أضاف ، 249/2 وما بعدها .
- (5) المصدر الثاني ، 14 ، وكار ، قد كلمة لازمية معناها « صناعة المذبح » .
- (6) مصدر الثاني ، 78/3 .
- (7) المصدر الثاني ، 44/1 ، 339 .

وبعد أن السعي إلى التماسك النحوي ورباطة الحاشي حلقا ، منذ لحظة
 جدهيه نوع من الترابط بين الكلام وبعض إشارات العنصر التي تصاحب
 لحظة ومن أهمها استخدام المخرصة أو العنصر ووضع العنصر ، ولأنه ينحدر
 الحديث عن جملة بعض الإشارات المتفرقة (1) فإن موضوع العنصر قد حصل
 من سبعة أبواب مطولة من : البيان والتبيين (2) والسبب في ذلك
 أنها ذات من مطاع ، الشعوية ، على خطاء العرب ، فهم لا يرون بسبب
 أو بين كلام سببا ولا به وبين القوس سببا (3) وقد تصدى بعض
 لرد على هذا المطعن ولم يدخر جهدا لبيان تهافت رأيهم لذلك أطبق في هذا
 موضوع ضانا وجمع في مؤلفه أصناف الحجج التي تدرج فصل العنصر وقد
 تحدث ذلك أحبار وأشعار كثيرة شغلته جمعها واستقصاؤها أحيانا عن
 موضوعه ، إلا أنه سرعان ما يعود إلى أصل الخلاف ويحدو
 الربط بين العنصر والنجاح في الخطبة ، فاعتراها دليلا على التأهب للخطبة
 وتنبؤ للإغضب والإطالة (4) ومعينا على المترسل في الكلام وإتمام الخطبة ،
 فقد روي عن عبد الملك بن مروان أنه قال « لو ألقيت الحيزرانة من
 يدي لذهب شطر كلامي » (5) بل إن من الخطباء المشاهير من كان لا ينطق
 إلا إذا أتوه بمخرصة مخصصة تعود بها :

« وأراد معاوية سحبان والي على الكلام ، وكان قد قنضيه اقتضاب
 فلم ينطق حتى أتوه بمخرصة ، فطلها بيده فلم نعه حتى أتوه بمخرصة
 من يته » (6) .

كما أنها تستعمل مع الرأس واليد ، للإشارة وذلك تقوم كبر عرب
 « حطيت على تحقيق مراده من استعيني له (7) » .

- (1) انظر خاصة 92/3 من عصر السابق
 (2) 370/1 - 388 ، 45/3 - 48 ، 49 - 113 ، 113 - 124 ، 243 - 243
 (3) البيان والتبيين 4 ، 12/3
 (4) 117/3
 (5) 119/3
 (6) 120/3
 (7) البيان والتبيين 1 ، 106/1

وسكن رغم هذا الجهد في الاحتجاج ، وتقصي الأحبار ولاشعر
 م يستطع الناحظ إقاعنا بوجود رابط عتين بين صياغة القول وسبك
 دمعنا وانعكاس على الظن أنها ممارسة ثقافية احتجب . لطوب العهد ،
 سب برورها وعرض الدفاع عند المؤلف حاد به عن محاولة الوقوف
 على ذلك مع هينى بحثه في إطار ما حددته المظن ذاته . البحث عن السب
 بين الكلام والعصا .

* * *

أما لصفة الثالثة التي تقتضيها المواجهة فتخص "طلعة الخطيب وشكبه
 وقد أخرنها في الترتيب لأنها محل مناقشة وموضوع خلاف . فمتى استثنى
 لعبوب البرزة في جهاز النطق كهيئة الأسنان والشفاه (1) لا نكاد نطفر ،
 في الختبي من الأوصاف الجسمية ، بإجماع .

وسبب الخلاف ، كما يتبين من نصوص الجاحظ مزدوج : أولهم
 الاقتناع ، بالتجربة . بأن البراعة في الكلام والإبانة عن العرض ليست
 مرتبطة بجمال الشكل وبهاء الطلعة ، فكم من خطيب روي الهيئة قبيح
 شكك فإذا تكلم سي الناس صوبه وشدهم كلامه وغضوا الطرف لحسن
 نقول عن حسن القتائل . واهتمام «أبي عثمان» بمشال الأحنف بن قيس
 خير دليل على ما نقول :

«وروي الهيثم بن عدي عن أبي يعقوب النعمي ، عن عبد الملك بن
 صبر قال : قدم علينا الأحنف بن قيس الكوفة ، مع المنصب بن الزبير ،
 فما رأيت نخلة تدم في رجل إلا وقد رأيتها فيه : كان صمل الرأس أحن
 لأنف أغصاف الأذن . متراكب الأسنان ، أشدق ، هائل اللسان ، فاني»

(1) أهتم الملاحظ اهتماما كبيرا بتركيب الأسنان وصفة الشفاء . وهذا يعود إلى تأثيرها المباشر
 في إطلاق وطرقه لإخراج الكلام .
 سر : البيان والنجى : 55/1 - 61 .

وحدة . دحق العين . خفيف العارضين . أحف الرجلين . ونكهة كـ
دا تكتم حلى عن نفسه ... (1) .

وثانيهما ، وهو أعمق من الأول وأبعد عورا ، وجود موقفين متقابلين
في تعيين سرّ تأثير الكلام في المتكلم ووجه الطرافة في النص الأدبي لفص
كـ أو كتابة .

فأصحاب الموقف الأول يطالبون بين اكتمال الصفات لدى الحظي
و كتم النص وكأنهم بذلك يقرون بأنّ النص النخم الحسن لا يصدر
إلا عن متكلم بهي الطلعة جميل الوجه جليل القدر ذي حسب وشرف (2)

ما أصحاب الموقف الثاني . فقد تفردوا برأي طريف يربطون بموجه
تأثير النص في المستمع بالمقابلة التي تحصل بين صفاته وصفات قائله . فكلما
كانت المقابلة أتم كان التأثير أعمق . وموقفهم هذا يتأسس على نظرية جمالية
ذات حلقت متداخلة يرتبط لاحتمالها بساقتها ارتباط النتيجة بالسبب ، وهي
عن غيبة من لأهمية بالنسبة إلى مبحثنا لأنّ خاتمة المطاف في هذه لسلسلة
هو « لبديع » والبديع سواء فهماء بمعنى « الجديد » أو بمعنى « الصورة »
هو أخص خصائص الأدب . كما أن هذا المذهب في تقييم تفاعل مستمع
مع نص يذكرنا بترعة في البحث معاصرة تفسّر الأسلوب . وهو قوم
الأدب ، تفسيراً يشبه من وجوه هذا التعبير فقالوا إن أساس الأسلوب
« خيبة التوقع » (3) ويفصلون بذلك برور ما لم يكن متوقفاً في السابق بحيث
يكون ذلك بروز بمثابة المبه الذي يجلب اهتمام السامع دفعة واحدة
ويشدد انتباهه إلى المقال شداً (4) .

(1) المصدر السابق ، 31/1 .

(2) الياء والتبيين ، 89/1 .

(3) defeated expectancy وقد ترجم إلى الفرنسية « attente déçue »

(4) انظر في هذا الحال .

Michael Riffaterre - *Essai de stylistique structurale*, éd. Flammarion,
Paris, 1971, p. 57.

ولا شك أن أوجه انتشاده لا تتجاوز الإقرار بالتأثير نتيجة معرفة
حاصلة في ذهن السامع بين ما كان وما كان يجب أن يكون
وفد كان سهل بن هارون زعيم هذا المذهب ومقيم أسسه عممية
ونظرية .

« قال سهل بن هارون : لو أن رحلي خطبا أو تحدثا . أو احتج
أو وصفا وكان أحدهما جميلا جليلا بهيا ولباسا فيلا ، وذا حسب ، شريفا ،
وكان لآخر قميئا ، وباد الهيئة ، دعيما ، وتعامل الذكر مجهولا ، ثم كان
كلامهم في مقدار واحد من البلاغة ، وفي وزن واحد من انصواب ، لتصنع
عليهم الجمع وعامتهم تقضي للتفيل الدميم على السيل الجسيم . ولقد هيئت
علي دي لهيئة ، ولشعلهم التعجب منه عن مساواة صاحبه به ، وبصير التعجب
منه سيد تعجب به (....) لأن القوم كانت له أحقر ومن يباهه أيا (....)
فإد هجموا منه على ما لم يكونوا يحسبونه ، وظهر منه خلاف ما قسروه
تصاعف حسن كلامه في صدورهم وكر في عيوبهم . لأن شيئا من غير
معدنه أغرب وكلما كان أبعد في الوهم ، كان أطرف وكلما كان أطرف
كان أعجب وكلما كان أعجب كان أبعد » (1) .



على هذا النحو يحتل المتكلم ، من نظرية الباحث اللاعبة ،
مزية مرموقة . فهو طرف أساسي في عملية الكلام وعنصر فعال في تحديد
خصائص النص إذ على عاتقه تقع كلفة إخراجها على صمت يستجيب بفتنات
لوظيفة والإبانة والمقام .

وقد حاولنا ، ونحن نحدد تلك المترقة ، التأليف بين معلومات قبو
متدثرة متفرقة وربطنا بين المعطيات الإنسانية العامة ومقتضيات لوظيفة ،

كما عندنا بين حديثه عن خصائص العربية وطرق استعمالها وضرورت
لإدراكه

وقد أدت بنا البحث عن أهمية المتكلم في تفكيره إلى حممه من نتائج
عن أهميتها احتلال نظرية المواضع والمقامات قطب الرّوح من بلاغته
وأهمية المواضع والمقامات تبدو نتيجة حتمية لكل موقف لغوي يأسس
على السجاعة والمنفعة .

ولعلّ أهم ما تولد عن هذه النظرية مبدأ نسبية الأحكام لأسوبية
ف تكون البلاغة بلاغات والفصاحة فصاحات وعلى ضوء هذا لا اعتبار بمهمّة
رابعة نجدهم عن نصيف الوجوه اللغوية وصطلها إذ هي مشدّية
متحوّلة نحوّ المقام

كما ولّد التمسك بالمواضع والمقامات مفهوم « الاختيار » لتتمكن
الملاءمة بين المقام والمقال . ويفتضي الاختيار من المتكلم أن يكون عارفاً
بوجوه نصريف الكلام وهو ما لا يتمّ إلاّ للبلغاء والأدباء ممّن جبو على
طبع أدبي قومه بالدّربة والمراد وركّوه بالرواية لعيون الأدب

٥ - الكلام

توطئة :

يحتلّ الحديث عن خصائص الكلام أكبر جانب من تأليف الجاحظ البلاغي ، فهو منطلق سعيه إلى ضبط فواميس البيان وغاياته . ونقطة تقاطع جلّ المقننات التي رأيناها في الفصل السابق .

ومن الطبيعي أن يحظى بهذه المكانة لأنّ البلاغة ، أيّ بلاغة . لا تعدو أن تكون « كلاما على الكلام » (١) عنه تصدر وإليه ترجع ، وهو الذي يشرع وجودها ويحتويها نصورا كانت أو ممارسة .

ولناظر في المادة المتجمعة عن سعيه إلى تحسس مواضع النص البليغ يلاحظ ظاهرتين بارزتين :

(١) « Discrets sur le discours » انظر : Michel Charles *Rhétorique de la lecture*, éd. du Seuil, Paris, 1977, p. 119

وقد عتمد في الترجمة عبارة وردت عند أبي حيان التوحيدي ذكره في بعض حديثه عن مشقة العلوم القوية والبلاغة يقول : فأما الكلام على الكلام فإنه يسود من مع وبتبيين بعضه بعضه ، وخلقنا شيئا لنحو وما أشبه النحو من المنطق وكذلك أنشأ شعر .
سمر البامدع والمؤانسة تحقيق أحمد أمين ، أحمد الزين ، منشورات دار مكتبة حلب .
سرونة (د ت) 131/2 .

أولاً هما حرص المؤلف على دراسة كل المظاهر المساهمة في تركيب
 النص ، مؤثره في خصائصه الفنية انطلاقاً من تألف خروجه في نصه ، أن
 يستقيم به مناسكة منصهرة في شكل هي مخصوص نظاماً كذا ، و شر
 ولست بر د ير وح في مقاييسه بين الخصائص النوعية للوحدات و سميرت
 خدمة لبنة الكلام

وإن أردنا تريب هذا النهج في الدراسة من المشاعل البلاعية و لأسوية
 الحديثة قد إن عباته بلاغة الكلام تحيط بالجدولين اللذين يطرأ بهدرة
 للعبية : « جدول الاحتيار » (1) الذي تقع في صلبه الإجراءات المتعلقة بالوحدات
 بغوية مفردة كاختيار اللفظ الملائم للمعنى المراد والمستجيب لمعية المرسومة
 من لكلام أو استغلال العلاقات الاستبدالية القائمة بين أحراء دت « جدول
 إذا رما إخراج الكلام مخرج المحار واعتماداً الصورة طريقة في التعبير .

و « جدول التوزيع » (2) وعلى أساسه تضبط أسس انتظام لكلام طبق
 « علاقة التبادور » (3) ليكون النص متميزاً بصفة هيّة مستحصية من
 عملية التعليق ذاتها ، لا من خصائص الإجراءات فقط ، وعن هذا النحو
 يكون صاحب « البيان والتبيين » قد جمع في مقاييسه البلاعية بين « الوعي
 الجدولي بالمقال » و « الوعي السياقي » (4) .

وثانيهما أن محاصرته لتلك الخصائص تمت بطريقتين عن الأقل :
 طريقة الاستخلاص الطريّ المجرد لمجمل المقاييس التي تبوئها الكلام مرتبة
 البلاعة وتمصاحة وبتمثل ذلك في التعريفات والحدود المرئعة منهاهم
 الأساسية ، في قصتنا ، لا سيما مفهوم البلاغة .

Axe paradigmatique (1)

Axe syntagmatique (2)

Relation de contiguïté (3)

Conscience paradigmatique et conscience syntagmatique (du discours) 4,

١. طريقة الثابتة فقوامها ملاحظات كثيرة متفرقة لم تبرز مصنة حدة
في نيت حدود إما لأنها مشاعل فرعية - أولاً بها لم تلغ من اصبح و سبور
د حة تؤهبها للنمرد تعريعب مصبوط .

و حترام لهذه الظاهرة في مؤلفاته رأينا أن نحيط برأيه في الكلام
من الصرفين معا محاولين - قدر الإمكان - الربط بينهما عند سرر
العلاقة بين لإجراء العملي والحدّ النظري وساهم في إجلال ر بة حدة
بلاغية عنده وناسقها .

١ - حد البلاغة :

إن المواطن التي ورد فيها مصطلح « البلاغة » مقترنا بما يوضحه ويكشف
عن بعض جوانب دلالة كثيرة (1) إلا أن نسبة ما يمكن اعتباره حدّ
لإيجاز صيغته أو لشمول محتواه ، لا تتجاوز ثمانية عشر موطناً تتورغ كالآتي :
- قسم أول ، وهو أهمها وأكثرها عدداً ورد فيه الحدّ حوباً عن
ستهم صريح ، هو ، في الغالب ، « ما البلاغة ؟ » (2) (اثنا عشرة مرة) .
- قسم ثان صدّر بعبارة يُفهم منها إرادة الإحاطة والتعريف وهي
« جماع البلاغة » (3) (ثلاث مرات) .

- قسم ثالث أقرب إلى الحكم القدي المردى منه إلى الحدّ كقولهم
« لا يكون الكلام يستحقّ اسم البلاغة حتى (4) أو يكفي من حدّ البلاغة
أن » (5) ... (ثلاث مرات)

(1) في هذه المواطن ورد في آيلين والبيان خاصة الجزء الأول . وقد أدرجنا في الكتاب
هذه - وهي في فهرس حصص سماه « فهرس آيلين والبلاغة » في الكتاب المذكور .

112 - 06 4

(2) مصدر البديع 88/1 ، 96 ، 97 ، 113 ، 114 ، 115 ، 116 ، 220 ، 94 4

(3) مصدر البديع 38/1 ، 203/2

(4) 115/1

87/1

وليس في هذه النصوص ، ما نسبته النجاشي إلى نفسه صراحة ، وصرعته في إبراءه تسرع في الانتباه فلقد عرض : أكثرها : تناعا لنوع أن يسي إليه فيها دستشاء موطنين سبق أن أشربا إليهما . كما أنه لم يربط بينها وبين مقديسه في الأسلوب ورأيه في البيان . كل هذا يحمل القارئ على الظن . لأول وهلة . بأنها لم تنلج في صلب تفكيره اللاعبي رغم صسته الوضحة بمشعنه بعم وأن إثبات المؤلف لها مرضه صغط التيارات الثقافية نسخية التي لا يعقل أن يتقى مفكر . بحججه . بمعزل عن تأثيره

وبعلا فأصول هذه التعريفات مختلفة . فعصها للعرب وبعضها الآخر لأجسس مغابرة كانت على صلة بالخضارة العربية الإسلامية كغرس وروم والهنود ولبنان . ويقدّر ما يدلّ هذا الجمع على تمازج الثقافات ، في ذلك العصر . وإطلاع العرب على حكمة غيرهم من الأمم وآدابها ، يكشف عن حدود استفادة صاحب « البيان والتبيين » من التراث لأجسبي ، في قضية الحال ، لمعاملته لهذا التراث معاملة النواهد يؤتى بها لتأكيد مستخلصات لبحث والتحليل لا لاستشراف آفاق جديدة في المعرفة ، لذلك جاءت نكت الحدود مفصولة عن السياق المؤسّر لها غير مرفوعة بما يدلّ على رغبته في استكناه كل أبعادها .

فلسنا و ثقب تمام الوثوق مثلا من أن « أبا عثمان » أدرك ، أو كان من همه أن يدرك ، كـ " أوجه الدلالة في التعريف اليوناني الذي أورده وهو « لبلاغة تصحيح لأقسام واختيار الكلام » (1) . فلي كان الجزء الثاني من « اختيار الكلام » وهو متعلق بقسم من أقسام الخطابة اليونانية القديمة يظنّون عليه عبارة « Elocutio » (2) ومعناها خصائص التعبير اللعوي في النص .

(1) البيان والتبيين ، 88/1

(2) انظر في أقسام البلاغة اليونانية :

Kabédi Varga *Rhétorique et littérature, études de structures classiques*, d.d'er, Paris, 1970, p. 32.

د حلا في صلب مشاعل الجاحظ منسجما مع تصوراته الأساسية التي حددتها
 عند حديثه عن مقتضيات البلاغة في الفصل السابق . فإننا لا نجد في بصره
 ما يرمي على أنه أدرك أن الجزء الأول من التعريف مرتبط عندهم بقسم آخر
 من أقسام الخطبة يسمونه « Dispositio » وهو يعني ترتيب أحسن
 المقادير (1) وقواعده (2) وما يتوسطهما من السرد (3) والنقاش (4)

نعم ، إنه تحدث ، في بعض سياقات البيان والتبيين ، عن صحة القسمة
 معتبرا إياها من عناوين الخوذة إلا أنه ، وهذا من غرائب الأمور ، طبقه على
 الشعر لا على الخطبة وفيها بالمعنى الذي يبرئ في وقت لاحق في نقد الشعر
 لخص بباب المعاني على يدي قدامة بن جعفر (5) فلقد روى أن عمر بن
 الخطاب لما أنشده قول زهير : (الوافر)

وإنَّ الحَقَّ مَقْطَعُهُ ثَلَاثٌ بِمِيسِ أَوْ نَفَارِ أَوْ جِيْلَاءِ

أعاد البيت كالمعجب ومأثي التعجب كما فسره الجاحظ من عنده بالخقوق
 وتمصيله بينها ، وإقامته أقسامها وكذلك فعل عمر لما أنشده قول
 عبدة بن الطيب : (البيسط)

وامرء ساعٍ لشيءٍ ليسْ يُدْرِكُهُ والعيشُ شُحٌّ وإشفاقٌ وتأميلٌ

وافسر المؤلف صنيعه بأنه ، يُعجبهم من حسن ما قسم وما فصل ، (6) .

Exorde (1)

Péroraison (2)

Narration (3)

Discussion (4)

(5) عرّف به صحة التقسيم قائلا : وهي أن ينشئ الشاعر قصم أقساما مستويها . ولا
 يدرك قسما سهو وصرف ذلك مثلا قول الشاعر : [أطوط] .

فقال عزيز النجوم : لا ، وفريقهم نعم وهو بن قال ويحك ما ندي
 وعين عن جما البيت قائلا : فليس في أقسام الإجابة عن مطلوب إدراكه عبر
 هذه الأقسام . فقد الشعر ، ص 70 .

(6) البيان والتبيين ، 1/240 وما بعدها

كما ذكر جوده المطالع والمقاطع وحس التخلص كعيار لشعر (١) .
وسين على فصله وتقدم قائله إلا أنا نعتقد أن المقصود منه بعيد عما كان يقصد
من صحة التقسيم في الخطابة اليونانية .

بقي عيب أن تشير ، قبل الخوض في محتوى الحدود ، إلى أن الكثير منها
در في فترة متقدمة عن تأليف البيان والتبيين ؛ وقد كما أثبتنا بعضها في القسم
أول من هذا العمل (2) . ورجعنا إليها هنا ليس ، في تصورنا ، من قبيل
التكرار فهو يساعدنا على صسط خصائص هذه المرحلة ويبين مدى بصير
مادة التي كانت مثيرة لا يرتبطها تأليف موحد في تصور بلاغي متكامل تنبؤ
من تلك الحدود منزلة الشواهد والدعائم .

* * *

محتوى الحدود :

إن أول إشكال تطرحه هذه الحدود هو خروجها ، أحيانا ، عن حيز
النص ولعنقها في التعريف بمسائل تبدو بعيدة عن المشاغل البلاغية بحيث إن
تصورنا البلاغة بحثا في الوسائل اللغوية والفنية التي يعتمد عليها الدرس ، متكاملا
كان أو كذا ، لصوع نصه صياغة تحلب الانتباه لذاتها ولذاتها وتعد به
عن مألوف الاستعمال لغة أحداث أثر في المستقبل لا ينسى تحفيقه بتوطيف
الطاهرة اللغوية توظيفا عاديا .

بعضها يقتصر في التعريف على تحقق وطبيعة « المهم والإفهام » ولا يشير
سنة ، إلى خصائص النص وإنما يلجأ إلى أن يتوهم بين طرفي الخطب تسبب
يسمح بتحقيق التواصل بينهما وذلك كأن يكون المتكلم فادرا على الإطلاع
والسمع مهيئاً إلى تمثل ما يقال له (3) .

(١) انظر السابق ، 112/1 .

(2) انظر : ص 113 - 110 .

(3) البيان والتبيين : 87/1 .

وهو - فصلة هذا التعريف عن سياق « البيان والتحصيل » وعكس منظور
 مكتسب لابد يحويه لحرماننا بأد فقط « البلاغة » مستعمل في معنى هو في بعض
 كمن أعاد عن معنى الاصطلاح في النص .

وعصم الآخر يربط بلاغة النص أو الكلام بسلامة منطق متكلمه .
 عبوت (١) وواضح أن التلطف عارض لا تأثير له في جوهر النص بل لا صلة
 به أصلاً ، لا يعقل أن تبدل خصائصه باختلاف طريقة إلقائه ، ومن النص
 قد يقع على لسان ألع أنكن دقيق الصوت رفيقه ، وقد يصادف من سبيها
 وصوتاً جهيراً .

ثم إن منها - الحدود - ما يتحار القارئ في تأويله إذ لا يتيسر
 علاقة بين محتوى التعريف والشيء المعروف ، من ذلك مثلاً قولهم « حجاج بلاغة
 بصر بالحجة والمعرفة بمواضع القرصة » (2) بغاية هذا الحد تعميم « هيبت »
 محددة والمناظرة وسبيل الظهور على الحصر وإقناعه بالرأي لا تعميم فبسرعة
 مكتبة ونهج البلاغة . ويدخل في هذا الباب « تصحيح الأقسام » الذي سبق
 حديث عنه وكذلك ربط المقام بالنقل فهو أقرب إلى أساليب المناظرة منه إلى
 لمن وأدب .

فلماذا أتى شيء يعزى هذا الاهتمام ؟

إن إخراج هذه القضايا في صلب تعريف البلاغة يرجع . في رأي ، إلى
 سمة بارزة من سمات تفكيره في الموضوع كنا أقمنا إليها في المصطلح سائفة
 وهي صدقته في تأصيل بلاغته من شكل لغوي مخصوص كان . إلى جانب
 شعر من أورد الأشكال الفنية في التراث العربي الإسلامي في عهده تعني
 بذلك المحطاة

، من كان نصيح هذا النبي وتلويح أصوره بمعقول مماومه قديمة نصرت
 حبه . هذا في انعصر النجاشي غامض شخص : أنا عثمان : على اعتماده في بحسب
 حصائص النبي . النبي فإن لمناطه نشأه ونظورا لأعراض عته ثديه سدسمة كان ،
 في ثب . هذا الخاسم في لغت نظره إليه لأنه هو نفسه . يتحرك من مضمون
 نقاش

ويلاحظ معترلي . والاعتراف عقيمة : متحذية : تأسيس على مبادئ
 يسعى أصحابها . في حضم التصراعات المذهبية القائمة آنذاك . في شرها
 والإقع بصحتها أو الذود عنها . فوجدوا في الخطاة بعيتهم ووسيتهم بني لا
 تصهي بحكم كونها وطفت مد نشأتها لتأدية أعراض شبيهة بأعراضهم .
 وهو من جهة أخرى . ملتزم بحظ سياسي وثقافي أساسه يدفع عن
 تهوق العرق العربي وموروثه الحضاري من طعنات القنات المستعربة المتوالية
 بني كانت لا تشورع من الشكك في أعر مميزات العرب عن عرب :
 قدرتهم السياسية التي بني عليها إعجاز قرآنهم (1) .

هذا الالتزام « العقائدي السياسي » حدا بصاحب « البيان والنبيل » ،
 لاهتمام بالنص الخطابى من إلى المضاعفة من مدلوله ومدلول سلاعة وأساس
 هذه المضاطفة كما سبق أن ذكرناه رغبة الحسن بالمضاعة والشفعة . ففرض
 بخصاية المضاعة وسمي المضاعة الحسن ومن ثم انطلق المفهوم

وهتى نصرنا إلى المسألة من هذه الزاوية فهما لماذا نصمت حدود مسائل
 نسو شجسة عن النص واستطعنا أثره بين هذا الأصل وحاسب من مقديمه
 لأصولية . بل لعلنا وقفنا على السبب العميق الذي سببه إلى شعب بحمية
 بمعويه وجعله يؤىء انتكلم المنزلة التي رأينا .

(1) انظر الدفعية واحدة في البيان والنبيل انظر مثلا 5,2 و 6,3 و 6,4 و 6,5
 في علاوة العرب : دشمونة : أحمد ك . ركي الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن
 الثاني الهجري : مشورات دار المعرفة : القاهرة 1971 ص 76 وما بعدها

و حصته من قولني تقوم فيه خصائص النص ، لا محالة تدور هذه الحركات
 وحده لا تتوقف عليها وحدها ، ولهذا كان لابد من التحصين في تعريف من
 مفومات النص وقضايا أخرى تساهم في إنتاج الخطاب معاصرة فعده

و تتركز هذه التعريفات في سياق مجهوده البلاغي الذي يصحح به
 محمداً بنحوه عن خمسة أقسام رئيسية هي على الأقسام التي عرفت في
 محاضرة ابودية ، وإن كنا لا نصادف لديه وعياً نظرياً بها ، حيث أنه لم يشر
 إليه في فكره التقسيم به أن يخص كل قسم بمصطلح

و ليس يتقرب إلى وجهة اليونان في التخصيص ووجهة المؤلف ديلا قطعاً
 عن لأحد وبتأثير ، فليس عربياً أن يؤذي الاعتماد على أشكوك أدبية مثقوبة
 إلى نفس النتائج

وهذه الأقسام في المصطلح الغربي الشائع هي :

- (أ) Inventio (1)
- (ب) Dispositio (2)
- (ج) Elocutio (3)
- (د) Pronuntiatio (4)
- (ذ) Memoria (5)

- (1) قسم يتناول الألفاظ من حيث اختيارها وتوزيعها في النص ، كما يحدث مع المؤلف
 على مستوى المعنى
- (2) عرف به في النصوص القديمة وديلا الإبداعية ، المقصود تسمية الكلام لأقسام كثيرة
 من حيث المعنى ، كالتقسيم من حيث المعنى والتأثير
- (3) قسم يتناول المعنى والمفاهيم ، المقصود تسمية الكلام لأقسام كثيرة
 من حيث المعنى ، كالتقسيم من حيث المعنى والتأثير
- (4) قسم يتناول المعنى في حينه ، معني معاني من حيث الشكل
- (5) قسم يتناول المعنى في حينه ، معني معاني من حيث الشكل

في هذا القسم من الأقسام وسمي به Varga ، كما في كتابه G Genette Figures III, éd du Seuil, Paris, 1977
 * La rhétorique restreinte * pp. 21-40
 D. D. erot et I. Toivonen Dictionnaire, pp. 99-101

ويتعدى التسميات الرابع والخامس ما شككهم . أما بقية الأقسام فتحدد مستمرات حصة فردا تتركها جانا : التعبير : (Elocutio) وسنحصل انقوس في شأنه لأنه أهم هذه الأقسام (1) . استطعنا أن نوفر من مؤلفات الجاحظ مددًا سحبت لمقتضيات كل قسم . فنقد ألححنا في الفصل الذي عقدناه بحديث عن منكسهم بما فيه الكفاية عن العناية الفائقة التي يوليها مؤلف بصوتية عند الخطيب مما حره إلى أن يظن في ذكر ما يصيب استق من آفات حتى إنه ليحيل للناظر أن المبحث تحول عن غرضه الأصلي وأصبح دراسة آنية (2) في صوتيات اللغة العربية .

كما رأينا من مقاييس مراعاة الخطيب - حسب الجاحظ - أن يكون دكور لأن حطته والذي هي عليه أمره ، (3) حتى لا يتجذع ويصيبه الخرق . ووضوح أن اشتراطهم القدرة على التركيب وقوة المحافظة دعت إليه ضرورات الارتفاع .

ويدخل في باب « الأغراض والمحاجج » (Inventio) تعريف لبلاغة بأنها « بصر بالحجة والمعرفة بمواضع العرصة » (4) وبأنها « إظهار ما غمض من الحق وتصوير الحق في صورة الباطل » (5) ولعلنا لا نخطيء إن اعتبرنا

(1) إن لتوثيق عمل أدبي متميز وحسنه انصت تقليد خطابي قديم نجد صدىه عند اليونان . بر إن أهم صافرة هي تطور مخاطبة في الثوب هو تقليد شكلها حتى كادت تنحصر في هذا القسم . وقد نادت دوائر هذا التقليد في وقت مبكر ثم جدد بعض الدراسات إلى انوار لأول بارود سيجم (T. Todorov - Théorie du symbole) وفي حركة تجديد البلاغي الذي تشهده الدراسات الأرونة اليوم . نحاول بعض التوضيح وانفسد بحث تلك الأقسام المتصلة من وجهة نظر لغوية معاصرة ، ويمكن أن يذكر في هذا الصدد أعمالان المرمومي أديكرو (O. Ducrot) مدونة حول أساسيات « صواب » (Argumentation) في ظاهرة القوية انظر على : « مشان مؤلف

Principes de sémantique linguistique, Paris, 1972

مع الملاحظة أنه ينشر هذا الموضوع : ثلاث دورات صعد منه في عدد : العهد الحالي للدراسات (I L I) الذي أعظم بشيخ : سنوات 75 ، 76 ، 6 ، 77 ، 78

(2) Synchronique

(3) البيان والتبيين 1/315

4 - 88/1

{ 220/1

تمسكه بمطابقة المقار للمقام طريقة في الإقناع أكثر منها مقبلة أسلوبية ومصهرا فنيا .

أما تقريب أحراء الكلام والتنسيق بينها (Dispositio) فهي أقل بروزا من لأقسام الأخرى . فإذا استتبنا التعريف اليوناني الذي أشير فيه بصريح العبارة إلى هذا الجانب صعب علينا أن نجد مادة يمكن إدراجها ضمنه بكون وثوق ، لا بد . من هذا الباب حديثه عن أقسام الشعر وبعض الأقسام العابرة كقوليه : « بيان يحتاج إلى تمييز وسياسة ، وإلى ترتيب وريضة » (1)

لعب بهذه الطريقة في تأويل الإشكالات الأولى قد يبتأ وجهها من وجوه نصهر هذه « المرويات » - عن العرب وغيرهم - في إطار تصور بلاغي العام ، ويرادها لم يكن مجرد جمع لمعلومات تزخر بها بيئته فاضطر إلى إثباتها ، وربما هي شواهد انتقاها خدمة لغرضه وتدعيما لوجه نظره في « البيان والتبيين » . وتزداد هذه البصلة وضوحا والعلاقة وثوقا بالمقارنة بين ما حوته هذه الحدود من مقاييس أسلوبية متعلقة بالنص والمقاييس التي يلتزمها المؤلف على امتداد المادة البلاغية في آثاره فهي تنضج أهم الأسس التي بنى عليها رأيه في نص لبيخ كخصائص اللفظ في ذاته (2) وأوجه علاقته بالمعنى (3) ومجاري تعريف المتكلم طاقات اللغة في التعبير من « إيجاز » و« وحي » و« إشارة » (4) . كما لم تحل هذه التعريفات من إشارات إلى خصائص نية الكلام بعامة وإن قنصرت على مظهر محدودة مثل « الفصل والوصل » أو « رفق الكلام ولفظه » (5) .

على أن صاحب « البيان والتبيين » لم يقتصر في التحليل على هذه الوجوه ، فقد تطرق إلى مسائل لم تشر إليها التعريفات أو لم توفها حقه من العناية

- (1) البيان والتبيين : 14/1 .
 (2) « 88/1 ، 114 ، 137 ، 24/4 .
 (3) « 113/1 ، 115 ، 136 ، 191 .
 (4) « 88/2 ، 86 ، 116 ، 119 .
 (5) « 88/1 ، 94 .

فيحي لا تذكر « الحجارة » - لفظه أو بوجهه - ضمن مسندك معبر بيضا
 ولاد « ع مانه كبيره في حدود ما يسمح به تقویر العلم إلى ذلك بوقف
 كما أنها تلح - بما فيه انكفائه - على أهمية السبب العامة - هذا ذكر بعض
 ونوصي في سياق عامص - مقبول عن القرمس - لا دكهي دئلا على ذلك
 وستنظر هذا المظهر مكانه دارره في سلم مقاييسه الأملوبه

ويمكن أن يرجع هذا التوسع إلى تنوع الروايد التي استقى منها معبر
 بلاغة النص ومصاحته ومحاب الحفظية - وقد كان لها في مقاييسه تأثير
 عديدي - بحده يعتمد على الشعر والنقد أن إيماناً منه بأن بلاغة العرب أصاف
 « من قصيد والأرجح - ومن الشور والأسجاع - ومن المزدوج وما لا
 يردوج » (1)

وستنجر عن اهتمامه بالشعر أحكام نقدية يسعى من خلالها إلى إبرر
 حسن والجودة من طريق الذوق المخالف بعيداً عن صرامة النقيين - فتره
 يعجب « لأنه » « عريب عجيب » أو « بديع مخترع » (2) ويعجب باللفظ
 « سهولة مخرجه » (3) وبعدد من « الصعة » (4) إلا أن محور الجودة في رأيه
 ما يقوم بين أحرائه من تلاحم يجعله حلوا ومستساعاً « عدبا » رفيق خواشم
 « كثير » (5) وفي معرض حديثه عن الشعر سيتناول قضية من قصيدته
 كبرى وهي موقعه من « المولدين » وفي هذا السياق سيطرد استعمال كلمة
 « بديع » (6) بمعنى سيتفقيه ابن المعتز فيما بعد .

(1) النيب واليبس ، 29/1 .

(2) الحيو - 311/٨

(3) مصر - 131/٩ 132

(4) النيب واليبس - 106/١ .

(5) الحيو - 131/٩ 132

(6) مصر - 37/1 ، 37/٢ ، 57/٢ ، 311 ، 90/4 - النيب واليبس - ٩٥

فما لم يرد فقد مكه من ندرة مسألة المناجاة وتأويل بعض الآيات
في بيده في صحتها أصول الاعتراض كما مكه من أن يكون صاحب أصول محو
طت إحصاءه منظمه .

وبالحيلة فتقاييس النحاطط رغم بعض النور عن اليونان والنهرس
وعبرهم تبدو لنا مستمدة من نصوص يمكن اعتبارها حصيلة الأنواع الأدبية
في ثقافة عربية إسلامية ومعتمد كل نشاط نقدي وبلاغي بعده ولا عريه
بعض بصادقاً . لديه . نوعاً في الحكم يورهم بالتألف أحبار . وعنه لا
« جيب » يمكن مدح النقد واللاغة المتأخرة .

ب - خصائص الكلام البليغ :

أما كانت مقاييس الرجل اللاعبة مستخلصة ، كما أشرنا في مضع
لنص . من تعقبه ظاهرة الكلام على مستوى اللفظ المفرد أو « نجدون » .
ونبيه العامة أو « التوريع » . رأينا أن ندرس كل مستوى على حدة محو
الإمام قسراً مستبعد ، بأنهم الجواب التي تعرض إليها عسانا ، بذلك ، نبور
جهد الرجل .

— اللفظ .

إن المبدأ العام والإطار النظري الشامل نشتات آتة في هذا هو
« لاحتبار » وقد ورد ذكره بصريح العبارة في مواضع كثيرة () و لا انطلاق
في هذا المبدأ يفترض ، بالضرورة ، إقراراً متبنيه ، عن وعي أو عن غير
وعى . إمكانية أداء نفس المعنى بطرق شتى أو بطريقتين على الأقل صريقة
سحر ح هي الكلام عموماً وبُطلق التكلم اللغة على محيطها (أو ساحتها) . و
لا عرص به في تحمليها أكثر مما تؤديه في أصل الوضع . وطريقة سحر ح

فيها الكلام على «غير مُخْرِجِ العادة» حسب عبارة ابن رشد - (1) ونصبي
هذه من «مخترها» درجة من النوعي بحضور اللفظ ذاتها وكتيقات صوغها و
تدبير من انشاء وحداتها وتعليق بعضها بعض من وظائف تراكم عن
لوحدة الأصالة

وعلى هذا النحو يكون الاختيار حذا قاصلا بين نوعين من الممارسة
للعبه : ممارسة اجتماعية وأخرى فردية .

ونذكر بعد في الدراسات البلاغية والأسلوبية اليوم انحدارها هاما يسر
الأسلوب ومن ثم الفن الأدبي - بأنه عدول عن الكلام العادي مؤسس
على مبدئ الاختيار (2) .

ويس من باب الصدقة أو الطفرة أن يتصدر هذا المبدأ مستمّ لمقاييس التي انبنى عليها رأي الجاحظ في اللفظ والأسلوب عامة . فذكرنا لنظرية التي تقوم عليها تصوراته البلاغية مؤهلة لإفراجه إفرازا ذاتيا . بل لقد لا نبالغ في قننا إن في مادته البلاغية . الخصائص النوعية ما جعلها مهيأة أكثر من سواه لمرور مثل هذا المقاييس . فالمصطلح المحطبي المبني على لجماعة يفضي إليه ، وكذلك الموقف النفسي الخالص .

فقد أشرنا إلى أن فكرة « المواضع » المبنية على مقتضيات الوظيفة هي التي ردت مقولة « الملازمة » وهذه تجزأ حتما إلى « الاحتمال » لأن تحقيقها عمل وعي ينطبع في المتكلم المعرفة بأقدار الكلام وأقدار المعاني

أما المشتقات النفسية الحادثة المتعلقة بخصائص الكلام الأدبي
وتمتصت صاعته فذكر منها اثنين بارزين . أولهما تصميم الصورة

(١) طار عبد الرحمن بوي - في الشعر لأرمينا جاليس - ط 2 - نشره : القاهرة ، بيروت ، ١٩٦٦

2 معار P Guiraud *Essais de stylistique*, p. (x). وثقافة لغة الفصحى موزني كتابه
La rhétorique générale في جامعة مي أنكرامنة تونس و. ع. في. 1. معهد محمد و عبد
M. ع. حول ابن جوامع لقوسه أثناء الفنون 1971، ص 207-221

لأدب و لأسس الأخلاقية المنطقية في تقييمه ، كالصدق و كتمان
 و بساطتها معايير مختلفة من : اللعبة ، اللعوبه ذاتها و قدرة الكاتب على
 مصروف فيها ، صوغها لصفات تحق الوظيفه الفنية وإن كان ذلك على
 حساب مقلقة البصر للواقع .

« قلب و غلبت الحباب : إنك لتكذب في الحديث قال و ما غيبك يد
 كذبي ربي فيه أحسن منه . فواقه ما ينعكس صدقه ولا يصرت كذبه و ما
 يدور الأمر إلا على لفظ جيد ومعنى حسن » .

ومن هذا المنطلق يتحول اهتمام المتكلم عن علاقة كلامه بما هو خارج
 عنه إلى الكلام ذاته وطريقة نسجه . ولا شك أن عملا من هذا القبيل ينصب
 وعيا بقدرات اللغة يفصح بصاحبه إلى اختيار أشدها ملائمة لمرصه .

ولذا بهما اقتناع صاحب « البيان والتبيين » أن الأثر الفني الجيد في حاجة
 إلى « شعته » و « المصادرة » . وموقعه المحترق من أشعار زهير و حصينة ،
 لأن لشعر كما يقول الأصمعي « استعبدتهم واستفرغ مجهودهم حتى
 أدخلهم في باب التكلف وأصحاب النصع ومن ينتمى فخر الكلام وفتصب
 الألفاظ » (1) . لا يعني رفضه للشعرة رفضا مطلقا وإنما كان منشدًا على المبالغة
 المعصية إلى التكلف وضمس الطبع . والشأن عده في التفتيد بالأساطير فلا
 يرسل متكلم الكلام « قضيا حشيا » (2) وليس له « أن يهذله صبا » و يفتحه
 و يصفيه ويروقه . حتى لا يبطى إلا بلب اللب . وبالمعنى الذي قد حذف
 لصوره ، وأمسك زوائده ، حتى عاد خالصا لا شوب فيه » (3) .

(1) البيان والتبيين ، 13/2

(2) انصدر اناق ، 204/1 .

(3) انجور ، 89/1 90 هذا الموقف العام من مسألة « النصع » انظر في أدبنا الحديث
 « مره من مران » قوله هي تمسكه بوظيفة انهم والإله و مران جمهور
 مهلك فاحسن وقد ذكر انانف هذا الأمر صراحة في هذا التذوق وذلك حمس مدى
 تأثيره في الأدب العام بمطبخه العطناني المتقاضي

وعلى أساس هذه المعادلة دافع عن المؤثرين ، وأعجب بشعرهم وروقت
عندهم وعلى أساسها أيضا فصل شاعر عن سرد على جمهورهم لأنه كان
« حسن سديع » (1) « مطبوعا على الشعر » (2) .

هذه - في رأينا - أهم الدعائم النظرية التي يقوم عليها مبدأ الاختيار
عند نحاسط فما هي الإجراءات العملية التي نجسسه ؟

أول تلك الإجراءات تحقيق « فصاحة » اللفظ (3) وبذلك يكتمل
لشعر الذي يتفرع إليه « البيان » ، « البلاغة » والخطابة والفصاحة

والفصاحة ، في تصور صاحب « البيان والتبيين » ، تنطلق من بنية « سقف
الصوتية » وانسجام الحروف المركبة له وتآلفها . وقد بلور هذا المقياس المهم
في مصطلح يبدو ثابتا واضح المعالم في أصول نظريته الأدبية هو « الاقتران »
وهو - في تفسيره - « التشابه والموافقة » (4) . ولئن كان هذا التفسير غير
دقيق في دلالته على أوجه الشبه والموافقة بين الحروف لخلوها من كل « تحيين
موضوعي » لكيفية تعامل الأصوات فإن في الأمثلة التي أوردناها ، للاستدلال
على كبر هذا الباب ، على ما يقرن ، دلالة على أن المقصود تجنب جمع
بين حروف المتشابهة من جهة المخارج أو الصفات ، فقد ذكر أن :

$\left. \begin{array}{l} \text{بتهديم ولا بتأخير} \end{array} \right\}$	النشاء	$\left. \begin{array}{l} \text{لا تقارن} \end{array} \right\}$	لجيم
	القاف		
	النشاء		
	الغيس		

(1) البيان والتبيين ، 36/4

(2) نفس المصدر ، 50/1

(3) لاحظنا في بعض الدراسات خلطا بين مفهوم اللفظ (Enunciation) و « مفهوم »
(Enoncé) ولذلك نجدها تدخل سلامة الحق بالألفاظ وتصحة معارجها هي مفهوم
انعصاة دون أن تفصل بين فصاحة النص مطلقا وفصاحة إنجازه انظر : ميشال هومي ،
كتاب المذكور ، ص 50 .

(4) البيان والتبيين ، 206/1

و ترتب لا تقارن { انظباء
الشئ
الصناد
الذآل
بتقديم ولا تأخير

ومنى نحقق « القراء » بين الوحدات الصغرى اكتست الكثرة النصونية
سابقة عن قانعها من الخصائص ما يجعل النطق بها سهلا . ووقعها مسماة
عدد ونهج المؤلف في صسط تلك الخصائص مردوح فهو ، ذرة ، يذكرها
في صيغة تقريبية مباشرة وطورا يشير إليها من طريق غير مباشر يستهي عن
ارتكاب عيوب انتشرت بين المشتغلين بشؤون البيان والتبيين وتقصع بطور
عن صريقة استوحاة . فإن هذه الأحكام تشتبك في أنها مصدعية ذوقية ،
يصعب على الباحث أن يتبين . بدقة ، بُعد ما تنصته ولا سيما أن بعضها
مستند من تصور المؤلف للقيم الأخلاقية - الاجتماعية . مثال ذلك اشتراطه
أن يكون الاسم - أو اللفظ - « كريما في نفسه » (1) وأن يكون لكاتب
« حر » سلف (2) . إن غاية ما يمكن استخلاصه من هذه الأحكام ضرورة
تفرد للنقطة بخصائص ذاتية وألا يكون جمالها رهين ارتباطها بعناصر أخرى
في سياق ، وكأن المؤلف يبتلى من نظرة فردية على الصعيد الاجتماعي .
دنية على الصعيد الفلسفي . لا يسمح بمقتضاها للفرد أن يلتجئ بالنسج العام
، لا بشروط مسبقة ، وهذا يعني من الناحية الجمالية البحث أن جمال الكثر
لا يحصى إلا بتجاوز الأجراء الجميلة أي أن السياق وحده عاخر عن توليده
، ثم يستند إلى خصائص الجدول . وهذه نظرة تحزبية تراكمية (3) .

يأتي في مقدمة تلك الأحكام الاهتمام بصفات « المنحرج » وقد تحسب
بشأنه أربعة اعشارات :

(1) الجاد والبيبي 8/2

(2) النجوى ، 79/1

(3) Causatit

(1)	سهل	مخرج
(2)	حس	
(3)	سري	
(4)	رقيق	

وليس في موصوفه ما يدل على أن تنوع الصّمة يوافق تنوع في معنى .
ولأرجح أنها مترادفات تتواتر وتكتنف ليؤكد بها على أهمية جرس
الأصوات وتدسق إيقاعها ورقّة موسيقاها ولتقريب صفة أدبية أخرى كثيرة
تتردد في موصوفه . وإن كان لا نلمس . بالضبط . المقصود بها . وهي
صفة خلابة ، التي تأتي مرادفة « للطلاوة » و « العذوبة » كما تفتن بصفتي
« لجزلة » و « الفحامة » فحمال اللفظ عدد لا يحصر في رقيقته ونبله
في فحيمته وجزالته أيضا إذ الشأن . عدد . تألف الحروف وماسبة لللفظ
للمعنى :

« وفي حاجة المطلق إلى الخلاوة والطلاوة كحاجته إلى الجزالة والمهامة » (5)
ورغم صعوبة تبين معنى هذه الصفات في ذاتها لأنها لا تتجاور في لغاب
« حسن » « بدمس » والانطباع غير المعلن . فإدنا نستطيع أن نكشف عن غايتها
لقصوى وهي غالبة مرتبطة بموقعه من قضية « الصنعة » تتمثل في أن يحرر
اللفظ « سيما من التشكف » بعيدا من الصنعة . برضا من التعقّد » (6) .

وفي « البيان والتبيين » نص^١ يحوصل فيه صاحبه صفات تنمط من جهة
تألف حروقه ونبله الصوتية العامة وقد سلك في ذلك مسلك إبراز الصفة
وتقيضها انصلافا من موارد عقدها بين خصائص أجزاء البيت من اشعر

(1) البيان والتبيين ، 67/1 ، 83 ، 136 ، 23/4

(2) البصير اتانق ، 58/1 ، 83 .

(3) « » ، 146/2 .

(4) رسالة التبريع والتدوير : نشر دلا ، ص 59 .

(5) البيان والتبيين 14/1

(6) مصدر البيان . 106/1 .

« حصائص ما سماه « حروف الكلام » (1) فهذه الأخيرة . شأنها شأن الأولى ، يمكن أن تكون :

متفقة
مُلتبِسة
ليسة للمعاطف
سهلة
رطبة
مواتية
مليسة
خبيثة على اللسان

وقد تكون :

مختلفة
متباينة
متنافرة
مستكرهة . (2)

ولم يفت المؤلف أن ينبه ، في هذا السياق ، إلى ظاهرة شغيت بين «لغويين واستفاد في كلّ العصور وهي ما يلاحظ من «ممارقات» بين تقريبي سطرية في الجودة وبين ما تؤدي إليه «زوات» الاستعماء . فتجدد سأس « يستحقون ألقابا غيرها أحقّ بذلك منها » (3) أو تقبل على «فن» لأنداء استعمالا وتترك ما هو أظهر وأكثر وكذلك شأنها مع شعر : يسير ليت عن ألسنها ولا يسير ما هو أجود منه ولم يرد ملاحظ على

(1) يرد على أنه يستعمل كلمة « احرف » في معنى حرف يخرج عن المعنى البسيط في درجته لأصوات والمقصود به ، فيما فهمنا ، توحيدات المقوية التي تستند ، في هذا السبيل ، اسم للكلام ، لغة ومعنى . وبذلك يكون معناه فرقا من معنى الاصطلاح العربي (terme)

(2) انبياء والتبيين ، 67/1

(3) المصدر السابق ، 20/1 .

محرّك الملاحظة ومسوّق الأمثال من ميدان اللغة وغيره من الميادين . وموقفه من ذلك موقف المتعجب الذي لم يجد مثقلاً يلح منه إلى التفسير والتعسف ومن معصيات « الفصاحة » الالتزام بالنموذج القرشي في مستوى المعجم وكيفية الأداء والنطق .

أما المعجم فنموذجه الأسمى « القرآن » . وعلى قدر محاراة الكلام لألفظه يكون خطئه من الفصاحة والبلاغة . والارتكاز على فكرة « المحبرة » يقتل من أهمية ارتباط الفصاحة بالمكن وقرنه المتكلم من مهبط وحي . يدلّ على ذلك هذه الرواية :

« قال أهل مكة لعبد بن المناذر الشاعر : ليست لكم معاشر أهل بصرة لغة فصيحة . إنما الفصاحة لأهل مكة . فقال ابن المناذر : أما ألفاظ فأحكي الألفاظ للقرآن وأكثرها موافقة . فصعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم . أنتم تسمون القصر برمة . وتجمعون البرمة على برام . ونحن نقول قصر ونجمعها على قصور . وقال الله عز وجل : « وجعان كالجواني وقدور راسيات » (1) . وأنتم تسمون اثبت إذا كان فوق البيت عليه . وتجمعون هذا الاسم على علاني . ونحن نسمي عرفة ونجمعها على غردات وغرف وقال به تبارك وتعالى « عرف من فوقها عرف منية » (2) . » (3) .

أ. الأداء فلان « قریش » عرفت ببلاغة امطلق (4) حتى غدت مضرب الأمثال في جهازة الصوت وحلاوة النغمة ، فكانوا إذا أرادوا إشارة إلى فصاحة خطيب قالوا : « أشبه قریش نغمة وجهارة (ملا) » (5)

(1) سبأ 21

(2) برم 26

(3) الين والتبين : 15/1 - 19 .

(4) المصدر المسمى : 8/1 .

(5) المصدر السابق : 344/1 .

زد على ذلك أن طريقتها في اللفظ خالية من الثواب التي علمت مصو
بعض لغات الأحرى ولذلك عند أهلها أفصح الناس .

« قول معاوية يوما : من أفصح الناس ؟ فقال قائل : قوم رثعوا عن
جحدته نرات . وقاموا عن عننة تمه ، وقياسروا عن كسكة بكر
يست لهم غمعة قصاعة ولا طبطمانية حمير . قال : من هم ؟ قال
قريش » (١) .

* * *

أما «ظهر الثاني المحسم» بدأ الاختيار فيتمثل في علاقة بية للفظ
صوتية بالمعنى الذي تدل عليه وهو ألباب الموسوم في كتب البلاغة : « علاقة
لفظ بالمعنى » .

ولها لموضوع أهمية خاصة في الدرس البلاغي سواء أخلد للفظ
بمعناه الصيق أو وسعته ليشمل البية الخارجية للكلام . لأن البلاغة تقوم
في أصل معناها . على إرادة المتكلم إيصال معنى من المعاني أو فكرة من
الأفكار إلى الشخص المقصود بالكلام حسب كفايات معينة تتحدد بوع
بعلاقة قائمة بين الدال ومدلوله لذلك يعين الخوص في هذه المسألة على
إدراك تصور المؤلف المعنى بالدرس لوع هذه العلاقة ومن ثم نستشرف
نصريت في الحق الفني والأسس الحقيقة التي تبني عليها تلك الطريقة

كما يعيننا هذا المبحث على زيادة تدقيق صفات الطرفين المكونين
للثانية ونرى . في حالة النجاحت . كيف أن دراسته بعلاقة للفظ
بمعنى يستفيد منها لإكمال مقتضيات « الفصاحة » مثلا . وهي أمور
أنته في غير هذا النطاق لبدت مبينة عارية وكأنما ألقى بها إلقاء .

كما يكتسي هذا المبحث ، بالإضافة إلى ما ذكره ، لدى صاحب
و شيبس « صيغة خاصة » فلقد كان من الغنائم البارزة في نظريته البلاغية تشهد
على ذلك كثره النصوص المتعلقة به وتشعبها تشعباً يوحى أحياناً بالتناقض
لذلك أودت لدراسات ، اليوم ، اهتماماً بالغاً قل أن حظي بمثله جانب آخر
من نظريته . ولا يستبعد أن تكون مكانة هذه الثنائية في تفكيره الأصل في
نولته مسند في البحث يتمثل في تقسيم مختلف المساهمات البلاغية وتصنيفها
طبقاً لموقف أصحابها من اللفظ والمعنى بل وجدنا من الدراسات ما يروم
التاريخ بأكوار البلاغة انطلاقاً من هذه القصبة الزوالية (1) .

ولعلنا من المفيد أن نشير إلى الحرج الذي لاحظناه على بعض هذه
الدراسات ، فأصحابها لا يكادون يقرّون رأياً حتى يطلع عليهم ، في مؤلّفات
أبي عثمان ، رأي آخر أو شاهد مستعص فيدقّق بعضهم رأي (2)
ويحاكمونه بعضهم الآخر بشاقصه (3)

ولئن كنّا نقفهم هذا التردد لصعوبة التوفيق بين مختلف النصوص
فإن نستغرب بعض الحجج التي اعتمدت لإبرار الميل إلى اللفظ والانتصار
له وصريقة طرح المشكل التي حجت مسالك الإحاطة بشعب هذه المسألة
فبقيت مناقشات في رأينا ، خارجية لم نستطع ربط المسألة بتصوّره العدم ،

(1) نظر مثلاً جيلة من مقالات كتبه دهم الخمسي بعنوان « البلاغة بين اللفظ والمعنى
من عصر النحاة إلى عصر ابن خلدون » ، مجلة المجمع العربي بدمشق المجلد 24 ، 1949
من 439 - 449 ، 583 - 592 ، والمجلد 25 ، 1950 ، من 103 - 115 ، 265 - 280 ،
449 - 459

(2) مثلاً ذلك رأي شوقي في كتابه : « البلاغة تطور وقاويح » ، فراء في المصنعة 52 يقول
« وأما شلّقه بوجود اللفظ وحده رجّة إلى أن قلنا هل المعنى » وفي نفس المصنعة
يدقّق رأيه فيقول « عن أنه لم يقط لمعني جلة فقد كان يرى رأي المعتدي من أنها من
الأصناف نحو « الروح من الجسد »

(3) مثلاً حماد عباس في كتابه : « قاريح المتمدن الأندلس عند العرب » ، إذ « معنى للفظ منه
في مصنفه إلى حد معنى » الشكل (ص 98) ويرى أنه من المعجزة في الشكل « وقد
حرر أ. بنسب الأساليب التي أنصبه إلى هذا الموقف ، كما لاحظ أن خبره « أو قلّه » ثم انه في
يعرف أن وصف عشرة ألفين معنى : « تمام جميع اقشراء قلبه » من « واحد منهم »
وبعد عرّف به بعض المحدثين . كما : « بعض القوم قبله من أسكنه الله ذلك معنى من
مخبر به فيه أنه صار دليلاً على سوء طبعه في الشعر »

من يستغرب إثارة المشكلة أصلاً في محث بلاغي . ولعلنا نرى من
 يستعزنا أن جن الدراسات في الموضوع أدركت أمراً هاماً مؤيداً أن
 في مصطلح «محاظ» هو «الشكل» أو «الأسلوب» بمعنى أوسع من وصف
 الألفاظ (1) .

و تست البلاغة علماً بكيفيات التعبير التي تحقق القول أكبر حظوظ
 انفعالية وسحرية والتأثير ولذلك تهتم بطرائق أداء المعنى أكثر من اهتمامها بالمعنى ؟
 ومن يمكن أن نعتبر دحمته على تناهر الألفاظ في الشعر والشعر
 وقوة بصيرة تلازم الألفاظ بعضها مع بعض في الكلام «و» محادثة
 لأصمعي في الحيل على شعراء الصنعة (2) ميلاً إلى التلمظ

لا شئت أن الجاحظ شديد التعلق بالصيغة والشكل في الخلق الفني
 ورأيه مشهور (3) الذي تطلق منه الدراسات لتحديد موقفه ليس بموقف
 بوحيد الدال صراحة على هذا التعلق فاستعصاء الشعر على الترجمة يرجع
 في نظره ، إلى بيته لأن الشعر «مضى حزن تنفتح فقلبه وبطل وزنه وذهب
 حسه ويسقط موضع التعجب» (4) .

كما ساهم بقسط وافر في تثبيت ثائية التلمظ والمعنى في البلاغة العربية
 وإقرار الفصل بين الشكل والمضمون بطريقة سيقفها البلاغيون بعده .
 فقد شبه المعاني بالجواري والألفاظ بالمعارض وأضاف لهذه القدرة على
 تحلية تلك في عبث الناس وإحراجها مخرجاً برز معه حسناتها وبهذا الاعتبار
 يكون لأدب قسماً على الرؤية التي نصيغها إن المعنى لا على المعنى .

(1) شوقي ص ١٠٠ الكتاب المذكور ، ص 52 .

(2) هذا من الحجج التي يرد عليها جميع الخصم ذاته في انصار الجاحظ للمعنى
 ص ١٠٠ مقالته المذكورة ، مجلد (24) ، ص 448 - 449

(3) هو البحر الذي يقول فيه : المعنى مطروحة في الخريف يعرفها المعنى ، ص ١٠٠
 و بحروتي ، « الحيوان » ، 131 - 132

(4) مصدر نسو 751

تدبركم حسن الألفاظ . وحلاوة محارح الكلام . وفي المعنى
يدكتسي لمعطا حسنا وأعاره البليغ مخرجاً سهلاً ومسحه المتكلم دلاً متعشّة
صارت في قلبك أحلى ولصدرك أملاً . وانعاني إذا كتبت الألفاظ كريمة
والست الأوصاف الرقيقة . تحوكت في العيون عن مقادير صورها . وأرابت
عن صفاتي أقدارها . بقدر ما زينت وحسب ما زخرفت . فقد صارت
لألفاظ في معاني المعارض . وصارت المعاني في معنى الحوار . وتعب
صعب وسننن الهوى قوي . ومدخل خدع الشيطان خفي » (1)

لأن موقفه من هذه المسألة أبعد عمراً وأكثر نشعاً إذ يمكن أن نقدر
هذه النصوص بنصوص أخرى تعلق صاحبها بالمعنى لا يقف عن تعشقه
بالمعنى . فبجده يؤخذ الأدباء والمخطباء الذين يركبون استكراه معاني
ويحرونها إلى لفظ عيوا رسماً قبل أن يهيئوا المعنى (2) . ويقر بأن
« اللفظ للمعنى بدن والمعنى لللفظ روح » (3) ويمكن أن نفهم من التمثيل
الوارد في هذه الفقرة أن المعنى عده مقدّم على اللفظ لأنه الروح والجوهر .
ولا يكاد يخلو سياق تحدث فيه عن خصائص اللفظ من إشارة إلى معنى
متمّ يستلزم على ترابطهما في نظريته البلاغية وتمسكه بهما جميعاً رغم
قد توهم به بعض النصوص التي ذكرناها .

وليس قصداً من هذه النتيجة « ثروة » مساحة الجاحص من « تهمة »
لنقد الشكل أو اللفظ وتقديسه على المعنى إذ الأمر . يجب يبدو .
طبعي في مبحث بلاغي يستند على الجنس الخطابي استناداً قوياً . وهو
منسجم مع أصول نظريته ومواقفه من بعض المسائل الكبرى يذكرها
رأيه في الإعرار . فسرى أنه صوّره بالنظم فخرج عن أي أسدده برهمن

(1) البيان والبيان ، 254/1

(2) انظر رسالته في تفصيل التلق على الخصمت ، مجموعة محمد ساني ، ص 159

(3) انظر رسالته في التجيد والهرل ، مجموعة كراوس والآخرين ، ص 85

من سـ . تصام القائل بالصرقة - ولا مناص لمن جعل صورة الكلام وهذه
ديلا على صدق أشود من الوقوف إلى جانب ثنية وانصاعة

ثم إن قوله والمعاني المطروحة متفق مع اشراطه الفصاحة في سلاعة
وهو موقوف لا يستعرب ممن يفهم السلاعة على هذا النمط ومطروق شرط
ضرورة إحصاء المعنى الذي نريد تبليغه لقوانين اللغة العربية كما نكلمهم
العرب الفصحاء .

وليس في الأمر طاهرياً . ما يدعو إلى التساؤل . فمعقول أن يجري
لخصيب شيع . ومن ثم المؤلف وراء فصاحه اللغة لأن القصد من البلاغة
تقديم المعنى في أحسن صورة حتى لا يكون الكلام ملحوناً معدولاً عن
جهته مصروفاً عن حقه (1) .

ولكن ألا يكون وراء هذا الموقف اللعوي البلاغي دافع آخر فرصته
الملايست لاجتماعية والسياسية في النصف الأول من القرن الثالث والشماء ت
المؤلف العقائدية وتصوراته الاجتماعية ؟

أليس من حقنا أن نرى في دفاعه عن الفصاحة موقفاً سياسياً يدعو إلى
تركيز اسمة - سلطة الكلمة - في يد الجس العربي والشماء التي نصهرت
في بوتقته نصهاراً تاماً بحذفها لغته وتمشكها مبروثة الحصارى والعكري ؟

ليس في مؤلفات المحافظ ما يحظر هذا التأويل وفي تأكيد على أن
المعدي يعرفها العربي والعجمي والقروي والبلوي إشارة صريحة إلى أن
الارتباط بالمعنى يقتضي الإقرار بتساوي حقوق الأحناس المتعاشة في دار
الإسلام على مختلف طبقاتها الاجتماعية في السلاعة . سيما تتفاوت تلك
حقوق بالتركيز على جانب الشكل والصياغة .

(1) نبيد والبيبي : 161/1 .

وإن لم تسمح معلوماتنا عن الجاحظ وعصره بربط موقفه البلاغي
 موقف سياسي مضبوط لأن تقاليدنا في دراسة الأدب تُحرص ، في العادة ،
 عن صبط المطلقات اسمية التي يتحرك منها الأدباء . وقد يكون سبب
 ذلك لاقتناع بقطيعة الأدب والسياسة . فإن الأكد أن مختلف آثاره في
 علاقة اللغز بالمعنى متينة الصلة بأصول تفكيره العامة النابعة عن اندسه
 معاشي ، وُيته الاجتماعية .

فقد برز المعاني في طبقات إد الناس أنفسهم في طبقات . وقد أضحى
 . هذا لتصنيف السلمسي مفهوم « الملامة » الذي أفرز بدوره ، في تفكيره
 أرواح متقدمة نحا في التعبير عنها معنى كمياً تارة وتقييماً أخلاق تارة أخرى .
 جعلها كسها في حيز مصطلح نحتة تحتها يعكس فكرة المسكنة وسرته وهو
 مصطلح « الأقدار » الذي يقوم من قات الأرواح . مقام الأصل .

فانصافاً من قوله : « وإنما الألفاظ على أقدار المعاني » (1) نسج هذه
 لأزواج .

قليلها	لقليلها
كثيرها	لكثيرها (2)
سخيفها	لسخيفها
شريفها	لشريفها (3)
الجزل	للجزل
الخصيف	للخصيف (4)

والمتتبع للسياقات التي برزت فيها هذه التباينات يلاحظ
 أن قصد المؤلف الأماسي من إيرادها إنما هو الإلتحاح على عبء المشاكسة
 ومطابقة لا صبط ما يدل عليه كل مصطلح منها في حد ذاته

(1) الحيوان ، 8/6 .
 (2) المصدر السابق ، يعني السخيف .
 (3) المصدر السابق ، 39/3 ، 8/6 . البيان والبيان ، 135/1 .
 (4) الحيوان ، 39/3 .

ولا عنصر مفهوم المضافة على احترام التماسق بين نوح الحدث ونوع
 لنعصر . من يتفرع إلى محاور عديدة قامت تعدد الأصول التي تناسر عنها
 وجهة نظره في قضية المعنى . فتمسكه بالموضحة الإلهامية (1) كدابة مصرى
 لكن مستويات اللغة نتج عنه من وجهة ميدانية عامة الإلتزام من أن تكون
 دلالة اسقط على المعنى دلالة صريحة :

وَأَحْسَنُ إِحْلَامٍ مَا كَانَ قَلِيلُهُ يَغْيِيكَ عَنْ كَثِيرِهِ . ومعناه في ظاهر
 ، مطه (2) لذلك وجب أن يكون الاسم « معرباً عن المعنوي » (3) « غيبٌ
 عن التأويل » (4) وهذه الطريقة في أداء المعنى لا تعني الابتذال والرغبة عن
 الأمر والتفويض فليس ما يسمع المتكلم - حسب الجاحظ - أن تكون ألباحه
 رشيقة عذبة وفحمة سهلة وأن تكون معانيه ظاهرة مكشوفة وقرينة معروفة
 من أن متكلمها هذا شأنه لتحقيق بانتزلة الأولى .

« (...) فكأن في ثلاث مسائل ، وإن أولى الثلاث أن يكون المفضل
 رشيقة عذبة وفحمة سهلاً ، ويكون معانيه ظاهرة مكشوفة ، وقرينة معروفة .
 ثم عند الحاجة إن كنت للحاجة قصدت . وإنما عند العامة إن كنت بحاجة
 أردت » (5) .

ولما قبلنا من وجهة ميدانية عامة لأن الاعتماد على الدقة التصريحية
 ليس أمر « مفرداً متوقفاً بترمه المتكلم في كل الأحوال » قلنا اقتضى السعي
 إلى تحقيق وظيفة التفهم والإفهام التصريح فإن مقتضيات إتمام ووضوح
 الاجتماعية من ناحية . وأصول الاعتقاد الاعتزالي من جهة أخرى ، استخرجت
 من أسس عثمان الإقرار بأهمية الطاقة الإيحائية في الظاهرة اللغوية وهي في

ر (1) Fonction con.

(2) بياب والقصير ، 83/1

(3) مصر ، 1/2

(4) 106/1

(5) 126, 1

مصطلحه الإشارة (1) والوحي (2) والتعريض (3) والاقتصاد (4) والكناية (٥) والإيجاز (6)

أما التسميات فتميزها وإدراك ما يلزمها رهيس تقدير المتكلم وفصته .
سلك بقى معطى نظراً عاماً قل أن ذكر الجاحظ عناصره مكونة كمد
عمل في هذا السياق :

«ومما مدحوا به الإيجاز والكلام الذي هو كالوحي وإشارة .
قوب أبي داؤاد بن حريز الإباضي : (الكامل)

يُرمَوْنَ بِحُصْبِ الطُّيُولِ وَتَارَةٍ وَحَيِّ الْمَلَاظِ حَيْفَةَ الرُّقْبَاءِ

فمدح كما ترى الإطنال في موضعها . وأخذف في موضعه « (7) . فهو
في هذا مثل كما ترى جعل « خوف الرقيب » سبب الإيجاز . أما في بقية
سياقات هيرد المقررات النظرية محرّدة عن كل تدقيق للمضمون مثل ذلك :

« (١٠٠) والإفصاح في موضع الإفصاح والكناية في موضع الكناية » (8)

« ورب قليل يغني عن الكثير (....) بل رب كلمة تغني عن حطبة (....)
بل رب كناية تربي على إفصاح » (9) .

« (....) فذكر (..) المحذوف في موضعه والموحر والكناية ولوحي
باللفظ ودلالة الإشارة » (10) .

- (1) البيهقي و التبيين : 44/1 ، 116 ، 155 - 156 ، الحيوان : 433/5 .
(2) مصدر التبيين : 44/1 ، 77 - 78 ، 116 ، 155 ، الحيوان : 77/1 - 78 .
(3) " " : 117/1 .
(4) " " : 255/1 .
(٥) " " : 44/1 ، 155 - 156 ، الحيوان : 39/3 ، الثمانيات : مجموعة هرون ،

307 1

- (6) البيهقي والتبيين : 97/1 ، الحيوان : 90/1 - 91 .
(7) مص التبيين : 155/1 ، وقد أوردنا مضمون المقام .
(8) الحيوان : 39/3 .
(9) البيهقي والتبيين : 7/2 .
(10) مصدر التبيين : 44/1 .

٤. موضوعات الاجتماعيه . وهي مظهر من مظاهر المقام . ففهمت دور كبير في تشييع اللغويين عامة والبلاغيين بوجه خاص إلى ظاهرة إيجاء في اللغة نضال من ناب : الكناية . وهي من أسبق الجوانب تنورا في تاريخ لئلاء العربية . فمعد الفترة الأولى فترة ما قبل الجاحظ حداد ، مصصها وتعريفها و لأسس الأخلاقية التي تؤصلها .

وه يجرح نجاحا عن هذا التهج عارتظت في تصوراه العام موضوعات أخلاقية اجتماعية إلا أنه وسع مدلولها إاد قرننها بالوحي والإشارة و إيجار - كما تشهد ستصوص التي أشتاها - وبذلك يكون استعلاها من وجهين ، وجه واحد به جهد أسلافه في إرساء هذا ألوجه اللغوي الذي سيصبح بعده مبحثا من مبحث البيان ضمن التقسيم الثلاثي المعروف :

« قال : ويقال لموضع العائط : الخلاء والمذهب : والمخرج ، والكثيف و خش » والمرحاض والمرق .

وكن ذلك كناية واشتقاق . وهذا أيضا بدئت على شدة هربهم من لدانة والمسولة ، والفحش والقذع (١) .

ووجه ثان ، متولد عن الأول إلا أنه أعم منه وأهم من بوجهة العربية لعمدة ، تصبح بمقتصاد الكناية تقابل الإفصاح (٢) و شرح (٣) وتشير إلى قدرة اللغة على أداء المتصور الذهني الواحد بطرق شتى ومن ثم يفتح باب تأويل ويربط حل الأسباب بين القاعات الأدبية واللغوية ونضاعات بحثانية ، فالطاقة الإبحائية في الظاهرة اللغوية هي سب تأويل ومشرعه إاد ليس في المعروف لغة لا اختلاف في تأويل لها . وقد نبى الجاحظ احتجابه لغزارة الدلالات في اللغة وشرعية اختلاف مذهب في التأويل مع بعائها على أصول الشرع على تصور مسمى

(١) الجوان : ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

(٢) حصر كتابي ، ٣٩٦ .

(٣) رسائل الجاحظ : مجموعة هارون ، ٣٠٧ ، ١ .

كلامه في قوله على نساء المؤمنين . يطبق فيه بين أصول النعم وأسس
سببها في الدنيا . ومطلق هذا التصور الانفساح بأن الله
في هذه الأعمال كلام أنبيائه وورثته رسله في عني عن التفسير . وهذا تصور
معدة قصوى يكون فيها الدين عني المذنبون إلى درجة سحرده فيها نعمة عن كل
جهد فكري وعاطفي عن شأنه أن يولد الاختلاف

لا أن الله . شأنها في ذلك شأن أمور الدين والدنيا . لم تدفع للناس عن
الكفاية . وهذا من حكمة الله في خلقه لأن الكفاية تعني مقصود سبوت وخدمة
ودهب . وهذه والمساومة وهي أسس التفاصيل بين العباد في دينهم ودينهم
ومن ثم اعتبر قدره الله على الإيحاء وإعراها عن ادعي الكثير
بالألفاظ العقلية مظهر من مظاهر استجابتها مع ما رتب الله عليه يكون .

« (...) والاختلاف الآخر كمحو اختلاف الآية من كتابها ، وتأويل
الحديث عن نبي ، مع إجماعنا على أصل التزويل ، واتفقنا على عين الحجر .
فإن كان الذي أوحشك هذا حتى أنكرت من أجله هذا الكتاب . فقد ينبغي
أن يكون السقط لجميع التوراة والإصحاح متفقاً على تأويله ، كما يكون متفقاً
على تربيته ، ولا يكون بين جميع البصري واليهود اختلاف في شيء من
تأويلات . وبهي لك أن لا ترجع إلا إلى ردة الاختلاف في تأويل ألفاظها .

ولو شاء الله أن يترن كنهه ويجعل كلام أنبيائه وورثته رسله لا يحتاج
في تفسيره لصل . ولكنا لم فر شيئاً من الدين والدنيا دفع إليها على الكفاية ،
ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمنحة وذهبت المسابقة والمساومة . وم
يكن تفصيل ، وليس عنى هذا بنى الله الدنيا » (1) .

كما أن مراعاته للمقامات ولا سيما المقام الخطابية أدت به إلى مقياس
أحر دق به راحة تأدية اللفظ المعنى ، وقوامه تران بلوغ الدين إلى سماع

و يدور في القلب أو العقل صحنًا لقدرة السامع على متابعته المتكسمة ونحوه
كأن نصيبه دلالة ينحرم من أجلها جيل التواصل فتعطل وظيفة الكلام .

« لا يدور الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يساوي معناه لفظه ونقصه
معناه فلا يكون لفظه إلا سمعك أسبق من معناه إلى قلبك » (1)

« وكذا لفظه في وزن إشارته . ومعناه في صفة لفظه . ولم يكن لفظه
من سمعت بأسرع من معناه إلى قلبك » (2) .

و متكسّم مدعو . لتجسيم هذين المبدأين العاملين المتكاملين في احترام
حملة من مفاتيح العبائية جبراً الحديث عنها المؤلف إلى بلورة نصيب من
أساليب البلاغية كالإيجاز والإطناب وما يدور في فنيهما من مصفحات .
ومكنه من ضبط موقفه من المصاحبة بأكثر دقة وأماناً على فهم موقفه من
مسألة نصيبه .

وأول تلك المقاييس تحديد المبدأين المعجمي الذي ينبغي على المتكسّم
مراعته في تصريفه الكلام . ومن خصائصه أن يكون منزلة وسطى بين طرفين
منقذين مهورين هما الغريب الوحشي . من جهة . والساقط السوقي . من
جهة أخرى .

وقد عثر الجاحظ عن هذه الفكرة بصورة طريقة تعدو بموجبها هذه
منزلة الوسطى نقطة التقاء مسارين متعاكسين . وقد سمى لفظة لانتقاء تلك
« مقدر » وهو مفهوم نوعي لا كمّي يقترب معناه معاً لصدق عليه لیسوم
« حزن للمعوي » (Registre linguistique)

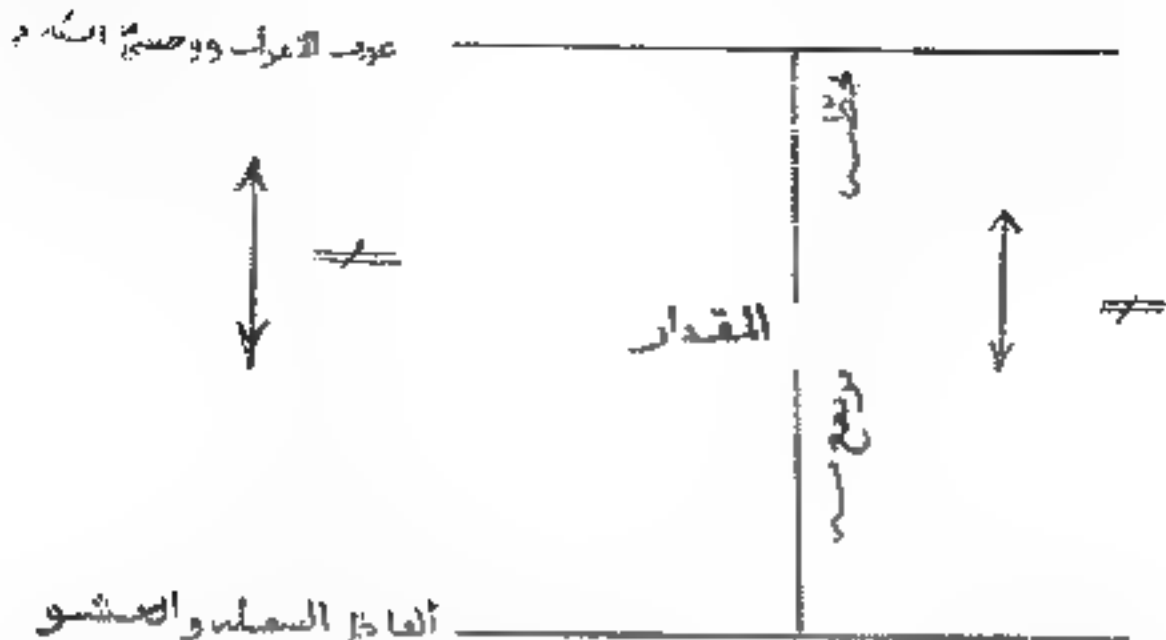
« ويحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن الفاظ استنفاة والحشو
ويحذفه من عرب الإعراب ووحشي الكلام » (3)

(1) أنبأه والبيبي ، 115/1

(2) مصدر البيبي ، 111/1 .

(3) الحيوان ، 90/1 ، البيان والبيبي ، 144/1 - 145 ، 255 .

ويمكن إبراز المقابلات الموجودة في هذا الإستشهاد على النحو الآتي



و نضالفا من هذا التصوّر للمعجم اللغوي يتسنى للباحث أن يفهم حمته بعيفة على لغريب وعلى من يشبهون بالبندو الجهاة في استخدام ألفاظ يستغنى معاه على السامع فلا يصل إلى إدراك دلالتها لأنها أجنبية عن عدته للغوية وعن برصيد المشترك الذي يصرفه الناس بينهم ، وقد استشهد بضاعة من شصوص حشيت بانغريب أردف كز" واحد منها بشرح معجمي" لكلماتها وختمها بعلان موقفه من المسألة في صياغة لا تخلو من الاستهزاء والاستفهام :

« فرب كانوا إنما رووا هذا الكلام لأنه يدل على فصاحة فقد بعده لله من صفة لللاعة والفصاحة . وإن كانوا إنما دونوه في الكتب ونذ كروه في المحاليس لأنه غريب . فأبيات من شعر العجّاج وشعر الطرماح وأشعار هديل . تأتي لهم مع حسن الرصف على أكثر من ذلك » (1) .

وهكذا ينضاف إلى مقاييس الفصاحة السابقة تحت المقعد لغريب لأنه لا يبدو أن يكون تقعرًا في الكلام (2) وعلما لا يمنع لأنه مقصور على صراحة

(1) البيان والتبيين ، 378/1 .

(2) 379/1 .

وحيث صرح أبو الأسود الدؤلي غلاماً حادثه فلم يفهم بعض كلامه
عقلاً

« سي كل كلمة لا يعرفها عمك فاسترها كما تسر ستور
حمرها » (1) .

وكما جعل المحاط من آفات النطق مورداً من موارد النادرة جعل من
استعماد غريب مدخلاً إلى الغمز والضحك والطنع على الحاجة خاصة بشعبيهم
به ، ومثال ذلك هذه النادرة التي يروونها عن علقمة التحوي :

« مر أبو علقمة التحوي ببعض طرق البصرة ، وهاجت به ميرة ،
فوثب عليه قومه منهم وأقبلوا يعصون إبهامه ويؤذنون في أذنه ، فاست منهم
فقال : « ما لكم تنكأ كنون علي كما تنكأ كنون على دي جنة ، اهرنقوا عني ،
قل : دعوه فإن شيطانهم يتكلم بالهدية » (2)

ورفض المؤلف للغريب بسبب التعقيد والانغلاق والتعمية يساعد الباحث
عن تجاوز تقصير ظاهري في نظريته البلاغية ، فقد رأيناه بشرط في اللفظ
أن يكون ضيقاً عن التأويل وهذا الموقف يافض موقف المعتزلة لعدم وموقفه
بخاص من بعض آيات القرآن التي لم يجدوا بداً من تأويلها لتسجم مع
أصولهم العامة ، واستفراء المواطن التي ذكر فيها التأويل معتزناً باللفظ نستنتج
أنه مستعمل في معنى الشرح وكشف المعنى للقطعة انحصاراً في ذهن مستمع
بين اللفظ وما يدل عليه ، بينما المقصود من التأويل القرآني كشف مجازات
خاصة من تعبير الكلمات بعضها ببعض فيكون التأويل بالمعنى الأوب متعقفاً
بلجوداً أو معجماً أما في الثاني فمتعلق بالسياق .

وعن نفسه بملذهب الوسط نشأ موقفه المتشدد على الصفة خاصة بد
أفصحت نصحتها إلى التكلف ، وحاجت دعوته إلى علم المبالغة في تصدير الكلام

(1) البيان والنيس - نفس الصفحة

2 379، 380

وتحريره حتى لا يعطى انكسار ، لبث القلب وباللفظ اندي قد حذف فصوله
وأسقط زوائده « (1) .

« يرجع ذلك إلى خوفه من الوقوع في الإغلاف والعوض فخصص
أن تحدّد بنسامين : إيهما مرارا وتكرارا « (2) فتحة الانكسار خاص في
ترتيب مشترك بحروجا عن المسوط من الكلام إلى المقصور وعلى هذا
الصور ترصد بصوص النجاحظ وتكثف لإجلاء تصوراته البلاغي النافع عن
تصور نقدي واجتماعي أوسع منه . فقد رأيناه في مقدمة كتاب « الحيوان »
يدفع عن الكتاب لأنه وسيلة تساعد على نشر الثقافة بين الناس وليس الطبيعي
أن يفرض ذلك بالمؤلف إلى اقتراح مقاييس لغوية وبلاغية تعكس وضع الطبقة
اجتماعية أو الطبقة التي يروم التوجه إليها ولا يستبعد أن يكون المستوى
للغوي الوسط بين عريب الإعراب ووحشي الكلام واللفظ لسفينة والسوقة
ملائما لبروز طبقة اجتماعية وسطى بدأت تتجسم فيها ملامح المجتمع العربي
في ذلك لصور أو تعبيرا عن رؤية المؤلف للسودج الطبقي الذي نعتمد عليه
لبناء مجتمع جديد .

ومهما كان حظّ هذا التأويل من الصحة فالثابت أن موقفه من الصنعة
وكثرة التنقيح مرتبط رأسا بحرصه على الوضوح والفهم لذلك لم يتورّع عن
« فضح » موارد العلماء الذين كانوا يعملون إلى الإغماض بعبث مادية
نفسية لا حسنة لها بالعلم والثقافة ، ومن أعمق النصوص دلالة على ذلك ما در
بينه وبين أبي الحسن الأخفش :

« وقت لأبي الحسن الأخفش : أنت أعلم الناس بالسحر فلم لا تحسن
كثرت معهومة كلها ، وما بالناس فهم بعضها ولا تفهم أكثرها ، وما بالك تقدم
بعض العربى وتوحر بعض المفهوم ؟ قال : أنا رجل لم أصح كتسي هذه لغة ،

(1) الجواد ، 90/1 .

(2) المصدر السابق ، 90/1 .

و سبب هي من كتب التدين . ولو وصفتها هذا الوضع الذي تدعوني إليه
فستحتاجهم إليّ فيها . وإنما كانت عايتي المنة . فأنا أضع بعضها
وضع مفهوم . لتدعوهم خلاوة ما فهموا إلى التماس فهم عالم يتهمز و...
قد كسبت في هذا التدبير (1) .

وفي مدد التشدد على الصفة والتحذير من المبالغة في التفتيح والتهذيب
به يدعو إلى تحري الدقة في استعمال الألفاظ وإحلالها الموقع اللائق به،
حتى تكون مشاكلها للمعنى مشكلة قائمة . وقد ظهر حرصه على هذه لدية
في مواطن عدة من البيان والتبيين ووجه خاص . فتراها يحصن عدة
صاحبات يجمع فيها ما أثر عن العرب في امتداحها هذه المخصصة كقولهم
« أصاب قرقطس » و « رمى قصاب العرة » و « أصاب قص النسيء وعينه » (2)
ويستشهد بمصحاء العرب من الحلفاء الراشدين الذين كانوا يقولون من نسبة
محاطيهم ويرشدونهم إلى سواء القول (3) .

ثم العناية التي ليس بعدها غاية في دقة استعمال الألفاظ فهو القرآن . وقد
أشر لجاحظ إلى ذلك في معرض حديثه عن التطورات الدلالية التي نظر على
لكمة بحكم ترددها على ألسنة الناس فيحو المنكلم - ولا سيما إذ كان من
صفة عامة - في استعمالها في غير معناها الدقيق كما تشهد به نماذج فصحة
ولبلاغة . وكأننا بالمؤلف يتفطن إلى باب هام من أبواب التراخي النسيء
عن جنث الكمة عن سياقها الأصلي واستعمالها في سياق آخر أحسن عهد
فيصمحن ثم لذلك العارفي المعنوي بينهما وبين الكلمات القرينة من معاد .

« ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع
مفرد أو في موضع التقر المدقع والحر الظاهر » والناس لا يدركون استع

(1) الحيوان . 92/

(2) البيان والتبيين 147/1 148

(3) مصدر سائر - 261/1

ويدكره - محروغ في حاله اقتدره والسلامة . وكذلك ذكر المصدر . لأنت لا
تجد امرأً سقط به إلا في موضع الانتقام . والعامة وأكثر الخاصة لا يتصور
بين ذكر المظهر وبين ذكر الخفي ، (1)

وكي لا يد لرجل بهذا الاقتدار على استلال هروقي المعالي أن يستهيى من
رفص شر دهب أصلا وإن أقر بوجوده أمرا واقعا يؤكد الاستعصام ويؤنده
تطور اللغة (2) .

وسأ أنطري العام الذي يستقطب آراء الجاحظ في مطابقة لأفص
سماني ولتزم المتكلم الدقة في الجمع بينهما هو أن يأتي الإسم « لا « أصلا
ولا مفضولا » (3) ويكون الكلام « ما بين المقصر والعالي » (4) . وفي هذا سعي
إلى مترلة بين مترتين يكون الدال في أولهما عاجزا عن استيعاب لخص
المعنوي المقصود فيقع المتكلم في العي إذ من معانيه أنه « كل شيء قصر عن
المقدر » (5) ويكون في ثانيهما فائضا عليه متجاوزا لحدوده فيفتح باب يخص
ويتنقص فنون الجدوى في استعمال اللغة ويغلو الزائد على الحاجة خرق إذ
يخضل « ما فضل على المقدار » (6) .

ولبحث عن المترلة الوسطى سيحدد تصورات الجاحظ لبعض الأساليب
كالإيجاز والإطناب بل لعله السبب الرئيسي في اهتمامه بهما أكثر من أي
جانب آخر من حوالب البلاغة لصلتهما المثبتة بمسالك الدلالة أصر بحث في
علاقة بعض بالمعنى . ولا أدل على الاعتناء من تعريفه البلاغة عن تسهما ،
فقد ورد عن أعراسي قوله . « البلاغة : الإيجاز في غير عجز والإطناب في

(1) البيان والتبيين ، 20، 1

(2) المصدر السابق ، 250/1 وما بعدها .

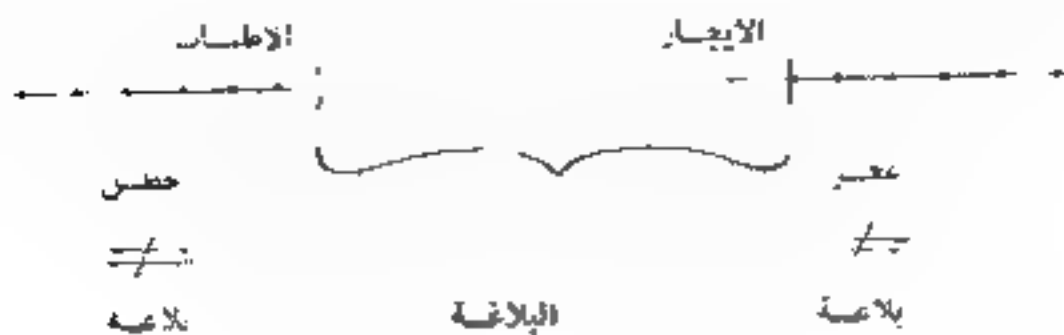
(3) المصدر السابق ، 93/1 .

(4) معنى المصدر ، 255/1

(5) معنى المصدر ، 262، 1

(6) الحيوان ، 91، 1

غير حطل» (1) وتوضح هذا التعريف والربط به وبين حملة آرائه هي
لأسلوبين (الإيجاز ، الإطناب) نرسم الشكل الآتي :



وهذا الرسم يستدعي جملة من الملاحظات :

(1) إن البلاغة تقع في الظاهر بين طرفين متقابلين هما الإيجاز من جهة ،
والإطناب أو الإطالة ، من جهة أخرى ، وهذا التقابل ظاهري يتجاوز صاحبه
« لبيان والتبيين » أو إن شئت بعد ذلك من حدته بإدخاله نظرية المقامات والموضع
التي تصبح الإطالة بموجبها إيجازا (2) والإيجاز « حذف الفصوص » (3) .
فالظرف الكلامي هو عيار هذه الأساليب وقاعدة الحكم لها أو عليها
بمعنى أنه لا يمكن تحديدها تحديدا نظريا مجردا يمكن أن يعتمد قاعدة في
الحكم بدون مراعاة الظرف الذي أنجز فيه الكلام .

(2) إن من أؤكد ما يجب تجنبه أن نبلغ في استعمالنا هذه الأساليب « حد »
الذي نقلب معه إلى الصدق فيكون الإيجاز سببا في الإغراق ومؤشرا للعجز
وتكون الإطالة مسنكا إلى الإكثار والهنر وهما يفضيان إلى « الإملاء » (4) .
ولذلك يبقى مفهوم المقدار المقياس الأساسي والأوحد في التمييز بين ما
هو بلاغة وبين العي والعجز والهنر والحطل :

(1) البيان والتبيين ، 97/1 .

(2) الحيوان ، 91/1 .

(3) البيان والتبيين ، 97/1 .

(4) عصر مصر ، 116/1 .

« ولم يقع النهي على كل شيء جاوز المقدار . ووقع اسم عي من كل شيء قصر عن المقدار . فالعي مضموم - والحطل مضموم » (1)

(1) إن هذا التصور البلاغي المنبني على معولة انعطاف من شأنه أن يدفع الباحث إلى مراجعة مواقفهم من ثنائية اللفظ والمعنى في مؤلفات الحافظ ولا يعود كل معوي على سياق أو سياقين يستصر فيهما اللفظ فيضعوه في صف اثنين مع التشكل على حساب المعنى بل أن يعترفوا أنه يسوي بين المعاني ولا يدرى تفاوتها (2)



... البنية العامة :

ش سنأثرت مسألة اللفظ والمعنى بجانب كبير من مجهودات الجاحظ البلاعية فمن الأكيد أنه لم يتطرق إليها إلا من جهة أنها لبنة في بناء أكبر منها هو الكلام أو التأليف أو النظم (3) .

وما اهتمامه بحصائص اللفظ المنفرد إلا صورة من اهتمامه بالبنية العامة وما ينتظم الكلام من قوالب تساعد على إبرازه على نمط في متميز بحقه بالتأليف الجيد والخلق المنطوق انحاض مما جمعه المؤلف في حيز مصطلح متمكن واضح الحدود هو الإنشاء (4) .

وعنا لينا في حاجة إلى الإقناع بأن كل نظرية في البلاغة لابد أن تكون ، نظرية أو بأخرى ، نظرية في الخطاب الأدبي تعين الطر عن

(1) البيان والتبيين ، 207/1

(2) سمر جاسر أحمد بصور مفهوم الشعر : دراسة في التراث اللغوي ، الدار العربية للعلوم ، بيروت ، 1978 ، ص 41 .

(3) هذه المصطلحات كثيرة الجريئة عن فلم قلنا در فائدة في الإحالة عن مؤ من مصبوة من مزج به

(4) الحيوان ، 79/1

لأنه ما من تحريره أو التبرع به التي قد نطفي على هذا المقصد الأسمي فحسبه
 من حين ويدا ، صرح هذا الحكم على أغلب المحاولات في الموضوع فمن
 ما أن وأخرى أن يصح في شأن صاحبنا لأسباب منها أن نلاحظه مصوره
 في تصور أدبي وحالي شامل حاول أن يؤصله اعتمادا على نماذج من
 ربيع سورة الأديسي العربي الإسلامي نظمه ونثره .

وكان لابد أن نحمته هذه الرؤية الشاملة . من جهة ، وانماذج النصية
 مختارة من جهة أخرى إلى الاهتمام بالنية العامة وتعتب مظاهر الجمال الفني
 من روية نصحهم فيها وحدات النص التحاما كاملا يعدو بموجه مصل بين
 خصائص شروعي للفظ والمميزات العامة لسبب الكلام اصطلاح مهيبة .
 وضرورة قاهرة ، إذ لم يكن من سبيل إلى إدراك خصائص الكون ، لا تتحدين
 لأجزاء مكونة له ، وقد يفسر هذا اختلاط المقاييس والمقررات وتداخلها ،
 فنجدته يجمع في نفس الجزء مستلزمات اللفظ ومستلزمات البنية بحيث يصعب
 على مدارس أن يرتبها ويربط بينها بل إن اللفظ عنده بإجماع الدراسات ، هو
 شكلي ولأسلوب عامة ريادة على كونه الكائنة مجردة ؛ وفي هذا الاشتراك
 لدلالي دليل على ترابط الجزء والكل في قصوره وتكامل مقاييس لاختير
 مع خصائص التوزيع

ومن وجوه الترابط ، أيضا ، حديثه عن مميزات البنية العامة انطلاقا
 من مقاييس كان وظيفتها في دراسة اللفظ المعرود . ومما يلاحظ من مصطلح
 « لاقر » فهو يدل عنده ، على زائف أصوات الحروف في بيئة اللفظ
 ، صوتية كما يدل على نآلف الألفاظ في السياق لذلك قسمه إلى قسمين .
 فثرب حروف واقتربان الألفاظ (1) ويتبع القسم الثاني ، في التحعين .
 فيشمل قنرب آليات الشعر واستحاطها . وبهذه الصورة نكتسي المصطلح قدرة
 ، حرثية متعاطفه تحيط بمكونات النص في سلم انتشاري يكون فيه مجموع

(1) آليات والبيبي . 69/1

في دته مفرد في غيره . فاللفظ مجموع مفردة الحروف أو الصوت وليست من
شعر مجموع مفردة اللفظ . والتقصيد أو الرجز مجموع مفردة البيت

وقد عثر الباحثون عن فكرة الترابط في التآلف بصورة حديثة يصح
لاقتراح موحدها صرنا من التجانسة المنعصبة إلى الصوت الواحد

« (١) » والأخرى تراها سهلة لينة . ورطبة مواتية . سلسة مستطمة .
حميمة على لسان . حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة ، وحتى كأن
الكلمة بأسرها حرف واحد « (٢) » .

وبهذا تأكيد على المحاسة الصوتية والتأغم الإيقاعي لمور مؤلف ،
وهذا بصورة غامضة . حاشا من حوار البنية الشعرية الهامة وعبر عن
مشعل هو قطب الرخى في بعض النظريات الأدبية المعاصرة (٢) .

(١) مصدر السابق ، ٤٦/١

(٢) تحت قصة التأليف الصوتي والتوحيد لعلنا لم نحققها جدنا كبير من مجهودات
العلماء من الدراسات الشعرية اليوم . وانصت من هذه الدراسات وبين بعض الباحثين
خاصة في الأصناف بأهمية أصية الصوتية في الشعر لا في طرق تحليلها وهي طرق لا
يمكن بدائية أهل الشعر منسها لفرق ترمي التوفيق

فاندرسي (Jean Collet) ، وهو من القائلين بأن الشعر قول عاطفي كبدل عليه
مصطلح اليوناني (Pathos) «الآلام والشعر» في أنه مود شعور «la product de sentir»
يرى أن استراتيجيات القول الشعري تقوى من عيلتين مزدوجتين تقع أحدهما من محور
لاشعري حيث يتألف من عيل تشعنية عاطفية للكلام ، وهي شعبة تقطعها
جبهة المحوية وتعد من تأجيلها ، وتقع الثانية من محور الشعري حيث يصبح الشعر
محبة بصوتية تختفي أو تتوحد ذاتا لتقوية ذلك المسمى . ومن هذه المنظور
يكون الشعر «خطاب المتباد» «Discours du Même» وتشيده حارسه ، حارس
مبين بالحرف قريب من مفهوم هذه المادة . وقد عرفنا كيف استبد الشعر في
«حضانة الفكر» في معنى العمودية الصوتية ؛ «حرما أو كلاً» وقد بينا في بعض هذه
«حر هو» «حرار هيكتر» (Gerard Hopkins) الذي أقر هذه النظرية عند من
يعبر لأصلي لكله بين (Vers) وهو «Versus» التي تعودت أو . جو ، الشيء عن نفسه
وقد فسرنا هذا لاستطرد رعبه أن نصنا انماخذ لا يشتت على كمل هذه الألف
«حر هو» الشعر نعمة يستطرد إلى نفس من محبات شعر عبروا عنه بمصطلح «شعر
شكر» على معنى الأصل اللاتيني «Versus» وهو مصطلح «ردد لأعمدة» من
الصوت «الذي أصغوا عليه لترصع» انظر في كل ذلك .

Marcel Cohen Poésie et redondance, in, Poétique 28, 1976, p. 413

Structure du langage poétique, éd. Flammarion, Paris, 1966, pp. 54 55

وطرفه صاحب البيان والتبيين في دراسة تلاؤم الألفاظ لا يختلف عن
 دسه قاع الخروف . فمُعْتَمِدُهُ . دائما . الشاهدُ والمسئلُ يورده مرة
 بحكمه عليه ونا في أخرى للحكم له . وقل ان يجد في الخاتين نعلا فسـ
 مكمل لا تكشف به للقاريء مواطن الحُسْنِ أو القبح فيبقى الأمر رهين
 الانطباع وندوق . ولما يزيد هذا المقياس عموضا استعاضته بدوُخ من شاعر
 بعده لم يقله شاعر وإنما وضعه انتقاد وضعه بالمجرد الاستدلال وحتى إن ثبتت
 مدبها نسبته التاريخية قلن يمنعنا ذلك من اعتباره شاذا لأن التنافر فيه على درجة
 كبيرة من وضوح يحتجب معها المقصود من هذا انقياس لشدة ظهوره .
 فمماذا يهيد درس الشعر من وجهة نقدية عملية أن يقال أنه إن هذا البيت :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

متنوع الألفاظ لا يستطيع المشد إنشاده إلا ببعض الاستكراه (1) ؟

لا شك أن استعانة صاحب البيان والتبيين بهذا الشاهد القصص تعيظ
 من كاد لإبراز حالة التنافر القصوي والإبادة عن المقياس من الوجهة النظرية
 لمبدئية ، ولا شك أيضا أن مسوعات التحليل العلمي الدقيق كانت قبينة في
 تلك الفترة لذلك استعاض المؤلف عن ضمور الجانب العملي التطبيقي بيراد
 لشوهد التي يمكن أن يحصل للمتلكنم بممارستها ومعاودتها حسن مغوي من
 قبيل « لا يعكس الشروط » يتوسل به لإخراج نصه طبق مقياس التألف
 كم ستعص عنه بجملة من الأحكام النقدية يعين استقراؤها على تقريب
 مفهوم لقران أو الاقتران . ولا سيما أنها أحكام لم تتخلص من الشبهة مدنية
 شبيهة في التشبهات المستخلصة من صلوات السب والعلاقات الدموية . وتبدو
 لنا هذه التشبهات مصية لأن غاية هذا القياس بيان وجه القرابة بين لفظ ولفظ
 وبين بيت وبيت . فمن ذلك تفصيلهم شاعرا على شاعر لأن أحدهم بقع البيت
 وأحد يسما بقول الآخر البيت وابن عمه .

(البيان والتبيين : 65/1)

« وفي بعض الشعراء لصاحبه - أما أشعر منك - قال ولم يور لآتي
 قلوب يب وأحياه وأنت تهون البيت وابن عمه » (1)

وقد شتهوا ما يحصل بين ألفاظ البيت من التناحر بتأويل أولاد العلات (2)
 كما شهروا هذا النوع من الشعر بغير الكش قال الشاعر - (طويل)
 وشعر كعشر الخش فرق يشه لسان دعي في القرح دحش

وقر حش مؤلف التشبيه قائلاً : « وأما قوله كعشر الكش - فرب دحش
 في أن بعر الكش يقع مؤلف ولا متعاور » (3)

ووصفوه بقولهم : بعض ألفاظه جبراً من بعض ، (4)

كن هذه الأحكام والمصطلحات مترادف لتكشف عن أهمية لإيقاع
 في جمالية النص الأدبي إذ يصبح الخطاب - بالتزامها - كلاً متماسكاً
 متعادلاً (5) موزوناً الشئام (6) حالاً من كن تناقرو أو نثار (7) تتألف فيه
 الخصائص المبردة مع خصائص السية العامة تألفاً فذاً مترابطة الحقائق ،
 مترابطة بحيث إذا اختل جزء وقع في غير موقعه المقسوم له ظهر القبح
 والاضطراب (8) على التأليف جملة وديب الاختلال إلى توازنه العم :

« (....) فإن كانت الميزة الأولى لا توثيك ولا تعريك ولا تسمع
 لك عند أول نظرك وفي أول نكلمتك ونجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصدر من
 قعرها وإد حقتها من أماكنها المقسومة لها ، والقافية لم تحل في مركزها وفي

(1) البيان والبيان ، 228/1 .

(2) نفس المصدر ، 66/1 .

(3) نفس المصدر ، 67/1 .

(4) نفس المصدر ، 66/1 .

(5) نفس المصدر ، 89/1 .

(6) مصدر لتأني ، نفس الصفحة .

(7) 66/1 .

(8) الحيوان ، 67/7 .

منه . من فصل تشكيها وكانت قلقة في مكانها بافرة من موضع ولا تكره
من عتصم الأماكن والنزول في غير أوطانها (1) .

وشعشع صاحب البيان والبيان ، بظاهرة الإيقاع كمصير من مصدر
حسب النص الأدبي واضح في عدة مواضع من مؤلفاته ، منها دونه عن
سجع ولا دوايح باعناهما أسلوبا في الكتابة بوظف الصفة صوت
في لغة مصص على النص تنغيمًا يجعل « الحظ إلى أسرح » و « لآد
سمعه تشهد » (2) وللتك لم يأل جهدا في تجميع الحجاج الإقناع بأن
المصاحفات هي صرحت حول السجع لا علاقة لها أصلا بوظيفته لأدبية لغوية
رأى ما هي أسباب دينية مؤقتة أرادت أن تصح حداً للممارسات وثنية لا يقرها
الشرع الجديد ، ومتى زالت العلة زال التحريم (3) .

ومتى تجاوزنا هذه المقاييس المتلوجة في حيز « الاقتران » الغائب عن
معناه التألف الصوتي بين الأجزاء وحددا مصطلحات وأحكاما أخرى متعلقة
بخصائص لبنية ، ونحن نستبعد أن يكون المقصود منها محصورا في التلاوم
صوتي ولتاسق الإيقاعي وإن كنا لا ننسى مدلولها الدقيق ، ولا جداد
في أن أهمها مصطلح النظم الذي نرى عليه موقعه من إعجاز القرآن ووسم
به كتبه الذي لم يصننا : « نظم القرآن » .

وقد ذكر هذا المصطلح مقترنا بالقرآن في عدة مواضع إلا أنه لم يزد
على ذكر مرادفاته ونعته بأنه عريب بديع (4) معتبرا إياه آية من آيات
التحدي (5) ، والسياق التوحيد الذي تحدث فيه بشيء من التفصيل عن
مقوماته كان بمناسبة تعريفه بمؤلفه الضائع ، إلا أن الأوجه الأسلوبية والبلاغية

(1) البيان والبيان ، 137/1 - 138 .

(2) مصدر بـ بـ ، 287/1 .

(3) « » ، 289/1 - 290 .

(4) النحويان ، 911 .

(5) مصدر تـ تـ ، 59/4 - 90 .

مذكور في هذا النص لا تتجاوز مسألة الاستعارة باعتبارها وحدها بلاغية نبوت من تعيين الكلام وتوزيعه وتركيب الخطاب القرآني على انطاقه الإيجازية معه كطريقة من طرق أداء المعنى ذلك الذي سماه النحاح ييجار مرة وحصر مرة أخرى والفرق في استعمال هذا الأسلوب بين القرآن وغيره من المحفوظات الأدبية فرق في الدرجة لا في النوع :

« وفي كتاب جمعت فيه آيات القرآن ، لتعرف بها قصص من بين الإيجار وحذف ، وبين الزوائد والفصول والاستعارات وقد قرئت رأيت قصص في الإيجار والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القبيحة عن نبي كتبه مث في باب الإيجار وترك الفصول ، فسمي قوله حين وصف حمر «هن حجة : لا يصدعون» عنها ولا يترعون » (1) وهاتان لكلمات قد جمعت جميع عيوب حمر أهل الدنيا ، وقوله عز وجل حين ذكر فاكهة أهل الجنة فقال : « لا مقطوعة ولا ممسوعة » (2) جمع بهاتين اسكتين جميع تلك المعاني (3) .

ومنه الإشارات الطفيفة لا تمكن الساحت من صورة واضحة متكاملة لمقومات العظم عدده ناهيك أنه لم يشر إلى صلة خصائص القرآن بشوثة في تضعيف مؤلفاته عظمه : فلقد ذكر بيانه ، وحكمة إبلاغه ، وجودة فهمه ، وحسن قصبه ، وإفصاحه (4) ولم يربطها بديع تركيبه وعجيب تأليفه على حد قوله .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن محاولة بعض الدراسات تفادي هذا لفص نتج تعيقاته على الآيات القرآنية لم تؤدي إلى نتائج ذات نال

(1) الزاوية 19/1 .

(2) الزاوية 33/1 .

(3) الحيوان : 86/3 .

(4) البيان والبيان : 8/1 .

ذلك نسل إلى أن قضية النظم لم تتجاوز عنده الإغلاص سبني .
مشروع بعض الأمثلة القليلة إلى بحث لغوي بلاغي منظم في أسس ترمز
كما سيكون الشأن في مؤلفات إعجاز القرآن بعده .

ومن تلك المصطلحات أيضا مصطلحات في نقد الشعر ومقاييس حودته
جمع أعينها في حكمه المشهور : . وأجود الشعر ما رأته متلاحم الأجزاء
سهل . محرج فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغا واحدا وسبث سبكا واحدا ، فهو
يجري على لسان كما يجري الدهان (1) .

ورغم ورود هذا الحكم في حيز شغله الاهتمام بتأليف الأصوات
وتدبرها فثبت يعتقد أن مصمومه يتجاوز هذه المسألة لأن الوحدة العضوية
بين لأحره لا تقوم فقط على المظهر الصوتي وإن كان هذا الأخير حاد هنا
من جوانبها فلا يمكن أن يتحقق التشبيه الأخير من النص الدل على سهولة
معطف وسلامة النظام . إلا من اجتماع كل المقاييس الأسلوبية التي رأيناها
في هذه محاولة من بلاغة اللفظ (2) وإصابة معاني الكلام (3) واختيار
شريفها وكريمها (4) وأن تكون التشابه مصيبة قامة (5) ولتأليف بديع
محترع بعيد عن الاستكراه والاضطراب (6) بحيث تصام المعاني ولا يتقطع
نصمها ، في درجة أنك إذا سمعت صرير اليت عرفت قافيته (7) وشأن الشاعر
في ذلك شأن الصانع بديب الذهب والفضة ويطرعهما في قلب واحد يحرر
موضوع على حياة متسقة بحسب ما تحدده قواعد الصعة . أو هو كالحديث
أو المصور يختار الأصابع المتسقة المتألفة حتى إذا اكتمل الصنع بدا على

(1) ألبان والعبين ، 67/1 .

(2) المختار أساس ، 83/1 .

(3) " " ، 58/1 .

(4) " " ، 81/1 . الحيوان ، 79/1 ، 311/3 .

(5) الحيراني ، 311/3 .

(6) المختار أساس ، 6/7 .

(7) ألبان والعبين ، 115/1 - 116 .

تكمّل صورته وأحصيها إيد الشعر حسب الجاحظ ، « صناعة و ضرب من
سج و حسي من التصوير » (1) .

* * *

(1) الحيوان 4 3 131 - 132

خاتمة القسم الثاني :

كانت مادة عملنا في هذا القسم ، غزيرة متنوعة مبنوثة في عرص من مجتمعات ضخمة ليس في طريقة صاحبها في تناولها ما ينمّ على أنه يباشرها من تصور مسبق وعلى أساس تنظيم محكم . وقد أجمعت الدراسات التي استغلت آثاره في ميادين بحثها على أن السمة الغالبة عليها هي سمة الفوضى وقلة الإحكام وإن كانت أقرّت بأنّ السبب سعة ثقافته وإحاطته بأفان المعرفة في عصره إحاطة أهلها بقيت هذه في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في يومنا .

وم يحذف من حدة هذه الظاهرة . في مجال اختصاصه ، وفردته أفنين القول ومسالك التعبير بمؤلف من أشهر مؤلفاته . فالمادة هنا أبيض غريبة متدخنة إلى حدّ الناقص أحيانا ، لا تخصص لترتيب واضح ، بشهادة مؤلف نفسه ، وهي خليط من النماذج الأدبية من أشعار وأخبار وخطب ورسائل ، والأحكام الأدبية النقدية والملاحظات الأسلوبية البلاغية بالإضافة إلى لمحات تلغوية والاستطرادات التعريفية العامة وقد أشارت الأبحاث التي هتمت بإحلاء نظريته البلاغية إلى فوضى «البيان والتبيين» وكأنها تعتذر . مسبقا : لهجتها في التعريف بمجهود الرجل وهو تعريف شرر الكثير من حوانه وأشار إلى أهمّ نصوصه ومفاهيمه إلا أنه لم يستطع . في العتب . أن يربط تلك الحوالب بتصور متكامل أو قرب من انكسار

من هنا انما تأتينا . إذ لم يقتنع ألا يطلق مؤلف في مرة واحدة دقة
تحليل وحكم وخصافة فكر في تقييد المسائل وتشخيصها من تصور
مدرس أو كدساتر يحمي وراء هذه القوصى الظاهرية حدوداً لا يحسن
الحيد ربط بين معالم تفكيره في موضوع البلاغة والجمالية لأدسه وكان
مصنف سوية مفهوم «انيان» الذي توج به مؤلفه المشهور في الموضوع
وقد أدّى بنا البحث في هذه النقطة إلى جملة من النتائج الأولية

(١) إن المؤلف لا يستعمل هذا المفهوم في المعنى الاصطلاحي الصيق كما
صطه بلاغيون المتأخرون في نطاق التقسيم الثلاثي المعروف وإنما يستعمله
في معنى أوسع يضم طرق الدلالة والوسائل التي تمكن المتكلم
من أداء معنى وهو البحث الذي يطلق عليه في علم الدلالات اليوم
(Procédés de signification) وهو ما يفسر عدم اقتضائه على اللغة ، فذكر
لغة والإشارة والحط والصبة ، وإن اعترف تصريحاً وتلميحاً بأن اللغة
أهم تلك الوسائل وأولها وفي مضطحات هذا الفهم الشامل الذي يقدم معنى
على كيفية إخراجها ، والعيان على الوسائل ، سترعرع فكرة لجسدي
وتأثر في بقية مراحل تفكيره تأثيراً عميقاً

ودكره لطرائق أداء المعنى المشار إليها لم يحدد مواطن قبلة من ثرائه
وقصر في التحليل على البيان باللغة فكان محور كتابه «البيان والتبيين»
وبعض تصور مؤلفاته الأخرى ولا سيما «الحياة» وقد صاحب الانتقال
من معنى انعام إلى المعنى الخاص أي من الدليل مطلقاً إلى الدليل اللغوي عدة
تغييرات ، أولها السعي إلى التوفيق بين الغاية والوسيلة بحيث يصبح البيان أداء
المعنى بمصودة طرق حيات محصورة ومن ثم اكتفى بمجهوده شرعية
لا يشرح صمد المشغل البلاغي والإتشائي العام

«لا أن» المثبت في هذه المساهمة يلاحظ أنها تكني صفة خاصة
ولديها طريقته في فهم ظاهرة الكلام وتحليله لقومائها

ومن أبرز مفومات طريقته تناوله الخطاب اللغوي من روية كونه
عصبه توصل (1) يستوح قيامها حدا أدنى من الأطراف لا يفصل عن ثلاثة
متكلم وسماع والكلام ، أما قانتها فهي المشافهة . على الأكثر ، وهذا ينسب
عموم شافص الذي نعكسه مؤلفاته بين دفاعه عن الكتابة وسكتة .
ولسبه شافية المهمة التي اضطرته أن يعتمد على المشافهة في تأصيل طريقته
البلاغية رغم موقعه المبدئي الرافض لها .

وربط بين الأطراف هي الوظائف وقد استخرجنا منها ثلاث هي .
وظيفة إلهامية واثوينة الخطابية والوظيفة الشعرية ورأينا أن الأولى تقوم
من النقية مقام الأصل إذ لا يتصور الجاحظ خطابا لغويا ، مهما كان مستواه ،
لا يكون المهم والإفهام قاعدته وعاية هذه الوظائف جميعا السماع . وهذا
مظهر من مظاهر الجدوى .

وعن هذا السط في التحليل نتجت أمور أساسية لعلها تساعدنا على فهم
مظاهر من مساهمته .

تقسمت جهده الملاعي ظاهريا الملهوظ (2) والشمط (3) ونسبي بملفوظ
بنية النص وخصائصها الحوية والبلاغية العامة من جهة أن النص تشكّل
لغوي (4) قائم بداته لا دخل للملايسات إنحاره في تحديد صمدته ، وهي
وصعية بطريقة تكاد لا تتم لنص من النصوص ، أما التلفظ ففعل يقوم به
متكلم معوم في حيز رماني ومكاني مضبوط ، يخرج به النص من الوجود
بقوة إلى الوجود بالفعل وبموجب هذا الإخراج تتدخل في العملية لغوية
عاصر أحسية عنها كالتكلم والسمع والساق وهو في مصطنع نحاص
مقام أو الموضع .

Communication ()

Enoncé (2)

Enonciation (3)

Configuration verbale (4)

وعد أن المؤلف ظاهرة التلغظ عنانية فائقه جعلته يحدد المصروف في كثير من الأحيان ، من رابوية تفتظه وبصبط حويته بمتلقيه وسبفه من هذه رابوية تفهم مكانة المتكلم في صدرته لأنه مبدع القلوب ومسجره . فمن جهة ما هو مبدع كان لا بد أن يكون ثابت القدم في البيان عارفا بواقعيس اللغة وصر في أهلها في تصريفها ، على حظ وافر من الطبع ذا أريحية تسهل عليه مؤونه السعيد والمعاودة والذرية وبالحيلة أن يكون مصابا بمحنة الأدب بينه وبين الصناعة نسب . على حدّ تمييز الجاحظ — ، ومن جهة ما هو منجز الخطاب لا بد أن تكون آتة نفثته قربة فخمة منزلة عن العيوب والآفات

ويحذر الكلام يقع اعاديات ويتزق في مقامات لذلك وجهت مرعدة منزلة السامع ومستلزمات المقام . وقد حدد صاحب « البيان والتبيين » ملامح المتلقي من وجهة لغوية لعلها تكشف عن منزلته الاجتماعية وانتمائه الحقيقي هتداء برأيه القائل « وكلام الناس في طغيات كما أن الناس أنفسهم في طبقات » . وفي سعيه بحث ملامحه استنرد إلى ذكر بعض القوانين لنسائية العامة التي تقوم من عملية التواصل مقام التئة (1) المحددة لعلاقة المتكلم به . وغاية هذه القوانين وسط قدرة السامع اللغوية وهي قدرة وسط قرومها التعود على المبسوط من الكلام حتى أضحت العقول لا تريد على العادات .

ولما كانت غاية المتكلم من السامع الفهم والإفهام ، بالدرجة الأولى ، تركز جهد الجاحظ على شفافية الخطاب (2) وهي قدرة العلامة والمص على الإشارة إلى ما سواهما ويطلق الإشائيون على هذه القدرة « طاقة الإرجاع وإشارة » (3) . ومن ثم انطبعت محاولته بطابع بصفي واصح يمكن أن

(1) Code

(2) Transparence du discours

(3) Pouvoir de référence

بعداً . . . دون معالجة . أكتفى بمحاولة في إثبات اللغوي العربي لتفسير
ما يسمى « بفعلية الخطاب » (1)

ومن هذا المورد استقى تصوّره الجمالي فكان الجميل يسع من . . .
، انتهى حد من مستوره الأخلاقي . فالخير ليس في الكلمة لحماية بقدر
، هو في الكلمة الناجمة التي تعمل في النفس عمل العيث في الثرة كما يقول

ولكن هل تمنع الكلمة بعضهم أم يشكلها ومصوب مع ؟

جواب المحاضر عن السؤال واضح من أي موقع نحرّك . من موقع
لأديب . أو من موقع العربي المدافع عن الفصاحة لأسباب هوية معها
مشورة بموقف سياسي بدافع عن سيادة العرق العربي . أو من موقع متكلم
مؤثر المؤمن بأن القول ترتيب ورياسة

لكن إن كان الجواب واضحاً سهلاً فما السبيل إلى تحقيق التعدد الصعب
بين الوسائل والعيان وكيف نراعي دمة النص مع الإصرار على المنفعة
وتحقيق الفهم والإفهام لدى جمهور تعود ميسوط الكلام ؟

يبدر أستاذ الرجل وجد في أصول اعتزاله ما ساعده على تجاوز هذه العقبة
بجمعه مقولة المنزلة بين منزلتين الكلامية مقولة أدبية سماها ، اختصاراً ،
لأوسده وانتقادير فكانت بلاغة النص وسطاً بين طرفين

بين العريب الوحشي والسافط السوقي

لأن الأول إغلاقي والثاني رطانة

وبين النصيب الخشيب والخالص الذي لا شوب فيه

لأن لأور فصاض وعلطة وموء طبع . والثاني استعلاقي وحاذقة واستعداد .
وقد نرى على حملة هذه المقاييس العملية في صياغة نظرية شاملة يكون بمقتضاها
لكلام بين المفصر والغالي .

ومن هذا منظور تفهم أمرين بدواً متناقضين - موقفه لشدة على شعراء يصعد لأنهم بالغوا في التحكيك والتفحيع حتى استعبدتهم من - وحصنه من سدة الديق من التولدين كالتعابي ونشار وابن هرمة ومصور اسمر ومسلم بن الوليد - ونشار في رأيه حسن الديق مطبوع على قلوب شعراء لا يركب التعسف والاستكراه .

أما نقادات فهي حملة الظروف الحاقة بالبعض بما في ذلك السامع نفسه ونش لم يصطفي صاحب البيان والتبيين - ضبطاً نظرياً يأتي على أوسع فون تؤثر استعمالها كقيل بأن بعضي القاريء فكرة صافية عن المراد منها وهو إجمالاً التلازم بين نوع الحديث وملابساته ونوع اللفظ - فلتجد موضع وشكل - وبهزول موضع وشكل - كما أن لفلسفي الكلام نهجا في الأداء يحتف عن نهج سواد الحكايات وللإيجاز موضع وللإطالة موضع كما أن للتصريح موضعاً وللكتابة والوحي والإشارة موضعاً آخر .

وقد ترتب عن هذا الاعتبار إقراره بأن البلاغة بلاغات والفصاحة فصاحت معنى ذلك - من الرحمة النظرية - أن الحكم البلاغي يستلزم لا ينفصل عن مدى ترابط النص والسياق الذي يتزك فيه ، وقد أفضى به هذا التصور إلى حده الأقصى المتمثل في القول بأن بلاغة بعض الأجاس الأدبية تكمن في خروجها عن قوانين البلاغة والفصاحة .

كما شج عن اهتمامه بالسياق انصهار الظاهرة وتقيدها في بوتقة تصويره بلاغي لعدم - فالإيجاز بلاغة والإطالة بلاغة كما أن التصريح بلاغة والكتابة والوحي والإشارة بلاغة .

ولا يستبعد أن يكون ترابط القنائص سبباً في اهتمام المؤلف بهذه الصور بلاغة التي ذكرناها دون غيرها رغم أن المشت في مؤلفاته يلاحظ أنه نمط إلى كثير من الوجود إلا أنها بقيت على هامش نظريته أو لم تستغل على

وجه سي استعمال نه الإيجاز والإضاح والكناية والإشارة والتعريض (أ)

(أ) في موضع نشأ من اصطلاحات والمفاهيم والوجوه سمكت منها ثلاثون ملحوظة
سواء شري وبصاوت على تطويره .

فهو تذكر في المعنى القوي الأصلي وهي المعنى الاصطلاحي الذي سيعني أشد بر
معنى ، مشيرا نه إلى جملة من التصوير والأساليب كالأستعارة والتشبيه والتعريض و
والجوراء ، 57/3 (البياض والنسج) 55/4 (كنا تعريض إلى أم لغة فكر سيجس منه
(الحيوان ، 57/3 - 58) والمصريح (الحيوان : 31/3) مما يدل على أن مصداق في
نعمه مر سب ذلك لا تقبل نفس الطريقة

وذكر « معاً » في مدخل «تعبير» أو ظاهر اللفظ والعبارة لذلك في ظاهر الكلام والحيوان ،
907 وهو عنه وسيلة الاصطاح في اللغة ، يسمى على العمل لذلك على السكون
والتشبيه ونسبي هذا المصهور بالمشهور الأول - «اليدع» - من جهة أن كنهها يبحث عام
مدرج في مد ، كبير من الوجوه كالأستعارة والتشبيه وقد يحمر عن ذلك تطابق في التسمية
يكون أحياناً مستعملاً في معنى عام ويظهر مدلوله تارة أخرى على مدلول وجه بهبه
(الحيوان ، 239 - 25) وتعل من أنشأ من تشبيه إلى في باب «مدر» أطلق عليه
«مدر» لذلك « (الحيوان : 342/1) ويبدو من البياض يشمل على حد «المصباح» أنه يستعمله
لما جرى عليه لاس في كلامهم وأصبح من لغة المؤلف «خاصة» وهو ما يقابل
المصباح الفرنسي (Metaphorique d'usage).

أما أوجوه اندجارية التي اعنى بها عنابه حاصه هي الأستعارة والتشبيه والأستعارة
ذكرها في كثير من المواضع (الحيوان : 280/2 ، 283 ، 289 ، 308 ، 329 ، 3492
3492 : البياض والنسج ، 139/1 ، 152 ، 153 ، 164) وعرفها تعريف (بغير خاصة
البياض والنسج ، 139/1) بناءً على ما - بهه إن كنها أو جرياً بل إن تعريفه أكثر دقة
من كثير من التعريفات الشاعرة (انظر مقاربة التي نقاشها Skarzynska-Bochenka

في مقارنته Ornements du style selon la conception de al Gahiz
بين تعريفه وتعريف كل من نعلب وابن المعتز في 13 - 14) كما توأمر في مؤلفاته ذكر
التشبيه في صيغ متعددة (البياض والنسج ، 20/2 ، 62 ، 139/1 ، 139/2) ولأن كان
البحث لا يقت في الحقيقي من «تارة» عمل تعريف لهذا الوجه عرب كثيرة معطيت
نظرية والتطبيقية تكفي بين أهمية مدحبه «الحفظ» في هذا المقصد ودراسة صقل
تأثيره في بحث معام هذا البحث في اثرات تعليمي لغوي فكان أول من حدد بصورة
صريحة خلافاً المشبه بالمشبه به وهي علاقة قصدية عقلية تقوم على ما بين العنصرين من خصائص
مشتركة (tertium comparationis) مع ضرورة الألفاء من تشابهاً ولفظاً بهه
يجب ألا يؤدي التشبيه إلى انخباصة وتعميم لأطراف عن جهه وإسداء تقرب تشبه
من تشبه به ذاته ، المثل ، في المعنى الذي قصدت (البياض والنسج ، 139/1) وعبارة
عن هذه الفكرة وعلى صور من أخرى (البياض والنسج ، 139/1 ، 139/2) يمكن
نص - بأنه حدث جهه إنداك الفارق الجوهرية بين صورتي «نسج» ، تشبه من وجهه ،
والاستعارة من وجهه أخرى ، تقوم هذه الأخيرة على انصهار الطرفين ، معاً وبذلك
يمكن عدهما درجت متطورة من مراحل التشبيه أو هي ، كما يقول بيوت ، صورة من
محو لاه

وذكر من «رواحه تشبيه شئ بشئ وشاهد لذلك تحت إمريه النفس [مؤيد]

كأن دروب نضر ، صا وبانسا - لدى وكرها تعذب والحطب ألباني

وسيعني جل ثلاثين أثر الحافظ من غير أن تذكره ، في الاستشهاد لهذا المقص
ببه البياض والنسج رآيه في الإعجاب به وإن اختلف عدااتهم فيجعله من مع من
«حسن التشبيه» (اليدع : ص 68 - 69) والمصري من : «طبع انسيه» (الصديقي ،
ص 245 - 250) ، «ويزدشق من : «اليدع المحصر» (العمدة : 232/1 ، 260) ، «أما

و، رغم أهمية هذه الوجوه كمرحلة في البحث مهلت السبيل لاستغلالها فيما بعد استغلالا واسعا عميقا ، فهي لا تحتل - في رأينا ، مكانة هامة في تفكيره البلاغي بل إنها قبلو ، إذا ما قورنت ببعض الأساليب الأخرى كالإيجاز و لإطناب والتصريح والكناية على هامش مشاعله غير دحجة في تصويره الكلي للبيان والتبيين بالكيفية التي يراها ، وإنما هذنه إليها شو هذه المتسوعة واستطراداته الكثيرة . وقد سبق أن أشرنا إلى أن قيمة عندته بالوجوه وتحديدتها وتصميمها قد لا يفسر بالمرحلة التاريخية التي تستزل بيده مشاركة وهي مرحلة كانت الدراسة البلاغية فيها في أوائلها ، وإنما تعارضه مع أصوب نظريته التي يرتبط حسبها جمال النص بسياقه وتقاس نجاحته بسببه موافقته بمقام الحال ومن ثم لا يكتسب الوجه قيمة قارة من شأنها أن تدفع المؤلف إلى الاهتمام به اهتماما خاصا .



ذلك هي من وجهة نظرنا أبرز سمات مشاركة الجاحظ في تأسيس البلاغة العربية . فما هي الأسباب التي طبعنها بهذا الطابع الخاص تصويرا ونتائج ؟

إن الأسباب عديدة متفاوتة الوضوح لكن أهمها اعتماده في ضبط مستلزمات البيان والتبيين ، على الجنس الخطابي وهو جنس ارتبط منذ مطلع نشأته بمقاصد نفعية واضحة حددت خصائصه الفنية وببسته النصوية ونعد ملأمة بين صياغة الخطبة والوظيفة والموضوع والسماع من أبرز تلك الخصائص .

واعتماد الجاحظ على هذا الجنس ليس من باب الصدفة ففي قاعات مرحل وخصائص بيئته الفكرية والسياسية والاجتماعية ما من شأنه أن يحث انشاء المؤلف إليه .

فقد عرف عنه أنه من رؤوس المعتزلة سميت باسمه فرقة من فرقته وقد
كان هؤلاء طرفاً رئيسياً في الصراع المذهبي الدائر بين الفرق وقد وجد رؤساء
حزبهم في حصانه شكلاً لغوياً ملائماً لمناظراتهم ومجادلاتهم أدت عتو
حديث أصولها وتعلمها وتعليمها ناشتهم ومن ثم شاركوا نصيب وافر في
تأصيل نظرية الخطأ في التراث العربي الإسلامي تشهد لذلك كثرة نقول
صاحب « بيان والتبيين » عن أعلامهم وإدراجه بعض رسائلهم التي تعد
نظريه متكاملة في الخطأ انطلاقاً من الظروف الخاصة بالجزء إلى أن يستوي
بعضاً فيها نوعاً فاجعاً .

وم يكن الحدل الكلامي الداعي الوحيد إلى اعتماد هذا الحس فقد
حركت نجاحه إلى تأليف « البيان والتبيين » نوازع الصدي لتيار ذي صبغة
سياسية وضحية اتخذ من الطعن في الحس العربي وموروثه حضاري
للتعبير عن ثقافته على وضعه وعدم رضاه بسلطانه ، ومن مرامي أصحابه
التي تهتم لاستنقاظ من قدرة العرب على الخطابة والبلاغة ، فرد عليهم
مؤلف حججهم وكان رده السبب المباشر في حديثه المطول عن خصائص
الخطيب ولباته لأشهر الخطب المعروفة في عهده

وبالإضافة إلى هذه الأسباب التاريخية المعروفة التي جعلته يصعد
خصلته من زاوية خطابية نذكر عاملاً آخر هاماً أثر هو بدوره ،
في صياغة تلك المقاييس وهو متصل برؤيته الثقافية العامة التي عذر عنها
في أكثر من موضع أهمها بلا منازع ، مقلته على كتاب الخيوط حيث
رأيه يدفع عن تصور ثقافي مؤذن معهد طليد يصح فيه الكتاب وسببه
نعم وأداة نشر في الناس وسطه لهم حتى لا يبقى مقصور على فئة
لاحتمالية محظوظة وقفاً على أهله من الشعراء والرواة والعلماء

ومن مقتضيات هذا التصور الثقافي ، ونحن لا نستبعد أن يكون
بعكساً لتصوير اجتماعي طبقي ، التزامه الموقف الوسط بين الالتماس

، صفة وبين الوحي والسوقي ، وهو موقف توفيتي فرضته عليه معدة
لن والحقاعة .

ولمشت هي شواهد الجاحظ يلاحظ أن اعتماده على اشعر واحصر
و لقرآن لا يقل عن اعتماده على الخطابة بل إنه يؤلف بينها كيفية تكاد
تتشر معها الجوايز وتعصر مقولة الجنس الأدبي ذاتها فاكست مؤلفاته
لاسيم « البيان والبيان » طرافة خاصة عدت بمقتضاها مجمع بالأحكام
لنقدية والمقاييس البلاغية المنسوعة ومنطقا لأهم اتجاهات النقد والبلاغة
بعده .

III - البُلانة بعد الجاحِظ إلى القرن السادس [البشاء]

توطئة :

تحديد الفترة وطريقة العمل

إن « الطرف » الوارد في عنوان هذا القسم يحتمل ثوبين : أن يحمل حرف الجر « إلى » على معنى انطلق والابتداء ، فيقترب لبحث عند موئى القرن الخامس هجرى وشارف السادس ، ويكون عبد قاهر الجرجاني خاتمة إذ لم تجد بين تاريخ وفاته (471 هـ) ونهاية القرن حدوث تذكر في التأليف البلاغى .

وأن يحمل الحر على معنى العاية والانهاء ، فيستغرق الحديث كمال القرن لسادس ، ويدور على مساهمات ألفت بعد وفاة الجرجاني بمئ يزيد على القرن . وإذا ذلك تكون مشاركة السكاكى المتوفى سنة 626 هـ . خاتمة المصنف (1) .

وقد احتربا التأويل الثانى لتكتمل مراحل البلاغة ، ويعرف مآل ما أصل جرجاني من نظريات . وأجرى من تطبيقات . ومحقق في تربي

(1) يشير هنا إلى صموة بعد تاريخ التأليف بالنسبة إلى تاريخ الوفاء ، إذ لم تكن بحود البحث أدلة قطعه . وكثيرا ما لا تؤدى أنماث التي يستعملها المؤرخون عند إعدام الأدب بدمج .
و قد تم حاسبه بينى الاختيار موكولا إلى اجتهد البحث وعرضه من موضوعه . وجرى
و منه مبرر أن السكاكى مؤلفه المشهور مفتاح العلوم والعالى على العى أنه وقد
بين 596 هـ و 617 هـ (انظر أحمد مطلوب البلاغة عند السكاكى ، مشوراة مكتبة النهضة
ببغداد : ط 1964 ص 65) .

لست على دراسات البلاغية والقفائل بأن التفكير البلاغي قد ختم به ولم يستعد حظه من البحث الذي حاول ، فحدث في العلم روح محمود ، واكتشف لتعقيد مسأله (1) . ثم إن الوقوف بالبحث عند نهاية القرن السادس عشر حتى محاولات جديدة بالاهتمام ، كمحاولة الزمخشري المتوفى سنة 538هـ في تفسيره موسوم بالكشاف ، وهي من أبرز الإجراءات التطبيقية في التراث العربي التي استفادت استفادة مباشرة من دراسات عبد نقدر في باب المعاني حتى عدت «خير تطبيق على كل ما اهتدى إليه عبد نقدر من قواعد المعاني والبيان» (2) .

ولئن كان الخير التاريخي الذي تشغله هذه الفترة قريبا من حيز استرلين لساعتين إذ انتهيا ، مع الجاحظ ، إلى الصف الثاني من القرن الثالث ، فإن المادة البلاغية المنجزة فيها أكثر أضعاف المرات مما وهرته الفترات السابقة ، وليس في الأمر عراة ، فالحقب الأولى هي حقب التأسيس للعلم ، وتحسين مسلكه ومسائله ، فيحسب الفكر ولا يطلق شأنه في هذه الفترة التي زلت فيها المعوقات ، ومهدت العقبات . وساعد التطور المكري والحصري لعدم على بلورة تعلم واكتمال مباحته من وجهتي النظر والتطبيق

فإذا استلبنا مؤلفات الجاحظ وبعض مؤلفات اللغويين الأوائل ، من أمثال سيويه وأبي عبيدة والعراء ، أمكن القول بأن كل مصادر بحث تنزل في هذه المرحلة ، وهي مصادر كثيرة ينتمي أصحابها إلى بيئات فكرية مختلفة ساهمت في إرساء أصول هذا العلم ورسم اتجاهاته الكبرى بنسب متفاوتة .

نذكر من هذه البيئات بيئة النقاد والعلماء بالشعر . فقد حمى البحث عن عيار يميرون به جيد الشعر من رديته وقواعد تعتمد في صناعته إلى ترصيع

(1) دهر شوقي ص 6 البلاغة تطور وتاريخ ، الفصل الرابع ، ص 271 وما بعدها .
عبد العزيز عتيق في تاريخ البلاغة العربية ، بيروت ، 1970 ، ص 265 .

(2) عبد العزيز عتيق ، المرجع السابق .

مؤلفاتهم بإشارات بلاغية على جانب كبير من الأهمية ، وبالطرق في ما كتبو
 سره العلاقة المتينة بين البلاغة والنقد ، باعتبار الأولى جزءا من نظريتهم في
 الشعر ونحوها المفهومي الوحيد الذي أفرزته ممارستهم للبعد الفني في عصر
 الأدبي ، كما سترأى نشاط المتكلمين ومن علب عليهم الاهتمام بالرسائل
 قرآنية في هذه الحقبة . فتكثر التعابير وكتب الإعجاز ، وهي تشترك في تسو
 ص القرآني من جانب العبارة وكيفية أداء المعنى وفصل القراك عن غيره في
 ذلك ولا ماص من أن يؤول كل ذلك إلى مباحث بلاغية صميمية . تشاوب
 انفصلة بين الأساليب لأسباب ترجع إلى مظاهر بنوية صرف وستساهم
 كتب الإعجاز في طرح حملة من القضايا النظرية ، تناول بالتفكير مختلف
 الاستعمالات السوية ، ولا سيما ما يميز المستوى الإنشائي عن مستوى تعدي
 في الكلام . وسينمكن بعضهم انطلاقا من رؤية خاصة من بناء جهر مكسري
 متكامل يرد أشات المسائل إلى أصول قارة .

كما سيساهم الفلاسفة بقسط وافر في ربط الصلة بين التفكير اليوناني
 والتفكير العربي في فن القول وخصائص الشعر ، سواء بالترجمة المباشرة
 للأصول ليونانية في الموضوع ككتابي « الخطابة » و« الشعر » لأرسطو أو
 باحتهادهم في فهم هذه الأصول ومحاولة تطبيقها على الأدب العربي .

ونظرا إلى كثرة المساهمات وتنوع مشارب أصحابها ، رغب عن
 الاستعراض التاريخي المفصل خوف التكرار والإيهام بأن لها نفس نفص
 في تطوير لبحث البلاغي والسعي به إلى الاكتمال ، واحترما أن تتعامل مع هذه
 مادة من خلال أهم القضايا التي أثارها ممارسة العرب للبعد الإنشائي
 في سعة ، وهي القضايا التي يمكن عدّها أصول تفكيرهم البلاغي وأساس
 نظريتهم الأدبية والجمالية .

ورث ، تمهيدا لهذا العمل ، أن يبدأ بضبط « البداية الحسنة » لهذه
 لغته . وهي النقطة التي شعر ببلوغها أن البلاغة دخلت في طور يختلف عن
 طور يحفظ ، وسيجونا ذلك بطبيعة الحال ، إلى العناية ببعض المساهمات التي
 كست مددا هاما وقوة دافعة للدخول هذا المتخلف الجديد

1 - البداية الخاسمة لفترة ما بعد الجاحظ

استقبال التأليف البلاغي :

لش أجمع انتقاد والدارسون ، قديما وحديثا ، على أن " كذب " لبيد " بعد الله بن المعتز (ت . 296هـ) أول تأليف " وصف في البديع ورسم حدوده " (1) فأصبح صاحبه " إماما لكل من صموا " فيه (2) وغدا مؤلفه بالإصافة إلى " البيان والتبيين " " أنوادة لعلم البلاغة العربية " (3) وبدايته الخاسمة ، فإنه لا يسع اباحث إلا أن يشير إلى أنه جدت بين هذا الكتاب ومؤلفات الجاحظ محاولات قام بها اللغويون والفقهاء وكتاب الرسائل كثيرا ما أعرض الدارسون عن ذكرها أو اكتفوا بالإشارة إليها إشارة عابرة لوقوعها بين هذين "معظمين" المحسمين . ولهذه المحاولات أهمية كبرى من وجهة التاريخ لأطور نعم ، ولا سيما أنها ستمهد لبروز كتاب " البديع " وسيكون لها صدى في الكتب التي أتت بعده .

وأبرز هذه المحاولات اثنتان : واحدة لإبن قتيبة والأخرى للمسرد . أما محاولة ابن مسدد (ت . 279هـ) الموسومة " الرسالة العذراء " (4) فهي " قل " قمة من سادقة ونكد لا تقف على فكرة طريفة أو رأي لم يسبق أن رأيه

1) و (7) شوقي صمد ، البلاغة تطور وقاويخ : ص 75 .
2) جعفر عباس : تاريخ النقد الأدبي عند العرب : ص 121 .
3) شرب هذه الرسالة مع مقدمة بالمرسيه بتحقيق ركي مبارك : ط 2 ، القاهرة ، 1930 .

فهي لا تخرج عن فلك ما رسم الجاحظ في «الياس والتيس» فيد مستتب
معومات خاصة بصناعة الكتابة لم تقف على شيء طريف يذكر إذ كتمت
صاحبها قبل بعض الأحكام الأسلوبية الواردة عند الجاحظ ونحصرها طريفة
لا نجد من لاقتصاص والجفاف . وقد قلص من أهمية الرسائل . في صرنا .
نعصب صاحبها بقلم والدفاع عن الكتاب والكتاب على حساب الشعر والشعر
وهو يتحرك من موقف معاد للشعر يتم عن ضيق ألق في إدراك علاقة شكس
الأدبي بالهبة اللغوية . فليس الشعر في رأيه . إلا جملة من «الأسرار»
سببها أنه - أي الشعر - «موطن اضطراب» (1) .

وقد وجد في تنويه الجاحظ بطبعة الكتاب (2) سنداً لنعصبه لهم فنقل
رأيه في تفوقهم في البلاغة والتزامهم في التماس اللفظ المترلة الوسطى (3) ،
ويبدو تأثيره به في إلحاحه على نظرية المواضع وتحريض الكتاب على مراعاة
مترلة مخاطبيهم .

«.....) ولا تخاطبن خاصاً بكلام عام ولا عاماً بكلام خاص فمتى
خاطبت أحداً بغير ما يشاكله فقد أجريت الكلام غير مجراه وكشفتة (.....)
فلا تخرجن كلمة حتى ترينها مميزاتا فتعرف تمامها ونظامها ومواردها
ومصادرهما وتحب ما فطرت الألفاظ الوحشية . وارفع عن الألفاظ
استخيفة» (4) .

ومن ثم باعد بين أسلوب القرآن وأسلوب الرسائل موصفاً بعامه متمم
لأول في الثاني . لأد المخاطب بالقرآن فصيح وبالرسائل دحيلى على اللغة (5)

(1) الرسالة للقدراء ، ص 19 .

(2) انظر القسم الثاني من هذا الفصل .

(3) الرسالة للقدراء ، ص 35 .

(4) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(5) ص 10 .

كما تقل عن الجاحظ رأيه في علاقة اللفظ بالمعنى ، وهو رأي سبكرز
 ١، شأن كبير في تحت معالم المرقف العربي جملة من هذه العنصية . فقد شبه
 أبو عثمان معاني بالغواني والألفاظ بالمعارض . وهذا التشبيه يشهد بصوره
 وضعه بمصدا الشكل عن المضمون وبروز فكرة المحسنات كزينة تصدف إلى
 معنى ولا تنصهر فيه .

كما يرى رأيه في بلاغة القول وتأثيره في متقبله ، وبعلقه سلالته عن صر
 هي لمعى يبيع واللفظ الراقق والسلك الناطم (1) .

وفي قسم من أقسام الرسالة بكثير من النقل عن الجاحظ . أو من مصادر
 التي استقى منها هذا الأخير بدون أن يصرح بذلك رغم «صابقة» بنفس
 نفس (2) . يبدو ذلك حليا في حدة البلاغة وحديثه عن العلامات اسالة . وهو
 يقسمها . كالجاحظ ، إلى قسمين : اللفظ والإشارة والعقد واللفظ في ناحية
 والنسبة في ناحية ثانية وبفاصل بينهما تعال للصورة والخلية وإن كانت جميعها
 « كاشفة عن أعيان المعاني » (3) .

ولكل هذه الاعتبارات المقدمة يبدو لنا أنه بولغ في تقييم هذه الرسالة
 وبرزاز أهميتها لتوضيح « طبيعة الحركة الأدبية في القرن الثالث » ومعرفة
 المقاييس «صابقة» لصناعة الكتابة (4) . نعم إنها رسالة في مقاييس صناعة الكتابة
 «لا أن» كل ذلك المقاييس تقريبا أخذها صاحبها بنصها من مؤلفات «صابقة» (5)
 بدون أن يضيف إليها شيئا يذكر .

(1) الرسالة العلوية ، ص 32

(2) « » ص 39 .

(3) « » ص 40 .

(4) ركي مبركة ، المقدمة القروسية ، ص 8

(5) بشير ركي . رك في المقدمة المذكورة إلى الصداقة المتينة التي كانت قائمة بين الرجلين .
 ص 10 .

1 - ابن قتيبة :

بن قتيبة من العنماء الذين عرفوا بكثرة التأليف وتنوع المشاغل و سطر موسوعي ، لا اشتداد في الذب عن العقيدة والدفاع عن مذهب أهل السنة فهو مدام من أئمتهم البارزين شبهت مكانته بينهم بمكانة الجاحظ بين معتزلة (1)

و يدور عن أنه لم يترك مؤلفا صريح الانتساب إلى المذاهب الأربعة ، شأنه في ذلك شأن الجاحظ . مترعته الموسوعية ومشاركته بالتأليف في كثير من العلوم العربية الإسلامية جعلت آثاره لا تحلو من الإشارات البلاغية والأحكام الفنية التي تلمس صنوف القول وأفانين التعبير .

والدور في أشتات هذه الملاحظات ينتهي إلى نتيجة هامة تمثل أول وجه من وجوه لطرافة في هذه المساهمة وهي أن المادة البلاغية موزعة على مؤلفات تعكس بشكل حلي أهم العوامل التي لا بدت التفكير البلاغي نشأة وتطورا و كتمالا .

ففي « شعر والشعراء » لمحات بلاغية انتت عليها جزمة من الأحكام النقدية مما يؤكد على أهمية العامل الأدبي في فعالية البلاغة العربية عن مختلف أصورها التاريخية ، وبمعكس « أدب الكاتب » أهمية العامل الحضري عدم التمثل في تصور التنظيم الإداري والسياسي وبرور المؤسسات السلطانية محتاجة إلى طبقة يتلاءم علمها مع وظيفتها في صلب الدولة لذلك برر هذا النوع من نكتب مؤسس على قننهم القواعد الناجمة ليقوموا بواجبهم بما يرصي محدومهم

أما « تأويل مشكل القرآن » وه الاختلاف في اللفظ والرد على لجهمية ومعضة « فيدلان على أهمية العامل الديني عامة والكلامي بوجه خاص في إدراك المناقشات حول فصل النص القرآني على غيره وتفرده في صرائق الأداء

(1) بقدر من أهمية في هذا المعنى . وهو أهل السنة مثل الجاحظ لمعتزلة بوجه خاص أهله
السنة كآل الجاحظ طيب أئمتهم « نظر تفسير سورة الإخلاص . نظمه حبيب »
1326 هـ ، ص 86 .

ولئن كانت المادة البلاغية في «أدب الكاتب» لا تعدو بعض الاعتبارات
عممية في اختيار اللفظ والمعنى والجري على أساليب في التعبير فلائم طبعة
الترس. وكان رده على الجهمية والمعتلة يتناول التشبيه من وجهة عقلية
لا قيمة من مؤلفيه الآخرين «الشعر والشعراء» و«تأويل مشكل نقر»
يعتبرون مساهمة ذات بال في ميداني البلاغة والنقد الأدبي.

هناك من أبرز مؤلفات النقد الأدبي في نهاية القرن الثالث طرح فيه
صاحبه حملة من المشكلات النقدية اتهامه سياهم بها في رسم معالم هذا الفن
في أدب عربي وتكون محور حديث النقاد بعده. والكتاب - بدليل عنوانه -
ليس مقتصر على دراسة خصائص الشعر - النص - الفنية ومعايير
جودته وورده، فهو يتناول الشاعر أيضا بحكم أن هذا الأخير طرف أساسي
في عملية الخلق الفني.

وهذا القسم الثاني لا يعنىنا بصفة مباشرة كما تعنىنا الأحكام المتعلقة
بتفصيل لنص أدبي اعتمادا على خصائصه الذاتية وهي أحكام من صميم
البلاغة نظرا للعلاقة العضوية اللاحقة بين الشائطين؛ فالترس بالنص ومحاولة
تبين عناصر الجودة والرداءة فيه بمدنا بمقاييس تقنها البلاغة عونا للأدباء
على كتابة نص الجيد ومددا للنقاد بعينهم في مشعلهم. والبلاغة هي القسم
من النقد الذي يهتم بأحد أطراف عملية الخلق الفني. النص

أ) المادة البلاغية في «الشعر والشعراء» :

ب. نويها بقية الكتاب كنعلم من معالم النقد الأدبي لا يعني التفتت
لمادة بلاغية فيه غريبة وأن الأحكام المتعلقة بالنص متمكنة متطورة ومدة
محدودة لا تتجاوز الإشارة المقتضبة واللمحة السريعة بعيدا عن كل تعمق في
سنتصرص الظواهر الأسلوبية وتحليلها. والأحكام تغطي عليها لاسطة
مد يد على أن التفكير في جوهر النص أمر لم يشهد أمره فبقي الكتاب يدور

حجوب مشكلات سبق أن طرحت ولم يكن ابن قتيبة أحسن من سماعه حفظ في
لمزنتها وتطويعها بل لعله انحط عن مرتبة خصيمه الجاحظ في تخريج كثير
مها لأنه « يتشجع على حسمها مثلما فعل هذا الأخير » .

ومن أهم تلك المشكلات ثنائية اللفظ والمعنى ، فهي تحتل من « الشعر
وشعره » نص الرحي المولد لجلل أحكامه في الشعر فحلى بها صدر كتبه
وانحذه مقبسا لضبط أقسام الشعر الأربعة المعروفة (1) .

ورغم وصوح هذا التقسيم المغري المتكلف بصرامة المنطق بقي موقف
ابن قتيبة من القضية غير بين ورأيه في ماهية النص الأدبي مشكلا . فشن كان
موقفه من النوع الأول الذي « حسن لفظه وجاد معناه » (2) موقف جمهور
النقاد والمتأدبين وسعي كل أدب بل موقف من لا موقف له لاحتماء متبنيه
بالكمالات وتعلقه بعناية الجودة وإصابة القول . وهذا شأن النوع الرابع أيضا
وهو الذي « تأخر معناه وتأخر لفظه » (3) فلا اختلاف في اصراحه لسهولة
معدلاته ، فإن موقفه من النوع الثاني « ما حسن لفظه وحلا فإذا أنت فشنته م
تجد هنالك فائدة في المعنى » (4) والثالث الذي « جاد معناه وقصرت
ألفاظه » (5) غير واضح وليس في بقية الكتاب ما يعين على تبنيه ذهبت أن
أهمية المقاييس لم تلتزم في جوهر الكتاب ولم يبرر الجودة على أساس منها وإنما
استعاض عنها بانطباعات من قبيل « ومن جيد شعره قوله » (6) « ويستجد
من شعره ... » (7) « وأجود شعره » (8) .

(1) الشعر والشعراء ، ص 7 - 10 .

(2) أمصغر السابق ، ص 7 .

(3) « » ص 90 .

(4) « » ص 8 .

(5) « » ص 9 .

(6) « » ص 85 .

(7) « » ص 132 .

(8) « » ص 147 .

و مباشرة النص من هذه الزاوية وعلى أساس هذا التقسيم تطرح مجموعة من التساؤلات لم يكن همّ ابن قتيبة طرحها بله الإجابة عنها في طبيعتها .
قصيدة المعنى ذاتها . فمادا ، يا ترى ، كان قصد ابن قتيبة وقصد النقاد العرب ، قبله وبعده ، بالمعنى ؟

الجواب عن هذا السؤال عسير ويزيده عسرا مباشرتهم هذه لقضية من مبهور يشكو ، في رأينا ، نقصين كبيرين . أولهما اعتمادهم في برار معنى على البيت أو البيتين من الشعر معزولين عن سياق القصيدة العام وهذا أهم سبب منعهم من أن يطوروا هذه الثنائية ويكسبوها أبعادها بطلاق عليها نحن يوم . لشكس ومضمون . وسدّ أمامهم الطريق الموصلة إلى إدراك البنية الكلية للأثر الفني . وإن تكفي الإشارات القليلة إلى وحدة القصيدة لتلافي هذا النقص ، وثانيهما تقيدهم في ضبط وطيفة الفن ومعاها بالوظيفة العامة للغة واعتبارهم الشعر سجّج مفاخرهم ومجلد مآثرهم فاحتلظ المعنى بالقيمة سواء كانت أخلاقية أو اجتماعية أو فكرية ، وإن يتسنى للدارس الإحاطة بنظريتهم في المعنى إلا بعد استقراء دقيق لكل السامح المتوفرة في مؤلفاتهم وليس هذا غرضنا .

كما صرح « الشعر والشعراء » مسألة ثابتة سبق الحافظ إلى طرحها في « البيان والتبيين » بشكل حاد وهي ثنائية الطبع والتكلف التي يمثل لحوض فيها دسامة من دعائم نظرية الخلق الفني ، قديما وحديثا . لأنها تهتم بتحديد نوع لعلاقة القائمة بين النص ومنجزه والقوى التي يتولد عنها النص .

وم يحرح ابن قتيبة في تناول هذه المسألة عن الحدود التي رسمها الحافظ وإن راد عليه بعض الشروح والشواهد والتوسع في التعريف .

تعريفه للشاعر المتكلف هو تعريف صاحب « البيان والتبيين » في معناه وبعض عباراته .

« (١) فالتكلف هو الذي قوم شعراء بالتفاف ونقحه بطور مفيش
وَأَعَد فيه انظر بعد النظر كرهير والحطبة وكان الأصمعي يقول رهير
وخصيته وشاههما من الشعراء عييد الشعر لأنهم نقحوه ولم يدهو فيه مذهب
مصوغين وكان الحطبة يقول خبر الشعر الحولي المتقح المحكث » (١)

ومصوغ من أشعراء « من مسح بالشعر واقتدر على التوقي وأرك في
صدر بيته عمزه وفي فاتحته قافيته وتبينت على شعره رونق انطبع ووشي الغريزة
وإذا امتحن لم ينعمم ولم يتحرر » (2) .

والناظر في النصين يلاحظ المأزق الذي وقع فيه النقاد لأعتبرهم صرفي
لثائية متدافعين متعاقبين لا يجتمعان . فهل يمنع تعهد الشاعر شعره وتلقيحه
من إدراك قدرته على التواني وأن تكون القصيدة متلاحمة مترابطة بحيث نرى
في صدر البيت عجزه وفي فاتحته قافيته « يبدو ابن قتيبة في حرج وأكبر دليل
على ذلك اضطرابه إلى إعادة مصطلح انطبع في المتن الذي جعل لتعريف المصوغ
فعطف قائلا « وتبينت على شعره رونق الطبع ووشي الغريزة » ونصرم التعريف
وبقي المعرف غير معروف لا يدرك إلا بالغس والانطباع .

و قد انتقنا إلى تعريفه الشعر المتكلف وهو الممين عما « نزل بصاحبه من
طوب التفكير وشدة العناء ورشح الحين وكثرة الضرورات وحذف ما يصعب
حاجة إليه وزيادة ما بالمعاني هي عنه » (3) ثبين لنا أنه ضعيف بصفة تعريف
الشاعر متكلف بحيث لا ينتج عن تكلف هذا الأخير شعر متكلف بالضرورة
فيس شعر رهير والحطبة ، وهما نموذج الشاعر المتكلف . من قبل بيت
بمرردو بندي أورده مثالا للشعر المتكلف إذ يقول / طويل /

وعصم ركب يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحت أو محتف

(١) الشعر والشعراء ، ص 17 .

(٢) قصص السابق ، ص 26 .

(٣) « » ، ص 24 .

مرجع الشاعر / آخر البيت ضرورة وأنعب أهل الإعراب في طلب
مئة فضلو وأكثروا ، (1) .

• خلاصة أن فهمه للمتكلف لا يختلف عن فهم الجاحظ . وقد نص
على الشاعر ذلك على تعهد الشعر ومعاودته بالتقبيح والتهدير شرعاً لا
يظهر أثر ذلك على أديم النص وإذا ألصق بالشعر دلّ على التصنع وردة
الطبع والعمل ومصادقاً لما تقول مزاحته في العت أحياناً . بين سكف من
جهة ، وعودة والإحكام من جهة أخرى (2) ولعل السبب الذي جعل
من قتيبة متخرجاً ، كالجاحظ ، من ثنائية الطبع والتكلف . لا يقف له
في الموضوع على رأي قاطع صريح إرادته التوفيق بين مستزمتي الفن
كنهج في الأداء يتطلب من منجزه حداً أدنى من الوعي والوظيفة القصوى التي
رسوبها لكل نص وهي الإبانة والفهم والإفهام . الوظيفة الاجتماعية
سنة ... وقد أنتج هذا التوفيق أحكاماً نقدية مشهورة من قبيل « أسير الشعر
والكلام مطمع » : « قال أبو محمد وهذا يكثر وفيما ذكرت منه ما دلت
على ما أردت من اختيارك أحسن الروي وأسهل الألفاظ وأبعده من التعقيد
ولاستكره وأقربها من أهام العوام وكذلك أحتر للخطيب هذا الخطب
وسكاف ، إذ كتب فإنه يقال أسير الشعر والكلام المطمع » (3) .

والعدي التي ليس بعدها غاية في هذا النطاق أن يحرح الشعر عن كلام
العدي ويعود إليه بقدرة الشاعر وتحكمه في منه فيصح الشعر كلاماً :

« ويضاف كـب التابعة أحسنهم ديباجة شعر وأكثرهم رونق كلام وأحرلهم
بيتاً كان شعره كلاماً ليس فيه تكلف » (4)

(1) الشعر والشعراء ، ص 24 .

(2) « نفس تصفية » .

(3) « ص 35 .

(4) « ص 70 .

« وكان أبو العتاهية أحد المطبوعين ومعنى يكاد يكون كلامه كله شعراً » (1)

أما القصيدة الثالثة المتعلقة بنظرية النص فهي إدراكه قفراً من صرف خاصة في الأداء وهو مظهر لا يخلو من الطرافة لأنه يفصل بين مدحوب وعادة في أسعة ومدلولها في الشعر ويحمل المعنى على غير ما تقتضيه الدلالة «وصعية» منطقية وهو بهذا الصنيع يساهم في تأسيس منطق للشعر يعاير منطق الصوري المحدد لعلاقة الكميات والأشياء . فلقد عاب بعض النقاد على امرئ القيس مضمون بيته / طويل /

أغورك مي أن حبك قاتلي وأنك مهما تأمري القنب بهم
وقد لرا : « إذا كان هذا لا يغر فما الذي يغرّ إنما هذا كأسير ذل لآسره
أغورك مني أني في يدك وفي إسارك وأنك ملكت سيفك دمي » (2) ويرفض أبو محمد رأيهم مبرزاً فساد قياسهم مشيراً من طرف خفي إلى مجاز المعنى أو ما يسمى في وقت لاحق «معنى المعنى» : « قال أبو محمد ولا أرى هذا عيب ولا المثل المضروب له شكلاً لأنه لم يرد بقوله حبك قاتلي لقتل بعينه وإنما أراد به أنه قد برح به فكأنه قد قتلني وهذا كما يقول القائل قتلني امرأة بدلها وبعينها وقتلني فلان بكلامه » (3) .

فيمكن أن لا يقتصر على تصوير العالم الخارجي تصويراً يحقق علاقة اللغة بالأشياء من منطق المواضع فهناك علاقة الشاعر باللغة وطريقته الخاصة في تحسس العالم والتعبير عنه بما يوافق ذلك فتخرج اللغة عن مجاز الأشياء ولكلمات ونصيح أداة تخدم الانفعالات النفسية وحالات الشاعر ورغباته الدفينة . فإذا قال الشاعر / طويل /

هما راا برّدي طسا من ثيابها إلى الخول حتى أهبج الرد دلي

(1) الشعر والشعراء ، ص 497

(2) « » ص 56 .

(3) « » ص 56 .

يجب ألا يحكم عليه باستحالة دعواه ومخالفتها للمصر فقوله
يحمل « على التوهم لقرط العشق » (1) .

وهذه لإشارات . على قلتها وبساطة محتواها . تعد مكسب همد من
مكسب الصربة الأدبية عند العرب وخطوة إيجابية نحو فهم وصيفة همد
لأصله بعيدا عن كل تمحيق فقهي ومنطقي .

ثم لمحدث البلاغية المتعلقة بالمصطلح والصورة فصيلة في همد مؤلف
ويؤكد يقصر المؤلف على ملاحظة الوجه ملاحظة غارية عن كل تعمق
لا يستند فيها إلى قاعدة نظرية أو رؤية واضحة لمعولها الفني



ولصورة التي تواترت هي التشبيه (2) وليس في الأمر غربة فهو
أكثر الأساليب انتشارا في الشعر العربي وأكثر الأنواع البلاغية أهمية بلسنة
في النقد القديم لذلك كان من أول المباحث التي تبلورت في الفترات الأولى
من تاريخ بلاغة العربية ولأهميته عندهم اعتبروه مقياسا من مقييس اختبار
الشعر وحفظه :

« وليس كل الشعر يختار ويحفظ على جودة اللفظ والمعنى ولكنه
قد يحتر ويحفظ على أسباب منها الإصابة في التشبيه كقول الفائق في وصف
القمر / طويل /

بدآن ب وابن البالي كأنه حسام جلت عنه العيون صقيل » (3)
وسر عنه فضل الشاعر وسبقه غيره فلو الرمة عد من المتقدمين
لأنه أحسن الناس تشبيها وأجودهم تشبيها » (4) .

(1) الشعر والشعراء ، ص 241 .

(2) انظر مثلا صفحات 21 ، 29 ، 40 ، 52 ، 55 ، 58 ، 169 ، 231 ، 232 ، 233 ، 509 ، 515 .

(3) مصدر المصنف . ص 21 .

(4) مصدر السابق ، ص 29 .

و سحر في « الشعر والشعراء » يلاحظ أن التشبيه لم يكن مقصود
 منه لادائه وإنما استعمل كوسيلة من الوسائل التي تمكن من مصادفة
 بين شعراء وتحديد طغاتهم لذلك لم يحلل ابن قتيبة التشبيهات التي تضمنها
 شعر يزيد في كتابه ولم يبرز فضلها في التعبير فجاءت ملاحظته مقتضبة
 سريعة دون ما نلعه أسلافه في هذا المصمار ، فهو ، مثلاً ، يستشهد بيت
 امرئ القيس المشهور / طويل /

كأن قلوب الخيل رطبا ويابسا لدى وكرها العباب والخشب سي
 ويسكت عن نوع التشبيه ولا يلاحظ ما لاحظناه سابقوه من أنه من أجود
 تشبيهات تضمنه تشبيه شيئين بشيئين (1) .

وكما وظف ابن قتيبة التشبيه لتسجيل جودة الشعر فقد استخدمه لإبراز
 مفهومه للابتداع أو البديع وجسلة الصور الواردة في هذا الشأن تؤكد على
 أنه يجري في فهم البديع على المعنى السائر في ذلك الوقت وهو السبق في لوجه
 فيكون المصطلح جامعا لمعنيين السبق . من جهة ، والوجه الإبلاغي مطلق ،
 من جهة أخرى . وقد وردت أغلب هذه الصور في أخبار امرئ القيس
 وهذا من شأنه تأكيد معنى السبق :

« وقد سبق امرؤ القيس إلى أشياء ابتدعها واستحسنها العرب وتبعته
 عبيها الشعراء » (2) .

« وهو أول من شه الخيل بالعض والمقوة والسباع والقطاء والخيل
 فتبعه شعراء على تشبيهها بهذه الأوصاف » (3) .

(1) الشعر والشعراء ، ص 40 .

(2) « » ، ص 40 .

(3) انصهر الساق ، ص 52 .

وموضوع الكتاب وغايته ومنهجه واصحة من العنوان ومطلع
موضوع « مشكل القرآن » ولئن لم ير ابن قتيبة حاجة إلى تفسير بعضه
من الأمثلة العديدة قلّ على أن المقصود صنع من التعابير يثير فهمها مشككة
لأنها حرجت عن مألوف الاستعمال وهي لذلك قد تؤدي إلى اللبس وخصوص
وتكون حجة « للطاعنين » و « المخادعين » (1) .

ومعينة السامع عن القرآن وبيان فصله ومنه الذرائع أمام السامع
و « قطع قطع الكائدين » (2) كان لا بد من منهج يرد الأمور إلى نصيبها
ويتجاوز لإشكال الظاهر على سطح النص إلى حقيقة سرمدية يجتمع عليها
أهل الاعتقاد وقد ضبط ذلك المنهج في مصطلح « التأويل » و ابن قتيبة
لا يستنكف ، رغم أصالة السنية من التوسل بمفهوم أحاطت به جملة من
أرباب لغواته على لسان نحل أخرى لا يثنى السنيون في سلامة عقيدتهم
وصفاء نواياهم . وليس « تأويل مشكل القرآن » المؤلف الوحيد الذي احتار له
هذا العنوان فله في « الحديث » كتاب مشهور بهذا العنوان . (3) ولكن
المؤلف لا يترك معنى المصطلح مطلقا فيحدد أبعاده وإذا إياه إلى حضرة
الإتباع والاهتداء برأي الأئمة من العلماء :

« فأنفت هذا الكتاب جامعا لتأويل مشكل القرآن مستنبط ذلك من
لتفسير بزيادة في الشرح والإيضاح . وحاملا ما لم أعلم فيه مقالا لإمام مطلع
على لغات العرب لأرى به المعاند موضع المنجار وطريق الإمكان . من غير
أن أحكم فيه برأي أو أقضي عليه بتأويل » (4)

والتأويل ، في قضية الحال ، يتصل بأشكال التعبير الظاهرة وردّها إلى
مستوى أصلي ليكشف المعنى بالدلالة الوضعية ويبين أن الخروج عن مألوف

(1) تأويل مشكل القرآن ، ص 132 .

(2) معبر السبق ، ص 3 .

(3) مر « تأويل مختلف الحديث » .

(4) تأويل مشكل القرآن ، ص 23 .

معناه لا يدل من ذات المعنى وإنما هو معنى إضافي يتركب على معنى أصلي ومن هنا برزت ضرورة تزامن وصف الأشكال الأصيلة ولأشكال معدولة والبحث . في كل مرة ، عن المصطلح الملائم لنوع العدول أو الحروخ ، تعليفة معنوية من المعاني قطعاً لدابر العشب اللعوي خاصة ولأمر يتعلق بنص لقرآني . والتأويل من هذا المنظور ، استخراج مجهول من مفهوم يستوجب لارتباط من مقدمات تصون التأويل عن الزلل وتبشع بسلامة النتيجة واستقامة الاستنتاج .

والقدمة المنهجية التي تقرر في نفسها ، في هذا العدد ، مقدمة ذات فرعين . اعتبار المجاز قاسماً مشتركاً أعظم بين اللغات وضرورة في التعبير لا مناص من ركبها إذ ينبغي « لمن قد عرف اللغة أن يقول يقع فيه استجاز » (1) وتقفق العربية على سائر اللغات لافتنان أهلها في الأساليب وشدة عارضتهم في البيان واتساعهم في المجاز

« وإنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره واتسع علمه وفهم مذهب العرب وفتنها في الأساليب وما خص به لغتها دون جميع اللغات ، فإنه ليس في جميع الأمم أوثبت من العارضة والبيان واتساع المجاز ، أو ثبته العرب » (2) .

وقد اقتضى ذلك البحث في تراث السلف عن مفهوم للمجاز يتلاءم والغرض المرسوم واستعراض تلك المنجزات حتى تقوم مقام الإطار العام الموضوعي الذي يتحرك منه ابن قتيبة لبلوغ ما يروم من تأويل والإفصاح بأن لتأويل مدغم ، تخجج التقليد التاريخي . وقد وجد تعبته لدى النحويين استعصم في فترة ما قبل الجاحظ والذين اتحنوا من الملوحة القرآنية بمصطلق شحاتهم من ثمار لعراء وأبي عبيدة . فحاء مفهوم المجاز في كتابه مظاهر للمفهوم

(1) تأويل مشكور القرآن . ص 109 ، وانظر في نفس المعنى ص 112

(2) « من 20 »

تبي غسدة كما أن الأساليب التي ضبطها لا تخرج عما كان صيغه هذا الأخير
ومعصره القراء .

« وسعرت المحاربات في الكلام ومعناها . طرق القوم وما حده فيها
لإسعاد وإثعيل . والقلب ، والتقديم ، والتأخير ، والحذف . وشكر ،
وإحساء ، والإظهار ، والتعريض والإفصاح ، والكناية ، والإيصال ،
ومحاسبة الواحد محاسبة الجميع ، والجمع خطاب الواحد ، والواحد
وجميع حصص الإثنين . والقصد لفظ الخصوص بمعنى العمود . ونقص
لعموم معنى الخصوص مع أشياء كثيرة سراها في أبواب المنهج من شيء
الله تعالى (1) .

ومنى وصلنا إلى هذه المرحلة استشرطنا النتيجة النهائية والخساسة التي
يروم بن قتيبة بلوغها وهي قوله : « وبكل هذه الملاحظات نزل القرآن » (2)
ومنصوق هذا الاستخلاص أن القرآن وإن خرج عن مألوف الكلام فهو ليس
بخارجاً عن أساليب العرب . وهذه قراءة تحتل حيزاً زاوية من كل المحاولات
البلاغية التي كان القرآن منشأها ونكس قوتها في أنها تخدم تصورهم لفضيلة
لإعجاز من جهة وتسمح بتحريح الآيات القرآنية المصرفة على إنشاء لغة
القرآن ، في حصرية العربية (3) على أقوم المسالك من جهة أخرى . ولؤلؤف
على أساليب العرب وحصرها وتبويبها يوفر المرحع التاريخي كدب يدل
على أن القرآن مسبوق من المادة اللغوية المشتركة بين جميع العرب . ويجري
على الأساليب التي حروا عليها . بمعنى أن خروجها عن المواضع العامة لا يعني
« حصرها عن » المواضع التي تختص « . حسب عبارة القاصي عبد

(1) تاريخ مشكل القرآن ، ص 20 .

(2) المصدر السابق ، ص 21 .

(3) مثل ذلك الآيات « وهذا لساد عربي مبين » (الشعراء/103) ، « فإني يمدني بسانتي فيشر
ب منير وتصور له قلوب له » (سورة النجم/97)

حدا (١) وتشمل هذه كل طرائق الأداء الفنية المندولة عن مألوف الاستعداد
وحتى نصح تراكمها على محور الزمن سه = كلامية = تصوف = لسه
للعبوة في أنها ستة خاصة داخل ستة عامة .

والقرآن نص في لا تخرج أساليبه عن إطار المواصفة الخاصة بنمته
في أساليب العرب الفصحاء الأيساء ، وهو وزيادها عدول عن الاستعمال
العادي مألوف . وهذا يصل إلى فكرة نعتبرها قطب الرخي في نظرية الإعجاز
عند العرب . من حيث الشكل اللغوي بدون شك ، وهي أن لا يجد في
تاريخ إعجاز القرآن ومؤلفاته الكثيرة من ربط الإعجاز بهذه الوجوه
والأساليب . والسبب في ذلك بسيط : فلا بد للنص القرآني ليمتاز عن
غيره من الكلام البشري - بما فيه الكلام الأدبي - أن يكون خروج عن
مفروح نفسه وإلا بطل الإعجاز ، ثم إن هذه الوجوه والأساليب تتعم
وعمم وإعجاز مقولتان متصادمتان لذلك سيجئون عن مسك وظهور
أخرى يصرونه بها .

ويمكن تلخيص ما تقدم على النحو الآتي :

- 1 لغة مولد الاستعمال العادي بنية التواصل بين أفراد المجموعة
- 2 أساليب العرب = خروج عن الاستعمال العادي
- 3 القرآن مخرج على أساليب العرب
- 4 إعجاز = خروج الخروج [عن أساليب العرب بما فيها
من مجازات] .

وبما أن غاية ابن قتيبة الرئيسية ليست البحث عن جوامع الإعجاز القرآني
وتمس في حصائمه اللغوية النوعية التي جعلت منه نصا فريدا مميذا وعم
مستعمه بنفس المادة اللغوية وجريه على أساليب معروفة ، فإنه قصر اهتمامه

(١) مطر في أبواب التوحيد والعدل - مجلد السادس عشر - تقديم أمين الحوي ،
" ، مؤسسة دار الكتب ، القاهرة ، 1960 / 1380 هـ - 220

حتى ، طرف لأول من المعادلة : أي دراسته أساليب العرب التي تأثر بها القرآن دراسة موسعة على جانب كبير من الترتيب والتبويب . لينتسك من رفع إشكالي الخاضل في ظاهر النص وإن لم يمنعه ذلك من الاستطراد ، أحببنا ، في ذكر حصائص القرآن و كعجيب نظمته « (1) وجمعه « الكثير من معديه في القليل من لمعه « (2) .

وبتير مؤلف ، قبل الانتقال إلى القسم الثاني من تأليفه . مشككة وثيقة لصفة باجانب العقائدي لكن نتائجها مستعكس على الدراسات الأدبية حيلة . وسمسهم بقسط وافر في لمت نظر البلاعيين للتأخرين إلى الكيفية الخاصة التي توطف به اللغة في النص وتحلص هذه المشكلة في التساؤل عن مدى صحة الأحكام المستحصصة من هذه الضرائق في التعبير ، الخارجة عن أصل الوضع وأبينة للمأوف في تعليق المعنى باللفظ أو هي بصورة أوضح علاقة المجاز بمقولتي الصدق والكذب . وقد حركه إلى إثارة هذه المشكلة موقف الطاعين على القرآن باستعماله المجاز وهو في رأيهم كذب يتنقض به جوهر الرسالة دتها . وقد كن رده عليهم شديد اللهجة معتبرا ما لهجوا به « من أشنع جهالاتهم وأدلهها على سوء نظرهم وقلة أهتمامهم » (3) وحققه عليهم لم يمنعه من التمسس بالحجة اللغوية الدقيقة التابعة من نظرية تاريخية إلى أصول التعبير . وما يطرأ على المعنى من نظور قد يحجب المعنى الأصلي . فقد تبين له أن أكثر لكلام مجازي ي نظر إلى الأمور بمطار عقلي صارم يحترم حدود أقسام الكلام والعلاقات المنطقية التي يمكن أن تقوم بينها .

« وأما الطاعنون على القرآن بالمجاز فإنهم زعموا أنه كذب لأن الجذر لا يُريد والفريفة لا تسأل وهذا من أشنع جهالاتهم وأدلهها على سوء نظرهم وقلة أهتمامهم ولو كان المجاز كذبا وكل فعل ينسب إلى غير الحيوان خطأ

(1) و (2) تأويل مشكل القرآن ، ص 3 .

(3) المصدر السابق ، نفس الصفحة

كـ كثير كلامنا فاسدا لأننا نقول نبت البقل وطالت الشجرة وأسعت
 الشجرة (.....) ولو قلنا للمتكلم لقوله : « جدار يريد أن ينقص » كيف كنت
 أنت قذلا في جدار رأيت على شفا انهيـار : رأيت جدار ماذا « لم يجد » من
 أن يقول جدار بهم أن ينقص أو يكاد ينقص (....) وأيا ما قل فقد جعله
 فعلا ولا أحسنه يصل إلى هذا المعنى في شيء من لغات العجم إلا مثل هذه
 الأصناف (١) ولم تسمح الفهجة الدفاعية الطاغية على الكتاب باستمرار أبعاد
 هذا موقف اللهام ، والنموذج على محزونة اللعوي الخفيفي . حتى لا يبقى
 الحديث محصورا في هذا الأفق الضيق من نقي المجاز أو إثباته فقد كان في
 مقدور مؤلف أن يحوله إلى بحث في تطور اللغات وعلاقة المجاز بالحقيقة ،
 وتولد أحدهم عن الآخر تولدا ذاتيا معقول عوامل خارجية حافة وأخرى
 داخلية صميمية . بل كان بإمكانه أن يتفطن في هذه الحقبة المبكرة من تاريخ
 العلوم اللغوية والبلاغية إلى التركيبة المعقدة التي تتظم مؤسسة اللغة وإلى أن
 تقسيم مسالك أدائها هذه القسمة الثابتة القطنة : - الحقيقة والمجاز - تقسيم
 قد يكون صادقا من وجهة عملية إلا أنه بصرف نظر الباحث عن كثير من
 القضايا اللغوية الجوهرية .

فمن المسائل التي كان بالإمكان إثارتها التساؤل عما إذا كان كل مجاز
 يتركب على حقيقة ، فما هي حقيقة جملة من نوع « طالت الشجرة » وأسعت
 الشجرة « وحتى إذا ما قدرنا الفعل للمخالف في الجملتين فإن الحقيقة الناتجة ترضي
 العقيدة لا لغة ، وكان بالإمكان التعمق في بحث أطوار اللغة وتولد مستوياتها فإذا
 سمعنا أن المجاز يتطور عن الحقيقة فإن المجاز بدووه يولد ، بفعل الزمن ، حقيقة بأ
 يسى ، مستعمرة الأصل المجازي ويتحول ما كان بالأصل ابتداء إلى اشتراك

لم يكن هم ابن قتيبة دراسة هذا الجانب من وجهة لغوية حاصلة ، وإنما
 أدى به إليه دعوته عن القرآن وبحثه عن الحجج التي يدعم بها مقدمته « ليرى

(١) تأويل مشكل القرآن ، ص 132

معدود موضع المجاز (1) . وستلقف اللغويون المتأخرون هذه الإشارة ويدرجونها ضمن خصائص العربية وأصولها . إلا أنهم سيستفيدون مما رسمه من قبله ولن يطوروا هذا البحث تطويراً كبيراً (2) .

والنتيجة الأدبية لدفاعه عن المجاز وإبطال رأي الفائل بأنه كذب فهي موقفه مناصر للشعراء على حساب المتشددين من المعويين والتقدميين كمن يؤحدونهم بشعرهم المنسوب إلى الإفراط وتجاوز المقدار . فقد كتب برب (3) أن ذلك حائر حسن لأن القصد منه إيالة في التعبير عن الفكرة وتأكيدها . ويعتبر موقفه من هذا النهج في التعبير أوضح موقف إلى عهده . وسنرى أن الخوض في هذا الموضوع سيصبح في وقت لاحق قضية من قضايا نقد النكري . أما القسم المخصص لدراسة أوجه المجاز دراسة معصلة بضبط الحدود ويراد شواهد وفق ترتيب وتبويب لم نعهدهما في جهود البلاغيين السابقين فيسترعي الانتباه من عدة جوانب :

أولهما غياب « التشبيه » عن المحارات الثمانية عشر التي ذكرها . فبالإضافة إلى أنه لم يخصه باب ، كانت نسبة تواتر المصطلح في الكتب ضئيلة (4) . فم سبب هذا السكوت وقد رأيناه في « الشعر والشعراء » كثير لا اهتمام به حتى غداً مقياساً من مقاييس جودة الشعر القارة ؟

من تطور قضايا البلاغة وتاريخ تأليف الكتاب لا يصبر أن ذلك فمن جهة تصور نعم ذكرنا أن التشبيه كان في صدر المسائل البلاغية التي اهتمت إليها

(1) تأويل مشكل القرآن ، ص 23

(2) من أبرز اللغويين القائلين بهذا أبو الفتح عثمان بن جني في كتاب أخصائص شعر عن سيبويه ، باب « فيما يؤمنه علم العربية من الاعتقادات الدينية » 34 و 249 فهو يسمعه بعونه « () » وطريق ذلك أن هذه الفقه أكثرها حار على اللحن وتجدد بخرج السي من حقه .

(3) تأويل مشكل القرآن ، ص 172

(4) انظر مثلاً ، المصدر السابق ، ص 245 - 247 .

عرب وقد ساهم علماء القرون الثاني وبداية الثالث في إرساء معناه وتوضيح
نفسه ومعانيه فلا يحفل أن يكون ابن قتيبة جاهلاً بكل هذه معنويات
ولا مسلماً أنه دلّ - في عديد المواضع من مؤلفاته - على معرفة رقيقة بمقولات
ثمة اللغة في مختلف العلوم العربية الإسلامية .

وافتراض أن « تأويل مشكل القرآن » ألف قبل « الشعر والشعراء » لا
يرفع لاستعرااب ولا يحجب عن السؤال والحجة من مادة الكتاب نفسه : فمن
غير معقول أن يتصل مؤلف يجهل التشبيه لمبحث الاستعارة ويحصي سبب
بذلك الطول (1) خاصة أنها أقل الأبواب تبوراً في الفترات السابقة ويحتاج
تصورها إلى إحاطة بالتشبيه لأن قسمها الأكبر يقوم على علاقة التشكبة ومشبهة .
ماسب عني الظن أن سكوته عن باب التشبيه في مؤلف يشدّد النص
لقرآني يعود إلى أسباب عقائدية لا يست نشاطه اللغوي ومشاركته في نبلاغة .
فبعض المصادر القديمة تهمه بالانتماء إلى المشبهة (2) وأصل هذه التهمة
وقوف ابن قتيبة من بعض الآيات المحتوية على تشبيه الذات الإلهية عند صهر
لنص دون تأويل (3) .

وليس غرضنا إثبات هذه التهمة أو دمجها بذلك خارج عن حدود بحثنا
وإنه غرضنا أن نبين مدى تأثير العوامل غير البلاغية في البحث اسلاعي . فسوء
سكت مؤلف عن التشبيه تفصيلاً وتقية أو خوفاً على العقيدة من نفس الاعتقاد
لثبهم - والتشبهة واحدة وهي ضرورة الاعتزاز في الاستخلاص وحترم
لأسس الحقيقة التي تتحرك عليها كل الإقرايات الفكرية لأديب أو معصر
أو لثمة بأسرها فلا يتسنى - في رأينا - قطع النصوص عن أصولها وتأليف
سببها بدون مراعاة هذه الأصول .

(1) يبدأ بحث الاستعارة من صفحة 135

(2) انظر : الحافظ ابن عسك ، ميراث الاعتدال : طبع مصر (د.ت.) 77/2

(3) طر عن سبيل المثال : تأويل مشكل الحديث ، ص 67 والاختلاف في اللغات ص 28 29

ثم الحوب الثاني اللافت للانتباه في هذه القائمة فهو عيب الترتيب
 بدحي بين مختلف الوجوه وحتى بالنسبة إلى الوجه الواحد فلنفتح
 القسم باب الاستعارة ، لأن أكثر المعجاز يقع فيه (1) ويكون بهذا التصنيع
 أوب من أشار إلى أهميتها وخلق سنة في التأليف ميقتها حل أسلاعين بعده
 ولا سيما عند الله من المعتر في كتابه « البديع » الذي افتتحه باب الاستعارة
 خمس سبب (2) . فإنه فصل بينها وبين الكناية والتعريض بعده أبواب تتعنى
 بالتركيب كتاب « الحذف والاختصار » (3) وباب « تكرار الكلام وريادة
 فيه » (4) ثم يعود إلى ذكر بعض أنواع الاستعارة (5) وتأتي في نهاية أبواب
 متعلقة بدلالات لألفاظ كتاب « اللفظ الواحد للمعاني المختلفة » (6) وهو
 يبحث لغوي هام مثير الفسلة تعلم المعاني ، يليه باب خاص « تفسير حروف
 لمعاني وماشكاتها من الأفعال التي لا تنصرف » (7) .

وواضح من كل ما تقدم أن الرابط بين كل الأبواب والمنظم لها نشأؤه
 إلى المجاز ولهذا السبب لم يفكر في تقسيم خاص جزئي داخل التقسيم العام
 الشامل الذي يتسع لكل الألوان البلاغية

وسرى أن الدراسات اللاحقة لم تكن أكثر إحكاما في الترتيب والتبويب
 إلا بعد أن حددت المجال الدلالي لمصطلح المجاز وخرجت به عن دلالة القرن
 الثاني فقصرت على الصورة وكميات التعبير التي تعتمد معنى المعنى « الوصول
 في العرص (8) .

(1) تأويل مشكر القرآن ، ص 134 .

(2) مفصل القول في ذلك فيما بعد

(3) يبدأ هذا الباب من الصفحة 210

(4) ص 232 وما بعدها .

(5) ص 302 .

(6) ص 439 وما بعدها

(7) ص 517 وما بعدها .

(8) انظر في ذلك العدة ، 266/1 ومفتاح العلوم ص 171 172 .

و يسر مصطلح المجاز المصطلح الوحيد الذي استعمله ابن قتيبة استعمالاً
مقصوداً، يصيغ معه القصد وتنطس حدود الوجه فتداخل حصائمه مع
حصائمه وحوه شبيهة به ويظهر ذلك، بوجه خاص، في ذات الاستعارة
فمن تعريف القصرح تفهم أن المؤلف سيوسع من دائرتها بحيث تصير
الاستعارة كما حددت في الدراسات الموالية مسائل أخرى بها به صفة
لا أب تحذف عنها كالمجاز المرسل بمختلف علاقاته والكناية

فيقول في التعريف : « فالعرب تستعير الكلمة فتصعها مكان كلمة إذا
كان سمي بها بسبب من الأخرى أو مجاوراً لها أو مشاكلاً فيقولون للنبات
نوء لأنه يكون عن النوء عندهم » (1) .

فالمرع الأول من هذا التعريف يطبق على المجاز المرسل والمرع الثاني
على الكناية أما الثالث فيطبق على الاستعارة .

وإذا انتقلنا إلى الشواهد العديدة نؤكد ما ذهبنا إليه . فمن تلك الشواهد
قوله : « يقولون للمطر سماء لأنه من السماء يرب فيقال ما زلنا نطأ السماء حتى
أنيناكم . قال الشاعر : (الوافر)

إذا سقط السماء بأرض قوم رعياء وإن كانوا غضالا » (2)

وسيدرج علماء البلاغة المتأخرون هذا البيت في المجاز المرسل المقدم على
علاقة لسبية وإنما حمل ابن قتيبة على هذا المذهب اعتماداً على أسلافه خاصة
الجاحظ . ويبدو أنه تأثره في إيراد هذا الشاهد دون أن يعيد النظر فيه .

ومن شواهد التي يتداخل فيها مفهوم الكناية والاستعارة تعسفه أو صيغ
غير الآية « ولكن تواعدوهن مسراً » (3) يقول السر . اسكح لك
سكح يكون سرا ولا يظهر فاستعير له السر » (4) .

(1) نزيل مشكل القرآن ، ص 135 .

(2) مصدر الباي ، نفس الصفحة .

(3) البقرة/235

(4) نزيل مشكل القرآن ، ص 124 .

من أن من الشواهد ما قد دل على أنه يدخل التشبيه في الاستعارة كتحريره
 الآية « يسأؤكم خبرت لكم » (1) يقول : « أي مردوخ كمت مردوخ
 لأرض » (2) .

والإضافة إلى كل ما تقدم يلاحظ أنه لا فرق بين نوعي الاستعارة
 رئيسيين لاستعارته القائمة على التشبيه ذات الغرض البلاغي الواضح والاستعارة
 غير متباعدة التي أطلق عليها قدامة بن جعفر « فاسد الاستعارة » (3) وهي
 مرتكزة على روح من التوسع لا يحترم اختصاص الكلمة في الدلالة كأن نطق
 أعصم محبوب ، مثلاً ، على الإنسان كقول الشاعر . (طويل)

سأسمعها أو سوف أجعل أمرها إلى ملك أظلافه لم تشفق
 وقول الآخر : (طويل)

قروا حرك العميان لما جھوته وقنص عن برد الشراب مشافره

ولم يشر ابن قتيبة إلى ما في الآيات من مسالة في التحقير و لهجاء وكأنها
 بنسبة إليه « لا تحمل معنى من المعاني ولا تهدف إلى غرض بلاغي وإنما كان
 هذا الإطلاق من باب التوسع اللغوي » (4) .

وعلى هذا البسط يتبين لنا أن الاستعارة . عنده ، تصمم "أشداً من
 الأساليب فهو يصنفها على جميع أصناف المجاز المعروفة إلى وقتها من عند
 تعبيرات طارئة على بنية الجملة وبمقارنتها بمفهوم المجاز شيس " أنه يصنف
 معار على كثر التعبيرات الطارئة على مسالك الأداء سواء تعمقت "لحمية" أو
 بدهش حتى يكأنه يستعمله فيما يدل عليه مصطلح الالاعة

(1) الآية 223 .

(2) تأويل مشكل القرآن ، ص 125 .

(3) بعد الشعر ، ص 103 .

(4) عبد القادر حسين ، أثر النحاة في البحث البلاغي ، ص 183 .

١. لاستعارة فمعناها أصبغ من المجاز بالمعنى الذي تنادى وقريب من معناه
 ٢. يستعده المصادر في وقت لاحق أي أنها تشتمل على مسائل من قسمي
 سيد والبديع

والحاجب الثالث الذي يسترعي الانتباه يتعلق بطريقته في تناول الأبواب
 وهي تنقسم بخص على استقصاء مختلف جوانب الوجه وإبرازها. يوضحها
 من شواهد مستقاة من القرآن والنثر. ولتوضيح ذلك نستشهد بما ورد في
 باب حذف ولاختصار فهو يستعرض أهم أشكاله المعروفة .

حذف النصف وإقامة المصاف إليه مقامه وجعل الفاعل له كقوله تعالى
 « وَسَاءَ فِرْيَةٌ الَّتِي كُنتَ فِيهَا » (١) أي سل أهلها .

أن توقع الفعل على شيئين وهو لأحدهما ونعصر لآخر فعنه كقوله
 سبحانه : « يَطْرُقُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانِ مُحَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ
 وَكَتَائِرٍ مِّنْ مَّعِينٍ » ثم قال « وَمَا كَيْفَ مِمَّا يَتَخَبَّطُونَ وَلَسَّخُمُ
 طَائِرٌ مِّمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٌ عِينٌ » (٢) والفاكهة واللحم والخور عيين لا
 يصف بهب وإنما أراد : ويؤثرون بلحم خير . ولتأكيد ذلك يستشهد بقول
 الشاعر : (الطويل)

نسر ه كأن الله يحدع أنه وعييه إن مولاه قاب به وفر
 أي يحدع أنه ويفقأ عييه .

أد يأتي بالكلام مبيا على أد أنه جوابا فيحذف الجواب اختصارا لعدم
 مخاطب به

« وَتَوَلَّا فَوَلَّ اللَّهُ عَلَىٰ كُمْ وَرَحْمَتُهُ وَإِنَّ اللَّهَ دَكُوفٌ رَّحِيمٌ » (٣)
 ويعلق قائلا : « أراد لعذبتكم محذف » .

(١) يوسف / ٨٢

٢ انعام / ١٨ ٢٢

٣ البقرة / ٢٥

حذف الكثرة والكلمتين

« وَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ » (1) « يعنى قدس
هم أكفرتهم ؟ »

« ومن الاختصار القسم بلا جواب إذا كان في الكلام بعده ما يدل على
الجواب »

« وَأَسْرَعَ عَمَلٍ عَرَقًا (...) يَوْمَ تُرْجَفُ الرَّاحِيقَةُ » (2) لم
يأت « وجواب لعلم السامع به إذ كان فيما تأخر من قوله دليل عليه

« ومنه أن نحذف « لا » من الكلام والمعنى إثباتها وهي تحذف مع ليس
كثيرا » : قَالَ لَهُ قَتَلْتُمْ قَدْ كُرُّ يَوْسُفَ « (3) أي لا تزال تذكر يوسف »
« ومن الاختصار أن نضم لغیر مذكور »

« حتى توارت بالحجاب » (4) « يعنى الشمس ولم يذكرها قبل ذلك » (5)
وقد يزوج بين هذا المحرص على التفصيل والتفريع وذكر الوظيفة فتر «
تارة » يطلق من الوظيفة وبني عليها الباب وإن كان يتركها لاستعرص
الأشكال والهيئات (6) ونراه تارة أخرى يعرض عن ذكر الوظائف أسماء
شأن باب الحذف والاختصار السابق .

ونحن أبرد سنة في كيفية تناول الأبواب ذكره أحيانا بحسن باب
ومساويه وهو بذلك أول من به إلى هذه السنة في التأليف التي ستمدو خصبة
قوة في كتاب « الدعي » لابن المعتز .



(1) آك هم . 1067

(2) د . ع . 1/6

(3) يوسف/89 .

(4) ص/32 .

(5) انظر في كل ما تقدم باب الحذف والاختصار 210 - 226

(6) انظر باب المعجزة ص 185 .

والخلاصة أن ابن قتيبة كان من أكبر المستعبدين ، في النصف الثاني من القرن الثالث هجريًا . من مجهودات اللغويين والأدباء قبله . فجمع . حوته مؤلفاتهم من معطيات تصل بمجارات العربية وحاول نظمها مع بعض ، دون مسألة ما يوضحها من الشواهد ويعين على بلورة حدودها

ولكن لم تنطوّر البلاغة على يديه على صعيد الاستداع والخلق ، دون بره . على ، وقف عليه أسلافه كأبي عبيدة والفرّاء والجاحظ فإن ذلك لا ينقص من قيمة مساهمته التي احتوت على كثير من الجوانب المهمة .

فرغم أنه لم يخصّ البلاغة بتأليف مستقل فإن تبويب مساهماتها بالصورة التي رأيناها في « تأويل مشكل القرآن » يعتبر خطوة حاسمة مهدت لظهور مؤلفات مستقلة التي لا نشك أنها استفادت من عمله .

وعدم تخصيص البلاغة بكتاب أمر هام في ذاته فكثرة مؤلفات مرحس وتنوعها و انتشار المادة البلاغية على طول تلك المؤلفات جعل منها أحسن دليل وأوسع باب عن العوامل الفعالة في نشأة البلاغة العربية . وليس في العربية فيما نعلم مؤلف ترجمت آثاره بصدق على أهمية تلك العوالم مثل ابن قتيبة .

ثم إن الرجل أثار عددا من القضايا الهامة ووقف من بعضها مواقف جريئة لا يضيرها تزلها في سياق ديني عقائدي . نذكر منها دفاعه عن ضرورة المجاز وعشره مسلكا في التعبير بدونه لا يتسنى للإنسان التعبير عن كل مقاصده ويذكر أن عن نهافت الرأي الذي يقرنه بالكذب . وكان من نتائج هذا الموقف أن وقف بجانب اللغو والإهراط في النصفة . متبها إلى أنها لا تؤثر في ذات معنى وإنما تكسب قوة لا يمكن إدراكها بالعارة العقل التجارية من الزينة . وفي هذا إدراك غامض لا محالة لبعض وظائف اللغة في الأدب وعلاقتها أشك . لتعبر لأحسن .

مرد من جيل ابن قتيبة (213-276) وتلميذ للجاحظ روى عنه في عدة موطن من كتبه ، وقد صرح بروايته عنه في مواضع عديدة من «الكامل» (1) .

لا أن هذه التلمذة وذلك التراس لم يتولاك عنهما تجسس في لاهتمام وشارب ، فش كانت ثقافة كل من الجاحظ وابن قتيبة تتسم بشمول ونظر موسوعي . مع عارفي في الدرجة والتنوع : مسخرة لأغراض عقائدية أملاهم انتمائهم مذهبي فإن ثقافة المبرد علب عليها الطابع اللغوي بدرجة لاوى ويصنع لأدبي بالدرجة الثانية فالرجل شيخ من شيوخ النحو وعربية (2) ورأس بصفة السادسة من النحاة إليه « انتهى علم البحر بعد طبقة الحرمي ومازني » (3) .

ولناظر في قائمة المصادر المسوبة إليه (4) يرى بوضوح عدة هذين منسعين . رغم أنه لم يتحلف عن المساهمة بالتأليف في مشاغل عصره .

لا أنه ، ما بشر ذلك من زاوية لغوية شأن أبحاثه المتصلة بالقرآن « كعرب القرآن » والخشوف في معاني القرآن إلى صورة طه « وما اتفق لهفه وخشيف معناه من القرآن المجيد » (5) أو أن مساهمته لا تعسو برسالة مفردة في الموضوع . والغالب عن الظن أنها دون ما ألف لآخرون فيه تذكره المصادر القديمة بلا تفريض كبير من ذلك رسالته في « لأبوء وأؤمنه » و . انخث على الأدب والصدق « وعرب الحديث » ونسب عدنان وقحطان » (6) .

(1) ابنه الكامل ، تحقيق رايت (Wright) لايرج (Leipzig) ، 1864 ، ص 237 ، 338 .
352 ، 373

(2) بر حيك . وفياح الأعيان : ح . القاهرة : 1948 ، 3 ، 441 ، 445 .

(3) السري . أخبار الحويز البصريين ، ط القاهرة ، 1955 .

(4) ابنه القائمة الواردة في تحقيق مصاد عبد الثواب لرسالته في البلاغة من 38 ، 49 .
وله أشار فيها إلى أماكن ذكر المؤلف في المصادر وإنه مخطوط بها ، مطبوع ، مدر .

(5) طبع هذا الكتاب بالقاهرة سنة 1350 تحقيق عبد العزيز الميمي .

(6) نشره في مصر سنة 1936 بتحقيق عبد العزيز الميمي .

و مشهور من آثاره قليل من كثير أشهرها «الكامل» (1) في بدء و لأرب
و «مقتضب» (2) في النحو ورسالة في المعاضلة بين بلاغة الشعر و بلاغة
الشعر (3)

وتحقيق مساهمته البلاغية في «الكامل» ورسالته في البلاغة ، أما ما جاء
في «مقتضب» فهو لا يزيد عن مجرد الشرح والتفسير لما تضمنه سرث النحوي
بصري ولا سيما «كتاب» سيويه ، من مسائل تخص التركيب جرهم إلى
حديث عنها مشعلهم النحوي . فقد ذكر فيه الحذف وعاياته وحدوده . تحدث
عن حذف حرف النجر (4) والمصناف (5) لغاية الإيجاز (6) وقيد بعدم
المخاض حتى لا يقع اللبس ويعمى المعنى (7) . كما تحدث عن صاهرة
المقابلة . وهي الزيادة وركز بحثه على زيادة الحروف ودورها في تأكيد
معنى (8) وجمع إليها طواهر تركيبية أخرى يؤتى بها لنفس الغرض . فذكر
أهمية ضمير الفصل في التأكيد (9) . كما تناول بعض الأساليب وحروجهما
عن أصل معناها كالاستفهام (10) والتأخير وربط عدايته بعذبة متكلم
بصرف من أطراف الجملة (11) إلى غير ذلك من المسائل التي سبق أن أشرنا

(1) طبع الكامل عدة طبعات أهمها نشرة بيرج (Leipzig) 1864 بتأجيل منشرون
رايت (Wright) وسجل على هذه النشرة ونشرة مكتبة المعارف ، بيروت ، (د. ب)
وهي تقع في جزئين

(2) نشر برعاجي مجلس الأمن فتشورن الإسلامية ، القاهرة ، (د. ت.)

(3) نشرت أول مرة بـ مجلة (Orientalia, Nova Series, X, 372-382) بمبادرة مشرق
قريب (Grunebaum) ثم نشرها رمضان عبد القويب سنة 965 . مكتبة دار
العروبة - القاهرة

(4) مقتضب ، 336/2 .

(5) 230, 2 - 231

(6) 337/2 ، 210/1 ، 215 .

(7) 129/4 - 130 .

(8) 48/1 ، 49 ، 51 ، 54/2 ، 134 ، 356 ، 358 ، 362 ، 418/4 .

(9) 104/4 .

(10) 53/2 ، 228/3 ، 264 ، 268 ، 289 ، 292 ، 307 .

(11) 69/2 ، 71 ، 142 ، 5/3 ، 27 ، 95 ، 118/3 ، 293 .

في كثير منها في القسم الأول من هذا العمل . ولم نلمس في تناوّل مُردّ لها
أي مجهود خاص يمكن أن نُعدّ تطويراً لها وتعميماً بحيث يستحق أن يذكر
شيء من التفصيل في هذا المجال .



وبدأ حديثنا عن مظاهر الطراوة والجدّة في مشاركة مبرّد في
تطوير مسائل هذا العلم برسائله في البلاغة . فرسم صغر حجمه وتوضّع
مضمونه ، بقياس إلى عوانها تبدو لنا جديرة بالاهتمام ناهيك أن صاحبها
أول من طلق البلاغة على معنى رسائله (1) والدافع إلى تأليفها رسالة
وردت عليه من بعض أولي الأمر يسأله فيها رأيه في : « أي لبلاغتين أوسع
أبلاغة الشعر أم بلاغة الخطب والكلام المنشور والسجع ؟ » (2) . فبين أن
مصطلح لبلاغة في هذه الرسالة مستعمل في معنى خاص يتصل بفرض مفادصة
بين شاكين من أشكال الكتابة : المنشور من جهة والمفلوم من جهة ثانية . وهو
نوع من البحث بدأ في القرن الثاني مع بروز مشاهير الكتاب في أنصاريين ، وثبور
في القرن الثالث على أيدي الجاحظ وابن المدر وتركز في القرن الرابع على يدي
أبي بكر الصولي ، ولا سيّما أبا حيّان التوحيدي (3) .

والرسالة لا تناوّل ، كما قد يظن من عوانها . علم البلاغة بائدرس
واشوبب وتحديد وإسما هي آراء في جودة الشعر وجودة نشر ومحاولة
بمقارنة بينهما ثم تنته إلى نتائج حاسمة .

ومن أول ما سترعى الانتباه إليها الجهد الواضح في تحصيل إجابة
ورسائلها على أصل ثانت ولو بصفة جزئية . ويبدو هذا المجهود في الانطلاق

(1) انظر أحمد مطروب ، مصطلحات بلاغية ، ط 1 بغداد ، 1072 ، ص 44

(2) الرسالة ، نشر عبد اشواب ، ص 59

(3) انظر البشير المنيب : تحليل نقلي لتهوم النشر الفني عند القدماء ، ص 5 ، ص 1978 .
لأدب العربي ، تونس .

من تعريف البلاغة حتى يعتمد الحكم على مقياس واضح . وقد عرفه بقوله :

« حتى البلاغة إحاطة القول بالمعنى . واختيار الكلام . وحسن نحوه حتى تكون الكلمة مقاربة احتيا ، ومعاضدة شكلها . وأن يقرب بها البعيد ويحدد بها الفصول » (1) .

ولناصر في هذا الحد يلاحظ أن المبرد لم يتدع أي طرف من طرفه . فجميعه موقوف بلطفه أو بمعناه في المؤلفات السابقة وفي « نيب و نيبين » بوجه خاص . إلا أن الضريف في الأمر أن المبرد قام بعملية تأليف بين مجموعة من التعريفات ، حتى يخرج هذا جامعا لأغلب المظاهر التي وقع التعرض ، ليه بصفة مبردة . ولذلك فإننا لم نقف قلبه على تعريف يعادل تعريفه شمولاً ، وإن كانت كل العناصر متوفرة في المادة السابقة

والتعريف الذي ألفه مستويات تقوم على التدرج : أولها لغوي عام يتصل بعلاقة الداد بالمذكول . وقد يلور هذه العلاقة في لفظة « إحاطة » وفيها معنى محصورة و لاحتواء . أما المستوى الثاني فيتصل بخصائص الدل ذاته . وقد برزها بطريقة غير مباشرة بالتأكيد على مفهوم الاختيار كمنهارة من اختصاص متكلم أو انكاتب تقوم على خصائص المختار . وبذلك يتسدرج مستوى لأور في المستوى الثاني لأن من مقاييس الاختيار أن تتحقق اعدادة لأور . أما المستوى الثالث فيخرج عن المستوى « المفرد » وهو مستوى « معجمي صوري » إلى مستوى آخر يتصل بالجملة أو هو في المصطلح حديث خروج من محاور الاختيار أو الاستيطان إلى محاور التوزيع وقد استقصى هذا خروج مصطلح سيكون له شأن كبير فيما بعد ، وهو مصطلح « النظم » . ويحصر في حسن النظم إلى عايات هي جزء من تعريفه بينما المبرد يستعمل عبرت تؤكد على اللحمة بين الأجزاء ، والتانسق بين الوحدات في تصديق المسه

عامة ، حتى تكون الكلمة مقاربة أحتها ومعاضدة شكلها ، ولكن ، هذه في تعريف ، في هذا الحذف يتصل بالبنية الحرجية للرسالة اللغوية ، فكيف لا بد من الإشارة ، في النية الداخلية أو خصائص هذا الشكل في الالائة ، وقد حذر من اثر ث ، حتى عبارة ، أن يقرب بها البعد ، وهي عبارة غاية في التحديد لا تحيل على شيء مصبوظ خارجها ، لذلك يمكن أن تحمل على معنى شتى ، وتؤثر بطرق مختلفة ، ونصبت وظيفة النص اللغوي من خلالها بتقديم مقدمة بين حريتها وحصل هذه المقابلة أن يصبح المجهول معلوماً ونحسوس مدركاً وما لا شك له إذا شكل مصبوظ يحيط به وبين عن حدوده ، وهذا لا يعتبر اثنين الفصلة بتقصية انهم والإفهام سيؤول إلى مقياس خطير من مقياس تقييم الأعمال الأدبية في الفترات المتأخرة وسيحكم للنص أو عليه بمدى مصدقته لهذه القاعدة .

مباشرة بعد هذا الحذف يأتي القسم الأول من الإجابة وهو : « فإن استوى هذا في الكلام المنشور ، والكلام المرصوف المسمى شعراً ، فم يوصل أحدهم لقسمين صاحبه . فصاحب الكلام المرصوف أحيد ، لأنه أتى بمثل ما أتى به صاحبه ، وزاد وزناً وقافية والورن بحمل على الصرورة . وقدفة تضطر إلى حيلة » (1) .

ودلرغم من أن عناصر الجواب ، ولا سيما الإشارة إلى التيسود التي تعرضها بنية الشعر على الشعراء موجودة في الكتب المتقدمة عند بن سلام نجسحي (2) وغيره . فإن الرنط بينها وبين حد البلاء أمر لم يسبق لهذا نصوص . وله دلالاته الهامة . فهو يعكس تصورهم العميق ، لعدم البلاء الذي يؤسسون فهو عثم يسعى إلى تظير قواين عامة للحدودة مفصلة . في عاب جوانها . عن الشكل الأدبي ومستلزماته النوعية فالبلاء عنه فهو من

(1) الرسالة ، ص 60

(2) طبقات شعراء الشعراء ، ص 46

تسمى إلى محاصره ضوابط جودة الكلام بصرف النظر عن القلب الذي يصرح
فيه ذلك الكلام .. ولهذا السبب - تراهم يجمعون في شواهدهم لتقصيه لو حدة
من شعر والشعر والخطب والرسائل والتمزآت ومن ثم يبقى اعراق بين شكك
وآخر فرق حيا لا دخل له في أصل الجودة . وكل ما في الأمر أنه يعين على
بين فصل صنوع على صانع . لا فصل كلام على آخر وهو أمر واضح في
نص مذكور حيث استعمل « صاحب الكلام » والعت « أحمد » وهو ليس
من انبوت السائرة في أحكامهم الأدبية المتعلقة بالنص .

عند هذا أخذ يقطع امره مؤقتا . الحديث عن النص يعني به ظروف
حدثة بربطه وكيفية استعمالها في عملية المفاصلة .

فاشار إلى مقاييس أفاض سلفه في شرحها وتحليلها بحيث يبدو ما أورده
هزيبلا لا يفي بالحاجة . ومن هذه الظروف ما لا يدرك إلا بمعاودة النظر والتأمل
ولا يكفي فيه استماع الكلام . ذلك شأن صعوبة المحاضرات التي يتولد عنه لأثر
وسهولته وحده الصانع من الطبع والتفهم ولا يخرج صاحب الرسالة في هذا
عن مقياس السائد فتراه يقدم من كان أشد على الكلام اقتدارا وأكثر تسامحا
وأقل معدة وأبطأ معاصرة : (1) ومنها ما يتعلق بالتمطع وحده صاحب نص
من جهة نصوت وسلامة المحرح وقد كنا رأينا - عند الجاحظ - أهمية
لتنمط في بلورة خصائصه الملفوظ (2) .

وفي القسم الثاني من الرسالة يورد المؤلف نماذج من المشور وهوروب في
نفس معنى . لإبراز فصل أحدها على الأخرى ابتداء بعد التلاوة الذي رسمه
في ممتنع رسالة وفي أعضاف ذلك . برزت أحكام أدبية محتمة تنفق في
صبيعتها الانطباعية وتكشف صراحة عن صعوبة التقريب بين شكك محتمين
في المكنة .

(1) الرسالة ص 60

(2) انظر القسم الثاني من هذا الكتاب ص 348

فمن الأحكام الخاصة بوجوده الشعر إلخاح المؤلف على الاختصار وجمع
معنى في أقل ما يكون من اللفظ بحيث إذا صادف أن عثر شاعر عن معنى
في شتين وأتى عليه شاعر آخر في بيت والثاني هو المقدم وإن قيل كلام الأول
و، ستحس مثال ذلك قول الأعشى : (المقارب)

ونرد برد رداء العسرو من بالصيف رقرقت فيه لعيرا

ونسحب من لينة لا يستطيع أن ينبس الكلب إلا هريز
فهو كلام مقبول حسن وعينه « أنه أتى في بيتين وطول به الخطب » (1) ولذلك
من قول طرفة في نفس المعنى : (رمل)

يطرد الرد بحر ساخن وعكبك القبط إن جاء بقر
أجود منه لأنه أجمع وأخصر » (2) .

أما الأحكام المترتبة عن المقارنة فتدور على وصوح المعنى وحسنه . وهما
مقياسان مختلفان ، كما نلاحظ . أولهما عقلي يقوم على مدى استجابة النص
لوظيفة فهم والإفهام ، والثاني جمالي مبهم لا يستند إلى معنى موضوعي
ثابت . ولذلك يرى أن الجمع بينهما هو تجنب للمقارنة أو هو نتيجة فهم
خاص لها ولنضرب مثلا قوله :

« قل قتل الربيع بن حثيم علما دعى جهاده وإغراقه في عبادة
ونهماكه في الصوم والصلاة وسائر سبل الخير . قتلت نفسك فقال راحتك
أطلب بهذا كلام محيط بالمعنى ، لا فضل فيه عنه

وقد أخذ الشعراء لأهله في هذا المعنى : (طويل)

سأصت بعد النار منكم لتقربوا وتسكب عيناى الدموع لتحمدا

(1) الرسالة ، ص 61

(2) نفس المصدر ، ص 61

فَقُولْ عَشْرَبْ فَأَكْسِبْ مَا يَطُولُ بِهِ مَقَامِي مَعَكُمْ وَقَرْنِي مَعَكُمْ فَهِيَ
أَحْسَنُ : وَالْأَوَّلُ أَوْصَحُ « (1) .

فَمَرَدٌ لَمْ يَسْتَطِعِ الْمَقَارَنَةُ إِلَّا بِحُلِّ الْمَنْظُومِ وَحَمْلِ الْمَثُورِ عَلَى مَثُورٍ
وَهَذَا نَحْنُ إِذَا حَدَّثْنَا نَعِيدَ تَرْكِيزَهُ عَلَى الْوَصُوحِ بِالْمَسَّةِ إِلَى الشَّرِّ وَالْحَسَنِ وَفَلَاحَةِ
« سَمِعْتُ إِلَى شَعْرٍ لَأَنَّ أَوَّلَ مَا يَشُدُّنَا إِلَى أَنْتَرِ مَعْنَاهُ بِمَا يَهْتَمُّ فِي ثَانِيٍّ مَعْنَى
وَدَعَا صِرَافِيَّةِ الشَّيْءِ بِصُرْدٍ بِهَا . إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ لَا يَمْسَعُ الشَّعْرَ مِنْ أَلْبَسَ بِجَمْعِ
الْحَصَنِينِ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى إِدْرَاكِ مَعْنَاهُ إِلَى تَرْفَعِ ذَلِكَ مِثْلَ قَوْلِهِ : (صَوْبِلِ)
تَقْرُبُ سَلِيمِي لَوْ أَقَمْتُ لَسَرْنَا وَلَمْ تَدْرِ أَتَى لِلْمَقَامِ أَطْوَفُ

« هَذَا الثَّانِي وَاضْهِحْ حَسَنٌ وَهُوَ أَبْيَنُ مِنَ الْبَيْتِ الْأَوَّلِ « (2) وَلِلَّذَلِكَ لَا
غَرَبَ لَنَا وَجَدْنَا الشَّعْرَ فِي مَعْنَى مِنَ الْمَعْنَى أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ « قَبْلَ فِيهِ
إِطْلَاقًا (3) .

أَمَّا الْقِسْمُ الثَّلَاثُ مِنَ الرِّسَالَةِ فَمَحْصَصٌ لِبَيَانِ خِصَائِصِ مَنْطِقِ رَسُولِ
الَّذِي بِهِ يَعْرِضُ عَلَى كُلِّ مَنْطِقٍ وَبَغْهَرِهِ وَحِصَائِصِ الْقُرْآنِ وَهُوَ الْكَلَامُ الْأَوْحَدُ
« وَنَقُولُ الَّذِي هُوَ مَبْنِيٌّ « (4) .

وَقَدْ سَمِيَ الْمَجْرَدُ جِهْدُهُ إِلَى الْإِفْتِنَاعِ بِصِلَةِ هَذَا الْقِسْمِ بِمَوْضُوعِ رِسَالَتِهِ
مَثُورًا بِبَعْضِ مَا تَقْطُلُهُ مَتَهَجِيَّةُ الْمَقَارَنَةِ مِنْ صَرُورَةِ الْمَقَارِنَةِ بَيْنَ الْأَشْكَالِ
وَالنَّظَائِرِ . فَأَمَّا فِي ذَلِكَ إِلَى الْحَدِيثِ عَنِ الْمَنْطِقِ الْقَدِيمِ وَالْكَلَامِ الْمُسْتَعْمَلِ

لَا أَنَّهُ سَيَفْعُ رَعْمَ هَذِهِ الصَّرَامَةِ الْمَتَهَجِيَّةِ الْمَفْتَعَلَةِ فِي مَا وَقَعَ فِيهِ كُنْ
« سَلَامِيْنِ مَعْرُوفٍ « فَلَا سَبِيلَ عِنْدَهُ : لِإِبْرَارِ خِصَائِصِ مَا لَا تَطِيرُ لَهُ وَلَا يَشْهَرُ
شَكْرٌ . إِلَّا مَقَارَنَتَهُ بِالْكَلَامِ الشَّرِيِّ . شَعْرُهُ وَفَرْهُ ، بِاعْتِمَادِ مَقَابِيصِ شَرْبَةِ

() الرِّسَالَةُ ، 62 63

(2) » 63

(3) » 63

(4) » 66

و صيغة مقارنة هنا تقليدية تستجمع أحسن ما قيل من كلام النثر في معنى من معدي . ثم تبرز بعد ما بين ما ورد في نفس المعنى عن الرسول أو في قرآن ولأنهم يطلقون من أن هذا الكلام أعنى من كل ما قيل فيهم تبعاً نفس مصنف يشيرون إلى عجز المقاييس المستخرجة من الكلام معدي عن لإحاطة بكنهه (1) .

و دراسة اعتباراً لمهجعها ومحتواها ليست متجردة للدراسة مسائل بلاغية مصبوبة . وإنما هي مشاركة نقدية تثير جملة من القضايا البلاغية تنص بمقاييس جودة النص اعتماداً على بنائه اللغوي وسور الاعتماد على عناصر أجنبية عنه ، ورغم أهمية ما ورد فيها من الوجهة التاريخية ، على الأقل ، فإنه دون ما احتواه مؤلفه المشهور « الكامل » .



و « كامل » من نوع المؤلفات التي يصعب اليوم إدراجها ضمن فروع من فروع الاختصاصات اللغوية والأدبية . فهو جامع لأشئت من لغوم وادعاف لا يربط بينها إلا وقوعها في حيز الأدب كما كان يفهمه «عرب القدسي وللهل عد من أمهات الأدب وأصوله (2) .

ولم يحل هذا الكتاب من خطرات نقدية وبلاغية ذات شأن تكشف عن أهمية الجهد الذي بذله صاحبه في تطوير مسائل هذا العلم وهذه المحضرات متدفقة انقيسة مسها قصايا نظرية عامة تتعلق بضبط خصائص النص الأدبي وبرر تعدده الفنية والجمالية . ومنها إشارات تعليمية « تدور حول بعض لأساليب البلاغية من جهة تحديدها وإبراز أقسامها ودورها في المدح والكلام عن صعبه الاشتراك والعموم إلى صفة متميزة معناه عن كماله معدي في استعمال الكلام .

(1) أرسنه ، ص 66

(2) ابن خلدون ، المقدمة ، ط . دار الكتاب العربي ، ص 1970 .

وهذا القسم الثاني من المادة هو نفسه مراتب ، إذ من بينها : ١ - يحدد
إلا يشترط أربعة عارة دون تحقق أو تحليل : أو وقع الاعتداد في محاصره
على سفل ، الاعتداد بآراء السلف ، ومن بينها ما حظي بدراسة مفصلة ، يصادف
مشبه في افتراضات السابقة . بل إنَّ اللاحقين لن يصيغوا إليها شيئاً يذكر

وهو يمكن منهج المؤلف في تناول هذه المادة موحداً فقد وقع ليصر على
بعض مسائل من منظور نحوي خالص يعطى عليه التركة الشككية وحرص
على تبرير حركات الإعراب وتعليلها ، بينما تناول بعضها الآخر من روية
أدبية اعتمدت استقراء السادح الشعرية القديمة والمحدثة فمن لاخبرت
نظرية العامة التي ساهم بلورد في بلورتها ، بصياغتها صياغة وعية ميسقة
إيها أحد ، مسألة صرائق الأداء اللغوي وأنماط التعابير الدالة . بحسب
عبارته - وقد خُسط منها ثلاثة :

« والكلام يجري على ضرور فمه ما يكون في الأصل نفسه ومنه ما
يكنى عنه بشيره ومنه ما يقع مثلاً فيكون أبلغ في الرصف » (١) .

ورغم أن ما ذكر لا يحرج عن نطاق القسمة الثنائية المعروفة قديمه .
لحقيقة ومجاز ، فإنه لا يسع المتبع لأطوار التكبير البلاغي إلا أن يشير إلى
مظاهر الظرفية في هذا الاعتبار . وأولها ، في رأينا ، تنزله منزلة لمقدمة إلى
مبحث تطبيقي هو مبحث الكناية . وفي هذا دلالة ، متواضعة لا محالة ، على
أن لدرس بلاغي . في بعض جوابه على الأقل ، بدأ يحرج من صور التحسين
لاصطاعي ، حتى من كل فجرد إلى ظهور أمكن فيه إدراج الفصص القرعية
صحن فصص كنية أعم منها . ومستبلغ هذه التركة أوحها في القرن السادس مع
سكاكي حيث نجد كل باب من أبواب البلاغة مسبوقاً بمقدمة نظرية طويلة
ومعقدة بجميع تكتليات الضرورية للاحاطة بجوانب الباب (٢) .

(١) الكامن ، ٥/٢ - ٦

(٢) يشير هذه المسألة في سطر آخر من هذا الفصل

ووجه النظر أفة الثاني هو انعارات التي دل بها على مختلف هذه الطرق ،
ولأسماء لعاره التي استعمالها لما يسمى المعنى الحقيقي ، ما يكون في الأصل
بمعناه « عالم الغم من عدم تمكنها في الاصطلاحية » فهي أبع من مصطلح
« حقيقة » في التعبير عن المعنى الحقيقي وأقرب منه إلى الوصف اللغوي
موضوعي لتجردها من كل المعاني الخاصة المنطقية والأخلاقية التي تلبس
بمصطلح حقيقة . وبالإضافة إلى كل ذلك تكشف عن الفرق الجوهرية بين
أصناف التعبير . فمن الكلام ما لا يتجاوز معناه ذاته ولا يشير به إلى شيء
خارج عنه وعما يدل عليه أصل اللغة . فإدراك المعنى يتم بدون واسطة أو عن
الأصبع يتم بواسطة العلامة الموضوعية له في اللغة . والعلاقة بينه وبين قصد قائله
تصدق علاقة لفظية بمعناه . أما النوع الآخر فهو كلام يُعْهَى كلاماً آخر
موجود خدجه قصد إليه المتكلم بطريقة غير مباشرة فجعل الكلام دالاً في
نفس لفظه ومعناه علامة على المعنى العائب ومسلكاً لإدراكه . بمعنى أنه في
هذا النوع الثاني من الكلام نعدد الرمائط ويؤد ثمانية اللفظ والمعنى أو لشكل
والمضمون بحيث يصبح هذا الأخير وسيلة التعبير لا غايته .

ولمسألة الكبرى الثانية تتعلق بموقفه من الإهراط في الصفة وتجاوز
الحقيقة في العبارة مما يعرف بدابة من « قدامة » بالعلو و« شئ » بفرد المبرد
هذه لمسألة بباب خاص من كتابه . ولم يباشرها من وجهة نظرية . بل أشار إليها
في موطن عديدة ذكر فيها التشبيه إلى درجة أنها وقعت منه موقع السرع من الأهم .

وإذا كان رأي ابن قتيبة في قضية الخال واصحاح . وتبيحة حتمية موقفه
بحمي من « مجاز » . فإن موقف المبرد أقل وضوحاً وأكثر احترازاً لأنه لا يتفقد
فيه . شأن ابن قتيبة بنهج في التفكير متعاسك . لذلك كان أكثر منه حرية في
تسبيه شدة ورفضه قارة أخرى .

فمن التشبيهات المبرقة ما كان محل إعجاب المبرد يدل على ذلك .
ذكره من شعر الفحول وتشبيهات القرآن كقول الخساء . (سيط)

وب صحرا لتأتم الهداه به كأنه علم في رأسه بار

وبعن على هذا أثبت بقوله : فجعلته المهتدى بآتم به وجعله كدر في رأس علم وسعم الحبل : ثم يستطرد . قال حرير (المشرح)

إذا قطعن علما بهذا علم

وقال الله جل ثناؤه : وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (١)
ومن هذا الصرب من التشبيه قول العجاج : (الرحر)

تقضي الباري إذا الباري كسر

« و تنقصي لا نقصاص . وإنما أراد سرعتها » (٢) وقد يصرح به بعده كقوليه
« ومن تشبههم المتجاوز الحيد قوب الصبحان » (طويل)

صعدت لهم أنسابهم ووجوههم دحى الليل حتى نطى الخزع ثاقبه

وم يكتب المبرد بمعرد التعبير عن الإعجاب فتراه يحول بحدود سند نظري يسعم به موقعه ، ويحلل مقاصد ركوب الإفراط والمبالغة وذلك بالتعمق في فهم العلاقة الرابطة بين ركي التشبيه الأسمائين : المشه والمشه به يقول :

« واعلم أن التشبيه حدًا ، فالأشياء تشابه من وجوه ، وثباير من وجوه
فإنما ينظر إلى التشبيه من حيث وقع ، فهذا شبه الوجه بالشمس . فإنما يرد
لصياء والروث ، ولا يراد العظيم والإطراق . قال الله عز وجل (كَأَنَّهُمْ
سَبْطٌ مِّنْكَسُوتٍ) والعرب تشبه النساء ببعض النعام تريد بقاءه وجملة لونه .
ومرأة بالشمس والقمر ، والعصن والعراف والقر الوحشية . وسحابة بيضاء
ومرودة وبيضة وإنما تقصد من كل شيء إلى شيء » (٣)

والحملة الأخيرة عميقة الدلالة على ما نقول . لأنها تحول علاقة لأثر
لأدبي للعالم الخارجي تحويلًا جذريًا . وتستبدلها بعلاقة لغائية للأثر

(١) المرحمة ٢٤/١

(٢) الكامل ٥٠/٦

(٣) بحر مدار ٥٤

و صورة أدق مقاصد القاريء من التصوير عن طريق الصناعة الدعوية وسبب
 تكسر العلاقة المنطقية بين الأشياء والكنيمات وتقوم مقامها علاقة وجودية
 وحدانية أساسها رؤية الكاتب للعالم الخارجي وانصورة التي يريد إيصالها إلى
 القارئ ، هي : « صورة العالم » . فالإعراض والمبالغة من هذا المنظور ، صريحتان
 في تعبير يروم بهما الكاتب إدخال القاريء في معايشة وجدانية لعل " استيعاب
 به عن وجهها العام لا يسمح ببلوغها . وذلك يتعد عن مشروتي تصديق
 وسكوت وهما مفردتان خارج الكاتب وخارج النص وتنبه بالتصوير والتعبير
 وهما في تصوير النص للحالة التي يعيشها الكاتب ويريد إبرازها

لا أنا لا نلت أن نجد المبرد في سياقات أخرى . شيء النص بآلية
 وتشبيه متجور . منشأ بصورة مطابقة النص القولي للحقيقة موضوعية
 أو أن يقع قريبا منها على الأقل . فبعد أن أورد قول الشاعر / طوي
 هو أن " م أبقيت مني معني " يعود تمام ما تسأود عودها .

شرح كلمة انتمام « وهو بيت صغيث واحدته ثمانية » والشرح شعري
 هذا من قبيل التعريض والإشارة إلى التناحر وشدة المبالغة ثم الانتقال إلى قانون
 عام في جودة الشعر وفضله في الحسن يقول :

« وأحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبه ، وأحسن منه ما أصاب
 به الحقيقة » (1) .

وستبرز هذه القاعدة صدارة المقاييس في جودة النص الأدبي عند عدد لا
 يستهان به من البلاغيين والنقاد . ومن ثم تصبح القانون المنحكم في دراستهم
 للصورة الفنية . وسنرى أن كثيرا من معارك الأدبية ، ولا سيما التي كان
 محورها المفاصلة بين البحري وأبي تمام ، تتركز على قرب الصورة أو بعدها
 وسبب أخذ أبو تمام ، من لدن خصومه ، وحتى من لدن من رافقوه

فيه ومن نحترى : بإيجاده بين النموذج والمثال وإغراقه في مداه من لأصرف إلى حد الإعراب .

ويعرب في الأمر أن أغلب النقاد العرب لم يشعروا بأحاجة إلى تفسير « حقيقته » التي ترومونها من قول كهون المراد الثاني . وهو عمل أو قاموس . سكون دعوى بالنظرية الأدبية في مسائل كانت معلقة دونها ، ولاهتمام إلى شبكة العلاقات المعقدة التي تشد عناصر الأثر الأدبي وتتحكم في الحقن التي

وعنده شعورهم تلك الحاجة راجع : في تصوراتنا ، إلى مباشرتهم لطهرة أدبية من وجهة نظر ضيقة تغلب علاقة الأثر بالعالم الخارجي على علاقته بوجوده ذاته وتقيم الأدب بمدى سهولته على الإدراك وقربه من لإفهام

ويمكن أن نتكهن من الآن بالنتائج السلبية التي ستفرزها هذه النظرة في صلب نظريتهم لأدبية فالإحراج على إحصاء الحقيقة أو الوقوع قريب سيوجههم إلى البحث عن مدى صدق الصورة ومكانتها للواقع الخارجي لا عن فاعليتها لقيمة وقيمتها التعبيرية . فعوض أن تكون الصورة مطلقاً للبحث عن مجهول التي يمكن أن يلجها الفن . وبالتالي البحث عن قدرات التعبير الشعري لتجاوز لأدق حقيقة التي يتجسّد فيها الإنسان وتشده إليها العلاقات التوضيحية بين الأشياء والكائنات ، لاقتحام المجهول وإدراك ما لا يدرك . وعدمه بشروط إلى مثاب مهني ، يفسرونها عليه ويسمونها من الانطلاق والتحليل

وهذه النظرية تحدد بشكل واضح من أهمية الحيات كقطاعه في مقدورها أن تبتدع الصورة وتأتي بها على غير مثال .

ومن سائح الخامسة لوجهة النظر هذه عدم فهمهم لبعض نظريات التي دفعوا عليها في التراث اليوناني ولا سيما في كتاب الشعر لأرسطو فهم سيحسون القول المشهورة التي نسوها إلى أرسطو : أعدب الشعر كدع

عن معنى الأخلاقي . ثم إنهم سيتحرجون أيضا تحرج لإدراك مفهومه لتحسين
من أدخله انقلاصة الذين شرحوا كتابه . فاهبك أن رجلا . من حجم
من ظاهر . أن يستطيع تخريج هذه المسألة على وجهها الصحيح ولا تحو
سيات التي تحدث فيها عن هذه المسألة (1) من التناقض وسوء الفهم

ثم المسألة الطروقة الثالثة فمحدودة القيمة في مؤلفه ، ساعد به سرد
ويعمل أعاد على توضيحها بالشواهد . ومحصل هذه المسألة التي أولاها
يجرحه عذبة كبرى التأكيد على أن قيمة الظاهرة الأسلوبية سياقية تشدّل
تبدّل حوصص والمقام وهذا يدلّ دلالة صريحة على أن الحسن ونقبح
يس من ذات الظاهرة مما يستحسن في سياق قد لا يستحسن في سياق آخر .

وقد استورد المبرد إلى بيان ذلك لما عرض لتفسير بيت الفرزدق
اشهور بني سبصبح في المؤلفات البلاغية المتأخرة ندوذا للتعقيد اللفظي أو
مداظلة وبعد المعنى وقبح الضرورة وهو قوله / طويل /

ومثله في الأساس إلا مملكا أبو أمه حيّ أبوه يقرنه (2)

ونود هنا أن نشير ، إضافة لعلماء البلاغة ، إلى شيء من بقسوة في
الحكم ، لاحظناه في بعض الدراسات المتعلقة بالمؤلفات التي يبدو على
أصحابها الحرص على تحميم انوحوه البلاغية وتوحيها وتصنيفها .

فلا جدال في أنهم فعلوا ذلك لمآيات تعليمية واضحة . يمان منهم
أن بلاغة القول علم يكسب إلا أننا لم نشعر في أكثر المؤلفات حرصا على
ذلك من أمثال ، الصناعيتين ، للصكري أو ، البديع ، لأسماء ، منقد بأب
أصحابه عفلون عن هذه القاعدة الأساسية لذلك نراهم يؤسسون انوحه
على الشاهد دائما بل إن تسكهم بهذه القاعدة خلق لديهم تقاليد في التأليف

(1) أسرار البلاغة ، 151/2 - 137 .

(2) الكامل ، 18/1 .

سرمو « مد أواخر القرن الثالث وهي المتزاوجة في نضائق نفس روحه بين
محاسنه وغيوبه

في جانب هذه الاهتمامات النظرية تصادف في الكامل إشارات بلاغة
كثيرة تناول حل ما سبق أن رأينا في الفترتين اللاحقتين وهذه الإشارات
قسم قسم لم يبدل المبرد أي مجهود لتطويره وتعميقه وقسم ثلث يشمل
مسائل طرحت في التأليف المتقدمة عليه إلا أنه طورها من وجه من الوجوه ،
ومسائل لم تطرح قبله فكان هو صاحب الفصل في ابتداعها .

من القسم الأول تشير إلى اقتضائه أثر الجاحظ في إبراز بلاغة
« الاختصار ، مفهوم » و « الإطباب المصحح » والإيماء والإشارة (1) ومقاييس
جودة سجع والكلام . بأن يكون الأول دينا قريبا مفهوما ، وأن يكون الثاني
خالصا من لتكلف سائلا من التزبد (2) . كما ترسم خطاه في مستزومات
الخطابة . واعتنى ، مثله ، صاية فائقه بميوب الخطيب والنقائض التي تتحول
خطابته (3) .

كما هتمّ ببعض الأساليب التي درسها النحاة قبله كالتهديم والتأخير
وإرصادف المتعلقة به (4) . والاستفهام وخروجه عن أصل معناه (5) كما
هتمّ بمعاني الساء (6) . أما حذف المضاف وإيابة المضاف إليه عنه ، وهو

(1) الكامل ، 17/1

(2) « 17/1 ، 19 .

(3) « 20/1 وما بعدها ، 144/1 - 145 .

(4) « 78، 1 .

(5) « 125/1 .

(6) « 258/2 .

« يسمى وما بعد والتصميم » . فقد درسناها من وجهة نحوية . عربية
حب . فوصفياً من حيث هي شكلي في التعبير تنقل فيه حركة مصدق في
مصدق . دون أن نلاحظ دورها الأسلوبى ومعولها في تقوية الفهم وتوكيده ()

ومن النوع الثانى نذكر ثلاثة مباحث رئيسية تقوى المسر . مكنة
دررة في تاريخ البلاغة العربية .

لمبحث الأول يبدو لأول وهلة مبحثاً نحوياً لا علاقة له بالبلاغة
لنفسه اخبر الجملة الاسمية . إلا أن البلاعيين المتأخرين ، ولا سيما عبد القاهر
محررانى . سيستهنون إلى قيمة ما امتدى إليه سلفهم . ويذكرون قصصه
في فتح قصائدهم على مختلف المعاني التي يؤدّيها الخبر الواحد إن اختلف
جواره نحوي . وبذلك أدرجوه ضمن أدق مباحث المعاني واللفظ .
وستعموه حجة لأهمية العلم في تعديد المعنى .

ولسطين في بيان ذلك من رأي عبد القاهر نفسه :

« روى عن ابن الأثيري أنه قال : ركب الكندي المتفلسف إلى
أبي عباس وقال له ، إني لأجد في كلام العرب حشواً ، فقال له أبو عباس
في أي موضع وجدت ذلك ؟ فقال : أحد العرب يقولون : عبد الله قائم :
ثم يقولون إن عبد الله قائم . ثم يقولون : إن عبد الله قائم . فلأما مكررة
وتعنى واحد .

فقد أبو عباس . بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ . فقولهم عبد الله
قائم إخبار عن قيامه ، وقولهم إن عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل ،
وقولهم : إن عبد الله قائم : جواب عن إنكار منكر قيامه ، فقد فكرت
لأما مكررة المعاني فما أثار الفيلسوف جواباً (2)

(1) مكر 1 88

(2) انظر . دلائل الإعجاز شرح عبد الحميد سنجي ، ط 1 ، القاهرة ، 1969 ، ص 303

وواضح من هذا النص أن المسألة تتعلق بموقفين متقاربين من دور بعض الوحدات اللغوية في تغيير المعنى أو عدم تغييره . أو بصورة أعم : تسؤـل عما إذا كانت التحولات التي تطرأ على بنية الجملة بواقف تحول في معنى أم لا . وهذا يقضي إلى تساؤل أشمل يحسب « وظائف » جهاز صرف ككسر هل باستطاعت أن يصف عناصر هذا الجهاز صهيـن وصف وظيفي وصف لا وظيفة له . وإلما يؤدي به توسعا وتكرار حتى يمكن نسبتكم أن يشرح المعنى الواحد حسب أنماط لغوية مختلفة وفي هذا يقرر بأن دور لغة فائضة على المدلولات . وتسليم بفكرة مجابية جانب منها

السؤال في النص مقنع توجهه النظر الثانية . لننك حمل أشكال الجملة ثلاثة على التكرار . أما المرد فموقفه ماقص بموقف الأول وقد خصه في قوله « المعاني مختلفة لاختلاف الأنماط » . ولتوضيح هذا الرأي عنق كن شكل من أشكال الجملة الاسمية بمعنى خاص رائد على المعاني الأخرى . وعن هذا التوضيح قترت عدة نتائج :

— لكي معنى بنية لغوية محصورة ولا يمكن إحلاله في حيز بنية مديرة مع الإبقاء عليه برمتة . ولئن لم يتعمق المبرد في تحليل هذا « الحدس » لفلد وحسب « دعوي المذهب ولم يستطع أن يولد حملا المكتسز ، من عهد القاهر الجرجاني تسمى فكرته . وغاص في أحشائها . واستزف كن النتائج التي تسمح باستحلاصها . وانتهى في دراسته لعلاقة اللفظ بالمعنى . أو الشكك بمصوب كما يقول نحن اليوم ، بما في ذلك الصورة الضية ، إلى أن صياغة لغوية صيغة ذاتة . ليس في الإمكان إعادتها إلا بعكاشتها ، وهو الأصل مصري مدي أسس عليه موقفه المنحتر من باب السرفه والأحد في نقد عرسي (١)

(١) انظر تقديمنا لكتاب أحمد مطروب : عبد القاهر الجرجاني بلاغته ووعده ، حوليات جامعة التونسية العدد 13 سنة 1976 ، ص 286 .

بـ ، الإخبار - ككسر فعل لعوي - لا يعود فائدة حكمه على منحه ،
 د بعد من صفت الصاعقة التي لا بد أن يكون متهلكها غير صاعقتها ،
 لا في معنى المخالاب المرضية لذلك نستوجب - من جهة - هو حكم
 طرف آخر يتصل الخبر ويؤثر فيه في نفس الوقت ، والوجود طرفين في
 معصية مصدر الفعل ورد الفعل على توليد الخبر وإشائه - حسب منه أو
 عدم نوعه - والإخبار المجرد - ع عند الله قائم - ، يوافق محله بعد منه
 وهو فعل تلقائي يأتيه المتكلم لمجرد الإرسال بحكم في قصبه أما
 « إن » عند الله قائم ، و « إن » عند الله لقائم ، وهما جانبان متروكتان
 عن رد فعل بمفعول منه يرد الله « أجمع » إلى تولدهما منشي بحبر
 لا صاعقه .

و نظيف أن نلاحظ أن الكمّ اللعوي المضاف إلى التركيب لأصبي
 - وهو نتيجة الملموسة لرد الفعل يناسب طرفا وفروع اثنين وشده
 وهي حالة لاستفهام اكتمى بإضافة أداة التأكيد « إن » وفي حالة الجمع
 والإنكار وقعت معاصدها في التركيب بلام التأكيد ، لحاجة المتكلم لإعراق
 صيغته في التأكيد - التأكيد بالخبر فالتأكيد بـ إن فالتأكيد بـ لام - حتى
 يوارى بين قوتي السلب والإيجاب .

وعلى هذا السط في التحليل يصبح الخبر أصريا وقد كان خبرا السبب
 في صفة رب حديد ، في علم المعاني ، سمي « أصرب الخبر » ، وقد عني
 به شأخروب غاية فائقة ، وأوحدها لكنا « ضرب من الأصرب الثلاثة
 المصصح موافق ، فسماوا الصرب الأول المجرد من التأكيد « سدي » ،
 وسموا « صرب الثاني » « طليا » - والصرب الثالث « إنكاريا » .

« وبذلك يكون المبرد قد أضاف إلى علم المعاني إضافة جديدة لم يسبق
 إليها . وقدرها له النحويون والبلاغيون من بعده ، حين تحدثوا عن أحول

إمام الخوري . بعد أن نقله عبد القاهر في باب السبب
و ص 1) .

وَأَمَّا المبحث الثاني الذي نذكر فيه المرد مجهودا شخصيا و ص 1 .
وعمل على تطوير مسائله بكتيبه لم يعدها في الدراسات السابقة ، فهو باب
بديعة تشبيه

وَأَمَّا مظاهر الوحدة والجهود الشخصية أفراد هذا الأسلوب باب مستقل ،
أصده بشكل لافت للانتباه (2) في حين كانت مسائله ، عبد غيره ، مورعة
يستطردون إليها من أبواب أخرى . أو يثيرونها عرضا بمناسبة التعليق على
بيت شعر . أو البحث عن معاني آية من القرآن . وقد رأينا كيف صرحت
أسباب عقائدية ابن قتيبة عن تخصيصه باب وهو المؤلف الوحيد الذي
كان بمقدوره أن يفعل ذلك ، بشهادة ما تضمنه مؤلفه « تأويل مشكل القرآن » .
ومرد اهتمام المرد بالتشبيه اقتضاه . بعد ممارسة لغة العرب وأشعارها ،
بأنه أكثر أساليب التعبير انتشارا وقد عثر عن هذه القصة في موطن
عديدة من هذا الباب .

« والتشبيه جار كثير في كلام العرب حتى لو قلنا أنه هو أكثر
كلامهم لم يبعد » (3)

(1) عبد القادر حسين ، أثر الوحدة في البحث البلاغي ، ص 208 ذكره شوقي خياط و ص 1
هذا الباب . أنه صاغ ذلك في عبارة قلنا ما ذهب إليه غيره بقوله « وربما كان
أهم . حصة البلاغيين من فصول بلاغته تنوع أصناف التعبير والمعى الواحد ، بينما دفع
مرد عن فكره أن المعنى مختلف .

عبر البلاغة تطور وقاريج ، ص 60 - 61 .

والعبر في أحبة ما تضمن إليه المرد ، عبد العزيز عتيق في قاريج البلاغة العربية ، ص 1
سبعة العربية ، بيروت ، 1970 ، ص 42

(2) استغرق هذا الباب ثمانين صفحة وهو يستند من صفحة 42 إلى 115 من الجزء الثاني

(3) الكامل ، 79/2 .

٢ والتشبيه كما ذكرنا من أكثر كلام الناس . (1)

٣ والتشبيه كثير وهو باب كأنه لا آجر له . (2)

ويتصل المظهر الثاني بالطريقة المنوطة في الدراسة وقد ساء على الاستقراء والاستنتاج الشخصي ، لا على الرواية والنقل فقد عمد إلى شعر العربي القديم والمحدث ، وانتهى ما تضمنته عبوته من تشبيهات مصيبة حيلته . وبذلك تجمعت لديه مادة عزيزة اعتمد عليها في تأسيس باب شواهد واستنتاجات .

وبعد جمع المادة . في داته . عملا مهما . لأنه الخطوة التي مهدت لمظهر المؤلفات المختصة بدراسة أسلوب أو أسلوبين تذكر منها كتب « لتشبيهات » (3) لابن أبي عون (322 هـ) وهو من أقدم ما وصلنا عن هذا النوع .

أما المظهر الثالث ، فهو المعلومات النظرية المستخلصة من استقراء النماذج الشعرية الكثيرة والمدرجة ضمن تعليقاته على الشواهد . وهي تدور حول ثلاثة محاور رئيسية . حدث التشبيه وأقسامه وطبيعته .

وصريقة المرد في التحديد طريقة . لأنها لا تنقيد بمقتضيات محد من وجهة منطقية ، وتحالف ما جرت به العادة في محاصرة انقراض معوية وصسط موصفتها . وقد سلك في ذلك طريقة تركز على تبين علاقة طرفي التشبيه التي يشترط فيها أن تكون علاقة اتحاد ، وعلاقة خلاف أو تباين ، في نفس الوقت . إذ ، بدون علاقة الاتحاد ، لا يقوم على الشبه دليل ، ويفسد قياس ، وبدون علاقة المخلاف ، يتطابق الطرفان ، فيعدم الوجه البلاغي .

(1) الكامل ، 103/2

(2) معجم الباء ، 115/2 .

(3) بشر بكاء بمائة محمد عبد الحميد حاد ، وشرقه جامعه كبرج (Cambridge) سنة 1950 .

و علم أن التشبيه حدًا ، فالأشياء تشابه من وجود وتباين من وجود (1) .
 وقد حرره بحث ، في هاتين العلاقات ، إلى اكتشاف غاية في الأهمية هو أن
 هو ، أو سلاحيون المتأخرون ، أعاده النظرية لكانوا فتحوا لعلم معاني آفاق
 لم يسبقها إلا في النصف الثاني من القرن العشرين . فقد سبق لنجاحه أن عقد
 فصلا في كتاب « الحيوان » غير فيه تعبيراً عاماً عما ضاع أن التشبيه لا يحرر
 يشبه من حيث إلى جنس المشبه به . واستدل على ذلك بمصداق العرب من
 بعض تشبيهات وكان النجاشي يدافع إبداعك على فكرة لم تطفأ على سطح
 بصره . ومعهما أن التشبيه ليس نقلاً وبالتالي ليس محاذراً ولم يشبه إلى الوجه
 لآخر من نصيبه .

« وقد يشبه الشعراء والعلماء والبدعا الإنسان بالفرس والشمس ولعبث
 ولبحر ، ولأسد والسيف ، وبالحية والنجم ، ولا يحررونه بهذه المعاني
 إلى حدّ لسان ، وإذا دعوا قائلوا : هو الكلب والحزير ، وهو القرد
 وخمار ، وهو الثور ، وهو النيس ، وهو النيب ، وهو العقرب ، وهو
 لجعل ، وهو القرني ، ثم لا يخلو هذه الأشياء في حدود نفس ولا
 أسمائهم ولا يحررون بذلك الانسان إلى هذه الخنود وهذه الأسماء » (2)
 ثم جاء المبرد فعمق ملاحظة سلفه . فأدرك أن التشبيه ممكن ، لأن
 ما يفسر أنه وحدة معوية لا تتحرأ ، إنما هو في الحقيقة جسم مركب من
 وحدت تتكامل مع بعضها لتكون المعنى الكلي الذي يسرر من
 لفظة ولدت ، فإذا شبه الوجه بالشمس وإنما يراد انصاف والرواق ولا يرد
 العظم والإحراق » (3) .

والشمس معنى مفرد في الظاهر ، عبر عنه بلفظ مفرد ، إلا أنه مركب
 من نعمة ، من عدد من : المعاني (4) وهي بمثابة الهياكل في الجسم

(1) الكامل ، 54/2 .

(2) الحيوان ، 211/1 من سطر .

(3) الكامل ، 54/2 .

(4) Series سبي مؤلفا هذه الترجمة التي أحضارنا عن الأستاذ صالح الصومالي مثله .

كيميائي . فالشمس : ضياء . رونق ، عظم : إحراق ولا يمكن
إطالة هذه القائمة .

وبهذه الطريقة في التحليل . يتسع أفق التصوير أمام الكاتب . وأفق
تأويل أدم الفارسي . والناقد . بحكم ضرورة تقاطع الأشياء في حيزه من
حيات هذا الحقل المعنوي الشاسع ، وهذا منطوق عبارة الميرد : « وربما
نقص من كل شيء إن شيء » (1) وهي عبارة تكشف عن تسع لأبعاد
أدم عميقة التصوير الفني . وتفتح للأجيال المقبلة بابا من أبواب نقاش
لأدبي الهام ، لمعرفة ما إذا كانت قبعة الصورة في نمط الشاعر إلى علامات
لخفية وشعره بما لا يشعر به غيره . أم أن قيمتها رهينة حجم المعاني المتفصصة ؟

والمتشبع بالحركة الشعرية المعاصرة يلاحظ أن فكرة « المعنى » كانت من
« هم » مكتسبات « علم المعاني النبوي » (2) لأنه مد « الباحثين بمفهوم جرائي (3)
يسمح بتدرك المسافة الفاصلة بين علم المعاني وعلم الأصوات ووظائف
الأصوات التي اهتمت ، منذ وقت مبكر ، إلى الأجزاء المكونة لكلمة
نطلاقاً من « السمة المميزة » (4) وقد نشت حركات الإحياء البلاغي ،
في أوروبا ، هذه المفاهيم بعبء أن نجد الأصل المولد لكل الصور والوجوه
البلاغية وبذلك تتمكن من تجرئة النص تجرئة علمية بعيدة عن كل « تأثرية » (5) .

(1) الكامل ، 55/2 .

(2) *Sémantique structurale*

(3) *Concept opératoire*

(4) *Trait distinctif* أنظر لمرحوم أهمية تفكيك الوحدة المعنوية :

A.J. Greimas *sémantique structurale*, éd. Larousse, Paris, 1966, pp. 27-29

Alain Rey , *La Lexicologie*, éd. Klincksieck, Paris, 1970, 4ème partie, chap. 1er, pp. 211-221.

Groupe M *Rhetorique générale*, éd. Larousse, Paris, 1970, 1ère partie, théorie générale des figures du Langage, pp. 30-49

أما أصعب التشبيه فيمكن النظر إليها من زاويتين . ووجه العيوب
و لأحكام الموضوع لإبراز المعقول الجمالي . وخطئه من الحسن وقصص تشبه
على آخر في ذلك .

وفي الكامل من هذه الشيء الكثير .

فمن تشبيهات العجيب . والمصيب . والحسن . والخص . والحي .
والحي . والخلو . والمليح . والمفرط . والقاصد . والطريف . والعريب .
ومطرود ، والسخيف : والجامع ، والمختصر (1) .

وواضح أن جانباً كبيراً من هذه العيوب متداخل المعنى متعقبة أحياناً ،
لا يستطيع الباحث إدراك ما يميز أحدها عن الآخر ، ناهيك أن صاحبها لم
يبين حدودها وبصبط أوجه استعمالها . وإنما هي تعبير منهم عن حسن جمالي
عميق ، ومصطلحات ، يعلب عليها الانفعال ، جرت على ألسنة النقاد قبله
وبعد ، يشيرون بها إلى ما يستحسنون ويستنهجون ومراتب الاستحسان
والاستهجان .

وليس للمرد فصل . من هذه الناحية إلا فضل جمعها وترسيخ المترع
لأنطباعي في تقييم فاعلية التشبيه ، وهو مترع لن يعيد عنه النقاد .

ولزوية الثانية أدق من الأولى . وأكثر حرامة . لأنها تركز التقسيم
على أساس ثابت ، ونظرية مسبقة عن علاقة النفس بموضوعه ، والصوره
بمشاهد . وتشبيه يقع من القصد الذي عقد من أحله في أربعة محال . فأمّا
أن يصبه فسمى التشبيه « مصبياً » وأمّا أن يقع قريباً منه ويسمى « متقرباً »
وأمّا أن يستمد ويسمى « بعيداً » وأمّا تتجاوز الخد فسمى « مفرطاً »

(1) صبت . د . حرار أهمية هذه المصطلحات عند نقاد حيين في كنهه أثر انتعاش في البحث
البلاغي . ص 212 وقد أحاط على التعصبات المصنعة لهذه الأحكام فلم يأنس . (2) «
بها .

« و عرب تشبه على أربعة أصرب فشبه معرط وتشبه مصب : تشبيه
مضارب و تشبه بعيد يحتاج إلى التفسير ولا يقوم بنفسه وهو أحسن الكلام » (١)
وثنى لم يتدع المراد هذه الأقسام ابتداءً . فهو أول من جمع في جبر
وحد وحصل كل قسم شواهد شعرية تعين على بلورة المعنى سرده من
مصطلح المستعمل . فمن التشبيه المصيب (٢) قول الشاعر (بسيط)
بَيْضَاءُ فِي دَعَجٍ صَمْرَاءُ فِي بَعْجٍ كأنها فصّة قد مسها ذهب (٣)
وقول امرئ القيس في ثبات الليل وإقامته : (طويل)
كَأَنَّ شَرْبَ حُلُمَتٍ فِي مَصَامِيهَا بأمراس كَتَاتٍ إِنْ صُمَّ جَسَدُ (٤)
« ومن نحو التشبيه وقريبه وصريح الكلام قول دي الرمة » (طويل)
وَرَمَسَ كَذُورُكَ الْعِذَارِي قَطْعَتَهُ وقد جلته الظلمات لحدس » (٥)
والتشبيه البعيد قول الشاعر : (السريع)
بَلْ لَوْ رَأَيْتِي أَحْتَجِيرَانِي إِذَا أُنَا فِي الدَّارِ كَأَنِّي حِمَارُ (٦)
ويعنى المراد على البيت قائلا . فإنا أراد الصحة ، فهذا بعيد . لأنّ سمع
نما يستدل عليه بعينه . وقال الله حلّ وعزّ . وهذا اليبس الوضيع . كمثل
حِمَارٍ يَحْمِلُ أَسْنَارًا (٧) وأمر الكتاب وفان « مَشْنُؤُا دَرِيْسُ
حُمُورُ تَوْرَافَ ثُمَّ ثُمَّ يَحْمِلُونَهَا كَمَكَلِ الْحِمَارِ ... (٨) » (٩) .
ويتضمن التعليق نصيرا طريقا للإبعاد في قوله « كَأَنِّي سَمَاعٌ ثُمَّ
يَسْتَمِعُ » عليه بعبارة « وهو يشير إلى وجه من وجوه إدراك المعنى حيث تفسر

(١) تكلمي ١ : ١٠١/٢
(٢) سبق أن أثرنا إلى أمثلة التشبيه المعرط . انظر ص ١٥٦ .
(٣) التكلمي ١ : ٤٦/٢
(٤) نفس المصدر ٧٧/٢
(٥) نفس المصدر ٨٩/٢
(٦) نفس المصدر ١٠٣٢ .
(٧) و (٨) لجمعة ٦٢ .
(٩) تكلمي ١٠٣/٢

معها دسعة وتقوم الاستعمالات الخارج مقام العلامة الترائد في معنى فكأنه
تكون معنى لإنسان بمعنى أن من ، ردود فعل معينة يبادر بها ، متى وقع
منه ، من معنى دون معنى آخر فإذا خرج مستعمل تلك العبارة عن معنى
مضيق بها يكون أعم ولا سيما إذا تعلّق الأمر بالأمثال المشتركة شائعة
مثل مثب ساق

ويمكن أن نجزم بأن أقسام التشبيه ونوعه ، عند المبرد ، هي أوفى ما
وصلنا عن البلاغة العربية ولذلك صيبي البلاغيون آراءه وإن بصورها ، لا
من جهة عروج البلاغة في التقسيم أو توليدها (1) وإضافة الشواهد من المظوم
و مشهور وإن يغفوا بها عند حدود التشبيه ، بل سوف يستعملونها في معالجة كل
أصناف متنوعة عنه ولا سيما الاستعارة ، مع أنهم سيخرجون الأفراد عن
حدود التشبيه الضيقة ويصيغون منه قصة عامة من قصايا التعبير الأدبي .



بقي أن نشير ، في نهاية هذا الباب ، إلى فكرتين وردت أولاً ، بصفة
عرضية وسيكثر الحديث عنها في الفترات المتأخرة . وهي تطرح نسبة تشبيه
إلى المجاز ، يقول : وإسما ذكرنا منه / التشبيه / شيئاً لئلا يخلو هذا الكتاب من
شيء من المعاني (2) وهذه جملة عريضة ينهم فيها أنه لا يعتبر التشبيه مجازاً .

(1) معني بتشبيه مثلاً ما معني « تشبيه المكس » أو « المقلب » وقد أدرجه ابن سبي
في « باب من عليه انشروع على الأصول » (الخصائص 310/1) يقول : معني معني من
معبراً العربي طريف ، نجد في معاني العرب كما نجد في معاني الأعراب ولا نكد
بعد سباً من ذلك إلا العرب مع المعاني ، مع جاء فيه ذلك العرب قول ذي الرمة (عابيل)

ورمى كؤراً من المعاني طرفة
إد السعة المظلمات حدى
قد روى في الرمة كيف جعل الأصل فرعا وانفرد أصلاً ، وذلك أن المعاني والمعرف في
معنى هذا أن يشبه أعمد الأشياء بكثرة الألفاظ () معني ذو الرمة أمادة والمعرف في
معني هذه كثر الألفاظ المعاني

و طريف أن استخرج هذا النوع من التشبيه من معني البيت ليني ذكره ، مبرد في « حدود
التشبيه » طريف ، صريح الكلام » (الكامل 89/2)

ولكن يجب أن نعرف المؤامرات اللاحقة لتتضح أبعاد هذا الغاش الذي أحس به
ساحس حراءه فوقين . فربما يصير على إتحاح التشبيه صدى المحار . وحين
ذلك احتجاجا نظريا . لا يحلو من العمق ورائس هذا الفريق من رشيقي
تقيرواني يقول

وتمت كون التشبيه داخل تحت المحار فلأن التشابهين في أكثر الأشياء
نما يتشابهان دلفارية على المساحة والاصطلاح لا على الحقيقة (1) .

وفريق يتمسك بهم « الثقل » عمدة المحار . فهما حريف فرفص
تعتبر تشبه محارا . لأننا لا نقتل فيه المعنى عن أصاده . وبما نفيس شيئا
على شيء . بذلك قال بأنه معسى من المعاني وعرض من أغراض الشعر .
ومن نقائيس بذلك قدامة بن جعفر الذي أدرجه ضمن « دعوات مداني »
عندها الشعر (2)

أما ثانيهما ، فتميز تأثير البصر المرآبي في مواقف البلاغيين ، وكيف
تتجلى قوة دافعة وكابحة في نفس الوقت . فترى البلاغيين مشدودين ذرة إلى
عقد ترفههم (3) . ونراهم تارة أخرى مدفوعين إلى اتحاد مواقف جريئة
تعود دالمة على النظرية الأدبية عامة

فمن منطق الدفاع على الصورة القرآنية . يفف موقفا إيجابيا من نوع
من تشبيه يحصل فيه الشاهد على العائد كقولہ - تعالى - « صاعقه كأنه رؤوس
الشياطين » (4) فيس سلامة هذا الأسلوب ومكانته في البلاغة . ولئن لم يكن

(1) انظر العدة ، 768/1

(2) انظر نقد الشعر ، ص 55 وما بعده

(3) صر في مد المعنى ص 4 . حاد عبد : فلسفة البلاغة بين التخييل والتطور . منشأ ، ص 17

لاستكبرته (د ب)

وحدته الفصلين . حور العجب في مباحث علم المعاني ، ص 27 - 53 حول معنى
الذات . ص 55 - 71 .

(4) من أن أشرا إلى أن أخصر ذكر أن هذه الآية كانت مسافة في عهد بني كعب
« محار القرآنية » انظر مجمع الأول من هذا العمل ص 62 .

سواء على أية صورة ممكنة فقد تضمن معضيات ذات شأن من شأنها
 كذا . في بناء الصورة وشكل التعبير . على العرصة أي على علاوة . تنس
 . بعض . و هذه التي يروم الكاتب إحداثها فيه فيجول . تبعاً لذلك . وكرر
 لاهتمام من بحث عن إمكانية الصورة أو مساهلتها إلى النظر في وضعها
 وبنائها . بعض ثم إن الصورة لا تفصل فاعلتها عن السياق النحوي .
 و ذلك فيه . لأنه يرغمها ويعتد لتوظيفها التوظيف اللغوي بها . و يشبه
 برؤوس شياطين في القرائن لا بد أن يفتقر بصورة التبعيد فيه و هو مدعى ذات
 التصوير من ترسيخ فكرة القبح والفساد

« رقب . صلب كآه . رؤوس شياطين وقد طرحوا معترضين من جهة
 معجدين في هذه الآء . فقال : إنما يمثل العائب بالخصر ورؤوس الشياطين
 لم يرهم فكيف يقع التمثيل بها وهؤلاء في هذا القول ؟ كما قال الله جل وعز
 بن كسبو نسام يحيطوا بعمله . وما بأنهم تأويله وهذه الآية قد جاء تفسيرها
 ضريبين : أحدهما أن هناك شجرة يقال له الأمتن منكر الصورة يقال لشجرة
 رؤوس الشياطين . وهو الذي ذكره النابغة في قوله (تحيد من أمتن سود
 أسوده) (....) والقول الآخر . وهو الذي يسبق إلى القلب أن الله جل ذكره
 شمع صورة الشياطين في قلوب العباد وكان ذلك أنباء من المعابة ثم مثل هذه
 لشجرة بما تفر منه كل نفس » (1) .

والوجه الثالث . من وجوه مساهمة المبرد في تطوير مسائل البلاغة .
 يتعمق بدراسة كنهه . وإن كان يحطه من انظرافة دون الوجهين السابقين
 . ثم يقف فيه على تمكيد شخصي ممبر . ولم يرد على جمع المعلومة السابقة
 تحت باب واحد . واحيد في تقسيمها والتمثيل لكل قسم من أقسامه وقد

سواء (1) إن وجه الطرافة الواحد في هذا الباب لا يتعلق بالكناية في حد
نفسه ، وإنما في الماحض النظري المحصن لصروب التعبير اللغوي

وأقسام الكناية ، سواء على ما تؤديه من وظائف ، ثلاثة :

أحدها التعمية والتغطية كقول النابغة الجعدي : (مسرّح)

أَكُنْتُ بِغَيْرِ اسْمِهَا وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ خَصِيَّاتِ كُلِّ مُكْتَشَمٍ (2)

وتبينها « الرعة » عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل عن معناه من
غيره « كبت في الآية » ، وَقَالُوا لِيَجْزُو دَرَاهِمٌ لِيَمْ شَهَدْتُمْ عَلَيْنَا » (3)
و محدود كناية عن الفروج (4) .

و يضرب أمثال الصالحين والتعظيم : ومنه اشتقت الكنية « (5) .

وهو عند هذه الأقسام التي وردت في الكتاب قباعا ، ذكر الكناية
بمطلها أو ما يفيد معناها في مواطن كثيرة . مركزا على ما جرى عن لسان
العرب منها ، كتنكيتهن عن المرأة بالبقرة والنعجة (6) . وكلما عرخت آية
من القرآن موضوعها ما يجري بين الذكر والأنثى في السر ، أشار إلى الكناية .
وإن كان يخالف المتقدمين أحيانا في تأويلها . فيقر المعنى الظاهر بينما حمى
غيره عن معنى الحمى . كما هو الشأن في تفسيره الآية « أَوْ لَا تَسْتَشْمُ
نِسَاءَهُ » (7) فقد فسره الملامسة بأنها كناية عن الجماع . بينما حرجها
هو عن معنى الظاهر ورأى أن الملامسة أن يلمسها الرجل بيده « (8) . وبهذا
أرر فهمه تأويل في إثبات وجه بلاغي أو رفصه

(1) نظار من 352 من هذا البحث .

(2) التكامل 4/2

(3) قصبت 20

(4) الكامن 6/2

(5) مصدر مسرّح ، نفس الصفحة .

(6) مصدر التذيق 4/66/1 - 381 .

(7) النساء 43

(8) تكامل 4/317,1 - 318 .

ويمكن أن نقول : في الجملة ، إن الكناية في « الكامل » م تخرج من حدود التي رسمها اللغويون وعلماء البلاغة قبله ، سواء في شقها شعوب و لأصلاحي ، إلا أنه جمع مسائلها في باب واحد ، وإن كان حثه في لتعظيم والتسوية دور ما لاحظناه في باب التشبيه .

وبعد أن نرى مظاهر التأثير بأسلافه بقاءها ، عده ، مرتبطة أشد الارتباط ببعض لأحاديثي والمواضع الاجتماعية التي كانت سببا في نشأتها ، يدور على ذلك مستحسانه (1) لضررتها الثاني وهو امتحان لا مبرر له ، إلا ما ذكره

في هذا النمط ساهم المبرد مثل غيره من اللغويين والعلماء بالشعر في تركيب أسس البلاغة وتطويرها . ويجب ألا يسببنا محيية نيس مؤامير حاسمين « البيان والتبيين » من جهة ، « البديع » من جهة أخرى أهمية ما تضمنت مؤامير من معومات بلاغية ، لا تخرج من الطرافة والجدة ، فاهيك أنه أول من ذكر مصطلح البلاغة في عنوان رسالة من رسائله ، وأول من عقد مقارنة صريحة بين الشعر والقرآن ، مدت كتب الإعجاز المتأخرة بمنهج لبيانه .

واحد طرافة المبرد تكمن في علمه الدقيق بالشعر ، وبراعته في النحو واللغة ، فكانت مؤلفاته حصيلة ما رشح عن هذين الاختصاصين من مسائل تخص الأساليب . فربما يتطرق إلى ما تطرق إليه النحاة قبله ويصيف إليها ما استفاد من النقاد والبلاغيين .

فليس من الغريب ، والحالة هذه ، أن تكون مواطن الطرافة في مساهمته متصلة بغيره ، أضرب الخبر من جهة والتشبيه من جهة أخرى .

كما أن مساهمته لا تخرج من طرافة منهجية ، فبالإضافة إلى برعة لتعظيم وتسوية مدعمة على مشاغله ، وابن قتيبة بفضلها أولى ، وحده يستد في دراسه تشبه ميلا غير معهودة فتحت أمام التأليف البلاغي آفاق جديدة

(1) الكامل ، 6/2

كتاب « النديع » لعبد الله بن المعتز :

كتاب « النديع » مخطوطة بحوث هامة في مسار الدراسات البلاغية وعلاقتها
و هي من حوز النظرية الأدبية عند العرب ومكانته في تاريخ البلاغة نشأته
مكتبة « كتاب » سوري في تاريخ البحوث اللغوية والبلاغية فهو « جامع
الحسن عرند ومستشرقين أول كتاب جعل من البلاغة كتاباً نافعاً () ومحاولة
فريدة في « أصول البلاغة على أسس عربية صريحة (2) » و « كتاب
يسوي » لأدب تناولاً فيها (3) . وبالإمكان إضافة تقارب بعض أخرى كثيرة من
« ذكره مستخرجة من كتب القدماء والمحدثين .

« ندي نواً الكتاب هذه الميزة »

باستطاعة المنتفع لأطوار البلاغة من البداية إلى نهاية القرن الثالث هـ يحرم
أن قيمة الكتاب لا تمكن في مضمونه . لا من حيث عدد الوجوه التي شتمت
عليه . ولا من حيث الصيغة البطرية لبعض تلك الوجوه . وما يتعلق به
من تقسيم وتحديد . فليس من وجوه النديع الخمسة التي ألتفت وهي
« الاستعارة (4) والتجسيم (5) » . والمطابقة (6) و « ورد أعجاز الكلام على
« تقادماً » (7) » والمذهب الكلامي (8) وجد واحد لم يسبق إليه مصطلحه
أو معناه

() دارن لبريد ، الموجز في تاريخ البلاغة ، ص 68
(2) غير كراتشكوفسكي (Kratchkovsky) من هذا التراث في مواضع عديدة من مقدمة
لأناجيرة التي وضعها على تحقيقه كتاب « كراتشكوفسكي » (G. von Brunebaum)
في كتابه « دراسات في نقد الأدب العربي » ، انظر حقه كبرية ، نشر مكتبة الحياة ،
بيروت 1959

« سوي ظلي » . دراسات في نقد الأدب العربي من اتجاهية إلى نهاية القرن الثالث هـ .
الهدية ، 1969 ، ص 767

- (4) النديع ، ص 3 24
5 نفس المصدر ص 25 - 35
6 نفس المصدر ص 36 - 47
« » ص 47 - 53
8 « » ص 53 - 57

بعد إشارته إلى الاستعارة (1) وتناولها كناية من أس قبه (2) ،
 ونعمت (3) شيء من التوصل يحفظ وحدتها وأقسامها ، وللعوض لأو من
 مساهمات في بلورة باب التحسن أثنى من المعتر نفسه . فهو بشرى كد
 لأصمعي اسمه « الأحاسيس » . وقد رده على ما يقع بين الكلمات من محسنة
 وشبه في تأليف الجوف . كما يورد للتحليل رأيا متطورا في الموضوع فيه محسنة
 بوجه وإشارة إلى بعض أقسامه (4) . ولم يتحلف ثعلب عن الجمع فيه فذكر
 وجه واحد كان حصته من مصطلح آخر (5) . أما المطابقة . فإنه ينسب عن
 لخبيل في تقرير وحدتها (6) . كما أشار إليها ثعلب قبله وسماه « مجودة
 لأصماد » (7) . وكذلك الشأن بالنسبة إلى النوع الخامس المسمى « مذهب
 نكلامي » فقد أشار صراحة إلى أن النجاشي صاحب المصطلح :

« أذاب الخامس من البديع وهو ما ذهب سماء عمرو النجاشي مذهب
 نكلامي » (8)

والباب الرابع المسمى « رد أعجاز الكلام على ما تقدمه » هو لباب
 الوحيد الذي قد يكون لإبن المعتر فيه فصل صياغة المصطلح ، إذ لم نقف عليه
 في المساهمات السابقة . وإن كان بعضهم أشار إلى شيء فيه به يمكن أن يعد
 تمهيدا بروره . فمن مقاييس جودة الشعر الواردة في « البيان والبيان » نقلا
 عن ابن مقفع قوله « وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك » كما أن
 حير أبيات شعر . البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته » (9)

(1) معاني القرآن ، 239/1 ، 91/2 ، 156 .

(2) تأويل مشكل القرآن ، ص 135 .

(3) قواعد الشعر ، ص 99 .

(4) البديع ، ص 29 .

(5) سماء نقاش يقول في تعريفه : وهو تكرير اللفظ بمعنى مختلفين ، وقد به دبو .
 قد الوحيد . هي حدود م « علم » - لفظي مقتضي أثره في هذه إشية ، « صر » ، قواعد
 الشعر ، ص 64 .

(6) البديع ، ص 36 .

(7) قواعد الشعر ، ص 62 .

(8) البديع ، ص 57 .

(9) البيان والبيان ، 116،1 .

و قد ورد في شأن التقسيم الأول من الكتاب ينفي على القسم الثاني
محض لنما سماءه محاسن الكلام والشعر (1) وهي «الائتناف» (2)
«عروض كلام في كلام» (3) و«الرجوع» (4) و«حسن خروج من
معنى إلى معنى» (5) و«تأكيد مدح بما يشبه الذم» (6) و«تجهر
بمعروف» (7) «حسن يراد به الحد» (8) و«حسن التضمين» (9)
و«تعريض و«الحناية» (10) و«حسن الإيوانات» (11) و«حسن التشبيه» (12)
و«عدت شعر نفسه» (13) و«الإعراض في الصفة» (14)

وقد سبقنا بعض الباحثين إلى ردّ كل هذه الألوان إلى أصولها الأولى
في كتب معويين وعلماء البلاغة قبله (15) . وواضح أن ابن المعتز لم يكن
حريصاً على تجميع هذه الألوان وإحصائها بدقة وإنما أتى ببعضها ليدلّ به
على بعضها الآخر فهي مقدمة القسم الثاني من الكتاب يقول :

«ونحن لأن نذكر بعض محاسن الكلام والشعر ، ومحاسنها كثيرة لا
يبلغها للعالم أن يدعي الإحاطة بها» (16) .

(1)	البيدع ، ص 58
(2)	محدد ، ص 59
(3)	« 59
(4)	« 60
(5)	« 61
(6)	« 62 - 59
(7)	« 62
(8)	« 63 - 62
(9)	« 64
(10)	« 65 - 64
(11)	« 68 - 65
(12)	« 74 - 68
(13)	« 75 - 74
(14)	« 77 - 75

(15) عبد الله در حسي ، المرجع المذكور ، ص 203 - 236

(16) البيدع ، ص 58 .

و. تأكيداً في نص هذا النص : على مصطلحات التأنيب وحبس
و معرفة إلا دليل على أنه لا يدعي ابتداء هذه الألوان وإنما هي عموم كانت
حارية في عصره يمكن اكتسابها عن طريق الرواية والتعلم

« وأحسننا لذلك أن نكثر فوائد كتابنا للمؤلفين ويعلم الناظر أن اقتصره
ببديع على النصوص الخمسة اختياراً من غير جهل بمحسن الكلام ولا صير
في معرفة « (1) . ويصرح في سياق آخر بأن المادة البلاغية ليست عليه في
ذاتها وإنما هي وسيلة لغائية أخرى حركته لجمعها

« وفي دون ما ذكرنا مبلغ الغاية التي قصدناها وبالله التوفيق » (2) .

وهذا النص يعيننا على فهم ظاهرة تبدو . لأول وهلة ، غريبة غامضة
وتتمثل في ما قد يلاحظ من تناقض بين مكانة الكتاب وعدم تطور المادة البلاغية
فيه ، من حفظ كثير من الأساليب ، من الاتساع والعمق ، دون ما بلغته
في كتابات السابقين والمعاصرين ، وهذا يربط في تعجب الباحث أن ثبت الوجود
مشهورة غلبة في الاستعمال من نوع التشبيه والكناية والتعريض والاستعارة

فهمكانا أن نؤكد أن معلوماته عن التشبيه دون معلوماته برّد جملة
وتفصيلاً بين دون ما صاغه أبو عبيد قبله بقرن كامل في كتب
« مقايض » ، ونفس على ذلك حديثه عن الكناية والتعريض والاستعارة
فتعريفه لوجه الأخير بأنه « استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد
عرف به » (3) لا يضيف شيئاً من الناحية النظرية ، إلى التعريفات السابقة
عند المحقق وأن قتيبة وهو أقل دقة وأضيق مجالاً من تعريف نفسه :
« لاستعارة هو أن يستعار للشيء اسم غيره أو معنى سواء » (4) . فهذا أوضح
بشارة إلى نوعي الاستعارة الرئيسيين : التصريحية والمكينة .

(1) البديع ، نفس الصفحة .

(2) نفس النص ، ص 3

(3) البديع ، ص 2

(4) لؤلؤة الشعر ، ص 57 .

فلا مشير . في رأينا . لتقريبنا الكتب بأنه : أول كتاب استمرت فيه
صدوره بصورة انحصار التقويم اللاعبة : (1) وتحتسب البحث عن نسب أخرى
عشر خمسة

في هذه الكتب الرئيسية تكمن . من وجهة نظرنا . في صدوره عن
درجة عالية من الوعي بمداد وجوده وتحرك صاحبه من رؤية و صفة
معتقدات وعادات جعلت مادته حاصلة لتلك الرؤية لا تتجاوزها فحاء الكتب
« مختصر » مشدداً حالياً من كل مظاهر الاستعزاز والخشوع

ومن ثمر مظاهر الوعي وتوضوح اشتغال « البديع » عن « خصوص
نظرية (2) فيها . على قصورها . عون لدارس على إشراك بواعث التأليف
وعدياته والوسائل التي وطعت لبوعها . مما يسمح بتتريك الكتب في
سياقه التاريخي على أصح وجه ممكن .

وسنحاول الإلمام بوجوه الجودة في هذا المؤلف بالاعتماد على هذه
خصوص أولاً ثم على ما يمكن استخلاصه من طريقة عرضه للمسائل وتبويبها .

فماذا نجد في هذه التعميم ؟

يقول ابن المعتز مشيراً . في قصته على غيره : « وما جمع فون البديع
ولا سبني . به أحده (3) وهو فضل اعتراف له به التقاد واللاعبون عهد
بن رشيق . في القرن الخامس . يؤكد أن « البديع ضرور كثيرة وأنواع
مختلفة » على أن ابن المعتز . هو أول من جمع البديع وألف فيه
كتاباً . (4) .

(1) انظر : « المسائل » الموجز في تاريخ البلاغة : ص 58

(2) و در عدد خصوص في موضعين في المقدمة من صفحة 3 و 4 وفي « 4 » عنه الثاني
بعد عشر « 5 » المحاسن : ص 57 58

(3) البديع : ص 58

(4) العمدة : 253/1

وهو بطرح سؤال عن المقصود بالسؤال في الجمع . إذ من سهل أن نشك
 أن هذه الواردة في التكرار ليست استقصاء لما أهدى إليه سلمه من لأساليب
 لبلاده فهو لم تأت إلا على حاب منها . وقد أشردا إلى أن شك لم يكن
 عليه . ثم إن ما قلناه من أن قبه في « تأويل مشكل القرآن » بقى . رغم
 من جهة صحة مشغل ديني عام . محاولة لجمع المعارف وتوسيعها . وحتى
 يستعمل أن يكون أن اعتبر جاهلا بها فبدعي لنفسه ما بدعي

ومن هنا يتحتم البحث عن معان أخرى تلت صحة ما سبقه من نفسه
 وتصدق شهادة القدماء له . وللكلية في رأينا تأويلان متكاملان . أولهما
 ما ذهب إليه ابن رشيدي الاستشهاد السابق . من أن « الجمع » تخصيص
 كذا مستقل . بهذه الأساليب التي كانت ترد ضمن أغراض أخرى غير
 مقصودة في ذاتها . ولا حداد في صحة هذا التحريج من الناحية التاريخية
 وفي كونه عملاً جليلاً ساهم في تطور العلم والانتقال به من مرحلة شؤون
 عن البلاغة . وتحسن المستويات المتينة في التعبير في نطاق مشاغل أدبية
 ودينية عامة . إلى مرحلة انصباع المصباح لتلك المادة الجديدة . ولعمري
 على أن تصبح موضوع علم مستقل من جهة المنهج والمصطلح .

وثانيهما يؤدي إليه عنوان الكتاب وبعض الإشارات الجديدة لعينه .
 فقد عودت الفترات السابقة على وضع كثير من الأساليب المذكورة تحت
 مصطلح « المجاز » . فلم فصل ابن المعتز مصطلح « النسخ » « هل يدل »
 ذلك على شعوره . وهو يذكر سبقه . بأن طبيعة عمله تختلف عن طبيعة
 عملي من قبته مثلاً . أو أنه يأخذ في طريق تختلف عن طريقه . وإن كانت
 تؤدي إلى نفس النتيجة ؟

من جهة من الاعتبارات تجعل هذا التأويل ممكناً . في مقدمتها تحديد
 المصطلح الذي أحده المصطلح . فبكثير من الدقة في العبارة والموضوعية
 في التقدير يعرف أنه ليس من وضعه وإنما هو « اسم موضوع لعلوم من لشعر

به كرهه لشعراء وتقاد المتأديين منهم . فأما العلماء بالغة وشعر فليس
فلا يعرفون هذا الاسم ولا يذكرون ما هو (1) .

هذا نصنا إلى هذا النص تحديده للعائنه القصوى التي حركته لوضع
هذا كتاب أدركنا سبب تفصيله مصطلح «الديع» (2) وفيهم كثيرا
من الحواش التي تميز هذه المساهمة عن غيرها يقول

« قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن ، واللغة ،
وأحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلام الصحابة ، ولأعراب ،
وغيرهم ، وأشعار المتقدمين ، من الكلام الذي سمّاه المحدثون البديع
ليعلم أن بشرا ومسلما وأبا نواس ، ومن قيلهم ، وسلك سيلهم ، لم يسبقوا
في هذا فنن ، ولكنه كثر في أشعارهم معروف في زمانهم حتى سمّي
بهنا الاسم وأعرب ودل عليه (3) .

واضح من هذا النص أن الكتاب منسب على موقف من قضية نقدية هامة
أثيرت في القرن الثالث عندما قام جماعة من الشعراء ، أغلبهم من أصل غير
عربي ، وجهوا عنايتهم إلى الصياغة الشعرية وأشكال التعبير والتصوير الفني ، ولم
تحتلزعهم هذه من روح عدائية تجاه «عمود الشعر» أملتها تحديات «البيولوجية»
عرقية حضارية عرفت في تاريخ المجتمع العربي الإسلامي بالشعوية .

ونجس عن ذلك خلاف طويل ، لعل آثاره لم تسح إلى يوم ، كان
في ظهره أدينا أطلقوا عليه «خصومة القدماء والمعحدثين» (4) . إلا أنه

(1) البديع ص 98

(2) محسن الباحث لسرد بعض الدراسات في تقدير أسماء هذا المصطلح فحمله على منس
يكفي سببه ومنه صاحبه مجرد تفصيل الكتاب
سرد على سبيل المثال على تمرير عتيق ، في فروع البلاغة العربية ، ص 45 - 50

(3) البديع ، ص 1

(4) صدر مسجعي دهر حسين ، أبو بكر الصولي فاقدا ، دار المحظ للصباغة ، نشر
بدر ص 1 ، 1975 ، ص 8 . علي العمادي : الصراع الأدبي بين القديم والجديد ،
بدر ص 1 ، 1965

كان يعني صراعاً حضارياً هائلاً أفردته تركيبة المجتمع المعقدة متوتره
سببها على فترة تحوّل هامة ، واحتوائها حيطاً من الأحاسيس والخصائص
وآداب ، لم تكن راضية كل الرضى بسيادة العرق العربي وتسلّطه عليها

«روح النبي أملت الكتاب روح تهذيب لا بلاغية» ، بل هي روح
تعكس ندرج النشاطين بكيفية فريدة ، لذلك تعصّب ابن المعتز مسائل هذا
الصراع ومبادئه ، واختار المصطلح الذي استعمله أسلافه من الأدباء ، ولقد
كنّا نحصد ، بالإشارة إليه لأن مصطلح «المجاز» تواتر استعماله في دراسات
المتعلّقة بالقرآن .

ولا عربة أن يولي المؤلف هذا التقدير من العناية ، فهو شاعر عاصر
جماعة من كبار الشعراء ممّن رغبوا عن عمود الشعر وعرفوا بالمحدثين
والمولدين وخلف ديواناً (1) ، وهو ناقد له مؤلف في «طبقات الشعراء» (2)
ورسائل (3) تناول فيها هذا المذهب الجديد وبعض أعلامه كأبي تمام .

وموقف ابن المعتز من الصراع واضح فهو «دفاع عن القدماء» أو
يرجع الفصل إليهم فيما ادّعاه المحدثون لأنفسهم» (4) إلا أن التطريف
في الأمر أن الدفاع انطلق من نبي تلك الأساليب وتأصيلها في التراث العربي
القديم لا برفضها أو صرب الحصار عليها . ولهذا الصنيع ، في نظرنا ،
دلالة لحظيرة في تاريخ الطريقة الأدبية عامة وفي حالة ابن المعتز بوجه خاص ،
فهنا موقف يعادل بين ممارسته الشخصية كشاعر وموقفه المبدئي ، من

(1) صمد ديار ، في الشعر كلاً أو جزءاً ، عدة صفحات ، فقد نشر (مشرق) بيروت ،
(H. Lewin) بعض أجزائه ابتداءً من 1891 . ونشره نفس السنة في «مشرق»
الصحف المتأولة هي طبعه شعبي حري وقد نشره لنفسه سنة 1371 هـ . وهذه هي
الطبعة الحياطة ، بيروت ، (د ب)

(2) نصيب الأندلس عبد الستار أحمد فرا ، القاهرة ، 1956 .

(3) صمد عبد الحميد خراسي ، ط 1 ، مصر 1365/1946

(4) صمد عبد الحميد خراسي ، في نقد الأدب العربي من الحداثة إلى نهاية القرن الثالث ، ط ٩ ،
دمشق ، 1969 ، ص 265 .

صراع . فهو محدود من انبؤات . فقد ورد في النعملة أن نصوصه يرى
 « شعراء ثلاثة : جاهلي وإسلامي ومولّد . فالجاهلي امرؤ القيس وإسلامي
 ذو الرمة ، والموالّد ابن المعتز » ويعقب ابن رشيق على ذلك قائلا :
 « وهذا هو من فصل النسخ وخاصة التشبيه على جميع شئون الشعر » (١)
 ولأحد الأئمة التي نصدّه في زمرة شعراء التصنيع وكثرة النسخ . لا نحصى
 وهو يدل من جهة ثانية . على أن التجديد وحال بالشعر يد « نفسه
 بالرحمة » فاقنح الجميع . أنصارا للمجددين أو حصروا . بأن نهج بني
 النعملة « أبقى بالوقت وأشكل بأهله » - على حدّ العنافة لمشورّه فكان
 لا بدّ أن يركب النقد حركة لإبساخ والتخلق . وأن يوجد الوسائل الكمية
 مهم هذا الشعر وحمله على وجهه . ولا يتسنى ذلك إلا بإحلال الوسائل
 شعرية المحلّ الأرفع . وتركيز العملية النقدية على النصّ . صوره وأبوابه .
 باعتباره قطب الرّحى في عملية الخلق المتّى - ولما كانت هذه الأدوات
 والأساليب عنوان الالة النصّ وبراءة الكاتب . لا فرق بين القدماء ومحدثين
 في التوسّس بها إلا الكمّ . فقد كان القدماء يقولون منها « البيت والبيتين »
 بينما سرف محدثون في استعمالها وأسرفوا (٢) فتحتم تسجيلها وإحصاؤها .
 لتحتذى . وعند هذه النقطة يلتحم النقد والبلاغة في كتاب « البديع » وهو
 نتاج بين مدى التطور الحاصل في مجال المصنّح ودلالاته . فقد
 رأيد - بلاغة - عند الحافظ متداخلة مع مفهوم الخطبة وبين مسا
 جعل مقاييس ضبطها متنوعة تأخذ بعين الاعتبار الملموط والتامط ، ونمرح
 بين مفتحيات المشافهة والكتابة . ولا نولي كبير أهمية لمرق . من كتب
 وشاعر ولحظيب . لذلك اتسع مجالها وحظي كل قسم من أقسامها بحصة
 معروفة نصيب من هذه المقاييس . أما هنا فلا وجود إلا للنصّ . ولا حديث

(١) النعملة ، ١/٢٠٠

(٢) البديع ، ج ١ .

ولا من خصائصه في ذاته تقطع النظر عن حملها انحصار الاحصاء عنه وبني
حكم أن تؤثر فيه عناصر محال البلاغة وأصبح مقتصر على قسم واحد (١) ،
ولهذا الحجاب حظوته فهو من ناحية يؤسس النهج الأدبي المتبع من
تفكير فيه البلاغة على خصائص الخطب والخطبات الأدبي لا غير ومنها
من رتب أخرى لظهور مؤلفات لا ترى في البلاغة إلا جمع وجوه النسيج
وخصائص وترتيبها وتصنيفها حسب ما يقتضيه التركيب والمعنى والتركيب (٢) .



والتبويب حسب يسرعي الانتهاء . لأنه إحدى دعائم هذا علم نهضة بد
الإبلاغة . فمن كل شيء . تبويب وتصنيف للأسانيد المختلفة . (١) . والتبويب
في كتاب البديع درجات . فهناك ما يمكن أن تسميه التبويب الخارجي ويشمل
أقسام الكتاب وتربط الأبواب وهناك التبويب الداخلي وهو كيفية ترتيب
مادة في نطاق الواحد .

— التبريد الخارجي :

بحسوبي بكتاب على قسمين كبيرين . فصل المؤلف بينهما بوضوح .
منص " نظري " فيه إشارة صريحة إلى انتهاء الحديث عن أوجه الدرع و شروع
في باب « محسن الكلام والشعر » (4) . ونسب هذا التقسيم وأسبابه
غير واضح ، ويصح أن نجد مضافاً فعلياً به سبب اختاره مصنفه « الدرع »

Exercice 4.1)

٢٠١٦ : دراسة ميدانية لخصائص المستهلكين واتيليج في نقد الشعر لأحمد م. سعد .
مطبعة جامعة القاهرة ، مصر : ١٩٨٥

3. عبد الله المهري - من دروس ألبيت على صنية - نشر في مكتبه لآداب -
977 1977 وقد عرف بين هذا المصنف والمفهوم العربي Taxonomie وهو كـ
من يرد في نص كتابه في المصدر الأخير

١٤٠٠ م. دراستی فی نقد الادب العربی من احوالیہ الی نہایہ الخرو ابث ص ٢٩٨

عبء الكتاب ، في حين أعطى القسم الثاني عنواناً آخر عرّاه مجموعة كلمات . وسبب قصره البديع على الوجود الخمسة المذكورة ، بينما كان بإمكان إلحاق أساليب أخرى من القسم الثاني بها لتتدرج أو غيرها .

نفس هذا الجانب نقرأه الدارسين . ولم يجعلوا له تفسيراً مرضياً ، إلا أن يكون سكت في الأصل رسالتين منفصلتين جمع بينهما رواده سكت « لانكار على مقياس الشهرة وكثرة الاستعمالات لا يستقيم لأن » مذهب الكلامي « و » ردّ أعجاز الكلام على ما تقدمه « ، وقد أدرج في قسم البديع ، بناءً أكثر أهمية ورواجاً من باب « التشبيه » و « الكتابة » و « التعريض » لذلك تخلفاً بالمحسنات .

كما أن الاعتماد على متعلق هذه الأساليب . لا يرفع الإشكال ، إذ تراه يفصل بين الاستعارة والتشبيه وكلاهما معوي .

وسافر في الكتاب بلاحظ أن المؤلف نفسه لم يكن متشبهاً بهذا التقسيم لأنه لم يبه على سبب معقول .

« (....) فمن أحب أن يقتدي بنا ، ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة ، فليفتن ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئاً إلى البديع ولم يأت غير رأينا فله اختياره » (1) .

وقد رفع ابن المعتز بهذه الإضافة الحرج على المتأخرين فكانوا يهجون بعضه في نسب إلى التأليف . ولكنهم حالوه في التقسيم (2) حتى انتهى بهم الأمر في وقت متأخر إلى المرادفة بين « البديع » و « المحاسن » . يقول ركن الدين بن أبي الأصم (654 هـ) : « إني رأيت ألقاب محاسن الكلام

(1) البديع ، ص 59 .

(2) يشير بن رشيد إلى هذا المعنى بوضوح جيد . ذكر قصور ابن المعتز ، وعدد وجود البديع عنه و « وعد ما سوى هذه الخمسة أنواع محسن » وأما أن يسميها من ذلك بدعاً ، وحذفه من بينه في أشياء منها يقع تشبه عليها والاحتياط فيها حيث ، مع من هذا الكتاب ، و « الفعلة » ، 265/1 .

في بحث البديع قد انتهت إلى عدد من أصول وفروع ، فأنصوبه من أشهر
منه من معتر في بديعه وقائمة في نقده . لأنها أول من عي بذلك ، (1)

و قد انعكست هذه الاعتبارية في التقسيم على ترتيب النحوى داخل كل
قسم . فليس لهذا الترتيب تعليق صريح أو ضمني فوجوه البديع هي على
توى الاستعارة . والتجنيس . والمطابقة . وردت أعمار الكلام على ما تقدمها ،
والذهب الكلامي . وإذا كنا بشيء من الاجتهاد نستطيع تفسير المطلع
والجائمة ، باعتبار الاستعارة أهم أنواع المجازات ، والذهب الكلامي
نفس استعمالا ، فإننا لا نفهم سبب مجيء التجنيس بعد الاستعارة مباشرة ،
في حين تأخرت المطابقة إلى الترتيب الثالث . ويبدو أنه لا مقياس لترتيبها
ولا فكرة لجمع بدون أي تحصيل مسبق . يدل على ذلك عبارة من المعترض
نفسه يقول : « من الكلام البديع قول الله تعالى (.. .) وإنما هو استعارة
(—) ومن البديع أيضا التجنيس والمطابقة (...) وكذلك الباب الرابع
والخمس : (2) . فهذه العبارات الرابطة تدل على معنى الزيادة ولتشبه في
الاشتباك إلى الباب لا غير ويمكن أن نلاحظ نفس الملاحظة في لقسم الثاني .
فهو خبيص من الأساليب . متعلقة بجملة من خصائص الحدث . شكه
ومعه . إلا أنها جاءت على غير نظام . منها ما يرتبط بمصهريه نحوي .
كمنحدر مصائر وأنماط الخطاب . كالاتيمات . أو قطع السير الطبيعي للجملة
لنحوية . برفهام سياقات أخرى أحشية عن التركيب . لكنها غير أحشية
من معنى . كاعتراض كلام في كلام . ومنها ما يتعلق بكميات أداء
معنى . وبالله المطبقي كالكناية . والتعريض . وتأكيده المدح بما يشبه الله .
وحسن الخروج من معنى إلى معنى

(1) تحرير التحرير . تحقيق حميد شرف . ط . المجلس الأعلى للثقافة الإسلامية .
الطبعة 4 1963

(2) البديع ، ص 2

- التوبيخ الداخلي -

ونش . . . هذا المظهر الأول من التوبيخ مرتجلاً . فإن حدود كتاب الواحد وترتبه الداخلي "شدياً" إحكاماً . ولا مستمداً في القسم الأول . حيث يقوم على ثلاثة أركان رئيسة هي : التعريف وهو الفاصل بين ذات ونب . ونشوه . فوصحة . هي صفة صفة ما يستحسن منه . ويأتي في مرحلة ثالثة . « غيب من الشعر والكلام » (1) على ذلك الوجه

وتعريفه تحمل بصمات هذه المرحلة . ولا نعتقد أن ابن معتر يدعي حصداً لتطويرة . ناهيك أنه استند في الكثير منها على ما وجد عند غيره . كما سبق أن ذكرنا في الحديث عن مادة الكتاب والحدود التي سبق أن كتبت عنها . مكتملة متطورة مثل التجميع مثلاً . أمّا المصاحفات التي لم توضح معالمها . وكانت تترج إلى التعميم . فإنها بقيت في مؤلفه عن حالها . وربما جاءت عنده أقل تطوراً مما كانت عليه . مثال ذلك « الاستعارة » والتشبيه . فهو لم يعرف هذا الوجه الأخير وإن كانت عناصر لتعريف موجودة عند غيره .

ثم إن من التعريفات ما لم يتسكن في التعريف فعبّر عنه بجملة كلمة كتبت كبد لماسح بما يشبه الدم . وهزل يراد به جـ . هذا ما يؤكد أن مساهمته الحقيقية لا تشل في المادة الواردة . وإنما في كمية مصادرها أي أن الفحص من نهج لا من المحتوى . بشرط أن يحيط كلمة النهج بكنز لا حترزت انصورية وفهمها في سياقها التاريخي العام

من توبيخ الأمثلة في نطاق المسألة الواحدة . فهو حاصص للمفهوم مردوح عنه . يورمي . فهو عادة يبدأ بذكر الوجه في القرآن . ولأحدث . فكلام بصحة . وإذا اتفق إلى الشعر راعى التوقيف التاريخي جيداً .

(1) الديج - ص 21 .

ثمّ يفسر بن المحدثين . ويمكن أن نلاحظ ، في هذا الجانب الأول ، محضصر
 لاستعراض ما يستحسن . أن ابن المعتز قليل التدخل ، صريح برأيه ، كثير
 ما يقتصر في حكمه النقدي على مجرد الانطباع والاتفعال الدوقى غير معد
 فتكثر عبارات من نوع : « وهذا من الآيات الملاح » (1) و « من التشبيهات
 المعجزة » (2) و « من أحسن التشبيه » (3) و « التشبيه الحسن » (4) . ثم
 إنه ، بالإضافة إلى تجاوره تعصب النحاة واللغويين على المحدثين ، قد
 يصبغ لاستشهاده حدوداً زمانية ومكانية ، نراه يكثر من إيراد شعر المحدثين ،
 إلى حدّ المبالغة أحياناً ، فيطول الشاهد طويلاً لا مبرر له إلا إعجابه بهم
 وتقديمه للجميل من شعرهم . فهو في باب التحنيس ، مثلاً ، يورد خمسة
 أبيات لمحدث يقع فيها الحساس في البيت الثاني ولما انتبه إلى الصور حدد
 موطن الاستشهاد بقوله « أردنا قوله » وغدا السحاب يكاد يسحب . « (5) .

ولا غرابة أن ترجع كفة المحدثين في الاستشهاد فالبديع في أشعارهم
 أكثر وهم أشد تعلقاً به من غيرهم (6) .

أما الجانب الثاني من الباب ، فحدوده في الجملة واضحة تبدأ بعبارة
 « ومن أعجب أو « ما عجب » . نستحي من ذلك باب الاستعارة الذي وردت
 فيه العبارة مسبوقة باسم إشارة يصعب التأكد مما يشير إليه . فعدد مجموعة
 من الأبيات آخرها بيت العباس بن الأحنف / بسيط :

وي جمود حفاها السوم فأنملت أحجار دمع بأعناق ابنه السرب

(1) البديع ، ص 29 .

(2) المصدر السابق ، ص 69 .

(3) المصدر السابق ، ص 72 .

(4) المصدر السابق ، ص 73 .

(5) البديع ، 29 - 30 .

(6) يذكر على سبيل المثال أنه أورد في القسم الأول من الاستعارة ما يريد على الشئ بيت
 للمحدثين بيت كان حظ القلباء نصف ذلك المقدار تقرب .

هو « وهذا وأمثاله من الاستعارة مما عيب من الشعر والكلام » (1) .
محبر ، حمل لعرف فيتجسب » (1) .

وسبب في هل كان المقصود هذا البيت وحده ، أم لأبيات سابقة
بعضه وسكوت المؤلف عن التحديق على الشواهد يعقد المشككة ، على كثر هذه
حده شدة لا تفص من قبعة التوبيخ ووضوحه إجمالاً .

وبقصر المؤلف هنا على الاستشهاد بكلام المحدثين وأشعارهم . وهذا
سبب في ضمور هذا القسم بالقياس إلى القسم السابق والمؤلف قد ثبت
من مدى مصداقة الأمثلة المذكورة للباب . فيبدو أحياناً مساقاً وراء بروية
وسخفها غير عابىء بمقتضيات الحد . فقد نقل في باب الاستعارة روايات
عن لجاحظ من باب الملح (2) لا نرى لها علاقة بالاستعارة كقول عبيد الله
بن زياد « يوما وكانت فيه لكمة افتحوا سبي يربد سلوة » فقال يربد بن
مفرع / الواهر /

ويوم فتحت سيفك من بعبد أصعت وكل أمرك لضباع » (3)
لما صبح أنه خطأ في تقدير العلاقات الركيبة (4) ، فتحت عنه مصدقة
في توريح جملة ولا يمكن أن يعد بحال من الأحوال استعارة لغياب
تقريظة «سالة على المشبه به ، أو ترجيحها ، لأن متعلقات شعر «فتح »
كثيرة لا تقوم معها صورة واضحة .

كما أكثر في هذا الباب من الاستعارات غير المبيدة وكل مجمع
على ضريحها فلا نرى فائدة من ذكرها . كقول عبيد الله المذكور آدها بمرحل
« تعد على مست الأرض » فقال له : « ما أعلم للأرض مست » (5)

(1) النديم ، ص 23 .

(2) البين والحيث ، 211/2 - 212 .

(3) النديم ، ص 23 .

(4) Relation de contiguité

(5) النديم ، 23 - 24 .

لا شواهد ان المعتر لا تقتصر على هذه التمدح الشاذة فقد اورد
عدد من الايات غير قليل ، لشعراء من القرن الثالث ، بعضهم مشهور
وبعضهم الآخر اقل شهرة . وقد وجد في شعر أبي تمام مادة غريبة متدفقة
القيمة ستمن بعضها في باب المحاسن وبعضها الآخر في ايراد العيوب ()

وباب التركيب الثاني للباب على أن صاحب الكتاب لا يعلق بهذه
الأساليب قيمة حمائية مطلقة ، ولا يعتبر الالتجاء إليها عنوان تفوق وبرعة .
في كل الأحوال ، ناهيك أن من الشعراء من قرئت من شعر أحدهم
قصائد من غير أن يوجد فيها بيت نديج (2) وهو موقف به أهمية
لأنه يحدد فعالية الأسلوب بجملة من الاعتبارات الأخرى . كالسبك
وموازاة المحل . وهو بالتالي كائح يصد الأدباء عن الإسراف في استعمالهم
ويصون الأدب عن مغبة السقوط في التكلف ، والصنعة العقيمة . إلا أن
لغريب في الأمر أنه سكت عن موطن العيب ولم يعلق على ما يورد من شواهد
إلا نادرا ، وهي تعليقات مخرقة في الارتسامة من قبيل : وهذا من غث الكلام
ودرده (3) وهو من عجيب هذا الباب في الرداءة (4) في حين كنا ننتظر
منه أن يتزم . على الأقل ، في الجاب التطيقي بالموقف الخفي الذي أثبتته
في مقدمة الكتاب ، والقاضي بأن قيمة هذه الأساليب رهبة عدم إسراف في
استعمالها .

« (. .) ثم إن حبيب بن أوس الطائي من بعدهم شعب به حتى عيب
عليه وتفرغ فيه وأكثر منه فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض وذلك عقبى
إفراط وثمره الإسراف » (5) .

() التديع من 24 ، 35 ، 47 . .

(2) انصر قبانق ، ص 1 .

(3) « » « » ص 46

(4) « » « » ص 47

(5) « » « » ص 1 .

وسيكون لهذا المقياس الذي ألقى به الجاحظ (1) في حمة صراع بين القدماء والمحدثين ، ووجه ابن المعتز ، فتبعه فيه أغلب النقاد متأخرين .
تأثير محيى في موقف العرب من الصورة ، ودور حاسم في سعيهم سمة « سمية » العلة على تاريخهم لمراحل الشعر العربي ، وتطور وسائله ، بد صديهم هادى « الكسم » في الغالب ، عن الفاذ إلى داخل القصيدة ودرسة نحبيهم من رابطة « نوعية » ، ترصد ما قد يكون طراً على سنية الصورة دنها من تحول ، لتغير الظروف الحضارية الجامعة بالأدب ، وما ينتج عنها من ذبب رؤية الشاعر للعالم .

وفى يكون النسب في عدم اعتماده على مقاييس الكم في نجبة لعب صعوبة تصيقية في نقد لا يران يقوم على البيت لا القصيدة أو القصائد . نعم وب بعض لأبيت تبدو مثقلة إلى حد المبالغة كقول أبي تمام : (لكامس)
دهبت بمذهبه السماحة فالتوت فيه الفنون أمذهب أم مذهب (2)
إلا أننا وجدنا أبيتاً أخرى لا يقل تواتر اتوجه فيها عن تواتره مع ذلك عدت من استحسن كقول النكيت : (طويل)
ونحن صمعد لامرئ القيس بعدما رجا المثلث بالطماع نكب على نكب
لذلك نعتقد أن ذوق الشاعر المترسب عن ثقافته العربية الواسعة ومدرسته الشخصية يخلق المي ، هو المقياس الأسمى الذي جملة يقف هذه موقف .

يمكن أن نقول في الخلاصة إن كتاب « البديع » يعتبر ، عن صغر حجمه وقلته ما أضاف إلى مادة العلم ، متروحة حاسماً في لتأليف الملاعي ومساهمه فعالة في بلورة حدود العلم وتخليصه من تعبئة العلوم لأخرى

(1) انبياء والنبين ، 56/4 - 56 .

(2) البديع ، ص 35 .

فهو في حدود ما وصلنا أول تأليف محقق لجمع الأساليب البلاغية
كيفية ، تسقى ، إذ وزدت مستقلة عن العلوم الأخرى مقصودة في ذاتها ،
وهذه حصوة مهمة في طريق نشأة هذا الاختصاص ، ودروره ضمن شجرة
الاختصاص للغة الأدبية .

وعن غياب العرص الأدبي واقتصار المؤلف على العرص الأدبي محصر
شرك بفسط وافر في مجي . الكتاب على هذه الهيئة وأرتباط مفهوم البلاغة
بخصائص النص وسببه .

كما سئل مؤلفه مجهودا واصحا لتبويب المادة وترتيبها ولا تحفى
أهمية هذا العمل في العلوم عامة . وفي البلاغة بوجه خاص . إذ تبويب هذه
عامة ووسيلة ، بينما هو مجرد وسيلة في العلوم الأخرى ، لأن علم البلاغة
محكم عليه دلاً يتجاوز الوصف إلى القواعد ، كالحق مثلاً ، لأنه لا يحسم
الصحة والخطأ ، وإنما يسعى إلى رصد الحسن والفتح . وهما مقومات معتقدتان
حصد الذوق فيهما غير قليل .

والكتاب بالإضافة إلى كل ذلك شهادة ناصعة لثمار اختصاصيين ربما
أصبحت اليوم ، بعد العهد ، لا ترى . بوضوح العلاقة بينهما . وهذا لنقد
من جهة وبلاغة من جهة أخرى . فبهد آلة ضرورية لا تنسى ، ضرورة
مر صفات اسن الأدبي وخصائصه الوعية إلا بالوسائل بها ثم إن تخصيص
كتاب كامل لهذه الوسيلة أمر له دلالة التاريخية العميقة . إنه نشأة النقد
لعرسي إلى أن جوهر الأدب بيته والأساليب التي توظف لتخرج به من
الكلام . شترك العاري . وقد يكون فيهم إلى ذلك حركات التحديث في شعر
التي ملأت القرن الثالث وشغلت انتقاد .

ولم يكن لابن المعتز بد من أن يلقي برأيه في أساليب الشعر التي قبل بها
مستحذة . فتساها في ذاتها ، إلا أنه بحث لها عن حذور في التراث القديم ،
فرشح مفهوم « الكم » كميّار فاصل بين ممارسة القدماء والمحدثين بسبب
وسكور بهد انقياس شأن في فترات البلاغة والنقد اللاحقة .

2 - أهم قضايا التفكير البلاغي الى القرن السادس

أَلَمْحُوتَ في بداية هذا القسم إلى صعوبة مواصلة السَّهَج الذي سبَّكَه في دراسة لقسمين الأولين لصحافة المادَّة البلاغية الحاصلة من مساهمات متنوعة مختلفة في سهج التناول والغاية . مرأينا . نجما للمطبَّات التي قد ترحَّ بن فيها التحليلية المفرطة ، أن نشقَّ المادَّة شفا عموديا بؤلف بين أشتاتها من خلال قضايا مهمة .

وبفرض موضوع بحثنا أن يتوفر في القضايا المختارة مقياسان رئيسيان : أن تكون من أمس التفكير البلاغي ومسائله الهامة . وأن ترسم من درسه ملامح تتطور - أو الاستمرار - الحاصل في ذلك التفكير . وهذا يعني أن نتجه ، نأه . إلى ما سبق أن طرحته فترة التأسيس دون أن يصدر ذلك عن تقصيا الطارئة إن وجدت .

وكن ما سنستعرضه إنما هو في الحقيقة فرع عن أصل واحد هو " نص " بحكم أن البلاغة ماهية ومهمة وأداة لا تنفك مطالعاتها وعاداتها عن مصدرها . نأه . متحركة في إشارته ، والصوابط التي تضيء عليه نوعيته أو أدبيته (د) فيشار عن سائر الكلام ، ويتبين فضله على غيره ، فهي ، أي البلاغة ، لا

من شأن تكون حسب عبارة عبد القاهر الجرجاني «من شأنه أن
يختصص علم نحوال الشعراء والبغاء ومراتبهم ويعلم الأدب حمدا» (1)

و. إمكان حصر هذه القضايا في محور ثلاثة هي المفهوم . و سطح
و لإجراء . وثلاثتهما أركان لا يقوم علم بلديها .

يعني بالمفهوم جملة المصطلحات التي تمثل قيمة الاستخلاص النصي
المتخصص عن تحسس العلم ماهيته وسعي القارئ عليه إلى إيجاد أدوات عمل
تحتزن ، على اختصارها ، أدق أبعادها الأصوية .

وفي مقدمة تلك المفاهيم روح ، الحقيقة/المجاز ، وهو حجر الزاوية في
علم يفترض أننا أن موضوعه يقوم على تجاوز الأساطير المعروفة في استعمال
للغة ويتبع طرائق غير مألوفة في توظيفها الدلالي .

واقعية بين الحقيقة والمجاز لا تعدو أن تكون إجمالا مقابلة بين ما هو
أدب وما هو غير أدب وإن كان ذلك لا يمنع التداخل والاشتراك .

وسنهتم ، في هذا المطاق ، بانتقاء المصطلحات التي استعملت لوصف
المستويات اللغوية والإشارة إلى خصائص بناء النص الأدبي ثم تنصرف إلى
ضبط الفروق الجوهرية بين الطرفين اعتمادا على اختلافها في طريقة أداء
معنى ثم نتحسس الأساليب التي ولدت الحاجة إلى أكثر من مستوى كما
نحاول أن نستجلي موقف العرب من العلاقة بينهما وانعكاسات ذلك الموقف .
ومن المفاهيم المهمة روح البلاغة/الفصاحة ، وهما أكثر المصطلحات تواترا
وأصلا يحكم في بلاغة النص . ولعل دراستهما بشيء من التوسع بالتأكيده
على فهم علماء البلاغة للعلاقة بينهما يمكن من تحديد مبادئ دراسة
لأسلوبية ودراسة التطور أو التحول الذي قد يكون جدا في صلب النظرية

(1) من الرحالة الثقافية ص 117 مقال في إيجاز القرآن ، طبعه دار المعارف ،
الطبعة ، 1968/1387 ص 117 .

إسلاعية . أما المنهج فتعني به الأسس والطرائق المعتمدة في تحسين الكلام من
لوحته الإسلاعية والوقوف على أسباب تلك البلاغة وأسرارها . والحديث عن
هذا حديث يقودنا حتما إلى شرح المستندات النظرية ووقوفنا عليه
مؤسسة منهمهم نظام النص ودلالات اللغة التي على أساسها اختاروا منهجهم
وسيتبع حديث عن « نظرية النظم » أكبر حيز لأنّها كانت مصدر قرار في
تفكير العرب البلاغي على مختلف أطواره والمنهج التوحيد الذي نتج عن
رؤية نظرية متكاملة

و لإجراء في استعمالنا هو مختلف المقاييس التطبيقية التي حددوا بها
بلاغة النص ووجوده على صعيدي الشكل والمضمون . وسنأتي الصورة العميقة
أهمية خاصة لتصدرها قائمة تلك الأحكام . والبحث في هذا الجانب يسمح
بمعرفة ما إذا تطورت نظرتهم إلى وظيفة النص وملابسات إجرائه أم لا . أسس
لحكم التي طرحتها فقرة التأسيس بقيت مستحكمة في دوقهم لأدبي .



بقي أن نشير ، في حاشية هذا التقديم . إلى صعوبة الالتزام بحدود
محدود التي فترحنها وصعوبة درسها مفصلة عن بعضها بعضا . وهذا سيؤدي
بنا إلى شيء من التكرار لا ماص منه . وفي هذا التكرار دليل على تطور علوم
البلاغة ونماست قصاياتها واهتدائها . في مرحلة من مراحلها ، إلى إقامة صرح
فكري متكامل ترابط أجزاؤه جوهريا . فتوة رجل كالعرجاني تكمن ،
من وجهة نظرنا . في ارتباط معاهيمه ومقاييسه بمنهجه بحيث لا يستطيع .
مثلا . توصيح مدلول البلاغة والصراحة عنده إلا بالاعتماد على . أنه في أسباب
بلاغة الكلام كما لا نستطيع دراسة الصورة في مؤلفاته إلا إذا بيده على معنى
لتأليف والنظم وعلى هذا النقط يتشابه المفهوم والمنهج والإجراء تشابها لا
لا يعكس على كلى محاولة تروم التعريف بتفكيره البلاغي .

أ - المفاهيم :

الحقيقة والمجاز : فطن اللغويون وعلماء البلاغة الأوائل عسماً ، دو
تفسير للغة ونقشهم معاني القرآن وسرّ إعجازه وتحديد مراتب الشعراء ومقاييس فصل
شعر على شعر إلى وجود مستويين في استعمال اللغة ، مستوى مشترك بين الناس
شائع في محادثاتهم ومعاملاتهم يسمح لهم بقضاء حوائجهم والتعاطف فيما بينهم
ومستوى ثان يتجاوز الأنماط المتعارفة في التعبير ويتصرف في استعمال
لغة فيستقى بعض معانيها ويهمل البعض الآخر أو يصوغها بطريقة محصورة
لا يكشف معناها المعنى إلا بعد الانتهاء إلى صورة التعبير الأولى ، كـ " دك
بعيداً تحميمها وفائف أخرى غير الإبلاغ والتواصل

وقد أضحوا على هذا المستوى الثاني " الاتساع " في مرحلة أولى ، ثم
اشتقوا له من الأصل اللغوي الداء على معناه صيغة " المجاز " بمعنى الطريق
ومسلك حتى جاء الجاحظ فربط القصيدة بدلالات اللغة وعلم معانيها فكان
أول من ظهرت عنده مقابلة الحقيقة بالمجاز أو " ظاهر اللفظ ولعدة لدلة في
فهرس لكلام " وه الاتساع في اللغة " وركوب البديع (1) .

ولكنهم لم يزيدوا على نصيف المجازات ووجوه البديع والإشارة إلى
المصطلح بعيداً عن كل تصور نظري لأبعاده وأهميته في تأسيس علم البلاغة
وفضرة لأدب ، فالعلم لما يتصل إلى المرحلة التي نصنع فيها وسائل لعمل
وأدواته موضوع تفكير

أما في هذه المرحلة فينتظر المبحث تطوراً كبيراً ونصيح دراسة حقيقة
والمحور من قارئاً في أغلب مصادر بحثنا (2) ومدخلا ضرورياً لمعرفة أقسامه

(1) سر القسم ٢ ص ٣٠٢ - ٣٠٣

(2) بحر عن سر الشان ابن فارس الصاحب في لغة العرب وستر العرب في كلامها ،
تحقيق مصطفى الشويخي ، مؤسسه دار الطباعة والنشر ، بيروت ، 1964 ، 1383 ،
ص 196 وما بعدها

المكرري ، الصناعات ، ص 274 وما بعدها ،
عبد القادر الحرجاني أسرار البلاغة ، ط عديجي ، 233/2 وما بعدها

الصيغة التي تسجل الكلام وفي حدّ البلاغة ومعها يستحقّ وصف امرعه « (١) »
 « من من أورد ما نتج عن الخوض في هذه المسألة والتعمق في دقائقها توصف
 عرب من ماء « علم الدلالات » (2) ماء متطورا يشير الإعجاب في تصديق
 دراستهم الموسعة لعلم المعاني .

ومن مظاهر التطور الكبير : في هذا الصدد ، ونظّم بين نشأة حركات
 في سعة ونشأة الشعر والأدب وكلّ صنوف الممارسات الفنية التي يجمعها
 مصطلح « إنشاء » (3) وقد تجاوزوا في كلّ ذلك ميدان اللغة العربية الخاص
 إلى ميدان أوسع - إنشائي عام - رتبوا حسه لمحسّ النظر والتحريك ، أطوار
 لغة ونوع لاستيعاب الذي يصاحب كلّ طور من تلك الأطوار (4) .

وغيتن من دراسة الجار استكشاف المواضع المميزة للأدب من غيره
 من صروب القول وتحسّس فهم العرب لحصائص بنائه اللغوي وطريقته في
 تحريك عناصر الدلالة في اللغة وتوسله بوجوه الصيغة التي تجعل لأدب أدب
 - حسب عبارة الجرجاني السابقة - لأنّ هذا النوع من الكلام ، قد سم من
 التكنيف وبريء من العيوب كان في غاية الصنعة ونهاية الجودة « (5) » ومن
 هذا المنظور تصبح دراسته في ذاته كضبط حدوده واستعراض أقسامه أمر
 ثانوي لا يهتم بقدر ما يهتم كونه محللا ضروريا لفهم أكثر لأساليب
 ونصوّر انتشارا كالتشبيه والاستعارة والتمثيل لأنّ هذه وغيرها من محاسن
 الكلام داخلة تحت المحاز « (6) » .

(١) انظر : عبد الفتاح الجرجاني ، مصدر المايه ، 137/1 .

(2) Sémantique

(3) Poétique

(4) انظر ما سألني به من 403 وما بسط .

(5) تمكيري ، خصائص ، 273 .

(6) ابن رشت ، القعدة ، 266/1

يقوم حديث عن الحقيقة والمجاز . بالضرورة . على ركبتين : أولهما الإقرار بمكانية الحري في استعمال اللغة على أكثر من وجه ويعكس ثبوتها شعاع علماء البلاغة بالبحث عن مقياس يعتمد لإخراج ذلك الإقرار من حيز ملاحظة عينية إلى حيز البحث والتحليل وتفسير خصائص اللغة في الأدب . وهو موضوع علمهم . يحملها على وجه استعمالها العادي المسي على تدلالات موضوعية وه إخراج الكلام على مقتضى الظاهر : (1) ومن ثم كان هذا البحث محكوما . منهجيا بجملة المزاجية بين الوصف والتاريخ في الأول ترسم صورة بظواهر وديانها الراهنة والثاني تفرح لأصول الدلالة والتحويلات هدرئة عليها بغية تفسير الحالة الراهنة .

ونصوص هذه الفترة توفر مادة ثرية في الاتجاهين .

الكلام الأدبي وصنف الكلام الأخرى :

إن الناظر في مصادر البلاغة العربية من زاوية المصطلح يلاحظ أن العرب لم يقتصروا . في تمييز الكلام الأدبي عن غيره ، على روح الحقيقة والمجاز . وب كان أكثرها اضطرابا .

ودرسه هذه المصطلحات هامة لأنها إحدى الدعائم المنهجية التي تقوم صيغ بلاغتهم ووجه من وحوه الجهد الذي بذلوه لتحديد مراتب لكلام وهي تدور ما تكشف عن الصعوبات القائمة دون صسط : الأدبية : صسطا عديدا تدور على أن في نظرية العرب الأدبية من وحوه الطرافة والتجذابة الشيء الكثير .

وأهم المصطلحات الواردة في وصف الكلام الأدبي هي :

(1) جملون : استعمال هنا الأصل اللغوي في أثيرين : استعماله بن

جبي (2) في صيغ المبني للثائب « يعلى » وورد عبد القاهر الجرجاني (3)

(1) السكاكي ، مفتاح العلوم : مطبعة أمطلي ، مصر ، 1356/1937 ، ص 82 81

(2) الحصاني ، 442/2 - 443 .

(3) دلائل الإعجاز ، ط 5 ، دار النشر ، 1372 ، ص 126 .

في صيغة «صبي» عدل : . وهو في الحالتين يدلّ على تركه صريفة في نفوس
بـ طريقة أخرى لأنها أحسن أو لمعى رائد .

والمدعي أنني عدل من أحلها عن الحقيقة في رأي ابن حيّ ثلاثة تكون
مع بعضها بعضا مباحث المجاز وهي الاتساع والتوكيد والتشبيه . ولقد صيغ
ذلك بصريّة مثلا قوله صلي الله عليه وسلم في التمر من هو حجر « فأما
لاتساع فلا » راد في أسماء التمر التي هي فرس وطرف وحرد وحواف
الحرد . ولكنه يشترط في استعماله في الأشعار والأسجاع مجاز وجود
قريبة لتي تسقط التشبه وتمنع الإلباس والإلحاح على الناس

« وأما التشبيه فلا يجري مجرى مائة » .

والتوكيد لأنه شبه العرض بالجواهر « هو أثبت في النفوس منه » .

وعلاقة التوكيد بالمجاز مبنية عنده على رأي سبقه إليه ابن قتيبة صورته
« أن أكثر اللغة مع تأمله مجاز لا حقيقة » (1) فإذا قلت مثلا : ضربت زيد
فهو في نظره مجاز من جهتين من جهة دعواك أنه كان منك «ضرب
أي الحس من الفعل» وكيف يكون ذلك وهو حس والجنس يطبق جميع
المدعي وجميع الحاضر وجميع الآتي ، (2) ومن جهة أن الضرب لم يقع على
كل شيء وإنما على جزء منه ولذلك نستعمل في التعميق وسائل التأكيد والهيل
فبصريح وقوعها « في هذه اللغة أقوى دليل على شياع المعاري بها واشتمالها
عليها » (3) . وبما استطرطنا إلى كل هذا لنبين طريقة من الطرق التي توحدها
أسويون في معالجة قضية المجاز ولنعطي فكرة عن التوقيفات التي تنهي إلى
تعصّب بحث وطمس الخلود بين المجاز والحقيقة .

(1) الحصان ، 447/2 .

(2) المصدر السابق ، 448/2 .

(3) المصدر السابق ، 451/2 .

فما أحسن فقد أبدره الجرجاني في مجرى حديثه عن الإظهار و الإصر
وكف أن إظهار في بعض الحالات يكون أبلغ من الحذف والإصر ،

فقد اعتمد الشاعر في قوله : (طويل)

ولو شئت أن أبكي دما لبكيت عليه ولكن ساحة الصبر أوسع
صها مفعول المشيئة (أن أبكي) ولم يحرحه على قياس الآية «ولو شئت» لأنه
لجمعهم عن يدي ، (1) حيث وقع إضمار مفعول المشيئة ولكنه كأنه ترك
تلك الطريقة وعلا إلى هذه لأنها أحسن (....) وسبب حسنه أنه كأنه بدع
عجيب أن يشاء الإنسان أن يبكي دما قلما كان كذلك كان لأو أن يصرح
بذكره ليقرره في نفس السامع ويؤنس به ، ثم يصوغ قاعدة يحدد بها دو عي
الإظهار « وإذا استقرت وجدت الأمر كذلك أبدا متى كان مفعول المشيئة
أمرا عظيمًا أو بديعًا غريبا كان الأحسن أن يذكر ولا يصر » (2) .

(2) القول الشعري / القول الحقيقي

القول الشعري / القول العادي

الشعر - قول مخرج غير مخرج العادة

- كلام مغير عن القول الحقيقي

- كلام عن حيلة (3) .

وأول ما يلاحظ على هذه المجموعة نزعها إلى الوصف لذلك ، تأت
ممكنة في الاصطلاحية إذ عتبر عن المتصور بمجموعة كلمات أو بحمسة
كلمة «حيدر» كما أن طبيعة الموضوع جعلتهم يهتمون في الظرف لأول شكل

(1) الأبناء 35 .

(2) المعجم دي ، المصدر المذكور ، ص 127 .

(3) وردت هذه المجموعة من اصطلاحات على لسان الفلاسفة المسلمين الذين شتموا بشراً
كثير «الشعر» لأوسط طائفة وتلخيصه وقد جمعها عبد الرحمان بهري في كتاب «عبد
في الشعر» ط 2 ، نشر دار الثقافة ، بيروت 1973 ، والأربعة الذين أضاف من
في رشد ، ص 242 - 243 والخميس من ابن سينا ، ص 163

من شك . لأدب وهو الشعر . إلا أن المهم أن المقابله بقيت تدور في لأعلى
على الحقيقة « و العادة » . ويستتبع من ذلك أمران : تقارب بل قرار
بمعين في ذهن المستعمل فتكون الحقيقة هي ما جرت عليه عادة الناس في
استعمال لغة عندما يرومون منها مجرد التخاطب بعيدا عن كل قصد فني
و تأثير في المستحاطب . وتطابق المجاز والشعر بحيث يصح روح ، نقول
شعري / القول الحقيقي مساويا لروح الحقيقة والمجاز . ويؤكد هذا الاستبداد
الدرديصي السليط ابن رشد :

« وتعبيرات تكون بالموازنة والموافقة والإبدال والتشبيه . وبالجمله :
بإخراج القول غير محروح العادة . مثل . القلب واحدف والتزينة و سقضان
و تقسيم وتأخير وتغيير القول من الإيجاب إلى السلب ومن سب إلى
الإيجاب . وبالجمله : من المقابل إلى المقابل وبالجمله : بجميع الأنوع التي
تسمى عندنا مجازا » (1) .

إذا كان الشعر = تغير القول الحقيقي

والتعبير = المجاز

فإن الشعر = المجاز

(3) لكلام في حد البلاغة / الكلام العمل . استعمال هذين المصطلحين
عند الفهر انحرافي ورغم أنهما لم يردا مقترنين بهذه الكيفية في طبيعة
تفكيره في بلاغة النص والتفسيرات التي أحاطتهما بها تسمح بانجمع بينهما
بدون أي حرج أما الطرف الأول فقد ورد ذكره عند حديثه عن دور و حوه
لصحة من معارة وتمثيل في جودة النص وبلاغته (2) وجاء الذي في معرض
نفسه عن رأي الجاحظ المشهور في أن أحسن الكلام « ما كان معه إلى
فست نسق من لفظه إلى سمعك » يقول : « إنما أرادوا أن يحتمد فتكلم

(1) ابن رشد ، المجمع المذكور ، ص 243 -

(2) أسرار البلاغة ، ص 137 .

في ترتيب لفظ وتهذيبه وحسينته من كل ما أخل بالدلالة وعرق دور لإدراكه
ولم يريدوا أن حير الكلام ما كان غفلاً مثل ما يترجمه الصبيان ويتكتم به
العمدة في السوق (1) .

ووصح من هذا السباق أن الكلام انقلب وإن كان يقصد به الكلام
محبب من كل مقومات الفن والأدب فهو يحمل شحنة تهجيبية ليست
موجودة في قولهم «الكلام الحقيقي» أو «الكلام العادي» وقد يكون
طبع الجدل لغالب على كل محاولات المسؤول عن هذا الالهام بهادي
عن المصطلح .

4) اللحن (2) :

ورد هذا المصطلح بالمعنى الأسلوبى في تفسير الرمضاني للآية «ولو
نشاء ألا ربينا كتبهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفتهم في لحن القول، والله يعلم
أعمالكم» ويتأكد المعنى الأسلوبى بالمشاكل المذكور وبذكر مصطلح
الأسلوب نفسه يقول معلّفاً على «لحن القول» :

«في نحوه وأسلوبه (..) وقيل اللحن أن قلح بكلامك أي ثميه
بل نحو من الأنحاء ليعمل له صاحبك كالتعريض والتورية، قل / لكم ،
واقصد حيث لكم لكيما تفقهوا واللحن يعرفه دور الأسباب» .
وبضيف الرمضاني وقيل للمخطيء لانه يعدل بالكلام عن
نصواب (3) .

وقد يفهم من هذه الإضافة أن اللحن بمعنى الخطأ معنى طيء على
معنى لأصبي وهو الميل الثاني يقدح الأبواب للعوض على المعنى وكشفه

(1) دلائل الإعجاز ، ص 270 - 271 .

(2) جعفر المنشوق يوهان فوك (J. Fück) صلا من كتابه عربية (Arabyya) دراسة
معاني هذه الكلمة ، انظر ، ص 195 - 205 .

(3) أنظر الكتاب عن حقائق التنزيل وعلوم القرآن في وجوه التأويل ، ص 133/3 ، 1948/1367 ، مصر ، الخليلي .

وبعد ، اعتماداً على إشارته ورددت عند الحرحاني ، أن العرب - عرب
 نوع من التأليف يسمى « الملاحى » وكانوا يجمعون فيه « الألفاظ التي يصح فيها
 اشتراك من غير سبب يكون من المشتركين » (1) من قبيل أن سور يكون
 اسماً للفنعة الكبيرة من الحب والتهار اسماً لفرح الخماري وليس دولة
 لكروان . وكان ذلك يستعمل لكتابة الأغاني والأحاديث كقول الشاعر متعرب
 أكلت النهار بنصف النهار وليلا أكلت بليلتي
 ويسمى بيدي ذكره الحرحاني قريب من معنى الرمخشري بحيث أن هذه
 لأحبر ذكر من ساذج الأساليب « التعريض » و « التورية » وهي هارتي في
 حجب معنى لا تختلف كثيراً عن الألفاظ . والسؤال الذي يصرح هو معرفة
 ما إذا كان توسع صاحب الكشف ، معنى اللحن يقوم على أساس أم هو
 جتهاد في الفهم أدى به إلى تحصيل المصطلح أكثر مما يحتمل ؟

طرح هذا السؤال ، وليس في إمكاننا الإجابة عنه ، لأن هذه لأسباب
 المذكورة وإن كانت تستعمل اللغة بطريقة خاصة عن المؤلف إلا أن حفظها من
 لأدب والفن قبل تاهيك أن موقف العرب من توليد المجاز عهد واضح .
 إذ لا يمكن أن يقوم المجاز إلا على سبب رابط بين المعنى المنقول إليه وبين
 لأصل لذلك لم يجر استعماله في هذا النصف من الألفاظ .

ونش كان هذا المصطلح يدعو إلى الاحتراز ، ويشير الربب فقد وفق
 لرمخشري ، في مصطلح آخر يفرق بوضوح بين مستويي الكلام :

(5) - الكلام الذي فيه صروب المحار / الكلام العربي

حاء في تعليقه على وجه التمثيل الواقع في الآية : « يا أيها الناس آمنوا
 لا تقسموا بين يدي الله ورسوله : » (2) ما يلي .

(1) أمراء البلاغة ، 2 269

(2) محرمات

« وحسنه قولهم جلست بين يدي فلان أن يجلس بين الجهتين مستشير
بسميه وثمانه قريبا منه فسمت الجهتان يدين لكونهما على سمت اليدين
مع لقرب منهما توسعا كما يسمي الشيء باسم غيره إذا حاوره وددته
في غير موضع وقد حارب هذه العبارة هنا على من صوب من المحار
وهو الذي يسميه أهل البيان تمثيلا ونجربها هكذا فائدة حبيبة يست في
كلام عربان » (1) .

نذكر هذه المصطلحات بوضوح على أن الأدب يستند حاد كبير
من خصائصه من خروجه في توظيف اللغة عن الأتماط المألوفة في الكلام
يسير الدارج ولذلك تحتم البحث عن معيار أو قيمة ثابتة يمكن الاعتماد
عليها صبط مظهر هذا الحروج وكمياته ليكون للمصطلح مصنون فعلي
يساعد على إخراج دراسة الأدب عن محض الانطباع والتلوق الشعصي .

والمبحث عن المعيار كان من المشاغل المشهجة الفارة في الفكر البلاغي
عند العرب وقد صاغ بعضهم تلك المشاغل صياغة تسمى عن يدك بطري
عميق مصعوبات القائمة في وجد تقين الطواهر الأسلوبية ودراسة لأدب
من جهة بيته النفوية . وتشهد بأنهم لمسوا أدق المشكلات التي عترضت
لأبحاث لأسلوبية المعاصرة . ويمكن أن نقول في عبر صلف ولا ادعاء إن
مفهوم « لدرجة الصغر » (2) وهو أحد أركان الأسلوبية اليوم و « موضحة من
موضات » النصف الثاني من هذا القرن في دراسة الأدب قد حددته البلاغيون
عرب بدقة تثير الإعجاب .

بقول السكاكي في باب الإيجار والإطناب :

() أما الإيجار والإطناب فكونها نسيين لا يتيسر لكلام فيهما
لا ترك التحقيق والنساء على شيء عرفي مثل جعل كلام الأهمسط على معرى

(1) أنشوف . 142/3
(2) Degré zéro

منهم في الأدبية للمعاني فيما بينهم ولا يد من الاعراف منث معد
 عيه ونسبه معارف الأوصاف . وأنة في باب البلاغة لا يحمد منهم ولا يمد
 ولا يحد هو أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعددة لأوصاف
 والإصابت هو أدائه فأكثر من عباراتهم . . . (1)

و عم تعلق الحديث في النص بصائلة فرعية إلا أنه يعبر عن حيرة
 منهجية عامة في دراسة مميزات لغة الأدب وبيان قصتها في الأداء على بقية
 أشكال التعبير في اللغة . فلا بد أن ينطلق البحث من مقياس تكون درجة
 لفت فيه صغر وهذا أمر صعب التحديد تقف دون الوصول إليه صعوبات
 عملية وأخرى موضوعية فهو يتطلب أن تجمع كل مستويات لغة وأن
 تدرس دراسة وصية كاملة . وهو مستعد ، ثم إننا حتى في حالة قيام
 بهذا العمل لن نجد مستوى حائلاً تماماً من مظاهر التعمق في عبارة ولذلك
 نضطر إلى الموازنة والاصطلاح والبناء على المعروف .

وسحث عن المقياس هو الذي ولد الاهتمام بالحقيقة والمجرد ودفع العرب
 إلى دراسة قضية الدلالة والتاريخ لأطوار اللغة وميلاد الشعر والأدب

في كتاب « الحروف » (3) للهارابي نص " نابع الأهمية يلخص ، رغم
 صديقه ، التسمي الواضح وشبه بالأنماط الأرسطية في التفكير ، مجمل
 لتصديق التي دار حولها حديث علماء البلاغة واللغة في باب الحقيقة والمجرد ،
 فهو يرى أن اللغة كبحار علامي مؤسس لمقولة العبارة نشأت على مرحلتين
 كبيرتين متصاعدتين . المرحلة الأولى تمثل بداية النشأة عندما كان الإنسان

(1) مصباح العلوم ، ص 333 .

(2) قرآن يترجم ، أنشعر ومشاعر : نظرية الاستوييه ، مثله في " الاستوييه " .
 le style comme écart في .

J. Moulin *Chats pour la Linguistique*, éd. Seghers, Paris, 1977,
 pp 171-174

(3) تحقيق محمد مهدي ، دار النشر بيروت ، 1970 .

يسحث عن وسيلة في التعبير تشترك في فهمها مع المتعابشين معه لقصائد الخواجات
وقد أصبى على هذا التطور : استقرار الألفاظ على المعاني ، حيث يعتق معنى
بعلامته تدل عليه دلالة ذاتية فتصبح الألفاظ ، راتبه على التي جعلت دالة
على دوتها ، ويكون وجه تعلق اللفظ بالمعنى في هذا التطور أصراً ثلاثاً
هي : « واحد لواحد واحد » و « كثير لواحد » و « واحد لكثير » (1)

أما التطور الثاني فيسميه « تطور النسخ والتجوير في العبارة باللفظ » .
وأهم مميزات هذا التطور توليد علاقات جديدة بين العلامات لعلوية و «
تعتز عنه و خروج عن الدلالة بالذات إلى الدلالة بالموضع والسياق و قرئ
استعمالات صنوف المجازات كالاستعارة ، والتوسع في العبارة بتكثير لألفاظها
وتبديل بعضها ببعض و ترتيبها وتحسينها و « التحدرد بلفظ معنى ما عن
لتصريح بلفظ المعنى الذي يتلوه متى كان الثاني بفهم من الأول » (2) وغيرها
من طرق التعبير ومثالكه .

ونضرب التجوير في العبارة محكومة - حسب الفارابي - بشروط منها
لتعلق وهو وجوه كثيرة منها الشبه بين المنقول منه والمنقول له ليقوم بقياس
بشيء تتصوّر الصورة ، تشبيها كانت أو استعارة . على أصل يدرج بالعقل
فلا تستعصى الصورة على الفهم ، ومنها ألا تصبح العبارة المجازية رتبة للمعنى
بشيء دالة على ذاته إذ لا بد ليقى المجاز محاوراً ألا تغيّر من أصل موضوعه ،

(1) العربي أن الفارابي لا يشمل ، في هذا العهد المصطلحات التجارية في كتب المترين
منه عهد سيرته وهي « دلالة الأفراد » و « اشتداد » و « الاشتراك » .

(2) اجانب الاصطلاح في تصور الفارابي يلعب الانباء فكل هذه العملية القوية كان
و يمكن فهمها بالمصطلح انشائي أملاً وهو « فكيف » أو « الإرداف » وهو عند الفارابي
« أن يرد الشاعر دلالة على معنى من المعاني فلا يثبت بلفظ تلك المعنى ، بل
بلفظ يدر على معنى هو رده وتأنع له ، فإذا دل على شيئا غير أن ، عن التوسع بمره و «
من أمي ربيعة

ميدة موى آخره أما لوفى أنوها وأما عنه معنى وشدهم
وبعد أراد هذا الشعر أن يصف طولاً جيداً يذكّر « بلفظ الخمسة » ، بل أي معنى
هو « مع لغيره » فلفظ الشعر ، من 88 .

وأن عني في حدودها . وأن تكون العلاقة بين المستعير والمستعير به علاقة
عرضية لعدم مجرّد انتهائها من أداء وظيفتها .

وبسهي الفارابي إلى أن « الخطبة » أولاً « الشعرية » ثم نشأت
عن هذا لصور الثاني الذي تراكب فيه من اللغة ويصنع دالماً كصنيعه
المقور على هيئه تصع أو تخيل :

« فرد استقرت الألفاظ على المعاني التي جعلت علامات في فصر
واحد واحد واحد واحد وكثير لواحد أو واحد لكثير وصارت رتبة على التي
جعلت رتبة على دوتها صارت الناس بعد ذلك إلى السبع والتجور في «عشرة
بالفاه فصر بالمعنى غير اسمه الذي جعل له أولاً وجعل الاسم الذي كان
معنى ما رتبة له دالا على ذاته عبارة عن شيء آخر متى كان به به تعق ولو
كان يسير ، إما لشبه بعيد وإما لغير ذلك من غير أن يجعل ذلك رتبة للذي
دالا على ذاته فيحدث حيثل الاستعارات والمجارات والتجور بلفظ معنى
ما عن لتصريح بلفظ المعنى الذي يتنوه متى كان الثاني يفهم من الأول وبألفاظ
معك كثيرة يصرح بألفاظها عن التصريح بألفاظ معان آخر إذا كان سببها
أن تفرق بالمعاني الأول متى كانت تفهم الأخيرة مع فهم الأولى والتوسع
في العبارة بتكثير الألفاظ وتبدل بعضها بعض وترتيبها وتحسينها فيبتدىء
حين ذلك في أن تحدث الخطبة أولاً ثم الشعرية قليلاً قليلاً » (١) .

ويمكن أن نجمل القضايا المطروحة في هذا النص في محورين اثنين
التي تستقطب بدورها أهم المساهمات في موضوع الحقيقة والمجاز .
(١) ميزة الأدب الرئيسية هي خروجه عن الوجوه المألوفة في استعمال
لغة وكيفية أداء المعنى ، وهو بحكم وظيفته ، لا يشأ إلا من ترك
سبب وإمكانية التعبير عن المعنى الواحد بطرق مختلفة .

(١) الفارابي ، كتاب الحروف ، ص 141 ، ونظر في الصفحة الموالية حقه عن « حروف
الصانع » إمامية ، حيث يذكر ضرورة أن تسمى « الخطبة » في « الشعر » .

(١) "تحليل" الخفيف مرئيه الأصل والمجاز مرتبه انصرخ بحكمه معروف
لأصو ر في تشاؤ . ويتج عن هذا من التوجه المبدئية على "أول" "كـ"
محرر يرتبط بحقيقة

٣. "العدول عن المعنى الخفيفي إلى معنى مجازي منه خارج
في معنى تدوير الخفيف عن تأديتها .

كيفية وقع معالجة مختلف هذه المسائل في التراث البلاغي "

1. - أداء المعنى في الأدب :

ليست المصطلحات التي استعرضناها إلا مظهرا من الجهد الذي بذره
سلاغيون العرب لمحاصرة أسباب بلاغة النص الأدبي وفصله على صروب
القول الأخرى .

وما هي . في الحقيقة . إلا نتوبج لعمل طويل النفس ونحسين دقيق
لعدد لا يحصى من الشواهد كانت انغاية منه تحديد الكيفية التي يتم بها
توصيف لغة وتفسير "العدول" أو "اللين" أو "التعبير" تفسيراً تصحيح
بمقتضاه عبارة علم الأدب الواردة عند الجرجاني . تحليل على شيء
محموس يمكن أن يقاس بمقاييس العلم الحق .

ومما ينبغي هنا لا تختلف عن مطلق العلم كله فهي محكمة نقود
تصور خدعة لعامل الزمن لذلك لم تقطع نفس الشوط ولم توفق في نفس نتائج .
ويمكن أن تقسم هذه المساهمات . إجمالاً : إلى صنفين . الصنف الأول
يشمل مؤلفات الواقعة بين القرن الثالث والقرن الخامس ولصنف الثاني
يستأثر به عند القاهر الجرجاني وأبو يعقوب السكاكي .

م يوفى أصحاب المؤلفات الأولى رعم ضخامة المجهود الذي قاموا
به في صنف مذهب التحولات التي تطرأ على نظام الدلالة بحكم علاقات

جديدة اني تنشأ من تجاوز أصل الوضع في تعليق اللفظ بمعنى فهمي
مجهودهم نظري مفتصرا على حد الحقيقة والمجاز . وهو حد لا يختلف
من مؤلف إلى آخر إلا من جهة الصياغة أو من جهة الوجه الذي يربط
مؤلف التأكيد عليه أكثر من غيره .

ولا فرق بين قول ابن جني : « الحقيقة ما أقر في الاستعمال على أصل
وصفه في اللغة » المجاز ما كان بضد ذلك » (1) وقول المحمدي « وصف
الموصوف بأنه حقيقة هو ما أريد به ما وضع لإفادته والمجاز هو وصف
الذي أريد به ما لم يوضع لإفادته » (2) إلا عدم ثبوت ابن جني في
مصيعة « استعماله كلمة » ضد « التي تدخل بعض التلميح في حد
كما أنه لا فرق بين هذين التعريفين وتعريف ابن رشيق » (.....) وما عند
الحقائق من جميع الألفاظ ثم لم يكن محالا محصا فهو مجاز » (3) إلا في
حرص هذا الأخير . لغلبة نقد الشعر على مشاعله . على أن يؤكد على وجوب
تجنب عيب من عيوب المعاني وهو « الإحالة » والإيحاء بوصافة مصدر
« محصا » بموقفه من قضية العلو والإمراط في الصفة (4) .

ومتي ستبيننا هذه التعريفات وجدا أنهم بقوا يباشرون القضية مباشرة
تحيية تشرح الشواهد واحدا بواحد دون أن يهتدوا إلى الاستخلاص
النظري الذي يؤلف الوجه المشترك بين جميع هذه الأساطير .

ويمكن تحييص طريقتهم في العمل على النحو الآتي . إيراد شاهد .
وهو في بعض استعارة لأنها أرقى صنوف المجاز عند البلاغيين قاطبة . ثم
يرجع صاحب التأليف عن معناه ثرا وبعدها يحاول إظهار الفارق بين
بصريقتين في الأداء والإضافات المعنوية انحصالة من التعبير بالاستعارة

(1) المحمدي 2، 462

(2) من الفصحى 38

(3) العمدة 266، 2

(4) من تصدير مؤلفه من « علو » مصدر تجاوز : 224/1

وكنه ما يعوز المتأخر على التقدم متكرر الاستشهادات ، لا تعبر
صرحه بتحسين وتوضيح نسوق تعليق كل من الرماني وعسكري عن
آبين . واشتمل الرأس شياء (1) و قد تل نقضت لاحق عن بعض
سدمه هذا هو زاهي (2) .

الرحماني (3)

العسكري

(أ) « واشتعل الرأس شيباً »

حقيقته كثر الشيب في الرأس
وظهر والاستمرار أبلغ
لمصل ضياء النار على ضياء
الشيب فهو إخراج النار
إلى ما هو أظهر منه ولأنه لا
يتلافى انتشاره في الرأس
كما لا يتلافى اشتعال النار .

أصل الاشتعال للنار ، وهو في هذا الموضع
أبلغ ، وحقيقته كثرة شيب الرأس إلا أن
كثرة لما كانت تتزايد تزايداً سريعاً
صارت في الانتشار والإسراع كاشتعال
لنار ... وله موقع في البلاغة عجيب وذلك
أنه انتشر في الرأس انتشاراً لا يتلافى
كاشتعال النار .

(ب) « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه
فإذا هو زاهق »

حقيقته بل نورد الحق على
الباطل فيدهبه والقذف أبعد
من الإيراد ، لأن فيه بين
شدّة الوقع ، وفي شدة الوقع
بان القهر ، وفي القهر هاهنا

فانقذف وانسمع هنا مستعار وهو أبلغ ،
وحقيقته : بل نورد الحق على الباطل فيذهب
وإنما كانت الاستعارة أبلغ لأن في القذف
دليلا على الفهر ، لأنك إذا قلت : قذف به
لبي وإنما معاء ألقاه إليه على جهة الإكراه

$$A = \begin{pmatrix} 1 & 0 \\ 0 & 1 \end{pmatrix}$$

78 卷五 (23)

(٦) نظر الكاتب في إعجاز القرآن ، ص ٨٨ ، والمصاحف ، ١٧٨ - ١٧٩ م . مع رى مع
أهمه و غير من الطريفة لا يعبر بأد الأحماء . الألفاظ : ١ - ١٠ - ١١ - ١٢ - ١٣ - ١٤ - ١٥ - ١٦ - ١٧ - ١٨ - ١٩ - ٢٠ - ٢١ - ٢٢ - ٢٣ - ٢٤ - ٢٥ - ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ - ٣٠ - ٣١ - ٣٢ - ٣٣ - ٣٤ - ٣٥ - ٣٦ - ٣٧ - ٣٨ - ٣٩ - ٤٠ - ٤١ - ٤٢ - ٤٣ - ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٤٧ - ٤٨ - ٤٩ - ٥٠ - ٥١ - ٥٢ - ٥٣ - ٥٤ - ٥٥ - ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ - ٥٩ - ٦٠ - ٦١ - ٦٢ - ٦٣ - ٦٤ - ٦٥ - ٦٦ - ٦٧ - ٦٨ - ٦٩ - ٧٠ - ٧١ - ٧٢ - ٧٣ - ٧٤ - ٧٥ - ٧٦ - ٧٧ - ٧٨ - ٧٩ - ٨٠ - ٨١ - ٨٢ - ٨٣ - ٨٤ - ٨٥ - ٨٦ - ٨٧ - ٨٨ - ٨٩ - ٩٠ - ٩١ - ٩٢ - ٩٣ - ٩٤ - ٩٥ - ٩٦ - ٩٧ - ٩٨ - ٩٩ - ١٠٠ - ١٠١ - ١٠٢ - ١٠٣ - ١٠٤ - ١٠٥ - ١٠٦ - ١٠٧ - ١٠٨ - ١٠٩ - ١١٠ - ١١١ - ١١٢ - ١١٣ - ١١٤ - ١١٥ - ١١٦ - ١١٧ - ١١٨ - ١١٩ - ١٢٠ - ١٢١ - ١٢٢ - ١٢٣ - ١٢٤ - ١٢٥ - ١٢٦ - ١٢٧ - ١٢٨ - ١٢٩ - ١٣٠ - ١٣١ - ١٣٢ - ١٣٣ - ١٣٤ - ١٣٥ - ١٣٦ - ١٣٧ - ١٣٨ - ١٣٩ - ١٤٠ - ١٤١ - ١٤٢ - ١٤٣ - ١٤٤ - ١٤٥ - ١٤٦ - ١٤٧ - ١٤٨ - ١٤٩ - ١٥٠ - ١٥١ - ١٥٢ - ١٥٣ - ١٥٤ - ١٥٥ - ١٥٦ - ١٥٧ - ١٥٨ - ١٥٩ - ١٦٠ - ١٦١ - ١٦٢ - ١٦٣ - ١٦٤ - ١٦٥ - ١٦٦ - ١٦٧ - ١٦٨ - ١٦٩ - ١٧٠ - ١٧١ - ١٧٢ - ١٧٣ - ١٧٤ - ١٧٥ - ١٧٦ - ١٧٧ - ١٧٨ - ١٧٩ - ١٨٠ - ١٨١ - ١٨٢ - ١٨٣ - ١٨٤ - ١٨٥ - ١٨٦ - ١٨٧ - ١٨٨ - ١٨٩ - ١٩٠ - ١٩١ - ١٩٢ - ١٩٣ - ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٦ - ١٩٧ - ١٩٨ - ١٩٩ - ٢٠٠ - ٢٠١ - ٢٠٢ - ٢٠٣ - ٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢٠٦ - ٢٠٧ - ٢٠٨ - ٢٠٩ - ٢١٠ - ٢١١ - ٢١٢ - ٢١٣ - ٢١٤ - ٢١٥ - ٢١٦ - ٢١٧ - ٢١٨ - ٢١٩ - ٢٢٠ - ٢٢١ - ٢٢٢ - ٢٢٣ - ٢٢٤ - ٢٢٥ - ٢٢٦ - ٢٢٧ - ٢٢٨ - ٢٢٩ - ٢٣٠ - ٢٣١ - ٢٣٢ - ٢٣٣ - ٢٣٤ - ٢٣٥ - ٢٣٦ - ٢٣٧ - ٢٣٨ - ٢٣٩ - ٢٤٠ - ٢٤١ - ٢٤٢ - ٢٤٣ - ٢٤٤ - ٢٤٥ - ٢٤٦ - ٢٤٧ - ٢٤٨ - ٢٤٩ - ٢٥٠ - ٢٥١ - ٢٥٢ - ٢٥٣ - ٢٥٤ - ٢٥٥ - ٢٥٦ - ٢٥٧ - ٢٥٨ - ٢٥٩ - ٢٦٠ - ٢٦١ - ٢٦٢ - ٢٦٣ - ٢٦٤ - ٢٦٥ - ٢٦٦ - ٢٦٧ - ٢٦٨ - ٢٦٩ - ٢٧٠ - ٢٧١ - ٢٧٢ - ٢٧٣ - ٢٧٤ - ٢٧٥ - ٢٧٦ - ٢٧٧ - ٢٧٨ - ٢٧٩ - ٢٨٠ - ٢٨١ - ٢٨٢ - ٢٨٣ - ٢٨٤ - ٢٨٥ - ٢٨٦ - ٢٨٧ - ٢٨٨ - ٢٨٩ - ٢٩٠ - ٢٩١ - ٢٩٢ - ٢٩٣ - ٢٩٤ - ٢٩٥ - ٢٩٦ - ٢٩٧ - ٢٩٨ - ٢٩٩ - ٣٠٠ - ٣٠١ - ٣٠٢ - ٣٠٣ - ٣٠٤ - ٣٠٥ - ٣٠٦ - ٣٠٧ - ٣٠٨ - ٣٠٩ - ٣١٠ - ٣١١ - ٣١٢ - ٣١٣ - ٣١٤ - ٣١٥ - ٣١٦ - ٣١٧ - ٣١٨ - ٣١٩ - ٣٢٠ - ٣٢١ - ٣٢٢ - ٣٢٣ - ٣٢٤ - ٣٢٥ - ٣٢٦ - ٣٢٧ - ٣٢٨ - ٣٢٩ - ٣٣٠ - ٣٣١ - ٣٣٢ - ٣٣٣ - ٣٣٤ - ٣٣٥ - ٣٣٦ - ٣٣٧ - ٣٣٨ - ٣٣٩ - ٣٤٠ - ٣٤١ - ٣٤٢ - ٣٤٣ - ٣٤٤ - ٣٤٥ - ٣٤٦ - ٣٤٧ - ٣٤٨ - ٣٤٩ - ٣٥٠ - ٣٥١ - ٣٥٢ - ٣٥٣ - ٣٥٤ - ٣٥٥ - ٣٥٦ - ٣٥٧ - ٣٥٨ - ٣٥٩ - ٣٦٠ - ٣٦١ - ٣٦٢ - ٣٦٣ - ٣٦٤ - ٣٦٥ - ٣٦٦ - ٣٦٧ - ٣٦٨ - ٣٦٩ - ٣٧٠ - ٣٧١ - ٣٧٢ - ٣٧٣ - ٣٧٤ - ٣٧٥ - ٣٧٦ - ٣٧٧ - ٣٧٨ - ٣٧٩ - ٣٨٠ - ٣٨١ - ٣٨٢ - ٣٨٣ - ٣٨٤ - ٣٨٥ - ٣٨٦ - ٣٨٧ - ٣٨٨ - ٣٨٩ - ٣٩٠ - ٣٩١ - ٣٩٢ - ٣٩٣ - ٣٩٤ - ٣٩٥ - ٣٩٦ - ٣٩٧ - ٣٩٨ - ٣٩٩ - ٤٠٠ - ٤٠١ - ٤٠٢ - ٤٠٣ - ٤٠٤ - ٤٠٥ - ٤٠٦ - ٤٠٧ - ٤٠٨ - ٤٠٩ - ٤١٠ - ٤١١ - ٤١٢ - ٤١٣ - ٤١٤ - ٤١٥ - ٤١٦ - ٤١٧ - ٤١٨ - ٤١٩ - ٤٢٠ - ٤٢١ - ٤٢٢ - ٤٢٣ - ٤٢٤ - ٤٢٥ - ٤٢٦ - ٤٢٧ - ٤٢٨ - ٤٢٩ - ٤٣٠ - ٤٣١ - ٤٣٢ - ٤٣٣ - ٤٣٤ - ٤٣٥ - ٤٣٦ - ٤٣٧ - ٤٣٨ - ٤٣٩ - ٤٤٠ - ٤٤١ - ٤٤٢ - ٤٤٣ - ٤٤٤ - ٤٤٥ - ٤٤٦ - ٤٤٧ - ٤٤٨ - ٤٤٩ - ٤٥٠ - ٤٥١ - ٤٥٢ - ٤٥٣ - ٤٥٤ - ٤٥٥ - ٤٥٦ - ٤٥٧ - ٤٥٨ - ٤٥٩ - ٤٦٠ - ٤٦١ - ٤٦٢ - ٤٦٣ - ٤٦٤ - ٤٦٥ - ٤٦٦ - ٤٦٧ - ٤٦٨ - ٤٦٩ - ٤٧٠ - ٤٧١ - ٤٧٢ - ٤٧٣ - ٤٧٤ - ٤٧٥ - ٤٧٦ - ٤٧٧ - ٤٧٨ - ٤٧٩ - ٤٨٠ - ٤٨١ - ٤٨٢ - ٤٨٣ - ٤٨٤ - ٤٨٥ - ٤٨٦ - ٤٨٧ - ٤٨٨ - ٤٨٩ - ٤٩٠ - ٤٩١ - ٤٩٢ - ٤٩٣ - ٤٩٤ - ٤٩٥ - ٤٩٦ - ٤٩٧ - ٤٩٨ - ٤٩٩ - ٥٠٠ - ٥٠١ - ٥٠٢ - ٥٠٣ - ٥٠٤ - ٥٠٥ - ٥٠٦ - ٥٠٧ - ٥٠٨ - ٥٠٩ - ٥١٠ - ٥١١ - ٥١٢ - ٥١٣ - ٥١٤ - ٥١٥ - ٥١٦ - ٥١٧ - ٥١٨ - ٥١٩ - ٥٢٠ - ٥٢١ - ٥٢٢ - ٥٢٣ - ٥٢٤ - ٥٢٥ - ٥٢٦ - ٥٢٧ - ٥٢٨ - ٥٢٩ - ٥٣٠ - ٥٣١ - ٥٣٢ - ٥٣٣ - ٥٣٤ - ٥

<p>بيك إرادة الناطق على جهة الحجة لا على جهة الشك والارتباب ، والدمع أشد من الإذهاب ، لأن في الدمع من شدة التأثير وقوة الكاية ما ليس في الإذهاب.</p>	<p>والقهر فالحق يلتقي على الباطل فيرسله على جهة القهر والاضطرار لا على جهة الشك والارتباب ، ويدمغه أبلغ من يدهه لما في يدمغه من التأثير فيه فهو أظهر في الكاية وأعلى في تأثير القوة .</p>
--	---

سعى هذا المصنف في التحليل سارت أغلب المؤلفات فشعبه حرص على
تأكيد معنى انصاف والإقناع بوجوده عن تدبر مادية التحول ، أي يظن أن
لفظ الدلالة عندما نريد باللفظ غير ما أريد له في أصل التوضع .

وم يسلّم الفلاسفة المسلمون من تسليط الرؤية التحليلية راسد سبب
التأليف فبدرهم من توفيقهم ، في دراسة الشعر ، إلى إدراك أهمية بيته ، اللغوية
وتعريفه حتى أنهم جعلوا وطبته سبب منها كما أكد ذلك الشيخ الرئيس في
جميته المشهورة « فالتخيل يفعله القول لما هو عليه والتصديق يفعله لقلوب بما
انقوى فيه عليه » (1) فإنهم لما أرادوا تفسير هذه الخصائص سقطوا في الإغماص
القديم البعيد عن التحليل اللغوي (2) أو لم يكن بإمكانهم التعالي عن شواهد
بحسبهم وصيغة القانون الكلبي المتحرك لكل تلك الشواهد عذب رشدهم فطن
إلى أن « فعل الشعر » يحصل من تعبير القول الحقيقي إلا أنه لم يجد سبيلا إلى
تفسير ذلك التغير والتأثير إلا بمقارنة المعلوم بالمشهور فقد أورد قول الشاعر ، (طويل)

ولما قصينا من معنى كل حاجة ومستح بالأركان من هو مسبح
أحدثنا بأطراف الأحاديث يسا وسالت بأعناق المطي الأناطح

(1) شعر في الشعر وهو نفس قديم من شعر الأديب من ك... ص 162 .
خبري به كور - ص 162 .

(2) شعر هو سبب المشهور شعر الذي من جملة التي تصح في القصد . المصدر المذكور - ص 162 .

وعشق عليه قائلا : « إنما صار شعرا من قبل أنه استعمل قوله : » أحد
 أطراف الأحاديث بيتنا ، ومالت بأعناق المضي الأباطح ، بدل قوله ،
 « تحدثنا ومشينا » (1) .

كنت كائنا هذه المحاولات تحوم حول الهدف ولا تقع عبه وتروم
 بحث معتقده فلا تقوى حتى جاء رجل جمع إلى الدوق الأدبي مدره محدث
 وصرمة العبد وإذا ما أشكل على أجيال من البلاعيين يوجر في عرفة هي فعنه
 من قسم التكبير العربي إطلاقا ومتهى ما وصلت إليه البلاغة في تفسير هرق
 لأداء معوي في النص الأدبي . وتلك العبارة هي « معنى المعنى »

يقول الجرحاني في نص متمبر من « دلائل الإعجاز » نوره كمالا
 لأهميته : « الكلام على صريين : صرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة
 اللفظ وحده . وذلك إذا قصدت أن تحصر عن زيد مثلا بالخروج على
 الحقيقة ، فقلت خرج زيد وبلاطلاق عن عمرو فقلت : عمرو منطلق .
 وعنى هذا القياس ..

وصرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن
 يدرك اللفظ عن معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ، ثم تجد لذلك المعنى
 دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض (...) أولا ترى أنك إذا قلت : هو كثير رماد
 بقدر ، أو قلت : طويل الجاد . أو قلت في المرأه : مؤوم نصحي ، فذلك
 في جميع ذلك لا تعبد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ . ولكن يدرك اللفظ
 عن معناه الذي يوجبه ظاهره : ثم يعقل السامع من ذلك المعنى عن سبيل
 الاستدلال معنى ثانيا هو غرضك . كمعرفتك من كثير الرماد لقدر أنه
 مضياف . ومن طويل الجاد أنه طويل القامة . ومن مؤوم النصحي في مرأه
 أنها مترفة مخنومة لها من يكفيها أمرها (...)»

(1) انظر لبعض كتاب أوسطو طائيس في الشعر ، ضمن كتاب نحوي ، ص 242 .

وإذا ما عرفت هذه الجملة ، فهذه عبارة محصورة وهي أن تقسّم
المعنى ومعنى المعنى . تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه
بغير واسطة . ومعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفصي ذلك ذلك معنى
في معنى آخر ، كالذي فسرت لك ١ (1)

فما الجديد في هذا النص ؟

بالإضافة عن هذا السؤال لابد من الرجوع إلى التوراء للتذكير بأن جمهور
الملاعين قبله فسروا طبيعة العلاقة المؤسسة للمجاز المعنوي باستقل أي بالتعريف
بحدود معنى الكلمة ولكنهم بدل أن يواصلوا في هذا النهج وفسّروا
لأحكام سببية المترتبة عن هذا الموقف رأيتهم يحرصون على تأكيد الشبه
المعنوي بين القول من المقبول إليه أكثر من حرصهم على تأكيد التغير من
ولذلك لسعي إلى ذكر التعبير الحقيقي وترجمة المجازات فاختصت العلاقة
بعبارة موضوعية القائمة في المجاز بالعلاقة ، الماوراء بعبارة (2) النابعة عن
قراءتهم للوجه .

وتمسكهم بفكرة النقل جعلهم يظنون إلى الكلمة من زاوية
« استبدالية » (3) أي من زاوية إمكانيات التفاوض القائمة بين وحدات المعجم
وم يهتموا كثيراً بعلاقاتها « السياقية » (4) وأهمية تلك العلاقات في تحديد بنية
الصورة . وبهذا يتأكد الانعصاف بين انشكاف والمضمود وثبقي المجازات تباشر
عن نهج « حل » و « معارضة » يمكن أن تعبر من المظهر الخارجي ولكن
بالذات لا يتغير .

رؤس مظهر من مظاهر انفصال الجرجاني عن هذه الطريقة في التصور
ربطه بمجاز بمعنى اللفظ لا باللفظ ورفضه فكرة النقل مقياساً للتفسير وفي

(1) بحسب محمد عبد الممن خفاجي ، ط 1 ، القاهرة ، 1989، 1969 . من 262 264

Métalinguistique (2)

Paradigmatique (3)

Semantique (4)

داه على لقائلين بها كثير من الخجج المقنعة لعل أطرفها كشمه عن شافص
الحاصل بين الإقرار بوجود الحقيقة والشجار والقول بالنقل لأن المعنى سي
من أحبه قلوبا سلاغة المجاز يسقط .

« وسمى العجب إلا أنهم لا يذكرون شيئا من المنار إلا قلوب »
أبلغ من حقيقة حيث شعري إن كان لفظ أسد في قولنا هو أسد قد نفس
عنت وضع له في اللغة وأريل عنه . وجعل يراد به الشجاع هكذا عملا سادجا .
ومن أين يحب أن يكون قولنا أسد أبلغ من قولنا شجاع » (1)

و نقول بأن المجاز يحصل من معنى اللفظ . بجر . بالضرورة . فنجبر
طرفي . دلالة . اللفظ والمعنى وإعادة صياغتهما على نحو أكثر صرامة وأشد
ملازمة لخصائص الأدب في التعبير عن المعنى فيكون الفارق بين الحقيقة والمجاز
على الشكل الآتي :

الحقيقة : دال ————— مدلول

المجاز : دال ————— مدلول 1 ————— مدلول 2

وتأويل التعوي لهذه العلاقات هو أن العناصر الدالة في اللغة لا تقف
عند حد اللفظ فالمعنى أيضا يمكن أن يتحول إلى دال فتصبح علاقة بين
أشياء التعوي الماثلة والمعنى المراد علاقة مركبة أو علاقة من درجة ثانية وقد علق
بجرجي كل ذلك بمصطلح غاية في الدقة والنباهة هو « الواسطة » وبموجبه
تحدد العلاقة في الاستعمال الخافي من المجاز . بأنها مباشرة يطبع المعنى في
الدهر بمجرد التلفظ . أما في الأدب فتكون هذه العلاقة غير مباشرة ولا بد
لإدراكها من تأويل معنى اللفظ والبحث عن مدلوله . وهذا لا يحصل إلا
من طريق العقل والاستدلال لأن العلاقة بين المعنى الأول والمعنى الثاني علاقة
لقطعة لا يتوصل إليها إلا بالنظر الدقيق . وهذا مظهر من مظاهر البرعة العقلية
انعالية على مؤلفات الجرجاني البلاغية .

(1) دلائل الإعجاز ط . دار المعارف . ص 260 - 281

وعن هذا النمط في التأويل يكون الجرحاني من أبرز من «عُتِرُوا» من
مدرسي علم دلالات اللغة (1) ولهذا السبب اتجهت عنايته إلى دراسة التركيب
للعوي، وطرق أداء المعنى في نطاق منهج متكامل تؤلف نظرية لخصه بين
أحراره، وبهذا يصير دواعيه عن انحناء وتواتر عماره «معاني النحو» في تعريفه
علمه، ودرسه أوجوه البلاغة التي تقوم على تحاور الحقيقة الموضوعية في توضيح
معناه.

ولئن كانت من مزايا الجرحاني على البلاغة إرساؤه «المعاني» و«السياق»
على أسس ثابتة من توفيقه إلى اثره بين المنحنيين بل مرجعها بعد صهره فريدة
في تاريخ البلاغة العربية، وسنرى، إننا دراسة المنهج، كيف أن الصورة
لغوية، عنده، لا تنفصل عن السياق الذي تنزل فيه، وهذا التصور يساهم
فيهم عميق لما يحدث بين عناصر اللغة من تفاعل هنا ينتظمها الكلام.

وإدخال مفهوم الوساطة كسميئز نوعي لادلالة الأدبية معناه، عطاء
المجارات المرتبة الأولى في خلق الأدب وتمثله. فالوساطة هي الصورة التي
تستوعب الصورة وتمكن من صياغة اللغة بكيفية تستجيب لحاجة الإنسان إلى
لتعبير عن حاجيات متطورة لديه. ومن خلال هذا النهج في الأداء، تنكشف
نظرة بكتب، أولاً، والأمة التي يتنمي إليها ثانياً، إلى العالم ودرجة وعيه
لنفسه لأن التعبير باللغة ككائن أشكال التعبير الأخرى هو طريقة لإنسان في
لحسب لكون وصياغته بطريقة تحقق انسجامه معه (إد العلاقة بين الكلمات
يبت لا صورة مصغرة عن علاقة الإنسان بما يحيط به وسعيه انداء لب إلى

ر. غور أمجد، «العلم الموسوعي في علم اللغة».

Dictionnaire encyclopédique des Sciences du Langage

في «سنة» منهم لاحتلت النظريات المعاصرة في اللغويات 399

* Si la théorie des figures comporte encore tant de points obscurs,
c'est que la figure est un fait de sémantique linguistique (ce qu'on n'a
pas toujours compris); et la sémantique elle-même est encore loin
d'avoir résolu (ou même posé) tous les problèmes *

وهذا العلم يساهم على إبراز حركات تفكير الجرحاني

صه إلى أصر تمكنه من السيطرة عليه وإحصاءه . ومن ثمّ كان الأدب من
همّ المصدر التي تقيس بها درجة الوعي الحضاري لأمة من الأمم .

كما أن إدراك مفهوم بواسطة يمنح الطريق أمام الإبداع لهردي .
فيتصرف كل واحد في الثمة بحسب متراته الأدبية ودقة وعيه وحدّة شعوره
بما لا يشعر به غيره . ومن هنا أمكن التفاضل بين الناس وأمكن نقد له
يعتمد في صياغة قوايه الكلية على أعمال حرثيه فردية

يقول نهضي عبد الجبار محدّدا طبيعة الفعل اللغوي وأصره .

« و علم أن ما وقعت عليه النواصة من كلام وغيره فعلاه . قد تأثي به
على جهة الحكاية والاحتذاء . فلا يحتاج إلا إلى العلم بكيفية النواصة فعلاه
ذلك يمكنه الاحتذاء والحكاية . إذا أراد أن يعثر عن المراد ويحكي عبارة
الغير عن مراد . وقد بعله الماعل على وجه يتصرف معه فيستفيد فيه
النواصة فيحتاج إلى أمر زائد على العلم بكيفية النواصة . فالوجه الأول يقف
فيه لتفاضل . والوجه الثاني هو الذي يظهر فيه فصل التفاضل » (1) .

وما كانت المفاضلة تقع بالتصرف في اللغة والجري في استعمالها على
غير المؤلف والمادة استعصى تمثل الأدب على الجمهور الأعظم من الناس
وأصبح لا يقف على دقيق معانيه ومكون درره إلا « صحيح الذوق »
صحيح المعرفة فسابدة للمعاني » (2) .

ونظرية « معنى المعنى » ، بالإضافة إلى كونها قانونا كذا يفسر دلالة
محرر ، تساعد على فهم محتاب مهمّ من المقاييس البلاغية السائدة وتحريرها
على وجه صحيح معقول فهي صوء هذا الثمانون تفهم الإبداع والإيجاز .
فقولهم في البلاغة إنها كثرة المعنى مع قلة اللفظ لا معنى له إن لم نقرأ نولد معني

(1) المعنى ، 192/16

(2) دلائل الإعجاز ، 2 ، حناحي ، ص 292 .

من معنى لأنه لا ميل أن تدخل تعبيراً في المواضع بتكثير معنى المقصود
أو تقسيمه غير أنه يتوصل بدلالة المعنى على المعنى إلى فوائد لو أنه زاد دلالة
عليها باللفظ لاحتاج إلى لفظ كثير (1) .

* * *

أما صرافة السكاكي ، في هذا الموضوع ، فتتمثل في الطريقة التي وصف
بها مختلف المراحل التي يمر بها : أصل معنى الكلام ومرتبته الأولى ، لينتسب
أعلى مرتبة الدلالة ومنازلها المعجزة . وقد وقفنا على هذا السموذج لفريد في
مؤلفاته وفي التراث اللغوي جملة في بيان وجه الإعجاز في الآية : « رتسي بدني
وهن لعظم متسي واشتعل الرأس شيئا » (2) .

ومع أنه توسع في تحليل الكتابة أكثر من تحليل الاستعارة ، والكناية
عنده من أسباب لا المنحاز . فقد رأينا إدراج الحديث عنه هنا لأهمية هذا التحليل
لمهجية . يقول

« والكلام في تلك المعانف مقتر إلى أخذ أصل معنى الكلام ومرتبته
أولى ، ثم لنظر في التفاوت بين ذلك وبين ما عليه نظم القرآن وفي كم درجة
يتنصل أحد طرفين بالآخر . فنقول : لا شبهة أن أصل معنى الكلام ومرتبته
الأولى بدني رتسي قد شحت فإن الشحوخة مشتملة على ضعف البدن وشيب الرأس
المعترض لهما ، ثم تركت هذه المرتبة لتوحي مزيد التفسير إلى تفصيلها في
ضعف بدني وشاب رأسي ثم تركت هذه المرتبة الثانية لاشتمالها على التصريح
بأن ذلك أشع وهي الكناية في وهنت عظام بدني لما استعرف أن الكناية أشع من
التصريح ثم تقصد مرتبة رابعة أشع في التفسير بيت الكناية على استحضار
« وهنت عظام بدني » ثم تقصد خامسة أشع أدخلت أن على المبتدأ وحصل إنني

(1) أصل السكاكي ص ٤٠٠ ، المنار ص 357

(2) صريح 4

وهت عظام بدني . ثم لطلب تقرير أن الواضح هي عظام بدني قصدت مرثية
سادسة وهي سلوك طريق الإجمال والتفصيل فحصل إني وهت العظام من
بدني () ثم لطلب مزيد اختصاص العظام به قصدت مرثية سابعة وهي ترك
توسيط لدن فحصل إني وهت العظام مني ثم لطلب شمول بدني بمضم
فرد فرد قصدت مرثية ثامنة وهي ترك جميع العظام إلى الأفراد بصحة
حصول وهي المجموع فالبعض دون كل فرد فرد . فحصل ما ترى وهو
بدني في الآية () تركت الحقيقة في شاب رأسي إلى أبلغ وهي الاستعارة
فسرّيت أن الاستعارة أبلغ من الحقيقة فحصل اشتعل شيب رأسي ، ثم تركت
في أبلغ وهي اشتعل رأسي شيئا وكونها أبلغ من جهات إحداها بسد الاشتعال
في لرأس لإفاده شمول الاشتعال الرأس () وثانيهما الإجمال والتفصيل
في طريق تمييز والثالثها تكبير شيئا لإفادة المبانة (1) .

ولتوضيح هذا النص لنخصه على هذا الشكل :

- « إني ومن العظم مني »

1 أصل معنى الكلام ومرثيته الأولى

- يا ربني قد شخت - الشيخوخة - ضعف الدن ، شيب الرأس ...



2 مزيد التقرير ← [التفصيل] -

- يا ربني قد ضعف بدني وشاب رأسي



3 كناية ← [الانتقال من المعنى إلى مجوره
أو الانتقال من الدارم إلى المنزوم] -

- يا ربني قد وهت عظام بدني وشاب رأسي



4 مرثية أبلغ في التقرير ← [بماء الكياه على شد] -

يا ربني أنا وهت عظام بدني وشاب رأسي



(1) مداح النجوم ، ص 167 138 .

6 مرتبة أبلغ ← إحسان إن على المتدا

— يا ربّي إني وهنت العظام من بدني وشاب رأسي

7 تقرير أن ألوهة عظام البدن ← سلوك الإجمال والتفصيل

— ربّي إني وهنت العظام من بدني وشاب رأسي

7 مزيد اختصاص العظام به ← ترك قوسط البدن

— يا ربّي إني وهنت العظام مني وشاب رأسي

8 شمول ألوهة العظام مردا فردا ← ترك الجمع إلى الأفراد بصحة حصول وهن المجموع بالعص

— إني وهنت العظام مني ...

اشتعل الرأس شيئا

1 حقيقته

— شاب رأسي

2 مرتبة أبلغ من الحقيقة ← الاستعارة

— اشتعل شاب رأسي

3 مرتبة أبلغ في إعادة الشمول ← استناد الاشتغال إلى الرأس

— شعل رأسي من الشيب

4 مرتبة أبلغ ← الإجمال والتفصيل بالتميز + إنكسر

— اشتعل رأسي شيئا ...

نعتمد هذا التحليل على مبدأ التحولات : (1) . وقد سمّاه والترحات
وصف لأطوار التي يمرّ بها المعنى من وقت تولده في ذهن صاحبه إلى أن
يحصه شكلا فيا ملائما ، والمساقة بين الطرفين خفية دقيقة ليس لنا عليها دلس
ممسوس لأنها عمليات تقع في فكر الكاتب قبل توقفه إلى شكك للوعي
نهائي فلا مجال لدورها إلا التأويل انطلاقا من استعراض شكك لتعبير
ممكئة لفصله بين المستوى اللعوي العادي التحاني من كل قصد إلى نفس
والستوى الإنشائي الحاصر أي بين الإحساس العارض بالنص وإنجازه المعني .

وبصهر من هذا التحليل أن الانتقال من مستوى إلى آخر عملية معقدة
لا تتم إلا بتضافر عناصر النظام اللغوي وتكاتفها . فحين نلاحظ : أولا ،
تفاعلا بين المعنى والبنية النحوية : فلكل درجة من درجاته شكك في التعبير
بلائمه ، بوضافة عناصر جديدة كإدخال « إن » على المقدما في مرتبة الخامسة
أو بطرح عناصر كانت ماثلة في السياق كالاستغناء عن الجذر و مجرور
ووصف إليه في المرتبة السابعة . كما نلاحظ تفاعلا بين المعنى ولنظم دلالي
في لغة وقد برر ذلك في موضوعين . وقع في أولهما تعويض المعنى لكسبي
معانيه لجزئية مما سمح بتعويض « شحت » بـ « ضعف لذي وشب رأسي »
أ ، في لثاني فقد عدل عن التصريح إلى الكناية كما هو وصح في بدرجة
الثالثة . ويتأكد من هذا التحليل أن الصياغة النهائية ليست رهينة تغيير نهج
بدلانة فكان لابد من تعهد الكناية وتحكيكها ليصل النص إلى أعلى درجات
نص " لذلك خصص السكناكي خمس درجات لإبرار مختلف الإمكانيات التي
حوت كناية من مجرد طريقة في التعبير إلى خصوصية عمية في نص

ونلاحظ أحرا أن الوجوه البلاعية ذاتها مراتب يخدم بعضها بعضا ويبدو
دنت حسا في توظيف دلالة البعض على الكل . وهي وجه تلاعي ، لإحصاء
نكبة شكلها النهائي .

ورغم أن السكاكي لم يصع هذه الطريقة في التحليل صياغة يمكن معها حديث عن منهج متكامل فإنها تبقى على جانب كبير من الأهمية باعتبارها نموذجاً يمكن أن يحتذى ومحاولة تطبيقه حريصة لتفسير الإعجاز تفسير يستند إلى معضيات لغوية مبسطة .

علاقة المحجاز بالحقيقة :

ب" ساطر في تراث العرب البلاغي يلاحظ أن اعتمادهم مقدرة بين حقيقة والمجاز لم يكن مجرد اصطلاح منهجي اضطرروا إليه بالتمييز بين مستوى الإنشائي وغيره من مستويات اللغة فلا تضيعة صلة متينة بنصورتهم لعدم مؤسسة اللغة نشأة وتطوراً ووظيفة وهو تصور شاركت عدة علوم في دورته وتربيتها .

وتنحصر علاقة المجاز بالحقيقة في ثلاثة مبادئ مترابطة ، يشذ مصدر من مصادر بحثنا عن القول بها والتعبير عنها كلها أو بعضها . وهذه مبادئ هي : أ) لا بد لكل مجاز من حقيقة ، ب) التعبير الحقيقي متقدم في نشأة على التعبير المجازي ، ج) الحقيقة أولى من المجاز في الاستعمال ، د) يتضمن ما لا تتضمنه .

أما مبدأ الأول فقد وقع التعبير عنه في ثلاثة مواطن في حديث محاز بدرحة لأول عندما اغتبروا كل معنى مجازي نقلاً للفظ أو معنى نهض من أصل وضعه في اللغة إلى معنى آخر لم يوضع له . وتفق كل حدود في هذا الجانب ، ولتوثيق الصلة بينهما التحق بعض البلاغيين ، د) وح اصطلاحاً كثير الاستعمال في العلوم الفقهية واللغوية هو الأصل والفرع

يقول جحاخي متحدثاً عن الاستعارة :

« ولا بدّ من أن تكون أوضح من الحقيقة لأجل التشبيه المعارض فيها »
 لأنّ حقيقة لو قامت مقامها كانت أولى لأنها الأصل والاستعارة مخرج « (١) »
 وموطن شاي . وهو أوسع من الأول ، يتمثل في حديثهم عن وجوده
 سلاعه ولعدد هذه الوجوه تعددت النصوص المشيرة إلى هذا المعنى مذكر
 منها حتى سبيل المثال تعريف الرماني للاستعارة وتحديد مستلزماتها

« وكلّ استعارة فلا بدّ فيها من أشياء : مستعار ومستعار له ومستعار
 منه فاللفظ المستعار قد نقل عن أصل إلى فرع للبيان » (2)

وحدث الموطن هي الجملة الواردة في عضون تحليلاتهم لأدبية وكثير
 منها يشرح مخرج الإثبات والقطع فتدلّ على العرض مصفّة أوضح من
 الموضوعين السابقين :

« ولا بدّ لكلّ استعارة ومعار من حقيقة وهي أصل لدلالة على
 المعنى في اللغة » (3) .

أما المبدأ الثاني فقد عرّوا عنه عدد حديثهم عن فشاء للغة يتسوى
 في ذلك القائل بالتوقيف والقائل بالأصلاح والمواضعة . فالفرقان متفقان
 على أنّ « نسب الذي من أحله كانت اللغة هو فهم الناس بعضهم عن بعض
 ولذلك تحجروا إلى تعليق الألفاظ بالمعاني حتى إذا قصدتمكم إلى معنى
 استعس ما قررته المواضعة على جهة الحكاية والاحتذاء » لا « لتصرف
 ولا تسم » (4) وهذا يعني أنّ الغايات الفنية لم تكن من مقاصد مستعملين
 بصر إلى أن حاجاتهم كانت مقتصرة على الضروري مما يقيم أودهم

(١) من الفصاحة ، ص 110

(2) النكت في إعجاز القرآن ، ص 86

(3) المنكري ، انصاعير ، ص 276

(4) انصاعير ، المعنى في أبواب التوحيد والعدل ، 192/16 .

كما عروا عن هذا المعنى في مواطن متفرقة من تأليفهم أثناء حديثهم عن كيب أو المعاني . قالقارابي يبدأ باب «حروف السؤا» يشبه قعدة بصرية تحدد محالات استعمالها واستعمال الألفاظ بصمة عنه

« وهذه / حروف السؤا / وجلّ الألفاظ قد تستعمل دالة على معانيها في سلاله عليها وصحت مدأون ما وصحت وتستعمل على معاني أخرى في أسياح ومجهر واستعاره (. .) واستعمالها مجازا واستعارة هو بعد أن تستعمل دالة على معانيها التي لها وضعت من أول ما وضعت » (1) .

أما أولوية الحقيقة في الاستعمال إن لم يتضمن المجاز معنى رتب فيكده تعبير عنه يستحصر في دراساتهم التطبيقية لوجوه المجاز ويأب دورها المعنوي ويستفصل الحديث عنه عند حديثنا عن بواعث المجاز في اللغة .



إنّ هذا الفهم لطبيعة العلاقة بين الحقيقة والمجاز فهم « مثلي » فرصته نعمة وقد بلغت مرحلة متطورة حدّا من تاريخها أصبح معها تمييز حقيقة عن المجاز أمرا صعبا إن لم نقل مستحيلا ناهيك أن مدونتهم التي اعتمدوها تقنين للغة كانت تشال ، في قسطها الأكبر ، أرقى درجاتها تطورا ، لذلك يشعر قارىء التراث العربي بأنّ ضبط حدود المجاز كان « أزمة » (2) حادة أربكت سلاحيين وأفضت بهم إلى غير قليل من الاضطراب والإحالة فبالإضافة إلى المناقشات الحادة التي دارت بين الفرق الدينية حول مجاز القرآن (3) نجد في التراث العربي صدى لحلافت كبرى تناولت المشكل

(1) كذب الحروف ، ص 164

(2) أنشأ هذه العبارة عن نقلي عبد الله ، فلفحة المجاز بين البلاغة العربية والفكر الحديث . من مكة انتهى مصر ، القاهرة ، 1976 ، ص 10

(3) راجع هذه المواقف في بعض الزهر السبوطي وهو من أهم المصادر استقصاء شحيف مصر والآراء التي قيلت فيه .

من رويته بتوبة وأعادت طرح كل الإشكالات التي تثيرها وفي صيغتها
 بمكانة قبول النحول بالترتيب الزمني في النشأة ، واستعمل كل حرف من اللغة
 في لغة حسب النظم بدعم موقفه . وقد أثبتت هذه المناقشات عن آراء متضادة
 وصرحت في الاستدلال عريضة أحيانا فحجب للدعاء أصحابها وكسب معتقد
 أنها تشبهات وتحولات لا تعين على حل المشكل . فحاولوا بحبر بعض
 لألفاظ من الحقيقة والمجاز معا . وصرحوا مثلا لذلك بالأعلام المتجددة
 بالنسبة إلى مسمياتها فحين لا نستعملها فيما وضعت له أولا وهي ، ما اخترع
 من غير سبق ، صمغ كالأسماء المرتجلة (عظماء) أو نقلت عما وضعت
 له في الأصل ولكن النقل لم يقم على علاقة إذن لا تدرج في المجاز . ومثل
 المذكور يبرز طابع الجدل والتشويق لأن الاحتجاج بأسماء الأعلام غير مقنع
 فهي ليست لمظهر الغالب على اللغة . وذهب آخرون إلى أن من لغة ما هو
 واسطة بين الصرفين كالألفاظ المستعملة في المشاكلة من نوع « أجزاء سيئة
 سيئة مثله » وبرهوا على ذلك براهين متنوعة ومبهم من قال بمجاز لمجاز .

ولعل أدق المواقف تعبيرا عن المصايقات التي خلفها نقول بأسبغية
 حقيقة هو موقف المنسوب إلى أبي اسحاق الإسفراييني (ت. 418 هـ) . نلبي
 أنكر وجود المجاز وقد أسس إنكاره على موقف لغوي مؤداه أن العرب
 نعتت بالحقيقة والمجاز على وجه واحد وليس من دليل على أن في اللغة
 متضاد ومثاقرا

ونقول أن لكل مجاز أصلا حقيقيا متقدما عليه كانه له أثر عميقة
 في نظرة الأدبية بحكم أنه يعمق الهوية بين الصياغة والمعنى . ولأصل
 حقيقي يمثل من هذه الراوية ، العلامة الثابتة والمعنى الثابت الذي نرجع إليه
 كل أشكال العربية في التعبير وإذذاك لا يريد التعبير المجازي على كونه
 ممكنة من حملة إمكانيات يمكن إحراج المعنى على مقتضاها ويحصر
 دورها في تحمسه أو إصافة بعض الخصوصيات له كالتأكيد والتبالغة وما إليهما

مدون أن تؤثر في جوهره وتفاعل معه تفاعلا يعبر بمقتضاه في علاقته بتأثير
و تأثيره صاعده . وهذا الافتراض يؤكد « الطبيعة الشكلية للصور مخارية .
و فصلها ، أو صبح عن معنى النص وعن التفاعلات الداخلية للسبب نفسه .
و حينئذ نجد بكل ما يتدرج تحته من أنماط فرعية - حيث من حيث
صياغة أو انظم مادد حاتم أو أفكار بعينها - تظل قائمة بدتها ومنتصدة
ومستغنة عما يحسن أن تصاغ فيه ومن ثم يصبح المجاز متصلا بجانب اللغة
وقرب حبة والزخرف والوعاء والكسوة والآنية . التي تقدم معي تقديم
مؤثر دون أن يكون يسها وبين ما تحويه أو توصله أدنى علاقة دعة » (1) .

وه يستطع رحل كالحر جاني التحلص من هذا التصور الذي ترسب في
قرر نظرية الأدبية نتيجة قرون طويلة من الممارسات التطبيقية وقررت
النظرية بل عن يديه أخذ هذا التصور صياعته النهائية في طرحه مقولة « لإثبات »
كمحدد لوظيفة الصورة ومؤدى هذه المقولة أن لا تأثير للصورة في معنى
دنه وإنما في طريقة إثباته (2)

وكن أسم يكن وراء نشئهم بهذه المادىء سبب معقول ؟
يسكن للإجابة عن هذا السؤال أن يصوغ القصيدة صياغة عكسية ونسأل
عن نتائج التي يؤدي إليها نقول نشأة اللغة دفعة واحدة متكاملة .

و أول مقتضيات هذا الموقف الإقرار بأن اللغة كائن لا تدرجي أو
تخرج عن تدرج وبالتالي لا يتنى دراسته من وجهة رمائية وهذه الصورة
تؤدي إلى نهاء فكرة التطور . وهو صلب المشكل في رأينا . فود مستم
أ- مؤسسه نبتة من أعين المؤسسات إرتباطا بالانسان وحرره من آدميت
بها يعبر عن حاجته وعليها تنعكس نبضات وجوده وتعلماته وأطواره .

(1) مدار تصور - الصورة الفنية - ص 168 .

(2) تجدد الدرجي عن : الإثبات في كثير من النواحي . صر على سبيل المثال حسن
« في مدار العقل » و « مدار القوي » والفرق بينهما « أسرار البلاغة » ط ح ح ح
239 2 وما بعدها

رم . بالنسبة . أن تقبل أنها بدورها متطورة باعتبار أن أوصافها هي
 أوصاف المستعمل لها . ولذلك استقرت في التفكير العربي قناعة معادها أن درجة
 لسان في الأهمية تتناسب طرذا وسيطرته على اللغة وقدرته على نصريتها
 بحيث أنه كلما تطورت وسيلة تعبيره اقترب أكثر من آتبعته وهذا صريح
 قويم « فمن كان في المنطق أعلى رتبة كان بالإتسابة أولى » (١) فاللغة
 من معنى الوصفي إلى المعنى المجازي أي من اللغة وسيلة للتخاطب ولتفاهم
 إلى اللغة ساعة توظف للتعبير عن أرقى متطلبات الروح وأرق خلجات الوجود
 تعبير عن تطور الحس البشري والحضارة التي يصنعها .

وبالإضافة إلى هذا الموقف الفكري العام نجد في مؤلفاتهم ما يدل
 على أن أسبقية الحقيقة على المجاز قائمة على تصور لغوي بعث ينم عن
 فهم حريف لحركية اللغة والعوامل المتحركة في توسعها . ويبدو أنهم كانوا
 يبحثون عن الموقف الذي يجيبهم الفهم الأعمى المسطح لتطور اللغة ، فالقول
 بأكمل اللغة لحظة وجودها معناه أننا في كل مرة نصوغ اللغة صبغة غير
 معهودة نستأنف مواضع جديدة . فيبقى تطور اللغة رهين الاعتبار التكملي
 إذ أننا نصيف إلى الرصيد الموجود وحدات جديدة . أما القول بأسبقية
 الحقيقة على المجاز فيشرع إمكانية التولد الدائري انطلاقا من نظام علامي محدد .
 فشر كان الرصيد ثانيا قارا وان التأليف لا نهائي إذ يمكن إنحار الفعل اللغوي
 في أشكال لا حصر لها . وقد طرح القاضي عبد الجبار كل هذه لقضايا بكثير
 من الوصوح فالمجاز في رأيه مواضع خاصة لا تعاقب مواضع عامة .

« فأما حس النغم . وعذوبة القول فمما يريد الكلام حس . على
 سمع . لا أنه يوجد فضلا في الفصحى ، لأن الذي تقيس به المزينة في ذلك
 يحصل فيه وفي حكايته على سواء . ويحصل في المكتوب منه على حسب
 حصوله في المسموع . ولا فضل فيما ذكرناه بين الحقيقة والمجاز بل هما

كان محددًا لدخول في الفصاحة لأنه كالاستدلال في اللغة . والغالب أنه يريد عن
أبو صبرة أساقفة . ولأنه مواضعة تختص . فلا تقارن المواضعة العامة (١) .

كما أن الكلام الذي في غاية الفصاحة لا يخرج عن حملة للغة ولا تستمد
فصاحته خصائصها من تغيير ما تواضع الناس عليه . وفي هذا إقرار بأن
لغة تظهور تطوراً نوعياً وتتولد تولداً ذاتياً بحكم وجود مستويين في الدلالة :
دلالة اللفظ ودلالة التأليف . يقول :

« إن ما يبلغ من الكلام في الفصاحة النهاية لا يخرج عن أن يكون
من حملة لغة . كما أن ما دونه لا يخرج عن أن يكون من جملة ، وبما
نتبين زيادة الفصاحة لا تغير المواضعة لكن بالوجود الذي ذكره ، وهذا
كما نعلم من حال الثياب المسوجة أنها تتفاضل بمواقع الغز ، وكيفية
تأليفه وإن كان عرل الجميع لا يتبر كما نعلم من حال الديباج المنقوش
وعبر ذلك (٢) .

* * *

بقي أن نشير إلى أن التثبيث بترتيب مراحل اللغة بالكيفية التي عرضها
م يمسح صمد اللغة والسلاعة من التعبير عن الصعوبات التي تتيح عن هذا
موقف كما لم يسمعهم من التعطّل إلى أن العلاقة بين الحقيقة والمجاز علاقة
معقدة لا تسير دائماً في اتجاه واحد فكما أن المجاز يتولد عن حقيقة تتولد
حقيقة عن المجاز أو « أن المجاز إذا كثّر لحن الحقيقة » حسب عبارة من
جني في باب من أبواب « الحصائص » (٣) .

فمن أنواع المجاز ما لا يمكن اعتباره تطوراً عن الحقيقة كثرة
استعماله وحرياته على ألسنة الناس حتى وكأنه « شيء يوحد في الصنع » (٤)

(١) أممي ، 200/16 .

(٢) انصر السابق ، 201/16 .

(٣) انصر : 447/2 وما بعدها .

مركب في حقيقة أولا (1) كتشبيه الجاحل بالثور والخمار والخس ، شمس
وتقصر . : تشجاع بالأسد وما شابهه . وهذه التشبيهات : من انبوي به مية
و لأمور مشتركة التي لا عضل فيها للعربي على العجمي . ولا احصاها
حبل دون حبل (2) فهذه الطرائق في التشبيه تكاد تصحح . لا تشبهه ،
صربا من المواصفة تستعمل كما تستعمل بقية وحدات اللغة وليس فيها ما يدل
على أن معرّفه قد يدل بهذا لتصرف اللغة على غير ما وصفت له و خبر
نهجا في الأداء على غير مثال .

وقريب من هذا صف من البحار مخترع في الأصل لا أن نوصف
الشعراء عبه وإعراقهم في استعماله يأتي على واعيته الشبية ويستفهم في مشترك
« مبتدل » فيصبح ما يؤديه لا يريد على ما يؤديه الحقيقة « إلا أن يولد أحد
منهم فيه زيادة أو يحصه بقرينة فيستوجب بها الانفراد من بينهم » (3) .
وعن هذا النحو تتفاعل مستويات اللغة تفاعلا مستمرا تختلط بموجبه
حدود الحقيقة بالمجاز ويولد بعضها البعض الآخر .

دوافع التعبير بالمجاز

رأى علماء البلاغة تولد المجاز سببين متعاونين في الأهمية . سبب
لم يفسد ذكره أي مصدر . وسبب ورد في بعضها دون بعضها الآخر ولذلك
يمكن اعتباره ثانويا بالقياس إلى الأول .

ترتبط نشأة المجاز ، حسب هذا السبب الثاني ، بخصوصيات موضوعية في
بعض تؤدي حتما إلى تولده فكان اللغة تحصل في ذاتها عناصر اكتساب وتطورها
بدني وتفسف على مستعملها فتجبره على تصريفها على أكثر من وجه

(1) النعمة ، 100/2 .

(2) أسرار البلاغة ، ج 1 صفح 128 .

(3) ابن رشي ، المصدر المذكور ، 100/2 .

فلا تـ" المخصوص التي ارتسمت فيها ملامح هذا التفسير لا تحو من
لاصغر بـ" وأناقض . وليأن ذلك نسوق الصين الهامين الذين ذهب
مذهب في التعليل أولهما لابن وهب الكاتب وثانيهما لابن رشيق

نحو بـ" وهب . ء وأما الاستعارة فإذما احتيج إليها في كلام عرب
لـ" ألفاظهم أكثر من معانيهم . وليس هذا في لسان غير لسانيهم . وهم
يعبرون عن معنى الواحد بعبارات كثيرة ربما كانت مفردة له . وربما كانت
مشتركة بينه وبين غيره . وربما استعملوا بعض ذلك في موضع بعض عن
التوسع و مجر . فيقولون إذا سأل الرجل الرجل شيئا فبحل به عليه « بقدر
فلان » . وهو لم يسأله ليعطى ، وإنما سأله ليعطيه . لكن البحل بما صهر
منه عند مسأله إياه جاز في توسعهم ومجاز قولهم أن ينسب ذلك إليه (1) .

ويقول ابن رشيق . « والاستعارة إنما هي من اتساعهم في الكلام
افتقارا ودلة ، ليس ضرورة لأن ألفاظ العرب أكثر من معانيهم ، وليس
ذلك في لغة أحد من الأمم غيرهم وإنما استعاروا مجازا واتساعا ، ألا ترى
أن لشيء عندهم أسماء كثيرة وهم يستعيرون له مع ذلك ؟

على أن نجد أيضا اللفظة الواحدة يعبر بها عن معان كثيرة . نحو
« العين » (...) وليس هذا من ضيق اللفظ عليهم ، ولكنه من الرعية في
الاحتصار ونشأة بينهم بعضهم عن بعض . ألا ترى أن كل واحد من هذه
لتي ذكر له اسم غير العين أو أسماء كثيرة ؟ (2) .

بـ" صححت مطابقة نص ابن وهب المنشور للنص المخصوص تؤكدت
عربة منحه في التفسير أو على الأقل صعوبة تمثيلها لأن أوّ ما يشار للدهن
عند قراءة النص أن السبب المذكور بعضي إن عكس الإثبات المبدوء به .

(1) يروى في وجود البيان . ص 142

(2) العمدة . 1/274

ولا يرى كيف أن كثرة الألفاظ بالنسبة إلى المعاني تحوّل إلى استعمال مدعاة
 عدم الاستعارة بوجه خاص . فما دامت اللغة توغر من جهة الوضوح والتحقيق
 إمكانية التعبير عن المعنى الواحد بألفاظ كثيرة سقطت عن استعمال مؤونه
 لتوسل بالمجاز . ولا يستقيم النص إلا بالإغراق في التأويل واعتبار المحرر
 طريقة تكثير المعاني بالتصرف في الموجود اللغوي بدون الالتفات إلى وضع
 النص الجديد . وإنما باستعمال بعض تلك الألفاظ ، في موضع بعض على
 التوسع والمجاز ، فيكون وجود المجاز رهين العلاقات التي تحفظ بين
 الكلمات وحلالها في غير محالها على أصل الوضع .

لا أن نص ابن رشيق يحملنا على الاحتراز من هذا التأويل ، فهو ،
 وإن شابه نص ابن وهب في كثير من عباراته يختلف عنه اختلاف لنقيض
 عن نقيض . فكثرة ألفاظ العرب بالنسبة إلى معانيهم لم ترد في نصه لتفسير
 ضرورة المجاز وإنما للتأكيد على عكس ذلك وللإقناع بأن الاستعارة أمدرة
 من أمدرة قدرة المستعمل . ويتضح هذا في الجملة الحالية الدالة على انقباض
 التي تضمنها الاستفهام « ألا ترى أن الشيء الواحد . . . » .

وبهذه الكيفية يتبين لنا أن كثرة الألفاظ استعملت في النصين لإثبات
 الشيء ونقيضه .

ومهما يكن رأي الباحث في استقامة النصين . ونحن إلى سنحوب
 ابن رشيق أميل . فلا بد من التأكيد على المخرج الذي يؤدي إليه هذا سجع
 من تفسير . ويتجلى المخرج في النصف الثاني من نص ابن رشيق عندما ذكر
 مسألة الاشتراك وشعر أنها ناقض فرضيته الأولى حاول أن يستدرك الأمر
 ولكن التفسير جاء عرييا لا يتم عن تصور واضح للقضايا اللغوية مع أنه
 ناقص بما سلف فاقترن في نفس النص الاتساع والاقتدار بالبراعة في الاختصار
 بصرف عن كمال ذلك هذا التصير الأخلاقي الاجتماعي الذي لا يثنى في
 قدرته على تصوير الظواهر اللغوية ولابن رشيق العذر في ما ذهب إليه

فهو و يقع تحت سلطة تصور عملت أحياناً من اللغويين على ترسيخه في العصبية
عربية وهو تصور فيه غير قليل من التعصب للغة العربية والحرص على بقاء
حكمة سائها و تناسق مواردها ومصادر ها بكل الطرق إذ هي لغة تقرأ

وإن جانب المخرج ملاحظ أن هذا المتزع الكمي في التعليل كره عملاً
من هو من نبي رسخت الطبيعة الشكلية للمجاز . إذ نعلم من كلام من رشيق
أن استعماله نوع من المدخ لا قدعو حاجات التعبير إليه . هو مجرد إمكانية
في التعبير عن المعنى وليس خلقاً لذلك المعنى مؤمناً على تداول الصبغة و .
تؤديه و تصوره هما في بؤفة الرؤية النفسية التي تحملها الصورة . إنهم بهذا التعبير
يجعلون محور شهادة للغة لا عليها . فعباب عنهم المعنى العميق للعبارة التي يتحدثون
عنها أشعر و أكثر . كما عاب عنهم أن المجاز مظهر من مظاهر نطق الإنسان
و تكسير طوق اللغة لاستكشاف ما يعتل في أعوار نفسه وفي محافل العلم
الذي يحتويه ، وهو نوع من الصراع بين « الإبداع والإبداع » . بين ما يستطيع
بحكمة تكوينه إدراكه وبين ما تسمح به آلة اللغة في التعبير . فعلاقة الإنسان
بالغة ليست علاقة انسجام وتناغم واستمرار . كما قد يبدو من تعجيلات
اللغويين و لنقاد ، وإنما هي علاقة متوترة محكومة بمعارقة أساسية قوامها قدرة
الإنسان على المحدودة على الشعور والصورة وعجز الجهار العلامى من وضع
عبه عن محصورة تلك المشاعر . وعلى هذه المعارضة في رأينا يقوم الفن و بها
كتب للأدب الاستمرار .

أم السبب الثاني فهو حدوده بصفة غير مباشرة عند حديثهم عن
وظائف مجاز . وهم يطلتون في تحديد تلك الوظائف من مبدأ أحصوا عبه
وهو ضرورة أن يؤدي المجاز معنى لا تؤديه الحقيقة وإلا كانت هذه أولى منه
دلاستعماله ولولا أن الاستعارة المصيبة تتضمن ما لا تتضمنه الحقيقة . من
زيادة وثمة لكائنات الحقيقة أولى منها استعمالاً (1) .

(1) شكري الصانع . ص 274

وقد سمع هذا المبدأ أقصى درجات تحفته عندما رفضوا أن تكون صاهرة لأسبوعية معيضة في بعض المواطن دون بعض وهذا يعني أنهم لا يكتفون بتقرير معناه وإنما يطرادها يقول الجرجاني في باب التقديم والتأخير :

«واعلم أن من الخطأ أن يقسم الأمر في تقديم الشيء وتأخيره فسمي محسن معيضا في بعض الكلام وغير مفيد في بعض . وأن يعس تارة - لحاية وأخرى بأنه توسعة على الشاعر والكاتب حتى تطرد لهب قوفيه ولدت سجعته ذلك لأن من البعيد أن يكون في حملة النظم ما يدل تارة ولا يبدل أخرى » (1) .

وم يشلوا عن هذه القاعدة إلا في مواطن قليلة أشهرها ما أضيق عليه «الاستعارة غير المفيدة» التي تكون من جهة اللفظ لا المعنى كاستعارة شفر للإنسان وهو للحيوان . وإن كان عبد القاهر الجرجاني قد وجد لهذا لصنف معنى صبيغة بقاعدة (2) .

ولصرف المعتمد في تحديد وطبيعة المجاز هو المستقبل أو قارئ النص لأن غاية مجاز القصوى والاستتباع غاية الأدب هي التأثير في السامع تأثير تنحقق معه مقاصد صاحب النص والعايات التي رسبها لخطابه . وفصل المجاز أنه يعمل في نفس السامع ما لا تعمل الحقيقة » (3)

وللوع هذا الهدف لابد أن يكون المحار في إحدى المرتب الوضائعية الآتية :

- المرتبة الأولى شكلية يقتصر فيها دوره على تخصيص معرض الشيء برر فيه معنى ، وهو ما بمثابة الوعاء والكسوة يساعد على تقبل معنى ولا يؤثر فيه وحال مستهلك النص هنا حال من يشرب في آمنة من دهب فهي

(1) دلائل الإعجاز ، ص 86 .
(2) انظر : أسرار البلاغة ، ط 2 ، حجاجي ، 123/1 - 133 .
(3) العسكري ، التصانيع ، ص 275 .

تفتح شاهيته وتدلّ على الترفّ إلا أنّ المشروب لا يتغير ، ولذلك لابدّ من
تحويل صناعة وإنتاجها لأنّها للمعاني ، كما تعرض للجارية الحساء التي تردّد
حسباً في بعض المعارض دون بعض (1) .

أما المرتبة الثانية فهي أقلّ شكلية من الأولى لأنّ المخار فيها يقوم دور
غادح الذي يحرك كوامن اللغة ، وبه تتحقّق معادلة الإبحار ، عبره طريقة
في الأداء قادرة على أن تحرك طاقة الإيحاء فيحصل التناوب المحمودة بين أسلوب
ومسولات فتخرج ، من انصدقة الواحدة عدة من التمر ونجدي من بعض
نوعه أو عا من التمر (2) وبصبح الكلام آنذاك في غاية البلاغة لأنّه ينتج
بب تفسير وتأويل وتداعى المعاني في الذهني وقد عبر ابن رشيق عن كلّ
هذا بعبارة صرمة في الدقة غدت بمثابة القانون الذي يلحصر رأي العرب في
كلّ مظهر التي تسرّ المعنى ولا تكشفه يقول :

« وإنما كان هذا (حذف بعض الكلام لدلالة الباقي على إلهاب) معدود
من أنواع البلاغة لأنّ نفس السمع تنسج في الظن والحساب ، وكلّ معلوم
فهو هين لكونه محسوراً » (3) .

-- وتندقّ المرتبة الثالثة بالمعنى نفسه والخصوصيات التي يضيفها لتعبير
بالمجاز إلى معنى الأصلي . وقد صبغت ذلك في داييس هما شرح المعنى ومفضل لإدلة
عه ، وتأكيداه والمبالغة فيه وعلى هذا دارت كلّ تحاليلهم للشواهد التي
أوردوها من القرآن والشعر .

وقد لخص العسكري كلّ هذه المعاني في مقبرة وردت في بعض
« الاستعارة والمجاز » يقول : « قال أبو هلال : الاستعارة نقل لصفة عن
موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غير لغرض . وذلك العرص إما أن يكون

(1) ابن طباطبا المدوني ، عيار الشعر ، ص 8

(2) الجرجاني ، أمرار البلاغة ، ص 137/1 ، خصصني ،

(3) المعنى ، 251/1

شرح معنى وفصل الإبانة عنه ، أو تأكيدده والمبالغة فيه ، وهذه لأوصاف
موجودة في الاستعارة المصية ولولا أن الاستعارة المصية تنحصر ما لا تنحصر
حقيقته من زيادة فائدة لكأن الحقيقة أولى منها استعمالاً (1)

وشر كد شرط الفائدة في المجاز موقفا لغويا عاماً لم ينفرد العرب بالبدوع
عنه فإنه تجد عندهم طابعاً خاصاً وشكلاً بارزاً جاداً يعتقد أن سقر - صعد
فيه فهو كتاب مقدس معجز مته عن العو ، القول - لذلك كد من لا كيد
أب تعبر كل لغة فيه وكل وجه من وجوه المجاز عن معنى تصبح بمقتضاه
متشابهة مع السبح العام مشاركة في بناءه فتتبع فكرة العث ومعدية المشافهة
لحكمة الرسالة وإعجازها



يتضح مما سبق أن مسألة الحقيقة والمجاز ليست مجرد مبحث فرعي
ضمن قائمة المباحث الطويلة التي اعتنى بها اللغويون وإنما هي نافذة من النوافذ
التي نستشرف من خلالها تطور التفكير اللغوي ومدخل من مدخل نظرية
لغزب في الأدب .

نحن ندب للطور الثالث بأصو - هذا البحث وعروعه وتعميق قصيده
إذ لم تعد مشاركة الطورين السابقين الإشارات الحاططة والملاحظات السريعة .
وقد أفضت العناية بتحديد الحقيقة والمجاز والبلاغيين إلى ميدان أوسع
هو علم الدلالات وترتيب مستويات اللغة اعتماداً على اختلافها في طريقة أداء
معنى كما درسوا أوجه ترابطها وتفاعلها . وكان الإطار العام الذي نزل فيه
هذه المسألة إطاراً إنشائياً عاماً يروم الوقوف على خصائص الأدب وتعبيره عن
غيره من أنماط التعبير باللغة .

(1) الصاعين ، ص 274 .

– الفصاحة والبلاغة :

روح « فصاحة / البلاغة » من أكثر المصطلحات قوترا في لغة الكلام وتحديد مرتبة ، وهو يمثل ، بالإضافة إلى روح الحقيقة والمحرر ، حصنة مفاهيم العامة التي تستقطب جلّ المقاييس المستعمل في وصف صهره لأدب وتصيف صرقها في التعبير

ولئن مكنت دراسة الحقيقة والمجاز من معرفة إحدى الدعائم منهجية التي ميزت مفوضات العرب ، الأدب عن الانجازات اللغوية الأخرى فمير هذا لا يحتصر . فدراسة مبدئي المصطلحين تسمح بتحديد مبادئ الدراسة لأسبوعية وتكشف عن سبب بلاغة النص وجودته في رأيهم . ذلك أن البحث عن طبيعة العلاقة بين الفصاحة والبلاغة يقتضي ، بالضرورة ، إلى استعراض موقعهم من ثنائية العهد والمعنى إحدى مشكلات نقد الكرى وجانب مهم من نظريتهم في النص الأدبي .

وبعد تحسنا ، عن قصد ، الانطلاق رأسا من مسألة اللفظ والمعنى لأن غايته ليست جمع المقاييس المتعلقة بجمال اللفظ واستقامة المعنى وإنما هي محاولة لإبرار الثمنايات المنهجية التي زج بهم فيها الفصل النظري بين شكل والمضمون واضطرابهم ضد التطبيق ، إلى الخلط بين مستويات ضنوا أنه بالإمكان التمييز بينها بوضوح . وفي اعتقادنا أن روح الفصاحة / البلاغة أكثر ملائمة لهذا القصد لصبغة العامة ، أولا ، ولاطراد استعماله ثانيا ، ولأن في ذات المصطلح تحديدا مدى أسنوبي كامل ثالثا ، لذلك فإن كبر نعر نضر على هذه المفاهيم يمكن أن يشتر تغير في ذات التصكير الداعي ونعر في تقييم حمالة النص .

ومباشرة لمصطلحين على شكل روح له مبررات موضوعية وعلاقة واضحة بلاغة تعني أننا تقتصر على منهج البلاغيين ولا نروم التاريخ مفيس

فصاحبه عنه (1) فكثير من معانيس اللغويين في تحذيلها مثلاً لا نهج
سرس لأعر ص . فهؤلاء لم يكن يحركهم أي دافع في فأنت مقديسهم
في نعل . سر مركزه على ذات النقطة وإنما على اعتبارات خارجيه بمعنى
أن لفصاحبه مدغم هي البحث عن شهاده للكلمه من خارجها لأنه من نشأه
في لغة العرب . وكان المحير (2) . فردا أو جماعة يقوم دور هذه في كتاب
شهادة أو تقصها . ولم يكن انقياس الزماني أقل أهمية من محبر . فقد
عقروا صدما لصداء اللغة وقيامها على الخلاص .

وتبين نهج البلاغيين عن اللغويين أشار إليه البلاغيون أنفسهم فثبت
أراد جرحي تقصي الأسباب التي مكنت ليلفظ في عقول الناس ذكر بعضهم
في تقديم ما جاء في كتاب التصحيح ؛ لعلب حتى طسوا أن غرضه هو
غرض عمماء البلاغة سيما يرى الجرحاني أن ما أراده لعلب من فصاحة
الكلمة (1) : أنها في اللغة أثبت - 2 - وفي الاستعمان أكثر ، - 3 - وأنها
على قوانين اللغة التي وضعوها أجرى (3) .

وهذا فلتطرق في الكتاب يلاحظ أن صاحبه بناه على ثلاثة محاور هي
خلاصة موقف اللغويين في مسألة انحلاف في اللغة ، فأنث المجتمع عليه بلدي
لا مختلف فيه في بناء ولا حركة وهو الأكثر والأعم . ثم ما فيه لغتان وأكثر
ولا أن إحدى اللغات أفصح . هذا فيه لغتان أو أكثر وهي متساوية وبأي لغة
تكنتم المتكلم ففصح صحيح (4) .

(1) ندر من محاولات أبحاث : محمد رشاد الخراوي ، الفصاحة فصاحت أو ندعوة في
ضرورة مراجعة أصول الفصاحة ، جينات الجامعة التونسية ، 1978، 16 ص 44 - 63
وندر كذلك مع J (G. E. Von Grunebaum) بدائرة الدراسات الإسلامية ، طبعة
جديدة ، 483/2 - 846

(2) Informateur

(3) دلائل الإعجاز ، ص 352 - 353

(4) سبب على هذا يستخلص منه ورد عنه أي فارس في كتابه الصاحبي في لغة الله وسن
نهرب في كلامه . ص 72 .

١٠ معاً في تعمق الهوية بين المنهجين يهمل عند الظاهر الآخر جرياً من معرفة
الإضافة وخصائصها وارتباطها وما لا يعدو علمك هذه النقط وحرسها لا
تستغنى عن لم تعلمه بلاعة ولا يدعنان عن بيان (١).

ثم مع الثاني فبمثلي في ترابط المصطلحين في السرى بلاعي
وتماثلهما في درجه بصعب معها تساوي أحدهما بهول عن الآخر لأن
الكلام راعى كل الخواصر والتقسيمات والتفريعات هو حصيلة تدعى مستويي
معنى وصياغة ومن مظاهر الترابط أن كل توسيع في مجال أحدهما لابد
أن يكون عن حساب الآخر وكما سبق أن قلنا فإن دراسة مختلف التحولات
التي صرّت على هذه العلاقة منذ نرصد ما حدث في البلاغة من تطور.

* * *

ثم نلمس في المساهمات السابقة حرصاً على التمييز بوضوح بين حدود
مفهومين «هيك أن الحافظ» وهو صاحب أبرز محاولة في البلاغة،
أدرجهما ضمن مفهوم أعم هو «البيان» فعلة السعي إلى الإحاطة بمشتملاته
عن تحقيق القول في الفرق بينهما. ومع ذلك فقد قصصت مؤلفاته ولا سيما
«ليان والتبيين» حلّ العناصر التي ستعتمد في ضبط ذلك الفرق وتحديد
بدي سيخصص لكل مفهوم منهما. وقد رأينا أن للفصاحة في مؤلفاته معنيين
يتعلق أحدهما «بخط والآخر بالنقط». فقد اشترط للإبانة أن يخلو النطق
من نشوئ التي تعوق إخراج الحروف من محارجهما وأن يكون بقط
خالصاً نقيب لا غريباً وحشياً ولا ساقطاً موقباً معرجاً عن سمت قريش شيب
بالقط القرآن.

كما شرط أنه أن تتألف حروفه متريداً وأن يكون مع فوه في شامف
في عية «لازمة والانسجام» وبذلك يكون الحافظ أول من سنّ مصرع
حصص النقط متريداً ومؤلفاً.

١٠ مرجع المصدر السابق : ص 86 .

أما البلاغة فإنها تتضمن بالإضافة إلى الفصاحة جملة من الاعتبارات
كمصانعة اللفظ المعنى ومناسبة المقال للمقال والإبانة عن العرض بأوجز سطره
وعبره من التوائس التي استعصمتها في فضل « الكلام » (1) .

وبعد فحددت البلاغة هذا الطور وظهرت الحاجة إلى تصف المؤلفات
بدرجته وإحصاء صروب المقاييس المتسببة في بلاغة القول وببؤيه وتعريف
بها . ففردوا إلى موضوع الفصاحة والبلاغة وحاولوا بالاعتماد على معصيات
سابقة تحديد مجال كل مصطلح وتخصيصه بمبدأ أسلوبية .

ومن نصمت كل المؤلفات البلاغية معطيات متصلة بهذا البحث من
من ساد المحقق وعبد القاهر الحرجاني ودرجة أقل العسكري كانوا من
أبرز المهتمين به فاهيك أن الأول هو صاحب التأليف الوحيد المخصص في
تراث البلاغي ، لدراسة مقاييس الفصاحة ، وقد داه على فكرة لفصل بين
مجالها ومجال البلاغة .

وبعد العسكري أول مؤلف بترحم بحلاء عن هذا المشغل حيث بواه
مرتبة اندخل إلى كتابه « الصاعقتين » فكان الفصل الأول من دابه الأول في
الإبانة عن موضوع البلاغة في اللغة وما يجري معه من تصرف لفظي . ويقول
في الفصاحة وما يتشعب منه » (2) .

وينقسم هذا الفصل إلى قسمين وأصحين . في القسم الأول يظهر الجهد
شخصي ، إذ يطلق من دراسة لغوية للأصليين المعنيين بحاتمها استنتاج المؤلف
أن « الفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد وإن اختلف أصلاهما » . لأن
كل واحد منهما إنما هو الإبانة عن المعنى والإظهار له » (3) وفي قسم
الذي يسعر من آراء بعض العلماء في المسألة وهي آراء يجمع بينها لتعسك

(1) انظر إقام المحققين ، ص 251 - 296 .

(2) ص 12 - 15 .

(3) الصاعقتين ، ص 13 .

مصل دلالة المصطلحين . وتنحصر الفصاحة في تمام آله البيان « ومن ثمَّ
 تعقبت تلفظ . أما البلاغ في إيهاء المعنى إلى القلب ومن ثمَّ كتب
 : « مصورة على المعنى » (1) . ومن شواهدهم أن الألف والهمزة لا يسميان
 مصححين لنقصان آلهما وأن اليتقاء يسمي مصححا ولا يسمي بدعا لأنه يقيم
 الحروف وليس له قصد إلى المعنى الذي يؤديه . والإسحار الأمثل نص .
 في رأيهم ، هو الذي يجمع صفتي الفصاحة والبلاغة بأن يأتي « واضح المعنى .
 سهل اللفظ ، جيد السبك ، غير مستكرر ، ولا متكثف وخم » (2) .
 ومن العلماء من يشترط في الفصاحة ، بالإضافة إلى تمام آله النص . « فحده
 ولجزالة .

فماذا نستنتج من هذا الفصل ؟

يجمع العسكري بين موقفين متقابلين . موقف قنطابق حسبه دلالة
 المصطلحين ويعتبر ميدان الدراسة الأسلوبية ميدانا واحدا تنفاص فيه مكونات
 النص وتضطر لإبانة المعنى وإظهاره . وموقف يفصل أصحابه بين المصطلحين
 ويضيّقون مجال الفصاحة إلى درجة أنهم اعترضوها صفة للمتكلم لا للكلام
 وتحقق في النص المنطوق لا المكتوب وفي الأمثلة التي ساقها العسكري ،
 يدل بوضوح على ما قلناه :

« وقبل ريادة الأعجم لنقصان آله نطقه عن إقامة الحروف . وكان يعتبر
 عن حصار بالهمار . فهو أعجم ، وشعره فصيح لتمام بيانه » (3) .

وانغريب أن العسكري لم يشر إلى التناقض المائل في هذه الرواية وتذبذب
 أصحابها بين أن تكون الفصاحة من خصائص التلفظ أو من خصائص النص .
 ويبدو أن المؤلف لم يستطع فصل هذه الإشكالات وأنهى الحديث عن هذه

(1) الصاعبي ، ص 14 .

(2) حصار ، ص 14 ، ص 15 .

(3) نفس المصدر ، ص 14 .

عن "دمي" حنّداً الصّراع الحصارى : في عصره ، بين المحصرين عرسى
 ، لأعجمي وصهور نزعاً في النقد لا يحفل أصحابها إلا بالمعاني ويرون أن معنى
 متى كان ، إنما حساً ظناً كذلك في أي قالب صيغ .

و عرّضه على أبي عمرو الشيباني مشهور في استحسانه هو ، شعر
 (ربح)

لا تحسبن الموت موت النى وإنما الموت سؤال الرجال
 كلاهما موت ولكنّ ذا أقطع من ذلك لبذل السؤال

فقال الجاحظ : وأنا رأيت أبا عمرو الشيباني وقد بلغ من استجدته
 لهذين البيتين ونحن في المسجد يوم الجمعة أن كثف رجلاً حتى أحفره دوة
 وقرطاس حتى كتبهما له . وأنا أزعّم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعر
 أبد . وبولا أن أدخل في الحكم بعض النك لرعيت أن ابنه لا يقول شعر
 أبداً ، (١) .

كم أنه لم يستفد من مجهودات بعض القاد الذين استطاعوا أن
 يطوروا مبحث اللفظ والمعنى وأن يرسوه على قواعد نظرية مستهين في ذلك
 ببعض مقولات الفلسفة التي راحت في القرون الرابع كمقولة الصورة والمادة .
 وفي مقدمة هؤلاء التفاد قدامة بن جعفر ، فقد دافع بشدة عن أهمية لصيغة
 والبنية وذهب إلى أنها المميز النوعي لصناعة الشعر والأدب لأن الشعر صورة
 ومعنى مدّة ولا تنقص طبيعة المادة شيئاً من قدرة الصانع على صياغتها
 وإعدادها شكلاً معيّناً ملائماً . ولذلك نراه لا يقيم بين المعاني مراتب منها ما
 يصح لشعر ومنها ما لا يصلح واعتبرها جميعاً معرضة للشاعر والمهم أن
 يُحوّل الشاعر في المعنى المختار ويلج الغاية فيه ومن هنا أصبحت حقيقة
 الموضوع لا تصلح معياراً للفن . فمضى تقيّدنا بحدود الصورة ولشكل

لم تعد مناقشة الشاعر نفسه عيًّا . ولا يمكن أن نحكم عليه إلا حكمًا
آنيًا بما قل الشاعر في لحظة الخلق لا بما سبق أن قال ؛ فللشاعر أن يشخّ
ما سبق أن قاله ولا يُعدّ ذلك عيًّا .

وقد تضافرت كل هذه العوامل لتخلق لنا في الثلث الأول من القرن
الرابع معهما جديدًا للنصّ الأدبيّ لم يسبق أن رأيناه تصبح بلاعته ، حسبه ،
رهينة ما يتوهم به من مظاهر الفنّ الشكليّ والتصوير . ففي مقدمة « جواهر
الألفاظ » (1) يعبّر عن رأيه في أحسن البلاغة قائلا :

« وأحسن البلاغة الترصيع والتسجع والنسق البناء واعتدال الوزن
والاشتقاق لفظ من لفظ وعكس ما نظم من بناء ، وتلخيص العبارة بالألفاظ
مستعارة وإيراد الأقسام موفورة بالتنام ونصحيح المقابلة بمعان متعادلة
وصحة التقسيم باتفاق النظم وتلخيص الأوصاف بنفي للخلاف والمبالغة
في الرصف وتكافؤ المعاني في المقابلة والتواري وإرداف الواحق وتمثيل المعاني » .
فالهنّ شاسع بين هذا المفهوم وقائمة المفاهيم التي رأيناها عند الجاحظ
مثلا حيث كان الاهتمام موجّهًا أساسًا إلى علاقة القارئ بالسامع وتحقيق
الفهم والإلهام . وهذا منحى في التفكير مختلف ، فيه الإلتحاح على الرسالة
دائها وما يجب أن يتوفر فيها في مستوى الإيفاع الشكلي وفي علاقة هذا
الشكل بمحتواه والمقتضيات المنطقية التي يجب أن يخضع لها هذا المحتوى .

وبهذا يكن رأينا في مذهب قدامة هذا ، وهو مذهب غير متماسك
نعم المتماسك ، فلا بدّ أن نعترف له بفضل التقدم بقضية اللفظ والمعنى
خضرة نظرية هامة مؤسّسة على معطيات ثابتة أهم ما فيها أنه من القلائل الذين
رصدوا المشكل وضعا صحيحا يقابل قريبا ما نسميه نحن اليوم الشكل
والمضمون .

(1) انظر : جواهر الألفاظ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة 1338/1932 ، ص 3 .

إن السكري لم يخذ من كل هذا فبقيت مقارنته بين الفصاحة واللاعة
مقارنة مرعية هامشية هي باب من جملة أبواب اختراها كتابه لا إطاراً مهجياً
يسكن أن قدوج فيه جملة للقضايا . وهنا ما سيحطول المحاجي قدركه في
النصف الأول من القرن الخامس .



١ سر الفصاحة : هو أكمل محاولة في التراث البلاغي لضبط مفاهيم
الفصاحة وأنصع شهادة عن المأزق التي وقع فيها علماء البلاغة نتيجة فصلهم
بين الألفاظ والمعاني وإرادة الانتصار لهذا الشق أو ذاك ، كما يجمع الكتاب ،
بوضوح ، كل السلبات التي دبت إل نيار كامل في التأليف بالغ أصحابه
في قنين ما لاح لهم سبب بلاعة القول وفصاحته وقديمه في شكل قواعد
يقتصد منها إما تعليم الفصاحة دانها أو كينيات الاستدلال على وجودها .
يقول الخفاجي معرفاً بذايات كتابه :

« وكانت منزلة الكتاب لمن لا يعرف البلاغة وطلاوة الكلام منزلة
العروض لمن لا فوق له بميز به بين صحيح النظم وقاسده (...) فأما من
يفرق بين الكلام المختار وغيره (...) فإذا عرف ما بيته وفصلته في هذا
الكتاب علل وأسندل وذكر فوجوه والأسباب » (١) .

وأول إشكال يطرحه التأليف هو التضاوب الجلي بين حديثه من
فائدة الفصاحة في مطلع الكتاب وطريقته في تحديد الفرق بينها وبين اللاعة .

يقول في المطلع : « أما العلوم الأدبية ، فالأمر في تأثير هذا العلم فيها
واضح ، لأن الرطنة منها والكنة ، نظم الكلام على اختلاف تأليفه ، وفقهه
ومعرفة ما يعتار منه مما يكره . وكلا الأمرين متعلقان بالفصاحة ، بل هو

(١) سر الفصاحة ، ص ٢٨ - ٢٩ .

مقصود على معرفة بها . فلا عني للتمتثل الأدب عما توصفه وشرحه في هذا الباب (1) .

ما اشرف من الفصاحة والبلاغة فقد حلده بقوله : « وشرق من نصحه والبلاغة » أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ ، والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعاني . لا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى ينحصر عن مثلها بلغة ، وإن قيل فيها إنها فصحة . وكن كلام ببيع فصيح وليس كل فصيح بليغا ، كالذي يقع فيه الإسهاب في غير موضعه (2) .

ومقصود النصيب لا يسجم إلا بأحد الاعتبارات الآتية :

— فيما أنه لا يعترف بأية مزية توصف الألفاظ مع المعاني — وهو ميدان البلاغة في رأيه — فتبقى المزية مقصورة على اللفظ وحده وإذ ذلك لا يرى فائدة من البحث عن العلاقة بين الفصاحة والبلاغة ولا معنى لقوله كلام بليغ وأن الفصاحة شطر البلاغة .

— أو أن يكون هناك بعض التماثل في الاستعمال فأطلق الفصاحة في النص لأول على ما تدل عليه الفصاحة والبلاغة معا . وهو لا يقتضي في كتاب يروم من ورائه صاحبه أن يقدم تأليفا متكاملا ونموذجا يحتذى . — وإمكانية الثالثة هي أن يكون مفهوم الفصاحة عده وسعا بحيث يشمل خصائص اللفظ وخصائص الكلام وإدراك يصح لفصل الذي أقامه بين بديين مضطعا أو أنه لم يستطع الالتزام به لتداخل البديين وصعوبة الفصل بينهما .

ولا يشنى معرفة أقرب الاعتبارات إلى الصواب إلا بعد استعراض شروط الفصاحة كما تبلورت في هذا المؤلف .

(1) سر الفصاحة : ص 3 - 4
(2) المصدر السابق ، ص 55 - 56

١ - شروط اللفظ المنفرد .

بفتح قدامة الشروط بمقدمة (١) فيها صدى تفكير قدامة ومهجع الجاحظ
 « صدى قدامة عيبدو في قوله بوجود طرفين متقابلين الأول لا مريد عن
 فصاحتها والثاني مطروح مذموم . وأن موقع الألفاظ من الطرفين بحسب ما
 يتوفر فيها من الشروط - وهي الفكرة التي يبنى عليها قدامة تقسيمه لثلاثي
 بشعر (2) .

وتأثره بمهجع الجاحظ جلي في تقسيمه الشروط إلى قسمين « لأول
 مهم يوجد في اللفظة الواحدة على انفرادها من غير أن يصمم إليها شيء
 من الألفاظ وتؤلف معه والقسم الثاني يوجد في الألفاظ المنظومة بعضها مع
 بعض » (3) .

وشروط اللفظة الواحدة ثمانية هي : « أن يكون تأليف تلك اللفظة من
 حروف متباعدة المخارج » (4) « أن تحد لتأليف اللفظة في السمع حسنا ومزية
 عن غيرها وإن تساوتا في التأليف من الحروف المتباعدة » (5) - « أن تكون
 الكلمة كما قال أبو عثمان الجاحظ غير متوعدة وحشية » (6) - « أن تكون
 لكلمة غير ساقطة عامة كما قال أبو عثمان أيضا » (7) - « أن تكون الكلمة
 جارية على عرف العربي الصحيح غير شاردة » (8) - « أن لا تكون الكلمة
 قد عر بها عن أمر آخر يكره ذكره . فإذا أوردت . وهي غير مقصود بها

(١) من الفصاحة ، 59 - 60 .

(2) انظر : نقد الشعر ، ص 3 - 4 .

(3) من الفصاحة ، ص 60 .

(4) مصدر السبر . نفس الصفحة .

ص 61

(6) ص 63

(7) ص 69

(8) ص 72

دلت معنى . فبحث وإن كمننت فيها الصفات التي ينالها « (1) » أن تكون
الكلمة معشلة غير كثيرة الحروف « (2) » - أن تكون الكلمة مصعرة في
موضع غير بها فيه عن شيء لطيف أو خفي أو قليل أو ما يحزن محزى
ذلك « (3) » .

وأعجب هذه المقاييس التي تلور إجمالاً على إيقاع اللفظة ، وتعدد بيتها ،
وملاءمتها لمقاييس الاستعمال ، معروفة أشار إليها اللغويون وعلماء البلاغة
مقدمون رغم ادعاء صاحبها أنه « لم يرجع فيها إلى كتاب مؤلف ولا قول
يروي » (4) .

وهي من مستويات مختلفة ، فبعضها يحيل على معضيات مضبوطة
حسب بشأنها شبه إجماع ، كما اشتراطه أن تكون الكلمة جارية على العرف
العربي غير شاذة ، وبعضها الآخر إما نسي يمكن أن يختلف في تقديره
لناس - الشرط الثاني - أو في غير محله إذ لا دخل للمفرد فيه - شرط
الثامن -

وقد تعرض صياء الدين ابن الأنير في « المثل السائر » لهذه المقاييس
بستق والانتقاد ، ولعله من المفيد أن نورد بعض مواقفه لأنها تدل على
حركة التفكير البلاغي وحيويته بحكم أن هذه المقاييس لم تستقر ستقرراً
نهائياً في بداية القرن السابع هجري ، وتكشف عن ارتباطها بمنصقات
مبدئية تؤثر في صياغتها تأثيراً عميقاً .

فقد نقشه في الشرط السادس والسابع لأن الأحذ مهما كمن جاء يؤدي
في لضعن في القرآن . والفرق بين موقف الرجلين واضح من سنان

(1) سر المصاحفة ، ص 78 .

(2) المختصر السائر ، ص 80 .

(3) ، ، ، ص 82 .

(4) ، ، ، ص 85 .

محضحي قد فرض مشكله الإعجاز بالعبرقة (1) . لذلك فهو يتصرف في مقاييس معوية بأكثر حرية من ابن الأثير الذي يضطره موقعه من الاحترار من كل من شأنه أن يمس بلاغة القرآن وقصاحته ، ولذلك فهو أدنى شهيد يمكن أن يؤدي إليها المقاس لا بد أن ترفع بالتأويل

فهي حين يترك الخفاجي المقياس السادس عاما غير عقيد وهو « ألا تكون كلمة قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره فأبدا أوردت ، وهي غير مقصود بها ذلك المعنى ، فبحث وإن كملت فيها الصفات كقول الشاعر لوفر / وكعب من عائط من دون صلمي قليل الأس ليس به كتيع (2) .

فقد أراد الشاعر بالغائط البطن من الأرض إلا أن يستعمل في الحدث عن ذلك الأصل ، في حين يتركه الخفاجي عاما يضطر ابن الأثير إلى تدقيقه بصفة قوله « وذلك إذا كانت مهمة بغير قرينة تميز معناها عن القبح » (3) .

والسبب في ذلك أن القرآن استعمل هذا النوع من الاشتراك كما في الآية « فالدّين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون » (4) .

فالتعزير يعلق على التعظيم والإكرام وعلى الصرب الذي هو دون حد وهما معنيان صدان فحيث وردت في هذه الآية جاء معها قرائن من قبلها ومن بعدها فخصصت معناها بالحسن وميزته عن القبح (5) .

أما مقياس السماع وهو المتعلق بعدد حروف الكلمة فإن ابن الأثير يحفظه أصلا ، وينظر من شاهد من شواهد أبي سنان وهو قول النسي الكامل

(1) سر الفصاحة ، ص 92 - 93

(2) المصدر السابق ، ص 78 - 79 .

(3) ابن الأثير ، المعجم الأول ، ص 261

(4) الأعراف / 157 .

(5) ابن الأثير ، ص 261 .

« إنكسر به فلا كسرهم منهم » مثل القلوب بلا سوية ونها

وهو لا يرى رأيه في أن قبحها من كثرة حروفها وإنما من قبح جمعها حتى
تت لو حدث منها الألف و « الهاء » وهو العوض عن الإضافة لم تحس الكلمة

وفي قرآن ألفاظ أطول منها وهي مع ذلك حسنة كقوله تعالى

« فسيفكهم الله » (1) و « ليمتخلفنهم في الأرض » (2)

ولذلك رام ابن الأثير صياغة المقاييس بطريقة أخرى تراه قرآن عن
كن « الشبهات » ووجد في قصيدة الأصول . عن مذهب الحاة وأهل « التصريف » .
مبتدأه فرط خمس الأصول الثلاثية وبعض الأصول الرباعية في حين ستقبل
ما ورد عن أصل الحماسي ك « جحمرش » و « حهصلق » ولهذا لا يوجد في
القرآن من الحماسي إلا ما كان اسم نبي عُرِبَ اسمه » (3) .

وفي هذه الأمثلة دليل على أهمية القرآن في تغذية البحوث البلاغية
والمناقشات التي دارت بين العلماء كما يدل أيضا على أن مقاييس فصاحة
والبلاغة كانت دائما مشدودة إلى هذا الأصل حاضرة له موصفة لشهادة به
بالحسن والكمال .

كما تطرق بالنقد إلى نغية المقاييس من وجهة غير دينية فيها شيء من
نفقة وشيء من الدوق الشخصي والنفطة إلى مواضع الزلل . فهو يرمض أن
يكون الشرطان الخامس والثامن من أدلة فصاحة اللفظ . محريان بنفحة عن
عرف عربي « فليس ذلك مما يوجب لها حسنا وقبحا . وإنما يقدم في
معرفة مستعمليها لما يتقله من الألفاظ فكيف يعد ذلك من حملة لأوصاف
الحسنة » (4) .

(1) النقرة/137

(2) النور/55 .

(3) « مثل أقاتر » ص 266

(4) « مصدر السابة » ص 227 .

وقد استلزم الأمر في هذا التقيد إلى أن تطبق هذا المقياس بعض التفاصيل
بين أفراد النخبة لأن أكثر ما يجري منها بين الناس ولا سيما الأدباء هي تلك
التي يسمونها بـ «الغوي» في قسم ما يستجيب لمقاييس اللغة. فأخوَص على نعرف قد
يصبح للغوي الذي يفهم اللغة أما في البلاغة فلا نعتد به لأن الكلمات لا تنفصل
من حيث كتابتها فتجيب لقوانين الفصاحة اللغوية وإنما لمكتب تنفصل
شروطاً زائدة على ذلك.

كما يفرق ابن الأثير بين الخصائص الذاتية في اللفظ وبين ما يعرض
في سياق من جهة التكلم. ولذلك لا يعتبر جهل المتكلم بمواضع اللغة
مقياساً يصدق على اللغة لأن لهذه وجوداً منفصلاً عن وجوده وهو الأمر
الذي وقع فيه من اعتبروا الفصاحة آلة البيان فالتلفظ حدث عارض على
اللفظ ولا يمكن اعتباره بتلك الصفة إلا إذا فهمنا اللفظ في المعنى اللغوي
الأصلي بمعنى النطق. وفعلاً فإن تعدد معاني اللفظ في العربية كان سبباً في
كثير من اللبس الذي اكتف مبحث اللفظ والمعنى قديماً وحديثاً وسرى
بعض تلك الالتباسات عند حديثاً عن مفهوم الفصاحة عند الجرجاني.

أما تصغير اللفظ طبقاً لما يقتضيه المعنى، وهو الشرط الثامن، فهو
أمر يستدعيه المعنى أولاً ثم إنه أمر اختياري ثانياً لا حاجة إلى إدراجه ضمن
قوانين «عمدة» لأن معاني التفسير ليست «من الأشياء العامة التي يفتقر
إلى التنبيه عليها» (1).

كما أنه ابن الأثير إلى تورط الحجاجي في المقياس الأول وبه من أن
في «عمدة» من الأسماء لا تستطيع حملها القوانين الصارمة الخاصة

فمثل كلمة «اللعنة» مستعملة على غير مكرورة (2) دثراً على ما
محارح فقد شدت عن هذه القاعدة شواهد كثيرة تجدلها حملاً رقيقاً كما أنه

(1) نفس المسألة، ص 227.

(2) المصدر نفسه، ص 223.

و. د من ساعد. الحروف شيء قبيح أيضا و « ملع » بمعنى « علا » هي « عدا »
تكون محارج لهاؤها من الشفتين وعينها من وسط اللسان وعينها من حلق
وهي مع ذلك ثقيلة مستكرهة .

ومن عجائب اللغة أنك متى بدلت ترتيب الحروف صار « عدا » و « عدا »
ذلك « تكون حسنة لا مزيد على حسنها » (1) .

وينعجب ابن الأثير من انقلاب القبح حسنا والمخارج له تغيير فلا بد
أن يكون هناك سر وراء محارج الحروف لا يفهمه كون إخراج حروف من
المخرج إلى الشفتين أيسر من إخراجها من الشفة إلى الخلق لأن في الكلمات « يكون
حسنا ملبحا في الاتجاه أو في الآخر (2)

وفعلا والحفاجي جعل من مخارج الحروف مسألة خلافية ودخل في
خصام مع ترمذاني ليس خالصها للعلم ، في رأينا ، ورد رأيه ، وبلاستيع
رأي الحيل في تفسير الشاهر بأنه يقع بقرب المخارج أو تباعدها ، واشتهى ، ف
أن أشأ في تباعدها لا اعتدالها واستشهد لذلك ببعض هوائس لسوركا « أم »
وبعض أدوات الربط كـ « أم » و « أو » وهي حجاج غير مفعلة لأن لا نرى
لهذه لأدوات فصاحة وحسا تفصل به سائر اللغة كما أننا لا نعرف مفسرا
واحدا ركز تحليله للفوائس على فصاحتها .

ونعتقد أن تورط الحفاجي يرجع إلى أنه لم يصع هذا المقياس صياغة
عامة كما فعل أسلافه كالحليل والباحظ فهؤلاء تحدثوا عن صهرة كناية
بين حروف وعدم الشاهر ثم حاولوا التفسير والتقاوى يبقى قائما مهما حثفت
تفسير في حين أن الحفاجي صاغ من التفسير قانونا ومن ثم أمكن الاعتراض
عليه .

(1) ابن السائر ، ص 225 .

(2) المصدر السابق ، ص 225 .

في مطلع هذا القسم الثاني متقدمة نظرية فيها نزعها واصحة من شطوط
وسماعات بعض الأصول الفلسفية السليمة التي أصبحت رائجة في الأوساط
الأكاديمية العربية في ذلك الوقت . وهي تقوم على قياس صناعة الكلام على أصول
فنية يصاغ بها اتحاد موضوعها فالخكماء ذهبوا إلى أن كل صناعة
بمحمسة أشبه هي الموضوع : والصانع : والصورة : والآلة : وعرض
والهشيب مثلا هو موضوع صناعة التجارة والنجار هو الصانع والصورة هي
التربيع مخصوص إن كان المصنوع كرسيًا : والآلة هي الميثاق والتقسيم .
والعرض هو ما من أجله رتب المصنوع كالجلوس

و لاختلاف في صناعة الكلام واقع في الأصل الأول دون الأربعة الأخرى .
فمن العلماء من ذهب إلى أن المعاني هي موضوع هذه الصناعة في حين ذهب
آخرون إلى أن موضوعها اللغة ذاتها وهو الموقف الذي يتساه المؤلف ويدفع
عنه الألفاظ في رأيه . من تأثير يس في المنس والفتح .

و صير المؤلف بحثا عن التكميل والانسجام بين هذا الموقف النظري
العام وشروط اللفظ المراد : إلى دحض الرأي القائل بأن قدرة الصانع بالصورة
لا بالموضوع والذي يصح كرسيًا على هيئة مريحة من خشب رديء لا تنقص
رذلة مادة من قيمة صناعته .

ورأيه أن المادة تأثيرا في ذات الصورة وذاقيم الكلام يحاسب على جودة
مادة لأنه قادر على اعتبار موضوعه لذلك لا عذر له في أن لا تكون في عيه
بحرودة وساء على كثر ما تقدم يعرف التفصاحة تعريفا يجمع بين شروط
الإعجاز شروط التأليف وهو : التفصاحة عبارة عن حسن التأليف في موضوع
محذور (1) .

(1) من التفصاحة ص 88 .

وإن من هذه العظمة يستشعب التقسيم وقد أحل المسائل من حيث
التأليف، وعلت دماغ الأمور من يد المؤلف، وتوضح صعوبة بناء التأليف كمن
على أساس التمييز بين الصراحة والبلاغة أو اللفظ والمعنى .

وشروط التأليف قسمان : قسم يتفق مع شروط العظمة المعروفة وقسم
لا يعبر إلا بصم الكلمات في السياق .

بذكر من القسم الأول احتجاب تكرر الحروف المتقاربة وهو أوضح في
تأليف الاستسوار التكرار فيه أكثر من استمراره في النقطة وقد استورد
أحمد حسي في ذكر أوجه التكرار المستقبحة مشفوعة بشواهد كثيرة أعني من
شعر وساطر في هذه الشواهد يلاحظ أن زعة التقنين المسيطرة على الكتاب
وقعت المؤلف فيما وقع فيه اللعوب وقت تصدوا لتقنين لغة ، فكانوا
يصعبون لقاعدة أو القانون أحياناً من أجل صيغ شاذة وشواهد غريبة بعلمها
لا وجود لها إلا في مؤلفاتهم . كذلك الشأن ها ، فالشواهد غريبة لا نشأ
في أن ارجح بدل جهدا كبيرا للعثور عليها وربما اختلاقتها ، فالكثير منها عبر
مستور وحتى ما وقعت بسببه إلى شعراء معروفين فهو بيت مستفهم من بين
آلاف الأبيات من الشعر الجيد ، وفي كلتا الحالتين شعر أن همته - وربما هم
مريق كبير من البلاغيين - لا يختلف عن هم الحاذق فهم لا يعلمون كيف
يجب أن نكتب الكلام الجيد ولكن يعلمون ما يتحتم تجنبه ، وإلا فكم من
بيت في الشعر العربي على نمط قول أحدهم (مجهول) (سبع)

لو كنت كنت كنت كنت كنت

كنا نكون ولكن ذاك لم يكن (أ)

وكم لأبي الطيب من بيت منسوح على منوال قوله (طويل)

ولا الضعف حتى يلع الضعف ضعفه

ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف

« أبست صريفة الاستشهاد بالبيت الواحد معصوم عن سياقه ساء في تصحيحه
صوره لقصص وهي كتب نفث من البيت نفس الموقف لو فرأى في عصور
القصيدة كاملة »

كما يلاحظ دارس هذه الشواهد . أمرا يكاد يناقض ما سبق أن ذكر .
وهو وجود لقطات نقدية طريقة تدل على بعض العنق في ربط الأدب
بملاسات يحارده مما يكسب المقياس مرونة ويحفف من صرامة الأحكام
فيبدو مستبح مقولا . ولذلك سمح بالتكرار في حالتين - ١ - كان المعنى
لا يتم إلا به كقول المتنبي : (طويل)

وئت أبو نهيح بن حمدان يابنه تشابه مولود كريم ووند
حمدان حمدون وحمدون حارث وحارث لقمان ولقمان رشيد

« فليس هذا التكرار عدي قبيحا لأن المعنى المقصود لا يتم إلا به وقد اتفق
له أن ذكر أجداد الممدوح على نسق واحد من غير حشو ولا تكلف لأن أب
الهيحيه هو عبد الله ابن حمدان بن حمدون بن الحارث بن لقمان بن
رشيد » (١) . ويسوق لنفس الشاعر مثالا آخر - يتخذ من منه في وضع قاعدة
عمامة في التكرار : « فمتى وجدت المعنى عليه ولا يتم إلا به لم يحكم بقصده ،
وما خفف ذلك قصيت عليه بلاطراح ونسته إلى سوء الصناعة » (٢) .

أما الحالة الثانية فأطرف من الأولى لأنها تربط بين بنية النص السقوية
وروح الكسائب ويصبح التكرار علامة تكشف عن « هوس » يعتمد داخل
شاعر واتدعه في النص نوعا من التعريج عن النص وانتداع الحيالي . فقد
روى جفاحي أن أساذه المعري ذكر يوما . قول الشاعر (طويل)

ألا صرقتا بعدما هجعوا هندا وقد سرتن خمسا واثلاثا نجد
ألا حندا هندا وأرض بها هندا وهندا أتى من دونهما التأي والعد

(١) من القصيدة : من 95

(٢) المصدر السابق : ص 95 ، 96

وقال : من حته لهذه المرأة لم ير تكرير اسمها عيباً ولأنه يجد لفظاً رسمياً .
حلاوة (1) .

ومن شروط المشتركة الشرطان الخامس والسادس وهما أن تكون الكلمة
حرية على تعريف العربي الصحيح وألا يقصد بها معنى غير - توتر عنه
استعمالها . وهذا يبدو الاختلاط وتبرز الصعوبات الناجمة عن التسميه مثلاً
فشرط السادس لا يمكن أن يوجد إلا بورود الكلمة في سياق معين منهم
من أنها لم تستعمل على العادة ولذلك فاعتبار ذلك من شروط اللفظ المفرد هو
ضرب من التداخل وقد اعترف المؤلف نفسه بذلك إذ قال : « فتأليف فيه
تعدى بحسب إضافة الكلمة إلى غيرها فإن اتّيح يختلف بحسب ذلك » (2) .
« كسمة » المقاعد » في بيت الشريف الرضي : (الكامل)

عزّ عني بأن أراك وقد حلت من جانبيك مقاعد عواد
بيت قبيحة في ذاتها وإنما من إصابتها إلى من يحتل إصابتها إليهم وهم
عواد ثم إن الشاعر لو أخرجها مخرج الاستعارة كأن يقول مقاعد الجدل
« كان الأمر أسهل وأيسر » (3) .

وكذلك الشأن في الشرط الخامس ولا سيما أن المعنى العائب على «عرف»
في رأي المخفحي هو الإعراب بالدرجة الأولى (4) وإعراب الكلمة تبع
لتأليفها في الكلام لأننا لا نتصور لها حركة إلا مناسبة لحظتها من جملة .
أما بقية الشروط فلا علاقة للتأليف بها .

بعد هذا نقسم الأول ينقل المؤلف إلى الشروط الخاصة بالتأليف وقد
حاول في البداية أن يشرحها مباشرة تأليمية بضمّ عدد من المسائل في أصل عدم

(1) من الفصححة ص 95 - 96

(2) مصدر التناول ص 102 .

(3) معنى المصدر ص 102

(4) انظر في ذلك المصدر السابق ص 100 و 102

بأنه عدل عن ذلك لسه غير واضح . وأصبح يستعرض الشروط بصفة مفردة ، تجعل الإمام بتخطيط الكتاب غير ميسور .

و لأصل الكبير الأول والوحيد هو . «وضع الألفاظ موضع حقيقته أو محال لا يكره الاستعمال ولا يعد فيه» (1) وهو مقياس قصده من رحلت فيه أهم قصائد التركيب والدلالة التي كانت محور المؤلفات البلاغية السابقة كالصديقية والتأخير ، والقلب ، وحسن الاستعارة والحشو ، ومعدده وتجنب ألفاظ المدح في الذم وألفاظ التكلعين والنحوين ومن بينهم (2)

أما الشروط المنصولة فهي المناسبة بين الألفاظ وهي عدة نوعان نوع من طريق بصفة كالسجع والاردواج والمجانس ونوع من طريق «عنى» كما مضى في المخالف (3) والإيجاز والاحتصار (4) ووصوح معنى الكلام وجلاله حتى لا يحتاج إلى فكر في استخراج (5) والإرداف والتشبيح وتمثيل (6) ويحتتم مقاييس اللفظ بصف نوره على طوله لأننا سننطق منه في التعليق .

«فهذا منتهى ما نقوله في الألفاظ بأمرادها واشترائها مع المعاني ، ومن وقف عليه عرف حقيقة الفصاحة ومائيتها ، وعلم أسرارها وعندها فأما الكلام عن المعاني بأمرادها ، فقد قلنا القول بأن البلاغة عبارة عن حسن الألفاظ والمعاني ، وأن كل كلام يبلغ لأبد أن يكون فصيحاً . وليس كل فصيح ببعيد إذ كانت البلاغة تشمل على الفصاحة وريادة لتعلق البلاغة مع الألفاظ بالمعاني

(1) من الفصاحة . ص 103

(2) من منه ص 103 - 162 . ص 162

(3) من منه ص 162 وما بعدها

(4) من منه ص 194

(5) من منه ص 209

(6) من منه ص 218 - 221

فقد كان قد مضى الكلام في الألفاظ على الانفراد والاشتراك فلا بد من
 لأن الكلام على المعاني مفردة من الألفاظ ، ليكون هذا الكتاب كدب في معناه
 بمقتضى البلاغة والمصاحبة . فإنهما وإن تميزا من الوجه الذي ذكرته فهم عدد
 أكثر من شيء واحد . ولا يكاد يفرق بينهما إلا القليل والله يعلم بالبحر
 وتسلطيد برحمته (1) .

بلخص هذا النص . بما فيه الكماليه ، تلذذ بالحاجي وشتبه انطرق
 أممه وشعره بالمصائب التي نتجت من تقبذه بفصيل شكلي بين فصاحة
 والبلاغة أو إن شئت من مبالغة في توسيع معاني الأولى على حساب الثانية . فهي
 لفظة الأولى يذكّر أن ما حلقه متعلق بالألفاظ بانفرادها واشتراكها مع
 المعاني . وبمقارنة هذا باللفظة التي ذكر فيها الفرق بين الفصاحة والبلاغة
 حيث يقول : « والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعاني » (2) نستنتج
 أن ما ذكر في شروط التأليف هو من محض البلاغة . لكن المؤلف يصيب بعد
 ذلك مباشرة ما يصدق عن الفهم ، ومن وقف على هذا عرف حقيقة لمصاحبة
 ومائتها « ثم يصيب ما يصح منه أن البلاغة لا تنم إلا بانقسام المشتق من لفظ
 وهو كلام » على المعاني مفردة من الألفاظ « بعبارة أن يكون الكتاب » كما
 في القسم بحقيقة البلاغة والمصاحبة . ويحتمل الفقرة بشيء من التراجع
 ولاحتراز فيقرر أنها عدد أكثر الناس شيء واحد .

والمراد في القسم المخصص لشروط التأليف بلاحظ هذا التلذذ على
 مستوى العبارة . فكثير من الشروط بدأها بقوله . « ومن شروط الفصاحة
 والبلاغة » (3) بينما المفروض أن تكون شروط الفصاحة بالتأليف ، وإقراره
 في أول الكتاب أن الكلام على المقصود « وهو الفصاحة غير متميز إلا في موضع
 الذي يجب بيانه من الفرق بينهما على ما قلعت ذكره . فأما ما سوى ذلك

(1) من الفصاحة : ص 292 .

(2) المصدر السابق ، ص 55 - 56 .

(3) المصدر السابق : 209 ، 218 ، 221 .

عنه لا يختص وحليص لا يتقسم (1) . هذا الإقرار لا يكفي لرفع لانس من جهتين ، أولا لأنه أصر على ضرورة بيان الفرق بينهما وشروط التأليف عنه وحده من وجوه ذلك الفرق . وثانياً أما إن قلنا أن المواضع التي ذكرت هي فعلاً مشتركة بين المصاححة والبلاغة فلماذا لم يدرج وجوه أخرى تعصف بالمعنى في نفس الندوحة أو أكثر في نطاق هذا اشتراك إذ عبر مؤلف بما لا يدعو محلاً للشك في أنها من شروط المصاححة والمصاححة وحدها

هذا الفرق بين الإراداف والتتبع والتمثيل ، وهي من شروط المصاححة والبلاغة عنده . والاستعارة التي ذكر صراحة أنها من باب وضع لفظ في موضعه ، وحتى إن اعترض علينا بأن مذهبه في الاستعارة القول بالنقل والنقل يجري على اللفظ وإنما نساء عن السبب الذي جعله بعد الطباق ، وهو التصق بوجوه ابلاغية بالمعنى . من خصائص المناسبة بين الألفاظ ولا سيما أنه ذكر أنها مناسبة تتم من طريق المعنى (2) .

ولا نقف مظاهر التردد والالتباس عند حدود ما ذكرنا . فهذه نصوص أخرى أخصر في الدلالة على التناقض ، فليس من السهل أن نوفق بين المداغة في تقدير لفظ التي بنأسس عليها كل الكتاب وبين هذه الفقرة التي تنزب لفظ إلى مرتبة الوسائل الخادمة للمعاني والطرق الموصلة إليها مما يجعل فصلها رهين لكيفية التي نخدم بها ذلك المعنى وتوصل إليه .

إن الألفاظ غير مقصودة في أنفسها وإنما المقصود هو المعاني والأعرص التي حثيج إلى العبارة عنها بالكلام ، فصار الكلام بمرحلة الطريق إلى المعاني التي هي مقصودة (3) .

(1) من المصاححة ، ص 57

(2) مصدر التتبع ، ص 162

(3) مصدر التتبع ، ص 203 .

١٥. الموقف انطوئي يظن عن كثير من المسائل الواردة في كتاب
 لا شيء منه مثلاً حديثه عن الحشو . فالمصطلح نفسه دافع من مقياس معنوي
 لا شيء منه لأن الذي يتكرر به أن إثبات الكلمة وحدها سواء أو أن تؤخر
 في الكلام معناه في المعنى هادياً أو أن تعيد فائدة مستارة يريد به الكلام
 حشو وحشو (١) إنما هو المعنى ولا دخل لذات اللفظة في ذلك بل على ذلك
 صريحه احتجاجي في التفسير وذكره مصطلحي في المعنى في الفاشية ١١ وورد
 من أبي هاشم النحائي لحلفته بين جيد الحشو وردته مني على أصوب معوية
 وصحة (٢).

ويمكن أن يسوى أمثلة كثيرة إذ أتى المؤلف وهو يستعرض شروط
 الفصاحة بتأليف على أهم المسائل الموجودة في كتب البلاغة وقد شعر .
 فم دفع احتجاجي إلى توسيع مفهوم الفصاحة إلى هذا الحد ؟

نعتقد أن المعنى الذي نرى عليه تصدره مسألة الفصاحة سبب من لأسباب
 المعجزة . فقد فهمها بمعنى الإيابة والإظهار . وقد رأينا أن العسكري طابق .
 ذكر هذا المعنى . بينها وبين البلاغة . ولعله لهذا السبب أعرض عن بناء كتابه
 على هذه لفاتية . أما احتجاجي ففي منشأ دلفق . وهم انجس : فصيح
 بهذه كيميائية يصر ظاهرين بارزين في الكتاب . فمن ناحية ، انصواء الوجوه
 بلاغية بمختلف أقسامها التركيب والتدلالة والمخاسن : تحت بواء الفصاحة
 بحكم أن هذه حقيقة كانت أو مجازاً كناية أو تعريضاً موضوعاً بالإيابة عن
 مدحها . ولا سيما أن الفن اللغوي ارتبط منذ عهد مبكر بقضية فهم وإفهم
 حتى دعاهم التفكير البلاغي التي بناها الحافظ . ومن ثم كان كل من له
 عطفة ببيان المعنى وإظهاره فصاحة . ومن ناحية ثانية . وصحة لهذا الموقف .
 تمسك احتجاجي في كل المسائل التي عرستها بالوضوح وحسن معنى في

(١) سر نفث ح . ص 169 .
 (٢) ح . ص 141 .

معرفة مقدس التي تقبم على أسامها الأمالي ويحكم في شأنها ، صوب أو
لا صرح ، ونامت هذه التركة أوجها ، عله ، في فصله بين فهم لأرب
وتشبه ، قوي التأمل والفكر (١) . وسشير في الفصل الأخير من هذا العمل
في دور ، حفي في فرسيح النظرة النعية المعنوية للفن وهي تطوره لني بحث
بحفظ معلها الرئيسية .

أما نسب الثاني الذي دفع به في هذه المضايق فهو ، في رأيد شدة ، عجه به
قدامة ، جعفر ، والزعة في تصيف كتاب في النصيحة على مسور كتبه في
« نقد الشعر » . والالتزام بمقولاته التزاما شكليا أدى إلى فهم الأمور فهما صيدا
صهرت آثاره في تشعب أقسام الكتاب وكثرتها وفي صعوبة الالتزام بالفرق
بدي قرره بين النصيحة والبلاغة . ولا فبالع إن قلنا إن الحفاجي ضحية من
ضحايا منهج قدامة في التأليف .

ووجه الشبه بين المؤلفين كثيرة : فهما متشابهان في دوافع التأليف :
فكف ، بجهد قدامة ، أحدا وضع في نقد الشعر وقلحيص جیده من رديته
كتاب (2) جاء تأليف الحفاجي - حسب قوله - « مبردا في بابه غريبا في
عرضه » (3) ومتشابهان في انماية فعاية « نقد الشعر » صياغة الأحكام لأدبية
صياغة مبسطة بوضع ما يوافقها من أسماء ومعانيهم توهر لتأخذ أداة عمل
ذجة . وقد لحص قدامة هذه الغايات في قصة الشاعر الذي كان يحسن بالعيب
في شعره فلا يشبهه فعرص شعره على العلماء والشعر فلم يوقفوه عن عرضه حتى
صادف صاحب نقد الشعر فذكر له العيب واسمه (4) وذلك كانت غاية
الحفاجي من تأليف « سر النصيحة » (5) .

(١) سر النصيحة ، ص 196 .

(2) نقد الشعر ، ص 1 .

(3) سر النصيحة ، ص 5 .

(4) نقد الشعر ، ص 4 - 5 .

(5) سر النصيحة ، ص 88 .

والخفاحي كثير الإشارة إلى قدماء كثير النحل عنه . وهو يستعمل مصطلحه ويورد شواهد ويثبت تعاليقه بصحتها دون أن يذكر اسمه (١) وقد يصور . مثل ويشمل صفحات عديدة وقصيه كاملة (2)

وهو مثل قدماء يعتبر التشبيه معنى لا مجازا . ويلبس صحة تشبيهه في قسم المعاني (3) كما يرى رأيه في الغلو والإفراط في الحقيقة (4)

ونتيجة هذا التأثير الواضح فهم المعاني فهما منطقيا لا لغويا . وعثر عن عدم تمكنه من حصرها بقوانين تستوعب أقسامها وفروعها لأنها « ثمرة علم منطق » (5) . وبذلك فالمعاني التي يكتمل بها الكتاب ويصبح « كافي في العلم بحقيقة السلاعة والفصاحة » (6) على حد قوله هي المعاني التي ذكرها قدماء في بابين من كتابه هما « ما يعم جميع المعاني الشعرية » (7) و « لعبوب العامة بمعاني » (8) بالإضافة لبعض المسائل الأخرى التي تعرض فيها في باب « نعوت المعاني الدال عليها الشعر » (9) كصحة التشبيه مثلا .

وضيق فهم الخفاحي ، إلى سوء فهمه ، متأثرا في فطرنا من أمرين : إنه لم يدرك تمام الإدراك الساء الثلاثي الذي سار عليه قدماء في تحقيق القبول في المعاني ، وهو المعاني العامة المشتركة ، والمعاني الخاصة ، والمعاني لسان عبيد الشعر وهي الأعراس كالمديح والهجاء والوصف . وهذا الساء خفي شيئا ما من صرامة

(1) فرق بين سر الفصاحة من 224 ونقد الشعر من 70 حيث تناولت صحة الاستعارة . وفي لإحالات المولية تشير بمصطلحات الأولى إلى الكتاب الأول والثانية إلى الثاني

(2) انظر حديث من الاستحالة والتمناقص من 227 - 234 وقارنه بما ورد من 124 - 194

(3) فرق بين 239 - 252 و 55 - 61 .

(4) فرق بين 256 و 24 - 27 .

(5) سر الفصاحة ، من 223 .

(6) المصدر السابق ، من 222 .

(7) نقد الشعر ، من 70 وما بعده

(8) المصدر السابق ، من 119 وما بعدها .

(9) المصدر السابق ، من 23

أسرعة العقول المنجحة التي تسبب كثيراً من أبواب تأليفه وسمحت له بتوزيع مسائل على أبواب كثيرة . فواضح أن النعوت العامة ، وهي من ضرر تطبيق بقولات العقلية على قضية الدلالة . مستعملة كما داخل لدراسة معاني ثلث عليها شعر أو المعاني الخاصة بحيث لم تقتصر دراسته لها على نفسه نعم . سيما أن مع أحصاحي المعاني الخاصة في باب التصاحح فبقي قسم معني عنده مركزاً على ما سماه قدامة بالنعوت العامة .

و لأمر الثاني أنه أراد بناء كتاب على نسق « نقد الشعر » وإحاطة بكل نقصان التي تضمنها إضافة مسائل بلاعية أخرى من دور أن يستعمل مفهوم منهجي أساسي الذي يقوم عليه نقد الشعر و به تناسل أقسامه وهو مفهوم « لائلاف » وهو أهم مساهمة قدامة على صعيد التطوير والتحصيل .

فنهضت « نقد الشعر » محكم في ذاته بقطع النظر عن فعاليتها كتصور دراسة الشعر ، بناء قدامة كما هو معلوم على ثنائيتين متكاملتين : درس عناصر حد شعر وهي اللفظ والمعنى والوزن واتقافية مبسدة ثم درسها مؤلفة : لائلاف بلفظ والمعنى ، وائلافه مع الوزن ، وائلاف المعنى والوزن ، وأخير لائلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت . وقد درست كل هذه العناصر بسيطة ومركبة ، في حالتها الإيجابية والسلبية أي عندما تكون « نعوت » أو تكون عيوب ، وعلى هذا النمط وجد قدامة متسعاً لإدراج القضايا البلاغية في مجالها .

وقد صطرت القسمة الثنائية المخفاجي إلى حشد المسائل التي كانت موزعة على أبواب عديدة في قسم الألفاظ المؤلفة ، يلائمير جعل مصدر (مصدر ر) . والمساواة والاشارة (2) ، مثلاً . صغات اللفظ يمين هي عند قدامة إما من نعوت المعاني المجانس والمطابق (3) وإما من نعوت

(1) نظر صر الفصاحة ، ص 188 ، 199 .

(2) مصدر النسخ : ص 196 .

(3) نظر : نقد الشعر ، ص 78 .

تتلاف اللفظ والمعنى - المساواة والإشارة (1) - وأغرب من ذلك كنهه
مستطاده في قسم الألفاظ المؤلفة إلى موضوعات لا علاقة لها بالمصاححة من
ذلك حديثه المطول عن وصف القوافي وعيوبها (2) ، ولا تفسيره لغيره
إلا الرغبة في الإتيان على كل ما جاء عند قدماءه .

ودرجته . فكتاب «سر المصاححة» هو أكثر المحاولات عرقه فهي
لا تنصير للمعنى (3) وتحصيصه بالثرية والفصل في حوده الكلام وحسه ؛ ولا
أنه : من جهة محتواه ، حجة قاطعة لترابط الألفاظ والمعاني وقد اهل ميد
بمصاححة والبلاغة . وقد برهن صاحبه على شدة التعامها من حيث أراد أن
يقنع بمصاححتها إذ لم ينس أن الالتزام بالمطلق المصححي الذي رام منه الكتاب
عليه بل إن ذلك قد نسى ولكن بكثير من الإحالة والتقص وحصص له
لتقدير . وتصرف الختاجي في تمسكه بقيمة اللفظ حمل معاصره عبد قاهر
الجرجاني على معارضة هذا أتيار بكثير من الحدة والعنف .



ينصق جرجاني من التسميم بتضابق المفهومين (4) لذلك تركزت جهوده
على مناقشة ما ترتب عن الفصل بينهما من مبالغات في تقدير دور اللفظ
ونصرته على المعنى ، ومن حظا في تيسر المداحل إلى أسرار البلاغة فكانت مسألة
اللفظ والمعنى من المسائل الطاعية على كتابيه . تكاد تلبس كل ما تفرق إليه
بالمدرس والتحليلي . ولا عجب في ذلك فاللفظ والمعنى عماد الظاهرة اللغوية
وتسبب العبارة . وكل كلام عن الكلام ، من أي زاوية كان ، هو في جوهره ،

(1) نقد الشعر ص 84 - 85

(2) سر المصاحح ص 171 - 182 .

(3) بشرط أن يعنى اللفظ في الأساس الشيء دون استعراضها فكثيرا ما لاحظ في النسخ
على أن غير محذوفه المصححي في «فصاح الألفاظ» مبررده . انظر على صيل ذلك أحمد
مطلوب ، في القاهر الجرجاني ، بلاغته ونقده ، ط 1 ، بيروت ، 1973 ، ص 101 .

(4) انظر دلائل الإعجاز ط 1 - ص 35 وما بعدها ، وص 349 - 350 .

تحديد لمهية كل منهما ونحسب للكيميائيات التي يتم بها تلاحمهما سواء في مستوى العنصر المفرد أو في مستوى التركيب .

وهذه المسألة في تفكير الجرجاني مكانة خاصة مستمدة من طبيعة منهج الذي اعتمده لمحاورة أسس بلاغة الكلام وأساسها والسر في فصل بعضه على بعض . والعلاقة بين أصول المنهج . وهو النظم . ومسألة بعض والمعنى علاقة جدلية تنطس بموجبها الرافعة السببية المباشرة - العلة والمعنى بمعنى أن موقفه منها محكومة بتوجيه المنهج العام ، وتنبؤ النتائج التي توجه رهبة كثر تلك المواقف التي عثر عنها . ومن ثم نحاور حديثه عن اللفظ ومعنى تعدد بعض الآراء المتابع فيها ومناقشة ما إذا كان الفصل بين المصاحبة والبلاغة جاذب من جهة اللغة أم غير حائر إلى صراع منهجي ذي أبعاد « بستمولوجية » تؤذن بالكسار عميق في مستوى الأصول المؤسسة للنظم . وقد اتخذ هذا الصراع طابعاً جدلياً عبقاً بعدد من عيون المناظرات بغوية في دقة الاعتراض والرد واحتداد اللهجة .

وسنقتصر في هذا الفصل على آرائه المتعلقة أساساً باللفظ والمعنى مرجئين الحديث عن أسسها الفكرية ومستنداتها المبدئية إلى التقسيم الخاص بالمنهج وسنحاول احترام طابع الرحل في التأليف هراوح بين الإبرام واستقص مبررين ما بدد شططاً في الرأي أوقعه فيه فحسبه منهجه ودفاعه عن نظرية يرى فيها لطريقة توحيد لإدراك أسباب البلاغة والاهتداء إلى دلالتها » (1) .



يسدُّ نحر جاني في مطلع « دلائل الإعجاز » بانتقاد ثلاث طرق في فهم مصاحبه والبلاغة والبيان والبراعة : طريقة من لا يرى لها معنى أكثر مما

(1) عبد القادر المهري - مساهمة في التعريف بأراء عبد القاهر الجرجاني في اللغة والبلاغة .
جريدت الجامعة التونسية 1974/11 ، ص 108 .

يرى لبقية أصناف الدلالات على المعاني كإشارة والحط والعقد . وصريفة
من نفس الصاحبة بالتلفظ كأن يكون المتكلم في ذلك جهر الصوت .
حاي الإنسان ، لا تعترسه لكنة ولا تقف له حصة (1) وهو . صصحب
انؤلعت السابقة على تسميته بتمام آلة اليان ، وطريقة من يقيسها بتعديس
للعويين ولا يفهم من أمرها . إلا الصحة المطلقة وإلا إعراباً صاهر : (2)
وأن لا يحس المتكلم « فيرفع في موضع النصيب . أو يحطبي » فيجي . ردمصة
على غير ما هي عليه في الوضع العلوي وعلى خلاف ما ثبتت به روية عن
لعرب » (3) .

وبحسن ، قبل البحث عن دوافع هذا الموقف ، أن يبدي بعض
الملاحظات . فتراجع المقاييس المتعلقة بالتلفظ قد يكون ذا دلالة صغيرة
على تطور لأجناس الأدبية بين القرنين الثالث والخامس ومن ثم على تطور
التفكير البلاغي وتغير مقاييسه بتغير الجنس الأدبي المعتمد وطرائق يعصب
لثقافة السائدة .

فقد أشرنا إلى أهمية التلفظ ، عند الملاحظ . في تحديد خصائص نص ،
وأرجعت ذلك إلى طغيان ظاهرة المشاهدة وسيادة الخطابة كجنس أدبي متميز
وممارسة لغوية حية لها مبرراتها في السياق التاريخي والحصري للقرن
الثالث (4) . ورمصها بهذا الشكل قد يفهم منه فقدان الخطابة المكنة التي كانت
تحتلها وبرور الكتابة والقراءة كبديل للمشاهدة والسماع وفي نصوص

(1) دلائل الإعجاز ، ط . محامي ، ص 54 - 55 .

(2) مصدر السابق ، ص 284 .

(3) مصدر السابق ، ص 55 .

(4) بمر . أن تكون أملاية بين التعديس والتحية والساق المااب طريفة تقسيم ومصادر
البلاغة ومعرفة حفظها من «الإبداع» و «الإبداع» ويمكن ، مثلاً ، أن على ما يع
لأدب ونصير أجابه أن نصير تسمى العسكري بتعديس بالتلفظ بمر . من التعبد
أشهر مصدر راجع الجنس الخطابي مثلاً . ونفس الطريقة يمكن أن تقسم نصوصه عن المحدث
ولا سيما أنه المشهور في المعاني : من أبرز مظاهر التخلد ، في نصوصه ، فصل
ل . عن سيقن المولد له .

لحرجي إشارات كثيرة تدعّم هذا التأويل لحي أهمها لسرعه بعقسه
 على عيه عن تفكيره البلاغي واعتباره البلاغة علما يقوم على دقات وأسرار .
 صرو نعم بها الروية والفكر ولطائف مستقاهما العقل (1) .

ولم يفرق كبير بين هذا التصور وتصوّر الحافظ ومن لفّ منه حيث كان
 يأتى على أن يكون المعنى في ظاهر اللفظ وألا يكون اللفظ إلى السمع أسرع
 من المعنى إلى القلب . وهي مقاييس يفرضها السماع وضروره تنشأ أجرة النص
 أولا دون حتى لا يعلت الخيط الناظم لها .

ثم تشدده من لا يرى للبيان ، صنو الفصاحة والبلاغة وسرعة ، معنى
 أكثر مما يرى لبقية أصناف الدلالات على المعاني فهو نوع من المفصلة في
 بدء مقدمات يتقها من قمرس بالحلاقات بغية تدعيم الموقف والإقناع بالرأي .
 فحين لا تعرف من علماء البلاغة من اقتصر على هذا الفهم بما في ذلك لحافظ
 وابن وهب الكاتب وهما صاحبا أشهر تأيين في الموضوع .

و تثبت في كتابي الحرجاني يلاحظ أنه كثيرا ما عمد إلى هذه الطريقة
 في عرض آراء سابقه مما يدل على أن همه ليس الأمانة في العرض بقدر ما
 هو دفاع عن المعتقد وبذلك تعقد مؤلفاته قيمتها الوثائقية ولا يمكن استعمالها
 دراسة لأطوار السابعة إلا بكثير من الاحتراز وذلك رغم أهميتها العظيمة
 من وجوه أخرى

فكثيرا ما نشر أنه يعتمد الانطلاق من معطيات مقبوضة أو خاطئة
 ليوجه سندس الوحشة التي تخدم عرصه وتدعم موقفه ، ولعل أثره نموذج
 سندس لكيفية التي قدم بها علاقة الفصاحة والبلاغة عند المتقدمين فهم
 يعتمدون في معنى الفصاحة على ما ذكره الحرجاني بل كانوا يمارحون بين
 مستويات متعددة ، منها ما يتعلق بدات اللفظ وخصائص بيته كحاجة ومها

(1) دلائل الإعجاز ، ط . شعبي . ص 55 .

ما يتعلّق بفصاحته اللغوية بأن يكون ممّا ثبتت به الرواية على العرب وتس
هذه الخصائص جزء من مفهوم أوسع هو البلاغة (1)

و حرجي لا يعتدّ بهذا لتشبيته بمنطلقه المبدئي الذي لا يرى موجه
فرقاً بين المفهوميين . يبدو ذلك جلياً في مناقشته رأي الجاحظ المشهور
الذي لم يتورّع عن بحنه بالشبهة والترغم . وملخص هذا الرأي على لسان
مصحّب دلائل - « أن لا معنى لفصاحة سوى التلاؤم اللفظي والعماديين مرجع
الحروف حتى لا يتلاقى في النطق حروف تقع على اللسان » (2)

ثم يأتي بشاهد الجاحظ : (رجز)

وقر حرب في مكان قمر وليس قرب قبر حرب قمر

وبصوغ من جديد رأي الجاحظ ومؤداه « أن الكلام إذا سئم من ذلك وصف
من شوبه كتاب الفصحيح المشابه والمشار إليه » (3) ثم يردّه لأنّ هذا لا يعتبر
يبرم « أن يخرج الفصاحة من حيز البلاغة ومن أن تكون نظيرة لها » (4) .
وبصوغ من هذا الردّ أن اتفاق المصطلحين عنده منطلق لا ينشئ النقاش
وأن الظاهرة الأدبية لا بطر إلى خصائصها من رادويثيس فموجب دراسة
لأسبوعية مجال وحيد عنر عنه بألفاظ مختلفة هي الفصاحة والبلاغة وبين
وليرة .

وعلى أساس هذا المبدأ يناقش الجاحظ ويعرض آراءه بطريقة فيها كثير
من التحسّس والحيف . فأبو عثمان رأى اكتمال النص في جمعه بين الفصاحة
وبلاغة ، ولا تقتصر مقاييسه الفنية على جهة اللفظ معرّداً ، والفصاحة في نظريته

(1) من ذلك ما ذهب إليه جميع الناحيين أن حرجي لم يطلع على مر الفصاحة ،
للمعنى وهو أكثر المطولات تطرّفاً في مسألة الفصاحة .

نظر ، G. Von Grunbach ، مقال دائرة المعارف المذكور ، ص 844

(2) دلائل الإعجاز ، ط ، مشار ، ص 45 .

(3) المصدر السابق ، ط ، المشار ، ص 45 .

(4) المصدر السابق ، ص 47 .

تكمّل البلاغة ، ولما كان الجرجاني لا يفرق بين المستويين عمد ، عرض ،
عن عند ، سنده بالعضاضة على أنه رأبهم في التفصاضة والبلاغة ،

وسلطع مناقشة مسألة اللفظ والمعنى بهذا الطابع الذي يستمد ، بدور ،
شرعيته من مبدأ العام الذي انتمى في كلّ محاولات الفاصي بأن عضاضة لا
تحت لفضة ، مقطوعة مرهوعة من الكلام الذي هي فيه : (1) من هي تبت
تتي « تحدث من بعد التأليف دون التفصاضة التي توصف بها النفضة معددة من
غير أن يعتبر حلها مع غيرها : (2) . وعن هدير المبدأين المتراضين تولدت
في نظرنا طرافة تفكير الجرجاني ونظره .



وبناء على ما تقدم نقص الجرجاني الآراء التي تحول في الحكم بوجود
المنية على اللفظ في ذاته لا في معناه لأن ، من نصر اللفظ على المعنى كان كمن
أراد لشيء من جهته ، وأحاله عن طبيعته وذلك مظنة الاستكراه ، وفيه
فتح أبواب العيب والتعرض للشين : (3) .

وإرجاع الأمور إلى نصابها وتربيلها منارلها يوق حمة من حجج
جري في يردها على غير نظام وينسج حلها بصعة حدلية جمعها نرز في
شكل اعتراضات ، قبلو مفترضة ، وردود .

وبالإمكان إحمال حججه في ضريين : ضرب نصطاح على تسميته
« المتدع » ونعني به كلّ الاعتبارات المترتبة عن نظريته في اللغة وفيه
طبيعة العلاقه بين الأنماط كنية لغوية خارجية وحامل (4) أخوف وبين ،

(1) دلائل الإعجاز ، ط ، عجاجي ، ص 367 .

(2) المصدر السابق ، ط ، ص ، ص 323 - 324 .

(3) أسرار البلاغة ، ط ، عجاجي ، 105/1 .

(4) Support

جاءت هذه الألفاظ لتدلّ عليه . والضرب الثاني سميّه « مؤلداً » ومعنيّه
 من محدثه من مادة العلم ذاته وفريقه السابقين في قنوله .

عنه تصوّر البحر حائي للغة على التّصنيف بين الألفاظ والمعاني ولا عترف
 بهذه لأجرة يوحّد مستقلّ سابق وتصحّ اللغة تبعاً لذلك محرّرة علامات
 واسمات اصطلاح عليها لتشير إلى تلك المعاني « وليت شعري هل كنت
 الألفاظ لا من أجل المعاني ؟ وهل هي إلا حدم لها مصروفة على حكمها »^(١)
 ليست هي سمات لها وأوصاف قد وصفت لتدلّ عليها (١) . ومن هذا
 منظور لا تريد وضيفة اللفظ على كونه ومبينة يستشف منها معنى ووصف
 يتشكّل بشككه بحيث إذا وجب معنى أو يكون أولاً في النفس وجب لفظ
 الدّ عليه أن يكون مثله أولاً في النظر (٢) . وبذلك يفقد فعليته لجمالية
 أو أن تلك لفعليّة لا تتعلّق به أصلاً ولا تقتصر عليه « ليس للدليل إلا أن
 يعتمد شيء على ما يكون عليه فأما أن يصير الشيء بالدليل عن صفة « يكن
 عنها ممّا لا يقوم في عقل ولا تصوّر في وهم » (٣) .

واللفظ وإن اعترف له ببعض المزيّة في حصول الملاعة لا يمكن بحال
 أن يكون معتمد الحكم وأساسه :

« واعلم أنّنا لا نأسي أن تكون مداقة الحروف وسلامتها ممّا يثقل على
 حساب دحلا فيما يوجب التّضيقة . وأن تكون ممّا يؤكّد أمر الإعجاز وينم
 الذي فنكره ونفيل رأي من يذهب إليه أن يجعله معجزاً به وحده ويجعله
 لأصل والسدة » (٤) .

(١) دلائل الإعجاز ، ط ١٢٢٠ ، ص ٣١٩ - ٣٢٠ .

(٢) المنطق الكبير ، ص ٤٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٦٩ .

(٤) المصدر السابق ، ط ١٢٢٠ ، ص ٤٠١ .

« موطئ أبي اعترف فيها الحرحاوي للفظ بعض المزية خمسة أشهر
 بعض موطئ أو ردها ونص آخر ورد في أسرار البلاغة (1) ، وما عدا هـ
 مساقس من تعلقه بالدفاع عن المعنى وتقليل شأن اللفظ حتى حتى هي أشبه
 محسبات بعضنا بالإيقاع والموسيقى اللغوية كالجناس فهو يرتبط بحسنه بمقاييس
 بعض (2)

ومن الأدلة التي ماقها أن القول بفصاحة اللفظ في ذاته يقتضي ، من جهة
 بعض ، « أن تكون تلك الفصاحة واجبة لها بكل حال » (3) ولا تتغير قيمة
 للمعنى بحسب تتغير السياق الذي ترد فيه في حين أن نفس الكلمة « تروقك
 وتؤنسك في موضع ، ثم تراها (...) تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر » (4) .
 وقد حاول تأكيد حكمه بالاعتماد على شواهد شعرية تكررت فيها نفس الكلمة
 مع فارق في التأثير ، إلا أن أحكامه جاءت انطباعية لا تستند إلى معصيات ممنوعة .
 والأرجح أنه اهتدى فيها بآراء النقاد السابقين مثال ذلك لفظ « الأحجع » من
 « في قول البحري : (طويل)

وهني ويب بلعنني شرف العسى وأعتقت من ريق المطامع أخدعي

« ما لا يحفى من الخس » أما في بيت أبي تمام : (مشرح)

يا دهر قوم من أحديك فقد أصحجت هذا الأمام من خرقك

فيها « من تثقل على النفس ومن التبعيض والتكدير أصعاف » ما وجدت هذه
 من روح والخفة والإيناس والبهجة » (5) .

(1) « في هذا المعنى » و « أن رجوع الاستحسان إلى اللفظ من غير ترك من معنى فيه وكونه
 من أسبغ ودراعه » فذلكاد يعلو بطلا واحدا هو أن يكون اللفظ من معنى فيه من
 منتهى هم و « أنه لو لم يكن في زمانهم ولا يكذب وحشا غويب أو هديا سحبا » ط ح ح ح
 98.

(2) دلائل الإعجاز : ط المنار . ص 99 - 100

(3) المصدر السابق : ص 367 .

(4) المصدر السابق : ص 38 - 39

(5) المصدر السابق : ص 39 ، ط المنار .

وكم يقضي القول بفصاحة اللفظ في ذاته أن تكون فصحة شئ
و د ت . إذا ما بالذات لا يعبر . فهو كذلك يقتضي أن يتساوى س في
معنى فصاحتها لأن ما سبيل إدراكه الإحساس لا يختلف من شخص إلى آخر
لأن س يتفاوتون في المدركات العقلية دون غيرها

« لا نحو الفصاحة من أن تكون صفة في اللفظ محسوسة تدرى في السمع »
و تكون صفة فيه معقولة تعرف بالقلب . محال أن تكون صفة في لفظ
محسوسة ، لأنه لو كانت كذلك لكان ينبغي أن يستوي السامعون لفظه فيصبح
في العلم بكونه فصيحاً وإذا بطل أن تكون محسوسة وجب الحكم بضرورة
بأنها صفة معقولة . وإذا وجب الحكم بكونها صفة معقولة ، فإننا لا نعرف
لفظ صفة يكون طريق معرفتها انفعال دون الحس إلا دلالة على معناه (1) .

ولو كانت الفصاحة في اللفظ من حيث هو مجموعة أصوات لوجب
أن تنطبع في ذهن السامع بمجرد بطو اللفظ . ولما كنا نتطرح حتى يتم استحقاق
بالسابق كله لحكم له بالفصاحة ، وحال من يقضي لللفظ بفصاحة لا يدركها
، لا بعد تمام الكلام حال من يقول ذلك العلم بالشئ يقع بعد عده ودهب وقد
حس الجرجاني هذه الأفكار في تعليقه على الآية ، واشتعل الرأس شيباً .

« ب لقارىء إذا قرأ قوله تعالى : « واشتعل الرأس شيباً » فزبه لا يجب
الفصاحة لتي يجدها ، إلا بعد أن ينتهي الكلام إلى آخره . ولو كانت الفصاحة
صفة لفظ « اشتعل » لكان ينبغي أن يحسها القارىء فيه حال لفظه به . فمحال
أن تكون شئ صفة ثم لا يصح العلم بذلك الصفة إلا من بعد عده . ومن
ذا رأى صفة يصرى موصوفها عنها في حال وجوده ، حتى إذا عدم صارت
موجودة فيه . وحل سمع السامعون في قديم الدهر وحديثه صفة . شرط
حصولها لموضوعها أن بعدم الموصوف (2) .

(1) دلائل الإعجاز ، ص 291 . معاً عن ركي يعيب محمود : المعقول واللامعقول في
مراثي الفكر في . مقصد دار الفروق ، بيروت (د ت) ص 264
2 . مقصد السبيل ، ص 292

و عارىء يستعرب هذه الطريقة في الاحتجاج بقدر ما يعجب بها . فلا شك أن مرتبة هذه الآيه في العصاحة والبلاغة ، لا تبيّن إلا بتصاغر العناصر مكتوبه بصوره . ناهيك أن المادة المعربية التي تحت منها رسمها لا تستلزم لارتد في ذاتها . فبيست هناك مرأيا ينفرد بها الفعل والإسمان المتعلقان به . لكن ماد بمقصد جرحاني بالنسبة الثاني من احتجاجه ؟ وما معنى الوجود و عدمه في بعده ؟ وما مدعى أن تكون للمعطه خصائص لا تبرر إلا مصوره فيه . بحيث يف من العناصر ؟

رغم صعوبة الإحاطة عن هذه الأسئلة وكثرة المزالق التي تترصد من يروم تحريجها على وجه واحد فإننا نميل إلى اعتبارها نهاية ما بلغه تفكير الجرحاني في تحريد المعطه من كل مرره فكانت الألفاظ وبانثاني اللغة ليس لها وجود فعلي . فوجدتها تنتم في حمل ثم تنعدم بسجود انتهائنا من قراءة الجملة وبذلك تكون قيمتها رهية شبكة العلاقات التي تربطها بجوارها لا غير .

وفعلا فأرجل قد أكد على أن نظم الحروف في الكلمة هو محض اصطلاح وتواضع لا يمكن أن نجد له تعليلا معيوباً ولا أسباباً عقلية « نحتّم اختيار ترتيب من آخر أو تفضيل علامة على علامة أخرى لتأدية معنى معين » (1) .

« إن نظم الحروف هو نوالها في النطق فقط . وليس نظمها بمقتضى عن معنى ولا النظم لها مقتضى في ذلك رسماً من العقل اقتضى أن يتحرى في بعده . ما تحرّاه ، فهو أن واضح اللغة كان قد قار « رخص » « مكب » « صرب » « كبت » في ذلك ما يؤدي إلى فساد » (2) .

وهو معان في تأكيد هذا المعنى وتدعيمه وإدراز أن ترتيب الألفاظ لا يتم « رسم من العقل » بقول الجرحاني . بمحصر التصور . أن نطق أحزء الكلمة نوحدة دفعة واحدة لو سمحت بذلك مقتضيات الجهاز الصوتي (3) .

1 - عبد العزيز المهري . المقال المذكور ، ص 102

2 - دلائل الإعجاز ، ط حيدري ، ص 93

3 - مصدر أضافي ص 372

ونتيجة لهذا الموقف المتطرف : في نظرتي . لم تحصل بحر حافي
 باعتبار أنني يمكن أن تقع على محور الاستعداد . ونقص أساساً لأساسي في
 قلوب عليه نظرية أسلافه في بلاغة النص وهو منذ الاختيار الذي يقوم به
 على التسليم بأن اللغة توفر لتسليمها أكثر من إمكانية في التعبير عن متصور
 ووجه

وفي اعتقدي أن تحتمس البحر حافي لمعرفته وطابع الجذب . محرّث لتأنيده
 هذا من دفعه إلى أن يرى التناقص حيث التكامل . فلن سلّم بأن الحكمة
 الواحدة لا تعتبر مصدر البلاغة وأساسها باعتبار التوضيح مريّة . بالتكتم دون
 واضح اللغة (1) وأن الفاظ اللغة لا تتفاضل في الدلالة على ما وضعت له وأن
 متكتم لا يستطيع أن يريد شيئاً على المواضع لأن لا يكون متكتم . حتى
 يستعمل أو صاغ لغة على ما وضعت هي عليه (2) . لن سلّمنا بكل ذلك فدنا
 لا نرى ، يمنع أن يكون في اللفظ حصائص تستهوي المتكتم وتروده فيختر
 بهذا مرصع ذلك اللفظ دون مرادفه وشبيهه .

ب. تحكيم المعنى في رقاب اللفظ على هذه الطريقة بحيث تكون دليلاً
 متأثرة لا مؤثرة . والقول بأن الكاتب لا يحتاج بعد ترتيب المعاني ، في فكر يستأنفه
 لأن يحيى بالالفاظ على سقفها (3) لا يصعب الاعتراض عليه مبدئياً وعميقاً .
 أما الاعتراض المبدئي الرئيسي فهو أن هذا النوع من التفكير يؤدي إلى نقوب
 بأن نصّ يأخذ شكله النهائي من كتابته الأولى وهو عملياً يكاد يكون مستحيلاً
 وكتب لأدب القديمة مليئة بالأخبار عن معاودة الشعراء أشعارهم وتنقيحها
 واستعادتهم كانوا يبدلون المعنى مع كل لحظة أو قافية يبدلون بها

(1) دلائل الإعجاز . ط . شار . ص 308

(2) مصدر . شار . نفس الصفحة

(3) مصدر . شار . ص 43

أما الاعتراض المبدئي الثاني : وقد تفتش إليه الجرجاني ونصار منه فرد ردًا متقوسا : فتأنيده يمكن أن تفسر حوشر إعجاز القرآن ونقص وجود النعد الفني في اللغة أصلا .

ويمكن أن تلخص هذا الاعتراض على النحو التالي : إما أن نفس أنه قد يعثر عن معنى الواحد لفظتين ثم يكون أحدهما صحيحا والآخر غير فصيح وهذا أن يفهم الفصل على المعنى وإدراكه يستوي المفسر والمفسر (1) ويستحيل أن نقول إن بيت الشعر يفوق تفسير المفسر له .

ويرد الجرجاني على هذا الاعتراض في مرحلتين حسب مقصود الاعتراض من بعده . فإذا كان المقصود باللفظتين كلمتين معناهما واحد فلا جواب : لأن كلامنا نحن في فصاحة تحدث من بعد التأليف دون الفصاحة التي توصف بها اللفظة مفردة ومن غير أن يعتبر حالها مع غيرها (2) . وعلى هذا النحو فإن الجرجاني لا يقبل الحوار إلا من مطلق وحدة التصور بينما المفروض أن يدور النقاش في صحة التصور ذاته .

وأما إذا كان المقصود كلامين فإن المعاني سبيل أشكل لحبي كحديثهم والشيف والسوار وهذه الأشكال تختلف في درجة صحتها ومن يحسنها الصانع من الإغراب في النقش والزينة : كذلك سبيل المعاني أن ترى وجودها غفلا سادحا عاما موجودا في كلام الناس كأنهم ثم تراه نفس وقد عمد إليه لتبصر نشأة البلاغة وإحداث الصور في المعاني فيصنع فيه ما يصنع الصانع الخادق (3) .

ولكن يبقى السؤال قائما : فقيم تمثل هذه الصناعة ؟ طبع حوشر الجرجاني أن يجيب عن ذلك في نظريته للصورة . ومضى عندما تعرض إلى

(1) انظر : ... (2) دلالة الإعجاز ... (3) ...

موضوع في ذنب آخر من الكتاب أن فهمه للصورة هو أيضا لا يحو من بعض
وجه الناقص مع بعض منادته الأخرى .

ومن أطرف الأدلة التي دعم بها الجرحاتي نظريته في أن سلاعة تقع
معنى لا . للفظ والتأليف لا بالكلمة المفردة ربطه بين النص الأساسي وثنويه
ومكابه ثوبل الكلام تأويلين أو أكثر وتفسير البيت الواحد عدة تفسير
وصوره تنط نائمة دليل على أن تعدد الدلالات والأشكال ، وهم
بشرع لوجود التفسير والتأويل ، يتولدان عن المعنى إذ لا إمكانية للتأويل
في نص مجرد بحكم أنه يرتبط بمعناه على وجه التواضع والاصطلاح
ولقد من جرحاتي ها . وإن لم يصح ذلك صياغة واضحة ، أهم حصية
من حصن النص الوضعية الأدبية حسب أحدث النظريات الغربية معاصرة في
النص وهي نظريات تذهب إلى اعتبار التأويل من مميزات ظاهرة الأدب
لأن تراكم مبدأ التشابه (1) . وهو من مميزات محور الاستبدال . على
التلاصق (2) ، يحلق في النص ضرا من الكثافة المعنوية والإشكال فتمكن
قراءته بصورة مختلفة ، يقول الجرجاني :

« واعلم أن الفائدة تعظم في هذا الضرب من الكلام إذا أنت أحسست
منظر فيما ذكرت لك من أنك تستطيع أن تنقل الكلام في معناه عن صورة
إلى صورة من غير أن تغير من لفظه شيئا أو تحوّل كلمة عن مكانها إلى مكان
آخر . وهو الذي وسع مجال التأويل والتفسير حتى صاروا يتأولون في
كلام واحد تأويلين أو أكثر ويفسرون البيت الواحد عدة تفسير » (3)

أما قسم الثاني من المصحيح فسنستعمل كما قلنا ، من الأحكام مجربة
في مؤبدات السابقة كقولهم في الاستحسان لفظة متمكّنة ومعمولة وفي الاستقناع

(1) Similitudine

(2) Contiguatè

(3) نظر : دلالات الإعجاز ، طه المنار ، ص 286 .

هذه ودنة . وهذه المصطلحات تدل . حسه . على أن المعنى في حكمه هو معيار المعنى والتألف لأن في جميعها إشارته إلى العلاقة و موقع ولا معنى لذلك . سلجما فصل اللفظ من غير أن ينظر إلى المكان الذي يقع فيه . وكذلك نفس تناقضا بين الدفاع عن خصائص اللفظ . من جهة وفكرة لعائلة شيء نادوا بها من جهة ثانية يقول :

« ومن تحدّ أحدا يقول هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعثر مكانها من صم وحسن ملائمة معناها المعاني جارأتها : وفصل مؤنسها لأحوتها ؟ ومن قدو . لفظة متمكنة ومقبولة . وفي خلافه قلقة ودانية . ومستكرهة إلا وغرضهم أن يعثروا بالتسكن عن حسن الاتعاق بين هذه وتلك من جهة معادها . وبذلك وأسبو عن سوء التلاؤم . وأن الأولى م قلق بادنية في معناها . وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفظا للتالية في مؤداها » (1) .

ويستحضر الجرجاني في هذا الصل كثيرا من المصطلحات التي سبق غيره من البلاغيين استعمالها كالانفاق ، والتلاؤم ، واللفق وكانوا يدللون بها عن ضرورة التماسق الصوتي بين الألفاظ وملائمتها للعرض والمقام ، إلا أن صاحب « دلائل الإعجاز » أرجعها إلى عصر المعنى فقط تماشي مع تصوّره البلاغي العام . وما برر اعتراض استبداء أصحابه من اصطلاح رائج في علوم البلاغة وصورته أنها نجد عبارات تعلق الفصاحة صراحة بلفظ كقولهم : لفظ فصيح ، و : كلام فصيح ، مما كان يسمهم أن يقولوا معنى فصيحها وكلاما فصيح المعنى ؟

يرى الجرجاني أن هذه العبارات مبيّة . لكثرة الاستعداد . على لتجوز ذلكابه واستعارة الصفة للفظ من معناه والسبب الأصلي في هذا لتجوز أن الألفاظ تنوب في الدلالة عن المعاني إذ ليس في إمكان هذه أن

(1) دلائل الإعجاز ، ط . شار ، ص 36 .

ثمة بدتها فاحتاحت إلى واسطة الألفاظ التي يكشف ترتيبها في كلام
عن ترتيب المعاني في النفس ، فلما أرادوا التعبير كتبوا عن الترتيب سي
يجري في الفكر بما يجري في ظاهر اللغة :

« لما كانت المعاني إنما تنبئ بالألفاظ وكان لا سبيل للمرتب لها
و جامع شمسها إلى أن يعلمت ما صنع في ترتيبها فكره إلا ترتب لألفاظ
في خلفه نحو ، كتبوا عن ترتيب المعاني بترتيب الألفاظ ثم بالألفاظ بحدود
الترتيب » (1)

ومن أمثلة ما يدل على أن الشأن في المعنى لا في اللفظ - حسب لخرجاني
... مجازات كاستعارة والتشبيه والتمثيل والإيجاز - حسن بالاستعارة بتشبيه
معنى لا نستفيد من الكلام ، العقل ، الساذج ونجد للكلام صورة تختلف
عن صورته في أصل الوضع ومع ذلك فالألفاظ لم تتغير ، فالذي يقول الأسد
وهو يقصد رجلاً شجاعاً فإنه لم يستعير في الحقيقة اسم الأسد وإنما استعار له
معناه لأن لفظة الأسد تبقى دالة في اللغة على ما وضعت له ولتقريب بين
الرجل والأسد إنما وقع من جهة المعاني (2) . ثم إن جرس الكلمة لا يتغير
في حالة استعارتها مما يدل على أن المزية ليست في ذاتها .

كذلك شأن في التشبيه فإن أصريه لا تتفاوت إلا من جهة المعنى وطريقة
لتكلمهم في تعليق الألفاظ فالفرق بين قولنا « زيد كالأسد » و « كان زيدا
لأسد » و « لن لقيته ليلقيك منه الأسد » إنما هو في حسن الصورة وتفنيم
لبيعة حتى أن الفأريء في الصورة الثالثة « يرى الأسد على القطع مخرج الأمر
عن حدته تنوّههم إلى حدته اليقين » (3) ولا دخل للفظ في ذلك وإنما في
المعنى المترتب عن طريقة البناء والترتيب .

(1) دلائل الإعجاز ، ط 1 ، ص 50 - 51 .

(2) المصدر السابق - ص 336 .

(3) « ط 1 ، ص 386 .

تت حلاصه آراء النحويين في اللفظ والمعنى المبينة على تصانيف مصطلحي
 فصاحة والبلاغة . ولعلنا لا يوجد من يلخص هذه الآراء أحسن منه ،
 يقول : « قد انصح انصاحا لا يدع للشك مجالا أن اللفظ لا تنحصر من
 حيث هي لفظ محردة . ولا من حيث هي كلف مفردة . وإن اللفظ
 مشتق من عصبه وحلافها في ملائمة معنى اللفظة بمعنى التي تنبأ أو ما شبه
 ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ » (1) .



يسر مما تقدم أن زوح الفصاحة والبلاغة وبالاستنباع للفظ ومعنى
 يكتسب في التفكير البلاغي أهمية كبيرة . فهو قضية من القضايا العلمية
 التي لارمت هنا التفكير على مختلف مراحله وساهمت في ذلك البحوث
 وتطويره .

وقد ركزنا تحليلنا على محاولتين بارزتين متقابلتين : بالفت لأوى
 في الانتصار للفظ وبالفت الثانية في الانتصار للمعنى فلم تستمر من بعض
 الشطط والتطرف .

وبتحليل هذين الموقفين بدا لنا أن الاختلاف يعكس طريقتين في
 تقييم بلاغة النص والسئل الموصلة إلى ضبطها ورؤيتين متباينتين لكلام
 الأدبي تستمد وجودهما من تباين المنهج .

(1) دلائل الإعجاز ، ط المنار ، ص 38 .

ب - المنهج :

حديث عن منهج . أو منهج علماء البلاغة في تحديد جوده كلام نقف دونه كثير من الصعوبات . منها أن الدراسات . في حدود ما قرأنا منها . إما تفعل طرح المشكل . وإما تطرحه بناء على تصورات عممه . أو غير فعالة . أو بسيطة لا تسمح . في رأينا . بإدراك الأبعاد الحقيقية . فمن نمدح التصورات التمهيدية ما نجده في بعض الدراسات من مصمم بين العوار والمحتوى فهي . وإن أشارت في العوار إلى الاهتمامات شهابية تقى . من جهة المضمون . تحليلًا لعوامل نشأة البلاغة وتطورها وحديثًا عن « أعلامها » ومؤلفاتهم حديثًا تاريخيًا حديثًا يؤهم أن عدد منهج على قدر عدد العوامل (1) .

ومن نمدح التصورات غير الفعالة في تحديد المنهج . مبالغة المدربين محدثين في لحرص على إدراج كل المؤلفات البلاغية ضمن اتجاهين أو « مدرستين » سموا الأولى « المدرسة الكلامية » وسموا الثانية « المدرسة الأدبية » (2) وراحوا يبحثون عن خصائص كل مدرسة في التأليف وعن « أعلامها » والمحيط الجغرافي والنشري الذي تفرعت فيه .

فمن خصائص المدرسة الكلامية « الاهتمام بالتحديد والتعريف والتقسيم منطقي والاهتمام بحمل التعريف حاميًا لها ثم استعمال أساليب الفلسفة و منطق في تحديد الموضوعات وتقسيمها وحصرها واستعمال الأساليب المنهجية والمنطقية والإقلاق من الشواهد والأمثلة الأدبية » (3)

- (1) نظر على سبيل المثال كتاب أحمد مطلوب ، مناهج بلاغية ، ص 1 ، بيروت ، 1973 .
(2) من لأحد التي تفسر نفسك بعض الشيء بهذا التمهيد الشال انصاف التعديبه عن .
يعود منه . التأليف البلاغي منك . منذ وقت مبكر . مسكين محققين ، نظر
لأمدي مؤلفة ، تحقيق محمد يحيى إسماعيل عبد الحميد ، ص 1 ، القاهرة ، 1944 ، 1633 ،
ص 3 - 4 ، ديمسكري الصاعين ، ص 15 ، انظر ما هذه الآراء عند السيوحي .
انحصار في أخبار مصر والقاهرة ، 1929 ، 190/1 .
(3) مصر ، لجنة التدريس ، بلاغة عند الكاكي . ص 1 ، بغداد ، 1964/1984 ، ص 103 .

ومن أعلامها : قدامة بن جعفر صاحب « نقد الشعر » ، وابن وهب
 لكتب صاحب « الرهن في وجوه البيان » ، وعبد القاهر الجرجاني
 صاحب « دلائل الإعجاز » ، وفخر الدين الرازي (ت 616 هـ) صاحب
 « بهجة الإحاد في دراية الإعجاز » (1) ، وألسكاكي صاحب « مفتاح
 عبود » (2) ومن المتأخرين بدر الدين بن مالك (ت 686 هـ) صاحب « مصباح
 في اختصار المفتاح » (3) ، والخطيب القزويني (ت 719 هـ) صاحب « تلخيص
 المفتاح » (4) ، وبهاء الدين السبكي (ت 773 هـ) صاحب « عروس الأفرح
 في شرح تلخيص المفتاح » (5) ، وسعد الدين الشافعي (ت 792 هـ) صاحب
 « أصول على التلخيص » (6) .

أما مدرسة الأدبية فإنها لا تهتم بالتحديد والتقييم هتده كبير
 وبما جعلت إن ذلك فهي غير تعمق وتقاد والترام للتصحيح ثم بالأصوب
 المنطقية فيه ، إلا أن يكون شيء من ذلك أثرا لعدوى مدرسة
 لكلامية (7) .

ومن أعلامها : عبد الله بن المعتز صاحب كتاب « بديع » ،
 ولعسكري صاحب « الصناعتين » ، وابن رشيق صاحب « النعمدة » ،
 وعبد القاهر الجرجاني صاحب « أسرار البلاغة » ، وأسامة بن منقذ (ت 584)
 صاحب « السبع في نقد الشعر » (8) وابن الأثير (ت 637 هـ) صاحب
 « نيل السائر » ، وابن أبي الأصم العدوي (ت 654 هـ) صاحب « سبع
 القرآن » (9)

- (1) طبع بمطبعة الادب ، القاهرة ، 1317 هـ
- (2) مطبعة دار الكتب ، ط 1 ، القاهرة ، 1356/1937 .
- (3) ط 1 ، القاهرة ، 1341 هـ
- (4) جمع عبد الرحمن البرقوقي ، ط 2 ، القاهرة ، 1350/1932
- (5) ورد مصر شروح السليمان ، ط 2 ، القاهرة ، 1342 هـ .
- (6) مطبعة أحمد كامل ، ط 1 ، 1330 هـ .
- (7) أحمد ميسوب ، الكتاب المذكور أيضا : ص 107 - 108 .
- (8) تحقيق أحمد أحمد تليوي وحافظ عبد المجيد ، القاهرة ، 1380/1960
- (9) تحقيق حمدي محمد شرو ، ط 1 ، القاهرة ، 1377/1957

ونحن لا نكر قائدة هذا التقسيم وربما شرعيه . إلا أنه يشك في
 معيسته كقطار فاصل بين مختلف المساهمات البلاغية . ونحترق من شبح
 مسيحيه التي قد تنحصر عن نفسه . فلتكن سلحتنا . إجمالاً . بوجود تيارش في
 سبيل هربنا نعتد أن كثيراً من المصنفات يصعب إدراجها . دوني . في
 هذا لانه و ذلك فليس نترك . مثلاً . مساهمة المحاضر^١ وهي بحث
 ب وضع عسكري في رموز التعميم إلى المدرسة الأدبية^٢ إن كتيبهم
 تنحصر في تحصيل نهجاً أدبياً فيه كثير من التناقض والانطباع وجمع في مؤلفه
 عيون شعر والتماذج الشعرية الراقية . إلا أن هذا لم يمنعه من استعمال
 اصطلاحات علوم العقلية ومن الاهتمام بالحدود والتقسيمات .

ثم إننا لا نرى كيف يتبنى إدراج نفس المؤلف ، الجرجاني في هذه
 حدة . في الاتجاهين معا . إن « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة »
 مشدودان رغم الفروق الطاهرية ؛ إلى تصور بلاغي واحد ومسيح في
 الدراسة متناسق .

كما أن لنا وثائق من صحة المقاييس التي اعتمدت لوضع بن سدر
 نحدجني مع « أعلام » المدرسة الأدبية ووضع قدامة بن جعفر في لشرق
 لآخر ولا سيما أننا نرى ، في الفصل السابق ، شدة إعجاب لاؤن بالثاني
 ومحاولته التمسح على منواله .

ب اختلاف طرق التأليف ، واختلاف المستوى اللغوي المتحدر للتعبير
 عن لفضاء البلاغية . قد يعتبران . في رأينا ، مظهرا من مظاهر مسيح
 لا أساسه . فليس ما يمسح أن يختلف شخصان في كل ذلك ويعتقد في
 برؤية نفسة التي نسي عليها مؤلفاتهم . برؤية العسكري لا تختلف في
 حورده عن رؤية قدامة ولا أدل على ذلك من كثرة نقوله عنه . و لإحجاء
 عن مناقشته إلا في بعض الأمور التي أخذها عليه اللقاد الآخرون كلامه
 ولدهني جرجاني ويعلق جلها تنطبعه في استعمال اصطلاحات وحروجه
 فيها عن المؤلف تأثيراً بأستاذه ثعلب .

ثم لاستعمال السط للمصطلح فهو الاستعمال الذي يحسن معه قريه
من معنى تخطيط وطريقة المؤلف في تنظيم المادة . وبهذا المعنى يصح أن
كتب : مهما تصائل حفظه من الطرافة ، يستند إلى منهج ويقوم على خطه
مستند . وهذا الاستعمال يؤمن بأن كل مؤلف يتعمد منهج أي أن عدد
منهج على قدر المساهمات .

، اسهج في تصورنا . لا يقتصر على طرائق العلماء في تأليف كتبهم
وتنظيم فصول أبوابها . كما لا يتحدد بالصيغة العالية على درستهم أدبية
كانت أو كلامية . وإنما يتجاوزها إلى تدقيق مآلكهم في لاهتدء إلى
موطن الجودة والفتح في انكلاء واستكفاء المستندات النظرية والمنصب
مبدئية التي على أساسها واحهوا مسألة القيمة الفنية ، وأخرجوا كتبهم
بالصمة التي هي عليها .

ومن تلك الصعوبات ما سبه مصادر العلم ذاته ، فلقد أكدنا ، طيلة
هذا بحث ، على أن المادة البلاعية تجمعت من روافد عديدة ، وأن
موضوعات نشأت متداخلة مع حملة من الأعراض والاختصاصات يعسر
من جرائها ، تمييز المؤلفات البلاغية عن غيرها بل تحديد منهجها ، وبصيح
لأمر أشد عسرا وقت يتمس مبادئ متساقفة كالنقد والبلاغة مثلا .
هذه صعب وقدامة حاولنا ، كل من وجهة نظره . تجاوز موضوعي لأحكام
نقدية لتحديد مفهوم الشعر يرتبط بعبارة ثابت للقيمة يعتمد في الحكم النقدي ،
وفي تمييز جيش الشعر من رديئه ، وقد أمس كل واحد منهما محاولته على
رسم عقبي متصافر العناصر متكاملتها بحيث يمكن اعتباره منهج في نقد
شعر بالمعنى العميق للكلمة . ولكن لنا قدرتي إلى أي حد يمكن اعتبار
هذا النوع من العمل عملا بلاغيا ؟

سبب نقص في هذا الفصل على المؤلفات التي عرفت تصانف البلاعي
بتميز أي تلك التي حاول وضع مبادئ عامة لتقسيم الكلام . وم نرصد

بحسب أدبي معين ، وهو مما سُجِّدَ تواضع واصطلاح لأن في كتب نقد شعر من السدى العامة ، والقوانين المطلقة ، الشيء الكثير كما في تحد مؤلفات سلاعة مدآ من التوسل بالأدب شعره ونثره لوضع مدلتها في تقييم أنكلاء . والتأكد من صحتها وقعايتها مما جعل الكثير منها مصدر من مصادر الشعر الكبرى .

كما أن المادة البلاغية في بعض المؤلفات النقدية لا تشي ، من حيث سكم على الأقل ، عما احتوت عليه بعض المؤلفات الخاصة بالبلاغة . فهي « العمدة » لابن رشيق ما يزيد على مائتي صفحة خصصت لدراسة الوجوه البلاغية دراسة مستبصرة مستنصبة ، يمكن اعتبارها حصيلة ما قبل في تلك الوجوه إلى عهده (1) وهو ما يفسر كثرة إحالاتنا عليه في هذا البحث .



يلاحظ الناظر في تراث هذا البلور ، أن المشعل الرئيسي الذي كان يحركه لعناء للتأليف والنقاش هو البحث عن منهج يربط القيمة الفنية إلى أصول ثابتة ، ويمكن من إيجاد الدعائم المعقولة لإعجاز القرآن ، والأدلة الواضحة عن تفوق أساليبه وطرقه في التعبير على كل أنماط الأدب المعروفة آنذاك .

وإن شجعهم على المضي في هذا النهج تبلور القسم الأعظم من مادة لعلم وشتاره ، بفضل مجهودات البلاغيين الأوائل الذين رسموا لسيح لعناء تلك المادة وأقسامها الكبرى بكيفية يمكن الإضافة إليها لا تدبها . وفعلوا من غاية ما أمكن إضافته وجوه لم يتب إلى وجودها المتفقون ، أو صلاحيات دفعوا معاني بعضها وتفتنوا في تقسيم بعضها الآخر وتفريجه ، وما عدا ذلك من مشاركتهم الأسامية تعثت كما قلنا ، في إيجاد المنهج

(1) طر . المجلد ، 241/1 - 335 و 3/2 - 104 .

نسي بصل المادة بالعنايات لتقوم البلاغة علما يمكن بعصمه اكتاب نفسه
عنى الكتابة .

وقد ظهرت هذه المشاعل التي فرضها تطور البحوث البلاغية دورا في
كثير من المقدمات التي فسرها أصحابها الدوافع التي حركتهم لوضع مؤلفاتهم
يقول ابن وهب مشيرا إلى قيمة كتابه :

« وقد ذكرت في كتابي هذا جملا من أقسام البيان ، وقفرا من آداب
حكماء هذا الشأن ، ثم أسبق المتقدمين إليها ، ولكي شرحت في بعض
قوي ما أحملوه . واختصرت في بعض ذلك ما أطالوه وأوسعحت في كثير
منه ، وأعرض ، وجمعت في مواضع منه ما فرقوه ، يخفف بالاختصار
حفظه ، ويقرب بالجمع والإيضاح فهمه . »

وما دامت الاهتمامات المهجية عالية على جهود هذا الطور من الطبيعي
أن تكون التحولات التي تصيب التفكير البلاغي متصلة بهذا الجانب ، ومن هنا
يمكن القول بأن البحث عن الأسس المهجية لدراسة الكلام وتقييمه هو ، في
نفس الوقت ، رصد لأهم التطورات التي جرت في صلب التفكير البلاغي ،

* * *

ويبدو ، من خلال النصوص التي بين أيدينا ، أن البحث عن المنهج مر
بمرحلتين : مرحلة يشترك فيها كل العلماء قبل الجرجاني ، ومرحلة يستأثر
بها الجرجاني وبعض العلماء الذين حاذوا بعده واختلفوا بمبادئه .

1 - منهجية الدراسة البلاغية قبل الجرجاني : بين « العبارة » (1) و « تأليف
العبارة » (2)

طرح لجاحظ ، وهو يبحث عن مقومات البيان وإعجاز القرآن ، تسمين
منهجيين سيكون لهما أثر في من جاء بعده من البلاغيين . نأخذ من

(1) طر النيركان في وجوه البيان : ص 54
(2) ميسر المصطلحين من كتاب ابن وهب السابق من « البيان الثالث » الموسوم « العبارة »
ص 111 - 304) وياب « تأيد العبارة » يتلى من الصفحة 160 .

أولاً يتمثل في اعتباره المجاز . ولا سيما الاستعارة . ظاهرة تقوم على نشر معنى الكلمة إلى كلمة أخرى في نطاق الرصيد اللغوي الذي يحترمه المتكلم وحدائقه اللغوية وقت الإنتجار القرني ؛ وهذا التصور يضعف من قيمة تركيب والسياق وتلاحم أجزاء الكلام في بناء الوجه المجازي وتوليد ، و . أكد صاحب « البيان والتبيين » هذا الاعتبار النظري ببعض الممارسات النصيحية التي قد ، على رغم محدوديتها وعدم إغراقها في التحليل ، على أنه بالإمكان عزل الأساليب البليغة عن السياق الواردة فيه مما يؤهل أن تلاحظ نص ومكانته في البيان رهينة وجود تلك الأساليب أو أنها هي وحدها التي تحسن طبع البلاغة ، وفي « البيان والتبيين » و « الحيوان » أبواب عديدة أشهر فيها ، هي لمجارات من هذا التصور (1) .

أما الأساس الثاني فهو يقابل الأول ، ويتمثل في تأكيده من جهة هي حسن التأليف بين أجزاء النص والحرص على تلاحم أجزائها وتناسقها . ونصه المشهور في « أحسن الشعر » (2) تناقلته أجيال من البلاغيين واتخذ منه لجزائري حجة شديداً وجهة نظره في بلاغة النص (3) . وتأكيده ، من جهة أخرى ، على أن ممكن إعجاز القرآن وموجب فصله نظمه . ولئن منعنا ضيق مؤلفه الموسوم بـ « نظم القرآن » عن تبين حقيقة ما يدل عليه هذا المصطلح فربما في المتنبهين من آثاره ما يدل على أنه يعني به بنية النص . وتماثل أحزله ، وطريقة صيغتها بحيث تصهر في وحدة ملحمة اشباعاً عضوي ، فمعنى لضم هنا قريب من المقاييس التي افترضها في بنية الشعر .

وعن هذه الأسس نتجت عدة نتائج ساهمت في بلورة مذهب المدونة البلاغية ونعذبتنا بتصورات ستلازمها طيلة الحقبة التي نهما . وفي مقدمة ذلك

(1) ص 476 ، 141/1 - 143 ، والحيوان 33/1 ، 251 ، 323 ، 357 ،

(2) البيان والتبيين ، 67/1 ،

(3) دلائل الإعجاز ، ط المرسى 389 ،

متاح من فكرة العظم كأساس منهجي يعتمد في تحديد خصائص شخص
السر، في سببية . ومنعمل كتب الإعجاز على تطوير هذا الأساس حتى يستقيم .
مع عدد الفاهر . مهجأ أوحدأ صاخأ لتعطيل المستوى الإنشائي في كل مرة
سأ في ذلك القرآن .

أما النتيجة الثانية فتتمثل في هذا المنحى التردوج الذي ملاحظه في مؤلفات
بلاغيين من الحرجاني عند مباشرتهم تحليل بلاغة الكلام وأنواع الأساليب
وتعبير النصية ويتمثل هذا الازدواج في ترددهم بين أهمية « العبارة » وأهمية
تأليفها حسب عبارة ابن وهب أو بين دلالة « الإسم أو الصفة » ودلالة
التأليف » - حسب عبارة الرماني (1) -

وقد انعكس هذا التردد على مؤلفات هذه الفترة بكيفيات متشعبة ، فابن
وهب لكتب يبدأ باب « العبارة » بالتأكيد على ضرورة فهم اللغة ولا يستبعد
ما يدور حوله لفظها (2) وخلق أفعالها ومعانيها وأحكامها حتى يتسنى تمثيل
ما نزل به القرآن ، وجاء بها عن رسول الله من بيان ، ثم يتطرق بسبب ذلك إلى
ضبط « أقسام العبارة التي يتساوى أهل اللغات في العلم بها » (3) ويعني بها
لمظاهر الثبوتية ولقارة التي تمثل الجذع المشترك بين كل الأنظمة اللغوية التي
توضع عليها البشر . والتي يرد استعمالها بنفس انكسارية . وفي أعقاب ذلك
يهتم بسبب هو خاص بلسان العرب دون غيره ويشمل الاشتقاق ، والتشبيه ،
وسجع ، والتمريض ، والرمز ، والوحي . والاستعارة ، والأمثلة . والجنس ،
والخذف ، والمصرف ، والمبالغة ، والقطع ، والعطف ، والتقديم والتأخير ،
والاختراع (4) .

(1) السك في إعجاز القرآن : خمس ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، ص 106 - 107

(2) البرهان في وجوه اليك ، ص 112 .

(3) المسر السابق : ص 122 .

(4) البرهان في وجوه البيان ، ص 130 - 158 .

وفي هذا التسميم ميل واضح إلى إحصاء التعابير البيانية والمحسّات للمعصية .
وحديث كبير لتعريف بها ، ووضع ما يناسبها من المصطلحات ، وإيراد
شواهد لتي تعبس على استجلاء خصائص الجودة فيها ، وليس بدت هذه
مظهر مذكورة متواضعة في هذا المؤلف إذا قيست ببعض المذولات المتأخرة
كمحدوث العسكري أو المختاحي ، فإنها تكفي لتعبير عن مشاعر في
مؤلفات توفيق الرابع ، والخامس ، أساسه إرساء قوانين نقد الكلام وصناعاته ،
ووضع مؤلفات همتها تنظيم المادة ، وتقسيمها إلى أبواب ، وضبطها بحدود
تجعل منه قوائم جاهرة لقيس البلاغة . فالبلاغة « حسب ما يفهم من (هذا
تسميم) هي في العبارة والكلمة لا في التركيب والسياق وتلاحم أحراء الكلام ،
لذا تسمى لتبويب وتوضيح إمكانية التفيد في ميدان ينخفض قبل كل شيء
لإرادة متكلمين وقدرته على التصرف في منطيات اللغة وإشكاليته » (1) .

إلا أن المؤلف لا يقف عند هذا الحد ، فبعد أن استعرض الأسباب
والأوجه التي سبقت ، ينتقل إلى قسم ثان من الباب ، سميته باب « تأليف
العبارة » وهو عنده ضربان : منظوم ومسور . ولعل « أهم » ما جاء في هذا
باب نصريحه بأن البلاغة تقع في التأليف . وفي الشعر والنثر جميعا تقع
البلاغة والهي ، والإيجاز والإسهاب » (2) .

وكانه ينقش بهذا القول تصنيفه السابق . ويؤكد على أن دراسة الأبواب
منفصلة لا نفع لأن البلاغة لا يمكن أن تكون إلا سياقية وفي إطار ذلك التأليف .
وبعد حديثه عن حدّ البلاغة ، في هذا القسم ، شامدا لما قلنا ، وقد كان حريص
فيه على برر مفهوم النظام إلى جانب مطابقة اللفظ للمعنى وحسن اختياره مع
مصلحة حسن ، وحددا عتادا القول المحيط بالمعنى المقصود . مع احتبار
الكلام ، وحسن النظام ، وفصاحة اللسان » (3) .

(1) عبد الله دو الميري ، المقال المذكور ، ص 84 .

(2) البرهان في وجود البيان ، ص 161 .

(3) مقصد السابق ، ص 175 - 181 .

وقد جمع المؤلف في هذا الباب كثيراً من مقاييس جودة الشعر كصحته
 لينة وحسن سظام وحرارة اللفظ والإصابة في التشبيه والمطابقة والمشاكلة (١) .
 كما جمع خصائص المتنوع بقسميه الخطاطة والتمثيل (2) فذكر من معقولات
 المحصلة السجع ، وجهارة النصوص ، وسلامة اللسان ، ومن معقولاتها خصر
 والتصحیح (٣) .

وسيتقدم هذا التصور المزيج في المؤلفات المتأخرة كـ «الكتف»
 «عجرب القرآن» للرماني وكتاب «الصناعتين» للعسكري و«سر النصوص»
 لابن سناء الجفاجي ، وهي مؤلفات تطلب عليها نزعة الإحصاء والتبويب
 والتحديد ، فرساة الرماني المذكورة تكاد تقتصر على دراسة أقسام «بلاغة
 بعثرة» ، كما حددها ، وهي : الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلازم والتفويض
 والتجانس ، والتصريف والتصميم والمبالغة وحسن البيان (4) . وهو يتبع في
 استعراضها نفس النمط ، فيبدأ في الغالب بتعريف الوجه ، وذكر أقسامه
 والإشارة إلى دوره المعنوي بالاعتماد على نماذج قرآنية . وفي الباب الأخير ،
 وهو باب البيان ، يلقي الرماني بفكرة على غاية في الأهمية وهي تتعلق بتقسيمه ،
 الدلالات اللغوية إلى قسمين . دلالات تؤديها الوحدات اللغوية معصية وقد
 سماها « دلالة الإسم أو الصفة » ودلالات تؤديها متصلة وسماها « دلالة
 تاليف » . والمقصود بهذا الترخ الثاني من الدلالة الأحكام الخاصة من تعيق
 أقسام لكم بعضها بعض كدلالة « الملك » في الإضافة ، مثلاً ، فهي تقع
 « من غير ذكر له باسم أو صفة » (5) . وقد انتبه الرماني إلى أن دلالة المعجم
 تقف عند نهاية معلومة بما دلالة التاليف غير متناهية إذ في مقدور مستعمل

(١) البرهان في وجوه البيان ، ص 191 - 304

(2) مصدر التبع ، ص 208 - 215

(3) الكتف في عجاز القرآن ، ص 76

(4) مصدر التبع ، ص 107

(5) « ، ، ، ص 107 .

للغة أن يقيم بين وحدات رصيده المحدود علما لا يحصى من علاقات
ومر به أناس قد رد مفارقة طريفة بين التأليف وبين الممكن من العدد : ولممكن
من العدد مضيق ، لا يحيط به حد ، كذلك التأليف ، ومن ثمّ يستحب أن
يقول شاعر قصيدة متى أن قلت ، ولأجل كل ذلك اعتمدت عند ترتيب
على حد موع من الدلالة :

لا وئيب في الكلام لا يحلو من أن يكون باسم أو صفة أو تأليف مز
سم نسمي أو صفة كقولك : غلام زيد ، فهذا التأليف بدل عن بيت من
غير ذكر به باسم أو صفة (.....) ودلالة الأسماء والصفات متشابهة فأما
دلالة التأليف فليس لها نهاية ، ولهذا صار التحدي فيها بالمعارضة لتعبر
المعجزة ، ولو قل قائل . قد انتهى تأليف الشعر حتى لا يمكن أحد أن يأتي
بقصيدة ، لا وقد قيات فيما قبل لكأن ذلك باطلا ، لأنّ دلالة التأليف ليس بها
نهاية كما أن الممكن من العدد ليس له نهاية يوقف عندها لا يمكن أن يرد
عليها (1) .

وهذا التحليل ، المنظور نسبيا ، لمكرة التأليف سيكون من التبينات التي
تساعد الجرجاني على إرساء فكرة المظم على أسس نظرية متينة وتمددها خطوة
بمسك بها به لجام الألفاظ وزمام المعاني (2) .

وم يحل كتاب الصناعتين ، رغم طغيان ظاهرة التثويب والتعريف
عنه ، من معضيات تنمق بالتأليف والمظم ، فقد تواتر فيه استعمال مصطلحات
لتأليف وتركيب والرصف والصوغ والسبك والمظم والمسى وما إليها (3) .

(1) نكت في إعجاز القرآن ، ص. 107

(2) فسد هذه الصورة من نص الخطابي جاء به . وأما رسوم المظم فاجتهد إلى التعميم
وعدد هو أكثر ذات لجام الألفاظ ورسوم تدني وبع قسّم أمراء الكلام ، ويسم
بعض بعض فنون له صورة في النفس يشكك بها القائل .
أمر بين إعجاز القرآن ، حسن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، ص 36

(3) نظر مثل صفحات 7 ، 61 ، 63 ، 64 ، 167 . .

وقد حرص مؤلفه الباب الرابع للبيان « على حسن المظم ووحدة الرصف وانسك وخلاف ذلك » (1) . كما نراه يُلحّ . كلما تحدث عن الأحكام العامة في وحدة الكلام . على مفهوم الوحدة واتساحم يقول مثلاً :

« الكلام - أيدك الله - يحسن بسلاسته وسهولته وبصاعته وتخير ألفظه وإحصائه معناه (...) وحسن رصفه وتأليفه وكمال صوغه وتركيبه » (2) .

ولا شك أن اهتمامه بهذا الجانب راجع إلى حرصه على الإحصاء بأسس لصيرية لأدبية كما وقع طرحها في المؤلفات السابقة وإلى ربطه العامة بقصى بعدم البلاغة بمعرفة وجوه الإعجاز (3) .

كما أولى الحماسي التأليف أهمية كبيرة رغم أن عنوان كتابه يوهم بأنه يركز حديثه على اللفظة مجردة من جهة تتأسق بآلها الصوتي ، وجريانها في الاستعمال على قوانين اللغة ، وما إلى ذلك من المقاييس التي حددت بها فصاحة اللفظة ، وقد سبق أن بينا الأبعاد التي يجري فيها مصطلح الفصاحة في مؤلفه وانتهينا إلى أنه يتناول فصاحة اللفظة وفصاحة الكلام مؤلف (4) .

إلا أن هذه المعطيات بقيت ، على أهميتها في ذاتها وقيمتها التاريخية كترسبات منهجية سيُستهد تراكمها السبيل لرؤى نظرية الطم عند الجرجاني ، بقيت اعتباراً نظرياً لم يولد في هذه المؤلفات نتائج منهجية دلت بال لأن أصحابها لم يبتدوا إلى سبيل الربط بينها وبين ما صنف من أسواب ووجوه فجاءت وكأنها باب من جملة أبواب أخرى ومقاييس كمية المقاييس التي اعتمدها لتقييم الكلام ، فبقي الغالب على طريقتهم « تشكيل نص لمرن لأساليب التي تعتبر وحدها حاملة للبلاغة » (5) .

(1) ص 167 وما بعدها .

(2) الصواعيق ، ص 161 .

(3) انظر ن كيد لذلك المصدر السابق ، ص 2 .

(4) ص 161 الفصل في البلاغة والبيان .

(5) عبد المودر نهيري ، مقال المذكور ، ص 94 .

وأسس الرئيسي في أن "لم يتخلوا منها منهجا للبحث عن أسرار البلاغة هو ، في نظرنا ، غياب البعد النظري الفلسفي والظنوح المفكرى عند هؤلاء البلاغيين ، فليس في مؤلفاتهم ما يدل على أنهم يدافعون عن نظرية أو يتصرون بموقف فكري معين ، وحتى المواقف التي اشتهرت عن بعضها فهي لا تخرج عن حيز البلاغة ذاتها كالتصاير شق منهم للفظ ، وشن آحر للمعنى ، أو احتلالهم في تحليل بيت أو تخريج وجه . لذلك انحصرت مقاصدهم في لغرض التعليمي وكان شغلهم الشاغل مد المستعملين بقوالب جديدة يمكن حفظها ، أو تدوينها في كتابيش لاستعمالها وقت الحاجة . ولعل أحسن من عبر عن استنتاج التي أدت إليها هذه الطريقة في تصور قضايا البلاغة قول الباقلائي .

« وأنت ترى أدباء زماننا يضعون المحاسن في جزء ، وكذلك يؤلفون أنواع البرع ثم ينظرون فيه إذا أرادوا إنشاء قصيدة أو خطبة فيحسنون به كلامهم » (1) .

وإذا ما يتوفر هؤلاء توفر لعبد القاهر الذي استطاع أن يبني طريقة في تحسين الكلام على رسم عقلي مسبق وموقف نظري قائم على أسس معرفية واضحة مؤداها « أن قضايا العقول هي القواعد والأسس التي ينبغي غيرها عليها والأصول التي يرد ما سواها إليها » (2) وبذلك استطاع أن يطور فكرة لنظم ويعتمدها منهجا فذا في تحليل أسرار البلاغة ودلائل لإعجاز مع واستخلص عن الثنائية التي كانت قائمة في مؤلفات أسلافه بوحدة التصور والتميز .

(1) انظر إعجاز القرآن ، ص 111 .

(2) لموسى البلاغة ، ص ، استبول : 1954 ، ص 345 .

2 - نظرية النظم عند الجرجاني

أ) المجلدات التاريخية :

لش اقترنت نظرية النظم باسم الجرجاني واعتبرت سمة لئلا عنه فإن
 جده هـ عيسى (1) في التبراث العربي ، ولا سيما في مؤلفات لشعويين
 و ملاعين ومؤلفي كتب الإعجاز . إلا أن اعتمادها أساساً قارئاً في لتجيب
 يرجح ، متى استشينا ونظم القرآن ، للجاحظ ، إلى القرن الرابع عندما ازدهرت
 دراسات إعجاز القرآن في بيئة المتكلمين من أشاعرة ومعتزلة بصفة خاصة ،
 وقد ذر تعددت المؤلفات التي تشير عناوينها إلى النظم والتأليف واستهوت
 بالإعجاز . ولكن من هذه المؤلفات ضائع تذكرها كتب الترجمة وتكاد لا
 تفوق شيئاً عن محتواها فمن الكتب الضائعة الموسومة بنظم القرآن ، نذكر
 كتباً حسن بن علي بن نصر الصوسي (ت . 313هـ) (2) وعبد الله بن أبي دود
 سنجستاني (ت . 316هـ) (3) . وأبي ريد النحلي (ت . 322هـ) (4) ، وأحمد بن

(1) من أقدم النصوص المعروفة بصي ليد أن في النظم في الأدب الصغير يتأثر فيه بين صفة
 القول وصفة الذهب والفضة ، وقد اقترنت كلمة النظم فيه بالملأه والسمود والأكيل ،
 وكتب عيارت يتأكد بها تشبه بين نهم الكلام ونظم الجواهر وينسحب المهرم بنظم
 منه في وصف الألمان مواضعها كما يصح الصانع كل قوس في موضع وعتبار لتسبب
 جور واللائحة بين الأحداث ليفتقر تشبه بئيه

وبن مذهب شفي المنهري الإيجاب في منه نظم ، بعد موثقاً عليها أثره طابع الترمذ
 والصيغة لسيار على التكدب ، ويشتر في قوله بأن لا فصل لنهم الكلام في اختراع
 أو نهم ، لا يجني ما يؤلف من كلام سائيه وهو فهم ستانكي أقرب من حسن
 الرصاف إذ معنى النظم ولا يتم عن نهم في فهم الصلحة القديمة انظر لآدب الصغير
 ، ص 6 ، مصر ، 1911 ، ص 6 - 5 . وقد جمع نهم النظم في كتب نظرية
 النظم آراء النظم قبل الجرجاني ، ودتها قريباً تاريخياً ورداً لنظم أو نصوص التي
 نهم ، في رأي ، عن موقف الشخص من القضية ، ولش كان هذا عمل وصيغة عن
 صفة ، نهم حاز من التحليل والشرح ثم إنه يورد أحاد نصوصاً ثانوية ويسمى نصوص
 منه مسروقة مثال ذلك أنه يذكر أهم نصوص قرعاني في النظم رغم أنه نهم مسروق
 مشهور ، انظر الكتب في إعجاز القرآن ، ص 106 - 107 وقدره بها ورد في
 هذا الكتاب ص 17 - 18

(2) جيفت لشعوي ، الدودي ، تحقيق إبراهيم محمد عمر : بغداد ، 1972

(3) تاريخ بغداد . البغدادي ، ط دار السادة مصر . 1931 ، 464،9

(4) ليد ، واختر ، لشعوي : تحقيق إبراهيم الكيلاني ، دمشق (د . ب .) ، 1979

عني بن إحيى (ت 326هـ) (1). أمّا الكتب التي جمعت في علومها ،
 الإعجاز والنظم فيذكر منها بالخصوص وإعجاز القرآن في قصمه وتأليفه ،
 محمد بن يزيد الواسطي (2) . وقد تكون مكانة هذا الكتاب ، بين هذه
 تصنيف من التأليف ، هي التي دعت الجرحاني إلى الاعتناء به وتحصيله
 بشرحين ، وقد ضاع الأصل والشرحان .

ومن كتابنا نجهل كل شيء عن هذه الكتب ، فإننا نميل إلى الاعتقاد
 بأن مصمونها ، وطريقة تأليفها لمسألة النظم ، لا تختلف كثير عن مؤلفات
 إعجاز القرآن التي وصلتنا كرسالتَي الرّماني والحطّابي وكتّابي «عجّاز
 لقرآن» للباقلاني والقاضي عبد الجبار .

فكيف ربطت هذه المؤلفات بين النظم والإعجاز وما هي الآراء التي يمكن
 اعتبارها مهتدة السبيل لعبد القاهر بلورة مفهوم النظم وإرسائه على أسس ثابتة .

قبل لإجابة عن هذا السؤال بيدي رأينا في نص "نظن أن" الدارسين
 خرجوه عن وجه يسكن مناقشته . وهو النص الوارد في «ادعي» بقاضي
 عبد الجبار حكاية لرأي شيعه أبي هاشم الحنّابي في النظم . يقول :

« قد شيخنا أبو هاشم إنما يكون الكلام فصيحاً لجزالة لفظه
 وحسن معناه ولا بد من اعتبار الأمرين . لأنه لو كان جرح اللفظ ركيباً
 لم يعد فصيحاً ، فإذا يجب أن يكون جامعاً لهما الأمرين ، وليس
 فصاحة الكلام بأن يكون له نظم مخصوص ، لأن التخصيص عندهم قد يكون
 أوضح من تشعر . والنظم مختلف ، إذا أريد بالنظم اختلاف الطريقة . وقد
 يكون نظم واحداً ، وتقع المزية في التصاحف . فاعتبر ما ذكرناه ، لأنه سي
 يتبين في كل نظم وكل طريقة » (3) .

(1) النجاشي ، لا يرد : مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، (د.ت) ص 63 .

(2) المصدر نفسه ، ص 63 .

(3) نفي في أبواب التوحيد واتحاد ، 197/16 .

واستبح بعض الباحثين من هذا النص "أن" النظم - في رأي أبي هشيم
 « لا يصلح أن يكون مفسراً لقصاحة الكلام » (1) بلون ان يستهو
 يشهوا - إنَّ المعنى الخاص "المستعمل فيه المصطلح في هذا السياق" وهو
 معنى بعيد عن معنى النظم والتعليق وتأليف الكلمات في حسن والجمل في
 فقرات وما إلى ذلك. فالنظم في هذا النص معناه الجس الأسي أو الشكل
 لأدبي كخطابة . والشعر . ولما كان غرض أبي هشيم من
 لقوانين لعدة التي « تبيين في كل نظم وكل طريقة » أي القوايين التي يمكن
 أن تستطبق على مختلف أجناس الكلام وأشكاله فمن أن تكون طريقة
 لمخصوصة في الكتابة معياراً للإلاغة . وهذا الموقف قريب من موقف جميع
 البلاغيين العرب الذين كانوا يحنون عن جودة الكلام بقصع النظر عن
 الخصوصيات اللاصقة بطرق تأليفه نظماً أو نثراً .

وقد بقيت بعض معاني النظم عند الباقلاني متأثرة بهذا التصور مثل ذلك
 قوله : « إن نظم القرآن على تصرف وحوه وتباين مذاهبه حارج عن المعهود
 من نظام جميع كلامهم ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم » وله أسس
 يختص به ، ويتميز في تصرفه عن أصاليب الكلام المعتاد . وذلك أن الطرق
 التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم ، تنقسم إلى أعاريض الشعر ، عن اختلاف
 أنواعه ، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى ، ثم إلى أصناف الكلام
 المسجّع المعدل ، ثم إلى معدل موزون غير مسجّع ، ثم إلى ما يرسل برسالة
 فتصت فيه الإصابة والإفادة ، وبفهام المعاني المعترضة على وجه بديع (. .)
 وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه ومباين لهذه الطرق » (2) .

فواضح من هذا النص أن الباقلاني يستعمل « النظم » و « النظام » مرادف
 لصور الشعر والنثر التي صاغ العرب عليها كلامهم وأدبهم ، لا بمعنى منهوي

(1) ص ٢٢٠ حاتم القضاين ، كتاب المذكور ، ص 21 .

(2) إعجاز القرآن ، ص 25 .

الذي سراه سد عند القاهرة . ولا يعني هذا أنه اقتصر في استعماله على هذا المعنى وإنما هو وجه من وجوه تفسير « حملة » الأشعرين التي حصر لها نقض شاذ من كتابه وحي قولهم إن القرآن « بديع العظم » عجب السليف منه في سلاعة إلى الحد الذي يُعَلِّم عجزُ الخلق عنه « (1) . وفي « عجر بقرت » وغيره من مؤلفات الباقلائي الأخرى سياقات تؤكد أنه كان يعمد النظم بمعنى تأليف العبارة وبناء النص « تراعى فيه العلاقات ، وملاءمتها بوضوح الشيء وصعوت فيها ، من ذلك قوله في المعنى الثالث « جملة » الأشعرين المذكورة : « إن عجب نظمها : وسيع تأليفها لا يتدوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجه التي يتصرف فيها » (2) . ويتأكد هذا المعنى في كتاب « التمهيد » حيث يقول : « ليس الإعجاز في نفس الحروف وإنما هو في نظمها وإحكام رصفها وكونها على ما أتى به الشيء ، صلى الله عليه وسلم ، وليس نظمها أكثر من وجودها متقدمة ومتأخرة ومترتبة في وجود وليس لها نظم سواها » (3) . كما اعتبرت ما في القرآن « من عجب استظم وبديع الرصف » أحد مظاهر الإعجاز وحجة من حجج النبوة (4) .

أمّا القاضي عبد الجبار فقد حلتص المصطلح من الملابس المعنوية التي حفت به في استعمال الجبائي وبعض استعمالات الباقلائي وكرسه للدلالة على ضيق التركيب بعوي وكيفية صم أفراد الكلمات . وقد اعتبره من أهم مقومات لفصاحة تأثيره في صفة الكلام والمفظ معا : « اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام ، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ولابد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صيغة » . وقد يحور في هذه النصفة أن تكون بالمواصفة التي تتناول الضم ، وقد تكون بالإعجاز

(1) « عجر القرآن » نفس الصفحة

(2) مصدر - بر - ص 36 .

(3) التمهيد تحقيق ماكزتي : بيروت ، 1957 ، ص 151 .

(4) نكت الانتصار لقتل القرآن ، تحقيق محمد رطلول سلام ، الاسكندرية .

1971 ، ص 99

كسبي له مدخل فيه ، وقد تكون بالوقع وليس لهذه الأقسام ثلاثة
واسع « (1)

وكما كان النظم مسبب فصاحة الكلام فهو الوجه الذي يقع به مفصل
في الفصاحة ولا بد للأديب الذي يروم سبق غيره أن يعلم أفراد الكمات
ركيحية ضمها وتركيبها ومواقفها ، فحسب هذه العلوم والناظر فيها يتخصص
ما يصح منهم من رتب الكلام التفصيل « (2)

ثالث هي أهم معاني ، النظم « الرائجة في أوساط المهتسين ، عذر لترا
قبل عبد القاهر ، وتجمع بين القائلين بها عدة خصائص . منها أنهم تعرضوا
بمفصل في صورة مجمل . ولم يعطوه مضحونا مبطوطا ملموسا ، ولم يحدوه
تحليلا يورث يكشف عن طاقات اللغة ، وما توفره للاستعمل من إمكانيات
التركيب والتأليف ومحاولات الوصف والتعريف التي قد يصدها البحث
في مؤلفاتهم لا تخرج عن أحد أمرين . فهي إما تفسير بتردوف يفترون
بموجبه لفظ « النظم » بالمعنى القريبة من معناه كالصمم والتركيب وترتيب ،
وهذه الطريقة تساعد على فهم مجمل المعنى ولكنها لا تشير إلى محتوى معنوم ،
وإن تفسير من زاوية ضيقة يصعب إزاء المصطلح ويحدد محله . مثل ذلك
قول الخطابي في تعريف بلاغة النظم أنها « وضع كل نوع من الألفاظ التي
تشتتم عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به » الذي قد أورد مكنه
غيره جاء به إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام . وإما ذهب
برونق الذي يكون معه سقوط البلاغة « (3)

وعند هذا الحد من البص يبدو التعريف مقبولا لأنه يفتح أمام القارئ
باب لتأويل والاجتهاد لكننا نكتشف ، عند مواصلة القراءة ، أنه يقصد

(1) أممي في أبواب التوحيد زعميل ، 16/199 .

(2) إعجاز القرآن ، 16/208 .

(3) بين إعجاز القرآن خمس ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، ص 29

فصية حريته هي الإلحاح على ضرورة مراعاة الفروق بين معاني لألفاظ تدور حوله في اللغة كالعلم والمعرفة ، واخذم والشكر وما إليها . وهذه مسألة هامة لا تكرر ولا يمكن اعتبارها مظهرا أصاميا يستقيم ، بمرادها ، استقامة رأيكم معه . ويترك أصحاب هذه الآراء في علم اكتسابهم مستقيم سبيل فصاحة الكلام وبلاغته فالقاضي عبد الجبار . مع قوله دأبهم لا يشمل حصص من شط الفرد التي يعبرها شرطاً من شروط الفصاحة . ، ولا يكون الكلام فصيحاً إلا بحس معناه وموقعه واستقامته كما لا يكون فصيحاً ولا بجزالة لفظه (1) .

وآرؤه في الفصاحة لم نتخلص من التفسيرات اللغوية المثارة بمعتقدنا بدائي ، فتوفى المتكلم إلى صياغة فكرته صياغة جيدة ليس مرداه العلم بمرادها ووجوه تصاريح اللغة وطريقة صم أفراد الكلام فقط . إذ لا بد مع ذلك من « تأييد وإيضاح » يرد من قبل الله تعالى ، ولذلك نجد المتكلم يروم طريقته في الفصاحة فتتوحد على مرة وتبعد أخرى وحدة في نسم بأفرد الكلمات وكيفية صمها وتركيبها ومواقعها / لا تكاد تتشعب . وإنما كان لذلك لأن لطائف هذه الأمور تحصل بعالم الظن وإن كان ظاهرها يحصل بالعلم . وأنت تعرف ذلك في الكتابات ، لأن لطائف ما قصير به أشكال الحروف على نظام مستقيم حسن لا يصطبها الكاتب ، وإنما يعرف لجس من ذلك . وفي التخصيص يفرع إلى غالب الفض لأن الله تعالى لم يقرر في حقوق علوم الضرورية بهذه اللطائف وإنما قرر فيها العلوم بالحدس بشيء أو عهد الممارسة (2) .

(1) عمي في أبواب التوحيد والعدل : 357

(2) تصور السابق ، 203/16 . يطرح تعاملي عند الخيار في هذا المعنى مسألة دقيقة تدور في حده أن يصرح بوقوف المتكلم إلى صياغة فكرته صياغة جيدة ، أو لا . وهذه بوجه من ذلك ، أحيانا أخرى ، مع أن علمه بمواصفات اللغة لم يتغير . وهو صرح بشره فصيح عم ومساء من مسائل الفقه تشاكته التي لم تنص إلى علوم وتصور بمعرفته الدد يأتي من بعض الدرس شعر والأدب ولا يتنق من بعضهم الآخر .
وإن أحاد أشد تعريبي ، غير أن حريتي عن سؤال وحديث مشابهة ودهد ذلك .

كما يدخل مفهوم « الاتفاق » لتفسير ظاهرة مطردة في الأدب وهي
 ثبوت كلام « المتقدم » في الفصاحة . وإمكانية أن يقع في كلام من هو
 دونه ما يساوي كلامه بل يزيد (1) . وفي بعض نصوصه التي تحتاج
 سورة من طريق الإعجاز اللغوي آراء شبيهة بآراء أثنائين « بالمصرحة » من
 بعض الوجوه ، ذلك أنه لما تطرق لمراتب الكلام في الفصاحة وأراد البحث
 عن السبب الذي من أجله فاق القرآن غيره من الكلام . وحار قومه ديباً
 على نبوة مرسله . أقر بأن لقوة الإلهية بداي إنهاء طاقة لشر على
 الفصاحة والبراعة إلى غابة معلومة ، وحلود مخصوصة ، فإذا رد ما جاء به
 المدعي للنبوة على تلك المرتبة صار بمثابة المعجزة ، يقول :

« (...) يعلم أن مع وقوع الاشتراك في المعرفة باللمعة ، قد يتأني عن
 أحدهما الشعر والخطب ، ولا تتأني من الآخر . ومن يتأني ذلك منه فقد
 تختلف حاله فيصبح من واحد ما لا يصح مثله من الآخر ، ويتفاضلون فيه ،
 وهذه طريقة مشهورة ، فلا يمتنع إذا كانت الحالة هذه ، أن يصير المفضل
 فيه نهايات فيجري الله تعالى العادة نهاية منه مخصوصة ، دون ما زاد عليها
 فإذا اتفق مع المدعي للنبوة ما يريد على تلك النهاية بمرتبة أو مراتب يصير
 ذلك بمنزلة إحياء الموتى في الدلالة » (2) .

« نك » هذه الآراء سندع الجرجاني إلى تعميق فكرة النظم « وبيان
 أمره وبيان المزية التي تدعى له من أين تأتيه ، وكيف تعرض له وما أسباب
 ذلك وعنده وما الموجب له » (3) .

« ملكة » و « التبريعة » و « الطبع » و « النعمة » . وجواب القاضي عبد العزيز الذي
 نجاه ديباً ، بمعنى أنه لا يمتنع كتحقيق الخطي المقسوط ، لا يختلف من هذه الأهمية
 من حيث يشترك معها في التقييم بأن البلاغة والتفقه لا يكسبها تفهم صلبة حتى انفسى من
 جميع جوانبها إلا أنه ألق ، أكثر من غيره ، على الجانب أثنائين الذي لا المص و رد
 في كتاب وضع للاعجاز القرآن بناء على فكرة أساسية هي « المبدأ » أو
 المراتب وقد اتفق من ذلك ادعاء الانطاف الإلهي وتوقيفه لتفسير هذه قدرة لادب ، في
 الأمر إلى نهاية معلومة وريادة القرآن على تلك النهايات بمرتبة أو مراتب

(1) انعمي في أبواب التوحيد والعدل ، 16 / 274 .

(2) المصدر السابق ، 16 / 192 - 193 .

(3) دلائل الإعجاز ، ط. المنار ، ص 63 .

ب. انتظم في « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » :

عمد حمزة مؤلفي الحرجاني من تخطيط محكم يسهل به إبراز مكانه سطحه في تفكيره فإنه بالإمكان . بالتصرف في صياغة مادته . واعتماد على بعض إشارات المتعلقة بالتخطيط والواردة في المتن (1) . تحديد ثلث مكانه وهو مصنفه غير نهائية

فكل عمل بلاغي يروم تحديد قيمة الكلام الفنية وسد عنها لا بد له حسب الحرجاني - من أن يدور على قطبين رئيسيين هما « حسن المزية » و « أمر المزية » وفيهما تتجلى كل جهود البلاغة في « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » فالبحث عن « حسن المزية » توأمت عنه كل سياقات واحتجاج التي أوردتها للرد على الذين علقوا المزية باللفظ دون معنى أو يدعو في تقدير قيمة اللفظ على حساب المعنى وقد اضطره هذا بحث عن البحث عن أسس نظرية تدعم تصور القاصي بأن البلاغة وعصاها بما هي في « الأحكام التي تحدث بالتأليف والترتيب » (2) ولعل من أهم لأسس التي هي عليها هذا التصور نظريته في اللغة والكلام وموقع الدراسة البلاغية بالنسبة إلى هذين المحورين .

(1) بعد ترتيب إعادة البلاغية في مؤلفي الحرجاني لا يخلو من دائرة ومع ذلك م بر ، في حدود ما حدد عليه ، من اهتمام بهذا المذهب ورغم وفرة الإشارات المتعلقة بالتخطيط في مؤلفي ، تدكر على سبيل المثال قوله في أسرار البلاغة ، واعلم أن الذي يوجب به أمر المزية ، به التفكير ، أو يبدأ بجملة من قصود في الحقيقة والإعجاز ، ويضع ذلك التصور في تشبيه والتشبيه ثم يفسر ذلك الاستمرارية عليهم . وماتى بها في أثر هذا رد ذلك خبر أهم من الاستمرارية . ولما أحب في قصائد المراثي أن تبدأ بالعزم قبل أحسن التشبيه كالأصل في الاستمرارية وهي تشبيه بالفرح له أو صورة معتصبة من صورة ، ط . حمزة ص 121 - 122 .

(2) دلائل الإعجاز ، ط . ابن ، ص 57 ، ويبدو من تصور القاصي أنه يفتقر مصطلح « حسن المزية » على كل الأحكام التي وضعت بها بلاغة النص من قبل مؤلفي « كلام حرج » ، بل يفتقر إلى « وادعني صحيح » و « غريب » من حرج . محاولة شرح هذا التصور في مرجع التأليف والالتفات .

ثم « أمر المزية » فهو علمه تبحث عن الأسس التي كان من أجلها الكلام هو تلك نصه ومجموعة لتليل الأحكام بالبراهين المعينة

مَنْ لُحِثَ عَنْ أَمْرِ الْمَزِيَّةِ ، فَقَدْ انْطَلَقَ فِيهِ مِنْ تَقْسِيمِ طَرِيقَتِهِ لِمُتَعَدِّينَ فِي تَحْدِيدِ حَصَائِصِ الْكَلَامِ الْبَلِغِ ، وَيَعْلَبُ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ ، فِي رَأْيِهِ ، لَا طَلْعَ ، وَ لَا حَسْرَةَ ، وَ لَا حُزْنَ ، وَ لَا تَقْدِيرَ عَلَى إِحْرَاسِ ذَلِكَ لِاحْتِسَاسِ مَنْ حَسَرَهُ ، مَصْعَرٌ إِلَى حِزٍّ وَاضِحٍ جَلِيٍّ ، وَلِذَلِكَ عَوَّلُوا عَلَى الْأَحْكَامِ مَحْمُودَةٍ لَّتِي لَا تَعْصِدُهَا دَرَاهِكُ وَلَا يَبْرُدُهَا يَدَيْنُ ، وَقَدْ دَهَبَ الطَّنْجُ عَنْهُمْ بِأَنْ بَاعَةَ لَا تَقْوَى عَلَى تَصْوِيرِ الْخَيْرِ وَتَعْيِينِهِ فَاسْتَفْهِمُوا بِالتَّلْوِيحِ وَبِإِشْرَةِ ، وَلِحَرْجَانِي عَيْرٍ مُفْتَنٍ بِوَجْهَةٍ نَظَرَهُمْ لِذَلِكَ عَمَّرَ فِي أَكْثَرِ مَنْ مَوَظَّنٍّ عَلَى صَرُورَةٍ تَحْدُودِ الْإِنْطِبَاحِ فِي الْحُكْمِ الْأَدَبِيِّ بِالتَّحْلِيلِ وَإِرْسَاءِ الْأَحْكَامِ عَلَى أُسُسٍ عَقْلِيَّةٍ بَرَهَانِيَّةٍ تَحِيطُ بِهَا الْعِبَارَةُ وَتُكْشَفُ عَنْ مَكُونِهَا لِأَنَّهُ «لَا يَبْدُو» كُلُّ كَلَامٍ تَسْتَحْسِنُهُ ، وَلَعَلَّ تَسْتَجِيدَهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَا تَسْتَحْسِنُ ذَلِكَ جِهَةً مَسْئُومَةٍ وَعَنَّةً مَعْقُولَةٍ ، وَأَنْ يَكُونَ إِلَى الْعِبَارَةِ عَنْ ذَلِكَ سَبِيلٌ وَعَنِ صِحَّةِ مَا ادَّعَيْنَاهُ مِنْ ذَلِكَ دَلِيلٌ (1) .

فَالْوَصْفُ الْمَجْمُلُ عَيْرٌ كَافٍ لِأَنَّهُ يَحْجُبُ عَنِ النَّاطِرِ الْجِهَةَ الَّتِي تُعْرَضُ مِنْهَا الْمَزِيَّةُ وَلَا يَسْمَعُ بِتَفْصِيلِ التَّوَلُّدِ فِي شَأْنِهَا وَفَهْمِهَا عَلَى وَجْهِهَا ، وَهُوَ الْعَيْبُ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ مِنْ رَدِّ إِعْجَازِ التَّنْزِيلِ بِطَرَفِهِ مِنْ دُونِ أَنْ يَفْسُرُوا أَمْرَ هَذَا النُّظْمِ وَيُعْطُوهُ مَضْمُونًا مَلْمُوسًا بِهِ يَتَبَيَّنُ دَوْرُهُ فِي تَوَلِيدِ دِلَالَةِ النَّصِّ . هَذَا «لَا يَكْفِي أَنْ (نَقُولُ) إِنَّهُ خُصُوصِيَّةٌ فِي كَيْمِيَّةِ النُّظْمِ وَطَرِيقَةٍ مَخْصُوصَةٍ فِي تَسَاقُطِ الْكَلَامِ بِعَصْفِهَا عَلَى بَعْضٍ حَتَّى (نَقْصِفَ) تَسَاقُطَ الْخُصُوصِيَّةِ وَ (نُجَبِّتَهَا) » (2) .

وَسَطَرَ فِي آثَارِ الْجَرَجَانِي يَلَاحِظُ أَنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ مَشْغَلٌ قَدْرٌ عِنْدَهُ . فَهُوَ يَمُخُّ فِي أَكْثَرِ مَنْ مَوَظَّنٍّ عَلَى صَرُورَةٍ تَجَاوَزَ الْحُكْمَ إِلَى تَعْلِيلِهِ ، وَانْحَثَ بِهِ عَنِ مَقْصُودَاتِ مَوْصُوعَةٍ يَنْتَسِي بِفَضْلِهَا تَفْصِيلَ الْمُجْهَلِ وَتَعْمِيرَهُ ،

(1) دَلَالَةُ الْإِعْجَازِ : ط النِّار ، ص 33 .

(2) الْمَصْدَرُ الْآتِي : 30 .

هو شرحه ، يجب لاستحقاق البحث اسم البلاغة ، ومن هنا كان حكمه عن محاولات التي سبقته صارما لأن توجيههم الإجمال في التفسير ، ذهب (بهم) عن البلاغة (1) .

وعلى هذا النسق في ترتيب مراحل البحث البلاغي تبيّن أهمية النظم في تفكيره ، والكيفية التي تنتظم - حسبها - قضاياها في صلب هذا التفكير والحديث عن القسم الأول - جنس المزية - اقتضى الاحتجاج للنظم من جهة نصرية عامة ، وتحت هذا الباب تفوي حل الآراء التي نوردتها دراسات إيمان موقعه من ثنائية المعط والمعنى ، وقد عرضنا بدورنا الكثير منها في الفصل السابق .

كما اقتضى الحديث عن القسم الثاني - أمر المزية - تحديد أبعاد المصطلح وربطه بمضمون صريح متأثر حتى إذا ما جعل سببا لإعجاز القرآن أمكن التعليل والتفسير ومعرفة حاجته الله تعالى من الوجه الذي هو أضوأ لها وأنوّ لها (2)

والعجرجاني شاعر بأنه مُقبل على مرحلة في التأليف عزيزة أسد نحتاج إلى الصبر على التأمل والمواظبة على التدبر (3) . كما تحتاج إلى أن يتوفر لدى المتقن استعداد نفسي خاص وطبيعة تسهل عليه إدراك خفايا الأمور ودقائقها ، لأن المزاي التي تحتاج أن تعلمهم مكانها وتصور لهم شأنها أمور خفية ، ومع روحانية . أنت لا تستطيع أن تبه السامع لها وتحدث به عما بها . حتى يكون مهيا لإدراكها وتكون فيه طبيعة قابلة لها . ويكون دوق وقريبة يجد لهما في نفسه إحساسا بأن من شأن هذه الروح وتروى أن تعرض فيها المزية على الجملة (4)

(1) دلائل الإعجاز - ص 85 .

(2) مصدر السبر - ص 31 .

(3) ص 141 .

(4) ص 419 - 420 .

« حيث أن من الصّوحي ما لا تتّصف منه إلا باستعاده الطّبع عنه
ولا يمكن توفّة الكشف به حقّه بالعبارة الدّقة مسئّله » (1)

— الأسس المدّنية لنظرية النّظم :

أشّر عند حديثنا عن موقف الجرجاني من زوج « مصاحفة البلاغة »
و « صعوبات التي تواجه كلّ من يروم دراسة تفكيره البلاغي من خلال قصدي
حرثية ، تمّصل عن التّسبيح العامّ الذي يؤلف بينها ، ورأينا أن تسبب لأحسب
في ذلك يرجع إلى أن تفكيره مبني بناء مترابطا متكاملا بحيث لا بدّ أن يقضي
بشيء في أحد مظاهره إلى بقية المظاهر بصرف من التّداعي الختامي .

وقد حاولنا جهدنا أن نستعرض آراءه في المصاحفة والبلاغة أو في اللفظ
وسمى بالسكوت عن الأسس النّظرية التي نسي عليها ذلك لآراء ، و
بالإشارة إليها دون التعمق في تحليلها وإيراد الشواهد المبنية لها حتى لا نضطر
إلى تكرارها ، على علالتها ، في هذا الموضع .

إنّ المتّبع لأصول نظرية النّظم عند الجرجاني يدرك أنها مبنية على
أسس لغوية منظّورة فومها التمييز بين اللغة والكلام تمييزا يضاهي في دقته
وستحكم نالجه ما وصل إليه علم اللسانيات الحديثة من آراء في هذه
مسألة نبي نعتنر من المشاعل المنهجية الكبرى التي حظيت بصيب وافر
من مجهودات اللسانيين الغربيين (2) .

(1) أسرار البلاغة ، ط ١ ، عمّاني ، 1932

(2) « يرى هاندهاب في الإحالة على مرجع معين أنّ الاختلاف من تفكير عن تفكير » « الكلام »
« من بعد » على كلّ مؤلفات قسايه سواء ما أنجه منها انجاءا بصرف عباد أو تقتصر على
مرء من فروع هذا الاختصاص ، و ملاحظ أنّ تلك أسات التي نعر من أصحابها لا « عند
نصهر شر من حين لآخر إلى بعض آرائه الخدمية ، ووجه طرائف واحدتها ، لا أن
جميع في غير واحد ودراستها بتطبيقات منهجية لانية م تقع إلا في معدود « فريد بعد
« رر مهيري ، « نقل عن كور » ، حولات الجامعة الشريفة : 1974/11 ، ص 81 - 88

ومن حتم طبيعة البحث البلاغي أن يكون ذلك الكلام محوراً
 ، حتى وشعبه اشغال لأن البلاغة تعني بما يسجره المتكلم بصفة فردية ، تنصرف
 في سماع عناصر النظام اللغوي والتأليف بها بكمية تحقق أعرضه
 ومقاصده على مقتضيات الاحتجاج والتعليل حتمت بدورها حديث عن
 اللغة واتخاذها أساساً منهجياً وفرداً من روح - اللغة/الكلام - فحين
 تدسه على ضرورة خصائص الطرف المقابل - ومن ثم اكتسب التمييز بين
 اللغة وكلام في تفكيره البلاغي أهمية خاصة ، وتعلل بالعنوان التي تحدم
 غرضه لأصلي وهو نهي المزية عن الألفاظ قبل دحولها في تأليف وقب
 أن نصير من الصورة التي يكون بها الكلام إحصاراً وأمرأ وبها واستحبر
 وتعبها (1) .

ويقوم التمييز بين اللغة والكلام ، في مؤلفات الجرجاني ، على تسؤل
 أصلي ذي صبغة بلاغية استوجبت الإجابة عنه الاستطراد إلى مسائل لغوية .
 ولستأنا ، لأصلي الذي استوجب من المؤلف الاستطراد ، إلى التمييز بين
 اللغة والكلام هو البحث عن السبب في فصل كلام على آخر في نطاق نفس
 اللغة . أو هو بصورة أدق إبرار التحولات التي تطرأ على وحدات اللغة
 المشتركة عندما تصاع من طرف انمرد للتمييز عن حاجيات تتعلق بتجربته
 شخصية في نطاق المجموعة ، وقد أدنى ذلك إلى تحديد خصائص كل
 من لغة وكلام والعلاقة الرابطة بينهما ، والعناصر التي تنشأ من صبغة
 والتأليف ولا توجد في اللغة ، ودور تلك العناصر .

« سنتما بأن الناس يكتسب بعضهم بعضاً ويعرف السامع غرض من متكلمه
 ومقصوده » (2) نحتم الإقرار بأن الكلام لا يمكن أن يقوم عبر اللغة . إذ
 لا يحصر على ذلك أن يحصل التفاهم بين اثنين من غير أن ترتبط سهم

(1) دلائل الإيجاز ، ط النشر ، ص 35 .

(2) أصناف السير ط خلدجي ، 462 .

سنة مشرقة وجهاز رمزي عرفى وقع التواضع عليه والآن ترد تصريف
 وحده بما لا ينهى وطبيعة ذلك الجهاز ، لأن المتكلم لا يكون متكلما
 حتى يستعمل أوصاف لغة على ما وضعت عليه : (1) كما ينبغي أن
 يستعمل الألفاظ فيما وضعت لنقله عليه لأنه محال أن تُسمع مقصودك
 من محض تكلمه ، بالألفاظ لا يعرف معانيها كما تعرف : (2)

لكن هل تم عليه الكلام بمجرد اللغة ؟ وهل يتسنى ، لاقتصر
 على ، توفره ، التعبير عن المقاصد والتفاوت في ذلك التعبير ؟

نقضي لإجابة عن هذا السؤال تحديد الفارق في أهداف بين اللغة
 والكلام ، هو صم اللغة هدفه إيجاد الأسماء والألفاظ المنردة التي تُرشِد إلى
 مختلف المعاني وتدل عليها ، وهو بذلك يورث جهازا من العلامات واسمات
 ترتبط في نطقه الدوال والمندلولات ترابطا قاررا ثابتا مؤسسا على محض
 الاصطلاح والاتفاق ، وسأأتى على هذه الصفة فإن طريق معمم بها
 لتوقيف والتقدم بالتعريف : (3) أو الاحتذاء : حسب عبارة نقضي
 عبد الجبار ، ولا محال للفرد لتعبيرها بالريادة عليها أو الخروج عنها .

« وإذا نظرنا وجدناه / المتكلم / لا يستطيع أن يصح «اللفظ شيئاً أصلاً
 ولا أن يحدث فيه وصفاً ، كيف وهو إن فعل ذلك أسد على نفسه وبعض
 أن يكون متكلماً حتى يستعمل أوصاف لغة على ما وضعت هي عليه » (4) .

ومن هذه الزاوية ، تبدو اللغة نقصاً لكل محاولات الابتدع والابتداء
 وسنورد رمزي الفردي الذي وإن بقي في حدود ما يقره مصممها من قواعد

(1) دلائل الإعجاز ، ط. خفاجي ، ص 367

(2) المصدر السابق ، ص 379 .

(3) « » ، ص 266 .

(4) « » ، ط. المنذر ، ص 308

ومعبر . فهو يتصرف فيها بما يلائم طبيعة ما يريد التعبير عنه ويحدد وحدتها في خلعة ما ربه الفردية .

وكيف يتمّ رفع التناقض الظاهري بين اللغة « و » الكلام « ؟

يتمّ ذلك إذا اعتبرنا اللغة وسيلة « أو مادة خاما » وجمعة من لقو بين مجردة لا تكتسي وجودا فعلياً إلا بالكلام وفي الكلام « يحصى أن للغة لا وجود لها خارج الفعل اللغوي الذي هو الكلام لأنّ « الأنماط مجردة التي هي أوصع لغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ولكن ليُصمّم بعضها إلى بعض » (1) .

ولا بدّ أن تكون الفائدة الناتجة عن الضمّ مضافة لما تسدلّ عليه وحدت اللغة في أصل الوضع ، وإلا سقطت الحاجة إلى الكلام ، لأنّه ليس شيء في اللغة يعرفه المتكلم لا يعرفه السامع إذ من شروط عممية التوصل ، كما ذكرنا ، أن يشتركا في العلم باللغة وكمية مواضعها .

يقول الجرجاني : « ومعلوم أنك أيّها المتكلم لست تقصد أن تعلم لستم مع معاني الكلم المنفردة التي تكلمه بها . فلا تقول خرج ريد لتعلمه معنى خرج في اللغة ومعنى زيد . كيف ومحال أن تكلمه باللفظ لا يعرف هو معانيها كما تعرف ؟ » (2) .

فدابة الكلام تتجاوز ما ضُمنته اللغة من معان بالوضع والاصطلاح إلى معان جديدة تحدث وقت « تولّف / وحداتها / ضربا خاصا من التأليف ويعتمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب » (3)

(1) دلائل الإعجاز ، ط. عمادي ، ص 473 .

(2) المصدر السابق ، ص 375 .

(3) أسرار البلاغة ، ط. عمادي ، 96/1

وهذه المعاني انحدبده هي : الأحكام ، التي يولدها الستكنة بعين
وحدة ، لغة على هيئة مخصوصة والربط بينها بعلاقات بمتشابه إنشاء
لا أصل له في اللغة . لأن اللغة لا توفر لاستعنها إلا صروبا من كنه
مفرده ولا تحدد له طرق تعليق بعضها ببعض لأتتها ، ثم تأت نتحكم بحكم
و تشبه ، وتعي ، وتنقص وتبهرم ، فالحكم بأن الصرب وعن لريد ،
أو ليس بفعل له . وأن المرحى صفة له أو ليس بصفة له شيء بصفة
متكلم . ودعوى يدعيها ، وما يعترض على هذه الدعوى من نصديق أو
تكذيب . وعتراف وإنكار ، وتصحيح أو إفساد ، فهو اعترض عن
متكلم . وليس لغة من ذلك بسيل . ولا في قليل ولا كثير ؟ (٢) .

ويؤكد ، حرجاني ، في أكثر من موضع ، على أن المعنى بشيء
بالكلام مختلف عن معاني الوحدات اللغوية المكونة له ، لأن في الكلام
نحوى لها في الدلالة يختلف من حيث نوعه عن نوع اللغة . فتصبح
العلاقات التي يشتملها المتكلم بين وحدات السياق هي الدالة . لا الكلمات في
حد ذاتها ، أو هي عبارة أخرى دلالة نشأت من تجاوز دلالة الكلمات
مفرده . وهو بهذا يتنى موقفا يكاد يكون شكليا ، وينم عن فهم عميق
متشعب بلدي يطرأ على الظاهرة اللغوية وقت يصوغها المتكلم ويخرجها من
محور الاستدال الثابت الساكن إلى محور التوزيع الديناميكي المتحرك وردد
يصبح المعنى غير محصور في ما تؤديه جملة الكلمات وإنما هو معنى جديد
لا وجود له خارج سياقه . يقول :

« و عيب أن مثل واضح الكلام مثل من يأخذ قطعة من الذهب أو لفظة
فيديب بعضها في بعض حتى تصير قطعة واحدة . وذلك أنك إذا قلت صرب
زيد عمرا يوم الجمعة ضربا تأدينا له . فإنك تحصل من مجموع هذه الكلمات
كبي عن مفهوم هو معنى واحد لا عدة معان كما يتوهمه الناس ، وذلك

لأنه م تأت بهذه الكلم لتعبده أخص معانيها وإنما حثت به لتعبده
وجوه التعليق (1) .

وليس « التعليق » المشار إليه في النص إلا واحدا من خمسة متردود
ذكره الجرجاني مرارا لتعريب معنى النظم من الأدهان كـ « التسخ والتأليف
والصياغة والنساء والوشى والتخبر وما أشبه ذلك مما يوجب اعتناء لأجره
مع بعض حتى يكون لوضع كل حيث وضع علته تقتضي كونه هناك
وحتى لو وضع في مكان غيره لم يصلح » (2) .
ككيف حدد مفهوم النظم في مؤلفه ؟

— مفهوم النظم :

حدد الجرجاني مفهوم النظم ثلاث كميات متكاملة : بما ليس هو ،
وبالتعبير عن معناه عبارة مجملة . وتفصيل القول في شأنه ونبحث له عن
أساس مسموس يبين به فصل الكلام على اللغة .

فليس لنظم مجرد توالي الألفاظ في النطق ، ووروده على سماع
من غير ترتيب معلوم . وتأليف محصوص ، ودرسم مسبق . يصعب لتكلم
ليبي نكلام صبه ، وينسق بين أطرافه ليبين عن المراد ، ويُبَيِّن عن القصد .
ولا يتصور في عقل أن يقوم بين الكلمات من حيث هي أوعية جوفاء وأخرى
نظم ، لأنه لا يتصور في الألفاظ وحوب تقديم وتأخير . وتخصيص في
ترتيب وتنزيل (3) . ويصرب الجرجاني لذلك مثلا قول امرئ القيس ،
(طويل)

فما بُك من ذكرى حبيب ومترل

(1) دلائل الإعجاز ، ط. المنار ، ص 316 .

(2) امصار الدين ، ص 40 .

(3) أسرار البلاغة ، ط. عمادى ، 97/1 .

ويرى أننا متى قرأنا شطر السطر على هذا النحو في الترتيب وأقبل على
 عظمه الذي عليه بُني وحدايه من « كما أن البيان » أمّا إذا جرحنا هذا المقصد
 وعددنا كلماته عدداً : كيف جاء واتمى : كأنّ تقول : منزل قف : كرى
 من سلك حبيب « يكون جرحنا به إلى مُحَاكَاة الهديان » والسبب في تحوّل
 هذا شعر من النقيض إلى النقيض ليس جرس الحروف وخصائصه بل
 بصوته وبسا له بُضْعَ كلمة جديدة ولا غيرنا ترتيب الحروف داخل
 الكلمات . وإنما هو من إبطال قصده وإفساد هيلسته وقالبه الذي به لا أفرح
 المعنى « وأجرى (1)

فاستقامة الكلام واستحالته رهينة نظمه وما يقوم بين معانيه من وشائج
 تجعل دلالتها متداخلة ومعانيها متلاقية . ذلك لأنّه « ليس من عقل يفتح عين
 قلبه إلا وهو يعلم ضرورة أنّ المعنى في ضمّ بعضها إلى بعض وتعليق بعضها
 ببعض . وجعل بعضها بسبب من بعض . لا أنّ يطلق ببعض في أثر بعض
 من غير أن يكون فيما بينهما تعلّق » . ويعلم كذلك ضرورة . إذ فكر .
 أن التعلّق يكون فيما بين معانيها لا فيما بين أصحها . ألا ترى أنه لو جهد كل
 الجهد أن نتصور تعلّقاً فيما بين لمطين لا معنى تحتها لم نتصور « (2) ؟

وبهذا المعنى ، يُصبح السطعم صنعة وثيقة الصلة بقوى الإنسان المتحركة
 وفي مقدّماتها العقل . ويصبح انشطار الوحدات اللغوية انعكاساً للمصموم في
 بائه المظفي . وبهذا الصنيع أشار الجرجاني « إلى أصل من أهمّ أصول
 لوحدة منطقية . ففهم العقل مكاناً في العمل المعنى . وجعله هادياً يوحده
 سائق في تراثه على صورة تلاءم وقوى الإنسان العاقلة والمنتوّنة » (3) .

(1) آراء البلاغة ، ط. خماسي ، 96/1 .

(2) دلائل الإعجاز ، ط. خماسي ، 416 .

(3) نثر السيد أحمد خليل : المدخل إلى دراسة البلاغة العربية ، دار النهضة العربية
 بدمشق ، 1968 ، ص 58 .

و فعلا فربما نجد في مواضع عديدة من « دلائل الإعجاز » بصوح تركب
 هذا معنى عقلي الناتج ، في رأينا . عن تركيزه عملية النظم على علاقات
 « لانه دسرحة الأولى . فمن أقواله المشهورة : « ليس العرض بنظم الكرم
 « فو ست نعطها في الشطرنج بل أن تأسقت دلالتها وتلاقت معيها على لوحه
 « في فتصاه العقل » (1) .

وهو يرر « فرق كبير بين « اللغة » و « الكلام » يتمثل في أن « اللغة »
 يحكم قيمها على اتواضع والاصطلاح . يمكن أن تتضمن طواهر تستعصي
 على التفسير وتعليل لأنها وقعت بمحض الاتفاق والاعتباط ، وهو ما لا
 يمكن في « الكلام » لأنه محكوم . في الأصل . برماء العقل وثرثب المعاني
 في نفس ولا يصدر من التشكلم إلا عن قصد وعلم سابق بالمعاني « علامة » يريد
 أن بصوغ من المعاني إذ « لا يكون ترتيب في شيء حتى يكون هناك قصد » في
 صورة وصنعه » (2) ويكون النظم . من هذا المنظور ، فتوزيعا لحكمة من
 « سميت استابقة له يمكن تلخيصها على النحو التالي : قبور الأفكار في النفس
 وانتصمها تنضمها نظريا مجردا حسب مثولات الفكر . ثم برور « حجة » في
 رموز و«علامات» لأن الفكر لا يتشيس بالفكر . والجوهر لا يدل على الجوهر
 فتشيد المعاني المجردة بالسّمات والعلامات الدالة عليها ، ثم ترتيب هذه
 لعلامات على السق الذي ترتب حسب المعاني في النفس . يقول لجرجاني :
 « لا يتصور أن تعرف للفظ موضعا من غير أن تعرف معناه . ولا أن تتوحي
 لترتيب في معنى وتعمل الفكر هناك . فإذا تم لك ذلك أنتعشتها الألفاظ
 وقصوت بها آثارها . وإنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في النفس لم تمنع إلى
 أن تستأنف فكر في ترتيب الألفاظ بل تجد أنها تتركب لك بحكم أنها حدم
 بمعاني وثبيعة لها ولا حفة بها » (3) .

(1) دلائل الإعجاز ، ط. المنار ، ص 40 - 41 .

(2) نفس المصدر ، ص 278 .

(3) نفس المصدر ، ط. جرجاني ، ص 96 .

وعلى هذا الأساس رأى بعض الباحثين إمكانية لإدراج نظرية النظم ضمن أحد النماذج اللسانية الحديثة وبالتفصيل « داخل إطار توليدي وبخاصة خصوصاً مصادح لتوجيه القائلة بقاعدة المكوّن الدلالي » لأنهم وجدوا في نصه السابق ما يدلّ على أنه يميز بين مستويين :

مستوى عميق غير منطوق مشتمل على المعاني الدلالية

- ومستوى سطحي منطوق يتمّ فيه نظم المقال على مرحلتين

- (1) مرحلة تستدل فيها المعاني العميقة بألفاظ القاموس
- (2) ومرحلة تعلّق فيها هذه الألفاظ بعضها ببعض حسب قواعد تركيب (1) .

وبفينا أن في ما خلف الحرجاني حضرات نسابية لا يحترق من نسبها، للسانيون معاصرون إلا أنا نحذر من تأويلها بالاعتماد على نموذج معين ولا سيما، إذ كان ذلك النموذج لم يتخطّ عند أصحابه مرحلة البحث والتجريب شأن « عدم الدلالات التوليدي » (2) ويسد لنا أن فرقة صاحب « دلائل الإعجاز إلى اعتبار نظام البنية المعوية الخارجية صورة لانتظام المعاني في النفس أكثر ملائمة لأصول المذهب الذهبي » (3) الذي يقول بأنفسه المعاني والمفاهيم عن العبارة وتقدّمها عليها ، ويميز اللغة مجرد أدلة على تلك المعاني ، ليس لها فيها تأثير إلا بقدر ما يؤثر الوعاء في ما يحتوي عليه . ومن أبرز خصائص هذا المذهب اعتماد أصحابه في بحثهم عن المعنى على الطبيعة ، والذوق ، وتقريبه ، والإحساس ، أي على كلّ العناصر الدتية التي لروم

(1) محمد المنوكن ، نحو قراءة جديدة لنظرية النظم عند الحرجاني ، ص 87-96
وسمات ، مشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط : 1976 .

(2) Sémantique générative انظر في ما يخص هذا العلم والافتقار الموجه من أصحابه
T A Sebeok Exploration in semantic theory. in, Current trends in linguistics, tème éd. La Haye, 1966.

(3) Tendence mentaliste انظر :
J Lyons Linguistique générale, trad. F Dubos Charlier et J Robinson, éd. Larousse, Paris, 1968, pp. 307-338.

دفع الثأريء إلى تخطي سطح البينة اللعونة التي تحمل إليه تحريبه الشكك
و قد . جوهر التحرية ذاتها بالنظر فيما ما يقوم بين معاني الألفاظ من
علاقات

وسمى الحرجاني في تحديده النظم على فكرة العلاقة أو لا تعشق ، ولا
أش على لأهنة التي يعلتها بها من اقتضاره في بعض التعريفات عليها ومث
ذلك قوله .

« معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكليم بعضها ببعض . وجعل
بعضها سبب من بعض » (1) . وقوله : « لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى
يعشق بعضها بعض . ويسى بعضها على بعض . وتجعل هذا سبب من
ذلك » (2)

« لا أن هذه الطريقة في التعريف لا تناسب ما عزم عليه المؤلف من تطوير
مبحث ابلاغي . وتجاوز لقصور سلمه في بيان مكان الفص والمزية في
كلام : ووصف الخصوصية التي أصابوها إلى النظم . ومن ثم تحتمل للنجوء
إلى صنف ثالث من التعريفات ينسب بها أمر التعليق وتصل قضية ، وتركز
مصطلح على أساس ملموس يؤهله لوظيفة التعليل والاستدلال . وهذا الأساس
هو « معاني النحو وأحكامه » التي ستعرض في تعريف مصطلح « التعييق »
ويتوتر سنده في مؤامره كلما عرض لمسألة النظم مثال ذلك قوله :

« واعلم أن ليس النظم إلا أن نضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم
نحو ونعتمد على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي يهتد فلا نزيغ عنها
ونحفظ لرؤسوم التي رسمت لك فلا نحل بشيء منها وذلك أن لا نعد شيئ
بتعبه النظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وهو » (3)

(1) دلائل الإعجاز ، ط. شعاعي ، ص 46

(2) معجم الناصي ، ص 97 .

(3) المعجم السابق ، ط. المار ، ص 64

وقوله : « النظم هو توحى معاني النحو في معاني الكلم ويد توحى في
منون الألفاظ محال » (1) .

« قد صنع الجرجاني في مطلع ودلائل الإعجاز : قصيده على سحر
السيط يتن فيها وجه ارتباط الإعجاز بالنظم وأنى فيها على حدة فبما يقوله
فب (بسط)

وقد عيشت أن النظم ليس سيوى حكم من النحو فمضي في توحيه
لو نقت لأرض باغ غير ذلك له معنى وصعد يعلو في تتركبه
ما عت . لا يحس في تطلبه ولا رأى غير عي في تبغيه (2)

هذا مقصود بمعاني النحو ؟

يجوب عن هذا السؤال ليس ميسورا لأسباب : منها أن المؤلف لم يتكلم
بأي جهنر تألفي يبين سبيل ربط النظم بمعاني النحو . ويدقق معنى
الذي يجري عليه كلمة النحو وذلك رغم كثرة الإشارات والتحليلات التي
توهم بقارىء بأن الرجل خرج عن ميدان البلاغة إلى ميدان الوصف «غوي
كما باشرته أصول النحو الأولى قل أن تغلب على العلم النواحي الإعرابية
الشككية (3) .

ومما أن الرجل لم يستطع وقت تحليل النماذج الأدبية الإفلات من
« التأثيرية » و « الانفعالية » في أحكامه الأدبية ، وهذا لا يساعد . بطبيعة الحال .
على معرفة الأساس التي يستعمل فيها المصطلح ولا دوره في توليد حجاب
للمرور وكشف أسرار بلاغتها . فهو كثيرا ما يستعاض عن التعيين بدعم

(1) دلائل الإعجاز ط. حناي ، ص 276 ، وانظر أيضا الفتوحات 69 ، 282 ،
283 ، 314 ، 373 ، 418 .

(2) دلائل الإعجاز ، ط. حناي ، ص 49 .

(3) نرى مثلا دراسة للاستفهام وانفي والحدف والتمزيق في البحر ، وانحال وغيره
دلائل الإعجاز . ط. المنار ، ص 88 - 168 .

« نخبة عبارات تدل على مجرد الإعجاب والتفاعل كقوله » بحر في قوته « وانظر إلى الإشارة والتعريف في قوله « ... (1) » .

ومنها تحجيرا أن الدراسات إما لم توف هذا الجانب حقه من دراسة ومستر بعضها معاني النحو : « ما نسميه اليوم بالوظائف النحوية » (2) ، ودرس بعض آخر بأنها : الوجوه والضيق في تعليق الكلام بعضها ببعض وهي تعلق اسم باسم وتعلق اسم بفعل ، وتعلق حرف بهما » (3) . وإما أنها اعتمدت هذا المصطلح مطلقا لدراسة موسعة لنظام اللغة مبانيها ومعانيها ، بكيفية يتعدى معها تفصيل بين أصل معناه عند الجرجاني وما هو اجتهد شخصي وتطعيم منه لأصل بمكتسبات اللسانيات الحديثة (4) .

* * *

يبدو من سياقات « دلائل الإعجاز » أن الغرض من « النحو » ، و« معاني النحو » ليس عرضا شكليا إعرابيا إذ لا يرى المؤلف قيمة للحركات التي تطرأ على أواخر الكلمات ، لأن العلم بما يتناسب الوظائف من حركات عيّن « مُشْتَرَكٌ » بين جميع العارفين باللغة ، وهم لا يحتاجون لاكتسابه ، بل حدة ذهن وقوة حصر ، كما أنه لا يتصور أن يقع التضاهيل من أجلها وأن تكون نفس الحركة مربة في كلام ثم لا تكون لها تلك المزية في كلام آخر . وبهذه الكيفية يجرّد المظهر الإعرابي من كل قيمة أسلوبية ويعتبره مجرد دليل على سبب صديق استوجه يقول :

« ولا يحور إذا عدت الوجوه التي تظهر بها المربة أن يعدّ فيها لإعراب وديك أنه مشترك بين العرب كلهم وليس هو مما يستلزم التأمل والاستعداد »

(1) دلائل الإعجاز ، ص 62 ، 71 ، 73 .

(2) عند الفهر المهيدي ، مقال المذكور ، ص 101 .

(3) أحمد مطلوب ، عند الفهر الجرجاني : بلاغته وتقدمه ، ص 66 .

(4) بحر - تمام حسان - اللغة العربية معناها ومبانيها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1973 .

عليه بالرؤية (..) ومن العجب أنا إذا نظرنا في الإعراب وحدثنا التوصل فيه محالا لأنه لا يتصور أن يكون للرفع والتصب في كلام مريّة عليهما في كلام آخر . وإنما الذي يتصور أن يكون ههما كلامان قد وقع في غيرهما حينئذ كان أحدهما أكثر صوابا من الآخر ، وكلامان قد استمر أحدهما على الصواب ولم يستمر الآخر . ولا يكون هذا تفصيلا في الإعراب ولكن تركه له في شيء واستعمالا له في شيء آخر (1)

ويمكن أن نخرج من هذا البصر بنتيجتين هامتين . أولهما أنه يستعمل النحو في معنى واسع يحلّصه من سيطرة السرعة المدرسية : الشكلية التي غلبت على مسائله بعد انتهاء فترة التأسيس ، التي يمثل ابن جني قمته ، ونهيتها . وثانيهما أنه لا يهمه منه إلا الجانب الذي يمكن توظيفه في إطار بلاغي نقدي واعتماده أساسا لبيان مآل الجودة في الكلام وسبب تفاوته في الحسن . لذلك تراه يضرب صفحا عن مسألة الخط والصواب ولا يعير بقواعد التي تضمن السلامة من العيب أهمية (2) . وبناء على هذا التصور يصبح النحو صنوّا لحسن بلاهوي المزهف وإدراك الترويق بين طرائق التركيب ووجوه ترويب حبيبي على المعاني . وصنعة تدرك بثاقب الفهم والذكور للقيمة لاحقة من اصطلاحات والأبواب تحفظ عن غير رؤية . يقول الجرجاني في هذا المعنى :

« (....) إن الاعتناء بمعرفة مدلول العبارات لا بمعرفة العبارات فهذا حرف لدوي انفرق بين أن يقول : « جاءني زيد راكبا » وبين قوله . « جاءني زيد راكب » لم يصره أن لا يعرف أنه إذا قال « راكبا » كانت عبارة الجواب فيه أن يقولوا بي « راكب » إنه حال . وإذا قال « راكب » به صفة حادثة على « زيد » (3) .

(1) دلائل الإعجاز ، ط. انتشار ، ص 203 ، ص 306

2- مصدر المذيق ، ط. المذيق ، ص 76 ، 77 .

3- مصدر المذيق ، ص 320

وكذا أن العرض من النحو ليس الصيغة المطلقة والإعراب الظاهر فهو ليس مراعاة النمط النظري لبناء الجملة كما تحلده قواعد التركيب . وهذا أمر بديهي في مبحث يتمد شرعية وجوده من خروجه عن تلك الأنماط . والنحو حي كسواء ما دلت حسن الكلام ورواقه وتماثل أجزائه ودقة بصره بخروجه عن أصل التركيب . ومثال ذلك تعليقه على قول الشاعر (ضوب) :
 «سَوْ إِذَا نَبَا دَهْرٌ وَأَنْكَرَ صَاحِبٌ وَسُلَّطَ أَعْدَاءُ وَعَبَّ سَاصِبٌ
 تَكُونُ عَنْ أَهْوَاكِ دَارِي بِنَجْوَةٍ وَلَكِنْ مَقَادِيرُ جَرَّتْ وَأُمُورُ
 وَهِيَ لَأَرْحُو بَعْدَ هَذَا عَمْدًا لِأَفْضَلِ مَا تُرَحُّسِي أَيْ وَوَرِيرِ»
 يقول : « فإني ترى من الرواق والطلاوة ، ومن الحسن والحلاوة ثم تتفق السبب في ذلك فتجده إنما كان من أجل تقديمه الظرف الذي هو « إذا » نبت على عامله الذي هو « تكون » وأن « ثم » يقل « فلو تكون عن الأهواز داري بنجوة إذا نبا دهر » ثم أن قال « تكون » ثم أن فكر « دهر » وم يقل « فلو إذا نبا الدهر » ثم أن ساق هذا التكبير في جميع ما أتى به من بعد (....) لا ترى في البيتين الأربس شيئاً غير الذي عدته لك تجمعه حسن في اسطعم ، وكله من معاني النحو كما ترى » (1)

ومن أروع ما يدل على أن معاني النحو غير أنماط التركيب حديثه عنها في موطن يصل فيها التركيب قمة الفن - حسه - بباب بعض عنصريه عن لسيبق ، في باب الحذف - اللغة هنا تصل إلى الحذف الأقصى في دلالة بنوعها - أو بتضحييم السياق وتضحييمه بال تكرار - أو بتكسير مقولة محلات والمراتب في التقديم والتأخير ، أو بوجود مساحات شاعرة بين مقطوعة أو أخرى - مما لا صلة له باللغة والنحو أصلاً - شأن بعض وترك العطف (2)

(1) دلائل الإعجاز . طر انتشار ، ص 68 - 69 .

(2) لأنماطها عديدة ، انظر مثلاً - المصدر السابق - ص 275

معاني النحو . كما يتراعى من هذه الأمثلة . ملتبسة بالكلام لا باللفظ
وبكل سبب التصرف في التراكيب وصياغتها بما يوافق إرادة المتكلم في التعبير
لا بانقواعد النظرية والاعتبارات المجردة .

وردا كانت معاني النحو مخالفة للإعراب واللمط النظري لجملة مما
عنه تكون ؟ نحاول الإجابة عن هذا السؤال انطلاقا من نص ورد في
« دلائل الإعجاز » حاول فيه المؤلف توضيح دلالة المصطلح بتوسيع الأمثلة
يقول :

« وعلم أن ليس أعظم إلا أن تضع كلامك الوصف الذي يقتضيه علم
النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف ماهجه التي نهجت فلا تزيع عنها
وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تغفل بشيء منها وذلك أدنا لا نعلم شيئا
يبتغيه التظيم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه فينظر في الخبر
إلى الوجوه التي تراها في قولك « زيد منطلق » و« زيد ينطلق » و« ينطلق زيد »
و« منطلق زيد » و« زيد المنطلق » و« منطلق زيد » و« زيد هو المنطلق » و« زيد
هو منطلق » وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك : « إن تخرج
أخرج » و« إن خرجت خرجت » و« إن تخرج فأنا خارج » و« أنا خارج
إن خرجت » و« أنا إن خرجت خارج » . وفي الحال إلى الوجوه التي تراها
في قولك : « جاءني ربك مسرعا » و« جاءني يسرع » و« جاءني وهو مسرع »
أو « هو يسرع » و« جاءني قد أسرع » و« جاءني وقد أسرع » فيعرف لكل من
ذلك موضعه ويحجي به حيث ينبغي له . وينظر في الحروف التي تشترك في
معنى ثم يفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى ، فيضع كل من ذلك
في حاصر معناه نحو أن يجيء « ما » في نفي الحال . و« لا » إذ أراد نفي
لاستقبال و« إن » فيما يرجح بين أن يكون وأن لا يكون ، و« إذا » فيما
عم أنه كاش . وينظر في الجمل التي ترد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع
انوصل ثم يعرف فيما حقه الوصل أو من موضع انقضاء وموضع بدء

من موضع « ثم » وموضع « أو » من موضع « أم » وموضع « لكن » من موضع « بل » ويتصرف في التعريف والتكبير ، والتقديم والتأخير في الكلام كله . وفي الحذف والتكرار ، والإضمار والإظهار . فيضع كلا من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له .

هذا هو السبيل . فليست بواجب شيئا يرجع صوابه إلى كد صوابا وخطؤه إلى كاد خطأ إلى التنظيم ويلتخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووضع في حقه أو عومل بخلاف هذه الصفة فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له (1) .

في هذا النص ثلاثة مصطلحات هامة في معرفة غرض صاحبه من معاني النحو وهي : « الوجوه » و« الفروق » و« الموضع » وثلاثتهما تنصرف لتبدل هي أن اللغة توفر لمستعملها أكثر من إمكانية لصياغة نفس الوظيفة النحوية ، وأن بين هذه الإمكانيات المتنوعة في البناء فروقا معنوية ، وأن كل بنية مع ما يصحبها من خصوصيات معنوية توافق مقاما معينا وتخدم غرضا دون غرض .

وهذا ما أردنا ترجمة ذلك إلى لغة اللسانيات المعاصرة فبنا إن الوظيفة النحوية - الحال مثلا - تمثل بنية نواة عميقة يمكن تحويلها إلى جملة من البنى اللغوية السطحية تتعلق كل واحدة منها بخاصية معنوية تضاف إلى الأصل ، وتوافق ظروف مقالية معينة ، فالحال يمكن أدائها بطرق شتى انطلاقا من بنية عميقة يمكن افتراضها على النحو التالي :

/ فس (معناه الحركة ، صيغته الماضي) + اسم + حال (يؤكد نوع الحركة الأولى) / . ومن هذه الطرق :

— جاء زيد مرعبا

(1) انظر ، ص 64 - 65 من طبعه المطبع .

حَاء زِيد	يَسْرِع
— حَاء زِيد	وَهُوَ مَسْرِعٌ
— جَاء زِيد	يَسْرِع
— حَاء زِيد	قَدْ أَسْرَعَ
— جَاء زِيد	وَقَدْ أَسْرَعَ

ولم كانت جميع هذه الأنماط تشترك في تعبيرها عن أصل واحد ، فهي تختلف في الزيادات التي تحدثها في أصل المعنى ، وهذه الزيادات لتحقيق ملاءمة بين أعراس المتكلم ومقاصده ، وطاغات التعبير لكمنة في اللغة ، إذ لو لا هذه الأنماط المختلفة في التركيب حدثت القطيعة بين تجربة الإنسان ووسيطه في التعبير ، ولانتهال انتصرف فيها بكيفية تجعل منها سوكة فردي متميز ولاستحال ، بالاستتباع ، الأدب وجميع الأنشطة التي قوامها البحث عن فصل شخص على شخص في التصوير باللغة .

ولم كان المتكلم يحدد طبيعة عرضه ووجوه التعلق بين عناصره في نفسه ويختار من فكره دلت « معاني السحر » على تطابق المستوى المنعوق ، وهو « لذكور » ، في مصطلح الحرجاني ، مع نفس الفكرة قبل أن تشكل ، أي التطابق بين النموذج والمثال ، أو بين الجوهر والصورة إذا اعتبرنا الجوهر ترتيب لفكرة في العقل والصورة الشكل اللغوي الأحواف التي يصرغ فيه ذلك سبق المنعوق .

وإذا لم يتم التطابق المذكور فقد انظم والتمت الطرق المؤدية إلى العرض و صغر القارئ إلى إعادة تركيب الأجزاء وتنسيقها حتى يحصل على صورة معنى وقد برزت هذه المعاني في تحليل الحرجاني لمادح من الشعر العربي نعت أسلافه على فسادها إلا أنهم لم يستطيعوا تحليل وجه الفساد ، أو كتروا عبارات محملة لا تفي بالغرض ، فجميع النقاد يعتبرون ست هرزدو ، (طويل)

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا مُمَلَّكَتَا أَبُو أُمِّهِ حَيْثُ أَبُوهُ يُقَالُ لَهُ

فاسدا لأن فيه معازلة بين الكلام وتقديما وتأخيرا . على غير لوجه .
ولم يزيدوا على هذا التفسير شيئا ، أمّا الجرجاني فقد بين هناد بطمه اعتماد
الأصل الذي ذكرناه وهو المفارقة الحاصلة . فيه ، بين ترتيب المعاني في الفكر
وترتيب الألفاظ في الذكر يقول في التعليق على هذا البيت

« من غير أن يتصور أن يكون دمه للفظه من حيث إنك أنكرت شيئا من
حروفه أو صادفت وحشيا غريبا أو سوقيا ضعيفا أم ليس إلا لأنه لم يرتب
الألفاظ في تذكر على موجب ترتيب المعاني في الفكر هكذا وكذا ، ومنع
استماع أن يفهم العرص إلا بأن يقدم ويؤخر ثم أسرف في بعض سطره
ويبعد امرم وصار كمن رمى بأحراء تألف منها صورة ولكن بعد أن يرجع
فيها بب من الهندسة لمرط ما عاوى بين أشكالها وشدة ما حذف بين
أوصعها (1) .

فاسطم أو معاني النحو هو حصوع الكلام لواميس الفكر وبروره
على هيئة تحاكي الروابط المقتضية التي يسميها بين المعاني فتكون البنية للعوية
صدى لبنية عقلية ... مطلقة سابقة -

ولئن كانت الألفاظ مفردة غير قادرة على محاكاة الفكر لأنها تحدث
بالاصطلاح والتواضع ولا يقوم بظم حروفها على رسم من العقل دون علاقات
التي تنشأ بينها في السياق قادرة على تلك المحاكاة ولا بد أن يكون بينها وبين
معاني الحاملة لها شبه .

وهذه السرعة الذهنية الطاعبة على تفكير الجرجاني تفسر اهتمامه السالغ
بالتراكيب وإهماله تدوير الصوت والكلمة إعمالا يكاد يكون كيبا . فكان

(1) أسرار البلاغة ، ط. جليلي ، 113/1 .

نقطة . في نظره تنحصر في التراكم التي توفرها للمستعمل لأنها وحدها
المتدرة على تحقيق التوافق بين اللغة والتفكير (1) .

ومنى وصلنا إلى هذا الحد تراعى سؤال مهم : هل أن نظرية النظم
« صرية لغوية أساسا تصف عملية الكلام في عموميتها سواء كان الكلام قولاً
عادياً أم قولاً فنياً » أم أنها نظرية لتحليل الكلام البليغ وبيان أسباب حدوثه ؟
إنّ دراعي طرح هذا السؤال عديدة . فالقدماء يشيرون إلى منزلته في
النحو والعلم بالغة ويستكنون ، في الغالب عن جهوده البلاغية (2) ، وقد نفهم
من هذا موقف أنهم يعتبرون نظرية النظم ، وإن لم يذكروها صراحة ،
نظرية نحوية ، في حين اعترضه المحدثون من أئمة البلاغة ورأوا « أن عبد القاهر
لم يأت بجديد في النحو والصرف والعروض ، على الرغم من أن بعض مؤرخيه
يطلق عليه لقب إمام النحاة ولكن الشيء الخالد في آثار عبد القاهر هي آراؤه
البلاغية » (3) .

ولا شت أن الإطار الذي نرت في المؤلف نظرية النظم وطريقته في
تحديد ما يجعلان التأويلين ممكنين متى نظرنا إلى المسألة نظرة عامة : فهي

(1) هذا شبه غريب بين أصول تفكير الجرجاني القوي وأصول النحو المسمى « النحو بور
روي » (Grammaire de Port Roy) - تفرع تسابع عشر - ، فأصبح هذا
النحو كتاباً يروى به نظام عام متفق أمه على كل وقت ، ولا يتأثر بالتفروق
السوقية فيها . وكان من أهم الأسس التي أقروها القبول بأن اللمة محكمة للمكر ، وهي
محكمة لا تقع بالألفاظ وإنما بالنظم الحاصل فيها في كسبان . وكان موقفهم من صرامة
الحاصلة بين « صرحه كواقي الكلمات من تجربة القسوس وبين الوحدة الجوهرية بين أجزاء
المكره شيئا بموقف الجرجاني فاستطاعه يعلون التفكير تحليل لا يمتص في وحدته
فيصوبها . في « مرسوخ » و « محمول » ويصرهون كل طرف بالاستناد على الطرف
آخر ، ومن ثم يمكن التحليل القوي أن يراعى وحدة المفكره إذا جازي هذا التحليل
شأنه ومن هنا جاء الحرص على الاستناد واعتبار الكلام يدور على مستند واحد .

① Ducrot et T. Todorov : *Dictionnaire encyclopédique des sciences
du langage*, pp. 15-19.

ونظر مقالة : ميشال فوكو (Michel Foucault) الطبعة الجديدة للنحو بور روي ،
بريس 1969 .

(2) سمر ، ماصيل ذلك عتة أحمد مطلوب ، عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده ، ص
18 - 19 .

(3) أحمد أحمد بدوي ، عبد القاهر الجرجاني ، سلسلة أعلام العرب ص 55 .

من جهة . أساس منهجي للوقوف على أسرار البلاغة ورأس الأدلة على إيجاز
القرآن . وهذا يعني أن تطبيقها والتحقق من فعاليتها في التحليل رفسطاً
بمصوص تمثل قمة الموروث الأدبي في الثقافة العربية الإسلامية . وهي من
جهة أخرى . لا تعدو أن تكون الالتزام بمقتضيات علم النحو والعمل على
قوانينه وأصوله . وهذا يعني . مبدئياً . أنها صالحة لوصف كس صروب
لكلام لأر اسحو شرطاً لا يستقيم بدونه كلام .

فما هي حقيقة موقف الجرجاني ؟

أشرد في فصل « الحقيقة والمجاز » (1) إلى أن الجرجاني يصف الكلام
صنفين . صنف نصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده و صنف نعبر فيه
إلى المعنى بواسطة . ويمثل الصنف الأول القول التواصلي العادي أما الصنف
الثاني فهو القول الفني الذي يحمله صاحبه مقاصد زائدة على أصل معناه .
والفرق في القيمة بين الصنفين مردّه . في رأيه . اختلافهما في كيفية
النظم . فلما كان المعنى في الأول لا يحتاج إلى الصنعة والتصوير لم يحتج وضعه
إلى فكر وروية لنظمه وكان « سبيله في ضمّ بعضه إلى بعض سبيل من عهد
إلى لآل فخرطها في سلك لا ينبغي أكثر من أن يسمها التفرّق » (2) . وهو لا
يرى لهذا النوع مزية وحتى إن وجبت له مزية فهي بممناه ومتون ألفاظه دون
نظمه وتأليفه » (3) .

بفهم من هذا الكلام أن المزية التي تحدث بالنظم غير متوفرة في هذ
الصنف . وأن النظم بالمعنى الذي حدده صاحب « دلائل الإعجاز » لا تعق
له إلا بالصنف الثاني حيث تكون مسالك الربط بين الألفاظ دقيقة لا تدرك إلا
بالفكر للتطيمه ولا يوصل إليها إلا بشاقب الفهم .

(1) انظر ص 393 وما بعد من هذا العمل .

(2) دلائل الإعجاز ، ط. المنار ، ص 36

(3) نفس المصدر ، ص 77

ونؤكد هذا الاعتبار - في تفكير الجرجاني - بجعله الصورة و لصحة .
وهما أهم ما يعبر الكلام العادي عن الكلام الأدبي - من مقتضيات نظم
ونتيجة من نتائج - فكل كلام ساقى في ترتيبه مع ترتيب المعنى في نفس
يتولد عنه - بالضرورة - تصوير وصحة إذا لا يكون ترتيب في شيء حتى
يكون هناك قصد إلى صورة وصحة (1) . وهذا الرأي لا يحد من طرفه
سبها - في رأينا - فهم المؤلف الخاص للصورة - ويتمثل وجه الطرف في «قوب
بأن الانتقال من مستوى اللغة إلى مستوى الكلام تشأ عنه صورة ينتمى
لمعنى . معنى هذا أن كل فعل لغوي براعي في ترتيب أجراء الكلام ترتيب
المعنى في نفس هو عمل إنشائي من جهة أنه تصوير باللغة وتشكيل مادة م
يكس لها شكل قبل أن تخرج من الوجود بانقوة إلى الوجود بالفعل . وتكون
ذلك لغة اللغوية المبردة من أسماء وأفعال وحروف بمثابة مادة
الخام التي يعطيها النظم شكلها المميز شأنها شأن الذهب والفضة لا تصنع
منها أصناف الخلق إلا بما يحدث الصانع فيها من الصورة . يقوب في هذا
المعنى :

«وحدة الأمر أنه كما لا تكون الفضة حاتم أو الذهب أو سواراً
أو غيرهما من أصناف الخلق بأصنافها ولكن بما يحدث فيها من الصورة
كذلك لا تكون الكلم المبردة التي هي أسماء وأفعال وحروف كلاماً
وشعر من غير أن يحدث فيها النظم الذي حقيقته توحى معنى سحر
وأحكامه » (2) .

و واضح من هذا النص أنه لا يستعمل مصطلح الصورة بالمعنى الصوري
شائع في مؤلفات نقد الأدب ، والذي ندرج فيه وجوه المنجاز كـ الاستعارة
والكناية والتمثيل وإنما يستعمله في معنى أعم قريب من استعماله لمعناه

(1) دلائل الإعجاز ، ط المنار ، ص 373 .

(2) مصدر سابق ، ص 278 .

وقت يتبدلون بينها وبين المادة . وهي عنده درجة من التحرر . انعمني بسخصه
 صور من لأشكال اللغوية الماثلة في النص بعد سيرها بالنظر و التفكير . هي
 صورة لعقل في الكلام . إن صحت العبارة ، بمعنى أنها غير موحودة
 في ظاهر النص وإنما يتوصل إليها بالتعكير في العلاقات الحتمية التي نشأ عنه
 « واعلم أن قولنا الصورة إنما هو تمثيل وقياس لما نعنه بعقولنا عن
 شيء نراه بأبصارنا (...) فلما وجدنا بين المعنى في أحد البتس وبينه في
 الآخر بيسونة في عقولنا وفرقا عبرنا عن ذلك العرق وتلك البسونة بأن قلنا .
 للمعنى في هذا صورة غير صورته في ذلك » (1) .

ولتوضيح هذا المعنى وتدعيمه بكثير التجريبات من المقدرات بين الكلام
 وأشكال التعبير الأخرى كالتصوير والصياغة ، وبتبيين من هذه المقارنات إيمانه
 بأن "لأدب يستمد" مقوماته الأساسية من دانه اللغوي وطريقة التعبير عن معنى .
 وذن م يتتبع عبد القاهر هذا الأساس في الحكم بالقيمة الأدبية إذ سبقه إليه
 قدامة بن جعفر فإنه أول من حاول تحصيله وربطه بمضمون ملموس في ظاهر
 تصور متكامل لطلاقة القول وفصاحته فحاء الشكل ، في مصطلحه ، مرده
 لمعني النحو والصورة والمصعة التي هي محصول النظم بقول انحرادي في
 هذا المعنى :

« وإنما سبيل هذه المعاني سبيل الأصابع التي تُعْمَلُ بها لصورة
 وانقوش ، فكما أنك ترى الرجل قد تهدى في الأصابع التي عمل بها الصورة
 والنقش في ثوبه الذي نسج إلى ضرب من التحير والتدبر في أصل لأصابع .
 وفي موقعها ، ومقاديرها ، وكيفية مزجها لها ، وقرئيه إياها إلى ما م يبتدئ به
 صاحبها . وحاء نقشه من أجل ذلك أعجب ، وصورته أعرب كذلك حين
 شعر في توجيه معاني النحو ووجوه التي علمت أنها محصول النظم » (2)

(1) دلائل الإعجاز ، ص 389

(2) المصدر السابق ، ط خالجي ، ص 123 .

وقد تصل به المقارنة بين الكلام والصياغة إلى رسم مواراة نعمة بين شكل الصورة التي نشأ من تعليق الكلام في السياق وتلاحمها وانتظامها وشكل حيي التي يحسها الصانع من كسور الذهب والفضة وغايته من ذلك لتأكيد على تماسك عناصر الصورة واتسجامها وأخذ بعضها برقاب بعض بحيث إذا عبر جزءاً من أحزائها من مكانه فداعى بناؤها الكلي وتغيرت هيئتها وسحرت هندستها . يقول معاقبا على بيت بشّار المشهور : (طويل)

كأنّ مشار السّمع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل نهاوى كواكب

« فبيت بشّار إذا تأملته وجدته كالحلقة المفرعة التي لا تقبل التقسيم ورأيته قد صمغ في الكلام التي فيه ما يصنعه الصانع حين بأحد كسر من ذهب فيليديها ثم يصبها في قالب ويخرجها لك سواراً أو حلحلاً . وإنّ أنت حاولت قطع بعض الألفاظ البيت عن بعض كنت كمن يكسر الحلقة ويفصم السوار » (1)

نستنتج ممّا تقدم أنّ جمال العارة ، في رأي الجرجاني ، متولّد عن نظمها وترتيبها وفق ترتيب المعاني القائمة في اذهن . وأنّ النظم ، بمعنى الذي حدده ، خاصية موجودة في الكلام البليغ دون غيره من مستويات كلام الأخرى .

وهذا التصوّر يطرح إشكالا لا مئاض من مواضعه : فقد رأينا الرجز يلح في سياقات كثيرة من مؤلفيه على أنّ الألفاظ لا تميد حتى تؤلف فسرّاً خاصاً من التآليف ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب (2) . ورأينا في سياقات سابقة يعلّق فضل الكلام ومزيته بنظمه فهل يعني هذا أنه لا يرى فرق بين الفائده أي المعنى وبين ابلاغه ؟ وهل أُلّ ترتيب اللفظ على رسمه من العقل يضمن للكلام المعنى والجمال بالتزامن ؟

(1) دلائل الإعجاز ط. المبر : ص 317 : نحن نسطر .

(2) أسرار البلاغة ، ط. حصصجي ، 96/1 .

كن "نصوص الجرجاني تقريرا تخدم هذا التأويل أو هي لا تعرضه . على الأقل" ، محدثه عن المعنى لا يتفصل عن حديثه عن البلاغة والمصاحبة وتفصل والمزية إلا في بعض المواطن التي ضيق فيها من مدلول المعنى وستمعه مرادوا للعرض والموضوع في الشعر (1) . ويلاحظ القارئ وراء تحليلاته لأدبية لكثيرة مبدأ قارا يكاد لا يحيد عنه وهو أن كل سياق فني بالضرورة . حتى وكأنه من «مررة الفلاسفة القائلين بأن جمال الشيء هو في أن يكون أداة صالحة ليعبر ما أريد لها أن تفعله» (2) وهو موقف عقلاني بحث في فهم النحس صادر عن الاعتقاد بمرمديا القوانيس العقلية وتنسجامها وتنسقيها . فمضى حصص الفواهر لتلك القوانيس وجاءت على نسقها اكتسبت جمالا لأن «الحسن هو العقل معانغا في قوايس» (3) . ولما كان معنى الكلام يحصل من نظم وحدانه حسب مقتضيات قوائين العقل أصبح كل ذي معنى جميلا .

وإن صح هذا التأويل ، تكون البلاغة قد دخلت ، مع الجرجاني ، طورا جديدا لم تعد فيه القيمة الأدبية مربطة بنجاعة النص وتأثيره المباشر في متقبه لحسن لفظه ووضوح معناه وقربه من الأفهام بل أصبحت حصصيات في بناء المعنى تدرك بالعقل والتدبر والمثابرة على التأمّل لا بوقوع الألفاظ في السمع . كما لم تعد حقيقة الصورة ما يضمّنه الكاتب نصّه من وجوه امجر وصروب البديع وإنما هي شكل أجوف مقدر لا تحسّمه للغة وإنما لدلّ عيه وتكتفي بمجرد الإشارة إليه وعلى القارئ أن يبحث عن حدوده ورسومه بالمقارنة بين هيئة الكلام وما تقتضيه قوائين العقل والمطلق في مراتب المعاني وبنائها .

(1) انظر مثلا : دلائل الإعجاز ، ط. خفاجي ، ص 253 .

(2) ركي نجيب محمود ، العقول واللامقول في قرائنا الفكرية ، ص 249 - 250 .

(3) ص Raymond Boyer : *Histoire de l'esthétique*, p. 40

مكر إن كانت الصورة لا تفصل عن النظم . وكانت فصحة كلامه وبلاغته بسبب منه ، فأين تدرج وجوه المجاز ؟ وكيف يتمكن من انفاضة من كلامين روعيت فيهما أصول النظم وأأسسه ؟

لستور الأول ورد في « دلائل الإعجاز » في قالب اعترض لم يلاق مؤلف صعوبة في دفعه ، فمن البديهي أن المحارات ، ولا سيما ما قدم منها عن التشبيه ، كالاستعارة والتشثيل لا تولد إلا من تأليف العبارة ومن وجود علاقة بين طرفين على الأقل . مثله ومثبه به أو مستعار ومستعار له . يدسحن أن نتحدث عن المحار اللغوي ما لم نياشر توزيع الألفاظ في سياق ، ونعرف ما إذا كانت وجوه تعلق الكلام بعضها ببعض يجري على ما يقتضيه وجه الاستعارة وحقيقته ، أم وقع تعاورها إلى وجوه تخرج عن أصل الوضع . فالأساليب البلاغية من مجال الكلام لا من مجال اللغة ، ومن ثم أمكن للجرجاني أن يربط حدوثها بالنظم يقول :

« (.....) لأن هذه المعاني التي هي الاستعارة والكناية والتشبيه وسائر ضروب مجاز من بعدها من مقتضيات النظم وعنها يحدث وبها يكون ، لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلام وهي أفراد لم يشتوخ فيما بينها حكم من أحكام سحر ، فلا يتصور أن يكون هنا فعل أو اسم قد دحسته لاستعارة من دون أن يكون قد ألف مع غيره » (1) .

وكما برز النظم المجازات يدعمها ويكسبها رونقا وحس لم يكن بها في الأصل . فكثير من الاستعارات المبتدلة المعروفة تكنسي بالنظم . في رأي النحرجي ، قيمة أدبية رفيعة تلحقها بعيون الشعر وجواهره . مشر ديك قول النسي : (طويل)

وقيدت نسي في ذرائع محبته ومن وجد الإحسان ، قيدت قيده

(1) دلائل الإعجاز ، ط المثار ، ص 300 - 301

والاستعارة التي يتصمصها البيت مألوقة جارية على ألسنة العوام وهذا مما كان لها من
 قري من الحسن بالمسلك الذي سلك في النظم والتأليف (1) . ولئن لم يسن
 المؤلف حصص بعض المسلك في هذا البيت فإنه حاول شرحه في موطن آخر
 فالسر في جمال الاستعارة في قول الشاعر : (طويل)

وسالت بأعناق المطي الأباطح

لا يكتمس - حسب - في تشبيه مرعة سير المطي وسهولته بـ «ء بجري
 في لأبطح لأن هذا الصرب من التشبيه ظاهر معروف وإنما في امجر موقع
 من إصدقة لمعل « سأل « إلى فاعل لا تعلق له به في الأصل وهو « لأبطح » ،
 ثم من تعديته الفعل بحرف الجر « الباء » وحمل الضمير به الواقع بعد حرف
 امجر صورة بلاغية تقوم على دلالة البعض على الكل - الأعداء - إذ يو قد
 اشعر « سالف المطي في الأباطح لم يكن شيئاً » (2) .

ورتبة الوجوه المجارية بالسباق والنظم يفتح للمؤلف باب الإجابة
 عن السؤال الثاني المتعلق بأسباب فصل كلام على آخر .

فهي ارتباطها بالسباق دليل على أن فعاليتها أهمية نسبية ، وأن جمال
 النص لا يتوقف على وجودها فيه إذ لا يوجد أسلوب من الأساليب أو وجه
 من وجوه التعبير يقتضي استحساناً مطلقاً وتجب له افرية حبش ستعمل
 والتكبير ، مثلاً ، قد يجد له القاري - حسب الحرجاني - رونق وحسناً
 في بعض مواضع كتكبير لفظ « سؤدد » في بيت الحثري : (متقارب)

نقتل عبي حلفي سؤدد ساساً مرحى وبأساً مهيباً

و تكبير « دهر » في قول إبراهيم بن العباس : (طويل)

هو نأ دهر وأكر صاحب وسلط أعداء وعاب نصر

(1) دلائل الإعجاز ، ص 83 .

(2) مصرع السابق ، ط. المثر ، ص 60

« لا أنه لا يلزم عن ذلك » أن يروق أبداً وفي كل شيء (....) وأن لا يُرى في مكان إلا أعطسي مثل ذلك الامتحان ههنا » (1) .

فرد وقع الإقرار من جهة . بنسبة القيمة الأدبية والجمالية . ووقع الإقرار . من جهة ثانية ؛ بأن بعض الكلام « يفضل بعضاً ويتقدم منه الشيء » ثم يردد من فصله ذلك ويتروقي منزلةً فوق منزلةٍ ويعلو مرتبةً بعد مرتبةٍ ويستأنف له عاية بعد غاية حتى ينتهي إلى حيث تنقطع الأطماع وتحرر الطغى وتسقط القوى وتستوي الأقدام في العجر » (2) إذا أقررنا بكل ذلك فما هي الصواب التي نعرف بها ذلك الفصل ؟

أشرنا في تحديدنا لمعاني الحوإل أن الجرجاني يرى أن «بنية الدلالة الواحدة يمكن تحويلها إلى صيغ نحوية متعددة، وأن إمكانيات التعبير هذه، وإن كانت تشترك في أصل المعنى، تختلف في الخصوصيات التي تزيدها عن ذلك الأصل بحيث لا نجد بنية لغوية تؤدي ما تؤديه بنية أخرى بالضبط، وهو الأساس النظري الذي بنى عليه موقفه الرافض للسرقة، لأنه لا يتصور أن تكون صورة المعنى في أحد الكلامين أو اليتين مثل صورته في الآخر البتة، اللهم لا أن » يعمد عامد إلى بيت يضع مكان كل لفظة منه لفظة في معناها ولا يعرض لظلمه وتأليفه » (3) .

ولبن هذه الخصوصيات والفروق يعمد المؤلف إلى الإكثار من الأمثلة، فعمد بأخذ صيغتي التشبيه الآتين مثلاً :

ريد كالأسد
وكان ريدا الأسد

(1) دلائل الإعجاز ، 70 .

(2) « » ص 29 .

(3) مصدر السابق ، ط الحار ، ص 372 .

حدهم يشتركون في أصل المعنى وهو تشبيه الرجل بالأسد إلا أن النصبة الثابتة أقوى في الدلالة على المعنى لأنها حولت علاقة الشبه إلى علاقة تصديق وأوضحت بأن الرجل أسد في صورة آدمي (1) .

وهذه الفروق والخصوصيات لا حد لها . ففي قدرة الملمعة أن تُعبر عن لأصل المعنوي الواحد تُعبر عن شتى وأن تمدّ المستعمل بأشياء مختلفة من التركيب يؤدي بها ذلك المعنى وفق العرض الذي أُتم إليه . يقول الجرجاني في هذا المعنى :

« وإذا قد عرفت أن مدار أمر النظم على معاني المحووعى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيها فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غيبة تقف عندها ، ونهاية لا تجد لها ازيادا بعدها » (2) .

ومن تعدد الإمكانيات نشأ ضرورة الاختيار إذ يتعذر على الكاتب أن يحققها دفعة واحدة في السياق وهذا الاختيار محكوم بمبدأين متضامين أولهما الملاءمة بين نمط التركيب والغرض - أي بين النبية الغوية الموضوعية وبنية الفكرية - النفسية الذاتية - وثانيهما الملاءمة بين المنصوين السابقين ومتطلبات السبق الذي ينجز فيه الكلام لأن المزايا في النظم تحصل « بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام ثم بحسب موقع بعضها من بعض وبتعمال بعضها مع بعض » (3) .

وفضل كلام على كلام رهين اختيار المتكلم ودرجة توفقه إلى مراعاة مبدأين المذكورين . كما أنه رهين الخصوصيات التي يحدتها في المعنى وتسبق أحزانه بعضها مع بعض حتى « يكون لوضع كل حيث وضع عنه تقتضي كونه هناك وحتى لو وضع في مكان غيره لم يصلح » (4) وهذا أيضا

(1) دلائل الإعجاز ، ط. خفاجي ، 258 - 259 .

(2) مصادر الديق ، ط. المنذر ، ص 59 .

(3) مصدر الديق ، ط. المنذر ، ص 70 .

(4) مصدر السابق ، ص 40 .

يخرج الحجاجي إلى المقارنة بين التفاضل في الكلام والتفاضل في التصوير وتبين لأصابع ويرى أن كما أن فصل صورة على أخرى يعود إلى حسن اختيار مصور لدات الأصابع وقدرته على التنسيق بين مواضعها ولباسه بين مقدبره ونطقه في مزجها وترتيبها كذلك يفضل الكلام الكلام إذا كانت مناسبة مطبقة لأعراسه ومعانيه وكانت أجزاءه متناسية متلائمة يذوب بعضها في بعض حتى يصير قطعة واحدة (١) .



يمكن أن يعتبر . في الخلاصة . أن البحث عن مهبج لتجديد بلاغة الكلام كان من الاهتمامات الطاغية على جهود العلماء في الفترة الدالة التي تقع بدايتها الخامسة في أواخر القرن الثالث وبداية القرن الرابع هجري . ولعلنا لا ندلغ إن قلنا إنه العامل الأساسي في نفاء التفكير البلاغي حيا متجددا إلى هذه الفترة متأخرة رغم تبلور مادته واستقرارها قبلها بكثير .

وتبرر هذه الجهود المبهجة في شكل « صراع » بين تصورين تعيش منذ فترة التأسيس عندما طرح الجاحظ مسألة المجاز في تحليله للشعر والكلام ومسألة سطم حجة لإعجاز القرآن

يرى أصحاب التصور الأول أن الملاءمة في العبارة مفصلة عن السياق الذي ترد فيه ولذلك تصوروا إمكانية تصنيفها وتوحيها لاعتقادهم بأنها تتضمن قيمة في ذاتها . أما أصحاب التصور الثاني فيرون أن القيمة الفنية قيمة سيديفة تبرر من تلاحم عناصر النص ونماسكتها ونظمها وأنه لا يمكن أن يكون لأسلوب من الأساليب أو وجه من وجوه التعبير قيمة مطلقة

وحتى أن هذين التصورين لم يظهرأ بهذا الشكل . وعلى هذه الدرجة من التقابل ، إلا في محاولتين تحتلان طرفي الفترة وهما محاولة عبد الله ابن المعتز

(١) دلائل الإعجاز ، ط أنبار ، ص 316 .

ومحاولة منه لفهر الحرجاني . أمّا ما بين هذين الطرفين فقد كانت موفى
متسديده بين بلاغة الصارّة وبلاغة التأليف .

ومن أكبر أسباب التذيدب . في رأينا . ارتباط منطلقات التأليف في تلك
الكتب بمقتضيات العاملين الهامين في نشأة التفكير البلاغي وتصوره . وهما العمل
الأدبي والعمل القرآني فالأول كان يجرّها إلى النسبة التي شرّعها عبد الله
بن المعتز في كتابه الدّبيع ، والثاني كان يدفعها إلى اعتماد نظم الكلام
وترابضه .

ولابدّ من التأكيد على أنّ التذيدب المذكور ارتسم على كلّ المؤلفات
الواقعة بين بن المعتز والحرجاني سواء تعلقت نقد الشعر والأدب أو برعجز
القرآن وإن كنّا لا ننكر أنّ مؤلفات الإعجاز ساهمت أكثر من غيرها في بورة
بلاغة النص والسياق بحكم أنها تداولت مقولة النظم أكثر من غيرها وحولت
تعريفها وإبراز وجه بلاغتها .

ومع عبد القاهر انتهى الصراع بعلّة أصول المنهج القرآني الذي يرى
أن سبب إعجاز النص كامن في نظمه وماريعة بائه . وقد استطاع أن يصور هذا
المنهج على صعيدين : أولاً تركيزه على أسس نظرية ثابتة وإعصائه مضمونها
محموس يجعل منه أداة فعالة في التحكيم والتقييم . وإحراجاً . ثانياً من حيث
الإعجاز إلى مجال أوسع يضمّ كلّ أنماط الكلام التي بحيث يكون صالحاً
للكشف عن أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز في الآن معاً .

ج - الاجراء :

حاولنا في المصليين السابقين المخصصين لدراسة المفاهيم و سهج استجلاء موقف اللاعبيس من مسائل نظرية عامة تهم "مميزات الظاهرة الفنية عن سواها من أساطير التعبير بالغة، والأسس المنهجية الكفيلة بمحاصرة تلك المميزات ولكشف عنها وبحصص هذا الفصل لبيان طريقتهم في استخدام تلك الموقف وكيفية تطبيقها على أساطير الأدبية التي وقع تحليلها في مؤلفاتهم وعينتنا من هذا العمل معرفة ما إذا كانت الدعائم والأسس التي يقوم عليها رأيهم في بلاغة النص هي نفس الدعائم والأسس التي أقرتها المراحل السابقة أم لا "وعنى هذا سيجو تصور علاقة بين مختلف المراحل وتتمهم طبيعة التطور الحاصل في التفكير البلاغي وقد رأينا أن نركز دراستنا على " الصورة " : باعتبارها أبرز مظهر في "النص" ، استغيب اهتمام كل اللاعبيس . ومحورا من المحاور الكبرى في المعارك النقدية بين أنصار القديم والحديث . وسنهتم " بالتشبيه والاستعارة بوجه خاص لأن "جل" محاسن الكلام إن لم نقل كلها . متفرعة عنها وراجعة إليها ، وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها وأقطار تحيط بها من جهتيها " () .



إننا نشعر في التراث العربي من زاوية الصورة الفنية تشد انتباهه ثلاثة محاور أساسية هي بمثابة العلامات البارزة التي تتحرك منها وتزول إليها موقف "جل" النقاد والبلاغيين من الصورة .

أولها علة الاهتمام بالتشبيه على بقية الأنواع البلاغية واعتباره أصلا للاستعارة مما جعلهم لا يهتمون منها إلا بما يقوم عليه .

وثانيها ربطهم البراعة في التشبيه بتأليف المختلف والجمع بين العناصر المتعددة ، مع ما يقتضي ذلك من غوص على الشبه النادر ووقوف على العلاقة المنظمة الدقيقة ، وربطهم صحة الاستعارة بقيمتها بالمقارنة والمناسبة . وه صوح

(1) عبد القاهر الجرجاني - أمداد البلاغة : ط خايجي ، 120/1 .

علاقة بين المستعار منه والمستعار له ، وهي أحكام كثير الخيرة و لاستعرب
لا يبدو عليها ، في انظار ، من التناقض والتنافر .

وثالثها إجماعهم على أن وظيفة الصورة الرئيسية هي التمثيل حسني
للمعنى وه قلب السمع بصراة على حدّ عبارة ابن رشيق (1)

فكيف تولدت مختلف هذه التصورات في التراث النقدي والبلاغي ؟
وهل بالإمكان ردها إلى مبدأ قارّ يوحد بينها ؟

إنّ الإجابة عن هذين السؤالين تقتضي طرح سؤال آخر ، يتعمق بمعرفة
الأسباب الكامنة وراء الاهتمام بالتشبيه لاعتقادنا أن بقية التصورات متأنية من
هذا الاهتمام ومرتبطة به ارتباطا وثيقا .

سماذا الاهتمام بالتشبيه ؟

أول جواب يتبادر إلى الذهن هو الذي يُرجع اهتمام لائقه ولبلاغي
القديم بالتشبيه إلى شيوع هذا الأسلوب في الشعر الذي بنوا عليه تصوراتهم
الأدبية وأحكامهم النقدية ، بحكم أن النقد ممارسة متأخرة بالضرورة عن
لحلق الأدبي . ولا يمكن أن يصوغ قوانينه من دون الاعتماد على نصوص
يصفها ، ثم يجمع متشابهها ، ويصوغ ما تراه له قارّا ومثواترا فيها ، في
قوانين يمكن إجراؤها على كل النصوص المسووعة على نمطها

وليس من الصعب الاعتراض على هذا التفسير لسببين عني لأقرّ :
أولهما أنه يقوم على تصور متقوس لوظيفة النقد والناقد . فلو كان النقد
يعنى من لوصف ويبع من المخلق ، فهو سرعان ما يتحول إلى جهاز من
لأحكام والمعايير ، توجه العمل الأدبي وتسلط على الكتاب والشعراء ليسمحوا
على موبها . لتفاعل بين الكاتب والناقد أمر معروف . والعبية التعليمية لصيفة
يجرهر نقد . حتى لكان نقد الأدب وصناعته وجهان لنفس الورقة ومن
ثم يمكن لدقده أن يطور أبسط الظواهر برورا وأفلها تواترا وبصوح مبه
حكما بهتدي الكتاب يهديها .

وثانيهما أن هذا الجواب يقوم على افتراض غير متأكد البصحة . فليس من الثالث ، رغم انعدام الإحصاء المصنوع ، أن التشبيه كان ، أو على الأقل دمي . صورة الغالة على الشعر إلى الفترة التي ظهرت فيها أهم الآثار النقدية في القرنين الرابع والخامس . يدل على ذلك شعور النقاد منذ انقرب الثالث ، وقت بدأت حركات التجديد تفرض لونها الأدبي وتلفت الأنظار إليها ، بأهمية الاستعارة ولذلك أحلها ابن المعتز فاتحة كتابه المخصص بوجوه البديع وأنوع المعاني واقضى أثره في الإشارة إلى أهميتها والتبويه بمكانتها جمهور سداد . وإن نقرا متعاطفين مع التشبيه ، معترين إنه أشرف نكلام ومصدر لمصنعة والبراعة وقوام الشعر فإن رشيقي لا يحترق من اعتبار الاستعارة أفضل المجاز وأول أبواب البديع وليس في حلي الشعر أعجب منها (1) ، ومع ذلك يبقى منشأ التشبيه كأهم ميعبار لسيرة شاعر لأنه «أشد ما تكلفه الشاعر صعوبة لما يحتاج إليه من شاهد العقل واقتضاء بعيد» (2) .

ونفس الحاجة صالحة للرد على من قد يعتبر الاهتمام بالتشبيه مصهرا من مظاهر المحافظة المهيمنة على نقد الشعر عند العرب ، ونتيجة طبيعية للاحترام الفائق الذي يصرح به كل النقاد للأقدماء ومن ثم دعوتهم إلى تبعهم ولنسج على موالهم واتباع مذاهبهم المألوفة في القول والافتراء حيث انتهوا (3) حتى أنهم صاعوا من المعادلات ما لا يقوى على فهمه إلا متصع من صوب النظرية الأدبية عندهم كقولهم . «إذا اعتمد الشاعر الإبداع فمن سبيله ألا يحرج عن سنن القوم» (4) .

كما يمكن تفسير الاهتمام بالتشبيه بالاستناد إلى المقررات التي نهت عنها بعض الدراسات النظرية في الأدب ، وهي دراسات انهدشت من آداب

(1) العمدة ، 268/1 .

(2) صلي المصنوع ، 285/1 .

(3) لأمدي ، المواقفة ، 216/1 .

(4) المصنوع السابق ، 495/1 .

أمنية لكنها طرحت نفس السؤال تقريبا . وقد ربطت الاهتمام بصورة دور أخرى بطبيعة الروح المسيطرة على العصر الأدبي ، وتتلخص تلك الروح في نوع من الصراع بين قوى الإنسان المتعقلة وقواه المتخيلة . وكلما كان العصر أكثر انصباءً لأحكام العقل والمنطق ، برز التشبيه واحتلّ صدارة الأساليب ومقاييس : أما إذا تفهقت العقلانية الصارمة وتحررت ، بالاستتباع ، الحيث برزت الاستعارة ، لأنها تمنح الأديب حرية أكثر في تصريف مشاعره وتعبير عنها . ولهذا السبب شاع استعمال التشبيه وقوي الاهتمام به في العصور الكلاسيكية . بينما شاعت الاستعارة في أوساط الرومنسيين (1) .

وبن بدت بعض حواف الإجابة مقنعة ، فإن صيغة الخدس والتخمين الغالبة عليها تدفع إلى الاحتراز من تبنيها برمتها . كما أن إغراقها في التعميم ينقص من قدرتها على التفسير . بل إن الأخذ بها قد يؤدي فيما يخص تاريخ النقد والأدب عند العرب ، إلى مزالق كثيرة . فإذا كان هذا الإطار العام ينطبق على رجل مثل قدامة الذي يمكن تفسير إعراضه عن دراسة الاستعارة بترعته لعقبة المسطوية الصارمة ، فإنه لا ينطبق على عبد القاهر الجرجاني الذي لا جدال في أنه يمثل قمة من قسم الرعة العقلانية في الفكر العربي ومع ذلك فهو البلاغي الوحيد الذي ردّ للاستعارة اعتبارها وبوأها المكنة الأولى في ستم مقاييسه لتنظيرا وتطبيقا .

ث. الإجابة عن السؤال لا تثأني ، في رأينا ، إلا بدراسة لوجه نفسه واستعراض طريقة العرب القديمة في طرح مسائله من حدود وأنواع ووظائف وما يستحسن منه وما يستقبح ، عسانا تقع على العلة التي تبرر مكثه عندهم وتفسر . مثلي ، موقفهم المحترز من الاستعارة وتقييد استعمالها بجملة من الصوابط المرفقة .



عرف العرب التشبيه بأنه «العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حس أو عقل» (1) و«الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب متاب الآخر دأدا التشبيه» (2) . و«هو اشتراك الشيئين في صفة أو أكثر ولا يستوعب جميع الصفات» (3) وبأنه «أن تثبت لهذا معنى من معاني ذلك أو حكما من أحكامه» (4) .

وفي لثرث البلاغي والتقليدي تعريفات أخرى كثيرة لا نختلف عما ذكرناه إلا من جهة الصياغة ، وأغلبها مركز على بيان وظليته وموجبات حسنة أكثر من بيان حقيقته وحدته .

وحقيقة التشبيه . كما يتضح من هذه النصوص . هي التقريب بين الطرفين ومقارنة بينهما لاشتراكهما في معنى من المعاني أو صفة من الصفات أو في حال وطريقة . وسواء أكان مجوز تلك المقارنة الحس أم العقل ، لا بد أن تبقى العلاقة بينهما علاقة اشتراك وتمايز في نفس الوقت ، إذ «أنه من الأمور المعروفة أن الشيء لا يشبه بـمسه ولا يعبره من كل الجهات ، إذ كان الشيطان إذا تشابهها من جميع الوجوه ولم يقع بينهما تفاير البتة لحد فصدر الإثتن واحد . فبقي أن يكون التشبيه إنما يقع بين شيئين بينهما شترك في معدن تعميمها ويوصفان بها . واقتراق في أشياء يترد كل واحد منهما عن صاحبه بصفتها» (5) .

ودفعا لأسباب التداخل والاختلاط . اشترط البلاغيون أن يكون الحد الأدنى للتشبيه وحدود الطرفين الأسامين : المشبه والمشبه به . وما عد هذا النوع

(1) انظر الرماني ، النكت في إعجاز القرآن ، ص 74 .

(2) المكري ، التصانيع ، ص 245 .

(3) النورسي ، الأقصى القريب ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، 1327 ، ص 41 .

(4) أسرار البلاغة ، ط. احتشوت ، ص 78 .

(5) قدامة بن جعفر ، نقد الشعر ، ص 55 . انظر في نفس المعنى ، ابن رهب الكاتب البرهاني في وجوه البيان ، ص 76 : المكري ، التصانيع ، ص 243 .

ي بسموه ، التشبيه الليمغ ، فإن ذكر الأداة ضروري . لأنها تمثل علامة
ماديه ، فصلة بين الطرفين . وتقوم بدور المنبه الذي يذكر القارئ بأن فتر
الطرفين إنما هو أمر يعتمد على المسامحة والاصطلاح لا على الحقيقة (1)

ومن هذا المنظر ، يصبح التشبيه ضرباً من القياس ، لأنك تشترك طرفين
في حكم من الأحكام لعل جامعة بينهما ، وقد تته البلاغيون لهذا الأمر فأدرجه
بعضهم في باب القياس (2) ، وعرفه بعضهم بأنه « قياس وقياس يجري
فيما نعيه القنوب وتشركه العقول وتستغني فيه الأفهام والأدهاب » (3) .
ونسأج الأوليه التي يمكن استخلاصها هي .

1 - أن التشبيه ، لاقتصاصه بقاء الطرفين متميزين ، يصمن ، كهرقة
في أد ، معنى ، نسبة عالية من الوضوح ، لأنه لا يداخل بين امراضعت ،
ويحترم الحدود الفاصلة بينها . وكل ما في الأمر أنه يربط علاقات
بين موضوع وأخرى لأسباب لا يستصى إدراكها . وهذا يعني أنه لا يسأل
تشويش في معنى السياق الوارد فيه ، بإفحام عنصر دال من سياق مفبر
كما هو الشأن في الاستعارة مثلاً ، وعلى هذا الأساس ، يمكن أن نفسر
موقف البلاغيين الذين رفضوا اعتباره من صنوف المجاز ، لأنه لا يتصمن
تحدور في دلالات الكلمات ولا يدخل شيئاً في حدود شيء ، حسب
عبارة الجاحظ (4) .

2 - ونبجة لما سبق ، تنحصر دلالات التشبيه في رصد وجوه المشاكبة
ومساة بين الطرفين والإخبار عنها . وبشروط في تلك الوجوه أن تكون
موضوعية محيقية . بمعنى أن ترتد إلى ذات الشيء ولا تبع « من المواقف

(1) بر رسيق ، النعمدة : 268/1 .

(2) نصر ابن هب الكتب ، المصدر السابق ، ص 76 .

(3) عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ، ط. خفاجي ، 112/1 .

(4) الحيوان ، 211/1 .

و لا معدلات الإنسانية التي يتشكل منها نسيج التجربة الشعرية » (١) . وهو
 م درج لقدد واللاغيون على تسميته بالصدق في التشبيه . وقسموه إلى مرتبة
 وحصول كل مرتبة بما يوافقها من الأدوات والأفعال الموقعة للتشبيه .
 « فما كان من التشبيه صادقا قلت في وصفه كأنه أو قلت ككده ، وما قرب
 صدق قلت فيه ترااه أو تخاله أو يكاد » (2) .

ولكن ما فائدة الإخبار بوجود التشبه ؟

تؤكد كل النصوص التي جمعناها على أن العرض من التشبيه الإجابة
 عن معنى وتوضيحه . والكشف عن مكسبه ونميله للحس ومشاهدة .
 ويبدو أن الترماني لعب دورا كبيرا في رسم المعاني الكسرى لوصيفة بصورة
 في الموروث النقدي واللاغي . لأن المصادر بقيت إلى القرن السادس
 تردد آراءه بلفظها أو بمعناها ولا تخرج عن الأصول التي أرسدها ، وب
 صورتها وزادت عليها .

ولماني يذهب إلى أن التشبيه البليغ هو « إخراج الأغصان من لأظهر
 بأداة التشبيه مع حسن التأليف (...) و الجمع بين شيئين بمعنى يجمعهما
 يكسب يدل فيهما » (3) . وأخذ عنه العسكري هذا المعنى وأضاف إليه عنصر
 « التأكيد » الوارد في نظرية ابن جني في وظيفة المحاز عامة فحدد بلاغة
 تشبيه قائلا إنه « يريد المعنى وضوحا ويكسبه تأكيدا » (4) وهو ما يفسر في
 رأيه ، إطباق جمع المتكلمين من العرب والعجم عليه وحاجتهم الأكيدة إليه .

وقد زدات هذه المعاني تلبورا في كتابات ابن سب . لخصامي .
 ولا عرانة في الأمر . فالرحل نظر إلى مختلف الأساليب الملاحية من

(1) جبر أحمد عصمو ، للصورة الفنية ، ص 209 .

(2) ابن طباطبا ، هيار الشعر ، ص 23 .

(3) المكت في أعجاز القرآن ، ص 81 .

(4) الصناعتين ، ص 249 .

روية الفصاحة وهي عنده الظهور والبيان ، وهذا المعنى الذي نسه وأقام عليه مؤلفه « سر الفصاحة » هو التماسم المشترك الأعظم بين جميع الوجود ، وإليه ترند جميع الوظائف ، ومن بينها وظيفة التشبيه وهي تمثيل « لعبت الحكي » الذي لا يعتاد بالظاهر المحسوس المعتاد فيكون حسن هذا لأجل يصح معنى وبيان المراد ، ويسوق الحفاجي شواهد عديدة تستحيط بقاعدة لمقررة تذكر منها بيت امرئ القيس المشهور : (طويل)

كأن قلوب الطير رطبا وباسا لدى وكرها العتاب وحشف البالي

وهو من التشبيه المقصود به إيضاح الشيء لأن « مشاهدة العتاب وحشف البالي أكثر من مشاهدة قلوب الطير رطبة وباسة » . إلا أنه شعر إراء شواهد أخرى من قبيل بيت النابعة الديباني : (طويل)

فذلك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتسأى عنك وسع

ومن قيس قوله تعالى : « وله الجوار المشتات في الحر كالأعلام » (1) . شعر أن الاقتصار على وظيفة التوضيح لا يسمح باستحراج ما في المثالين من بلاغة ، فأهم ما فيهما المبالغة في الوصف بأن شبه الشاعر ممدوحه بثلين الذي لا يصد دونه حائل وشبه الله الملك بالجمال إيرادا لغزتها ومناعتها وقدرة الحدث في تسخير الأجسام العظام في أعظم ما يكون من بناء ولهذا السبب أردف وظيفة التوضيح بوظيفة الغلو والمبالغة (2) .

وقد أكد البلاغيون على وظيفة التبيين والتوضيح عند حديثهم عن صورة من صور التشبيه المتطورة ، وهي التمثيل . فجددهم يقررون في شأنه نفس ما قرروه آنفا . يقول الرمخري موضحا العرض من استعمال الأمثال

(1) الزحراء/24 .

(2) انظر تفصيل ذلك في سر الفصاحة ، ص 235 ما بعدها .

والتشبيهات . « الأمثال والتشبيهات إنما هي الطرق إلى المعاني مستحجة في لأستر حتى تررها وتكشف عنها وتصورها للأفهام » (1) .

وربط وظيفة التشبيه . ومن ثم الصورة القمية عامة . بالتوضيح وشرح خلف في أصول النظرية الأدبية نتائج بعيدة الأثر . وطرح أمام سلاغيين والنقاد جملة من الإشكالات أرفعهم رصعها .

ومن نتائج الهامة اشتراطهم أن تكون الصفة أو الصفات المشتركة أشد وضوحاً في انشئه أو المقيس عليه حتى تحصل الإنابة التي تفرض لانتقال من لغامض إلى الواضح أو من الواضح إلى ما هو أوضح منه . ولذلك زدهرت في مؤلفاتهم امباحث المتعلقة بنوع طرفي التشبيه . وكانوا حريصين فيها على نوع من الترتيب يراعي المبدأ العام في مسار الصورة من « درجة الأدنى » إلى درجة لأعلى لا بالمعكس » (2) . وهنا أيضا قام الرماهي بدور كبير في تحديد أصول تلك المراتب ونظامها العام وهي عنده أربعة « منها إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة . ومنها إخراج ما لم تجر به عادة إلى ما جرت به عادة ، ومنها إخراج ما لا يعلم بالبدئية إلى ما يعلم بالبدئية ، ومنها إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة في الصفة . فالأول محور تشبيه المعلوم بدعائب ، والثاني تشبيه البعث بعد الموت بالاستيقاظ بعد النوم ، والثالث تشبيه إعادة الأجسام بإعادة الكتاب ، والرابع تشبيه صياء لسراج بضياء النهار » (3) .

وقد بقيت هذه الأصول مستحكمة في تناول جلّ البلاغيين لعلاقة طرفي التشبيه صلبة بضرورة التي تهمننا ، وما أضاعوه إليها لا يتعدى بعض الشواهد

(1) الكشف ، 497/2 ، يقول في الجزء الأول من 203 في نفس المصنف « أن التشبيه بما يصار إليه لما فيه من كشف المصنف ورفق الخجائب عن أضرغض المصنوب » .

(2) النسخة ، الألفي القريب ، ص 42 .

(3) المكت في إعجاز القرآن ، ص 81 .

أنسبه في أو الثمن في تجميعها ، والتركيز على بعضها دون بعضها الآخر كما
حدثت هذه الأصول بصفة نهائية وحارمه وظيفة الصورة في التراث البلاغي
والنقد

وكما صاغ الرمانى هذه الأصول صاغ الدعائم النظرية التي تشد أركانها
وتقع بحدودها ، وذلك بربطه بين الإثبات والتوضيح والإقناع وبين نعم
الحاصل من طريق الخواص . ولا شك أن رعة الرجل العقلية ، ودعه في
الكلام على مذهب المعتزلة ، وحلته بأوساط الفلاسفة والمذاهب ، حوت
أن يفسم أبحاثه البلاغية بشي ، غير قليل مما كان رائجا في بعض نبيذات حوب
نظرية معرفة

فقد نقل عنه ابن رشيح أن التشبيه « على صريين ، تشبيه حسن وتشبيه
قبيح ، فتشبيه الحسن هو الذي يخرج الأغصان إلى الأوضح فيفيد بيانا ،
والتشبيه القبيح ما كان على خلاف ذلك . قال : وشرح ذلك أن ما تقع عليه
الحاسة أوضح في الجملة مما لا تقع عليه الحاسة . والمشاهد أوضح من الغلب .
لأنه في العقل أوضح من الثاني . والثالث أوضح من الرابع ، وما يدركه
الإنسان في نفسه أوضح مما يعرفه من غيره . والقريب أوضح من البعيد
في الجملة . وما قد ألف أوضح مما لم يؤلف » (1) .

ورغم نواضع البعد النظري في هذا النص واعتقاده لنصوص أخرى
تدعمه ، إذ لم تصلنا عن الرجل نصوص نظرية ذات نال . فإن تعميقه على
العديد من آيات القرآنية الواردة في « النكت » يؤكد بصورة قطعية على
ترابط لإثبات والخمس ، عنده . واستمداد الصورة فيمتها وبلاغتها من
قدرتها على إبراز المجردات إلى مرتبة المحسوسات (2) .

(1) النكت ، 287/1 لم يذكر ابن رشيح المصدر الذي أخذ منه النص لأننا لم نلق فيه بهد . صدمه
في رسالة الرمانى النكت في إصجار القرآن .

(2) النظر خاصة ، ص 82 - 94 .

وسيصبح الخوص في مثل هذه المسائل وجها من وجوه الدراسة سلاعية
والقيدية . ويسود الشعور بين القائلين على الأدب بضرورة تدعيم هذه
التصور كل بحسب ثقافته العقلية وشغفه بالمطارحات الفلسفية فتداوله ثبو
حيث التوحيد في « الإمتاع والمؤانسة » (1) وتناوله بخاصة في « الهوامل والشوامل »
حيث صرح على مسكوبه سؤالا عن السبب في « طلب الإنسان ... فيما يسمعه
ويقوله ويتمعه ويرتبه ويروي فيه ... الأمثال ؟ وما فائدة المثل ؟ وما عدوه من
مآناه ؟ وعنى ماذا قراره ؟ فإن في المثل والمثل والمماثلة والتمثيل كلاما رائقا
وغاية شريفة » وقد جاء جواب مسكوبه حلقا من المعطيات الفكرية و لاعتبارات
النفسية . بجمع بينها حاجة الإدراك إلى الصورة . وحاجة العبد إلى الحس
لأنه مفتتحة ومرتبته الأولى يقول : « والسبب في ذلك أنسنا بحواس ،
والفتت لهما منذ أول كوننا . ولأنها مبادئ علومنا ، ومنها نرتقي إلى غيرها ،
فإذا أخبر الإنسان بما لم يدركه ، أو حدثت بما لم يشاهده وكان غريبا
عنده ، طلب له مثلا من الحس . فإذا أعطي ذلك أنس به . وقد يعرض
في المحسوسات أيضا هذا العارض . أعني أن إنسانا لو حدث عن اسعامة و لزرافة
والفيل والتمساح ، لطلب أن بصور له ليقيم بصره عليه ، ويحصل تحت حسه
لبصري . ولا يقع فيما طريقه حس البصر بحس السمع حتى يردده إليه
بعينه (.. ..) فأما المقولات فلما كانت صورها ألطف من أن تقع تحت حس ،
وأبعد من أن تمثل بشان الحس إلا على جهة التخريب صارت أخرى أن تكون
غريبة غير مأهولة . والحس تسكن إلى مثل وإن لم يكن مثلا . لتأنس به
من وحشة بعينه . فإذا ألفتها ، وقويت على تأملها بعين عقلها من غير مثله ،
سهل حينئذ عليها تأمل أمثالها » (2) .

وبعس الحجج تقريبا يرد عبد القاهر الجرجاني مكانه بصورة
وتأثيرها في السامع ، وإن صاغها في قالب أدبي أقل صرامة من قالب مسكوبه ،

(1) تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين ، مشروبات مكتبة الحياة ، بيروت (د ث) 2 84 .
(2) الهوامل والشوامل . ص 260 - 241 عن جابر أحمد عصور : الصورة الفنية ، ص 391 -
392 .

يقوم مسبب لم كان للتمثيل التأثير الذي له في النفوس : « إن أنس أسوس
موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي وتأنيها بصريح بعد مكثي . و
تردها في شيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعظم . وثقتها به في
معرفة أحكام ، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس ، وعما يعلم بالعكر
إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، لأن العلم المستفاد من جهة النظر والعكر
في القوة والاستحكام ولوع الثقة فيه غاية الثمام ، كما قلوا ليس الحبر
كالدابة » (1) .

وبناء على هذا تصبح قيمة التشبيه وفضل بعضه على بعض بحسب
تمكن وجه التشبيه في الحسية ولذلك فصل ناقد كالعسكري بيت امرئ
القيس / طويل /

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف الباي
صبي بيت بشار / طويل /

كأن مثر النفع فوق رؤوسا وأسيافا ليل تهاوى كواكبه
« لأن قلوب الطيور رطبا ويابسا أشبه بالعناب والحشف من السيوف
بالكوكب » (2) . وليس العسكري الناقد الوحيد الذي أعجب ببيت امرئ
القيس واعتبره العاية التي ليس بعدها غاية ، فلقد كان الجمهور الأعظم من
اللائين وانتقاد يشاطره هذا الإعجاب ويمد البيت من عرائث التشبيهات
ودائعها . ويبدو أن سلطان البيت امتد إلى الشعراء أنفسهم فقد حكى ابن
رشيق في « العمدة » عن بشار أنه قال : « ما قرأ بي الفرار منذ سمعت قول
مرئ القيس » كأن قلوب الطير رطبا ويابسا حتى صحت :

كأن مثر النفع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه » (3)

(1) أسرار البلاغة ، ط. خفاجي ، 234/1 .

(2) الصاعق ، ص 256 .

(3) العمدة ، 291/1 .

ولم تحفت حدة الإعجاب ببيت امرئ القيس إلا في القرن الخامس عندما توفر بعد لقاهر أن يلور الفرق بين التشبيه والتشثيل ، وأن يطرح في المصطلح النقدي والدلالي مفهومي « التركيب » و « التعديد » كقياس فاصل في الحكم بجودة التشبيهات وتفاضلها . والفارق بين التركيب والتعديد أن من التشبيهات ما يتضمن تشبيه شيئين بشيئين أو أكثر ، ولكن لا يحصل منه امتزاج . ولا تحصل صورة لم تكن لهما في حال الإفراد ، وإنما يتجاور في المكاب فحسب مضامة الرطب من القلوب إلى الياض لا تنشأ عنها حياة جديدة في البيت ولا بالملء ، امتلاى انشكبين بصيران إلى شكل ثالث ، وليس كذلك بيت بشر لأن التشبيه « موضوع » على أن يربك الهيئة التي ترى عندها استمع انظم والسيوف في أنائه ، فبرق وتومض ، وتعلو وتحمض ، ترى لها حركات من جهات مختلفة كما يوحيه الخيال حين يحس الجلاد ، وتركض بفروسانها الجياد » (1) .

وعن هذا النحو طور الجرحاني نظرة أسلافه إلى جودة التشبيه ، وأضعف من المقياس الذي كان سائدا بينهم ، وقد كانوا يعدون ذلك من وجوه لتصرف المستحسن كأن يشبه الشاعر شيئا بأشياء في بيت أو امط قصير كقول امرئ القيس / طويل /

وتعصو برخص غير شتى كأنه أساريع ظبي أو مساويك اسحل (2)

وضيق مولدين بهذا البيت ورغبتهم عن تأثره . فيما تحكي مصادر ، لا يرتد إلى عدد التشبيهات الموجودة وإنما لأنهم استبشعوا تشبيه « أطراف الأصابع بدودة تكون في الرمل وتسمى جماعتها بنات النقا » وفصلوا به هو « أليق ماوقت وأشكل بأهله » كقول عبد الله بن المعتز / طويل /

أشرب على حواف وأطراف فضه مقومة أنمارهس عقيق (3)

(1) أسرار البلاغة ، ط. عفاحي ، 47/2 .

(2) قامة بن جعفر ، نقيد الشعر ، ص 39 .

(3) ابن رشيق ، الصلة ، 299:1 ص 59 .

وكان نحتمع تشبيهات كثيرة في بيت واحد كتشبيه امرئ ، بقيس
رعة بأربعة في قوله / طويل /

به أيضا صبي . وساقا نعامسة وإرخاء مراحان ، وتقريب نصل (1)

وبدء منه أيضا وعلى مقولة الصديق في التشبيه وفصروا التشبيهات التي
لا تحرم مبدأ انتقال الصورة من الأدنى إلى الأقصى أو التي تافض العدد
ووجهأو من عدد إلى منه به محتق لذلك ردوا قول الشاعر / ضويل

وحال عبي حديق بيد وكأنه سا البدر في دعجاء يد دجولها

« لأن الحدود يوص والمتعارف أن يكون الحال أسود ، فتشبيه محدود
بالبين والخل بصوء البدر تشبيه ناقص للعادة » (2) وخطأوا لكيت في
قوله / متقارب /

كأد لغطاسم في عليها أراجير أسلم تهجو غفار
لأن أسلم ما هجت غفار قط (3) .

وإذا تشبه النقاد والبلاغيون إلى خطر هذا المقياس على بعض تشبيهات
لقرآن وشعر النحول من الأوائل لخروجها عنه . واقتنعوا بأن ظاهرة تشبيه
لمعكوس أو انقلوب استعملت في الشعر وأصح الشعراء يتمسبون معها
على أنها عنون من عابوين البراعة وإتقان الصنعة . انقسموا إلى ثلاث فئات
فئة نحست (خاصة في طرق المشكل ، وتمسكت بالأصل . كما فعل بهسكري
سبي لحص مرقعه في سطرين يقول : « وقد جاء في أشعار المحدثين تشبيه
ما يرى بالعب ما يبال بالمبر . وهو رديء . وإن كان بعض الناس يستحسنه
» فيه من اللطافة والذقة » (4) .

(1) قصيدة ، المصدر المذكور ، ص 58 .

(2) أبي سنان الحفاني ، صر الفصاحة ، 241 .

(3) أبي سنان ، المصدر السابق .

(4) الصنعين ، ص 248 لاحظ عدم ذكره القرآن جمالية هذا الموضوع

ومئة ثانية رجعت إلى المصادر القديمة تستقيها ، ولا سيما أن الآية بني
أحر حثها شأنًا عند قلماء النحاة والبلاغيين عظيمًا (1) وجدت في تحريج
امرؤ الذكي ما ترفع به عنها الخرج ، بلون أن تضطر إلى تطوير لأصول
لتي عرسها لرماني . وقد استغلت ذلك التخرج لتبشيرها ما ورد في
القرآن والشعر معا . يقول ابن رشيقي :

« قال الله عز وجل » - (طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ) فقد قوم .
إن شجرة لرقوم وهي أيضا الأستن لها صورة منكورة وثمرة قبيحة يفر لها .
رؤوس شياطين . وقال قوم : الشياطين الحيات في غير هذا المكان .
والأجود لأعرف أنه شبه بما لا يشك أنه منكر قبيح ؛ لما جعل لله عز وجل
في قلوب الأنس من بشاعة صور الحي والشياطين . وإن لم يروها عيانًا فخوف
الله تعالى بما أعد للعقوبة . وشبهه بما نخاف أن نراه . وقال امرؤ القيس :

(طويل)

أيقنني والمشرقي مصاجمي ومسنونة زرق كأياب الأغوال
شبهه نص النبل بأياب الأغوال لما في النفس منها (.....) بوصفه بما
يتصور ويقوم في النفس : كأنه يفرق : لو كان صورة لكان هكذا (2) .
وفئة ثلثة اضطرت ، مع أخذها ، بالأصول إلى إعادة النظر في كيمية
تطيقها ، وسبل التحفيف من ثقلها ، حتى تشوعب حابيا هاما من شعر ،
لا يعقر أن نهدر قيمته الثقية من أجل خروج أصحابه عن النمط باميت أن
الكثير من منسوب إلى شعراء يشهد أنهم بالطبع والرقعة والتصنف أمثال
الحترقي وابن المعتز .

(1) هي قوله تعالى : « طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ » وقد ذكرت في أكثر من مناسبة في هذا البحث

(2) العمدة ، 288/1 وانظر أيضا من التفصاح : ص 241 وهذا يتخلل حريه تعريده ما
ورده في الكامل ، 79/2 ~ 80

ملك طرح عبد القاهر ، في القرن الخامس ، مسألة التشبيه انعكوس من حديد . وأفاض في شرحها محاولاً التوفيق بين واقع التجربة الشعرية ، ومقررات أسلافه من البلاغيين ، وليمكن التوفيق عدل من المفكره القاطنة بأن ، شبه به يحجب أن يكون أكثر تمكناً في الصفة من المشبه وأصل ، معنى الذي قصد ، ذاته . وذلك بأن قسم التشبيهات إلى قسمين كبيرين : قسم يقوم على جمع ومعين على وجه : يوجد في الشعر على حد ، ويوجد هو أو قريب منه في الأصل : (1) ولا يعني به المتكلم شيئاً غير المقارنة في مصنف لصورة وشكل ولون كتشبيههم المشرق بالنساء والنساء بالسرو وأبور الريض بدجوم وسجوم بالنور . فما كان على هذه الشاكلة استغناء فيه القلب .

وقسم بين طرفيه : تفاوت شديد في الوصف الذي لأجبه يشبه به : (2) ويكون غرض المتكلم من عقده إحقاق الناقص بالرائد مبالغة ودلالة هي أنه يفصل أمثاله فيه . مثال ذلك أن العرب إذا أرادت أن تباع في صفة شيء بالسود شبهته بالقار أو بخافية الغراب ، وهما ، لأصل في شدة لسود ولا معنى لعكس التشبيه في هذه الحالة ، لأنك تنقص العدد ، وتعكس ما يوجب له عقل ، وتقيس معروفاً على مجهول بله ضياع الغرض الذي من أجبه يؤتى بهذا الصنف من التشبيه . وعلى هذا الأساس افترض المخرجاني بقول أبي فراس يشبه الركة بالدروع / مجروء الكامل

نظير إلى زهر الربيع وأما في البرك البديع
وإذا الربيع جرت عليه في الذهب وفي الرجوع
شربت على بيض الصفا ثم ييسا خلق الدروع (3)
في حين أن الأصل هو تشبيه الجواشن والدروع بالقندور ، وصعق بيت
لشعري : (طويل)

(1) أسرار البلاغة ، ط. عمادي 74/2 - 75 .

(2) المصدر السابق ، 72/2 .

(3) المصدر السابق ، ص 62/2 .

على باب قسرين والليل لا طخ جوائبه من ظلمة بمداد

« ودلّك أد المداد ليس من الأشياء التي لا مزيد عليها في السواد كيف
وربما مداد فاقد اللون . والليل بالسواد وشدة أحق وأحرى أن يكون
مثلا (1) » .

ولكن هذه التدقيقات لا تغير من جوهر الأصول شيئا . وقد بقي
الجرجاني في نطاق المبادئ والأصول العامة التي التزم بها أسلافه ومن ثم
يمكن لقول بأن حسن التشبيه بقي . في ألبار النقدي ، رهين قدرته
على التوضيح ودرجة اسجانه مع الأصول المقررة ومطابقته للحقيقة .

وقد ولد هذا التصور بعض السليات في تقدير العمل الشعري ، وأسم
النقاد إلى شيء غير قليل من التصلب في الحكم ، وتشديد الحاق على الشعراء
بتعقب أدق « سقطاتهم » تعقبا لا يحلو من الخدقة والنصنع وربما من سوء
نية . فكانت استجابة شعر الشاعر للسادي المرسومة أهم إليهم من تجربته
الدائية ، وطريقته الخاصة في إعادة تركيب الأشياء من زاوية رؤيته لها ،
وتفاعله معها ، وصياغتها ، وفق الدفق الاصعالي المتولد فيه بمفعول تلك
التجربة .

فقد آخذوا أبا نواس لأنه أخطأ في وصف عين الأسد حيث قال :

كأن ما عيسه إذا نظرت نادرة الحفس عين مخسوق

بين مقتضي المطابقة بين الوصف والموصوف غير ما ذهب إليه شاعر لأن
« الأسد لا يوصف بحموظ العينين ، إنما يوصف بغرورهما » (2) . وهذه
لصورة يتحول العمل النقدي إلى نوع من المراجعة الغاية منها لتحقيق من
مطابقة الصورة للأصل مطابقة آلية تحترم كل الحزئيات .

(1) أسرار البلاغة ، ط. خفاجي ، 72/2 - 73 .

(2) صر النصيحة ، ص 248 .

وقد برز تشدد النقاد ، ولا سيما أنصار عمود الشعر منهم ، بصورة واضحة عند تعرضهم لشعر أسبي تمام الذي لم يكن يأبه ، في شعره ، بحترم كثير من عيقات التي تقتضيها مراسم الشعر ، ولم يكن يحصره الخروج عن طريقة القدماء في توظيف اللغة وبناء الصورة وتعاطي الأعراض

ومنذ وقت مبكر ، أثرت حول عهده الشعري كثير من الرّيب جعلت النقد حريصين معه ، وربما أكثر من غيره ، على تطبيق سمات العرب في التشبيهات والمعارات ومحاسن ومحاسن عسيرة ، أدت بهم إلى بعض التجني والمبالغة ، ويقتصر التأكيد ما قلنا على مثالين من « موازنة » الآمدي بينه وبين البحري . فقد حطأ المؤلف قوله : (طويل)

يوم كطول الدهر في عرص مثله ووجدي من هذا وهلك أطوب
فقد لا تكون لهذا البيت قيمة فية متبزة ، إلا أن اللافت لبظر أن الآمدي ركز نقده على عنصر من عناصر التشبيه الوارد في الصدر . وهو إسناد الشاعر للدهر « عرضاً » . ورأى أن ذلك يستحيل عقلاً وهو من « محض المحال » كما رفض تخريج الإسناد على المبالغة ، لأن الشاعر أتى على العرص في المبالغة بقوله « كطول الدهر » . ثم لما انتبه إلى أن الاستعمال قد يحسن على التوسع والمعار . قال إن صنعة البيت على حقيقة بحاجة « أن امجاز في هذا (استعمال الطول والعرض في الحديث عن الدهر) له صورة معروفة وألفاظ مألوقة ، معتادة ، لا يتجاوز في البظر بها إلى ما سواه » ويأتي ببعض الاستعمالات التجارية كقول العرب : « عش في حفص ودعة ربما طويلاً عريضاً وما زلنا في رخاء ونعمة الدهر الطويل العريض » وهم يريدون تمامه وكماله وسعته . ويختم تعليقه على البيت قائلًا « فهذا حرى على هذا اللفظ المستعمل حسن ولم يقبح وإذا علم به عن هذه الطريقة وهذه الألفاظ المألوفة إلى ما يشبه الحقائق أو يقاربها كان محضاً » (1)

(2) الموازنة ، ص 174 - 177 .

وينتهي في هذا التحليل شيء غامض لم تساعد التواءات الآمدي في
الاحتجاج على توصيحه . وهو السبب في اعتباره البيت مخرج مخرج
لحقيقه بما إرادة التشبيه والتشثيل واضحة فيه . ثم لماذا يقس السقف أن
نكون عذرة « كقول الدهر » مستعملة على الحقيقة ولا يقس إصافة
« انعرص » على نفس السقف ؟ لا يمكن تفسير ذلك . في رأي . لا بد
أدخلك في الاعتبار أن الشاعر هو أبو تمام . وأن الناقد هو الآمدي الذي
يستطيع . رغم ما تقتضي « الموازنة » من حياد . التخلص من التصورات
الأثرية سديه . وميوله الدفينة إلى مذهب الأوائل ، وعمود الشعر المؤلف .
ولا بد منه بالإمكان . لو توهم الاعتقاد الحسن والظن الجميل ، فهي أظنة
عن لشاعر ولاعتذار له بأن عظم الوجد المعتمل به دفعه إلى « تكسير »
طوق لاستعمال ، والتصرف في اللغة على نحو بلائم غرضه في التعبير .
إلا أن الآمدي لم يكن كلما بالبحث عن ذات الشاعر في شعره كمنه بمعرفة
مدى خضوع ذلك الشعر للقوانين المسطرة .

وتتجس سلبيات هذه الطريقة في التقسيم في المثال الثاني أكثر من
لمثال الأول ، فمن الأخطاء المحسوبة على أبي تمام قوله : (طويل)
دعا شوقه يا ناصر الشرق دعوة فلباه طلق الدمع بجري ووابسه
ويرتد حطاً لشعر في رأي الآمدي ، إلى أن هذا البيت إنما هو نصرة
لشوق على الشوق . والدمع إنما هو حرب للشوق لأنه يثلمه ويتحونه
ويكسر منه حده . . فلو كان الدمع قاصراً للشوق لكان يقويه ويريد
فيه « (1) » .

ورغم أن البيت لا يدخل مباشرة في موضوعنا . لأن اقتضاه لا يقوم
على صورته ذاتها ، فإنه يصلح لبيان ما نحن بصدده من تعقيد لقدم

(1) الموازنة ، ص 196

صور الأشياء كما يحددها فهمنا العادي لها وقياسه دواعي الشعر على مصنفها

محس لا نطعن أن الاعتبارات التي راعاها الأمدني في نقده ردد كرف لاقتحام تحسرة الشعر وكشف المعاناة التي يعيشها الشاعر والأدب ، مماقشة هل أن الدمع إذكاء للشوق أو إخماد لجفونه هو من قبيل « شجريح والتعدين » الذي قد يصلح في علوم الفقه ولكنه لا يلائم طبيعة الشعر . ولا نرى سببا موضوعيا يحمل الناقد على التثبيت بربط العجز بالصدر ربط نتيجة بأسبب ويحمل « الحال الشعرية » التي يحملها البيت عن قائله وبولدها في متقبله ، بصرف النظر عن مطابقتها لمطلق الترابط العلي . وقد تختلف المواقف من قيمة البيت وتباين التأويلات إلا أننا نستعد أن يقتصر من لا يستحسنه في الحجة على هذا النوع من الخطأ .

ويعود هذا الإغراق في التشقيق عند الأمدني ، وعند كثير من النقاد غيره ، إلى مسألة الوضوح والإمانة ، ووجوب تحقيق التشابه لكامل بين المشبه والمشبه به ، وباء الصورة على مشوار اتقدمات بحيث تصور لنا الأشياء بصورها وتستوعب الموصوف « فتراها نصب عينيك » (١) .

ومنى وصلنا إلى هذا الحد تراءى سؤال مهم يتعلق بدور الشعر وفضل الشاعر . فإذا سلمنا بأن وظيفة التشبيه وإفهامية وأن دور الشاعر نفس ما يشهد نقلا أميا يحقق التطابق الآتي بين الأصل والمثب ، نساء لنا عن دور الشعر ووظيفته ، إذ لا فرق ، في هذه الحالة ، بين هذا الشكل الفني المتميز وبقية مستويات اللغة التي في إمكانها أن تقوم بوظيفة لإفهام من دور أن تلتزم بقيود الكتابة الشعرية . كما نساء لنا عن فصل الشاعر على غيره من الناس . إذ لا تقتضي الأمانة في الوصف قدرات خاصة

(١) الصديقي ، ص ٢٣٤ .

فمن النقاد والبلاغيون العرب إلى هذا الإشكال المترتب عن القيود التي أحاطوا بها مباحث التشبيه ، والصورة . وحاولوا أن يحييوا عن هذه لأسئلة إجابات مختلفة يمكن تصنيفها إلى صنفين : (1)

صنف أول ويمثله ابن طباطبا وقدامة والآمدي والعسكري و...
سان . يرى أن حسن التشبيه موقوف على كثرة الوجوه الجامعة بين المشبه
والمشبه به كثرة تقرب بهما إلى حال الاتحاد حتي أن التشبيه « إذا عكس
لم ينتقض » بل يكون كل شبه بصاحبه مثل صاحبه . ويكون صاحبه
مثله مشتبها به صورة ومعنى (2) . وتبرر قيمة الشاعر من هذه الرؤية
في قدرته على إدراك أكثر ما يمكن من وجوه الشبه بين الطرفين عند مقاربة
حتى يقوم التشبيه على ضرب من اللياقة المعنوية ويفتقرن الطرف بما قرب
منه أو دنا من معناه . ثم إن الشعراء يتفاوتون من جهة التصرف في تلك
الوجوه كأن يشبه شيئا في تصرف أحواله بأشياء تشبهه في تلك الأحوال
كما قال امرؤ القيس يصف الدرع في حال طيها : (المقارب) .

ومشدودة السك موصونة تصاعل في الطي كدبره

ثم وصفها في حال النشر في هذه الأبيات فقال :

تفيض على المرء أرادانها كفيض الأنثى على الجاحد (3)

(1) نجد أصول ذوي المصنفين عند الفارابي في مقالاته في قوانين صناعة الشعر ، عندما يقول
«وجود تشبيه يختلف من ذلك ما يكون من جهة الأمر نفسه بأن تكون المثلثة قريبة
ملائمة وربما كان من جهة الخلق بالمعنى حتى يجعل المتباين في صورة ثلاثين
مزيدات في الألفاظ ما لا يحصى على الشعراء فمن ذلك أن يشبهوا "أب" و"ج" كل
أن يوجد بين "أ" و"ب" مشابهة ملائمة مصرية ويوجد بين "ب" و"ج" مشابهة مصرية
ملائمة مصرية ، فيدرجوا الكلام في ذلك حتى يحيط بالسامعين و مشدين مشبه
بين "ب" و"ج" وإن كانت في الأصل بعلة » ص 157 من كتاب عبد الرحيم بنوي
فن الشعر لأرسطو طائيس .

(2) ابن طباطبا ، غيار الشعر ، ص 11 . وانظر ، نقد الشعر ، ص 55 .

(3) نقد الشعر ، ص 59 .

أو أن يأخذ الشاعر في طريق غير الطريق الدارجة بين بقية الشعراء في تشبيه شيء بشيء . مثال ذلك أن الشعراء التزموا في عامة شعرهم تشبيه الحود بالبص فحرج بعض الشعراء عن طريقهم وشبهه بريقها : على رؤوس الحدادين تعدو بهم الخيل ، بالكواكب فقال : (طويل)

علم أن إذا الخيل تعدو كأنما — ستورها فوق الرؤوس الكواكب (1)
ومن وحوه لتصرف أيضا أن يلتزم الشعراء تشبيه شيء بشيء من جهة ما
فيأتي شاعر آخر ويعقد التشبيه من جهة أخرى . يقول فلانة : " إن جل
الشعراء يشبهون الدرع بالغدير الذي تصفقه الريح كما قال أوس بن
حجر : (طويل)

وأملس صوليا كنهى قرارة أحس بقاع نفخ ربح فأجفلا
« (. . .) وكثير من الشعراء ينحون في تشبيه الدروع هذا المنحى وإنما
يلهبون إلى لشكل ، وذلك أن الربح تفعل بالماء في تركيبها إياه بعضا على
بعض ما يشبهه في حال التشكيل بحال الدروع في مثل هذا الشكل . فقد
سلامة ابن جندب عادلا عن تشبيه الشكل إلى تشبيه اللين ، وذلك أن اللين
من دلائل جودة الدرع لصغر قشرها وحقها : (طويل)
فألقوا لك أرسان كل نجية وسابقة كأنها متن خرق « (2) .
واخترق ولد الأرقب .

لا أن قدرة الشاعر وتضلعه من أصول صناعة الشعر تبقى ، في
نصر هذا الفريق ، رهينة ما يتم له من التشبيهات في البيت الواحد ولا سيما
بـ استطاع أن يصيب في كل واحد منها المقتل كما يقولون ، ولذلك
تدفنوا بيت الواواء : (بسط)

(أ) فقد اشهر ٤٠٠٠٠

(2) نفس المصاحف ، ص 61 .

وأسلت لؤلؤا من فرحى فسقت وردا وعضت على ألعاب دلد
وعشروه عذبة ما أنتهى إليه التشبيه وبقيمة الشعر العربي إذ « لا يعرف
هذا البيت ثا في أشعارهم » (1) وقد شبه فيه صاحبه خمسة أشياء بحمسة
أشياء : الدمع بالؤلؤ والنيس بالرجس ، والحد بالورد ، والأنامل بالألعاب ،
والشعر بالدرد .

وصف ثان ويمثله بوجه خاص ابن رشيق وعبد القاهر الجرجاني ،
يرى عكس ما يرى الصف الأول ويرفض مدأه العام في حسن التشبيه
وإن كان يتبنى الكثير من وجوه التصرف الواردة عنه .

وقد لجلى هذا الرعص بشكك قاطع في رد ابن رشيق رأي قدامة في
أفضل لتشبيه يقول : « ورغم قدامة أن أفضل التشبيه ما وقع بين شيئين
اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما ، حتى يدنى بها إلى حد
الاتحاد ، وأنشدني ذلك وهو عنده أفضل التشبيه كافة : (طويل)

له أبطالا ظهري ، وساقا نعامة وإرخاء سرحان ، وتقريب تنفل
وهذا تشبيه أعضاء بأعضاء هي عينا ، وأفعال هي هي أبطا بعينها ،
ولا أنها من حيوان مختلف كما قلت ، والأمر كما قال في قرب التشبيه إلا أن
لفضل الشاعر فيه غير كبير حينئذ لأنه كتشبيه نفس الشيء المشبه الذي ذكره
الرماني في تشبيه الحفيفة ، وإنما حسن التشبيه أن يقرب بين البعدين
حتى تظهر بينهما مناسبة واشتراك » (2) .

ووضح من هذا النص أن سبب الخلاف يرجع إلى قصصه فيه أدبه
بخاصة هي لبحث عن المسوغات التي تكفل للشاعر مكانته وللمس دوره
في نقد التصور العام لمسألة التشبيه . وابن رشيق حاد الشعور بأن المدأ

(1) الصاعق ، ص 257 .

(2) العمدة ، 289/1 ، نحن نطرح .

نعم، يندى ينتزح به الطرف المقابل لا يكفي لتصير المكانة المتميزة التي يحظى بها شعر وأشعراء في أدب كالأدب العربي مثلاً لأن المقارنة بين شئيين شتر كهم، في بوحه أكثر من انفرادهما لا تستدعي من القارئ لها قدرات خاصة لا تتوفر عامة الناس، فلا فضل للشاعر على غيره في عقد هذا التقين من التشبيات. وحتى إن كان له فضل فهو قليل لا يناسب مكانته ولا يستحق من أحله لقب الشاعر إذ «سمي الشاعر شاعراً، لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره» (١). ولكل هذه الاعتبارات قلب ابن رشيق أصرف لمعادلة وأصبح التشبيه عنده إيقاع الائتلاف بين المختلف بعد أن كان إيقاع الائتلاف بين المؤلف أو شبه المؤلف، ومن ثم اقترنت البراعة في التشبيه باستفطن إلى علاقات الحية الراجعة بين عناصر الموجودات تتجاوز تبعدها لدهري. ويقنصى ذلك فظة خاصة ونظراً ثاقفاً يعد إلى الأغوار مسترة وبرى ما لا يرى غيره.

طرح صاحب العمدة الفكرة إلا أنه لم يتوسع في تحليلها ولم يتأن في سبر أبعادها واستخلاص كل النتائج التي تترتب عنها بقيت عنده مجرد حكم نقدي مباشر على أساسه القيمة الفنية للتشبيه ولم تُحط بالإطار النظري للملائم لها، ثم تبرر أهميتها في مؤلفه كما بررت عند معاصره عبد القاهر الجرجاني.

بلاحظ الدطر في مؤلفي الجرجاني. ولا سيما «أسرار البلاغة» الذي حصص بأكمله لمباحث الصورة. أن دراسة التشبيه تحصى لجملة من لا عسرت مشتركة عن أصول نظريته في المصاحفة والبلاغة. وفي مقدمة تلك لا عسارات بآؤه تصوراته في جودة النص والجمالية الأدبية عامة عن أساس عقلي يقاس بمقتضاه شرف الصنعة وعصيلة العمل بما

يحتج أن . به من دقة الفكر ولطف النظر وتقاذ الخاطر ولا شك أن رآيه في التشبيه سيتأثر بهذا التصور العام وتكون أفضل التشبيهات هي نظره « ما تقوى فيه الحاجة إلى التأول حتى لا يعرف المقصود من التشبيه فيه بسديهة لسماع » (1) وللتك احتل « التمثيل » في مؤلفه مكانه خاصة لأن العلاقة بين المعنى والمثال تكون ، في الأغلب ، دقيقة عميقة يحتج ستجراحها إلى « فصل روية ولطف فكرة » (2) .

ومن الاعتبارات التي أقام عليها دراسة التشبيه وعيه بأن هذا لأسلوب شائع في اللغة نصادفه في كلام العامي وفي « الآداب والחקم مأثورة عن الفضلاء وذوي العقول الكاملة » (3) ويترب عن هذه الملاحظة اللغوية أن حضور تشبيه في السياق لا يتولد عنه ، بالضرورة ، أثر فني وأن المهم ليس بصورة في حد ذاتها وإنما طريقة التكلم في بذلها وملازمه في التقريب بين أجزائها .

وقد تعافر هذان الاعتاران لتحديد الإطار العام المحيط بآراء الجرجاني في حسن التشبيه وبراعة الشاعر ، وفي طبيعة تلك الآراء تأكيد على أن منزلة التشبيه في الجودة وتمكنه في الفن يتناسب تناسباً عكسياً ووضوح لعلاقة لرابطة بين المشبه والمشبه به ووقوعها في مجال المشاهدة لأن إدراك تلك العلاقة يتم إذذاك من جهة الحس لا من جهة النظر والتأمل يقول : « (. . .) إن كل شبه رجع إلى وصف أو صورة أو هيئة من شأنها أن ترى وتبصر أبداً فالتشبيه المعقود عليه نازل مبتذل . وما كان « لصمد من هذا وفي العادة القصوى من مخالفته . فالتشبيه المردود عريب نادر نديم . ثم تفاصيل تشبيهات التي تجيء واسطة لهذين الطرفين بحسب حالها مهم

(1) أسرار البلاغة ، ط. عمالي ، 195/1 .

(2) المصدر السابق ، 194/1 .

(3) مصدر السابق ، 196/1 .

فما كان منها إلى الطرف الأول أقرب فهو أدنى وأنزل وما كان إلى
الطرف الثاني أذهب فهو أعلى وأفضل وبوصف الغريب أجدر : (1)

وكما أن قيمة الشيء لا تكون في الخصائص الجلية الواقعة تحت
المشاهدة التي لا يستعصي على أي كان أن يدركها ، فإن براعة الشاعر أيضا
لا يمكن أن تأتي من هذا الجانب : وإما من إنتاج الائتلاف بين لأشياء
المحتلمة والعوض على الأواصر المحتجة التي لا تنكشف إلا بالتأمل والعمل
يقول : « وبعد فإذا أعدت الحلقات لجري الجياد ، وصنت لأهداف
ليُعرف فصل الرماة في الأبعاد والداد ، فرهان العقول التي تستبق ،
ونضالها الذي تمتحن قواها في تعاطيه هو الفكر والرؤية والقياس والاستبطان .

ولن يبعد المدى في ذلك . ولا يدق المرمى ، إلا بما تقدم من تقرير
الشبه بين الأشياء المختلفة بأن الأشياء المشتركة في الجنس المنفكة في النوع ،
تستغني بثبوت الشبه بينها ، وقيام الاتفاق فيها ، عن تحمل وتأمل في إيجاب
ذلك لها ، وتثبيته فيها . . وإنها لصعة تستدعي جودة القريحة والخلق ،
الذي يلطف ويدق ، في أن يجمع أعناق المتأخرات المتباينات في رتبة ،
ويعقد بين الأجنبية معاهد نسب وشبكة (. . .) وذلك يبين لك فيما نراه
من صناعات وسائر الأعمال التي تسب إلى الدقة ، فإنك تجد لصورة
المعمولة فيها كسا كانت أجراؤها أشد اختلافا في الشكل والهيئة ،
ثم كان لتلائم بينها مع ذلك أتم . والائتلاف أيسر كان شأنها أعجب .
والخلق لمصورها واجب ، (2) .

من هذا المنظور يصبح الشاعر شخصا غير عادي ، يمتاز على عامة
الناس بمقدرة على رؤية ما لا يرون ، ومكاشفة التواميس السرمدية التي
يرتد إليها الوجود في جميع هيئاته وأشكاله ، فيمظن إلى ما لا يعطى إليه غيره

(1) أسرار البلاغة ، 275/1 .

(2) مصدر تباطى ، 275/1 .

من وحيه التأليف والاتسجام والتناغم بفضل مهارته في إعداد صياغة تلك
 لموجودات صياغة تتجاوز تشبها الظاهري وتقرب بين متاهرها ومتعدد .
 « شاعر بارع هو الذي يهديه خياله وفكره ورؤيته الشعرية عامة إلى
 وجه شبه لا يترع إليها الخاطر ولا تقع في الوهم عند دليته سطر (1)
 وللتأكد من صحة هذا الحكم وإقناع القاري به ساق الحرجسي مثال
 توالم وحللها بكيفية تشهد لذوقه الأدبي المنير ومهارته في سنكاه
 المعاني المحتجبة وراء الصياغة الشعرية . ومن الشواهد التي ورد ذكرها
 أكثر من مرة لشدة إعجاب المؤلف بها ووضوحها في الدلالة على مراده
 قول الشاعر : (رجز)

« والشمس كالمرآة في كف الأشمل »

وبتحليل هذا المثال ندرك الفرق بين التشبيهات العادية السهلة والغريبة
 النادرة وبين المتكلم العادي والشاعر البارع . فتشبيه الشمس بالمرآة لمجلوة
 تشبيه عادي يجري في الحاضر لبرور الشبه القائم بينهما من استدارة ومعدل .
 وليس في هذه المشابهة ما يلفت الانتباه ناهيك أنها لا توفي بعنصر الحركة
 الذاتية ولا لشماع المتواصل الموجودين في نور الشمس فتبقى الصورة صحيحة
 لا تدفق الشبه بين الطرفين ولا تتمق تعاضله ، والشاعر البارع وحده قادر على
 ستكمال عناصر الصورة بإضافة عنصر لا يحطر على البال ولا يسرع إلى
 الوهم لا من قريب ولا من بعيد وهو جعل المرآة على هيئة من الحركة لطابق
 هيئة شمس . فأرانا بقوله « في كف الأشمل » مع الشكل الذي هو لاستدارة
 ومع لإشراق والتلاؤ على الجملة « الحركة التي تراها للشمس إذا نُعِمَّتْ
 التأمّن ثم ما يحصل في نورها من أجل تلك الحركة ودائك أن لشمس حركة
 متصلة دائمة في غاية السرعة ولنورها بسبب تلك الحركة تموج و صطرب
 عجب ولا يتحصل هذا الشبه إلا بأن تكون المرآة في يد الأشمل لأن حركته

نموه وتنصل وتكون فيها سرعة وقلق شديد حتى ترى المرأة لا تقر في
 انفس وسوم بحركة وشدة التعلق فيها يتموج نور المرأة ويقع الاضطراب الذي
 كأنه يسحر الطرف ، وتلك حال الشمس بعينها حين تحدد النظر وتسند البصر
 حتى تنسحب بحركة المحيية في جرمها وضوئها فإنك ترى شعاعها كأنه يهم
 بأن يسقط حتى يهبط من حواشيها ثم يلو له فيرجع من الاسماء الذي
 بدأه إلى مصدر كأنه يجمعه من جوانب الدائرة إلى الوسط ، وحقيقة
 حاشا في ذلك مما لا يكمل البصر لتقريره وتصويره في النفس فصلا عن
 أن تكمل لعبارة لتأديته ، ويلع اليان كنه صورته : (1) .

والشعر البارح لا يكتفي بالتشبيه المجلد والعلاقة البينة وإنما يسعى إلى
 لتفاصيل بتحليل أجزاء الصورة ثم إعادة تركيبها بكيفية تسمح بإبرار
 لأوصاف المحتجة التي لا يأتي عليها الوصف المجلد ، وهذا يتطلب عملا
 دالب ومعدودة الصورة الكرة بعد الكرة حتى تخرج على الوجه المراد ،
 والجرجاني مقتنع بأن العمل الفني الأصل لا يتم ببديهة النظر والأرتجاس
 والقفرة وإنما هو عمل مؤسس على قصايا المقول ومبني على التمهيد
 والمثابرة وإجالة النظر في الدقائق واللطائف ، وهو حريص ، في غضب
 لشوهد التي حلها ، على إبرار أثر الجهد والمعاناة في الأعمال الشعرية
 الرائعة وتنفذت أصحابها في مراعاة التفاصيل وتدقيق التشبيه وتنفذتهم
 في بفضل تما لذلك فليس شبه كل من امرئ القيس وعشرة الرمح بشمة
 الدار في قول الأول : (طويل)

جسعت رديسا كأن صنانه منا لهيب لم يتصل بدحسان

وقول الثاني : (المتقارب)

يتبع لا يتبعي عيـره بأبيض كس القيس انتهى

فإن بيت امرئ القيس أحسن من بيت عترة لأد صاحبه تنظف في
تفصيل أحرء الصورة بينما أتى بها الآخر مجحلة . فقد رأى امرئ
القيس أن في تشبيه الريح بشعلة النار على الجملة شيئاً قاذواً في حقيقة شبه
لدي أراحه ، هو الدخان الذي يعلو رأس الشعلة بينما الشبه المراد هو لريق
و للمعاد ويس في رأس الريح ما يشبهه ولذلك استشى الدخان وهي اتصاله
بسهب ليقتصر التشبيه على مجرد السا . ولم يتأت هذا للشاعر ، لا بشعري
ولتثبت « ولو فرصت أن يقع هذا كله على حد الديهة (..) قدرت محلاً »
لا يتصور .

تؤكد الأمثلة التي أوردناها على أهمية الفكر في استنساخ شبه الذر
ويقع لاختلاف بين المختلف لفرط ما يدقق الشاعر النظر ويعرض على
لتفصيل تجبياً للشبه المفضل والوقوف في العامي المشترك والمألوف
المبتذل .

ولكن ما هي العلاقة بين تأليف المختلف وإدراك الشبه بعمل الفكر
ولتأويل وبين الفعل الشعري ؟

م يفت عن الجرجاني الإجابة عن هذا السؤال العظير الذي لا بد أن
تنتهي إليه جميع التفسيرات لبلاغة النص لأد التأثير في المتلقي وتحريكه
هو لبس رئيسي الذي يحمل المتكلم على الخروج عن النهج المألوف في
أداء المعنى وتوسل بالمعارف وضروب الصور .

وقد وجد في كتابات أسلافه ما أعانه على صياغة قرصي مترعه لعقبي
وتفسر لعلاقة بين الفعل الشعري والتشريب بين الطرفين المتباعدين .

وقد طرح الجاحظ منذ القرن الثالث رأيين في تفسير اللذة ستعد مهمما
مخرجاني بصفة مباشرة . الرأي الأول مؤداه أن اللذة تحصل من انحصاره

و إشارة والإدمان على الشيء حتى يستكين ويستسلم لطالبه وقد أورد الجرجاني رأي الساجد نفسه إذ يقول : « وقال الجاحظ في أثناء فصل يذكر فيه ما في الهكر والنصر من الفضيلة : « وأين تقع لغة الهيمة بالعلوفة : ولدة السع بطلع الدم وأكل اللحم ، من سرور الظفر بالأعداء ومن امتاح باب نعم بعد إدمان قرعه » (1) .

أما رأي الثاني ، وقد تبناه الجرجاني بدون ذكر صاحبه ، فهو أنه أن لغة تحصل في المفاجأة وظهور الشيء من غير جهته ، وتلك المفاجأة تولد الاستغراب والتعجب اللذين يولدان بتورهما الاستطراف والاستحسان يقول : « (...) لأن الشيء من غير معدنه أغرب وكلما كان أطرف كان أعجب وكما كان أعجب كان أبده » (2) .

وقد بقي هذان الرأيان أهم ما سر به العناء من فلاسفة ونقاد وبلاغيين لأثر حاصل في نفس الملقى من وقوعه تحت ضغط فعل لغوي إنشائي ، وقد وجد كل رأي الشخص أو البيئة التي طوّره . فابن سينا يفسر الأثر الحاصل في النفس من جراء الصورة الفية بفعل المفاجأة وما تحدثه فيها من أحوال متغيرة مباحة نشأ منفعول الاستغراب والتعجب يقول : « واعلم أن روني مستفاد بالاستعارة والتبديل سببه الاستغراب والتعجب ، وما يقع ذلك من الهيبة والاستعظام والروعة » (3) .

وقد توقف كشاحم الشاعر العباسي في « أدب القديم » عند ظاهرة بلغة وحود تفسير ما يقع منها في النفس من الأدب والشعر بما يقع من الموسيقى وهي فضل منطق لم تقو النفس على صياغته لغة فأخرجته بالحاء ولترديد

(1) أسرار البلاغة ، 273/1 .

(2) البيان والتبيين ، 89/1 - 90 .

(3) الخطبة ، سنجي محمد سليم سالم ، الإدارة العامة للثقافة ، القاهرة 1954 ، مقدمة الثانية ص 103 وفي صفحة 99 يذكر عن أسباب اللغة بوجوه تكون عن أثر يؤديه الحس بعنه .

وسبب ما يحدث عنها من الراحة واللذة أن النفس تشاق إلى معرفة دوامها وعوالمها واستفتاح مختلفها لأن الإنسان حريص ، من طعمه ، على استكشاف ذاته . وما يحدث في الشعر شبه بذلك لأن « المثل العجيب والبيت اسادر كما دق معه وعلف ، حتى يحتاج إلى إخراجه بقوى الفكر عليه وإحالة ذهن فيه كثبت النفس بما يظهر لها منه ؛ أكثر التذادا وأشد استمتاعا ، مما تفهمه لأور وحنة ولا يحتاج فيه إلى نظر وعطنة » (1)

وينتظر النظر في نص كشاجم المذكور أمران أولهما تأييده بين رؤيتي لجاحظ في اللمة بطريقة جعلت منهما وجهين لرأي واحد ، ولأنيهما ، بمثابة اللمة نتيجة من نتائج عمل الفكر بمعنى أن العجيب النادر ، وبالإستيعاب مدجج ، يحرك في الإنسان قواه الممكرة التي تعمل على تجاوز الإحساس لأولي حاصل من وجودها أمام شيء لم تألفه . بالتأويل ولتأويل وجملة لذهن فيه فتشأ إذذاك اللمة من النظر بالفهم واستكشاف المحتجب بالجهل والمثابرة .

سيستفيد عبد القاهر الجرجاني من كل هذه الآراء وسيعمل ، مثل كشاجم ، على التأليف بينها وإيجاد الروابط التي تجعل بعضها بسبب من بعض حتى يستقيم له تفسير اللمة تفسيراً عقلانياً خالصاً . فمما يسارع المؤلف إلى إقراره ولتأكيد عليه أنها إذا استغريبتا التشبيهات وجدنا : التعاضد من الشبهتين كما كان أشد كانت إلى الصوس أعجب ، وكانت الصوس لها أطرب وكان مكانها إلى أن تحدث لأربحية أقرب ، وذلك أن موضع الاستحسان ومكانه ، لاستصراف ومثير للذهن من الارتياح ، والمؤلف للتأخر من المصرة ، والمؤلف لأطرب من المسحة . أنك ترى بها الشبهتين مثلين متباينين ومؤلفين مختلفين ، وترى بصورة الواحدة في السماء والأرض وفي خلقة الإنسان وحلال الروض » (2) .

(1) أدب القديم ، المصنف الأميرية ، بولاق ، 1298 هـ ، ص 20 .

(2) أسرار البلاغة ، ط حقاقي ، 1/244 - 245 .

وإذا أردنا أن نترجم عن الجرجاني قلنا إن النفس تعيش في نطاق حملة من المواضع والاصطلاحات تحدد رؤيتها للعالم وتكون محيطها المكاني والاحتمالي . وربما كان لتلك المواضع فيها تأثير إلا أنه سرور الزمن أصبحت مألوفة معتادة لا قدرة لها على التحريك واستقرت في النفس صورة لأشياء على تلك الهيئة حتى ذهب في روعها أنه لا نظام إلا ما ترى وتعيش . وإذا ما قمّ تغيير أصول ذلك النظام بحلق علاقات جديدة لم يدر بحدوده يمكنه كمحل افتتاهلين مثلين . دبت إليها انهاجاة فاجذبت وارتاحت إذ كشف به عما لم تكن وحدها قادرة على كشفه وتعمّقت وعيها به . عالم المحيط بها وأصبحت تدركه أحسن من ذي قبل .

وعمل مفاجأة في النفس يعود . حسب الجرجاني ، إلى طبيعة تركيبها لأن « مبنى الطباع وموضوع الجيلة على أن الشيء إذا ظهر من مكان لم يهد ظهوره منه ، وخرج من موضع ليس بمعدّل له ، كانت صباية «سفوس به أكثر» (1) .

فالمفاجأة تخلق الدهشة والاستعراب وعهما «تولد صباية لنفس إلى معرفة والاستكشاف وهذا تدخل آلة التكبير لتقوم بعملية الكشف وإفراز مادة تنطبه المكشعة من مجاهدة ومعاناة . يقول الجرجاني في هذا المعنى :

« ومن يركور في الطمع أدّ الشيء إذا نيل بعد طلب له أو الاشتيق إليه ومعدة حيس نوره ، كان نيله أحلى ، وبالميزة أوّلى . فكان موقعه من نفس أجل وألطف وكانت به أضن وأشف » (2) .

وبناء على هذا التصور الذي يولي الفكر قيمة أسامية في تمير الحيد من الرديء قسم الجرجاني التشبيهات إلى قسمين كبيرين ، « التشبيه من جهة

(1) أسرار البلاغة . 216/1

2 معبر السوي . 263/1

«مر بآن لا يحتاج فيه إلى تأويل» (1) و «الشبه الحاصل بضرب من التأويل»
وهو بدوره قسمان : «ما يقرب مأخذه» و «ما يبق ويعمص» (2)
وأفص هذه لأقسام عنده التقسيم الأخير لأنه يحتاج «من دقة الفكر والصف
النظر» وهذا يحظر إلى ما لا يحتاج إليه غيره» (3)

نقد كان بإمكان عبد الماهر الجرجاني أن ينتهي . انطلاقاً من تصور
«مخس التشبيه» . من أهم فذة لمسألة الاختراع والإبداع وأن يشرع للحجج بقسرة
على صياغة «علم وترتيب علاقاته على غير مثال سابق» ومردح بحثي .
«لا أنه بقي» . كغيره من النقاد والبلاغيين . مشدوداً إلى الأصوب مقررة في
تشبيه «على نظرة المجتمع العربي الإسلامي للاختراع والإبداع» . وهي نظرة
تقصر القدرة على الصياغة من عدم على انحاز وحده . لذلك نراه يؤكد في
نصوص عديدة على أن إيقاع الائتلاف بين المحتلعات مفيد بشروط منها صحة
وجه «شبه في المتباعدتين وقدرة العقل على إدراك ذلك الوجه حتى لا يخرج التشبيه
عن الغرض الموضوع من أجله وهو الفهم والإلهام والتوضيح» . يقول : «واعلم
أنني لست أقول لك إنك متى ألعت الشيء بعيد عنه في الجنس على الجملة
فقد أصبت وأحسن ولكن أقوله بعد تقييد وشرط . وهو أن نصيب بين
المحتلطين في الجنس وفي ظاهر الأمر شيئاً صحيحاً معقولاً ونجداً ملائمة
ولتأليف السري بينهما مذهباً وإليهما ميلاً . وحتى يكون ائتلافهما لهما
يوجب تشبيه من حيث العقل والحدس في وصوص اختلافهما من حيث
معين وخس» (. . .) وإنما تكون مشبهاً بالحقبة بأن ترى «شبه وتبنيه
ولا يمكنك بين ما لا يكون وتمثيل ما لا تتمثله الأوهام والضو» (4)

وعلى هذا السط في التفكير يصبح التقريب بين المتاعدين في خدمة
«نهم ووسيلة من وسائل تعميقة لأن بين الأشياء مشابهاً واصحة وأخرى

1	سرر البلاغة	ط	مناجي 190/1 وما بعد
2	«	«	194/1 ما بعد
3	«	«	275/1
4	«	«	278/1

حكمة بدق المسلك إليها وبإمكان الفكر أن يشاركها بالتفعل فيها و...⁽¹⁾ أحص
 عما بدأ أدرك إرداد مهمنا لطبيعة الأشياء والموجودات بآردياد كسرة لروايد
 التي تصل بعضها ببعض . ومن هنا انظور تتحدد براعة أشعر بدراية
 انفسه على انهم والعوص على التفاصيل لا بقدراته المتجيلة التي يمكن أن
 تجمع وتمثل ما لا تتمثله الأوهام والظنون . ومن هنا تفهم شعف الجرجاني
 بصورة : « عناصر على الدر » التي وردت في أكثر من موطن من مؤلفاته .
 لأن حار أشعر عده لا يختلف عن حائه . فكما أن كون الدر منحصص عن
 صير عناصر به فكذلك وجه التشبه بين البعدين موجود فيهما قبل أن يشير
 إليه لشاعر . ويصل الإثني في التحق والمجاهدة وكشف المسكون . يقول
 الجرجاني مخاطبا من أصاب بين المختلفين شيئا صحيحا : « فإيما استحققت
 لأجرة على العوص وإخراج الدر . لا أن الدر كان بك واكتسى شرفه من
 جهتك . ولكن لما كان الوصول إليه صعبا وظله عسيرا ثم درقت ذلك وجب
 أن يجزل لك وبكبر صنيعك » (1) .

إن هذا الفهم للتشبيه يقي . رغم قيمة الإضافات في ذاته وأهمية لجهده
 لنظري بواضح في تأصيل مسائله وتنظيمها في نطاق بناء متكامل في فهم
 مصاحبة وإبلاغة ، رغم كل ذلك يبقى في حدود ما رتبته القعدة وتقرؤه على
 الأقل في مستوى الوظيفة المتعلقة به وهي الفهم والتوصيح التي عمق الجرجاني
 درجتها ولكنه لم يبدل نوعها .

تلك هي ، في نظري ، أبرز . مواقف البلاغيين والقاد من التشبيه
 وهي نس احتجت في تقدير بعض المسائل المتعلقة بهذا الأسلوب تنهق في
 خطوطه كسرى كما رسمتها المحاولات الأولى في القرن الثالث ، وربما
 فيه ، وأرست دعائمها مؤلفات القرن الرابع .

و من أهم نتيجة يمكن أن نخرج بها من درسا إجماعهم على رصد
خروج عن التشبيه بالخاصة إلى الفهم والتوضيح وتقريب المعنى إن دهن سماع
أو لقاريء من أيسر السبل ، وما تشبثهم بتمايز طرفي التشبيه وصحة قيم
وحه تشبه في كليهما وتيسر إدراكه بالعين والحدس أو بالعقل والحدس إلا
مظهر من مظاهر تأكيدهم على الوظيفة الإفهامية وتسجيرهم التشبيه لحايات
بلاعية لهديه .

فهل بالإمكان على ضوء هذا التصور تفسير سبب اهتمام العرب به
أكثر من غيره من الأساليب ؟

الجواب عن هذا السؤال عسير ومحتوف بالرائق لأنه يقتضي من المستحيب
أن يكون على يقينة من طبيعة الفكر العربي ومن الرواسم الكبرى التي تحدد
نظريته للكون والأشياء حوله وضربته في تربتها وربط بعضها ببعض تحقيقه
بالانسجام وتناسق بينه وبينها ومعارفا ، في هذا المضمار ، محدودة
لا تزيد على بعض الملاحظات المشوثة في تضاعيف مؤلفات تناولت بالدرس
مظاهر مختلفة من الحضارة العربية الإسلامية ، ولا نعرف أي محاولة لجمعها
والتنسيق بينها للمخرج برسم عام يمكن أن ترقد إليه جميع أوجه الشاغل
التي تولدت عن ذلك الفكر ولا شك في صعوبة هذا النوع من العمل لأنه
يتطلب تحصيل كل نماذج الإنتاج تحليلا عميقا حديثا يعوص على الأسس
لابستمولوجية المراكز عليها ويفف على الروابط المشتركة بينها رغم
تباينها في ذاتها .

وما لا يشم انقيام بهذا العمل فإن كل محاولة تروم الربط بين حصص
لصاهرة معقدة وحصائص الفكر المتولدة عنه لا تحلو ، في نظرنا ، من
المحاربة ورسم من الخطأ لأن النتائج المترتبة عن دراسة مظاهر حداثية معرولة
عن غيرها هي نتائج مؤقتة ولا يمكن اعتبارها صحة من سمات تفكير إلا بعد
مقارنتها بنتائج التي تؤدي إليها دراسة جملة المظاهر الأخرى

لذلك نحترز من التأويلات التي يرى أصحابها أن «إشثار التشبيه عند العرب أمر يرتد إلى نظرة عقلانية صارمة. تؤمن بالتمايز والانفصال وتتمرن من التداخل والاحتلاط». وترفض في حزم كل ما يلو حروجا عن لأطر ثابتة وتعتد عليها على أي مستوى من المستويات» (1).

ودون عي احترازا تعود «زيادة على ما ذكر» إلى استمداد أصحابها حصائص تفكير العربي من مظاهر قارة في التشبيه لا يقتضي وجوده بلونها مهما كانت البيئة الفكرية التي تمارسه. فالحرص على التمايز بين المشبه والمشبّه به هو أسس التشبيه وعماده وبنونه لا يكون هو هو لذلك يشترك في التمسك به البلاغيون وينقاد من العرب وغير العرب. وإن كان في وجوده دليل «على درجة عقلانية صارمة تؤمن بالتمايز والانفصال» فهي نزعة عامة في الفكر الإنساني لا خاصة بالفكر العربي. وفعلا فالأبحاث الأنثروبولوجية وأبحاث التحصيل سعسي المتوسلة بالمنهج البنيوي بدأت تقنع الناس أكثر فأكثر بأن برور فكرة «التماثل» (2) في الحضارة الإنسانية لم يتم إلا بعد بلوغ الفكر مرحلة متطورة أمكنه بفضلها التقريب بين الموحودات وإدراك وجوه الشبه بينها وقيس بعضها على بعض (3).

كما أن سطر في التشبيه من رابوية التوضيح والإبانة ليس خاصا بالعرب، فبقى بقي نقد القرئسي. مثلا، إلى وقت قريب وقبل أن تدخل دراسة لصورة منعضما حليدا بمصل تطبيق المناهج اللسانية المستحدثة، بقي يعتبر تشبيه أداة توضيحية ضرورية لأن الفكر الإنساني لما يصل إلى المرحلة التي يمكنه فيها لاكتناء الملحردات وتمثل الأفكار والمفاهيم بمعدل عن المعطيات مادية المموسة (4).

(1) جابر أحمد عصفور، الصورة الفنية، ص 241.

(2) Simard 16

(3) P. Gunaud. *Essais de stylistique, problèmes et méthodes* ص 13

M. Cressot. *Le style et ses techniques*, P. U. F., 7ème édition. Paris, ص 4
1971, p. 61

بـ «الآفة» للنظر في موقف العرب من التشبيه ، إذن . ليست وظيفة
 بني حديدوها ، وإنما إغراقهم في التمسك بها وتناولهم مختلف حروب
 هذا الأسلوب من زاويتها ثم . وبدرجة أهم . اتحاذهم التشبيه بمودح
 ما يجب أن تكون عليه الصورة جملة . ومن هنا أتى تشددهم على الاستعارة
 وحذرهم تشديد من كثرة استعمالها وإخراجها على وجه بليغ معه السنين
 في المعنى .

ويعتقد أنه يجب البحث عن أسباب هذا الموقف في الطريقة التي وصف
 بها النص الدعوي في الثقافة العربية الإسلامية وفي المراحل الأولى لشدة التكبير
 البلاغي ولا سيما فترة الجاحظ التي تعتبر بدايته الحاسمة ومطلق جميع
 لأطروحات التي عدت هذا التفكير على محتاج مراحله .

يقول عبد الرحمن بن خلدون في «المقدمة» . «اعلم أن الكلام الذي
 هو لعمرة وخطاب إنما سره وروحه في إفادة المعنى» (1) ولا نبالغ إن قلنا
 إن صاحب المقدمة أتى في هذه الجملة على الجانب المهم من نظرية العرب
 في وظيفة لغة عامة ووظيفة الأساليب والمعارف بوجه خاص . فهم يعتبرون
 النص . من مطلق الفصل القائم في أذهانهم بين الألفاظ ومعاني وتقدم
 هذه الأخيرة في الوجود . يعتبرونه وسيلة لإبراز المعاني والكشف عنها
 وشدها في علامات تدل عليها حتى يمكن تداولها وتصريفها طبق مقاصد
 المحتكمين وغايتهم .

و عناء البناء الدعوي وسيلة يترتب عنه دخوله في خدمة معنى بحيث
 تتحدد قيمه بقدرته على أدائه والإحاطة بجوانبه لا بما يمكن أن يولده في
 نفس متلقيه من متعة شكلية خالصة وهذا يعني أن النص . أو بالأحرى لغة
 شعر . لا يمكن أن تكون غاية في ذاتها بأي وجه من الوجوه

وربط عائشة النصّ القصوى بإفادة المعنى وحصول الشفع المذشر يقتضي أن
تتصدر لإدانة والإقحام سلم الوظائف التي تؤديها اللغة وأن يبقى النص
لأدبي وسيلة إبلاغ بالدرجة الأولى وإن تمير بخصائصه لا تتوفر في
الكلام «سادى» . لأن «الكلام إنما هو مبني على الفائدة في حقيقته»
ومجازه «(1)» . وهذا التصور يقتضي إلحاق ضروب النص القوي ومختلف
الأساليب المعدولة عن الطرائق المألوفة في التعبير بالوسائل الحسنة للمعنى
والتبعة له ويصحح ، بالتالي ، قبولها أو رفضها رهين قدرتها على الإدانة عنه
وتوصيحه . وعلى هذا الأساس ، تكون وظيفة الإبلاغ والإقحام هي الوظيفة
الرئيسية التي تسعى إلى تحقيقها جميع مستويات اللغة ، أما الوظائف الأخرى
ولا سيما الوظيفة البلاغية فهي وظائف مساعدة يحصر دورها في تدعيم
الوظيفة الرئيسية ومدها بالوسائل التي تجعلها أكثر تسكنا في الدلالة على
الفرض وأشد تأثيرا في المتلقي . يقول ابن جني في هذا المعنى :

«فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسنوها وحموا حواشيه
وهذبوها وصقلوها غروبا وأرفعوها فلا قرين أن العناية إذذاك إنما هي
بالألفاظ بل هي عندنا خدمة مهم للمعاني وتوابعها وتشریف منها . ونظير
ذلك إصلاح الرعاء وتحسينه وتركيبه وتمديسه وإسما المبني بذلك منه الاحتياط
سوعي عليه وحوارده بما يعطر بشره ولا يعرف حومره» (2) .

وقد تولد عن هذا التصور حرص مشترك بين النقاد والملاصين على
الإدانة ووصوح المعنى حتى غلبا بعد الكلام عن التعقد والاستكره وقربه من
أفهام «موم» من أهم المقاييس التي تعتمد في اختياره ونقده (3) وذلك لفصو

(1) آدمي ، المؤازفة ، ص 178 .

(2) نظير الخصائص ، 215/1 .

(3) نصر الشعر والشعراء ، ص 35 ، عيار الشعر ، ص 14 ، الوساطة بين الأدبي وخصومه
ص 249 ، السكت في أعجاز القرآن ، ص 85 86 فصاعدين ، ص 197

عريب ، حشي والمستعصي من العبارات والألفاظ لأز و البلاغة لا تغفل عن
ولا تفعل بها شيئا (1) .

ونفق البلاغيون . على اختلاف مذاهب الكثير منهم في تقدير بلاغة
الكلام وفصاحته ، على أن مختلف الأساليب وأفانين التعبير مسخرة للإيابة
عن المعنى وتقديمه إلى السامع في أحسن صورة من اللفظ ، ونتيجة لذلك
حددوا الكثير من هذه الأساليب اعتمادا على هذا العصر كما يروا فيه موقفهم
من الإفراط في استعمالها فجميع التراكيب التي ترد خارجة عن السطح
لضري في بناء الجملة كالإيجاز والاختصار والهدف لا تستحق صفة لبلاغة إلا
إذا وقعت من غير إحلال بالمعنى ووجد السامع في المنطوق دلالة كافية على
المحلوف متروك (2) وقد بلغت هذه النزعة أوجها مع الصلحي الذي اتخذ
من لبين وظهر التقياس الأوحى الذي نتجده على أساسه قيمة كل الأساليب .
وقد أدت به إلى اتخاذ مواقف على قدر غير قليل من المحافظة والسذاجة في
فهم أسرار الإبداع الفني ودراخله (3) .

كما أن موقف جميع البلاغيين والفقاد المناهض لكثرة البديع مبني على
رأيهم في وظيفة الكلام واعتبارهم الدلالات على المقاصد من أجل منفعة .
وقد برر ذلك بصورة جلية حتى في أشد النظريات إيمانا بإمكانية العقل في
لأدب وأنه الطريق إلى استكشاف محتجبات الذوق والإحاطة بدلالات لغة
يقول الصلحي معلقا على بيت الفرزدق المشهور بمقصد فركبه / طوبى

وما مثله في أساس إلا مملوك أبو أمية حي أبوه يقدره

(1) محطتي . ياد إيجاز فقرآن ، ضمن ثلاث رسائل في إيجاز فقرآن ، ص 37 .

(2) نصر . عصر النظري الموسوم بجامع البيان عن تأويل آي فقرآن ، مطبعة الحنبي ، 2
نسخة 37 ، 1954 ، 1/145 : 210 ، 412 - 413 .

(3) طر مدلا ص 196 من سر الفصاحة : حيث يقع في استقص اد يعتبر دلالة العهد القس
عن عصر الكبير شرط من شروط الفصاحة إلا أنه يترط أن تكون تلك الدلالة واضحة
مفردة لا يحد في استنطها إلى « طرف من التأمل وديق انعكس »

« وما كان من الكلام معقدا موضوعا على التأويلات المتكيفة ففسر ذلك
كثرة ، زيادة في الإعراب ، بل هو بأن يكون تقصا له وتقصا لغيره . لأن
الإعراب هو أن يعرب المتكلم عما في نفسه . وبيئته . وبوصح تعرض .
ويكشف اللبس ، والواضح كلامه على المجازفة في التشديد والتأخير ، لأن عن
الإعراب . واتبع عن الصواب . متعرض للتليس والتعمية » (1)

ويجده يتمسك بنفس الحجة عند رفضه لظاهرة الإسراف في استعمال
وجوه مسيعة لأنها سبيل إلى الإغلاق وسد المنافذ إلى المعنى بقول .

« وقد نجد في كلام المتأخرين الآن كلاما حمل صاحبه فرط شعده
بأمور ترجع إلى ما له اسم في البديع إلى أن يسي أنه يتكلم لبهم ويقول
ليبين » (2) .

وما يمكن استخلاصه من هذه العبارات هو أن العرب كانوا منشغلين ، في
تصريف مظاهر اللغوية . بسلامة المعنى وصحته واكتشافه أكثر من تشاغلهم
بالجانب الفني البحت وما يوشي به الخطاب من الأساليب وحنوف البديع
ذهب أنهم لم يكونوا يجوزون استعمالها إلا بالقدر الذي لا يفسد الغرض
ولا يوقع طالبه في الإشكال واللبس .

لقد اعتبرت وظيفة الإبانة والإفهام الوظيفة الأساسية في الأدب ،
لا شك أن أسانا عديدة ساهمت في رسم معالم هذا التصور وعملت بمرور
الزمن على تشييته في الفكر العربي حتى أصبح أصلا من الأصول المهمة
التي تروى فيها مختلف المواقف وإطارا عاما لا تخرج عن نصقه مهما
تفردت به من خصوصيات .

ورغم احتجاب العديد من تلك الأسباب لإحجام الفكر العربي عن
التقدم مجال البحث في فلسفة العلوم وبقائه ، في الغالب ، في حدود وصف

(1) أسرار البلاغة ، ص ١٤٣/١ ، حواشي .

(2) المصدر - ص ١٠١ .

طوره وتصميمها . فإنه يمكن أن نكتفي بإبراز حبيب نعتقد أنها قد تصور
مباشرة بعد في ترويض هذا التصور وتدعيمه وحما العامل الترميزي من جهة
و « الحدث » الناجح من جهة ثانية .

نقد طرح النص القرآني ، على الصعيد البلاغي ، جملة من المعارف
اللائمة ساهمت بشكل حاسم في تحديد موقف البلاغيين من علاقته بشكل
نامضون ووظيفة الصورة الفنية باعتبارها طريقة في التعبير متميزة .

فالقرآن مضمون قوامه الدعوة إلى عقيدة جديدة تتحدد ببعض :
بعد أخروي أو روحي وبعد دنيوي أو مادي وهو يتجه دعوة إلى عامة
الناس ، واصطفاء رسول « أمي » ليبشر بهذه الرسالة يرمز إلى أنها تروم
إوصول إلى كل القلوب والعقول ، وبقتضي بنوع هذا العرص ، نظرية على
الأقل ، أن يكون المستوى اللغوي الخامل للرسالة مستوى عديد متعارف بين
المتخاطبين ليتيسر تمثله أي أن يكون موافقا لمواضعاتهم الدلالية وسحوية
مقتضرا على تحقيق الوظيفة الأساسية للغة وهي التماهم والإبلاغ ، وتقتضي
هذه الوظيفة بدورها أن يكون النص مجردا قدر الإمكان من المقصد الفنية
ومن كل مظاهر الخروج عن المؤلف ، المعتاد .

ولا أن خدمة الدعوة والتمكين لها في قلوب المدعوين إليها وعقولهم
قنضت أن يكون البناء اللغوي للنص في نهاية المصاحبة والإسلاء بحيث
يعجز بشر عن مجاراته . ولا يشم ذلك إلا إذا كان النص يشتمل قيمة لخروج
عن لطيفة العادية في تصريف اللغة وتسخيرها لأغراض إبداعية عديدة .

هذه أولى المعارف التي طرحها القرآن ، وتتلخص في التعارض المصغر
بين أهداف الرسالة وبنائها .

ثم إن القرآن يبي يؤكد ، وهو يتحدث من نسل لهم أنفسهم محركاته ،
أنه عربي مبين وقد امتدح البيان في أكثر من موضع وارتبط فيه لأصل

« سع » الذي ورد في صيغة الصفة « بليغ » وبصورة أكثر تواترا بصيغة
باسم « بلاغ » ارتبط غالبا بمعنى الإبانة (1) وبمعنى إيصال المعنى إلى
السامع وبلاوغ التصدي منه (2) .

وهذه مفارقة ثانية تصبح بموجبها غاية الإبانة والإفهام رهبة م
بتحقق في النص من فن لعوي وحروج عن الطريق المعتادة في تصريح
سعة .

واقف بقي علماء البلاغة على مختلف أجيالهم يبحثون عن « سر » لأمثل
لهذه الممدلة متشعبة بالرهبة على أنه كلام عربي مبين لا نحتمل وسائمه
ومدته صمد يستعمله الناس ويحري في محاوراتهم وأشعارهم ، وأنهم
عجزون . رغم اتفاق الوسيلة . على مجاراته ولو بخطوة وأنه ، أي القرآن ،
جاء في نهاية المتن لنهاية البيان .

وهذه النقطة هي التي تهتمنا . ها . لأنها حلقة الربط بين المصمون
والشكس وهي التي متحلد وظيفة المجازات بصورة نهائية . ذلك أن المهتمين
بتفسير القرآن وبيان إعجازه استطاعوا . اعتمادا عليها ، أن يؤولوا التمارض
بين محتوى الرسالة وبنائها بأن جعلوا الطرف الثاني في خدمة الطرف الأول
واعتبروا الأسباب البلاغية التي جاءت في القرآن أكثر إبانة عن المعنى من
لاستعمان خفيقي وأشد ملائمة لروح الدعوة التي تقوم على الترغيب
والترهيب وضرب الأمثال للاعتبار وما إلى ذلك من الطرق التي تقنصي
المرج بين صنوف التعبير .

وقد ترتبت عن الخوض في هذه المسألة عدة نتائج أصبحت مظاهر
فارة في التفكير البلاغي عند العرب . أولهما وأهمها الاقتناع بأن التعبير
بشيء في أجل صورة وأرقاها ، لا يعدل أن يكون وسيلة لتحللم تعرض

(1) « سر » مثلا : المائدة/92 ، النحل/35 ، 82 ، النور/54 ، التكموت/18 يس/17 ، النمل/12 .

(2) « نظر » مثلا : آل عمران/20 ، المائدة/99 ، الفرقان/40 ، النور/48 .

وتبين عنه وأن فضله على التعبير العادي من فضل بيانه لا من شيء آخر .
وعن هذا الاعتبار تولدت النتيجة الثانية ومؤداها أنه لابد أن يكون لكل
أسلوب استعماله القرآن وضيفة لأنه نص متره عن لغو القول . إلا أن الخلاف
للطرف أنهم لم يستطيعوا توسيع رقعته الوظائف وكانت تفسيراتهم تتأرجح
بين إمالة وتأكيد (1) وهي معان لا تخرج عن معنى الإبانة والإفهام
إذ هي مدرج بصعها النص لاستدراج الملقى إلى الغرض المقصود ، ولبدو
هذه الصفة وصحة في تعريف الرماني للمصاحفة إذ جعلها : دلالة على كبر
معنى عن جهة التعبير عن أصل اللغة لتلك الإبانة (2)

وعن هذا النحو ساهم القرآن في توطيد العلاقة بين البلاغة والإبانة .
وستزداد تلك العلاقة متانة في العهد الإسلامية الأولى لما ادهرت الخطبة
بأنواعها ووظفت لأغراض مختلفة كالغرض الديني الكلامي ، والغرض
الاجتماعي والغرض السياسي . ولما كان الخطباء يتجهون ، في الغلب ،
إلى لجمهور الأعظم من الناس فقد كانوا مجبرين على التماس أكثر الأساليب
ملاءمة لأغراضهم وكانوا يسعون إلى إقناع مستمعيهم بالتوضيح والشرح
وتقريب المعنى من أدهانهم فكانت بلاعتهم في خدمة معانيهم وعن أقدر
مستمعيهم .

ثم جاء الحافظ فوضع مؤلفا غدت بموجبه تلك العلاقة بمعنى قارا
في التفكير البلاغي عند العرب . ولقد توسعنا في تحليل تلك العلاقة في
القسم الثاني من هذا العمل ، لذلك يقتصر هنا على التذكير ببعض النقاط
الأساسية تذكيرا سريعاً .

(1) د. د. محمد المصطفى بن يحيى بالفيصل قوائم معنى المبالغة والتأكيد في نص
مستفاد من النص القرآني ، إلا أننا نستطيع أن نؤكد من النص من سي سحر حمد
مها ومن الانطباع الحاصل عن قراءتها إنها تكاد تستعمل إحدى الكلمتين بنفسه كثر أنه
فيه مبرر

(2) التكت في إعجاز القرآن ، ص 104

ومن أثر ما ساهم به صاحب « البيان والتبيين » في هذا المصدد ،
 تربيته محتسب الأساليب البلاغية المعروفة إلى عهده في حيز « البيان » الذي
 تحد منه مصدرا عاما للبلاغة والفصاحة ، وقد ترقب عن مباشرة مستوى
 محلي في المنع من زاوية الوضوح وانظهور بروز وظيفة الفهم والإفهام
 كوظيفة أساسية لكل فعل لغوي حتى أن أغلب حدود البلاغة التي أورددها تبع
 عن صوره الإبقاء بها ، ومن ثم اتخذت معيارا لتحديد على أساسه قيمة
 لأساليب . وموقف الجاحظ الصارم من الغريب ، وتشدده على شعره
 لصنعة ، وسحرته من علماء اللغة لفرض شغلهم بالغريب الدار ، أمور
 لا تفصل عن دفاعه عن الفهم والإفهام الذي تولدت عنه أغلب مقاييسه
 لأسلوبية .

ونعتقد أن هذين العاملين ، القرآن والجاحظ ، قد أثر تأثيرا بعيد
 مدى في تقدير العرب لوظيفة الكلام ، وعملا على ترسيخ فكرة الإبانة
 والتوضيح في صلب نظريتهم الأدبية . وعلى فرض الكثير من المقييس
 لأسلوبية التي تلائم تلك الوظيفة ، وهو ما يفسر كثرة نقول النقاد والبلاغيين
 متأخرين عن الجاحظ ونبتيهم الكثير من آرائه في بلاغة الكلام (1) .

وفي تقديرنا أن الاهتمام بالثبوت وتصور مسأله بالكيفية التي عرضت
 وثيق الصلة برأيهم في وظيفة الكلام ، وتمسكهم بالوضوح والبيان تجنبنا
 لعوارض التيسيس والتعمية .

وتؤكد هذه الصلة متى استعرضنا مواقفهم النازدة من الاستعارة
 وعرفنا دواعي احترازهم من بعض وجوه استعمالها

* * *

(1) نرى من هذا الشعر ، ص 17 ، 89 : 90 : 99 ، عيار الشعر من 5 ، 8 ، 14 ،
 21 ، موازنه 13 ، 123 ، أنصاعين ، نكثرت عن الجاحظ ، و... ، يد ك
 مسكر ، اسمه ، مثال ذلك القصص الثاني والثالث من الطب الأول من 60 ، 60
 بعده ، 214 ، 246 ، 249 ، 257 ، 266 ، 271 .

لاستعارة . هي التراث النقدي والبلاغي . مكانة متميزة ، يسهل
 أي نسوب من الأساليب البلاغية الأخرى . فقد كانت محور دراستهم
 ومحار . وموضوع أغلب المناقشات المتصلة بالمفاضلة بين الشعراء وطرق
 كتابة شعر . كما اعتبرت أحد أعمدة الكلام ، وسببا من الأسباب المهمة
 في بلاغة نص ، والعلو عن المبتذل إلى الكلام العالي الضقة (1) . وحسب
 كل دلت كانوا متشددين في استعمالها حذرين من حرية التصرف في شأنها
 ويحرجون على غير المؤلف . ومن ثم جاء تناولهم لها وحسين مثلا من :
 لإقرار بصاعيتها الفنية وربط تلك الفعالية بشروط مجمعة تعطل عمية
 الحق لشعري وتحد من قدرة انخيل لدى الشاعر

ولا شك أن عبد الله بن المعتز صاحب كتاب « البديع » ساهم بقسط
 وفر في بلورة هذه المكانة . واتمكن لهذا التصور في أذهان البلاغيين
 والنفاد . فقد استهل كتابه بالاستعارة إشعارا بأهميتها وتقسيمها عن وجوه
 لبديع لأخرى في الاختصاص بالشعر والبلاغة ، كما نبه إلى نتائج السلبية
 التي تنجر عن الإفراط في استعمالها مستشهدا بشعر أبي تمام الذي لم يحترم
 رسم تقسماء في بنائها موقع في كثير من الإحالة والتناقض (2) .

أهمية الاستعارة :

درغم من اهتمام العرب البالغ بالشبيه وإفاصتهم في دراسة مسائله
 أصولا وفروعا ، ذلك الاهتمام الذي دفع ناقدا كاس طباطبا إلى سكوت
 عن دور الاستعارة في بحثه عن عيار للشعر ، ودفع قدامة إلى ذكره في
 سياق وحيد على سبيل الاستطراد بمناسبة تفسيره لمعنى « المعاطة » ، انتهى
 فيه إلى موقف يشوبه كثير من الغموض والاضطراب (3) ودفع تحير

(1) في سماء ضمن كتاب بلوى ، في الشعر ، ص 174

(2) البديع ، ص 1

(3) في شعر ، ص 103

«مقصود أي تمام وأنصار عمود الشعر إلى طرحها من عصر شعر
لأساسية».

يقول نقاصي الجرجاني محمدا موقفهم : «وكانت العرب بما تصدق
بين اشعراء في الجودة والحس بشرف المعنى وصحته وحزلة المنص
واستقامته وتسلم السن فيه لمن وصف فأصاب وشه فطرب وبه فعرر
ومن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته ولم تكن تعأ بالتجنيس ومصنفة
ولا تحسن الإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ودهام القريض» (1)

بالرغم من كل ذلك حظيت الاستعارة في صلب النظرية الأدبية بكثير
من العناية ولا سيما في مؤلفات القرنين الرابع والخامس . ففي هذه المؤلفات
إجراءات تطبيقية ومقررات نظرية صريحة الدلالة على أهمية الاستعارة في
العمل الشعري واعتبارها المميز النوعي للأدب . والعلامة الفارقة بين
الاستعمالات الحقيقية البعيدة عن الفصاحة والبلاغة ، والاستعمال الإنشائي
الذي تخرج فيه اللغة عن العرف والاصطلاح لتصبح أمام المستمع آفاق
الإبداع والاختراع ، وإمكانية التصرف في المواضع بما يلائم أغراضه
في التعبير ، حتى لكان القيمة الفنية ترتد إلى هذه الطريقة الخاصة في تأليف
لعبارة بتشجير صفات اللغة ، وإيجاد أمشاط جديدة في تعليق المعاني بالألفاظ ،
وتوليد السنن بما يصح للكاتب مجال التعبير عن انفعالاته ومشاعره ،
لأنه صيغة تضيق عن حمل تجربته ، فكان لابد من التصرف فيها والتوسع
في حرثها فكما للحصار الذي تضربه حوله القوانين اللغوية الوضعية يقول
نقاصي «جرحاسي في هذا المعنى : «فأما الاستعارة فهي أحد أعمدة
الكلام وعيها معمول في التوسع والتصرف وبها يتوصل إلى تزيين اللفظ
وتحسين اسظم والنثر» (2) . ومن نفس الزاوية نظر الشريف المرتضى في دور

(1) الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص 33 .

(2) المصدر السابق ، ص 428 .

لاستعارة في الانتقال باللغة من مستوى إبلاغي إلى مستوى إنشائي فصاح
مسألة صياغة أعم ربط فيها حدوث البلاغة والفصاحة بوجود إستعارة
وحرّوح الكلام عن الاستعمال الحقيقي . يقول :

« إن الكلام متى خلا من الاستعارة وجرى كله على الحقيقة كان
بعيدا عن الفصاحة بربما من البلاغة » (1) .

ويمكن أن نصادف مثل هذا التنويه بقيمة الاستعارة في أغلب مؤلفات
هذه الفترة (2)

وقد سبق أن أشرنا في فصل الحقيقة والمجاز إلى أن أغلب مسائل التي
تناولها البلاغيون بالدروس عند تعرضهم للمجاز انضلقوا في طرحها من
الاستعارة لأنهم اعتبروها أفصل أنواعه ولذلك فإن أغلب ما قيل في المجاز
يمكن أن ينطبق على الاستعارة ولا نرى فائدة من إعادته هنا .

لا أن تناول عبد القاهر الجرجاني لها يستحق لفتة خاصة لأنه طور
مباحثها بكيفية لم يسبق لها مثيل . فلقد ذكرها في مواطن عديدة من « دلائل
العجارب » (3) وخصصها بجزء هام من « أسرار البلاغة » وبها بدأ حديثه
عن أصول علم الكلام رغم « أن الذي يوجه ظاهر الأمر ، وما يسبق
إليه أمكر أن نبدأ بحملة من القول في الحقيقة والمجاز ، ونشع ذلك القول
في تشبيه وتثليل ، ثم نسق ذكر الاستعارة عليها » (4) . ورغم أن سبب
ستهلاء الحديث بها غير واضح في نصه فالعالب على الظن ، سببا إلى
تحييلاته لمختصة ، أنه يعتبرها عمدة العمل الشعري ، يؤكد ذلك خروجه

(1) أمادي الخرنطسي . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم : مطبعة الخليلي ، القاهرة ، 1994 ،
41

(2) نضر عن سبيل مثال : الحائسي ، رسالة التوضيح ، تحقيق محمد يوسف محم ، بيروت ،
1965 ، ص 71 ، ابن رشيد ، العنقة ، 268/1 ، الحفاجي ، سر الفصاحة ، ص 11 .

(3) انظر مثلا الصفحات : 106 - 114 ، 133 ، 291 ، 392 - 395 ، 402 ، 404 ،
412 .

(4) أسرار البلاغة ، ط. عملي ، 121/1 - 122 .

عن الاعتدال النقدي البائد قبله وتقديمه الاستعارة على التشبيه من حيث
الوصفة الشعرية وقدرته كليهما على التأثير في الملقى . يقول في هذا المعنى

« وأما لاستعارة فسبب ما ترى لها من المزية والفخامة أنك قد كتبت .
رأيت أسداً ، كنت قد تلمعت لما أردت إثباته له من فرط الشجاعة حتى
جعلتها كالشيء الذي يجب له الثبوت والحصول وكالأمر الذي يصب
له دليل بقطع بوجوده ، وذلك أنه إذا كان أسداً فواجب أن تكون به تلك
الشجاعة العظيمة . وكالمستحيل أو الممتنع أن يُعزى عنها ، وقد صرحت
بالتشبيه فقلت : رأيت رجلاً كالأسد كنت قد أثبتتها إثبات شيء ، يترجع
بين أن يكون وبين أن لا يكون . ولم يكن من حديث الوجوب في شيء » (1) .

تفطن الجرجاني ، في هذا النص ، إلى فارق مهم بين الوجهين في
أداء المعنى ، فبنية التشبيه تقوم على تجاور سياقين منفصلين تربط بينهما
أداة وظيفتها إضافة بعض معاني الطرف الثاني إلى الأول بعملية قياس بسيطة ،
فبنية التشبيه منسجمة مع أصول الاستعمال اللغوي ولا تدخل أي تشويش
عن نمط ادلالة ، أما الاستعارة فهي سياق وحيد مبني على تضاد وهمي
ومؤقت لدالين يدلان في الأصل على مدلولين مختلفين القصد منه الإيهام
بوحدة المعنى ، وهي طريقة في التعبير تخرج عن أصول الاستعمال وتخلق
في ملتقى ، لأول وهلة ، الشعور بأن السياق « هرائي » (2) ، وهذا يحركه
إلى إسحاث عن منطق العبارة فيحدث فيه الأثر الشعري وتثبت لديه العلاقة
بين استعار والمستعار له (3) .

(1) دلائل الإعجاز ، ط. عفاجي ، ص 111 .

(2) لترجم بها ألفاظي المرسي : Non sens

(3) نظر في بنية الاستعارة :

1) - H Adank *Essai sur les fondements linguistiques et psychologiques de la métaphore affective*, Genève, 1939.

2) — P Ricœur . *La métaphore vive*, seuil, 1975.

3) — J. Dubois... : *Rhétorique générale*, pp. 106-112.

ولعل من أبرز ما ساهم به الجرجاني في تطوير بحث الاستعارة
 عتمده في تقسيمها وبيان أنواعها على الجانب الوظيفي ، فميز بين
 الاستعارات المعبدة والاستعارات غير المعبدة (1) ، وبنى تمييزه على مقياس
 طريف هو الاحتصاص والاشتراك . فالاستعارة غير المعبدة هي التي تقوم
 على ضرب من التوسيع في أوضاع لغة بعينها ، كوضعهم للعصو الواحد
 أسمى كثيرة باختلاف الأجناس « نحو وصح الشفة للانس » ، ونشعر
 بغير ، والجميلة للفرس » ، ثم قد ينقل الشاعر كلمة من هذه الكلمات
 عن أصلها ويستخدمها في غير الجنس الذي وضعت له كاستعمال « المرسن »
 وهو في الأصل للحيوان ، للدلالة على الأنف كقول العجاج (رجز) :

« فاحما ومرسنا مسرجا » .

وقد يقع انعكس فيطلقون أعضاء الإنسان على الحيوان كقول الشاعر
 (مقارِب) :

فبتن جلوسا لدى مهرنا سنزع مسن شفثيه الصفصارا
 « فهذا ونحوه لا يفيدك شيئا لو نزلت الأصل لم يحصل لك » (2)

وأما الاستعارة المعبدة فهي المقامة على التشبيه والتي نحصل منها فائدة
 ومعنى من المعاني ما كان يحصل لنا لو أخرجنا الكلام على عواهنه .

وإنما اعتر الجرجاني النوع الأول غير مفيد لأنه قد يقع في لغة
 دون لغة لأن « التثوق » في مراعاة دقائق الفروق بين المعاني هو ضرب من
 التوسيع في المواصلة قد لا تشعر بعض اللغات بالحاجة إليه

أما أسوع الثاني « فإن الكثير منه تراه في عداد ما يشترك فيه أحيب
 وبحري به المعروف في جميع اللغات فقولك : « رأيت أسدا » ،

(1) أسرار البلاغة ، ط. عمادي ، 123/1 .

(2) المصدر السابق ، 124/1 - 125 .

تربد وصف وحل بالشجاعة وتشبيهه بالأسد على المائغة ، أمر يستوي فيه
عربي والعجمي ، وتجلده في كل جيل وتسمعه من كل قبيل » (١)

ويبرز الفرق بين النوعين ، في رأي الجرحاني ، بلزجة إلى
اللغات الأجنبية ، فإن الناقل إن لم يحط - وهو يتوهم استعارة غير مفيدة ،
الخطأ المحض في تلك اللغة وترجمه باللفظ المشترك كان مصيب ، أما
م يحترم في الثانية بناء الصورة وترجم المعنى لم يكن مترجما ، كما
كان مستأنفا كلاما جديدا (2) .

ومنى نظرتنا إلى الاستعارة المفيدة من هذه الزاوية فهنا أنهد صورة من
صور العنق لا وضعا من أوضاع اللغة فلا يمكن أنسا إذا استعملنا هذا النحو
من الاستعارة (زيد كالأسد) فقد عمدنا إلى طريقة في المعقولات لا يعرفها
غير العرب أو لم تتفق من سواهم » (3) .

وقد ترتبت عن هذه النظرة عدة نتائج هامة : منها تطويره نظرية إلى
المجاز وتخصيص تلك النظرة من : انحصار الجاهل » الذي لاحظناه عند أسلافه
» قررنا أن المجازات فضيلة تحتص بها اللغة العربية ، وهو موقف أمته
الحامية وسدع عن العرق العربي والقرآن يحجج لم ينشئوا من نشأتها ، وجاء
عبد ناهر بقرّر أن المحازات عرف عام في اللغات وأن ما تحتص به منه
لغة لا يعدو أن يكون أمورا جزئية قليلة النادرة ، وأما المجازات المفيدة
فموجودة بكل لغة .

ولش كما نجهل معارف الجرجاني اللغوية إذ لم نقف في آثاره على ما
يدل على معرفته لغات أخرى غير العربية ، فإننا نعتقد أن صرامة منهجه
نعملي ، من جهة ، وكثرة الترجمات في زمانه ، من جهة ثانية ، ساعداه
على ذلك هذه الحقيقة اللغوية وتجنب المزلق الذي وقع فيه أسلافه

(١) أسرار البلاغة ، 127/1 .

(2) المصدر السابق ، 127/1 .

(3) المصدر السابق ، 129/1 .

ومنها تضييقه من أهمية السرقة والأخذ ، لأن الكثير من الاستعارات يقع للإنسان من حيث هو كائن عاقل لا من حيث انتمائه الحيواني والعنصري أو تقدمه وتأخره في الزمن . وكأننا بالمؤلف يردّ بصفة صريحة على مدرسينه الذين يتشكّون بفكرة التأثير اليوناني في البلاغة العربية ويتحدّون من تواتر تشبيه الأسد أو الاستعارة منه ، في مؤلفاته ، حجة للتأثير لأنه شاهد شائع عند أرسطو (1) .

ومنها تدقيقه بلاغة الاستعارة ورفضه أن يكون الوجه يولّد الأثر لمشي في كبرّ احتمالات ، وإنما يجب أن تراعى في إثبات أمر امرية لمرق أين نعلمي المبتذل والخاصّي النادر أي يس ما يتمّ لجميع الناس وما لا نجده إلا في كلام الفحول ، يقول : « اعلم أن من شأن هذه الأجناس أن تجري فيها التفضيلة والتفاوت والتفاوت الشديد أولاً ترى في الاستعارة العنصرية المبتذل : كقولك : " رأيت أسداً " و " وردت بحراً " و " لقيت بسدراً " ، والخاصّي اسد الذي لا نجده إلا في كلام الفحول ولا يقوى عليه إلا أفراد لرجال كقولك : وسالت بأعناق المطي الأباطح » (2)

ومن الأمور التي تسترعي الانتباه في تناوله لمسألة الاستعارة تعمقه في فهم بنيتها ، وتقدير مفعولها الشعري ، فلقد كان السائد على النظرية لبلاعية أن الاستعارة تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على سبيل النقل . بمعنى أنها انتقال في الدلالات وخروج الاسم عما كان يدسّ عليه في الأصل إلى دلالة جديدة يكسبها في السياق ومن ثمّ عدت الاستعارة من معجزات المعوي . ولقد نظرت الحرحاني إلى مناقشة مسألة النفس ووقف منها موقف وإن كانت لا تحلو من التذبذب والاضطراب (3) فهي تميل

(1) نظر مثلاً ط. حبيش : البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر ، ص 12 - 3

(2) دلائل الإعجاز ، ط. خماصي ، ص 112 .

(3) ينظر عبد المطلب في حوّه بالنقل قوة ورفضه قارّة أخرى : قارن مثلاً بين عبد المطلب وأمرر البلاغة ، ط. خماصي ، 112/1 : 123 ، 94/2 ، ودلائل الإعجاز ، ط. خماصي ، ص 106 ، 291 ، 392 ، 394 - 395 .

بـ رفض فكرة التعمير الدلالي وتعتبر الاستعارة ضرباً من الادعاء احصل من مصابقة معنى كلمة لمعنى كلمة أخرى . والادعاء مصطوح قريب من معنى الاتهام والتخيل والكنب بالمعنى الأدبي للعبارة ، فحنن بالاستعارة لا نفر كلمة عن معناها ، وإنما تدعي معناها لمعنى كلمة أخرى عن سبيل مدعاة في أداء المعنى بالمطابقة بين كلمتين مطابقة نشأت بها هي دهر انتهى - من جهة اللطف في العبارة - المعنى الذي تقصد إليه ، ومن أهرر السياقات المشيرة إلى هذا المعنى قوله :

« وطلاقهم في الاستعارة أنها نقل العبارة عما وصفت له من ذلك فلا يصح الخلط به وذلك أنه إذا كنت لا تطلق اسم الأسد على الرجل إلا من بعد أن تدخله في جنس الأسود من الجهة التي بيتاً لم تكن نقلت الاسم عما وصح له بالحقيقة لأنك إنما تكون ناقلًا إذا أنت أخرجت معناه الأصلي من أن يكون مقصودك ونمست به يدك . وأما أن تكون ناقلًا له عن معناه مع إرادة معناه فمحال متناقض » (1) .

ب) شروطها :

إن الاهتمام بالاستعارة كان يدور في إطار تصور عام حظّر النقاد حتى شعراء تجاوزه « لأن الاستعارة حدًا تصلح فيه فإذا جاوزته فسدت وقبحت » (2) .

فكيف يمثل هذا الحد ؟ وما هي دواعي إقامته ؟

يمكن الإجابة عن السؤالين إذا اعتبرنا الزاوية التي نظر منها النقاد إلى شأنها ، وتقديرهم لوظيفتها . فلقد أجمع البلاغيون والنقاد على أن الاستعارة صورة متصورة للتشبيه وإمكانية من إمكانيات تحويل بيته نكتي . في

(1) انظر : دلائل الإعجاز ، ط. خفاجي ، ص 393 .

(2) لأمسي ، تلوازمه ، ص 243 .

تعبارة : يمشيه به . ولذلك فهم يحدّدون أركانها بنفس الطريقة التي حدّدوا بها أركان التشبيه فقالوا : « وكلّ استعارة فلا بدّ فيها من أشياء : مستعار ومستعار له . ومستعار منه » (1) . كما عرّفوا الاستعارة البسيطة بأنّها جمع بين شيئين بمعنى مشترك بينهما (2) . وهذا يعني أنّها كالتشبيه مقترنة بين طرفين لسبب معنويّ جامع بينهما .

ومع ذلك يبتنى بين الوجهين فارق جوهريّ في البنية يتمثل في «صمحلل ما يشير إلى التشبه في السياق وحصول المطابقة بين الطرفين بكيفية لا تنسب معهما الحدود الفاصلة بينهما وبمعنى التمايز الواقع في التشبيه إلى حدّ نحتاج فيه إلى قرينة نعرف بمقتضاها أن الاستعمال مجازي لا حقيقي .

وبحكم هذه الخاصية تتوفر في الاستعارة إمكانية الحبط والتداخل أكثر من التشبيه ويكون الغرض المقصود أكثر خفاءً وأشدّ صعوبة على المتلقي . ثم إنّ البلاغيين والنقاد نظروا إلى وظيفتها من خلال تحديدهم لوظيفة التشبيه لذلك اعتبروها طريقة في التعبير تساعد على تقريب المعنى وإبانتة وتزيينه بإحداث خصوصية فيه لا يحدثها الاستعمال الحقيقي . فصفة «فرس في قول امرئ القيس (طويل)

وقد اعتدى والطير في وكّاتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

وهي « قيد الأوابد » أبلغ وأحسن من المعنى الحقيقي الدالة عليه وهو « مانع لأوبد » (3) . وقوله تعالى « يؤمّ يكشف عن ساق » (4) « أبلغ وأحسن وأدخل مما قصد له من قوله لو قال : يوم يكشف عن شدة الأمر ، وإن كان المعنيان واحداً » (5) .

(1) الرماني ، التكت في إعجاز القرآن ، ص 86 .

(2) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(3) الرماني ، التفسير المذكور ، ص 86 .

(4) النظم/42 .

(5) الصالحين ، ص 274 .

وقد ترقب عن اعتبارها صوره من صور التشبيه وقرعاً عليه . لحرص على أن تستجيب للضوابط التي وقع إقرارها بشأنه ، ولما كدت تختلف عنه من جهة نسبة إذ تقوم على إحلال المشبه به محلّ المشبه في العبارة ، وإليه م أنه يقوم مضمه في الصفة . تضاعف ذلك الحرص وصيّق لحاق على الشعراء في استعمالها حتى لا يخرجوها معارج لا تحقق التماسك و ملائمة بين الأطراف .

وفي مقدمة الشروط . الحاجة إلى القرينة الدالة على وجود الاستعارة لأنها - أي الاستعارة - إما تطلق حيث يطوى ذكر المستعار له ويجعل الكلام مخلوً به صالحاً لأن يراد به المنقول عنه والمنقول إليه لولا دلالة محل أو فحوى الكلام ، (1) فلو لا ذكر الظرف المنجور في قوله تعالى . « حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ » (2) لم يعلم أن الخيطين مستعاران (3) .

كما اشترطوا أن يقوم بين المستعار والمستعار منه معنى مشترك لنبي بموجه الاستعارة على أساس من التماسك العقلي بين الطرفين لأن ملاك الاستعارة « تقريب أشبه ومناسبة المستعار له للمستعار منه وامتناع اللفظ بالمعنى حتى لا يوجد بينهما منافرة ولا يتيى في أحدهما إغراض عن الآخر » (4) . لذلك عاب خصوم المتنبى عليه قوله (بسيط) :

مَسْرَّةٌ فِي قُرْبِ الطَّيِّبِ مَفْرَقُهَا وَحَسْرَةٌ فِي قُلُوبِ الْبَيْضِ وَالْبَيْتِ
لأنه جمع نطيب والبيض واللب قلوباً وهي استعارات لم تراع فيها الأصوب
وه تحسر على شبه قريب ولا بعيد . ولذلك عدت من فاسد لاستعارة

(1) الترمذى ، الكشاف ، 157/1 .

(2) مبقرة/187 .

(3) الترمذى ، المصدر السابق ، 258/1 .

(4) نوساطة بين المتنبى وخصومه ، ص 41 .

وقبيحها و « إنما تصح الاستعارة وتحسن على وجه من أساسة وصرف من شئنه والمقاربة » (1) .

في مثل هذه النظرة تتحدد صحة الاستعارة وحسنها بوضوح العلاقة بين الأصرف وسهولة الاختداء إلى المعنى الذي قصده الشاعر (2) . ولذلك ترهم ب أرادوا التعبير عن نهاية الحسن في الاستعارة شهوا دلالة بما يدل عليه الحقيقة .

هاين رشيق شديد الإعجاب يبت طُعيل العوي (كمس)
موضعت رجلي فوق ناجية يفتات شحم سمنها الرخس
لأن جعلته شحم السنام قوتا للرجل « استعارة كألها الحقيقة لتمكنه وقربها » . وقرب هذه الاستعارة هو السبب ، عند صاحب العمدة ، في تداول أصحاب المختارات هذا البيت وشأولة كثير من الشعراء النسيج على منواله (3) .

والتأكيد على قرب الاستعارة وضرورة التناسب القوي والشبه الواضح بين استعار له والمستعار منه بلغ عبد ابن سنان الخفاجي درجة من التصليب ثلاثم ، لا محدنة ، مفهومه للمصاحبة ، ولكنها قضيت من مجال الاستعارة إلى درجة أن الكثير من الشعر العربي يقع خارج مقاييسه ويصبح ، في نظره ، من قبيل الاستعارات الرديئة .

فقد قسم الاستعارات إلى قسمين : « قريب مختار » و « بعيد مطروح » وحدد القريب بأنه ما كان بينه وبين ما استعير له تناسب قوي وشبه واضح . أما بعيد المطروح فهو ما باعد فيه الشاعر بين الطرفين إما بأساء على معنى

(1) القاصي المرحلي ، المصدر السابق ، ص 429 . وانظر في نفس المعنى ، الهولقة بالعمدة ، ص 235 .

(2) الحامي ، الرسالة للوضحة ، ص 71 .

(3) العمدة ، 275/1 .

غير و صح في الأصل ، وإما لإقحامه بين المعنى الأصلي والمعنى الفرعي وسائط وهو ما يسميه بناء الاستعارة على استعارة أخرى . وسمّاه العلماء في وقت لاحق بالاستعارة المرشحة .

وبناء على هذا التقسيم راح يناقش مختارات السابقين كالفاسي لجرحاني ولآمدي واصولي ويردّ عليهم مقاييسهم بشيء غير قبل من التمحّز والتعذلق وسوء الطبع .

فهو يناقش الآمدي في إعجابه باستعارة امرئ القيس في قوله (طوبل) فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجارا وناء بكلكر

ويرى أنها استعارة وسط بين الحسن والرديء وليست في غاية الحسن والجودة والصحة لا شيء إلا لأن الشاعر بنى الاستعارة على غيرها « فلما جعل الليل وسطا وعجرا ، استعار له اسم الصلب وجعله متمطيا من أجل امتداده ، وذكر الكلكل من أجل نهوضه » والأمر الذي أقلق الخفاجي أن كل هذا إنما يحس بعصه لأجل بعض « فذكر الصلب إنما حسن لأجل المعجز . واوسط والتمطى لأجل الصلب والكلكل لمجموع ذلك » (1) .

ولا يمكن أن يفسر هذا التهور من شأن الاستعارة المرشحة إلا بتمسك المؤلف الشكلي بمقولة القرب والمناسة . وهو تمسك غلطى على صاحبه القيمة الفنية التي نصبتها اليث ، وهي قيمة لم تعب عن قدامة رّغم ضيق عطفيه في التحليل الأدبي وقلة اهتمامه بالاستعارة (2) . وليس ندرى كيف كان يعجب الخفاجي لو اعترض على تحليله ببعض ما ورد في القرآن من لاستعارات مبيّنة على نسق بيت امرئ القيس كقوله تعالى . « الَّذِينَ شَرَوْا الصَّلَاةَ بِالْهُدَىٰ قَمَآ رِيحَاتٍ تَجَارَتْهُمْ » ؟ (3) .

(1) سر الفصاحة ، ص 114 - 115 .

(2) نقد الشعر ، ص 104 .

(3) البقرة/16 .

وبفس الطريقة قريبا يرد حجج الصولي والآمدني لاستقامة قول
أبي تمام (كامل)

لا نسقي ماء الملام فيأتني صب قد استعذبت ماء بكائي
فأبو بكر الصولي لا يرى في البيت وجهها يعاب به أبو تمام ذلك أن العرب
تستعير لفظ ماء لتدل به على غير معناه ، فهم يقولون «كلام كثير ماء»
و «هالان أكثرهم ماء شعر» ويقولون «ماء الصباة» و «ماء بهوى» .

كما أن العرب تحمل اللفظ على اللفظ فيما لا يستوي معناه ، كقوله تعالى
«جزاء سبعة ستة مثلها» فالسبعة الثانية ليست بسبعة ولكنها جزاء ،
ولكنه حسن اللفظ على اللفظ فلما أراد أبو تمام أن يقول قد استعذبت ماء
بكائي جعل للعلام ماء ليقابل ماء بماء وإن لم يكن للملام ماء على الحقيقة .

ولإزاء هذه الحجج شعر الحماسي بالخرج إلا أنه قطع النقاش بخوف
للبس والإشكال وفساد بناء الاستعارة على الاستمارة (1) .

وفي مقابل هذه الاستعارات التي لم تحظ بإعجابه أورد جملة من
الاستعارات اعتبرها من العيرون ، لأنها تقوم على الליاقة العقلية وقرب الطريق
إلى المعنى بحيث لا يصعب مجارها وتأويلها من ذلك قول الشريف الرضي
(بسيط) :

رسب لسيم بواديكم ولا برحت حوامل المزن في أجدانكم تصع
ولا برال حنين التبت نرضعه على قبوركم العراضة انهمس
فهو عبده ، « من أحسن الاستعارات وأليقها لأن المزن تحمل الماء ويد
همت وضمته » فاستعارة الحمل لها والوضع المعروفين من أقرب شيء
وشبهه وكذلك قوله جنين التبت لأن الجنين المستور مأخوذ من الحمة

(1) مر المصاحفة ، 132 - 135 .

ورد كذا استبت مستورا والعيث يسقيه كان ذلك بمنزلة الرضاع . وكنت هذه الاستعارات من أقرب ما يقال وألفه (1) .

وإذا كانت مقاييسهم تضيق عن احتواء الاستعارة المرشحة فمن باب أولى وأحرى أن تضيق عن الاستعارة التي تسمى في العرف البلاغي « الاستعارة تحيينية أو المكبية » وهي كما يدل عليها اسمها تقوم على المروحة بين وجهين ، انكساية من جهة والاستعارة من جهة أخرى وذلك بعيب المستعار عن استيق والاكتماء في الإشارة إليه ببعض القرائن اللارمه له . وتشبيهه لا يحصى في هذا النوع إلا بعد أن تحرق إليه سترًا وتعمل تأملًا وفكرًا وبعد أن تعبر الطريقة . وتحرح عن الحلوة الأولى (2) .

وبقد كان الغالب على النقاد والبلاعيين استبعاد هذا النوع من الاستعارة لأنه خروج عن مبدأ الإبانة والوصوح الأثير لديهم ، لذلك وقفوا موقف الريبة والحذر من قول لبيد (كامل) :

وغدًا في ريحٍ قد وزَّعتِ وقرةً إذ أصبحت بيد الشَّمام زمامها
لأنه استعار للشيء ما ليس منه ولا إليه . وكانوا يفضلون عليه قول ذي الرمة (صويل) :

أقامت به حتى ذوى العود والثوى وساق الثريا في ملاءته الفجر
لأن نشعر أخرج الاستعارة مخرج التشبيه وقد عرض ابن رشيق آراء العلماء في البيت وانحاز إلى الشق الذي يستحسن الاستعارة القرينة رغم أنه كان من أنصار الشبه النادر في التشبيه ، يقول :

« وبعض المتحقيقين يرى ما كان من نوع بيت ذي الرمة ناقصًا لاستعارة ، يدرك محمولًا على التشبيه ، ويفضل عليه ما كان من نوع بيت لبيد . وهذا

(1) سر الصحاح ، 116 - 117 .

(2) أسرار البلاغة ، ط. خفاجي ، 141/1 .

عسي خطأ ، لأنهم إنما يستحسنون الاستعارة القرينة . وعلى ذلك مصي
جنة علماء ، وبه أتت النصوص عنهم ، وإذا استعير للشيء ما يقرّب منه
وبليق به كان أولى مما ليس منه في شيء (1) .

وقول ابن رشيق إنّ جملة العلماء يستحسنون الاستعارة لقرينة بسم
عن معرفته الجيدة بأصول النظرية الأدبية وإلمامه بمواقف نقد النبي
سبقوه ، فنقد كان « أثمة » النقد أمثال الآمدي والفاضل الجرجاني يصيقلون
الاستعارات التي تقوم على التشخيص بحيث تُربنا الجماد حبّ لطف ،
ولأعدهم فصيحاً . والأحسام العروس مينة والمعاني الحصى بادية جنية (2) .
فكان لآمدي يتعقب استعارات أبي تمام ويعتبر الكثير منها في غاية لفتها
وبخسة والعد عن الصواب . وقد ركّز هجومه ، بوجه خاص ، على
الاستعارات التي صمد فيها الشاعر إلى تشخيص الزمان والدمر وما يليهما .
فمن قول أبو تمام ، مثلاً ، (طويل) :

نحملت دلو حمل الدّهر شطره لمكّر دهرًا أي هبّأته أنفس
شدّد اسقذ عليه التّكبير لأنه جعل للدّهر عقلاً وجعله مفكّر في أي
العبّأين أنقل وما معنى أمد من الصّواب من هذه الاستعارة (3) .

ونحن ، مع إقرارنا بأن الكثير من استعارات أبي تمام كانت مخرجة
عمّا يستشعره الدّوق العربيّ لتعمّد صاحبها بنائها على صرب من التشجير
يحدّ من فعليتها الشعرية المباشرة ، نرى أنّ الطريقة التي ووجهت بها
هذه الاستعارات عند الآمدي وعند غيره من النقاد كانت تخطئ على العملية
شعرية ذاتها وصمدًا للدّوق عن استعمال ما لم يألّف ، كما أنّها تدخّل
مشرّ في قدرة الخيال على بناء صور جديدة ودفع الحصر الشعريّ إلى اقتحام

(1) أمّدة ، 269/1 .

(2) أسرار البلاغة ، ط خفاجي ، 137/1 .

(3) أمّارة ، ص 241 .

معصرة التجربة والاستكشاف ، بل إنها سوء فهم لطبيعة العمل الشعري .
فبدل أن يقف الناقد عن هفوات الشاعر ومظاهر خروجه عن أصول
اللباقة العقبيّة . كان أجلى أن يبحث عن كيفية توظيفه ذلك الخروح لأغراض
معيّة . وفي البيت المذكور نفس شعري واضح وحلق لأصول الصناعة
ووسائنها . فالسكرة السائدة على البيت هي المبالغة . قد تكون مبالغة في الاعتدال
بالعس . أو مبالغة في التبرّم بالوجود والضيق به ، فالمهم أن يرى الحظ
الشعري مدى سلكه الشاعر لإيصال هذا المعنى . وأول ما تلفت الانتباه بدء
لصدر عن مقابلتين : مقابلة «الأنا» و «الدّهر» . وهي أول عملية
تحريك لمبالغة ، لأن الدّهر هو النموذج الأقصى في التحلّل والثبات
والكينونة المطلقة التي تحتوي كل الأحداث التي يعيشها الإنسان ولكون
ثم تقطع فكرة «المبالغة» خطوة حاسمة بالمقابلة الثانية ، وهي مقابلة تسير
في اتجاه مناقض لاتجاه المقابلة الأولى إذ وقع إسناد الأضعف إلى الأقوى
— شطر الحمل للدّهر — وبذلك يطمو الأنا على الدّهر بعد أن كان
في المقابلة الأولى متضالاً ضامراً . كما نلاحظ انبناء البيت على التركيب
الشرطي ابتداءً بلو ، وهو يدخل الباقي في محض الافتراض والتوهم
 ويفصده عن منطق الكلام العاديّ ليزجّ به في عالم شعريّ يقوم على لتخييل
بجد منه احتقي سبيلاً إلى دواخل الشاعر لمعايشته شعور الانقباض والضيق
المتولد من ثقل الحمل ، كما عمد الشاعر إلى جعل المفعول به اسماً موصول
مشترك وفصل صيغة الإضمار بالمبنيّ للسائب والضمير لأنه يريد أن يبرز فكرة
امعاذة مجردة عن النوع .

ثم يأتي العجز للتأكيد على قدرة الشاعر التي تفوق فترة الدّهر . ويلعب
الحناس دوراً فنياً هاماً في بلورة عملية التشخيص التي قصدها الشاعر .
ويتمثل ذلك في تكرار كلمة الدّهر في العجز بصيغتها الزميمة الطروية .
فأخرج الدّهر في الصدر عن ملو له الزمنيّ ليردّه إليه في العجز . ثم يسع
لبت قمة الفنّ ، في نظرنا ، من جهة الإيحاء الموجود في صيغة أشي

عبثاً به فالعبء الأول هو « شطر ما حمل الشاعر » ولكننا لا نعرف
 لعبه الثاني وهنا تبقى البنية مفتوحة ويجري الوهم في تأويلها كل محري .
 وهذا سر من أسرار العملية الشعرية التي لا ترمي إلى مدّ المتلقي بحقائق وإنما
 تروم استدراجه إلى عالم الشاعر ودفعه إلى استكناه تجربته من التدعيات التي
 يحلقها فيه . وإذا فسرنا العبء الثاني بكون الدهر دهرًا وصت ساعة
 أقصاه ، يصح ثقل الدهر على اندهر أخف مما حمل الشاعر .

لا أن لآمدي كان يتحرك ، في نقده . من أصول مسبقة توجه لعامله مع
 التجارب الشعرية ، ومع تجربة أبي تمام بوجه خاص ، وأغلب نيت لأصول
 يرتد إلى نزعته اللغوية المحافظة التي تلزم الشاعر بسلوك الطرق الممهدة ،
 والنسج على منوال العرب ، والختار من الخروج عن سُنَنهم في تأليف ،
 والانتهاز في اللغة إلى حيث انتهوا ، والافتداء بهم في الشائع مشهور لا في
 الشاذ النادر ، ومن هنا أمكن للآمدي أن يرد حجج من قاسوا بعض مجازات
 أبي تمام التي رفضها على نسادح شبيهة بها في الشعر العربي القديم . من قبل
 له إن بعض شعراء عبد القيس شحخص الدهر وهجاه في قوله (طويل) :

ولما رأيت الدهر وعرا سليله وأبدى لنا ظهرا أجب مُسَلِّع
 ومعرفة حصاة صير مفاضلة عليه ولونا دا عثانين أجدهد
 وجهة فرد كالأشراك صليلة وصغر خديّه وأنفًا مجدهد

فماذا لا نحمل عليه قول أبي تمام « وضربت الشتاء في أخذه » كد حواب
 لآمدي أن « هذا الأعرابي » إنما تملح بهذه الاستعارات في هجته لدهر
 وجاء بها هازلا ، (1) .

وكذلك الحال في قول أبي تمام (كامل) :

طلس الجميع لقد عفوت حميدا وكفني على دري شديدا

(1) انظر : إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص 168 .

فهذا البيت ، في نظر الناقد ، خارج عن وجه الكلام إذ كان ينبغي أن يقول
« وكفى برؤئي شاهداً على أن مضي حميداً » ولما اعترض عليه بأنه أشعر
أمرجه على لقب أجبب الآمدي بأن « المتأخر لا يربط له في لقب
لأن القس إنما جاء في كلام العرب على السهو ، والمتأخر إنما يحتدي على
أمثلهم ويقتدي بهم وليس ينبغي له أن يتبعهم فيما سهواً فيه » (1)

ولا يستبعد ، كما أشار إلى ذلك إحصان عباس ، أن يكون « ورء
بعض أحكام الآمدي أثر ديني » ، فأكثر استعارات أبي تمام التي يجدها
الآمدي عثةً إنما تتعلق بالدهر والزمان وربما ارتبط هذا - رتداً
شعرياً أولاً شعورياً - بما يروى في الأثر « لا تسوا الدهر » (2) .
ولا يختلف موقف القاضي الجرجاني من الاستعارة عامة ومن استعارات
أبي تمام خاصة عن موقف الآمدي .

ورغم أنه كان أكثر منه تعاطفاً مع تجربة الشعر المحدث ، كما يتجلى
ذلك من دفاعه عن كثير من استعارات المتنبّي وأبي تمام (3) ، وأقل منه
قتلاً بمنزلة الشعر القديم (4) ، وأشدّ حراً في بعض مواقفه النقدية كفصله
الشعر عن الدين (5) ، فإنه لا يختلف عنه في التمسك بقرب الاستعارة ووضوح
شبه وعدم لخروج فيها عن حد الاستعمال والعادة حتى أنه عدّ « تعدّي
في الاستعارة » من عيوب الشعر البارزة (6) .

كما وقف من استعارات أبي تمام موقفاً لا يختلف جوهرياً عن موقف
الآمدي واحتمل الأعمام من التفاد ، فهو ينظر إلى الاستعارات البعيدة
بصره مسترانة أدّت به إلى إدراج الكثير منها في رمة الاستعارات السيئة (7) .

(1) موازنة ، ص 193 .

(2) إحصان عباس ، المرحم المذكور ، ص 170 .

(3) الوساطة بين المتنبّي وخصومه ، ص 429 .

(4) انصهر السابق ، ص 4 .

(5) انصهر السابق ، ص 64 .

(6) انصهر السابق ، ص 82 .

(7) انصهر السابق ، ص 40 وما بعدها .

ومن يتخير موقف النقد من الاستعارة المكنية إلا مع عدم تفاهر
البحر حسي لأنها تتلاءم مع مذهبه العقلي ونتيجة طبيعته من
نتائج دراسته للتشبيه حيث رأيناه يميل إلى وحدة الشيء بأحد
من لصور العقلية (1) . ورغم أنه استطاع أن يوسع من مفهوم
الاستعارة ويفضل إمكانية صوعها بطرائق متنوعة لا تنحصر في علاقه
لواحدة مصدقة فإنه بقي في إطار الفهم والإفهام ويدعو إلى "لا يحزن بعد
الفكر لاكتشاف أسرار الكلام دون الفهم لأن الإفراط في التعمق ربما أضر
بمعنى من حيث يراد تأكيده به " (2) .



من الاعتناء بالجانب التطبيقي من البلاغة حيث تتحول المقررات النظرية
والقواعد العامة إلى وسائل عمل تمارس بها التجربة الأدبية ممارسة عميقة لا
تعترف بالحدود بين البلاغة والنقد ، يبدو على جانب كبير من الأهمية لأنه
يساعدنا على معرفة الحدود الحقيقية التي ينزل فيها العمل النظري ويكشفنا
عن المشاعر الحقيقية التي كانت تحاصر البلاغيين والنقاد وعن الإطار الذي
تتحرك فيه رؤيتهم الفنية وقناعاتهم الجمالية . كما أنه يسلك مهمة لرصد
أطوار البلاغة ومعرفة العلاقات الثابتة الواضحة بين مختلف تلك المراحل رغم
لتحولات الطارئة على مادة العلم .

ولعلنا ، من خلال دراسة التشبيه والاستعارة ، بينا أن التفكير البلاغي
بقي رغم ما جد فيه من تطور لافت ، مشلولاً إلى بعض الأسس التي أقيم
عليها منذ مصلع نشأته .

(1) أسرار البلاغة ، ط. عجاجي ، 157/1 .

(2) المصدر السابق ، ط. اسطنبول ، ص 275 .

ومن أهم تلك الأسس مراعاة الوضوح والإبانة والتظنر إلى وصفه نص من أية سمعة والسجاعة . ولقد رأينا النقاد يعودون دائما إلى هذا الأسس مهما توسعوا في بحث الوجه وتعميق قضاياها .

واحتلال الإبانة قطب الرأى فى النظرية الأدبية وسم نظرة العرب ، و النص بصدع عقلي ، توأت بموجبه وظبعة الفهم والإفهام صدارة الواطن معوية ورنط حصول التأثير فى المتلقى بالإدراك ومن ثم كان الفهم شرط لواجب حصول اللذة .

ونستف بعقل يسحره حتما ، تراجع الخيال ، واحصار قدرته والتعبد من معالته فى التجربة الشعرية يظهر ذلك جليا فى نمسك النقد بالوضوح وعدم الإبعاد وربطهم الاستعارة بالتشبيه حتى لا تنشأ القطعية بين الحطاب شعري وقدره الإدراك لدى المتلقى وهذه قمت من طريق أسهل باحترام امراضعات سفوية والمواضعات المنطقية وبكل الأنماط الدالية المألوفة .

كر ذلك يؤدى إلى التشتت بعدم مصادمة الذوق لأى الخروج عت يستيفه يعنى تعطيل وطبعة النص والنص الأدبي بوجه خاص . ومن ثم يمكن أن نقول إن حرص النقد على أصالة الذوق كان أشد من حرصهم على تطوير ذلك الذوق وتهيته إلى تقبل تجارب جديدة .

من هذه الراوية يمكن أن نعد النظرية البلاغية وحها من وحوه المحافظة لأى تحركت من نفس المنطق الذى تحرك منها الشعو ، فقد حاولت أن تؤسس قوانين عامة انطلاقا من تجارب فردية ثم أصبحت تحكم تلك التجارب من خلال القوانين .

خاتمة القسم الثالث :

تمثل فترة الممتدة من وفاة الجاحظ إلى نهاية القرن السادس هجريّ زدهار مباحث البلاغية ، واكتسالتها ، وبداية تراجعها .

ولا غربة في الأمر ، ففي هذه الحقبة بلغت الحصار العربية الإسلامية أوجها . كما بدأت تلوح في الأفق بداية تراجعها ، وانكماشها ، فحظ تطور البلاغة يبدو مسجسا مع المسار الحضاري العام .

فهي هذه الفترة شهد الكثير من العلوم والاختصاصات تطور حاسما أهدت منه لبلاغة فائدة عظمى . فلقد تلورت الانجازات الكبرى للنقد الأدبي بداية من القرن الرابع بوجه خاص . وأصبح تحديد القيمة الفنية في النص مشغلا من مشغل النقاد الكسرى نظيرا وتطبيقا . وقد أعانت المصنوعات الأدبية حول أبي تمام ، ثم حول المتنبي ، على صسط جانب مهم من مقاييس لتقديرة الراجعة إلى النص ذاته ، وطريقة الشاعر في بنائه ، وما يصمته من الأساليب لإنفاذ تجربته الشعرية .

كما أعطى الاهتمام بمسألة الإعجاز نتائجها الملموسة فوصفت في شأنه ، بداية من نهاية القرن الثالث ومطلع القرن الرابع ، مؤلفات عديدة .

وشر حصص أصحاب هذه المؤلفات جانبا منها للحديث عن دلائل لإعجاز عامة فيهم ركزوا حديثهم ، في الغالب ، على الأدلة النصية برصد

مخصوصيات العبارة التي ميّزت القرآن عن غيره من الإنجازات الأدبية
وبوّأته مرتبة لا يقوى على بلوغها البشر .

وقد ساهمت هذه المؤنعات في تغذية البحث البلاغي . ونصوب مسأله
من ثلاث جهات على الأقل : من جهة العمل التحليلي لدى سبند
استخرج سمات الأسلوبية الموجودة في القرآن والتبسط في بيان خصائصها
لغنية ونهجها المنفرد في أداء المعنى .

ومن جهة استمرار أصحابها في طرح أمتهات المشاكل البلاغية بما في
ذلك مفهوم البلاغة نفس . والنسب في ذلك ، في نظرنا ، الملابس العقائدية
المكتسمة مبحث الإعجاز والتي تعدو بموجها أبسط المواقف المعوية تعبيراً عن
فناعات مذهبية تثير الريبة والشك .

عن أساس هذا الصراع العقائدي وصغت الكثير من المؤلفات .
فلباقلائي ، مثلاً ، كان بروم من تأليب « إعجاز القرآن » فرويج « جمل »
الأشاعرة في إعجاز والتهوين من شأن آراء الجاحظ المعتزلي التي ضمنتها
كتابه الفصالح « نظم القرآن » .

ولم تكن هذه المناظرات تجري بين النحل المختلفة فقط . وإنما تصادفها
بين شيوخ نفس النحلة . ونفص التوامي له المسائل البغداديات « لأبي هاشم
عبد السلام بن محمد الجبائي » أمر معروف في قاريغ الاعترال .

عن هذه المناصرات والمناظرات تولد الوجه الثالث وهو متعلق بأجانب
مبهي في تحديد بلاغة النص . هي كتب الإعجاز نحم مفهوم « الطم »
وبه ، وبصح . وهو من مآثر التفكير البلاغي عند العرب ووجها من وجوه
طرقه .

وفي هذه الحقبة أيضاً ، عرفت معرفة تاريخية ثابتة بعض الآثار الأجيبة
متصلة من القول والتوامي المتحركة في عملية الإنشاء ، ومن أهمها

كذلك أرسنوه « الشعر » ود الخطابة ، وقد اهتم الفلاسفة المسلمون أمثال
 بشار بن أبي سبيبا وابن رشد بشرح هذه المؤلفات وتلخيصها وشرح
 قوايسها على الشعر العربي ، إلا أننا نعتقد أن تأثير هذا العامل لم يكن حاسماً ،
 ولم يمس " صلب النظرية الأدبية التي حاولنا جهدنا أن بيّنه ، بل
 مستوى الأسس على الأقل " . على أصول تابعة من النسبة التمهيدية لمجتمع
 عربي إسلامي

على جانب هذه المؤلفات التي تبقى صلتها بالبلاغة ، رغم أهمية مادة
 الموجودة فيها ، صلة ثانوية . ظهر نوع من المصنفات السُحُف ، بحسب
 أوجوه أبي ذؤيبه وترويضها وإيراد الشواهد الموضحة لبلوغها ، وهي مصنفات
 التي جرى التعرف على تسميتها بالمصنفات البلاغية . وظهورها خصوصاً دمة في
 تطور العلم ومظهر من مظاهر استقلال .

وبذلك حصصنا جزءاً هاماً من هذا انقسام لتحديد ما سمي به بفترة
 الخمسة في التأليف البلاغي . وقد تبين لنا ، بعد استعراض أهم المساهمات
 بعد الجاهل ، أن كتاب « النديم » لعماد الدين المعتر كان أول مؤلف يقتصر
 فيه صاحبه على استعراض نماذج من الأساليب البلاغية والمجسّمات اللفظية
 التي نصفي على النص " مسحة فنية تميزه عن الكلام العادي .

وقد مهدت لظهور هذا الكتاب مشاركات بعض علماء النصف الثاني
 من القرن الثالث بعد ذكرها ، بوجه خاص ، مشاركة كل من ابن قتيبة
 وسيرد ، فقد جمع الأول في « تأويل مشكل القرآن » وحوها بلاغية عديدة ،
 وحدث تعريفها واستخراج شواهدا من الشعر والقرآن ، وتعمق للناسي
 في دراسة وجهين بلاغيين بشكل لافت للأنظار هما التشبيه بالمسرحية لأولى
 والكتابة بدرجة ثانية .

وقد سنعلّ ابن المعتر المادة التي وفرتها هذه المؤلفات و مؤلفات
 سابقة . وساقها في تقسيم ثنائي لغير سبب واضح . وسيكون لهذا الكتاب
 أثر عميق في المؤلفات المتأخرة من عدة جوانب .

1، لتركيز على خصائص النص ، وإهمال بعض الجوانب الأخرى التي كانت طرفاً مهماً في النظرية البلاغية ، فقد رأينا الجاحظ يتناول مسألة سلاعة من زاوية التواصل ، ولذلك احتل المتكلم والسامع ، في نظرته ، مكانة لا تقل عن مكانة الكلام وكان اهتمامه بالتلمظ في مستوى هندسه بمنهوظ . أما مع ابن المعتز فقد أصبحت البلاغة خصائص في بناء النص منحصنة عن عمية الإنحار . وأصبحت هذه الطريقة في الناول سبة لتأثره أغلب المؤلفات البلاغية

2) النظر إلى مسألة البديع من زاوية الصراع بين القدماء والمحدثين ، فلم يجد ابن المعتز طريقة تخدم خطه الشعري ، وتبرز لهجه بالبديع ، أحسن من التأكيد على أصالته في الموروث الأدبي ، فراح يفتح للقدماء على المحدثين وينتقي لنماذج القرآنية والشعرية وغيرها من كلام العرب القصيدة يؤكد على أن الفضل في هذه الطريقة للقدماء وأن المحدثين لم يتدعوها وإن اشتهرت بينهم وفي زمانهم ، وقد أدى به ذلك إلى طرح مقياس غاية في الحظورة نعتقد أنه ساد على أشد من قبل من الماهدين انهامة للعرض في أعماق التجربة الشعرية ، ويتمثل هذا المقياس في اعتباره الكم فاصلاً أساسياً بين القديم والحديث وربطه بإسادة بالإفراط ومحاكمة أسبي تمام على أساس ذلك .

وننتج عن هذا أن بقي النقاد ينظرون إلى الصورة مقطوعة عن سياقها ، ولا يعتبرون ما يجدونها من تطور بتبدل الوقت واختلاف التحارر ، وعوض أن يفهموا تجربة شاعر كأبسي تمام فإنهم حاكموه بناء على فكرة الإفراط .

بعد ابن المعتز يتسارع نسق التأليف فتتعدد المصنفات وتتشده ويقص حصص الكثير منها من الطرافة والجدة حتى يطلع المجرحاني في القرن السادس مؤلفيه « دلائل الإعجاز » وه أسرار البلاغة » فيعطي البحث البلاغي نقاشاً حديداً ويبعد النظر في أعنف مواقف أسلافه من منظور عقلي حتمت من صرامته روح أدبية أصيلة وحسن لهوي مرحف .

وقد رأينا أمام كثرة المصنفات وتشابهها أن فعالية مادتها ونقد مساهمتها من خلال بعض القضايا الهامة . وقد اخترنا منها ثلاث مسائل ست تبث مسألة الركائز التي يقوم عليها أي علم من العلوم وهذه مسائل هي المفهوم والمنهج والإجراء .

في قسم المفاهيم اهتمما بزوجي الحقيقة / المحار ، والفصاحة ، البلاغة . وقد سمحت لنا دراسة الزوج الأول بالكشف عن الأسس التي عتمدها البلاغيون والنقاد لتمييز المستوى الإنشائي عن غيره من مستويات التعبير بالنسبة . أما الزوج الثاني فتحدثنا من خلاله تحديدهم لمصح البلاغة في النص

لقد مكّن تطور العلم واتساع مباحثه من اتعمق في تحليل طرق لأداء اللغوي ، ونجاوزت المقابلة بين الحقيقة والمحار الملاحظات المقتضية لتي رأيناها في مؤلفات لجاحظ وأصبحت محورا من محاور البحث القارة في مؤلفات هذه الفترة . ولقد تضاعفت جهود العلماء من بلاغيين ونقاد وفلاسفة وأصوليين لتؤكد على أن التوسل بالمحار هو أبرز خاصية تميز الأداء الفني عن غيره ولقد تواترت في مؤلفاتهم المقابلة بين ما سموه بالكلام المؤلف أو المعتد أو العدي وبين الكلام المخرج غير مخرج العادة أو الكلام الشعري أو الكلام عن حيلة ، وهي كلها طرق في التعبير عن المقابلة الرئيسية . ولإبراز أهمية محار في تحديد نوعية الأدب ، اتجه بعض المفكرين اتجاهها نظرياً محضاً ربه فيه ظهور « شعرية » بانفتاح اللغة من طور التعبير الحقيقي إلى طور « التحوّل » في لغة وهو يعني به الخروج في استعمال اللغة عن استخدام مواضعة والاصطلاح إلى التصرف في تلك المواضعة وإحرائتها على سبيل بلائم عرض المتكلم في التعبير الفني .

لا أنهم زعم حدة الوعي بالفرق بين الطريقتين . لم يستطيعوا صياغة ذلك الفرق صياغة نظرية . وإنما بقوا يعبرون عنه من خلال شواهد شعرية يكتفون فيها بالمقارنة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي حتى جاء المخرجي ،

في القرن لحامس ، وأول المسألة تأويلا لما يشاء في عبارته المشهورة « معنى معنى »

أما زواج الفصاحة / البلاغة . فقد حاولنا من خلاله تحديد عيدين
الدراسة الأسلوبية . وذكرنا الحديث على إبراز المصائب المنهجية التي
وجهها البلاغيون والنقاد نتيجة فصلهم بين بنية النص الخارجية أو منطق وسببه
داخلية أو المعنى . وقد اتسمت جملة المواقف بنوع من التطرف ، مشوب
بكثير من التذبذب والتردد . فتبنى فريق رأي الجاحظ المشهور في « معنى
محرروحة في الفريق » وفهمه على صاعره ومن ثم راح يدفع عن منطق
مفرد والبلاغة وانشكلى دعاءهما أساس البلاغة . بينما هو فريق آخر
من شأن منطق والبلاغة وربط البلاغة بالنظام المعاني واتساقها على صورة
لعقل و اعتبر البنية اللغوية للنص انعكاسا للمعاني وحدها لها .

ولم يستطع أي من الفريقين الالتزام بحلود الموقف المبدئي الذي تبناه
لأنه رأى أن المدافعين عن الشكل يخصصون جانباً مهماً من مؤلفاتهم للحديث
عن بلاغة المعاني . كما رأى أصحاب المعاني محرجين إذ لم يستقيم لهم
تجريد المنطق من كل قيمة معية

ولتفهم طبيعة هذه المواقف ، عمدنا إلى دراسة أصول منهجهم في
تحديد أسباب بلاغة الكلام وتفاصيله ، وخصصنا لهذه المسألة باباً مستقلاً .

وقد تبين لنا أن المشاغل المنهجية كانت طاعية على جهود العلماء في
هذه فترة . ونشهد مقدمات الكثير من المؤلفات بأن البحث عن طريقة
تحديد بلاغة الكلام كان عاملاً مهماً في حيوية التفكير البلاغي وتجديده

ويمكن القول بأن التراث البلاغي بكامله بقي يعيش في تصور أسباب
بلاغة على منهجين اثنين رسمهما الجاحظ في مؤلفاته . وهما لأساليب
والمحاربات ، وكل ما يدخل ضمن ما سماه « المعرض الحسن » من ناحية .
ونظم من ناحية أخرى .

وقد تولد عن التصور الأول تيار يعتبر البلاغة هي البنية والروح
سلاعي مفطوعين عن السياق الواردي فيه . وأنت لك التمييز بين تصنيف
هذه الوحرة وتبويبها إيماناً بأن لها قيمة في ذاتها .

وعن لتصور الثاني تولد تيار مقابل للتيار الأول يرى أن لقيمة السلاعية
رهبة : السياق وهي لا تبرز إلا في تماسك وحدات النص وتلاحمها واتساق
علمها .

ولعمرة من الطريف أن تشير إلى أن الموقف الأول تبلور في بداية
التأليف البلاغي والتصوير الثاني برز في نهاية الفترة التي نهضنا وهي توفق
بلوغ هذا التفكير قيمته . أما بين الطرفين فقد كانت المواقف متذبذبة بين
بلاغة العبارة وبلاغة التأليف . وبناء على ما تقدم يمكن اعتبار المذهب منهجي
من أبرز مظاهر التطور التي جددت في التفكير السلاعي في اتجاه وحدة التصور
القائمة على مفهوم « النظم » .

وختتما هذا القسم بباب تطبيقي حاولنا من خلاله رصد التطورات
الخاصة في المواقف المدنية والاعتبارات النظرية عند مواجهة الكلام الأدبي
بالشرح والتعليق .

واقصرنا على أسلوبين التشبيه والاستعارة . لأنهما أفضل أنواع المجاز
وأحقها بالشعر في نظر البلاغيين .

وقد كشفت لنا دراستهما عن أمر هام . هو سيطرة فكره إلى درجة
والتوصيح عن النظرية الأدبية وبقاء التفكير البلاغي مشدوداً إلى الأسس التي
تبلورت في مراحل العلم الأولى كما حدثها الجاحظ في « البيان والتبيين »
خاصة .

الخاتمة العامة

مما كانت مؤلفات الجاحظ أقدم ما وصلنا من الوثائق التي تسودت ظهيرة الكلام من زوينة هنية رأينا أن تكون منطلق بحثنا عن أسس التفكير البلاغي وتطوره من النشأة إلى القرن السادس هجرياً .

وبممارسة هذه المؤلفات تبيّن أمرين هامّين ، أولهما غزيرة إمدادة البلاغية الواردة فيها وقيلوبور قسم كبير منها ، سواء على مستوى مبادئ وانقضايب العامة أو على مستوى المصطلح والحدّ ، مما دفعنا إلى التوسع في دراستها محاولين رصد ما يقوم بينها من روابط رغم الفوضى التي نكتشفها . ولذلك خصصنا قسماً كاملاً من عملنا لما سميّاه « بالحدث الجاحظي » .

وثانيهما اقتناعاً ، بناء على أهمية هذه المادة وتطورها وبناء على صديق بروية لعالم على هذه المؤلفات ، بأنّ التفكير في جمالية اللغة لم يبدأ مع الجاحظ ، لذلك خصصنا القسم الأول لتحسّس بواكر هذا التفكير ورصده مصهره اعتماداً على مؤلفات الجاحظ نفسها وعلى بعض المصادر المتأخرة لأخرى ، وعتماًداً على ما وصلنا من مؤلفات القرن الثاني وبنية الثالث

على هذا الأساس احتوى عملنا ثلاثة أقسام يتوسطها الجاحظ . ما قبل الجاحظ ، الجاحظ ، ما بعد الجاحظ باعتبار أنه يمثل نهاية طور وسبق طور آخر .

وسمى واجهته التاريخ لطلائع هذا التفكير وجدنا أنفسنا أمام اختيارين
معيّنين . وهما أن نبتنى سنة البحث عن الأول ، ونحاول صوغ النشأة
بتأريخ محدد . ونسبها إلى شخص أو أشخاص معينين . وهما أن نسند ما
نشأه نعم . أي علم . عملية ثقافية وحضارية معقدة تتولد من مصادر عو من
متعددة ولا يحسن أن ترد إلى شخص . كما لا يمكن صوغ تأريخ
محدد

وقد بدا لنا الاختيار الثاني أسلم وأقرب إلى الروح العلمية في بحث
ومن ثمّ حسن الحديث عن عوامل النشأة حاسا مهماً من القسم الأول
الذي خصص لمُتَبَيّنِي منه للمادة البلاغية التي عثرنا عليها .

ولا بد أن نشير . قبل استحصار النتائج البارزة التي أفضى إليها البحث ،
إلى أمر قد يبدو خيلاً لبعض الإضراب على التقاريء العادي . ذلك أننا
تجاوزنا . في تحديد عوامل النشأة . الفترة التاريخية التي ينسرج في حيزها
القسم الأول . واستعنا بكثير من النصوص المستمدة من المؤلفات المتأخرة .
وقد سمحاً لأنفسنا بهذا التجاوز اقتناعاً بأن مساهمة تلك العوامل لم تقتصر
على نشأة . إذ ساعدت على تبلور البلاغة ونطورها وبلوغها مرحلة استضع
والاكتساب . وشيجة لذلك اكتسى هذا البحث صفة المدخل العام إلى تفكير
البلاغي عند العرب على اختلاف أطواره . وهو ما يفسر إدراجنا حديثاً عن
المؤثرات الأجنبية في هذا النطاق رغم صغر مفعولها في هذه الفترة إذ ليس
ما أثير حول صلة ابن المقفع بالتراث الأجنبي وحذق اعترلة لأصوب
لجود لبورني حجة كافية لإثبات التأثير .

* * *

إنّ عوامل التي ساهمت ، بصورة مباشرة . في بلورة الوعي بحضور
اللغة وبإمكانة تعريفها في أعراض فئة تتجاوز الإبداع العادي عوامل عديدة

سبة المصنوع العربي الإسلامي الثقافية والعقائدية والسياسية ، ومن أهمته
لعمل الأدبي والعامل القرآني ، وحركة جمع اللغة وتعبيدها

فانقد واكبت نشأة الشعر كحارمه في جملة من الإشارات والملاحظات
« النقدية » يحاول أصحابها تفهم أسباب تأثيره في النصوص ، وسرّ وقعها الخاص
على متلقيه ، وبدأت هذه الملاحظات بسيطة لا تعدو الانطباع والتعبير عن
« الشعور » الذي في عبارة مقتضية تنفي ، في الغالب ، على مقاييس من حارج
النص . ولما تطورت دراسة الشعر وطرحت مسألة الفاصلة بين الشعراء وبين
التحارب الشعرية القديمة والمحدثنة تطوّرت تلك الأحكام وأصبح
لمُعْتَصِدٍ في تقريرها خصائص العبارة في النص ذاته فتولّد الاهتمام
بالأساليب والصور وبكل ما له صلة بقول القول ومسالك التعبير .

كما كان الجدل الذي نشأ حول القرآن ولاسيما حول إعجازه رافد
من الروافد الكبرى التي أمدّت التفكير البلاغي بمادة ثرية ، وساهمت في عبور
منهجه . ففقد دعا الدفاع عن فكرة « التوحيد » و« تزيه » الذات العلية عن
التشبيه أعجب الفرق الإسلامية ، وعلى رأسها المعتزلة . إلى إثارة موضوع
« مجر » وقراره طريقاً من طرق الدلالة فتوجه حاجات لتبليغ ، فعلمت
البلاغة من هذا النقاش باباً من أهم أبوابها .

كما نطلب الثبات عن إعجاز القرآن البحث عما يميز أساليبه عن أساليب
لنصوص أدبية المعاصرة له بإحصاء تلك الأساليب . والنصوص على دقائقها
الاعتوية ، وتحديد الفرق بين فعاليتها في القرآن وفعاليتها في غيره . وفي أعطف
هذه المسحت برزت فكرة « النظم » التي تلخص أبرز الجهود السهبية التي
بدلها البلاغيون لتحديد القيمة الفنية .

ثم يتعقبون فقد برزت مساهمتهم في تحريك المشعل الفني بطريقتين .
فهم « أوز من اهتم بجمع الأشعار وتلويها تمهيداً لعملهم اسحوي ارمي
في تعبدها لغة ، وضبط نوااميس استعمالها . وقد أدّى بهم ذلك . نصيحة حول

بـثرة عدد من القضايا المتصلة بلغة تلك الأشعار وأساليبها ، كما تولدت
عن اهتمامهم بتعقب سقراط الشعراء وإحصاء محاسنهم نواة عمل
قدي نصنت إشارات بلاعية لا يستهان بها

ثم إن هؤلاء اللعوين اعتمدوا ، في تعيد اللغة ، على مدونة ثلث ،
في حسب الأسطى . من ربيع الموروث الأدبي كالشعر والسراب وكلام
لمصحاء من لأعراب . فسمح لهم ذلك باكتشاف طرق التصرف في لغة
والتوسع في إجرائها على غير الوجه ، فعرفوا الفرق بين القاعدة والاستثناء
وبين الاستثناءات فيما بينها ، فراحوا يصمونها ويحاولون ردّها إلى ما سموه
« وجه الكلام » ، كما حاولوا أن يفهموا الدواعي التي تحمل المتكلمين على
بحر ، لغة على غير الوجه . وقد جمعت عن ذلك مادة هامة تتعلق
بخصوصيات التركيب

ومن يصيحي أن تهتم المؤلفات اللغوية بمسألة التركيب ، ومن
الطبيعي ، أيضا ، أن يسبق نقبين اللغة . في النشأة ، الاهتمام بصفاتها لصفة
واجتماعية . فعمل النحاة يقوم على بلورة العلاقة بين المتبني والمعنى والتوسع
في بيانها ، يطرأ على تلك العلاقة من تعبيرات وتفاعلات : فالاهتمام بشركيب
جوهر العمل اللغوي

ولقنين لغة هو اللغة الأولى في البناء البلاغي إذ به تتحدد هندسة بنيان
وتتضح النوااميس الخفية المتحركة في الفعل اللغوي من جهة الحصيل ونصواب
فالنحو يمدنا بالمعيار الضابط للسلوك اللغوي الجماعي ، وعلى أساس ذلك
امبر تكشف مظهر الخروج ، عن السنن ، المترتبة عن السلوك الفردي
وبما كانت مدونة اللغوية التي تهتم بالبلاغي مادة عُدل بها عن الطريقة العادية
في الأداء والنسب تطلب درمها واستصفاء خصائصها معرفة النمط لأصبي
بقيس درجة العدول . فالنحو قوانين عامة والبلاغة ممارسة فردية تسي
في جوهرها على « اعتصاب » تلك القوانين . ولا يتسنى ضبط مواصفات
الاحص إلا من زاوية القانون العام .

عن تفاعل هذه العوامل ، في هذا التطور الأول ، تجمعت مادة بلاغية متدفقة الأهمية ، جاء بعضها في صورة مبادئ عامة تقرر إمكانية التصريف في اللغة ونوسع في استعمالها ما آمن المتكلم اللبس وقام في السبق ما يعرف ووجه الكلام وجاء بعضها متصلا بالتركيب وما يحدث فيها من خروج عن النمط النظري لبناء الجملة لأمر يقتضيه المعنى وملابسات التعبير . ولصلة هذا البحث بالعمل الحوي . كما أشرنا . تبلورت مسائله ، في هذا لصور : بصورة لافتة لل نظر ، ولا نبالغ إن قلنا إن الفترات الموالية لن تضيق من ما يسمى : بلاغة المعاني : أو نحو المعاني : إضافات أساسية . أما المادة المتعقبة بطرق أداء المعنى فقد كان حظها من الشرح والتوضيح "قن" من حفظ التركيب وبن وقعت الإشارة إلى مسائل تهم التوليد اللغوي كما وقعت الإشارة في باب التشبيه والاستعارة والكتابة إلى أمور سنستفيد منها في مراحل الموالية وتعمل على تطويرها .

إلا أن هذه المادة لم تجتمع في مؤلف صريح الانتساب إلى لمباحث لبلاغية وهي بالتالي شتات من الآراء لا ينضوي تحت تصور متكامل لصور نقول ومساكن التعبير ، وهو ما سيعمل الحاحظ على تلافيه في تطور الثاني من تاريخ البلاغة



مساهمة الحاحظ ، في تاريخ البلاغة ، مكانة خاصة ترند إلى جملة من الأسباب :

أولها عراة المادة البلاغية واللغوية التي تضمنتها مؤلفاته . وهي عراة تشير لإعجاب والاستغراب . لا فقط لأنها صحت له بتخصيص مؤلف مرتب السبب والتبيين وإنما لعمقها وبلوغها . أحيانا ، درجة من التحريد تعري القارئ بالقول إنها طفرة مفكر قد إد لا يجد في الأطوار السابقة

م. يفسر توثيقه الفكري . فليس في مؤلفات اللغويين الأوائل . مثلاً . ما يمكن اعتباره أصرياً للمعلومات اللغوية العامة الواردة في « الحيوان » بوجه خاص ، ولئي حاول ربطها بنظريته البلاغية .

وثانيها أنه استطاع أن يحصع الجاب الأعظم من تلك المادة لتصور متكامل ساهمت في نحت معالمه الظروف الحافة بمساهمته ، وفي طليعتها « نظرية العقائدي » . فمقد كذا المعتزلة . رفاقه في المذهب . أهم مصدر ستنقى منه مدونه البلاغية . وكان هؤلاء يظرون إلى اللغة من زاوية ساجعتها في المجادلة ، وقدرتها على التأثير في المتلقى . وإقناعه . لذلك سحروا أساليبها لخدمة معرض عقائدي واهتموا اهتماماً خاصاً بتحديد « تقنيات » الجنس الخطابى لأنه أكثر لأجناس الأدبية ملاءمة لأغراضهم . من هذا المنظور حدد الجاحظ مفهوم البلاغة ونسبط المقاييس الأسلوبية لمصاحبة النص وبلاغته ، وهو ما يفسر ندوله النفس في العبارة انطلاقاً من فكرة « التواصل » مما ولد في صلب نظريته العناية بالمتكلم والسامع والكلام بل حددت خصائص الخطاب بدءاً على قدرات السامع لأنه المقصود لتعمل اللغوي .

إلا أن التزعة الشمولية التي نسم تفكير الجاحظ وسعت من اهتماماته الفنية فشغل الحديث عن خصائص الشعر وأسلوب القرآن جزءاً هاماً من مؤلفاته فتره يتفرق إلى محارات القرآن ويصف منها موقفاً ينسجم مع أصول الاعتزالية . ولا سيما مقالاتهم في « التوحيد » . كما خصص مؤناً كاملاً ، مخصصاً ، لوصفه نظمه بعية الاحتجاج لإعجازه من وجهة نظر مبدئية بلاغية . كما برده ينصرف إلى كثير من الأحكام النقدية الخاصة بالشعر ويثير مسألة « التبديع » من وجهة نظر سيقضيها حلّ البلاغيين والنقاد .

وجمع الجاحظ بين هذه النماذج الأدبية المتنوعة ومحاولته ردّ خصائصها إلى مقياس موحد . أكسب مؤلفاته طرافة خاصة أهلكتها لأن تكون مصفاً لأهم تحدثت النقد والبلاغة بعده .

و شئ آخره طرح في مؤلفاته أهمّ الأسس التي سيقوم عسده تفحص
ملاعي في لغزات الألفحة سواء على مستوى المعايير التي تحددها حسب
قيمة الكلام الفنية أو على مستوى مسالك التأليف .

من أهمّ تلك الأسس دفاعه عن الإبانة واعتباره وظيفة : التمهيد والإفهام
و « البيان و تبين » العناية التي تحري إلى بحثها كل مسؤوليات لغة . حتى
أنه لا يتصور خصاها لغويا لا تكون تلك الوظيفة قاعدته . و شئ واحد في
موقفه إشارات إلى وظائف أخرى اصطلاحا على تسميتها بـ « الوضعية التعليمية »
و « الوظيفة الشعرية » . فهي لا تعدو ، في نظره . أن تكون وظائف مساعدة
لا تقوم بعبر الوظيفة « الأم » وهي الفهم والإفهام

وقد تأتت هذا الموقف عن تزييله الحديث عن مقاييس بحمداب في
نطاق ليد وهو ، عسده . مفهوم واسع يشتد على مختلف الشرق شي
يستهجها ، متكلم لأداء المعنى . كما تأتت عن فكرة الجدوى أو « مهنة التي
كانت شائعة في تقديرات المتكلمين . من المعتزلة ، لوظيفة اللغة .

وقد بقيت فكرة الإبانة واتروحيج مسيطرة على التفكير البلاغي صيدة
الفترة التي تهما لذلك حاد النقاد والناصريون قيمة الأسلوب بقدرته على دفع
المهم وعدم قدرته على ذلك ، ولا أدل على تغلغل هذا الأساس في صلب
النظرية البلاغية من ممارستهم دراسة الصورة الفنية من منطلق قدرتها على
التوضيح وحسوا فعالياتها انسية من جهة وصوح اتعلاقة بينها وبين معنى .
وبذلك كد مصطلحا « القرب » و « الإبعاد » من أكثر المصطلحات قواترا في
مؤلفات النقدية في باب الصورة .

وقد دوعتهم الحرص على وصوح المعنى وإيقاع المعاني إلى رص « نص »
موجوه بالإيقاع الخارجى ، كالسجع ، في الشعر . وانما هو . في شعر .
رطبها بالمعنى . فلا قيمة للسجع إلا إذا كان المعنى يستدعيه . وشرط حسن

تدعية . وهي نهاية كم صوتي ، أن يسم بها المعنى أي أن تُضَافَ إليه الكَم
صوتي تمام المعنى .

وبسب هذا الحرص ازنكوا في فهم بعض مظاهر بصرية رُسُوم
في الشعر كالمحاكاة والتخييل ، ففهموا المحاكاة فهما آليا حرومه مصدقة
وصف بموصوف مطابقة تأتي على كل هيا له ، ووقفوا أن يقوم شحج
بغير تعين ودليل عقلي يهدي إلى المعنى المحكي وراء الصفة .

وعن لاهتمام بالإبانة رشحت في النظرية الأدبية مقولة ما يُسمى يوم
في لأبحاث إشائية : شفافية الخطاب ، حتى لا تطمس فيه قسرة الرجوع
والإشارة وهو ما يصير حرص البلاغيين على عدم الإكثار من مجازات
خوف لإفلاق وحتى تبقى في النص . فتجوات تحقق . من خلالها .
بوضيفة لإمهدية ، وهذا منطوق انقياس المشهور الداعي إلى استعمال المجازات
لقدرة الذي يعين على انكشاف المعنى والفاصل أن أحسن السجور ، كن
كالحقيقة .

والنتيجة الختمية التي يعضي إليها هذا التصور هي انفص بين المعنى
ولمهي وإنز المياني مرث الوسائل الخدومة للمعاني والمساعدة على إجلالها
وتقديمها في أحسن صورة من اللفظ .

كما تولد عن الإبانة : الحرص على الاعتدال والتوسط في صياغة
المهر بحيث يكون مشروداً من مستوى لغوي بين المتفصّل والمعنى .
وقد عتمدت أعاب المؤلفات المتأخرة هذا المقياس الحافظي في تحريك مصاحبة
وقد تجاوزت به أحياناً المجال اللغوي الضيق لتجد منه مبدأ حمادياً مما حتى
رأياً من رشي القبر واني يصول ، حسماً للخلاف القائم في بناء الاستعارة .
: لا أنه لا يحب للشاعر أن يُبعد الاستعارة جداً حتى ينفرد ولا أن يقربها
كثيراً حتى يحق . ولكن خبر الأمور أوساطها .

وعلى من أثمر المقاييس البلاغية التي بتضح ، من خلالها ، مدى تأثير
 صاحب في تفكير البلاغي مقياس ، السياق ، فقد كان الغالب على معناه في
 مؤلفاته . فكره المنحل والموضع والمقام ، وهي جملة الظروف المادية
 ، اجتماعية ، التي يتناول ، في نصوصها ، إيجاز النص ، ورغم أنه أشار ، في
 بعض نسيجاته ، ضرورة الملاءمة بين الوحدات اللغوية في النص ، فقد
 أعبر ، عنه فهم السياق بمعنى يجاور محض الجوار اللغوي ، في ظروف
 معينة ، التي تقع فيها مراعاة نوع الكلام ونوع اللفظ ونوع الاستماع ، في غير
 ذلك من العناصر التي لها ، لا محالة ، قيمة كبرى في فهم النص وتفسير
 معنونه ، إلا أنها لا تهتم بالسياق المعنوي ذاته . وعلى هذا النمط فهم
 متأخرون ، سياق ، وربطوه بالعناصر الملائمة للفعل المعنوي لا بموصفات
 لغة دنه . رغم أنهم لم يتناولوا الظاهرة البلاغية من زاوية « شخصية »
 كالحفاظ .

أما على مستوى التأليف فيمكن القول بأن أغلب الآثار التي ساهمت
 بصورة مباشرة في تطوير المباحث البلاغية تركز أصولها إلى مؤلفات الجاحظ .

فقد مهدت ملاحظاته المتعمقة بالبديع في الشعر لبروز اتحاد في التأليف
 يرتكز على هذا الجانب وينسجه وجهة الإحصاء والتبويب لوجهه مع محاولة
 تحديد وتوضيحها بشواهد من الشعر والقرآن . وقد كان عبد الله بن
 المعتز فاتحة هذا الاتجاه بكتابه « البديع » . وهو انحاء بلغ ذروته في نهاية
 قرن السادس والـ نصف الأول من القرن السابع بظهور مؤلفي أسامة بن
 منقذ « البديع في نقد الشعر » وركي الدين بن أبي الأصم (ت. 654) المسمى
 « بديع القرآن » .

ولقد كان لهذا الضرب من المؤلفات ، في التفكير البلاغي ، تأثير إيجابي
 واضح سدي فهي ، من جهة ، ساهمت في بلورة المباحث البلاغية إذ تحدث
 منها موضوع تأليف مستقل . يركز فيه الحديث على المستوى الفني من

نوعه . دون سواه . ويقع فيه الإغساء بالوحوه والصور البلاغية . بوجه خاص .
، عتارها أبرز المظاهر الفنية . إلا أنها ستكون ، من جهة ثانية ، عاملا من
عوامل تحجر البلاغ ومقروطها . لأنها اقتصرت في فهم بلاغة النص على
أساليب عزلتها عن سياقها ، وظنت أن لها قمة في ذاتها فراح نصها
وتدريجها في قوائم لتحديد الكتاب والشعراء بالمادة الضرورية لعمومهم هي

كما كانت ملاحظاته الدائرة على النص القرآني وقد وحس بمقصد ولم
يصب بعضها الآخر مما قد يكون صممه كتابه الضائع « نظم القرآن » . وهو
كتاب يبدو . بناء على إشارة الباقلاني . أنه كان معروفا بعضه في نهاية القرن
رابع وسدس القرن الخامس كانت كل هذه الملاحظات « تحت نوع من
تأليف متدة » بحث النص القرآني وعنايته بيان إعجازه واعتبر أساليبه على
أساليب عرب الفصحاء الأسياء .

وسين أهم ما ساهمت به هذه المؤلفات تطوير مصطلح « النظم »
ورد عند الجاحظ . بالتعمق في درسه والتوسع في تحسين جوده حتى
ستفاد في القرن الخامس منها مشردا في الدراسة البلاغية ومظهر من
مظاهر الطرافة في التفكير العربي

أما مقاييسه في جودة الكلام جملة . وتعليقه على النماذج الأدبية
والشعرية التي حللها فتولد عنهما نوعان من التأليف .

نوع اتجه اتجاهه غايته البحث عن أسس لتحديد القيمة الأدبية من روية
توسع من مسألة النديع . وقد وجدت هذه المؤلفات . في أثر الجاحظ .
مادة نقدية ومفاهيم أدبية وجمالية أعانتها على تحقيق تلك العاية .

وبروح بلاغي يهتم بمقاييس العامة لجودة الكلام بصرف النظر عن
شكرك لأدبي الحامل له . وهذا التميل من المؤلفات هو أدبي حررت العدة
على تسميته بالمؤلفات البلاغية لأنه أوسع من الأنواع السابقة إذ يجمع مدح
وانتقاد ويعجار القرآن .

في أن تتساءل ، في نهاية هذه الحاتمة . عن أوجه المعاصرة في
بلاغة العربية وعن المفاهيم التي ، نعتمد ، أنها بقيت صالحة لتدور صدها
لأدب .

لا شك أن البلاغة بحكم ارتباطها بعنلي القرآن والشعر وبسطر
حص تصورهما كانت تتحرك في إطار مليء بالتناقضات .

ولعل أبرز تلك التناقضات نزعتها المعيارية ، المتجسمة في محدودية
تقنين البعد الفني وتقييد الجمالية الأدبية انطلاقاً من نماذج محدودة . وقد
بوشرت عملية التقنين من زاوية صيقة أهملت عناصر ذات بال في تحديد
صياغة الأدب نذكر منها الكاتب ، والجنس الأدبي . لذلك رأينا البلاغيين
يرومون ضبط القوانيين العامة في نصريف اللغة على جهة الإنشاء بالإعراض عن
مقولة الجنس . والخصوصيات السبوية التي علقوا بعضها بالشعر . وبعضها
الآخر بدشر خطباً ورسائل ، لا تدل على أن مقولة الجنس لأدبي كانت
مثلة أمامهم في كل أبعادها .

ونشاطر في التراث الملافى يلاحظ أن أصحابه كانوا مشغولين بصبر
بلاغة اللغة العربية ووجوه بياها لا يوصف انتجارب الأدبية الشخصية والأساليب
الملائمة لها . وبذلك توهّموا إمكانية تجريد تلك القواعد وصياغتها في بنية
مستعالية عن النموذج بحيث تصبح مثكاً مشاعاً لكل مستعيلي للغة
فكما نسي بحاجة تقييد اللغة العربية من زاوية الخطر والصواب نسي البلاغيين
تقييدها من روية التمع والوجود بتحديد الضوابط العامة المنحكمة في أعراسها
إجراً فب فقد كانت البلاغة بلاغة اللغة العربية لا بلاغة الكتب . وهي
بصورة أدق ، بلاغة القرآن والشعر . ومن ثم وقع لها ما وقع لنحو
وقد صبحت قوايينها في خدمة هدي النصيب . وأصبحت رؤيتها لحياتها
محصورة في نطاقهما . وقد قام هذان العصران . في تاريخ البلاغة ، بدور
مردوح ، دور الدافع ودور الكابح في نفس الوقت .

فقد دعا البلاغيين إلى استحصاء أساليبهما وضبطها ومحاولة تفسير أوجه
 الحسن فيها مما ساعد على توسيع حجم المادة وآفاق التحليل والتعيين . ولا
 أنهم لم يحرروا على بناء تصورات لا تلائم الإيديولوجية السائدة التي ينصتونها
 ولقرآن في نهاية انجوده والحسن والبيان ولذلك فإن أقصى ما تصيح به
 سلاعه هو أن تظان تصوراتها تصوراتيه وأن تكون مقاييسه مسجلة مع
 طريقته في التعبير .

وهذا يؤدي بطبيعة الحال إلى رفض كل المقاييس التي تتعارض معه .
 وسنا في التراث البلاغي شواهد صريحة تدل على أن الرؤية النفسية لدى بلاغيين
 والنقد بقيت في نطاق هذا المثل الأعلى ، حاضرة له . ونكتفي بسوق مثالين ،
 أشرت إلى أولهما بعض مراجع بحثنا واستخلصنا الثاني من مؤلفات الجرحاني .
 فقد قرّر ابن الأثير في مسند العام والخاص أنه « إذا جاءت
 صفتان يزم من وجود إحداهما وجود الأخرى أن يكتفي بذكرها دون
 لأخرى لأن الأخرى تجيء ضمنا ونعا . وأن يبدأ بها في الذكر ، ثم
 تجيء الأخرى بعدها » (1) .

وقد استطاع أن يطق هذا المبدأ على الشعر العربي بدون أدنى صعوبة
 ، لا أنه اضطرب وتراجع في أصل المبدأ لما واجه بعض الآيات القرآنية
 التي يخرج نعطها في النساء عما أقر . مثال ذلك الآية : « ما ليهذا الكتاب
 لا يُعَدُّرُ صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » (2) فإن وجود المؤاخضة على
 الصغيرة يلزم منه وجود المؤاخضة على الكبيرة . وحتى تستجيب الآية للمبدأ
 كان يجب أن تكون « لا يعادِرُ كبيرة ولا صغيرة » لأنه إن لم يعادِرُ كبيرة
 فيه يحوز أن يعادِرُ صغيرة وكذلك في قوله تعالى « فلا تقل لهم قبيح ولا

(1) من السائر ، 214/2 ، وانظر تفاصيل هذا الموضوع في كتاب رجاء عبد الله لاداعة
 بين النفسية والتطور ، ص 65 وما بعدها .

(2) الكهف/ 39 .

تُسهرهما» (1) فكان يجب أن يقال : فلا تنهرهما ولا تغلّ لهما أف لأنّ
لتأنيب أدنى درجة .

وتدليلاً لهذه المعارف القائمة بين مبدئه الجمالي ونهج القرآن الحاصل
في حرّاء الصّغات في هذه الآيات ، اختار ابن الأثير معجب ملاحظته سلاعه
لأنّ « القرآن الكريم أحقّ أن يُتّبع ، وأجلو بأن يُعاس عليه لا على غيره
والذي ورد فيه ناقص لما تقدم ذكره » (2) ويضيف كالمعتذر : « وكب
هذا هو نذهب عندي ، حتى وجدت كتاب الله تعالى قد ورد بحالاه ،
وحيث عدت عما كنت أراه وأقول به » .

ثمّ مثال الثاني فيكشف عن دور النعد العقائدي في القعود بالبلأغيس
عن تفهّم بعض خصائص العمل الفني وهضم المفاهيم الدّحية عندهم من
ثقافات أجنبية . كمسألة « التخييل » مثلاً التي روجها في الأوساط لعربية شراح
أرسطو من الفلاسفة المسلمين .

فمجرد جاني ، حاول في المظنّ فهمها على وجهها فقرنها بالإغراق
والمبالغة ولتجاوز ، وقابل بينها وبين المنطق وجنس الكلام الذي يقوم عليه
من العقل برهان يقطع به ، واعتراها عمدة العمل الشعري لأنّ الشاعر يجد
في التخييل « سبيلاً إلى أنْ يُبدع ويّزيد . ويبدىء في اختراع الصّور
ويصيّد » (3) . كما فهم وظيفتها المعنوية ، وهي ، عنده ، « المذهب بالفلس
إلى ما ترقّح إليه من التحليل » (4) .

يلا أنه سرعان ما يفضّح هذا التحليل والاستكشاف لأبعد مصطلح ،
ويرفض ، بطريقة تثير الاستغراب ، أن تغفل الاستعارّة في حيل التخييل .

(1) الإسرء/ 23

(2) ابن الأثير ، المصدر السابق : ص 134/2 .

(3) أسرار البلاغة ، طرء خفاجي ، 134/2 .

(4) المصدر السابق ، 132/2 .

« كيف يعرض نفسك في أن لا ملحق للاستعارة في هذا الصنف وهي كثرة في
تنزيل على ما لا يحق » (١) .

فهذا الموقف المبني على نثره الكتاب عن الإغراق والتحوّل يدلّ على
أنّ فهمه للتخييل والكذب بقي مثبّتا بالعصر الأخلاقي . ثمّعه من يدرك
حقيقة التخييل كمقولة فنية نصيفة بالعمل الشعري ودفعه إلى قطع صلة
لاستعارة به لمجرد أن القرآن يتوصل في التعبير بها

وكذلك كان الشأن مع الشعر ، فقد ربطوا منذ بداية التأليف البلاغي ،
مسألة البديع بالصراخ بين القديم والحديث ، ورغم الاستعداد الطيب الذي
عبر عنه بعض النقاد من أمثال ابن قتيبة والفاصي الجرجاني لإعصاف المحسنين
وتخليص حكم النقاد من ملاسبات الانتماء ، رغم كل ذلك عبت على
أصول النظرية الأدبية وروية القدماء المية . وراح النقاد والبلاغيون يتناولون
وجوه البديع من زاوية النموذج الشعري الذي أصلوه .

وقد ثرّبت عن هذا اتوجه عدة نتائج في مقدمتها الاعتقاد بأن توجه
للبلاغي مستقر عن السياق الذي يرد فيه وهو فهم قسّد معه آفاق تصور
«صورة» وكتسابها خصوصيات تركيبية ومعنوية تتغير المحالّ التي تنزل فيها ،
ومن ثم كانوا يعاملون الأساليب بمعنى المنطق رغم اختلاف التجارب ، ولم
يدركوا أنّ «لصن» هو نظرية وإنجاز في نفس الوقت وأنه بالتالي قادر على توليد
نمط من صور لا يشبه ، بالضرورة ، الأنماط الموحدة في غيره من الصنوع ،
من هذا المنظور تبدو حركة البلاغة حركة «تواجعية» بمعنى أنّها تردّ
مختلف تجارب إلى نمط ثالث . معرصة عن تبدل الظروف ولأحوال
وتبديل الصنوع وهو ما يخسر تواتر نفس المقاييس . نصيبها ومعدّ . في
مؤلفات تفصل بينها قرون .

(١) أسرار البلاغة . ١٣٥/٢ .

ورغم هذه المظاهر السلبية التي يرد بعضها إلى فوعة المحيط الثقافي
وعدمه في مدى ثبت فيه اللباسات البلاغية ، ويرقد بعضها الآخر في صفة
للماعة ذاتها إذ الكثير من هذه المظاهر مشترك بين المحاولات « الكلاسيكية »
وأي لغة كنت ، بالرغم من ذلك تناول البلاغيون والنقاد العرب مسائل لا
تزال مرسات الأدبية تطرحها ، اليوم ، في نطاق ما يسمى بالأسلوبية ، ولم
تتجاوز تحييلات علماء الأسلوب لها ما وقعنا عليه عند التمام

ومن من أورد هذه المسائل اتباهم إلى أن « الإنشائية » أو « الأدبية »
وثيقة الارتباط بالبنية اللغوية والطريقة المتبعة في أداء المعنى ، وهذا يعني أن
لأدب يستمد خصائصه المميزة من صورة اللغة فيه ورسمه في هندسة عبارة .
وقد دفعهم هذا الاقتناع إلى التعمق في دراسة مستويات اللغة بشكل لافت
بنظر ، وانتهى بهم البحث إلى الإقرار بوجود مستويين كبيرين ، مستوى
يجري فيه استعمال على العادة والعرف ويحترم فيه أصول المواضعة
والاصطلاح . وقد نحتوا له مصطلحا على غاية من الدقة هو مصطلح
« الاحتذاء » ، ومستوى يتصرف فيه المستعمل في المواضعات ويجري اللغة
على ما يستجيب لمقصده في العبارة ، وجمعوا كل ذلك تحت مصطلح « الإنشاء »
بمعنى الوسع الذي يدل عليه الأصل اليوناني لكلمة « Poétique » الفرنسية .

وبمقدرة بين هذين المستويين اكتشفوا ، ذلك الوقت ، مفهوم يعتبر
من دعائم الأسلوبية ، اليوم ، هو مفهوم « l'Ecart » وقد أشاروا إليه بوصف
في مصطلحات من قبيل « الخروج » أو « العنول » أو « التعبير » ، ومن ثم
همسوا من معيشتات اللغة ، في الأدب ، خروجها عن مألوف عبارة
والاحتذاء ، الأدباء في سائها طبق أنماط علاقبة مبتدعة ، بحيث لا يصل إلى
معنى لا بواسطة وقد بلغ هذا الاعتبار ذروته عندما ربطوا نشوء « الشعرية »
بالتصرف في اللغة على غير الأصل وبخلق سمة جديدة تنضاف إلى سمة لأولى
في البلاغة لا تكون إلا يتفراكب السن .

وفد أحاطوا بمفهوم « الخروج » بكثير من الاحترازا ت حتى لا يضل
القيمة الفنية رهينة مخالفة قواعد اللغة والتصرف في شأنه كلفاء
وتفق . لذلك رأياهم حريصين على أن تتولد عنه وظيفة تنبئ من خلالها ،
فصل الأديب على غيره من مستعملي اللغة .

وفي هذا الاتجاه أثاروا مسألة من أعوص المسائل التي نواحيها لأسوية
لتطبيقية اليوم ، وتمثل في معرفة نصيب « الموروث » ونصيب « المبتدع » في
العمل الفني . والأساليب والمجازا ت أصناف . منها « المبتدع » ومنها
« المبتدع » . والأثر الفني لا يتأتى إلا من المبتدع . لأن مبتدع كانه ،
لظهوره ، من مواضع اللغة إذ يهتدي إليه المتكلم من جهة كونه عقلا لا
من جهة كونه يشعر بما لا يشعر به غيره . وبفطن إلى ما لا يفطن إليه .

ومن المبتدع ما يصبح ، لتواتره . شائعا بين أهل الأدب يعرفونه باسم
والثقافة ومنه ما يقع لبعضهم دون البعض الآخر .

ثم إن بعض ما يشيع تصعب فعالية الفنية بكثرة الاستعمال وبعضه الآخر
يبقى محفوظا بتلك الفعالية .

هذه بعض الصوا ط التي تتحدّد بها قيمة « الخروج » ، وهي ضوابط
تجعل عملية الوصف البلاغي عملية معقدة لأن النص يقع في نقطة تقاطع كل
هذه الاعتبارات .

ولئن لم ينمّض أغلب البلاغيين والنقاد إلى الصعوبات المبهجة التي قد
نشرت عن تقسيم اللغة هذه القسمة الثنائية والقول بأن هناك مستوى من الكلام
مجرد من كل مقصد فني ، ومستوى فيه مقاصد فنية ، فإن بعضهم يخطئ
في أن ما يُسمّى « متعارف الأوساط » . وهو في مصطلحهم يقابل ما يسمّى ،
ليوم « بدرجة الصغر » هو محض اصطلاح منهجي يعتمد لمحاورة خصائص
لغة الإنسان في اللغة . وهو التأويل الذي يتبنّاه الأسلوبيون لعلّهم
لأسلوب هو ، خروج ، عن أصل الاستعمال .

ولبت فكرة الخروج ، الرابط التوحيد بين التفكير البلاغي عند العرب
وبين الاهتمام الأسلوبية ، المعاصرة . فقد أشار البلاغيون وفتاد ، وهم
محدودون تفهيم مرت الفعل الشعري ، إلى طرق في التصير شبيهة ، بطرق التي
نُستَهِج اليوم لتحديد ظاهرة الأسلوب .

ومن ذلك ، بطيهم الأثر النفسي ووالحالة الغريبة ، التي نعترى متلقي
بمعنصر « المفاجأة » ، وهي أن يترد في الكلام ما لم يكن المتلقي يتوقع وروده
لعدم تضمن السياق ما يهيء له . فتحدث المفاجأة بسبب الخروج عن منطق
الاحتمالات ، وعن المفاجأة تحدث اللذة .

وقد توسع العلماء في تحليل العلاقة بينهما ، ورأوا أن برور الشيء من
غير معدنه ومن الجهة التي لا يتوقع بروره منها ، إذ ينقل النفس ممّا ألفت
من ما لم تألف ، يُحرك في السامع قواه المُدركة والمتخيلة ، ويدفعه إلى
انفهم ولاستكشاف . وعلى قدر الجهد الذي يبذله لإدراك ما لم يكن ، في
البداء ، مُدركا تكون اللذة ، لأنها إحساس شديد الارتباط بالمُستَارة
والمجاهدة والتحصيل . ولهذا السبب اشترط كثير من البلاغيين والنقاد ، في
حسن التشبيه أن يكون الوجه نادرا لطيفا ينقل النفس من شيء تعسه بلبيبة
وفرط لتعود إلى شيء لا نعلمه إلا بالمُفكر اللطيفة والتأمل . وبدء على هذا ،
أيضا ، حددوا قيمة بعض الأساليب كالمجناس ، مثلا ، فإنك ترى المتكلم ،
على ما يقرب عند القاهر ، وقد أعاد عليك اللفظة كأنه يحدثك عن القادة
وقد أعضاها ، وبوهيك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ورواه (1) .

ولا تختلف هذه التوجيه في التصير ، في خطوطها الكبرى على الأقل .
عن استراتيجية القائل بأن الأسلوب هو المفاجأة أو الانتظار الحائب (2) .

(1) أسرار البلاغة ، ط حديثي : 100.1 من نسخة

Attente de l'écrit (2)

ومن ذلك . أيضا - نصيرهم تأثير الأدب بقدرته على تحريك صدقات
 نعمة الكرامة ، واعتماده في أداء المعنى على الإيحاء والإشارة وترك التصريح ،
 وفي كتب البلاغة والنقد سياقات كثيرة تؤكد على بلاغة الإيحاء والحدف .
 وقد تضمنت بعض هذه السياقات آراء لا تخلو من الطرافة ، كقولهم بأن
 الإيحاء يوسع مجال التأويل أمام الملقّي ويجعل الوهم يذهب في فهم النص
 كل مذهب حتى لكان عملية القراءة تنقلب إلى صرب من الاستنباط
 لداتي . ويدّ ذلك تصبح لغة النص مجرد قاذح تنداعي له المعاني في أسس
 ونصبح دلالتها ، عائية ، لا تقل شأنًا عن دلالتها حاصرة .



إنّ في التفكير البلاغي كثيرا من الجوانب الطريفة التي ، نعتقد أنها م
 تفقد نجاعتها في مواجهة التحليل الأدبي . كما أن فيه من مظاهر المعاصرة
 الشيء الكثير ، لكن علينا أن نكشف السبيل إلى تلك المظاهر وأن نعرف كيف
 نقرأ التراث البلاغي قراءة لا تقتصر على استخراج وجوه البديع وأنواع
 المجازات واجتثاثها عن إطارها الفكري اجتثاثا يجمّلها وسائل عقيمة لا
 تولّد في أذهان التلاميذ والطلبة إلا الملل والكلال .

المصادر والمراجع التي وقعت الاحالة عليها في البحث

١ - المصادر

— الأمامي

— الموازنة :

تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد . ط ١ . القاهرة ، ١٩٤٤ ١٣٦٣ .

— ابن الأثير

— الملل السائر :

تحقيق : أحمد الخوي ونسوي طانة . مطبعة النهضة مصر . القاهرة .
(د . ت .) ٤ أجزاء .

— علي بن ظافر الأزدي

— بدائع البدائ : —

تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . مكتبة الأنجلو . القاهرة . ١٩٧٠ .

— لأشعري

معارف الإسلاميين :

مطبعة السعادة . مصر : ١٣٢٣ .

• من أسي الإصبع

— تحرير التحرير :

تحقيق حمدي محمد شرف ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ،
1963

• أبو مروح الإصهاني

— الأغاسي :

در مكتبة الحياة ، بيروت ، (د . ت .) .

— ابن الأنباري

— نزهة الألباء في طبقات الأدباء :

ط . مصر ، 1294 هـ .

— لبقلاني

— التمهيد :

تحقيق : مكرتي ، بيروت ، 1957 .

— فكت الانتصار لنقل القرآن :

تحقيق : محمد رطلول سلام ، الاسكندرية ، 1971 .

— إعجاز القرآن :

تحقيق أحمد صقر ، ط . 3 ، مصر ، 1792 .

— لعب ادي

— الفرق بين الفرق :

تحقيق محمد راشد الكوثري ، نشر عزت العطار ، القاهرة ، 1948 .

• التلويحي

— الأوصى القريب :

مطبعة لسعادة ، القاهرة ، 1327 هـ .

أبو حمّال التّوحّيدي

— المقابسات :

شر . حسّ السنوسي . القاهرة ، 1929 .

— الإمتاع والمؤانسة .

تحقيق أحمد الزّيس وأحمد أمين . دار مكتبة الحياة . بيروت ،
(د . ت .)

— بن تيمية

— تفسير سورة الإخلاص :

لمطبعة الحسينية ، 1323 هـ .

— الإيمان :

ط . الخانجي ، القاهرة ، 1325 .

— لعب

— مجالس :

تحقيق : عبد السلام محمد هارون . دار المعارف ، القاهرة ، (د . ت .) .

— قواعد الشعر :

تحقيق : رمضان عبد التّواب ، دار المعرفة ، القاهرة ، 1966

— لجاحظ

— البيان والتبيين :

تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، ط 3 . نشر مؤسسات الحديثي .

لقاهرة ، (د . ت .) 4 أجزاء .

— الحيوان :

تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، ط 3 ، 1969 .

رسالة التبريع والتدوير :

تحقيق : شارل بلا . دمشق ، 1955 .

البخلاء :

تحقيق : طه الحناجري ، القاهرة ، 1971 .

— الرسائل :

1) مجموعة محمد سامي ، القاهرة ، 1933

2) مجموعة حسن السنديسي ، مصر ، 1933

3) مجموعة الحاجري وكراوس ، القاهرة ، 1943

4) مجموعة عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ، 1964/ 1965

— عبد القاهر النجرجاني

— دلائل الإصجاز :

1) دار المنار ، ط. 5 ، القاهرة ، 1372هـ

2) تحقيق : عبد المنعم حجاجي ، مكتبة القاهرة ، ط. 1 ، 1969 .

— أسرار البلاغة :

1) تحقيق : ه. ريتز ، أمستربول ، 1954

2) تحقيق : عبد المنعم حجاجي ، ط. 1 ، القاهرة ، 1972 .

— الرسالة الشافية :

ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن . طبعة دار المعارف ، القاهرة ،

1968/1327 .

— قدمه بن جعفر

نقد الشعر

تحقيق . م. أ. بونياكر ، ليدن — بريل ، 1956

— جواهر الألفاظ

مكتبة الحناجري ، القاهرة ، 1932/1350

ابن سلام الجمحي

— طققات فحول اشعراء

تحقيق : محمود محمد شاكر ، القاهرة ، 1952 .

ياقوت الحموي

معجم الأدباء :

ط. القاهرة ، 1936 — 1939 .

— الخطابي

— بيان إعجاز القرآن :

ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن .

— ابن سنان الخفاجي

— سر الفصاحة :

تحقيق : علي فوده ، ط. 1 ، مصر ، 1932 .

— ابن جني

— الحصائص :

دار الهدى ، بيروت ، (د . ت) ، 3 أجزاء .

— الحشيارى

— الوزراء والكتاب :

مطبعة الحلبي ، ط. القاهرة ، 1938 .

— الختومي

— الرسالة الموضحة :

تحقيق : محمد يوسف نجم ، بيروت ، 1965 .

عبد الرحمن بن خلدون

المقدمة :

ط. در. الكتاب اللبني .

- ابن حنك

... وفات الأعيان :

القاهرة ، 1948 .

- الدأودي

... طبقات المفسرين :

تحقيق : إبراهيم محمد عمر ، القاهرة ، 1972 .

- الخافض الذهبي

- ميزان الاعتدال :

ط. القاهرة ، (د . ت) .

- ابن رشيقي :

... العمدة

تحقيق : محمد يحيى الدين عبد الحميد ، ط. 4 ، 1972 .

- لرماني

- السكت في إعجاز القرآن :

ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن .

- نرمحشري

الكشاف :

مطبعة الحسيني - القاهرة ، 1948 .

ابن الرّمكافى

— البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن :

تحقيق : حديجة الحديثي وأحمد مطلوب . ط. 1 . بغداد . 1974

نوح الدين السبكي

عروس الأفراح :

مطبعة الحلبي ، القاهرة ، 1937 .

— لسكّكي

— مفتاح العلوم :

مطبعة الحلبي ، ط. 1 ، مصر ، 1355/1937 .

— سيوريه

— الكتاب :

تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار القلم ، القاهرة ، 1966 .

— أسير في

— أخبار الحويين البصريين :

القاهرة ، 1955 .

— ابن سينا

— الشفاء / المنطق (الخطابة) / :

تحقيق : محمد سليم سالم ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، 1954 .

— فن الشعر :

وهو النسخ التاسع من الجملة الأولى من كتاب الشفاء . صمّم كتب

عبد الرحمن بدوي فن الشعر لأرمسطو طاليس .

السِّيوطي

— الإيقان في علوم القرآن :

ط. مصر ، 1370 .

— الاقتراح :

حيدر آباد ، 1310 .

— حسن المحاضرة :

القاهرة ، 1929 .

— ابن طباطبا

— صيار الشعر :

تحقيق : طه الحاجري ومحمد رغول ملام ، مصر ، 1955 .

— الطبري

— جامع البيان من تأويل آي القرآن :

مطبعة الحلبي ، ط. 2 ، القاهرة ، 1373/1954 .

— أبو عبيدة

— مجاز القرآن :

تحقيق . محمد فؤاد سركين ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1954 — 1962 .

— التفاضل بين حرير والفرزدق :

ط. بريل ، لندن ، 1905 ، 3 أجزاء .

— المسكري

— الصناعتين :

تحقيق علي محمد البجاوي وأبو الفضل إبراهيم ، ط. 2 ، القاهرة .

1971 .

— لهرابي

— كتاب الخطابة :

تحقيق ج. لانغباد (Langhade) وم. فريباشي (Grignaschi) در
الشرق : بيروت ، 1971 .

— كتاب الحروف :

تحقيق : محسن مهدي ، دارالشرق ، بيروت ، 1970

— ابن فارس

— الصّاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها :

تحقيق : مصطفى الشويبي ، مؤسسة بدران للطباعة والشر ، بيروت ،
1964 .

— الفسراء

— معاني القرآن :

نشر ، دار الكتب ، القاهرة ، 1955 - 1973 ، 3 أجزاء .

— القاضي الجرجاني

— الوساطة بين المشبي وخصومه :

تحقيق . محمد أبو الفصيل إبراهيم وعلي محمد البحاوي ، ط. 2 ، مصر ،
1370/1951 .

— القاضي عبد الجبار

— إعجاز القرآن :

نشر دار الكتب ، ط. 1 ، القاهرة ، 1960 .

بن قتيبة

— تأويل مشكل القرآن :

تحقيق : أحمد حفر ، دار التراث ، ط. 2 ، القاهرة ، 1973 .

— تأويل مختلف الحديث .

مطبعة كردستان ، القاهرة ، 1326 .

— أدب الكتاب :

تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . المكتبة التجارية ط . 3 . القاهرة .
1948

— الشعر والشعراء :

ط . لندن : 1902 .

— حازم القرطاجني

— مهاج البلاء ومراج الأدباء :

تحقيق : محمد الحبيب بلخوجة ، تونس ، 1966 .

— ابن قيم الجوزية

— لصواعق المرسلات في الرد على الجهمية والمعتزة :

مطبعة الإمام ، ط . 2 ، القاهرة ، 1380 .

— كشاجم

— أدب القديم :

المطبعة الأميرية ، بولاق ، 1298 هـ .

— امبرد

— تكامل :

(1) تحقيق : رايت : لايزج 1864

(2) در مكتبة المعارف : بيروت ، (د . ت) .

— مـ مـ مـ

— الرسالة العذراء

تحقيق : زكي مبارك ، ط . 2 ، القاهرة ، 1391 .

— شريف المرتضى

— أمالي المرتضى :

تحقيق محمد أبو الفصل إبراهيم ، مطبعة ، القاهرة ، 1954 .

مرتضى

— الموضح :

تحقيق علي محمد البجاوي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، 1965 .

— ابن المعتز

— البديع :

تحقيق : كراتشكوفسكي ، لندن ، 1935

— طبقات الشعراء :

تحقيق : عبد الستار أحمد فراج ، القاهرة ، 1956 .

— الرسائل :

جمع عبد المنعم خماصي ، ط. 1 ، مصر ، 1946 .

— ابن المقفع

— الأدب الصغير :

تحقيق : أحمد زكي ، مصر ، 1911 .

— ابن اسديم

— الفهرست :

هـ ثروب ، مكتبة خياط ، بيروت ، (د . ت) .

— ابن وهب الكاتب

— البرهان في وجوه البيان :

تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحليبي ، ط. 1 ، بعد د . 1967 .

2 - المراجع

أ - المراجع العربية والمترجمة :

- محمد خلف الله أحمد
- من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده :
ط 2 . القاهرة ، 1970 .
- أحمد الإسكندري
- تاريخ أدب اللغة العربية في العصر العباسي .
ط 1 ، مصر ، 1912 .
- أحمد ركيّ الانصاري
- أبو زكريا القزويني ومذهبه في النحو واللغة .
ط . المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، القاهرة ، (د ت)
- أحمد أحمد بدوي
- عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية
سلسلة أعلام العرب ، القاهرة ، 1962 .
- عبد الرحمان بدوي
- أرسطو طاليس ، فن الشعر .
در ثقافة ، ط 2 . بيروت ، 1973 .

نماء حسن

... اللغة العربية ميناها ومعناها :

هيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1973 .

— صه حسين

— ذكرى أبي العلاء :

ط . 1 ، القاهرة ، 1915 .

البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر :

مقدمة نقد النشر ، مطبوعات الجامعة المصرية ، 1933

— صبحي ناصر حسين

— أبو بكر الصولي ناقلا :

دار الجاحظ للطباعة والنشر ، ط . 1 ، بغداد ، 1973 .

... عبد القادر حسين

... أثر النحاة في البحث البلاغي :

مطبعة النهضة مصر ، القاهرة ، 1973 .

... محمد رشاد الحمزاوي

— الفصاحة فصاحات أو الدعوة إلى ضرورة مراعاة أصول

الفصاحة .

حوليات الجامعة التونسية ، 1978/16 ، ص ص . 45 - 63 .

— نعيم الحمصي

اللاغة بين اللفظ والمعنى من عصر الجاحظ إلى عصر

أبن خلدون :

مجلة المجمع العربي بدمشق ، 1950/25-24 .

- السيد أحمد خليل

- المدخل إلى دراسة البلاغة العربية :

دار النهضة للطباعة والنشر ، بيروت ، 1968 .

أمين الحولي

- مناهج تجديد في النحو والبلاغة والأدب :

دار المعرفة ، ط . 1 ، القاهرة ، 1961 .

- الترافعي

- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية :

القاهرة . 1925 .

- أحمد كمال زكي

- الحياة الأدبية في الصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري :

دار المعارف ، القاهرة ، 1971 .

- إبراهيم سلامة

- بلاغة أرسطو بين العرب واليونان :

مصبغة الأنجلو ، ط . 2 ، القاهرة ، 1952 .

- محمد رغبول سلام

- أثر القرآن في تطور النثر العربي إلى أواخر القرن الرابع

الهجري :

ط . دار المعارف ، القاهرة ، (د . ت .)

- دود سلوم

- النقد المنهجي عند الجاحظ :

بغداد ، 1950 .

نصوص النظرية النقدية في القرنين الثالث والرابع للهجرة

بغداد ، 1971 .

— حمّادي صمّود

تقديم كتاب «عبد القاهر الجرجاني : بلاغته ونفقه»

حوليات الجامعة التونسية ، 13/1976 .

— ملاحظات حول مفهوم الشّعر عند العرب :

صن «قصايا» لأدب العربي» ، نشر مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية

والاجتماعية ، تونس ، 1978 .

— حاتم صّامن

— نظرية النّظم :

منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ، 1979 .

— شوقي ضيف

— البلاغة : تطوّر وتاريخ :

شر : دار المعارف بمصر ، ط . 2 . القاهرة ، (د . ت .)

— بدوي طيّانة

— البيان العربي :

ط . 3 ، القاهرة ، 1962 .

— دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن

الثالث :

ط . 5 ، القاهرة ، 1969 .

— النقد الأدبي عند اليونان :

المطبعة الميمنية ، القاهرة ، 1969 .

— ميشال عاصي

— مفاهيم الجدالية والنقد في أدب الجاحظ

دار العلم للملايين ، ط . 1 بيروت ، 1974 .

.. إحصان عتاس

— تاريخ النقد الأدبي عند العرب .

دار الأمانة ، ط 1 ، بيروت ، 1971 .

أعني عبد البديع

فلسفة المجاز بين البلاغة العربية والفكر الحديث :

نشر مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1976 .

— عبد العزيز عتيق

.. في تاريخ البلاغة العربية .

بيروت ، 1970

— جابر أحمد عصفور

— الصورة القوية في التراث البلاغي والنقدي .

نشر ، دار الثقافة ، القاهرة ، 1974 .

... مفهوم الشعر : دراسة في التراث النقدي :

دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1978 .

— علي العماري

— الصراع الأدبي بين القديم والجديد :

قاهرة ، 1965 .

.. شكري محمد عباد

— كتاب أرسطو طاليس في الشعر

دار الكتاب العربي ، القاهرة ، 1967 .

رجاء عبد

— فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور :

نشر مشاة المعارف ، الاسكندرية ، (د . ت .)

ح ف غريبانوم

— دراسات في نقد الأدب العربي :

الترجمة العربية ، نشر مكتبة الحياة ، بيروت ، 1959 .

— بول كراوس

— مختصر من كتاب الأخلاق لجالينوس :

محللة كمية الآداب ، جامعة فؤاد الأول ، 1937 .

— مارن المبارك

— الموجز في تاريخ البلاغة :

دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ، (د . ت)

— أحمد المتوكل

— نحو قراءة جديدة لنظرية النظم عند الجرجاني

ضمن لسانيات ومسمائيات ، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية ،

الرباط ، 1976 ، صص 87—96 .

— زكي نجيب محمود

— المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري :

مطبعة دار الشروق ، بيروت ، (د . ت) .

— عبد السلام المسدي

— المقاييس الأسلوبية في النقد الأدبي من خلال « البيد والتبيين »

لتجاحط :

حوليات الجامعة التونسية ، 1976/13

— أحمد مطلوب

— البلاغة عند السكاكي

ط ، 1 ، بغداد ، 1364/1964 .

- مصطلحات بلاغة

ط ١ ، بغداد ، 1972 .

- مباحث بلاغية :

ط 1 ، بيروت ، 1973 .

- عبد القاهر الجرجاني : بلاغته وتقدمه :

ط 1 ، بيروت ، 1973 .

- علي أبو المكارم

- أصول التكبير السحري :

منشورات الجامعة الزيتونية ، 1973 .

- عمر الملاحويش

- تطوّر دراسات إعمار القرآن وأثرها في البلاغة العربية :

بغداد ، 1972 .

- عبد القادر المهيري

- تقديم لكتاب « البلاغة العامة » :

حوليات الجامعة التونسية ، 1971/8 .

- خواطر حول علاقة النحو العربي بالمعنى والنية :

حوليات الجامعة التونسية ، 1973/10 ، ص 21-36

- مساهمة في التعريف بأراء عبد القاهر الجرجاني في نية

والبلاغة :

حوليات الجامعة التونسية ، 1974/11

- نهاد الموسى

- دراسة وتعليق على معجاز القرآن

محلّة معهد المخطوطات العربية ، مايو 1967 .

- إحسان الصبي

— الخطابة العربية في عصرها الذهبي :

مشورات دار المعارف ، القاهرة ، 1964 .

— الخطبة السياسية في عصر بني أمية

مشورات دار الفكر ، دمشق ، (د . ت) .

— فيكتور شلحت اليسوعي

— النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ :

دار ادعارف ، القاهرة ، 1964 .

ب - المراجع الأجنبية :

- H. ADAM.
Essai sur les fondements linguistiques et psychologiques de la
métaphore affective,
Genève, 1939.
- R. BARTHES.
L'ancienne rhétorique, in: communications, 16, 1970.
- RAYMOND BAYER.
Histoire de l'esthétique,
Armand Colin, Paris, 1961.
- R. BLACHÈRE.
Moments tournants dans la littérature arabe,
Studies Islamica II/1966, pp. 5-18
Introduction au Coran,
Paris, 1968.
- MICHEL CHARLES.
Rhétorique de la lecture,
éd. Seuil, Paris, 1977.
- MARCEL COHEN.
Structure du langage poétique,
éd. Flammarion, Paris, 1966.
- MARCEL CRESSOT.
Le style et ses techniques,
7^{ème} éd. P.U.F. Paris, 1971.

- O. DUCROT.
Principes de sémantique linguistique,
Paris, 1972.
- O. DUCROT et T. TODOROV.
Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage,
éd. Seuil, Paris, 1972.
- J. FUCH.
‘Arabiyya’ recherches sur l’histoire de la langue et du style
arabes,
Paris, 1955.
- F. GABRIELLI.
Estetica e poesia araba nell’interpretazione delle poetica aristoteli-
ca avicenna e Avéroé, in *Revista degli Studi orientali*,
N° 12, 1929 pp. 291-331.
- L. GARDET et ANAWATI.
Introduction à la théologie musulmane,
Paris, 1948.
- G. GENETTE.
Figures, I, II, III,
éd. Seuil, Paris, 1966, 1969, 1972.
- G. GRANGER.
Essai d’une philosophie du style,
Armand Colin, Paris, 1968.
- A.J. GEIMAS.
Sémantique structurale,
éd. Larousse, Paris, 1966.
- GROUPE « M. ».
Rhétorique générale,
éd. Larousse, Paris, 1970.
- G.E. VON GRUNEBAUM.
I’ d az, in, *E.I.* pp. 1044-1046.
- PIERRE GUIRAUD.
Essais de stylistique : problèmes et méthodes,
éd. Klincksieck, Paris, 1969.

- R. JAKOBSON.
Essais de linguistique générale,
éd. Minuit, coll. Point, Paris, 1963.
Questions de poétique,
éd. Seuil, Paris, 1973.
- J. LYONS.
Linguistique générale,
Trad. F. Dubois - Charlier et D. Robinson
éd. Larousse, Paris, 1968.
- A. MARTINET.
La Linguistique guide alphabétique,
éd. denoël, Paris, 1969.
- J. MOUNIN.
Clefs pour la linguistique,
éd. Seghers, Paris, 1971.
- NALLINO.
La littérature arabe des origines à l'époque de la dynastie
Umayyade,
Trad. Ch. Pellat, Paris, 1950.
- CHARLES PELLAT.
Le milieu Basrien et la formation de Ga'az,
Paris, 1953.
- ALAIN REY.
La lexicologie,
éd. Klincksieck, Paris, 1970.
- PAUL RICŒUR.
La métaphore vive,
éd. Seuil, Paris, 1975.
- M. RIFFATERRE.
Essais de stylistique structurale,
éd. Flammarion, Paris, 1971.
- T. A. SEBEOK.
Exploration in semantic theory,
in: Current trends in linguistics, 3^{ème} éd. La Haye, 1966.

- SKARZYŃSKA - BOCHENSKA KRYSZYŃA.
 - 1) Les opinions d'al-Gahiz sur l'écrivain.
 - 2) Les ornements du style selon la conception d'al-Gahiz in,
Rocznik Oriens, N° 32, 36, 1973.

- T. TODOROV
 - Littérature et signification,
éd. Larousse, Paris, 1967.
 - Théories du symbole,
éd. Seuil, Paris, 1977.
 - Les genres du discours,
éd. Seuil, Paris, 1978

- KIBÉDI VARGA.
 - Rhétorique et littérature, études de structures classiques,
Didier, Paris, 1970.

- R. WELLES et A. WARREN.
 - La théorie littéraire,
Paris, 1971

الفهارس

- فهرس الأعلام .
- *** فهرس لأشعار .
- فهرس الآيات القرآنية .

فهرس الاعلام

(مرتبة ترتيبها أبجديا بدون اعتبار دأبو ، و د ابر ، و ناهضات معصرين
وما ورد منها في الإحالات) .

- أ —
77 ، 79 ، 80 ، 82 ، 84 ، 132 ،
165 ، 187 ، 213 ، 214 ، 313 ،
355 ، 403 ، 581 ، 597 ، 610 ،
615 .
— ابن أبيه : 189 .
— ابن أبي الإصبع : 382 ، 478 ،
611 .
— ابن لائير : 444 ، 445 ، 446 ،
447 ، 448 ، 478 ، 614 ، 615 .
— ابن الأحنف (العباس) : 385 .
— ابن الإنشيد (أحمد بن علي) :
491 .
— الأحفش (أبو الحسن) : 284 .
— أرسطو : 44 ، 57 ، 62 ، 66 .
70 ، 71 ، 72 ، 73 ، 74 ، 75 .
— ابن إسحاق (عبد الرحمن) :
196 .
— الأسمراني (أبو إسحاق) : 422 .
— الأشعري : 37 .
— الأصمعي : 30 ، 90 ، 114 ،
129 ، 133 ، 148 ، 168 ، 256 ،
273 ، 322 ، 373 .
— الأعجم (زباد) : 242 ، 243 ،
437 .
— ابن الأعراسي : 30 ، 114 .
— الأعشى : 26 ، 348 .

— ت —

— تاملات : 66 ، 74 ، 79 ، 80 .

— انتصاراني : 478 .

— انصاري : 74 ، 207 .

— أبو تمام : 354 ، 379 ، 38 ،
388 ، 467 ، 548 ، 549 ، 575 ،
576 ، 587 ، 589 ، 591 ، 592 ،
595 ، 598 .

— امرؤ القيس : 25 ، 26 ، 90 ،
324 ، 326 ، 366 ، 380 ، 388 ،
509 ، 538 ، 542 ، 543 ، 544 ،
545 ، 551 ، 558 ، 559 ، 583 ،
586 .

— ابن قميّة : 93 .

— التوحيدي : 132 ، 344 ، 54 .

— بن أبي ربي : 358 .

— ث —

— لأبصار (عبد الرحمن بن
حسان) : 29 .

— ابن ثابت (حسان) : 26 ، 29 ،
133 .

— بن أوس (أهبان) : 40 .

— ثاسطيرس : 63 .

— أليادي (أبو دؤاد بن حريز) :
278 .

— ثعلب : 373 ، 375 ، 434 ،
479 .

— ب —

— التميمي (أبو يعقوب) : 246 .

— باقلاني : 489 ، 491 ، 492 ،
493 ، 596 ، 612 .

— ج —

— ابن جابر (يزيد) : 180 .

— البحتري : 354 ، 355 ، 467 ،
525 ، 545 ، 546 ، 548 .

— الجاحظ : 12 ، 13 ، 14 ، 15 ،
27 ، 29 ، 35 ، 38 ، 39 ، 42 ،
43 ، 45 ، 55 ، 56 ، 66 ، 68 ،
69 ، 70 ، 77 ، 84 ، 134 ،
137 ، 138 ، 139 ، 141 ، 142 ،
144 ، 147 ، 149 ، 150 ، 152 ،
153 ، 154 ، 155 ، 157 ، 158 ،
159 ، 160 ، 161 ، 163 ، 165 .

— بن برد (بشار) : 125 ، 266 ،
302 ، 378 ، 522 ، 542 ، 543 .

— بن بزموس : 66 .

— بخت 124

— البختي (أبو زيد) : 490 .

— بهتة : 68 .

جائينوس : 72 ، 74	167 ، 168 ، 169 ، 170 ، 172
البناني (أبو هاشم) : 456	173 ، 175 ، 176 ، 177 ، 180
491 ، 492 ، 493 ، 496	181 ، 182 ، 185 ، 186 ، 187
— الجرجاني (عبد القاهر) 43	188 ، 189 ، 190 ، 191 ، 192
77 ، 80 ، 82 ، 120 ، 311	193 ، 194 ، 195 ، 196 ، 197
356 ، 358 ، 359 ، 361 ، 392	198 ، 200 ، 201 ، 202 ، 203
393 ، 395 ، 396 ، 398 ، 399	205 ، 206 ، 209 ، 210 ، 211
401 ، 406 ، 410 ، 411 ، 412	213 ، 215 ، 217 ، 218 ، 219
413 ، 423 ، 430 ، 434 ، 435	220 ، 222 ، 224 ، 226 ، 228
436 ، 447 ، 460 ، 461 ، 463	229 ، 230 ، 232 ، 234 ، 236
464 ، 465 ، 466 ، 467 ، 468	238 ، 239 ، 240 ، 241 ، 242
469 ، 470 ، 471 ، 472 ، 473	243 ، 244 ، 245 ، 246 ، 249
474 ، 477 ، 478 ، 479 ، 483	250 ، 251 ، 254 ، 255 ، 258
484 ، 487 ، 488 ، 489 ، 490	259 ، 260 ، 263 ، 264 ، 266
491 ، 493 ، 494 ، 496 ، 497	269 ، 273 ، 274 ، 275 ، 276
498 ، 499 ، 500 ، 501 ، 503	277 ، 278 ، 279 ، 281 ، 283
504 ، 505 ، 506 ، 507 ، 508	284 ، 285 ، 286 ، 288 ، 290
509 ، 510 ، 511 ، 513 ، 516	294 ، 296 ، 298 ، 299 ، 300
517 ، 519 ، 520 ، 521 ، 522	305 ، 306 ، 307 ، 312 ، 313
523 ، 524 ، 525 ، 526 ، 527	315 ، 316 ، 317 ، 318 ، 320
528 ، 529 ، 534 ، 541 ، 543	321 ، 323 ، 329 ، 337 ، 341
545 ، 546 ، 553 ، 554 ، 555	342 ، 344 ، 356 ، 357 ، 363
557 ، 558 ، 559 ، 560 ، 561	373 ، 375 ، 379 ، 380 ، 386
562 ، 563 ، 564 ، 569 ، 571	388 ، 394 ، 399 ، 435 ، 438
578 ، 579 ، 580 ، 593 ، 598	439 ، 440 ، 443 ، 448 ، 456
599 ، 614 ، 615 ، 619	457 ، 462 ، 463 ، 464 ، 479
— الجرجاني (القاضي) : 479	482 ، 490 ، 528 ، 536 ، 559
576 ، 586 ، 589 ، 591 ، 6	560 ، 561 ، 567 ، 573 ، 574
الجرمي : 342	595 ، 601 ، 603 ، 607 ، 608
	611 ، 612

- خ -

- حرير : 126 .

- ابن حمير (أيوب) : 133 .
 - ابن حمير (قدامة) : 65 ، 71 ، 72 ، 73 ، 77 ، 84 ، 86 ، 235 ، 338 ، 352 ، 368 ، 383 ، 439 ، 443 ، 457 ، 458 ، 459 ، 460 ، 477 ، 479 ، 480 ، 521 ، 534 ، 551 ، 552 ، 553 ، 575 ، 586 .
 - ابن خثيم (الربيع) : 348 .
 - ابن الخطاب (عمر) : 23 ، 57 ، 255 .
 - الخطاببي : 491 ، 494 .
 - الخاجي (ابن سار) : 407 ، 419 ، 436 ، 441 ، 445 ، 446 ، 448 ، 450 ، 451 ، 452 ، 454 ، 456 ، 457 ، 458 ، 459 ، 479 ، 485 ، 486 ، 488 ، 537 ، 538 ، 551 ، 569 ، 585 ، 586 .
 - ابن خلدون : 24 ، 59 ، 567 .
 - الخليل : 31 ، 114 ، 118 ، 122 ، 123 ، 129 ، 133 ، 373 ، 448 .
 - الخنساء : 26 ، 352 .
 - ابن جندل (سلامة) : 552 .
 - ابن جني : 51 ، 52 ، 120 ، 396 ، 397 ، 407 ، 425 ، 512 ، 537 ، 568 .
 - ابن الجهم (محمد) : 107 .

- د -

- ح -

- الدؤلي (أبو الأسود) : 20 ، 283 .
 - ديسيموس : 67 .
 - ديمقراطس : 66 .
 - الحاشي : 85 ، 118 .
 - حباب : 265 .
 - ابن حبيب (يونس) : 98 .
 - الحجاج : 58 .
 - ابن حمير (أوس) : 552 .
 - الحصيثة : 28 ، 265 ، 322 .
 - ابن حنين (إسحاق) : 62 ، 64 .
 - ائراري : 478 .
 - ابن رشد : 63 ، 65 ، 264 .
 - 399 ، 409 ، 497 .

- ابن الربيع (الفصل) : 90 .
- ابن رشيقي : 28 ، 30 ، 85 .
- 118 ، 176 ، 153 ، 368 ، 376 .
- 277 ، 380 ، 407 ، 427 ، 428 .
- 429 ، 431 ، 478 ، 481 ، 533 .
- 540 ، 542 ، 545 ، 553 ، 554 .
- 585 ، 588 ، 589 ، 610 ، .
- الرَّمَّانِي : 408 ، 448 ، 484 ،
- 486 ، 491 ، 537 ، 539 ، 540 ،
- 545 ، 553 ، 573 ، 596 .
- ذو الرمة : 126 ، 139 ، 325 ،
- 380 ، 588 .
- ز -
- ابن الزبير (مصعب) : 246 .
- الزمخشري : 41 ، 312 ، 400 ،
- 401 ، 538 .
- ابن زهير (كعب) : 27 ، 29 .
- ابن زياد (عبيد الله) : 386 .
- بن زيد (الكعب) : 55 ، 388 ،
- 544 .
- س -
- ابن ساعدة (قس) : 188 .
- السبكي (بهاء الدين) : 478 .
- السجستاني (أبو حاتم) : 89 .
- ستجستاني (عبد الله بن أبي
- دود) 490 .
- ابن أسبي سفيان (معدية) : 245 .
- السكاكي : 120 ، 311 ، 402 .
- 406 ، 415 ، 418 ، 419 ، 478 .
- ابن أبي سلمى (زهير) : 27 ،
- 29 ، 255 ، 263 ، 322 .
- ابن سلمة (إبراهيم) : 196 .
- ابن سليمان (غفار) : 37 .
- ابن السدي (إبراهيم) : 228 .
- سيويه : 50 ، 93 ، 99 ، 102 ،
- 104 ، 119 ، 120 ، 121 ، 122 ،
- 312 ، 372 .
- السفاح : 55 .
- سقراط : 77 .
- السيرافي : 77 .
- ابن سينا : 63 ، 64 ، 80 ، 81 ،
- 82 ، 410 ، 560 ، 597 .
- ش -
- ابن شداد (عشرة) : 558 ، 559 .
- الشريف الرضي : 452 ، 587 .
- الشريف المرتضي : 41 ، 576 .
- أبو عمرو الشيباني 439
- شبيب بن شبة : 224 .
- الشيرازي (أبو إسحاق) 89
- ص
- ابن صفوان (حاتم) : 114 .
- الصولي : 344 ، 586 ، 587 .

لعجاج : 282 ، 353 ، 579 .

العسكري . 44 ، 48 ، 114 ،
356 ، 408 ، 431 ، 436 ، 437 ،
441 ، 456 ، 478 ، 479 ، 485 ،
486 ، 537 ، 542 ، 544 ، 551 .

ابن عطاء (واصل) : 190 ، 225 .
240 ، 243

— عاقمة الفحل : 25 ، 26 .
— ابن أعلا (أبو عمرو) : 30 ، 98 ،
126 .

— ابن عمر (عيسى) : 139 .
— ابن عمير (عبد الملك) : 246 .
— ابن أبي عون : 362 .

— غ —

— الغوي (طنيل) : 585 .

— ف —

— الفارابي : 62 ، 64 ، 403 ،
404 ، 405 ، 421 ، 597 .

— الفارسي (أبو علي) : 120 .
— أبو فراس : 546 .

الفرقاء : 41 ، 90 ، 93 ، 99 ،
120 ، 124 ، 128 ، 312 ، 341 ،
373 .

— الفرزدق : 125 ، 126 ، 323 ،
356 ، 517 ، 569 .
— الفروطي : 37 .

ط

— أبي طالب (عني) : 114 .

— طه طه : 480 ، 551 ، 575 .

— ابن الطيب (عبدة) : 255 .

— طرماح : 282 .

— أبو الطيب معان : 298 .

— لطوسي (الحسن بن علي) : 490 .

— ابن العلي (أحمد) : 62 .

— خ —

— بن عباس (محمد بن علي) : 228 .

— ابن عبيد (عمرو) : 114 ، 189 .

— ابن العباس (إبراهيم) : 525 .

— ابن عباس (عبد الله) : 34 ، 39 ،
40 ، 97 .

— ابن العبد (طرفة) : 29 ، 348 .

— ابن عبد الله (إبراهيم) : 62 .

— أبو عبيدة : 31 ، 40 ، 41 ،
89 ، 90 ، 91 ، 92 ، 93 ، 95 .

96 ، 97 ، 98 ، 119 ، 124 ،
125 ، 126 ، 133 ، 312 ، 329 ،
330 ، 341 ، 375 .

— العتابي : 114 ، 168 ، 302 .

— أبو اعتابة : 324 .

— عسوي (سليمان بن يزيد) : 240 .

— ابن عدي (هيثم) : 246 .

— ابن عدي (يحيى) : 63 .

ق

المبرد : 315 ، 342 ، 344 .
 345 ، 347 ، 349 ، 352 ، 353 .
 355 ، 356 ، 359 ، 360 ، 361 .
 365 ، 366 ، 371 ، 375 ، 345 .
 597 .

القتبي : 445 ، 450 ، 451 .
 524 ، 584 ، 592 ، 95 .

ابن محمد (إبراهيم) : 196 .
 ابن المنذر (إبراهيم) : 70 ، 71 .
 315 ، 344 .

ابن مروان (عبد الله) : 234 .
 245 .

ابن المستير (فطرب) : 55 ، 61 .

ابن مسعود (عبد الله) : 210 .
 مسكويه : 541 .

ابن مسلم (قتيبة) : 189 .

ابن المعتبر : 13 ، 65 ، 129 .

262 ، 315 ، 336 ، 340 ، 372 .

373 ، 376 ، 377 ، 379 ، 380 .

382 ، 383 ، 384 ، 385 ، 387 .

388 ، 389 ، 478 ، 528 ، 529 .

533 ، 543 ، 545 ، 575 ، 597 .

598 ، 611 .

ابن المعتز (بشر) : 57 ، 191 .
 197 ، 220 ، 223 .

المعري : 451 .

ابن مقفع (بريد) : 386 .

نقضي (عبد الجبار) : 330 .

414 ، 424 ، 491 ، 493 ، 495 .

502 .

قنية : 29 ، 40 ، 43 ، 85 .

94 ، 217 ، 315 ، 318 ، 320 .

321 ، 322 ، 323 ، 324 ، 326 .

328 ، 329 ، 330 ، 331 ، 333 .

334 ، 335 ، 337 ، 341 ، 342 .

352 ، 361 ، 373 ، 375 ، 377 .

397 ، 478 ، 597 ، 616 .

أفروزي (الخطيب) : 478 .

ابن قيس (الأحنف) : 246 .

ك

الكاتب (عبد الحميد) : 55 ، 58 .

59 .

الكسائي : 55 .

كشاجم : 560 ، 561 .

كندي : 63 ، 64 ، 65 ، 114 .

358 .

ل

ليد : 588 .

م

المارني : 342 .

م مالك (بلر الدين) : 478 .

- ابن النقيع : 55 ، 114 ، 115 ،
131 ، 176 ، 223 ، 373 ، 604 .
- ابن الحافز (محمد) : 270 .
- المنصور (أبو جعفر) : 55 ، 58 .
- ابن مفضل (أسامة) : 356 ، 478 ،
611 .
- بنودن (البلبكي) : 58 .
- ن —
- نبعة (لدياني) : 26 ، 85 ،
323 ، 369 ، 372 ، 538 .
- النحوي (يوحنا) : 74 .
- النحوي (علقمة) : 283 .
- ابن السديم : 62 ، 63 ، 64 .
- انطام : 37 ، 38 ، 133 ، 275 .
- المري (مصور) : 302 .
- أبو نوس : 378 ، 546 ، 547 .
- النويري : 133 .
- ه
- ابن هارون (سهل) : 227 .
- 236 ، 248 .
- ابن هرمة : 302 .
- ابن الهيثم : 65 .
- و —
- الوأواء : 552 .
- الواسطي : 491 .
- ابن الوليد (مسلم) : 302 ، 378 .
- ابن الوليد (يريد) : 189 .
- ابن وهب : 72 ، 77 ، 79 ،
86 ، 427 ، 428 ، 463 ، 477 ،
482 ، 484 .
- ي —
- ابن يحيى (جعفر) : 114 ، 167 .
- ابن يونس (متى) : 63 ، 64 .
- ابن يوسف (الحجاج) : 189 .

فهرس الاشعار

(مرثية على حرف الزوي والحشو بدون اعتبار الحركات)

صفحة	البحر	ليبت (المطلع والتمامة)
278	الكامل	يرمون الرقباء
587	الكامل	لا تسقي بكائي
255	الوافر	وهن لحن جلاء
400	الكامل	ولقد لحقت الألباب
25	الطويل	فليسوط مهدب
385	البسيط	ولي جهون السرب
569, 517, 356	الطويل	وما مشه بقا به
29	البسيط	لله نعم ابحاسيا
337, 232, 42	الوافر	يد سقط عصابا
176	الوافر	لقد وري عاب
353	الطويل	صحت لهم ثاقبه
552	الطويل	وسم الكواكب
542, 522	الطويل	كدر مثر كواكب
388	الطويل	وحس تك

الصفحة	البحر	بيت (فصلع والتأقية)
106	التوويل	عصيب
25	الطويل	عُدو كهن
584	البسيط	مسرد
558	المقارب	يتسع
366	البسيط	بيضاء في
388	الكامل	دهت
525	المقارب	تنتش في
446	الكامل	ب نكريم
579	الرجز	ودحم
409 ، 525	الطويل	ودقصيف
547	الطويل	ص باب
553	البسيط	وأسدت
551	المقارب	ومشردة
451	الطويل	ألا طرقت
451	الطويل	وانت
348	الطويل	سأطرب
462	الكامل	عز عبي
354	الطويل	وسو
991	الكامل	طلن لجميع
524	الطويل	وقيب
348	المقارب	وتسرد
348	رمل	يعمر د
291 ، 464	الرجز	وغير حرب

البيت (المطلع والقافية)	البحر	صفحة
أقامت به	الفجر	126 ، 588 .
فقد	ما تنري	255 .
نقصي	كسر	353
هو، دُتبا	نصير	513 ، 525 .
فتب	الصغار	579
قروا	مشافره	338 .
كان لعطاميط	عصارا	544 .
تراه	وفر	339 .
بن لوراني	حمار	366 .
وإن صخرأ	نار	353 .
واللوم قد	حسوار	126 .
ورسل	الخنادس	366 .
وكم من	كنيع	445 .
انصرلي	انديع	546 .
ولاني	أحدعي	467 .
فيئت	واسع	534 .
ولو شئت	أوسع	398 .
رس	تضع	587 .
ولسا	مسلعا	591 .
ثلاث	صقيع	128 .
ويوم	للصياغ	386 .
ولا لصعف	الف	490 .
وعص	مجلف	722 .

ليت (المطلع والثقافية)	البحر	الصفحة
تقبور	الطويل	349
يدهر	المسرح	467
سأمعها	الطويل	338
أشرون	الطويل	543
فأفرو	الطويل	552
كانم	المسرح	547
كان	الطويل	326 ، 528
		542
دع شوقه	الطويل	549
لا قوم	الكامل	126
لا تحبس	الرجز	439
موضعت	الكامل	585
وتعضو	الطويل	543
وشعر	الطويل	272
كان	الطويل	366
والشمس	الرجز	557
إداف	الطويل	133
يشوب	الكامل	125
تحس	المقارب	28
ومدر	الطويل	552
عرة	الطويل	324
له أبطا	الطويل	544 ، 553
تحيه	البسيط	313

البيت (المطلع والقافية)	البحر	الصفحة
تحمّنت	الضويل	589
سأ	الطويل	325
فتت	الطويل	586
وقد أعدسى	الطويل	583
لمرء	البيسط	295
أيقنلسي	الطويل	545 . 90
فمن بقو في	الطويل	27
بيوم	الطويل	548
أكنسى	المسرح	370
لذ الجففات	الطويل	26
فأبقى	الطويل	124
صمة العلول	الكامل	109
إذ قطعن	المسرح	353
خفض	الحميف	178
وغداة	الكامل	588
أكلت	المستارب	401
وخال	الطويل	544
والصمت	مجزوء الكامل	177
جمعت	الطويل	998
لو كنت	البيسط	450
وقد علما	البيسط	510
فمر ال	الطويل	324

فهرس الآيات القرآنية

(مرقة حسب ورودها في النص)

آية	رقمها	السورة	صفحة
... وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ فَكَلَّمَهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ	82	النمل	40 .
- يَخْرِجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَاتٍ	69	النحل	231 ، 42 .
- ضَلَعْتُ كَنَّهُ رُؤُوسِ الشَّيَاطِينِ .	65	الصافات	545 ، 368 ، 90 .
... أَمْ مِّنْ أُمَّةٍ أَدْبَرْنَا عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَمَزَ فَانْهَارَ بِهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ	109	التوبة	93 .
- يَا تُرْسَاهُ قُرْآنَا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ	2	يوسف	95 .
وَبِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا .	83	البقرة	98 .

الآية	رقمها	السورة	صفحة
وَصَلَتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ	4	الشُّعْرَاءُ	98 .
سُ مَكْرُ بَلِيلٍ وَالشَّهَارِ .	33	سَاءُ	102 .
وَمِنْ مَدِينٍ مَدِينٍ كَهَرُوا كَمَثَلٍ يَتَّقُونَ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَبِدَاءَ	171	البقرة	102 ، 105 .
- وَسَأَلَ نَقَرِيَّةً الَّتِي كُافِيَهَا وَلَعِيرًا نَتْنِي أَتَقَبَّلَنَا عِندَهَا .	82	يوسف	103 ، 339 .
- ثُمَّ فِي سِنِينَ ذُرْعَتِهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَأَسْلُكُوهُ .	32	الحاقة	107 .
- فَمَا رَیَحَتْ تِجَارَتُهُمْ .	16	البقرة	107 .
- فَهَذَا عَرَمٌ الْأَمْرُ .	21	محمد	107 .
- لَوْلَوْ مَكْنُونٌ .	49	الصافات	128 .
- بَيْتٌ مَكْنُونٌ	24	الطور	128 ، 353 .
- وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بَيِّنَاتٍ قَوْمِهِ لِيُنْذِرَ لَهُمْ .	4	إبراهيم	195 .
- عُرْفٌ مِنْ مَوَاقِفِهَا عُرْفٌ مَبْنِيَةٌ	20	الرَّحْمَنُ	270 .
- وَجِصَاءٍ كَالْجَوَابِي وَقَدُورٍ رَسِيَّتٍ	13	سبأ	270 .
- لَا يَصُدُّهُنَّ عَنْهَا وَلَا يُخْرِفُونَ	19	الواقعة	294 .
- لَا مَنصُوعَةٌ وَلَا مَنصُوعَةٌ .	33	الواقعة	294 .

الآية	رقمها	السورة	صفحة
وَلَوْ شَاءَ تَحْمِلُهُمْ عَلَى الْهَيْدَى وَلَوْ شَاءَ لَأَرْسَلْنَا كَيْفَ تَسْعَفُهُمْ يَسْمُنَاتُهُمْ وَعَرَفْتُهُمْ فِي كَنْحِ الْقُبُورِ وَلِلَّهِ يَعْزُبُ أَعْيُنُكُمْ .	35	الأنعام	398 .
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْلُدُوا بِأَيِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .	29	محمد	400 .
بَلَى نَقْدِفُ يَا لِحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ قَبْدَةٌ مَعَهُ فَرْدًا هُوَ زَاهِقٌ وَأَشْتَعَلَ أَرَأَيْتُمْ شَيْبًا .	1	الحجرات	401 .
فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَأَتَّبَعُوا الْوَسْوَ الْإِذَى أَتُزَنُ مَعَهُ ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .	38	الأنبياء	408 .
فَسَيَكْفِيكَهُ اللَّهُ بِشَهَادَتِهِمْ فِي الْأَرْضِ .	4	مريم	408 ، 415 ، 468 .
بَلَى لَكُمْ حُرَّتٌ لَكُمْ وَلَكِنَّ ثَوْعَ عَذْرَوٰهُنَّ سِرًّا يُظْهِرُ عَلَيْهِنَّ وَلِئْدَانٌ مُحْتَدُونَ يَا كُتَّابُ وَأَبَارِيزُ وَكُتَّابٌ مِنْ مَعِينٍ .	157	الأعراف	445 .
	137	البقرة	446 .
	55	الشورى	446 .
	235	البقرة	338 .
	18	الواقعة	339 .

آية	رقمها	السورة	صفحة
وَمَنْ كَفَرَ بِهِمْ مُنْذِرُ الْفِتْنَةِ يَحْيِيهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ يَكْفِيهِمْ وَسَوْفَ لَأَعْلِيَنَّ اللَّهُ عَنِّيكُمْ وَرَحْمَتَهُ وَإِنَّ اللَّهَ زَوُّوْهُ رَحِيمٌ - وَأَنَّ الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ .	22	الواقعة	339 .
وَالَّذِينَ عَمِلُوا عَمَلًا تَرْجِفُ رَاجِعَةً - تَاللَّهِ لَفَتْنُوْهُ تَكْرُرُ يَوْمًا	20	النور	339 .
حتى تورث بالخجاب - وَتَهُ لِحُجُورِ الْمُشَيَّاتِ فِي الْبَحْرِ كَأَلْعَلَامِ .	106	آل عمران	340
وَالَّذِينَ عَمِلُوا عَمَلًا تَرْجِفُ رَاجِعَةً - تَاللَّهِ لَفَتْنُوْهُ تَكْرُرُ يَوْمًا	1 - 6	التازعات	340 .
حتى تورث بالخجاب - وَتَهُ لِحُجُورِ الْمُشَيَّاتِ فِي الْبَحْرِ كَأَلْعَلَامِ .	85	يوسف	340 .
وَالَّذِينَ عَمِلُوا عَمَلًا تَرْجِفُ رَاجِعَةً - تَاللَّهِ لَفَتْنُوْهُ تَكْرُرُ يَوْمًا	35	ص	340 .
وَالَّذِينَ عَمِلُوا عَمَلًا تَرْجِفُ رَاجِعَةً - تَاللَّهِ لَفَتْنُوْهُ تَكْرُرُ يَوْمًا	24	الرحمان	353 ، 338
وَالَّذِينَ عَمِلُوا عَمَلًا تَرْجِفُ رَاجِعَةً - تَاللَّهِ لَفَتْنُوْهُ تَكْرُرُ يَوْمًا	62	الجمعة	366 .
وَالَّذِينَ عَمِلُوا عَمَلًا تَرْجِفُ رَاجِعَةً - تَاللَّهِ لَفَتْنُوْهُ تَكْرُرُ يَوْمًا	20	فصلت	370 .
وَالَّذِينَ عَمِلُوا عَمَلًا تَرْجِفُ رَاجِعَةً - تَاللَّهِ لَفَتْنُوْهُ تَكْرُرُ يَوْمًا	43	النساء	370 .
وَالَّذِينَ عَمِلُوا عَمَلًا تَرْجِفُ رَاجِعَةً - تَاللَّهِ لَفَتْنُوْهُ تَكْرُرُ يَوْمًا	42	القلم	383 .
وَالَّذِينَ عَمِلُوا عَمَلًا تَرْجِفُ رَاجِعَةً - تَاللَّهِ لَفَتْنُوْهُ تَكْرُرُ يَوْمًا	187	البقرة	384 .

الآية	رقمها	المسودة	الصفحة
تَدْبِيسُ الشُّعْرُوا الصَّلَاةَ بِإِهْدَى فَمَا رِيحَتْ قِجَارُكُهُمْ وَحَرَّ سَيْتُهُ سَيْتُهُ مِثْلُهَا .	16	الفرة	586
مَنْ يَهْدَا نَكِشَابَ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا - فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرَهُمَا	40	الشورى	587
	39	الكهف	614
	23	الإسراء	614

المحتوى

134 - 19	I. البلاغة قبل الجاحظ
87 - 19	1 - عوامل النشأة
33 - 23	أ - الشعر
46 - 33	ب - القرآن
53 - 46	ج - تقييد اللغة
60 - 54	د - الحاجة إلى التعلم والتعليم
87 - 60	هـ - المؤثرات الأجنبية
134 - 89	2 - المسادة البلاغية
	تمهيد فيه حديث عن صفة «مجار القرآن» لابي عمدة
99 - 89	بإسباحة البلاغة
108 - 99	أ - الثنائى والمبادئ العامة
117 - 108	ب - المفهوم والمصطلح والمحد
122 - 117	ج - المسائل البلاغية المتعلقة بالتراكيب والمعاني
129 - 122	د - الوجوه المتعلقة بدلالة الألفاظ
134 - 131	خاتمة

307 - 137 « الحدث » الجاحظي	II
155 - 137	1 - خصائص المادة البلاغية في مؤلفاته	
145 - 137	- مدخل إلى أثر خصائص منهجه في التأليف	
155 - 145	- المادة البلاغية في مؤلفاته	
149 - 146	أ - مجموعة « الرسائل » و « البغايا »	
152 - 130	ب - كتاب « الحيوان »	
155 - 153	ج - « البيان والتبيين »	
174 - 157	2 - مفهوم البيان عند الجاحظ	
162 - 138	أ - أنواع الدلالات على المعاني	
174 - 162	ب - من العلامة مطلقاً إلى العلامة القوية	
200 - 175	3 - البيان باللفظة	
182 - 175	- فضل الكلام على الصمت	
200 - 182	- عناصر الفعل اللغوي ووظائفه	
249 - 201	4 - التكليم	
218 - 202	أ - مقتضيات الوظيفة	
232 - 218	ب - مقتضيات الإبانة	
249 - 233	ج - مقتضيات المقام	
296 - 251	5 - الكلام	
263 - 253	أ - حد البلاغة	
296 - 263	ب - خصائص الكلام البليغ	
307 - 297	خاتمة القسم الثاني	

III. البلاغة بعد الجاحظ إلى القرن السادس

تسوية 311 - 313

1 - البداية الخسنة لفترة ما بعد الجاحظ 375 - 389

- ابن قتيبة 318 - 341

- المبرد 342 - 371

- ابن الفمثر 372 - 389

2 - أهم قضايا التفكير البلاغي إلى القرن السادس

1 - المفاهيم 394 - 475

ب - المنهج 477 - 529

ج - الأجراء 531 - 594

خاتمة القسم الثالث 595 - 601

الخاتمة العامة 603 - 620

المصادر والمراجع 621 - 644

الفهرست 645 - 663

المحتوى 667 - 669

طبع بالمطبعة الرسمية للجمهورية التونسية

1981